

التاريخ القويم

لمكة وبيت الله الكريم

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الرابع

طبع على نفقة

معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش







الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة

نذكر هنا نوعين مما يكتب على حزام الكعبة المشرفة بخيوط من الذهب الخالص: فالنوع الأول ما كان يكتب قبل نصف قرن تقريباً، والنوع الثاني مما كتب في عصرنا أي في سنة (١٣٨٧) فالكتابة على حزام الكعبة المشرفة من النوع الأول قال عنه الغازي في تاريخه عند الكلام على كسوة الكعبة والكتابة التي على حزامها ما نصه:

ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب (مكتوب فيه من الجهة الشرقية التي فيها باب الكعبة) بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾، ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

(ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود) بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ۞ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾.

(ومكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكي) ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾.

(ومكتوب في الجهة الرابعة وهي التي بها الميزاب) في أيام دولة مولانا السلطان الأعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازي ابن السلطان عبدالحميد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان بن السلطان مراد خان بن السلطان عثمان خان خلد الله ملكه. انتهى من تاريخ الغازي.

والنوع الثاني، مما كتب (على الحزام) في عصرنا أي في سنة ١٣٨٧هـ وهو ما يأتي:

من الجهة الشرقية التي فيها الباب: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾، ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

وتحت هذا مكتوب في سطر واحد في وسط الثوب: تم صنع هذه الكسوة بالجمهورية العربية المتحدة في عهد الرئيس جمال عبدالناصر وأهديت إلى الكعبة المشرفة في عهد خادم الحرمين الشريفين سعود بن عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة ١٣٧٧هـ.

ومكتوب من الجهة الشمالية فيما بين الركنين: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ۞ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ۞ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾.

ومكتوب على الحزام من الجهة الغربية:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم﴾.

ومكتوب عليه من الجهة الشمالية من جهة حجر إسماعيل:

﴿وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾. يا حنان يا منان يا ديان يا سبحان. بسم الله

الرحمن الرحيم ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ .

واعلم بأنه قد جرت العادة ذكر اسم ملك مصر الذي أهديت الكسوة إلى الكعبة المشرفة في عهده على ستارة الكعبة المشرفة في الجهة الشرقية أي فوق بابها ، وفي عصرنا الحاضر حيث تصنع كسوة الكعبة المشرفة بمكة المكرمة يكتب اسم ملك المملكة العربية السعودية على الكسوة .

انظر: صورة رقم ١٠١ ، جزء من حزام الكعبة المشرفة وتظهر فيه بعض الآيات القرآنية.

هذا وقد صنعت كسوة الكعبة المشرفة بمكة المكرمة لأول مرة في سنة ١٣٤٦ هجرية واستمر صنعها بمكة بضع سنوات فلما تحسنت العلاقات بين المملكة العربية السعودية والحكومة المصرية أقفل المصنع بمكة لتعهد الحكومة المصرية بإرسال الكسوة كالعادة المتبعة ثم حصل سوء التفاهم بين الحكومتين أيضاً فانقطع إرسال الكسوة من قبل الحكومة المصرية وفتحت الحكومة السعودية مصنع الكسوة بمكة مرة ثانية في سنة ١٣٨٢هـ . واستمر ذلك إلى عامنا هذا أي سنة ١٣٨٧هـ ، ولقد نجح مصنع الكسوة بمكة بعناية وإخلاص سعادة السيد أحمد مجاهد وكيل وزارة الحج والأوقاف . فلقد أبدى جهوداً جبّارة وعناية فائقة في النهضة بهذا المصنع الفريد ، زاده الله تعالى توفيقاً ونجاحاً آمين .

أصلح الله تعالى أحوال المسلمين ونصرهم على أعداء الدين آمين . وقد جاء في تاريخ الحجاز للشيخ حسين محمد نصيف رحمه الله تعالى أن المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود لما أخذ الحجاز ودخل مكة في عام (١٣٤٣هـ) أمر بصنع كسوة الكعبة المشرفة في أجياد وصنعت بها وأرسلت إلى مكة فكسيت بها الكعبة وذلك لوجود الحصار والحرب بينه وبين الشريف الحسين ملك الحجاز الأسبق رحمهما الله تعالى ، وعدم تمكن الحكومة المصرية من إرسال الكسوة تلك السنة .

كتابة أسماء الملوك في كسوة الكعبة

تقدم الكلام على أن أول من كسا الكعبة المشرفة أسعد الحميري وهو تبّع ، كساها الأنطاع والوصائل من ثياب حبرة من عصب اليمن ، ثم تبعه الناس في كسوتها في الجاهلية والإسلام ، فكانت تكسى بمختلف الأكسية كالحصير والليف والملاءة والوصائل والأنطاع والحبرات والقباطي والخز والديباج .

ومن المعلوم أن صناعة كسوتها كانت في رقي وتقدم حسب تدرج الناس في المدنية والحضارة إلى أن وصلت في عصرنا الحاضر بهذا الشكل الجميل . و لم تكن في الكسوة نقوش ولا كتابة مطلقاً في العصور الأولى لعدم تقدم الصناعات وقلة معرفة الناس للكتابة ، حتى أواخر القرن الثاني للهجرة ، فإنه بعد هذا العصر بدأ الناس يكتبون على كسوة الكعبة المشرفة أسماء الآمرين بكسوتها . ولنذكر بعض ما ورد عن ذلك في التاريخ :

فقد قال صاحب تاريخ الكعبة المعظمة : جاء في الرحلة الحجازية نقلاً عن الفاكهي في أخبار مكة أنه قال: رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي من الكعبة مكتوباً عليها " مما أمر به السري بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجرومي بأمر الفضل بن سهل ذي الرآستين ، وطاهر بن الحسين ، سنة سبع وتسعين ومائة " ... أي من الهجرة .

قال : ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها مكتوباً في أركانها بخط رقيق أسود "مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين" .

قال : ورأيت كسوة من كساوي المهدي مكتوباً عليها "بسم ا لله بركة من ا لله لعبد ا لله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال ا لله بقاءه ، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيد . اثنين وستين ومائة" .

قال : ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها "مما أمر به عبدا لله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه ا لله محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن سلمة عامله . سنة تسع وخمسين ومائة" .

قال : ورأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها : "بسم ا لله بركة من ا لله للخليفة الرشيد عبدا لله هارون أمير المؤمنين أكرمه ا لله ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز تونة . سنة تسعين ومائة" . اهـ .

قال البتنوني صاحب كتاب "الرحلة الحجازية" : ومن أعمال تنيس قرية يقال لها "تونة" كانت تصنع بها كسوة الكعبة أحياناً . اهـ .

ولقد بعث أبو السرايا من الكوفة كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء كسيت بهما الكعبة في أول المحرم سنة مائتين من الهجرة كتب على كل منهما ما يأتي "بسم ا لله الرحمن الرحيم ، وصلى ا لله على سيدنا محمد

ذلك في عصر السلطان محمد رشاد الخامس العثماني . اهـ . والسلطان المذكور توفي بعد سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وثلاثين من الهجرة .

انتهى كل ذلك باختصار من كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" .

هذا ولا يزال تكتب أسماء الملوك على كسوة الكعبة الشريفة إلى زماننا وعصرنا ، ولما استولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز و لم تأت الكسوة من مصر حسب العادة لبعض الأسباب ، أمر جلالته بصنع الكسوة في نفس مكة المكرمة فنسجوها بها وكتبوا اسم جلالته عليها من الجهة الشمالية أي من جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وكتبوا في الجهات الأخرى الآيات القرآنية ، وهذا ما كتب على الكسوة من الجهة الشمالية "هذه الكسوة صنعت في مكة المباركة المعظمة بأمر خادم الحرمين الشريفن جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية أيده الله تعالى بنصره سنة ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية على صاحبها أفضل التحية وأتم التسليم" .

ثم لما حصل الاتفاق بين المملكتين "المصرية والسعودية" في شهر رمضان سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين من الهجرة ورجعت مصر إلى إرسال كسوة الكعبة في كل عام حسب المعتاد ، صار يكتب على الكسوة الشريفة ما يأتي : "أمر بصنع هذه الكسوة الشريفة لكعبة بيت الله الحرام ، صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول ، وأهديت لها في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية" .

انظر: صورة رقم ١٠٢ ، الكعبة المشرفة ويظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام

هذا ما كان من أمر كتابة أسماء السلاطين والملوك على كسوة الكعبة المشرفة ، وفي الحقيقة أن كتابة الأسماء على كسوة الكعبة المعظمة وعدم كتابتها على حد سواء ، غير أن كتابتها تكون أفضل من الناحية التاريخية ، وليعلم أن عمل الكسوة منوط بولي أمر المسلمين فهو المطالب بها . نسأل الله تعالى أن يلبسنا في الدنيا ثوب الغنى والعفة والعلم والتقوى ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ وأن يكسونا في الآخرة من حلل الجنة بفضله ورحمته إنه تعالى كريم عظيم ، واسع الفضل والإحسان . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار ، أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد ﷺ ، بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام" .

وقال صاحب تاريخ الكعبة أيضاً نقلاً عن التقي الفاسي : أنه أدرك كسوة الكعبة المعمولة سنة خمس وعشرين وثمانمائة وقد رأى ما كتب على طرازها " أي على حزامها" من الآيات القرآنية ، وقال: لقد كتب عليها من الجهة الشرقية قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس -إلى- فإن الله غني عن العالمين﴾ وكتب في الجهة الغربية : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد -إلى- إنك أنت التواب الرحيم﴾ وكتب في الجهة اليمانية : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس -إلى- وأن الله بكل شيء عليم﴾ .

وكتب في الجهة الشامية اسم صاحب مصر وأمر بعمل هذه الكسوة وهذا الطراز المذكور في نحو الربع الأعلى من البيت . اهـ.

وقال في تاريخ الكعبة أيضاً: أن ابن جبير ذكر في رحلته التي كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، أنه رأى الكسوة الجديدة التي وضعت على الكعبة المشرفة في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وأنها كانت خضراء يانعة ، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إن أول بيت وضع للناس... الآية﴾ وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض ، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً . اهـ .

وقال في تاريخ الكعبة أيضاً : جاء في كتاب تحصيل المرام أن كسوة الكعبة المشرفة الآن من حرير أسود وبطانتها من قطن أبيض ثم ذكر ما كتب عليها من الآيات القرآنية – قال-: وبين الركن الغربي والشامي مكتوب "بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمل هذه الكسوة الشريفة العبد الفقير السلطان فلان" .

وقال أيضاً: ونقل عن تحصيل المرام أنه قال -: وفي مدة الوهابية لما استولوا على مكة كانوا يكسونها حرير أسود من غير كتابة ، وأميرهم سعود صاحب الشرق نحو سبع سنين . اهـ .

وجاء في كتاب "الرحلة الحجازية" للبتنوني وصف كسوة الكعبة المشرفة وما هو مكتوب فيها ، ثم قال: ومكتوب على حزامها من الجهة التي فيها الباب وكان

الإشهاد الشرعي بتسليم كسوة الكعبة

قال مؤلف كتاب المحمل والحج: جرت العادة أن يكتب إشهاد شرعي بتسليم الكسوة من مأمور تشغيلها إلى المحملي -من في عهدته المحمل والكسوة- ليوصلها إلى البيت الحرام ويذكر في هذا الإشهاد أجزاء الكسوة ومادتها وأوصافها وهو أثر تاريخي، وهي لا تختلف في سنة عنها في أخرى إلا في جودة ما تصنع منه - ثم ساق المؤلف رحمه الله تعالى نص الإشهاد الشرعي بتسليم الكسوة الشريفة نقلاً عن مرآة الحرمين - وصورته كما يلي:

هذا نص إشهاد شرعي حرر في سنة (١٣٢١) إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة بمحكمة مصر الكبرى الشرعية في يوم الثلاثاء ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٢١ الموافق ٢ فبراير سنة ١٩٠٤ إذن فضيلتلو قاضي أفندي مصر حالاً لحضرة الشيخ محمد ناجي أحد أعضاء المحكمة المذكورة بسماع ما يأتي ذكره فيه ولكاتبيه هما الشيخ محمد سعيد ومحمد مصطفى أفندي الكاتب كلاهما بالمحكمة المذكورة بكتابة ما يأتي ذكره فيه، فلدى حضرة العضو المومي إليه بحضور الكاتبين المذكورين بالمجلس المنعقد بمسجد سيدنا ومولانا الإمام أبي عبدالله الحسين رضي الله تعالى عنه الكائن بمصر المحروسة بالقرب من خان الخليلي والجامع الأزهر بقسم الجمالية في الساعة العاشرة صباحاً من اليوم المرقوم أشهد على نفسه الحاج محمد أحمد المحاملي الساكن بالدرب الأصفر بالقسم المذكور ابن المرحوم أحمد مصطفى بن مصطفى شهوده الإشهاد الشرعي وهو بأكمل الأوصاف المعتبرة شرعاً أنه قبض واستلم واستوفى ووصل إليه من حضرة عبدالله فائق بك مأمور تشغيل الكسوة الشريفة حالاً الساكن بشارع المحجر بقسم الخليفة بمصر ابن المرحوم إسماعيل بك الحاضر هو معه بهذا المجلس جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ٨ أحزمة و ٤ رنوك مركبة على حملين من الثمانية أحمال الآتي ذكرها فيه، مزركشة الثمانية أحزمة والأربعة رنوك بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبنلقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر المبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن المركبات الثمانية أحزمة المذكورة على ثمانية أحمال حرير أسود مكتوب ومبطن بالبفت الأبيض والنوار والقطن، اثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منها تسعة أثواب، كل ثوب منها طوله ٢٦ ذراعاً بالذراع البلدي طول كل ذراع منها ٥٧ سم وكسر، واثنان من الثمانية أحمال

المذكورة كل منهما ٨ أثواب من الأثواب المذكورة والأربعة أحمال باقي الثمانية أحمال المذكورة اثنان منها سبعة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة، والاثنان الباقيان كل منهما ستة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة، وستارة لبيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها خمسة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وستة أذررة (كذا) فضة مطلية بالبندقي الأحمر، و١٢ شرابة صغيرة حرير أحمر وقصب وكنتير و١٢ شمسية مزركشة على الحرير الأحمر. وكسوة مقام سيدنا ومولانا إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم المبطنة بالبفت الأبيض المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلسي الحرير الأخضر والأحمر بها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر بها سحق قطن شبكة بقيطان قطن وأزررة شراريب من قطن هندي أحمر وأصفر وبها ترتر أحمر. وكيس مفتاح بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترتر ملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان قصب وكنتير وقيطان قصب. وستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها ترتر. وستارة باب مقصورة سيدنا ومولانا إبراهيم الخليل المشار إليه المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر. بها خمسة أزررة فضة مطلية بالبندقي الأحمر وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر، بها عشرة شراريب صغيرة حرير وقصب المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر.

وستارة باب منبر الحرم الشريف المكي المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر.

وثلاثة مجاديل أي حبال قطن احتياج تعليق الكسوة الشريفة على بيت الله الحرام .

وإحدى وأربعين عصفورة - أي حبل قطن مجدول - احتياج الحلق .

وغلايتين من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد الباش احتياج غسيل بيت الله الحرام . حسب المعتاد قبضاً وتسليماً واستيفاءً ووصولاً شرعيات ، حسب اعتراف المشهد المذكور بذلك يوم تاريخه بهذا المجلس ، بحضور كل من سعادة إبراهيم رفعت باشا أمير الحج الشريف ، وحضرة أحمد زكي بك مدير الأموال المقررة بنظارة المالية المصرية حالاً ، وأمين الصرة في هذا العام ، وحضرة السيد محمود البيلاوي شيخ مسجد ومقام سيدنا ومولانا أبي عبدالله الحسين رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ومحمد عمر أفندي الكاتب وأمين مخزن مصلحة الكسوة .

العارف كل منهم للمشهد المذكور عيناً واسماً ونسباً وأنه الحاضر بهذا المجلس واتصافه بالأوصاف المعتبرة شرعاً . وعلى المشهد المذكور الخروج من عهدة ذلك جميعه وتسليمه من له ولاية ذلك بمكة المشرفة حسب المعتاد في ذلك . صدر ذلك بحضور وشهادة من ذكر أعلاه في يوم الأربعاء وسادس عشر ذي القعدة الموافق ثالث فبراير المرقوم . اهـ . انتهى صورة الإشهاد الشرعي .

ويعطى لمحرر الإشهاد الذي ينتدبه القاضي ثلاث جنيهات ومائتين وثمانين مليماً ، منها ٨٨٠ مليماً نقدية ومائة وأربعين قرشاً ثمن فروه ٢ و ١٠٠ قرش ثمن فرجية جوخ اهـ . انتهى من كتاب المحمل والحج .

حكم التصرف في كسوة الكعبة

اختلف العلماء في بيع الكسوة القديمة للكعبة المشرفة ، فمنهم من أجاز بيعها ومنهم من منع . والقول المعتمد الجواز ، ونستدل عليه بما يأتي :

روى الأزرقي في تاريخه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينزع كسوة البيت في كل سنة فيقسمها على الحاج فيستظلون بها على السمر بمكة ، وروي أيضاً أن شيبة بن عثمان دخل على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقال : يا أم المؤمنين إن الكعبة تجتمع عليها الثياب فتكثر فنعمد إلى بيار فنحفرها ونعمقها فندفن فيها ثياب الكعبة لكي لا تلبسها الحائض والجنب . قالت عائشة:

ما أصبت وبئس ما صنعت لا تعد لذلك فإن ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض أو جنب، ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى والمساكين وابن السبيل. انتهى من تاريخ الأزرقي.

نقول: قول أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: "لا يضرها من لبسها من حائض أو جنب" مشروط بخلوها من الكتابات القرآنية ومن كلمة التوحيد ومن أسماء الله الحسنى. وإذا لم تكن الكسوة من الحرير بالنسبة للرجال.

قال القاضي ابن ظهيرة رحمه الله تعالى في كتابه "الجامع اللطيف" ما نصه: "فروع"، الأول: يجوز بيع ثياب الكعبة عندنا إذا استغنت عنه وقال ابن جماعة من فقهاء الشافعية وغيرهم: ويجوز الشراء من بني شيبة لأن الأمر مفوض إليهم من قبل الإمام نص عليه الطرسوسي من أصحابنا في شرح منظومته ووافقه السبكي من الشافعية ثم قال: وعليه عمل الناس والمنقول عن ابن الصلاح أن الأمر فيها إلى الإمام يصرفها في بعض مصارف بيت المال بيعاً وإعطاء، واستدل بما تقدم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي قواعد صلاح الدين خليل بن كيكلدى أنه لا يتردد في جواز ذلك الآن لأجل وقف الإمام ضيعة معينة على أن يصرف ريعها في كسوة الكعبة والوقف بعد استقرار هذه العادة والعلم بها فينزل لفظ الواقف عليها، واستحسن النووي الجواز أيضاً. قال الجد رحمه الله: هذا في الستور الظاهرة وأما الستور الداخلة فلا تزال بل تبقى على ما هي عليه لأن الكلام إنما هو في الستور التي جرت العادة أن تغير في كل عام فلو قدر جريان العادة بمثل ذلك في الستور الباطنة سلك بها مسلك الظاهرة.

انتهى من الجامع اللطيف.

قال نجم الدين الطرسوسي في منظومته:

وما على الكعبة من لباس إرث جاز بيعه للناس
ولا يجوز أخذه بلا شرا للأغنياء لا ولا للفقراء

وقال القطب في كتابه الإعلام: قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى في كتاب الوقف من فتاواه: ديباج الكعبة إذا صار خلقاً يبيعه السلطان ويستعين به في أمر الكعبة لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره.

وقال القطب في الكتاب المذكور أيضاً : والذي يقتضيه القياس أن العادة استمرت قديماً بأنها تبدل كل سنة وتأخذ بنو شيبة تلك العتيقة فيتصرفون فيها بالبيع وغيره . والذي يظهر لي أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين فأمرها راجع له يعطيها لمن شاء من الشيبيين أو غيرهم ، وإن كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها فهي لمن عينها له ، وإن جهل شرط الواقف فيها عمل فيها بما جرت العوائد السابقة كما هو الحكم في سائر الأوقاف ، وكسوة الكعبة الآن من أوقاف السلاطين و لم يعلم شرط الواقف فيها ، وقد جرت عادة بني شيبة أنهم يأخذون لأنفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة فيبقون على عادتهم فيها وا لله تعالى أعلم . انتهى من الإعلام .

ولنختم هذا الفصل بما ذكره العلامة المحقق الشيخ حسين بن عبدا لله باسلامة مؤلف كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" ففيما ذكره يزول كل إشكال عند بعض العلماء . قال رحمه ا لله تعالى في كتابه المذكور بعد أن ساق العبارة التي نقلناها هنا من الإعلام ما نصه :

"هذا حاصل ما وقفت عليه من أمر جواز تصرف آل الشيبي في كسوة الكعبة المعظمة من بيع وإهداء وغير ذلك وأما ما كان يأخذه أمراء مكة من كسوة الكعبة فالذي أعلمه في العصر الحاضر أن أمراء مكة يأخذون ستارة باب الكعبة والحزام وثوب مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وآل الشيبي يأخذون كسوة الكعبة وستارة باب التوبة الذي هو باب الدرجة في داخل الكعبة المصعدة إلى سطحها وستارة باب مقام الخليل ﷺ وذلك كان في إمارة الشريف عون الرفيق والشريف علي بن عبدا لله والشريف الحسين بن علي في إمارته واستقلاله ، وربما كان الأمر كذلك في إمارة من تقدم قبل إمارة من أدركتهم من الأمراء مثل الشريف عبدالمطلب والشريف الحسين بن محمد ابن عون والشريف يحيى بن سرور . والشريف غالب وغيرهم من أمراء مكة إلى الذي ذكره التقي الفاسي فيما تقدم في هذا الباب ، ثم لما استولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية حفظه ا لله على الحجاز أنعم على آل الشيبي بجميع كسوة الكعبة من ستارة وحزام وغير ذلك سواء حال مجيء الكسوة من مصر أو الكسوة التي أمر جلالته بعملها في المعمل الذي أنشأه في أجياد كما تقدم تفصيله .

فبعمله هذا أزال كل إشكال عند بعض الفقهاء القائلين بأن أمر بيع كسوة الكعبة وتصرف آل الشيبي راجع إلى شرط الواقف أو أمر السلطان . وعليه صارت الكسوة حق من حقوق آل الشيبي يتصرفون فيها كيف شاؤوا وذلك وفقاً لإرادة جلالة الملك المعظم ورأي معظم الفقهاء القائلين بجواز البيع .

وأما تقسيم الكسوة بين آل الشيبي فكلهم فيها سواء الشيخ والشاب والطفل والذكر والأنثى تقسم بينهم بالسوية ما عدا رئيسهم صاحب المفتاح فله سهمان وذلك باتفاقهم جميعاً وهذه قاعدتهم من قديم الزمان إلى العصر الحاضر على ما علمت والله تعالى أعلم . انتهى من تاريخ الكعبة المعظمة .

وهنا نبين تواريخ بعض من ذكرهم من الأشراف ، فالشريف عون الرفيق توفي سنة (١٣٢٣) بالطائف ، فتولى بعده الشريف علي بن عبدالله ثم عزل في آخر رمضان سنة (١٣٢٦) فتولى بعده الشريف الحسين بن علي من قبل الخليفة السلطان رشاد خان الخامس في السنة المذكورة فمكث في الإمارة إلى سنة (١٣٣٤) وفيها قام بثورته المعروفة على الأتراك الموجودين بالحجاز فانتصر عليهم واستقل بالبلاد إلى سنة (١٣٤٣) ففيها استولى على الحجاز جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمهم الله جميعاً ونكتفي بتواريخ هؤلاء حتى لا نخرج عن المقصود فيطول بنا الكلام .

هذا ونقول: لو مشينا بقول القائل : "لا يجوز قطع شيء من كسوة الكعبة ولا بيعه ولا شراؤه ومن حمل شيئاً من ذلك فعليه رده ولا عبرة بما يتوهمه البعض من أنهم يشترون ذلك من بني شيبة فإنهم لا يملكونه" ... نقول : لو مشينا على هذا القول فأين يضع الشيبيون هذه الكساوى المتعددة المتجددة كل عام ، ولا يمكن لهم أن يستهلكوا كسوة واحدة في عام واحد بالاستعمال فهي ليست قليلة بل تبلغ القناطير وعلى أي وجه يكون استعمالهم لها وكلها مكتوب فيها كلمة التوحيد والآيات القرآنية . فالحاصل أن جواز بيع الكسوة حكم معتمد وعليه العمل من قديم الزمن .

ثم إن الحكومة السعودية منعت بيع كسوة الكعبة المشرفة وعوضت آل الشيبي عنها بمبلغ من المال سنوياً . وذلك من سنة ١٣٧٨ ألف وثلاثمائة وثمان وسبعين هجرية .

صورة وقفية السلطان خان على كسوة الكعبة

هذه صورة الوقفية التي وقفها السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله جميعاً التي وقفها على كسوة الكعبة المعظمة وذلك سنة ٩٤٧ هجرية فقد وقف عشرة من القرى بمصر لينفق ريعها على الكسوة الشريفة في مكة المشرفة وفي المدينة المنورة . وقد نقلنا هذه الصورة من كتاب "المحمل والحج" فقد ذكر فيه ما نصه:

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي رفع القبة الخضراء ، ووضع بساط الغبراء ، وسمك في سمائه الأفلاك ، وملك في أرضه الأملاك ففتح مناهج الملك والدولة الغراء بيمن وقاية السلاطين ، وحسن رعاية الأمراء ، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء " .

﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه﴾ .

واستسعد بحجة يوم الجمراء ، ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد أعلم الرسل الأعلام والأنبياء ، وعلى آله الكرام الأتقياء ، وأصحابه العظام الأصفياء ، نمقه العبد المحتاج إلى عفو ربه الصمد ، محمد بن قطب الدين محمد القاضي بالعساكر المظفرة المنصورة في ولاية أناطولي .

أما بعد فهذه وثيقة أنيقة بديعة المعاني والبيان ، هادية منمقة أنيقة بليغة المباني والتبيان ، تواري عباراتها راحاً رحيقاً ، بل هي أصفى ، وتجاري استعاراتها مسكاً سحيقاً ، بل هي أزكى ، يشعر عما هو الحق القاطع ما حواه فحواها ، ويخبر عما هو الصدق الساطع ، ما أداه مؤداها ، وهو أنه قد بان لكل ذي عقل سديد ، أن الدنيا الدنية قنطرة العابرين ، ورباط المسافرين ، يحل هذا ويرحل ذاك ولا يدري أحد إلا ويمتطي صهوتي أدهم الليل وأشهب النهار ، ويسير مع السائرين إلى منتهى الآجال والأعمار ، وهي للموعظة كما قال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات : "استمعوا وعوا من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت" فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزاداً ، وادخر لمقامه الباقي عدة وعتاداً ، بالصدقات التي ينال بها النجاة ، ويتوسل بها إلى الجنات ، على ما نطق به القرآن ، وحديث رسول الرحمن ، حيث قال عز من قائل: ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ وقال عليه الصلوات التامات: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا

من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له" ألا وهي الوقف .

فلما تفكر في جميع ذلك السلطان الأعظم ، والخاقان الأكمل الأكرم ظل الله في أرضه ، وخليفته على خليقته في رفعه وخفضه ، علوي العلا من آل عثمان عثماني المحيا ، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين العرض ، القائم بالسنة والغرض ، عاشر المجددين لدين الإسلام بأحسن المعاشر ، وعاشر السلاطين العثمانية كالعقد العاشر، السلطان بن السلطان بن السلطان السلطان "سليمان شاه" ابن السلطان "سليم خان" ابن السلطان "بايزيد خان" لا زالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته ونماء ذاته ، وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته ، وبيضاء سناء حسناته ، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه وأنذر ورأى منها في نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيله ، لا يسع شكرها على ذاته الكريمة ، منه منة جميلة ليس في طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة ، واستمرارها بالإدارة الدارة ، متفكراً في قول الملك الخلاق: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ ونظر في قول: "الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" وعالماً بأن تعظيم الكعبة المستورة بالأستار الشريفة العالية وتشريفها في الحج يوجب الجنة ، ويصير الهدف الساتر من العذاب والجنة ، وسائماً في قلبه الفسح من قول الرسول: "من زارني وجبت له شفاعتي" أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار ، بل بتشريف مراقد الأتباع وستر مراشد الأشياع ، أيضاً بالإزار تنزيلاً إياه منزلة الزيارة الدائمة ، والخدمة القائمة ، على مر الدهور والأعصار فإن تلك المواضع وإن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة ، وبالأثمان المتفرقة ، فأحب أن يكون ما يصرف إلى هذه الآثار الشريفة ، من الأموال المتميزة المتبركة المنيفة ، فعين لهذا أجمل أملاكه وأسبابه ، وأجمل أمواله وأكسابه ، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل ، التحرير الكامل ، مصباح رموز الدقائق ، مفتاح كنوز الحقائق ، كشاف المشكلات ، حلال المعضلات ، الموقع أعلى هذا الكتاب ، يسر الله له حسن المآب ، بقوله الشريف ولطفه اللطيف العاري عن الاعتساف ، الحاوي على الإقرار والاعتراف ، الذي يجوز الشرع لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع وحكى بأنه قد وقف أوقافاً وسبلها وحبس أملاكاً وكملها ، على النمط الأكفى الأشمل ، وعلى الطريق المشروع الأكمل ، لتكون لهذه المصلحة أوقافاً قارة وإدارات دارة ، في الدنيا العاجلة ، ومفيدة له في يوم الجزاء والآجلة ، وتكون عدة

معدة لغده عن أمسه رمزية لا تفارقه في رمسه ، وتغيرها جسرة من العذاب وجنة يكون جزاءها مثل الحج المبرور الجنة ، وتكون باعثة للرفاغة وموجبة للشفاعة ، منها جميع القرى الثلاث المسماة بيسوس وأبو الغيث وحوض بقمص الواقعة بالولاية المصرية التي كان حاصل منها في السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة في الولاية الشرقية بالديار المصرية ، أولها : قرية "سلكه كان" حصل منها في تلك السنة (٣٠٤٩٤) درهماً.

ثانيهما : قرية "سيرو بجنجة" حاصلها فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهماً.

ثالثها : قرية "قريش الحجر" حاصل فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهماً.

رابعها : قرية "منايل وكوم رحان" حاصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠) درهماً.

خامسها : قرية "بجام" حاصل ما فيها (١٤٩٣٤) درهماً .

سادسها : قرية "منية النصارى" حاصل ما فيها مبلغ (٦٠٨٥٨) درهماً.

سابعها : قرية "بطاليا" وحاصلها فيها (١٠٤٨٤) درهماً.

يكون جميع النقود المزبورة في تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهماً فضياً محاذياً بنصف القطعة رايجاً في الوقت أيد ا لله تعالى دولته من سكها باسمه السامي ، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامي ، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التعريف والتحديد ، والتبيين والتوصيف لشهرتها في مكانها ، عند أهاليها وجيرانها ، ولكونها مشروحة ومعلومة في الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بحمله ما لها من الحدود والحقوق وما ينسب إليها بالأصالة والحقوق ، والمراسم والمرافق ، والمداخل والطرائق خلا ما يستثنى منها شرعاً من المساجد والمعابد ، والمنابر ، والمراقد ، والمقابر والأملاك والأوقاف ، وسائر ما يعرف مبيناً بينه بالأسامي والأوصاف .

وسلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص ، ونصبه للخدمة بالأمانة والاستقامة في هذا الخصوص وتسلمها هو منه للتصرف فيها بالوجه الصداد على ما هو المراد ، تسليماً وتسلماً صحيحين شرعيين .

ثم عين السلطان الفايق على حذافير السلاطين في الآفاق ، بالاستهلاك والاستحقاق والسابق في مضامير التدابير بمكارم الأخلاق ، ومراسم الإشفاق لا زالت شموس سعادته أبدية الإشراق ، وما برحت نجوم سلطنته محمية عن

الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة على حسب التخمين التي مدارها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة في جميع الأعوام قلت المحصولات أو حلت بتفاوت الشهور والأيام مبلغ (٢٧٦٢١٦) درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى في كل سنة مرة على ما جرت به العادة القديمة في السنين الماضية القديمة طبقاً على هذا التخمين بعد الصرف المذكور في السنة مبلغ (٨٨٩٣٦) درهماً.

وشرط أن يحفظ ذلك الباقي بحفظ المتولى تمام ١٥ عاماً فيكون عدد الجمع في هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشرة مائة ألف درهم وأربعين درهما (٠٥٢، ٣٠٠، ١) فعين من هذا الباقي في المحفوظ المجموع المستور لأستار المواضع التي تجدد في انقضاء كل ١٥ عاماً مرة، وبعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء ١٥ عاماً آخر، ثم تجدد مرة أخرى كذلك فثم إلى أن ينقض الدهر ويتم لكل مرة من تلك المرات، وفي كل كرة من هذه الكرات، بالتخمين المزبور، والتعيين المذكور مبلغ (٧٥٠٣٧٠) درهماً فضياً رايجاً في الوقت وتلك المواضع التي يصرف إليها هذا المقدار في ١٥ عاماً مرة وهي داخل الكعبة الشريفة، والروضة المطهرة المنيفة، أعني بها التربة المنورة لسيد الكونين، ورسول الثقلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، بالمدينة المنورة، والمقصورة المعمورة في الحرم الشريف، والمنبر المنيف فيه ومحرابه محراب التهجد، والأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف ومحراب ابن العباس وقبره وقبر عقيل بن أبي طالب وحضرة الحسن وحضرة عثمان بن عفان وفاطمة بنت أسد رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وما زاد بعد هذا وهو مبلغ (٥٨٢٦٧٠) درهماً لاحتمال أن يقع في بعض السنين النقصان بسبب الشراقي وطوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين، وإن لزم في بعض السنين جبر النقصان، فليجير من هذا الفضل ذاك الزمان، وإن وجد في انقضاء المدة وبعد الصرف شيء مما يزيد ويفضل سواء أكان هذا المقدار، أو أكثر منه أو أقل فليستتر بالموجود المزبور الملك المناسب للوقف من العقار، الواقع في موضع الرغبة والاشتهار، ليكثر محصول الوقف، وتوفير مواضع الصرف، بإلحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقاف واستغلاله معها وصرف غلاته إلى المصارف المبينة بالأوصاف وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير، وهذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة في هذا الوقف أو في الوقف الآخر الذي وقفه السلطان أيضاً على مصالح الفقراء الذاهبين

إلى الحجاز ، وعلى حمالهم وعلى سائر مهماتهم ، وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود ، تكون مرعية بالخلود والأبود ، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده ، وبفضائل عوائده بإتمام ما يهم ويلزم له وبتكميله لدفع مضايقته وضرورته وإسعاده واجتهاده إقراراً واعترافاً صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين ، وقفاً صحيحاً وحباً صريحاً مرعياً ، حاوياً على الحكم بصحته أصلاً وفرعاً على وجه يقتد به ديناً وشرعاً ، وغب رعايته شرائط الحكم والتبجيل . وفي حصول الوقف والتسبيل لدى المولى الفضل النحرير الكامل الموقع أعلا هذا الصك الديني ، والحفظ اليقيني ، وفتح الله تعالى أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه ، وأحكم الأمور بثبوت أحكامه ، فصار وقفاً لازماً مسلسلاً متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى المومى إليه على رأي من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين . عالماً بالاختلاف الجاري بينهم في مسألة الوقف علم خلوده بخلود السماوات ، وأبوده بإبواد الكائنات ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن با لله ورسوله واليوم الآخر ينقضه أو يبطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن ، أو خائفاً من الله المهيمن ، بعدما سمع قول رب العالمين : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين . جرى ذلك وحرر بالأمر العالي الخاقاني ، لا زال عالياً في صف المظفر المنخرط في سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبي بعده . وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفوا عهده . انتهى من صحيفة ٢٨٥ من مرآة الحرمين نقلاً عن مرآة مكة لحضرة أمير اللواء البحري العثماني أيوب صبري باشا ، ثم قال الأستاذ يوسف أحمد صاحب كتاب "المحمل والحج" ما نصه :

أقول : رجوت حضرت صديقي المؤرخ البحاثة صاحب العزة محمد رمزي بك المفتش بالمالية سابقاً أن يبحث عن أسماء البلاد العشر الواردة في هذه الوقفية وهل هي موجودة إلى الآن كلها أو بعضها وهل تغيرت الأسماء ؟ فتفضل عليَّ بهذا البيان الظريف الآتي ، فله مني ومن جميع المسلمين خالص الشكر ووافر الثناء .

العدد	اسم القرية	البيان
١	بيسوس	هي القرية التي تعرف اليوم باسم "باسوس" بمركز

العدد	اسم القرية	البيان
		قليوب مديرية القليوبية.
٢	أبو الغيث	تعرف باسم "أبو الغيط" بالمركز المذكور.
٣	حوض بقمص	هو الحوض الذي يعرف اليوم باسم "حوض بقيس" بأراض ناحية مرصفا بمركز بنها بمديرية القليوبية.
٤	سلكه	هي اليوم إحدى قرى مركز المنصورة بمديرية الدقهلية.
٥	سروبجنجة	صوابه"سرو بجحة" وهي القرية التي تعرف اليوم باسم "السرو" بمركز فارسكور بمديرية الدقهلية.
٦	قريش الحجر	هي القرية التي تعرف اليوم باسم "أويش الحجر" بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية.
٧	منايل وكوم رحان	هي القرية التي تعرف اليوم باسم المنايل بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية.
٨	بجام	هي اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحي مصر.
٩	منية النصارى	هي القرية التي تعرف اليوم باسم منية النصر بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية.
١٠	بطاليا	بالبحث لم أجد بين أسماء البلاد المصرية قديمها وحديثها قرية بهذا الأسم وإنما يوجد اسم قريب منه وهو "طاليا" إحدى قرى مراكز أشمون بمديرية المنوفية كما أنه كان يوجد قديماً قرية اسمها "بتالي" بولاية الغربية و لم أستدل على موقعها . وعلى كل حال فهاتان القريتان هما خلاف قرية "بطاليا" المذكورة في الحجة بأنها من ولاية الشرقية اهـ. انتهي كل ذلك من كتاب "المحمل والحج".

كيفية تركيب كسوة الكعبة عليها

غالب الناس يظنون أن كسوة الكعبة المشرفة يصعدون بها إلى سطحها من الدرج التي هي في باطنها وهذا هو المعقول ، لكن لما كانت الدرج التي في داخلها ضيقة لا تسع إلا لشخص واحد يصعد أو ينزل ، وكانت الكسوة في ذاتها مبطنة

ثقيلة ثخينة طويلة ، فإنه يستحيل والحالة هذه الصعود بها من الدرجة الضيقة التي في باطن الكعبة .

فكيفية تركيبها عليها هي : أنهم يحضرون الكسوة الجديدة التي جاءت من مصر ، فيفرشونها في أرض المسجد الحرام قطعة قطعة ، ثم يخيطون قطع كل جهة من الكعبة وحدها مع خياطة الآيات القرآنية التي على الحزام ، حتى إذا انتهت خياطتها طووا قطع كل جهة وحدها ولفوها لفاً محكماً ، ثم يربطونها بالحبال ويكون رجال على سطح الكعبة يدلون الحبال إلى أرض المطاف ، ثم يربطون قطع الكسوة بهذه الحبال ثم يجرونها إلى أعلا سطح الكعبة ويضعون على إفريز جدرانها أي "طرفها" كل قطعة تناسب جهة من الجهات الأربعة ويرتبوها تمام الترتيب ويحكمون ربطها على مواسير الحديد الثابتة في إفريز جدران الكعبة ، وهذا يكون في اليوم الثامن من ذي الحجة في كل عام .

فإذا كان صباح العاشر من ذي الحجة "أي صبح يوم عيد الأضحى" بعد نزول بعض الحجاج من عرفات إلى مكة للطواف والسعي ، يصعدون إلى سطح الكعبة فيرخون الثوب القديم إلى أرض المطاف ، ثم يسدلون في إثره الثوب الجديد ويأخذون القديم إلى منزل السدنة ، ثم بعد ذلك يخيطون قطع الثوب الجديد وهو على الكعبة شيئاً فشيئاً عدة أيام إلى أن تتم الخياطة . هذه هي كيفية تركيب الكسوة في كل عام ، والكسوة ثمانية قطع ، أي لكل جهة من جهات الكعبة الأربعة قطعتان منها تخاطان ببعضهما ، وكذلك حزام الكعبة فإنه ثمانية قطع أيضاً ، والبقش المربعة الفاصلة بين آيات الحزام المكتوب فيها "يا حنان يا منان" وعددها أربعة وتوضع مع سطر الحزام بين الآيات القرآنية .

وهناك أربع بقش أيضاً مكتوب في كل واحدة منها سورة الصمد بتمامها ، وتوضع في أركان الكعبة الأربعة من تحت حزامها ، وكل هذه القطع تخاط على الكسوة بعد وضعها على الكعبة المشرفة ، بواسطة مقعد من الخشب معمول على هيئة الكرسي يربط بالحبال ثم يدلى من سطح الكعبة إلى موضع الخياطة بعد أن يجلس فوقه الخياط المناط به هذا الأمر .

انظر: صورة رقم ١٠٣ ، وضع الكسوة الجديدة فوق الكعبة وخياطتها

نسأل الله تعالى أن يكسونا من حلل الجنة ويزيننا بلباس التقوى بفضله ورحمته وكرمه وإحسانه ، إنه تعالى عظيم الفضل والإحسان .

انظر: صورة رقم ١٠٤، المسجد الحرام ويرى بعض الناس فوق سطح الكعبة المعظمة إستعداداً لتلبيسها كسوتها الجديدة

برقع الكعبة المعظمة أي ستارة بابها

لم نعلم بالضبط من أحدث برقع الكعبة ولا متى حدث بالضبط وهل برقع الكعبة هو نفس الشمسيات التي كانت توضع في وجه الكعبة والتي جعلنا لها مبحثاً خاصاً أم لا ؟ الله أعلم بذلك، والذي يعلم مما سيأتي أن البرقع حدث في أول القرن التاسع من الهجرة، والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم أن أهل الجاهلية والقرون الأولى بعد الإسلام إذا وضعوا كسوة على الكعبة تركوا الباب بدون ستارة فقد كانوا على الفطرة، فلما اتسعت مدارك الناس وتذوقوا حلاوة الدنيا اخترعوا برقع باب الكعبة وتفننوا في تحسينه وتجميله . وبرقع الكعبة هو الستارة التي توضع على وجه بابها .

ويكون طولها وعرضها بقدر فتحة الباب طولاً وعرضاً بل تزيد قليلاً حتى يعمّ ستر الباب تماماً عند إسدالها وإرخائها . وبعض المؤرخين كالشيخ عبدالله الغازي رحمه الله تعالى يسميه عند الكلام عنه في تاريخه "البردة" فيقول: البردة التي توضع على باب الكعبة - وقصده من "البردة" هو البرقع، فقوله: "البردة" بفتح الباء الموحدة لا بضمها، وأصل هذه الكلمة تركية، ولكن ينطقها الأتراك بالباء المغلظة المفتوحة التي تحتها ثلاث نقط، لا نقطة واحدة، ومعناها عندهم الستارة، ولا يخفى أن العربي إذا نطق بهذه الكلمة يضم الباء المخففة المضمومة ويقصد بها معناها اللغوي وهو "الكساء" .

والذي جعلنا أن نكتب فصلاً خاصاً عن برقع الكعبة و لم نلحقها بكسوتها، لأن لبرقعها شكلاً فريداً يتسم بجماله ودقة رسمه ونقشه، وإليك ما كتبه التاريخ عنه :

قال في تاريخ الغازي ما نصه : وقال في التحصيل: البَردة التي توضع على باب الكعبة هي من حرير أسود مكتوبة بالفضة المذهبة وذلك الكتابة بعض آيات من القرآن ومكتوب أيضاً فيها أمر بعمل هذه البردة السلطان فلان وتسدل على باب البيت ليلة الاثنين وليلة الجمعة أي من عصر يوم الأحد وعصر يوم الخميس إلى المغرب ويسمونها أهل مكة "البرقع" و لم أعلم متى حدثت ولا من أحدثها ،

وذكرها الفاسي في شفاء الغرام ونصه : وعمل في هذه السنة وهي سنة تسعة عشر وثمانمائة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن أحسن من الستائر الأول التي شاهدناها .

قال السمهودي: وفي عشر التسعين وسبعمائة اشترى السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون قرية من بيت مال المسلمين بمصر ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة في كل سنة وعلى كسوة الحجرة والمنبر النبوي في كل خمس سنين ، وذكرها التقي الفاسي والزين المراغي إلا أنه قال في كسوة الحجرة في كل ست سنين مرة تعمل من الديباج الأسود ومرقوماً بالحرير الأبيض ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها إلا كسوة المنبر فإنها بتفصيص أبيض . انتهى ما في تحصيل المرام . هذا ما ذكره الشيخ الغازي رحمه الله في تاريخه .

نقول : ظهر من الكلام المتقدم أن برقع الكعبة كان يعمل منذ قرون بشكل مخصوص ويتفننون في تحسين شكله ومنظره ، وكان البرقع معروفاً قبل سنة (٨١٩) ولكن لم يعرف من أحدثه ولا تاريخ حدوثه بالضبط .

وقد تكلم عن كسوة الكعبة وبرقعها مؤلف كتاب صبح الأعشى قال مؤلف كتاب "المحمل والحج" ناقلاً عن صبح الأعشى من الجزء الرابع صحيفة ٢٨١ و٢٨٣ ما ملخصه : كانت الكعبة تكسى الديباج الأسود كسوة مسبلة من أعلاها إلى أسفلها مرقوماً بأعاليها طراز رقم بالبياض من أصل النسيج مكتوب فيه : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً... الآيات﴾ ، وعلى الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض ، وذلك في آخر الدولة الظاهرية "برقوق" وأوائل الدولة الناصرية ولده "فرج" والظاهر برقوق توفي سنة ٨٠١ ثمانمائة وواحد .

ثم قال : وفي سنة ... وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة فصار الرقم في السواد بحرير أصفر مقصب بالذهب ... إلى أن قال : ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشوراً عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسته وعلا قيمته . قال : ثم في سنة ٨١٤ جعل وجهة الباب من الكسوة "كمخا أزرق" بجامات مكتوب فيها " ... والله العالم ما كان وما يكون " ثم قال : وعمل في سنة ٨١٩ لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسبقها مثلها . انتهى من كتاب "المحمل والحج" الناقل من صبح الأعشى .

وقد ذكر إبراهيم باشا رفعت صاحب كتاب مرآة الحرمين ما في برقع الكعبة من الذهب والفضة والحرير فليراجعه من شاء، كما ذكر في التاريخ نص الآيات القرآنية التي كتبت في البرقع ما رأينا من الضرورة ذكرها هنا.

وقد تباهى السلطان سليم في عمل كسوة الكعبة وزركشة البرقع للغَاية حينما أرسلها لمكة سنة ٩٢٣.

انظر: صورة رقم ١٠٥، الكعبة المشرفة ويظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام.

ثم لما اختصت مصر بصنع كسوة الكعبة الخارجية وإرسالها سنوياً إلى مكة المشرفة وترقت العلوم والفنون فيها، وبرعوا في فن الخط العربي وفن الزخرفة والرسم والنقش، تفننوا في تجميل الكسوة والبرقع حتى صارا في زماننا في أحسن شكل وأبهى منظر. اللهم زد بيتك المحرم تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وأمتنا مسلمين وأدخلنا في عبادك الصالحين وارض عنا وأصلح أحوالنا آمين يا رب العالمين وصلى الله على محمد أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

خدم الكعبة وأغوات المسجد الحرام

أول من رتب العبيد لخدمة الكعبة المشرفة معاوية رضي الله تعالى عنه هذا ما ذكره المؤرخون، والظاهر أنهم كانوا عبيداً أرقاء لا خصياناً، قالوا: وأول من اتخذ الخصيان يزيد بن معاوية.

قال في المنجد: طوّش الرجل مطل غريمه، الذكر خصاه، والطواشي الخصي جمع طواشية (مولد وقيل أعجمي). انتهى منه.

ويطلق على الخصي طواشي كما يطلق عليه في الحجاز "أغا" فيقولون: أغوات الحرم، أي طواشية المسجد الحرام والآغا، بمد الهمزة عند الأعاجم معناها الرجل الثري صاحب النفوذ، فربما من هنا أطلق الأعاجم على طواشية المسجد الحرام كلمة "الأغا" لما كان لهم من السلطة والنفوذ فأخذها عنهم الحجازيون فأطلقوها عليهم حتى صار كالعلم عليهم. ويوجد كتاب اسمه تاريخ الأغوات لإبراهيم الأغا بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، مقيد بها تحت نمرة (١٤٩) فراجعه إن شئت. وهو كتاب صغير باللغة التركية ولكنه ليس تاريخاً للأغوات بالمعنى الصحيح، وإنما هو عبارة عن مقتطفات في تراجم بعض الأغوات، ولقد أخذ

سعادة السيد أحمد مجاهد وكيل وزارة الحج والأوقاف الذي طبع هذا التاريخ على نفقته صورة فوتوغرافية لصفحات الكتاب المذكور .

روى البخاري في أول كتاب النكاح في باب تزويج المعسر الذي معه القرآن : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نغزوا مع النبي ﷺ ليس لنا نساء فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصي ؟ فنهانا عن ذلك .

وروى أيضاً في الباب الذي بعده أي في باب ما يكره من التبتل والخصاء : عن سعد بن أبي وقاص يقول : رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون : التبتل ولو أذن له لاختصينا .

وقد وردت ثلاثة أحاديث أيضاً في هذا المعنى في الباب المذكور .

جاء في شرح كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" في آخر الجزء السادس عند حديث "نهى رسول الله ﷺ عن التبتل" ما ملخصه :

إن الصحابة رضي الله عنهم لما قالوا للنبي ﷺ : "... ألا نختصي" نهاهم عن الاختصاء نهي تحريم لما فيه من تعذيب النفس والتشويه وإبطال معنى الرجولية وتغيير خلق الله وكفز نعمته ، لأن خلق الشخص رجلاً من النعم العظيمة ، فإذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة واختار النقص على الكمال .

انظر: صورة رقم ١٠٦ ، دكة الأغوات بالمسجد النبوي الشريف

قال المهلب : وإنما نهى النبي ﷺ عن التبتل من أجل أنه مكاثر بهم الأمم يوم القيامة ، وأنه في الدنيا يقاتل بهم طوائف الكفار ، وفي آخر الزمان يقاتلون الدجال ، فأراد ﷺ أن يكثر النسل . اهـ . فالاختصاء في الآدمية حرام صغيراً كان أو كبيراً . انتهى ملخصاً من شرح زاد المسلم .

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى في فتح الباري على صحيح البخاري في كتاب النكاح في باب ما يكره من التبتل والخصاء ما ملخصه :

الخصاء هو : الشق على الأنثيين وانتزاعهما ، قال والنهي عن ذلك نهي تحريم بلا خلاف في بني آدم لما تقدم ، وفيه أيضاً من المفاسد تعذيب النفس والتشويه مع إدخال الضرر الذي قد يفضي إلى الهلاك ، وفيه إبطال معنى الرجولية وتغيير خلق الله وكفر النعمة ، لأن خلق الشخص رجلاً من النعم العظيمة فإذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة واختار النقص على الكمال .

قال القرطبي : الخصاء في غير بني آدم ممنوع في الحيوان إلا لمنفعة حاصلة في ذلك كتطييب اللحم أو قطع ضرر عنه . وقال النووي: يحرم خصاء الحيوان غير المأكول مطلقاً ، وأما المأكول فيجوز في صغيره دون كبيره ، وما أظنه يدفع ما ذكره القرطبي من إباحة ذلك في الحيوان الكبير عند إزالة الضرر.

ثم قال : وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ العزوبة فقال ألا نختصي ؟ قال: ليس منا من خصي أو اختصى .

انتهى من فتح الباري بتصرف واختصار .

نقول: ظهر مما تقدم أن الاختصاء في بني آدم حرام صغيراً كان أو كبيراً ، وكذلك في الحيوان غير المأكول ، لما فيه من قطع نسله وتعذيبه بدون فائدة ، وأما في الحيوان المأكول فيجوز إخصاء صغيره حتى يسمن ويطيب لحمه ، وأما الكبير المأكول فيحرم إخصاؤه لما فيه من التعذيب ، ولعدم الفائدة من إخصائه ، فإن لحم الكبير لا يطيب بالإخصاء .

وحرمة إخصاء الآدمي الصغير تقع على الفاعل لا على المَخصي "بفتح الميم" فإن كان الآدمي كبيراً ورضي باختصائه فالحرمة تقع عليه ، وقد يشترك معه في الإثم الفاعل لأنه أعان على معصيته .

فإن قال الكبير : اختصيت خوف الوقوع في الزنا مثلاً ، نقول له : إنك عصيت الشارع ﷺ الذي نهى عن الاختصاء لما في ذلك من قطع النسل والتعذيب ، وأما الوقوع في الزنا فقد يغفر الله تعالى لمن تاب وعمل صالحاً كما هو الشأن في كل معصية ، فرضاء الله تعالى وعفوه لا يتوقفان على الاختصاء وتعذيب النفس .

ونرى أن جميع هؤلاء الطواشي والأغوات إنما حصل لهم الاختصاء في حال الصغر وهم لا يعقلون ، فالحرمة تقع على من فعل بهم ذلك ، ومهما أتوا من المبررات والأعذار فإنها لا تقبل شرعاً ، والحمد لله الذي قلَّ عمل ذلك في زماننا هذا حتى كاد أن يندرس .

جاء في كتاب "التراتيب الإدارية" بصحيفة ٤٤٠ من الجزء الثاني ما نصه : نقل المنجور في شرح المنهج عن ابن رشد : أن أول من استخدم الخصيان في الإسلام معاوية . ووجدت ذلك في البيان والتحصيل بلفظ ، قيل : إن معاوية هو

أول من اتخذ المقاصير في الجوامع ، وأول من قام على نفسه حرساً ، وأول من قيدت بين يديه النجائب، وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام ، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشرة مرقاة.

وفي تحفة المحبين والأحباب فيما للمذنبين من الأنساب لدى كلامه على الأغوات من حرف الألف أول من استخدم الخصيان في الإسلام معاوية وقد كان لرسول الله ﷺ خادماً خصياً والله أعلم أن خصاه كان خلقياً ، وقد صرح الجمهور من العلماء بكراهته وأحكامهم مذكورة في كتب الفقه ، وقد حررها العلامة عبد القادر الطبري المكي في كتابه نشأة السلافة في شأن الخلافة وأطال فيهم المقال . انظره فإنه كتاب مفيد جداً . وأول من استخدمهم في المسجد النبوي والمسجد المكي بالحرمين الشريفين صلاح الدين الأيوبي هـ.

ثم نقل الكلام على أصل استخدامهم من رسالة تحفة المحبين للمجبوب في تنزيه مسجد الرسول من كل خصي ومجبوب للعلامة جمال الدين القطان ، ومن التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للحافظ السخاوي فانظر كلامهم في التحفة ، وقد وقفت على رسالة للحافظ السيوطي سماها أكام العقيان في أحكام الخصيان والتوصية بهم ، عقد فيها فصلاً قال فيه ذكر الصحابة منهم وترجم لمابور وسندر مولى زنباع الجدامي ، وذكر في ترجمة الأخير أنه قال لرسول الله ﷺ أوصي بي فقال: أوصي بك كل مسلم ، ثم جاء إلى أبي بكر فعاله حتى مات ، ثم لقي عمر فقال: إن شئت أن تقيم عندي أجريت عليك مالاً فانظر إلى أي المواضع أحب إليك لأكتب لك فاختار مصر فلما قدم على عمرو بن العاص أقطعه أرضاً واسعة وداراً ، وعمّر سندر إلى زمن عبدالملك بن مروان ، وذكره محمد بن الربيع الجيزي في كتاب الصحابة الذين دخلوا مصر وأن لأهل مصر عند سندر حديثين . اهـ . انتهى من الكتاب المذكور .

جاء في كتاب "التراتيب الإدارية" بصحيفة ٤٤٥ من الجزء الثاني عند باب في المجبوب ما نصه :

ترجم في الإصابة لمابور القبطي الخصي قريب مارية القبطية أم ولد النبي ﷺ قدم معها من مصر ، فنقل عن الطبري أنه رضي لمكانته منها أن يجب نفسه فقطع ما بين رجليه حتى لم يبق له قليل ولا كثير الحديث ، قال الشيخ الطيب في شرح الألفية : لا منافاة بن كونه أهداه خصياً وكونه جب نفسه لاحتمال أنه أهداه فاقد

الخصيتين مع بقاء الذكر وهو الذي قطع ، وترجم في الإصابة لأبي مريم الخصي فقال : له إدراك ذكره ابن منده ، وأخرج من طريق الأوزاعي عن سليمان بن موسى قال : قلت لطاووس : إن أبا مريم الخصي أخبرني وقد أدرك النبي ﷺ فقال : أحلني على غير خصي . ونحوه في أسد الغابة وقال : أخرجه ابن منده وأبو نعيم هـ . وفي نور النبراس : لا أعلم في الصحابة خصياً إلا هذا مابور وآخر يقال له سندر .

قال الأزرقي عند "ذكر كسوة الكعبة في الإسلام" : وكان أول من أخدم الكعبة يزيد بن معاوية وهم الذين يسترون البيت هكذا ذكره الأزرقي وذكر أيضاً أن معاوية هو الذي أخدمها العبيد . وكلتا العبارتان مذكورتان في صحيفة واحدة من تاريخ الأزرقي فلم نفهم معنى الأولية في تقديم العبيد لخدمة الكعبة هل هي لمعاوية أو لابنه يزيد ، وكيف يمكن الجمع بين الروايتين .

وقال صاحب كتاب "مرآة الحرمين" : أول من رتب الأغوات في المسجد أبو جعفر المنصور اهـ وا لله تعالى أعلم بالغيب .

وجاء في تاريخ الخميس أن سليمان بن عبدالملك بن مروان كان شديد الغيرة وهو الذي خصى المخنثين بالمدينة . اهـ .

والذي نفهمه أنه كان للكعبة خدم في الجاهلية ، فيكون معنى أول من رتب العبيد للكعبة أي في الإسلام ، أما في الجاهلية فقد روى الأزرقي أيضاً عند الكلام على حج أهل الجاهلية ما نصه... وكانت الإفاضة في الجاهلية إلى صوفة " أي كان على الحج " وصوفة رجل يقال له أخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الأسد ، وكان أخزم قد تصدق بابن له على الكعبة يخدمها ، فجعل إليه حبشية ابن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعي الإفاضة بالناس على الموقف ، وحبشية يومئذ يلي حجابة الكعبة وأمير مكة يصطف الناس على الموقف فيقول حبشية: أجز صوفة فيقول الصوفي: أجيزوا أيها الناس فيجوزون ، ويقال : إن امرأة من جرهم تزوجها أخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الأسد وكانت عاقراً فنذرت إن ولدت غلاماً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت من أخزم الغوث فتصدقت به عليها فكان يخدمها في الدهر الأول مع أخواله من جرهم فولي الإجازة بالناس لمكانه من الكعبة وقالت أمه حين أتمت نذرها وخدم الغوث بن أخزم الكعبة :

إني جعلت ربّ من بَنيَّة ... ربيطةً بمكة العليَّة
فبارك لي بها إليَّه ... واجعله لي من صالح البريَّة

فولى الغوث بن أخزم الإجازة من عرفة وولده من بعده في زمن جرهم وخزاعة حتى انقرضوا. انتهى من تاريخ الأزرقي.

فعلم مما تقدم أن تقديم العبيد للكعبة المعظمة كان من أيام الجاهلية الأولى، وأن المراد بالعبيد ليس هو الرقيق المملوك ولا من الخصيان كالطواشي المعروفين في زماننا، بل المراد تقديم أي رجل حر للكعبة يقوم بخدمتها وربما كان من أبناء الرؤساء والذوات المحترمين كابن صوفة المذكور الذي كانت له إمارة الحج.

وحبذا لو أن حكومتنا السعودية أحالت هؤلاء الطواشي "أغوات المسجد الحرام" إلى المعاش وأكرمتهم بمعيشة هنيئة مدة حياتهم جزاء لهم على خدماتهم لبيت الله المعظم واستبدلت بهم من فضلاء الناس الأحرار خدماً للكعبة المشرفة، وبذلك تكون حكومتنا قد سنّت سنة حسنة مدى الدهر، لأن غالب الأغوات من العوام الجهلاء، وفي بعضهم غباوة زائدة وضعف في العقل - يقول الإمام القزويني في كتابه عجائب المخلوقات: إن الإنسان إذا خصي يضعف بدنه بخلاف كثير من الحيوانات.

ولا نعلم بالضبط متى كان استخدام الطواشي "الخصيان" في المسجدين الحرمين بمكة والمدينة، قال صاحب مرآة الحرمين: وأول من رتّب الأغوات في المسجد الحرام أبو جعفر المنصور اهـ لكن نحن لا نرى أن أبا جعفر المنصور المتوفى سنة ١٥٨ قد فعل ذلك ونستدل على كلامنا هذا بأنه لو فعله أبو جعفر المنصور لذكره الإمام الأزرقي في تاريخه بدون شك فقد توفي في منتصف القرن الثالث بل قبله بسنوات معدودة، وإنما نرى أن استخدام الأغوات في المسجد الحرام كان بعد استخدامهم في المسجد النبوي الذي كان في أول دولة الأكراد في زمن السلطان نور الدين الشهيد استنتاجاً مما جاء في تاريخ الغازي المخطوط بخط يده بصحيفة ٦٢٢ من الجزء الأول وهو نقلاً عن كتاب "إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن" وهذا ما نصه: وفي سنة (٥٥٧) سبع وخمسين وخمسمائة من الهجرة حسّنوا للسلطان نور الدين الشهيد أن يرسل بعض خدم طواشيته إلى المدينة المنورة ليكونوا سدنة لقبر رسول الله ﷺ والحرم المحترم فاستحسن ذلك، إلا أنه قال: كيف نعمل شيئاً ما سبقنا إليه أحد من الخليقة قبلنا فما زالوا به حتى

وافقهم إلى ذلك ، فجعل اثني عشر طواشياً لا غير وشرط أن يكونوا حفاظاً للقرآن الكريم ولربع العبادات متعينين لذلك وأن يكونوا حبوشاً فإن لم يكونوا فأرواماً فإن عدموا فتكارنة وإن لم يوجدوا فهنوداً ، فاستمر الأمر مستقيماً مدة ثم ما زال في فقد شيء بعد شيء حتى صار الآن من الهنود وصاروا عامية ليسوا بأهل علم وكانوا اثني عشر فعادوا فوق الأربعين ، فسبحان من يغير ولا يتغير وأنكر علماء المدينة ذلك وألفوا فيه تآليف ولكن يد الخلافة لا تطاولها يد" . انتهى من تاريخ الغازي .

فيؤخذ مما تقدم أن الطواشية لم يكونوا خدماً بالمسجد النبوي بالمدينة إلا في سنة (٥٥٧) هجرية ويشترط فيهم أن يكونوا حفظة للقرآن الكريم ولربع العبادات من الفقه ، فقياساً على ذلك يمكن أن نقول ونستنتج أن استخدام الطواشية لم يكن بالمسجد الحرام بمكة قبل السنة المذكورة وإنما حدث بعدها تقليداً على ما في المسجد النبوي منهم ، ومما يقوي قولنا هذا أن العلامة ابن جبير الأندلسي الذي كان بمكة شرفها الله تعالى سنة (٥٧٩) تسع وسبعين وخمسمائة وحج فيها لم يذكر في رحلته القيمة المعتبرة أنه رأى بالمسجد الحرام طواشية وخصياناً يقومون بالخدمة ، مع أنه لم يترك شيئاً عن مكة والكعبة والمسجد الحرام إلا وذكره ، وهو قد مكث بمكة المكرمة للحج ثمانية أشهر . والرحالة ابن بطوطة الذي وصل إلى مكة في حجته الأولى سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة ذكر في رحلته خدمة المسجد النبوي و لم يذكر خدمة المسجد الحرام فقال عنهم بصحيفة ٧٣ وخدّام هذا المسجد الشريف ، أي المسجد النبوي وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الأمراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام يؤتى إليهم بها كل سنة... اهـ .

على أن اتخاذ الطواشي والخصيان كان قبل الإسلام فقد ذكر الأستاذ أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة في حاشية على كتاب "الرق في الإسلام" بصحيفة ٩٩ ما نصه : كان اتخاذ الطواشية قبل الإسلام ، فإن نارسيس وهو من أعظم قواد المملكة الرومانية الشرقية كان خصياً ، ومثله بوطيفار "قطفور" مولى يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومثلهما أوريغانس مفسر التوراة الذي ولد بالاسكندرية في سنة (١٨٧) سبع وثمانين ومائة ميلادية قد جب مذاكير نفسه لئلا تكون أخلاقه عرضة

للشك والريبة ، وغيرهم كثيرون . اهـ المترجم . انتهى من حاشية الكتاب المذكور . وجاء في تاريخ الخميس في الجزء الثاني : أنه كان في دار أمير المؤمنين المقتدر با لله الذي قتل سنة (٣٢٠) أحد عشر ألف غلام خصيان غير الروم والصقالبة والسود . انتهى .

وقد كان للطواشية "الخصيان" نفوذ كبير لدى أسيادهم العظماء ، وفي ذلك يقول مؤلف كتاب "الرق في الإسلام" بصحيفة ٩٨ ما يأتي : ولا يجهل أحد ما كان للطواشية "الخصيان" من الشأن الأكبر والنفوذ المهم في القسطنطينية وفي مصر القاهرة ، ففي بلادنا "أي مصر" كان أعاظم القوم وسراتهم يتملقون ويتزلفون إلى الماس آغا طواشي والدة عباس باشا ، وخليل آغا طواشي سعيد باشا ، ثم خليل آغا المشهور طواشي والدة الخديوي السابق ، وكلهم قد جاؤا من بلادهم في أحقر الحالات وأنكدها ، فساق ا لله لهم السعادة ورزقهم الغنى الوافر والثروة الطائلة . انتهى من الكتاب المذكور والمذكورون هنا عباس وسعيد والخديوي السابق كلهم من سلاطين مصر المتأخرين .

وفي تاريخ الغازي أن السلطان الملك الأشرف برسباي أرسل في سنة (٨٣٥) إلى السلطان صلاح الدين أبي المظفر محمد بن قندو هدية من القاهرة صحبة بعض الطواشية ، فلما وصل إلى السلطان قبلها وعوض عنها بهدية قيمة ولكنه مات في أثناء ذلك فقام ابنه المظفر أحمد وأمضى هدية أبيه وزاد من عنده هدية أخرى من ضمنها خدّام طواشية . انتهى .

ولنذكر هنا أسماء بعض الطواشي الذين عثرنا عليهم في التاريخ ، وهناك كثيرون منهم لكن لم نبحث عنهم في الكتب لنقيد أسماءهم .

عدد	اسم الطواشي	الملحوظات
١	بوطيفار "قطفور"	هو مولى نبي ا لله يوسف عليه الصلاة والسلام.
٢	نارسيس	كان قبل الإسلام ، وكان من قواد المملكة الرومانية الشرقية.
٣	مابور القبطي	قدم مع مارية القبطية إلى رسول ا لله ﷺ.
٤	أوريغانس	مفسر التوراة ، ولد سنة ١٨٧ ميلادية.
٥	منويل الخصي	كان قائد جيش الروم لأخذ الاسكندرية من المسلمين فقتله عمرو بن العاص وفتح الاسكندرية

عدد	اسم الطواشي	الملحوظات
		مرة ثانية.
٦	فتح	كان خصياً وهو حاجب يزيد بن معاوية
٧	كافور الإخشيدي	كان خصيان حبشياً أسود اشتراه إخشيد، فصار فيما بعد ملكاً على مصر.
٨	مؤنس المظفري	ولي سلطنة العراق
٩	ألماس آغا	هو طواشي والدة الخديوي عباس باشا الثاني سلطان مصر وباش آغا السراي الخديوية.
١٠	كاظم آغا	هو باب آغا والدة الخديوي عباس باشا سلطان مصر.
١١	خليل آغا	هو طواشي الخديوي سعيدي باشا سلطان مصر.
١٢	خليل آغا	هو طواشي والدة الخديوي السابق لمصر "أي إسماعيل باشا ثم توفيق باشا" وكان زعيم الأغوات وكبيرهم وهو صاحب مدرسة خليل آغا الشهيرة بمصر.
١٣	أبا عبدا لله محمد الغرناطي المعروف بالتراس	جبَّ نفسه خوفاً من الوقوع في معصية وصار من خدمة المسجد النبوي كان موجوداً في عهد ابن بطوطة كما ذكره في رحلته أي في سنة (٧٢٥) من الهجرة.
١٤	جوهر آغا	كان وزير مكة وكان موجوداً بها في عام (١١٠٩) كما ذكره الغازي في تاريخه بصحيفة ٦٦١ من الجزء الأول وهو الذي أوفدته الدولة العلية العثمانية بالمرسوم الشاهاني بولاية الشريف سعيد بن سعد مكة فاستقبلوه استقبالاً عظيماً وذلك سنة (١١١٣) كما ذكره الغازي أيضاً بصحيفة ٢٥٣ من الجزء الثاني من تاريخه.
١٥	درويش آغا	وزير أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد بن زيد في سنة (١١٨٤) من الهجرة . أي وزيره وعامله على ينبع .

عدد	اسم الطواشي	الملحوظات
١٦	رفعت آغا	هو خليفة خليل آغا طواشي والدة الخديوي إسماعيل باشا المذكور، في إدارة وقفه الكبير بعد موته.
١٧	بلال آغا	خليفة رفعت آغا بعد موته
١٨	عبدالفتاح آغا	شيخ الأغوات بالمسجد الحرام بمكة من سنة ١٣٢١ تقريباً.
١٩	بهرام آغا	رئيس أغوات قصر يلدز بالآستانة في زمن السلطان عبدالحميد المتوفى سنة (١٣٢٨) هجرية.
٢٠	نادر آغا	رئيس أغوات قصر يلدز بالآستانة في أواخر زمن السلطان عبدالحميد أيضاً المتوفى سنة (١٣٢٨) هجرية.

انظر: صورة رقم ١٠٧، خليل آغا الطواشي المشهور

والطواشي كثيرون في كل عصر ولكن لا يذكر التاريخ إلا عظماءهم ومن يشار إليهم كمن ذكرناهم هنا، ولقد كان سلاطين آل عثمان وسلاطين مصر وكبار العظماء والأغنياء يقتنونهم في قصورهم ومنازلهم لاطمئنانهم لهم على النساء حينما كنّ محجبات أما اليوم وقد انتشر السفور بينهن واختلطن بالرجال زالت دولة الطواشي حتى لا تكاد تذكر.

وهذا الجدول ليس القصد منه حصر جميع أسماء الأغوات، وإنما هذه الأسماء بحسب ما وصل إلى علمنا، وهناك كثير من الأغوات لم نطلع على أسمائهم، في بعض الأقطار الإسلامية سابقاً، وأما اليوم فقد انقرض جنسهم.

وبهذه المناسبة نذكر قصة صغيرة لأحد الأغوات للدلالة على ما كان لهم من السلطة في قصور أسيادهم، ننقلها باختصار عن مجلة المصور التي تصدر بمصر في عدد ١٥٧٦ بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٧٤ هجرية - وهي:

لما انضم "خليل آغا" إلى حاشية والدة إسماعيل باشا خديوي مصر، لم يمض وقت طويل حتى ظفر بثقتها فقربته إليها ومنحته سلطات مطلقة في الإشراف على تربية الأمراء والأميرات وتعهد مختلف شؤونهم التعليمية والأخلاقية، فأصبح ذا سلطان ونفوذ لا يستطيع أحد أن يرد له كلمة أو يعصي له أمراً.

وكان خليل آغا حريصاً على تنشئة الأمراء والأميرات نشأة أخلاقية قويمة كريمة، غيوراً على أن لا يصاب أحدهم في كرامته أو تخدش سمعته، حتى لقد بلغ في غيرته عليهم أن تطاول وصفع مرة إحدى الأميرات لأنها غابت خارج القصر مدة تزيد على المدة التي حددها لها عند خروجها، وثار لهذا الحادث الأمراء وغضبت الأميرات، ولكن والدة إسماعيل باشا وقفت إلى جانبه ودافعت عنه وأيدته في موقفه، فمرّت العاصفة بسلام.

ولما تولى مصر توفيق باشا انتهزت الأميرة التي صفعها خليل آغا الفرصة وسعت لدى توفيق باشا بإعدامه فأصدر أمره بذلك وترك له الخيار في أن يموت بالسيف أو بجرعة السم، فجرع خليل آغا كأساً من السم الزعاف فقضى نحبه.

وخليل آغا هذا هو صاحب ومؤسس المدرسة المشهورة باسمه "مدرسة خليل آغا" التي كانت بأول شارع الدراسة بجوار جامع الأزهر الشريف ثم نقلت إلى جهة أخرى حين تنظيم الشوارع وتوسعتها، وكان لهذه المدرسة أكبر الفضل في تعليم كثير من كبار رجال الدولة في الجيل الماضي ولا تزال المدرسة قائمة في تعليم أبناء الأمة إلى اليوم.

ولقد استطاع خليل آغا أن يجمع ثروة كبيرة من الأراضي والبيوت والعمارات، ثم وقفها من بعده على أعمال البر والفقراء من الأغوات والعتقاء، وبلغت مساحة الأرض التي وقفها ألف وثمانمائة فدان، وتعدّ أوقافاته من الأوقافات الكبيرة ذات الإيراد الكبير الوفير، رحمة الله عليه وجزاه خير الجزاء. انتهى.

ومن عجائب ما كان للأغوات من الصولة والمكانة، ما رواه صديقنا الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" بصحيفة ٢٥٧ حيث يقول:

ومن غرائب ما يذكر أن بشير آغا الطواشي من مماليك السلطان مراد "أي الرابع" حج في عام (١٠٤٩) وكان يحمل تفويضاً من السلطان بعزل وتولية من يرى توليته وعزله في البلاد التي يمر بها، فلما انتهى إلى مصر خرج واليها للقائه في ظاهرها وقبّل ركبتيه ومشي بين يديه إلى أن أذن له بالركوب، فلما انتهى خبر ذلك إلى الشريف زيد في مكة عزّ عليه أن يمشي في ركاب الطواشي، فاستشار الشيخ عبدالرحمن المحجوب، وكان من رجال العلم الصالحين، فقال له: اسأل الله أن يكفيك ذلك فاستجيبت دعوته، لأن بشير آغا ما كاد يصل إلى مكة حتى سبقه إليها خبر وفاة السلطان مراد وبذلك بطل مفعول التفويض الذي يحمله،

ودخل بشير آغا فقابله مقابلة عادية وصافحه ثم ركض زيد بفرسه حتى تقدم عليه وعزاه في السلطان فتضاءل بشير آغا لأنه كان يظن أن خبر الوفاة مجهول في مكة. انتهى.

ومن غرائب ما وقع في عصرنا مما يكون عظة وعبرة، ما حدثنا به رئيس سدنة الكعبة المشرفة صاحب السيادة والسعادة الشيخ محمد ابن الشيخ محمد صالح بن أحمد الشيبي، أنه رأى أن والي الحجاز التركي أحمد راتب باشا يقبّل يد شيخ أغوات المسجد الحرام بمكة عبد الفتاح آغا وذلك سنة (١٣٢٥) تقريبا، ثم رأى أن عبدالفتاح آغا المذكور يقبل يد مدير الشرطة العام بمكة مهدي بك وذلك في سنة (١٣٤٧) سبع وأربعين وثلاثمائة وألف تقريباً أي بعد أن استولى على الحجاز جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى فسبحان المعز المذل.

ويذكر الأستاذ السباعي في كتابه أيضاً بصحيفة ٢٩١ عن الأغوات ما نصه: وفي عهد مبارك "الذي تولى إمارة مكة في عام ١١٣٢" ثارت فتنة بين أغوات المدينة ورجال حاميتها من المعسكر، وذلك أن رجلاً من توابع الأغوات أراد الانخراط في سلك الجندية فحيل بينه وبين ذلك، فغضب لأجله أغوات المسجد وأغلظ بعضهم القول لرجال الحامية، فثارت الفتنة وتحصن الأغوات بالمسجد، فأراد قاضي المدينة أن يتوسط للصلح فامتنع الأغوات من الحضور إلى المجلس ولعلّهم خافوا ذلك، فاعتبرهم القاضي عصاة للشرع وأمر بقتالهم في المسجد فقاتلوهم فيه وبذلك عطلت صلاة الجماعة، ثم ما لبث الأغوات أن طلبوا الأمان فأبى رجال الحامية إلا بتقديم كبارهم إلى مكة ليرى الشريف مبارك رأي الشرع فيهم فقبلوا ذلك، وتقدم من كبارهم خمسة أو ستة أشخاص اعتقلتهم الحامية وأرسلتهم إلى الشريف مبارك في مكة فثبتت إدانتهم لديه فكتب إلى الخليفة بذلك فجاءت الموافقة بعقوبة بعضهم ونفي الآخرين. وأراد الأغوات أن يثأروا لنفسهم فاتصل بعضهم بعاصمة الخلافة في تركيا وأقنعوا المسؤولين بأنهم كانوا مظلومين وأن أسباب الفتنة كانت سعاية أهل المدينة على رأسهم عبدالكريم البرزنجي وكان من جملة علمائها فصدر الأمر بقتل المذكور وبعض المتهمين معه ففر البرزنجي إلى جدة، فقبض عليه حاكمها ونفذ فيه حكم الإعدام ودفن "بحارة المظلوم" نسبة إليه. انتهى كل ذلك من "تاريخ مكة" للسباعي.

ولقد كان قديماً للأغوات شأن كبير في الدولة العثمانية حتى أنها تنتدب بعضهم للأمور المهمة ، فمن ذلك ما ذكر الغازي في تاريخه المخطوط في الجزء الثاني بصحيفة ٢٥٣ أن أمير مكة الشريف سعد عرض على الدولة العلية العثمانية إقامة ولده الشريف سعيد مقامه فأجابته إلى ذلك في شهر ذي القعدة سنة (١١١٣) ثلاث عشرة ومائة وألف وجاءت المراسيم بولاية الشريف سعيد مع أغاة مخصوص فأدخلوه مكة بموكب عظيم ، وجلس في الحطيم الشريف سعيد وصاحب جدة والقاضي والمفتي وأعيان الناس ، فورد الآغاة إلى الحطيم بالأمر السلطاني والتشريف للبس الشريف سعيد ولبس أرباب المناصب على جري العادة وجلس للتهنئة ومدحه الشعراء بقصائد ، ولما كان يوم السبت طلع الأغاة الوارد بالقفطان بخلعة سمور وكتاب آخر خاص لمولانا الشريف سعيد وألبسه الفرو الوارد له من الأبواب السلطانية زيادة في الإكرام والعناية . انتهى من تاريخ الغازي .

وجاء في كتاب "الجداول المرضية" أن قطب الدين بن علاء الدين خوارزم شاه المتوفى سنة (٦١٧) سبع عشرة وستمائة دخل عليه رجل من خدمة حجرة النبي ﷺ فعظمة وأجلسه بجانبه وصار يأخذ يده ويتبرك ويمرّ بها على وجهه اهـ. فهذا الملك عمل على حد قول الشاعر :

أمرّ على الديار ديار سلمى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وجاء في العدد (١٩) من روايات الهلال بمصر الخاص بالانقلاب العثماني ، الصادر في شهر رمضان عام ١٣٦٩هـ ، الموافق لشهر يولية عام ١٩٥٠م عند الكلام على "حريم قصر يلدز" بالآستانة ومعنى كلمة "يلدز" في اللغة التركية "النجم" وقصر يلدز جنة الدنيا كان هو مقر سلاطين آل عثمان ، فقد جاء في العدد المذكور عمن كان في هذا القصر من الخصيان والأغوات في زمن السلطان عبدالحميد خان الذي كان في حدود سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة من الهجرة ما نصه:

وفي كل قصر من قصور النساء طائفة من الخصيان والجواري والسراري للخدمة والتدريب ، وعلى الخصيان رئيس يسمونه الباش آغا ، وقد تداول هذا المنصب غير واحد في زمن عبدالحميد آخرهم نادر آغا، وصاحب هذا المنصب من

أكبر أصحاب النفوذ والسطوة لثقة السلطان فيه وركونه إليه ، وقد مر زمن كان الباش آغا فيه أقوى شوكة في الدولة من أكبر الوزراء .

وذكروا أن زكي باشا أرادت الدولة إرساله قائداً لعساكرها في طرابلس الغرب ، فجاء لوداع الباش آغا وهو يومئذ بهرام آغا ، فدخل عليه وهو في مجلس حافل فوقف بين يديه وقال :"يا مولاي إن الدولة عيَّنت عبدكم قائداً على عساكرها في طرابلس الغرب، ولي أمنية ألتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لي حرزاً من ريب الدهر ، وهي تقبيل يدكم الشريفة " فقهقه بهرام آغا وقال له : "متى وصل قدركم أن يتعدى رجلي إلى يدي ؟ ".

ويذكرون من نوادر هذا الآغا أنه خرج إلى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروسيون الغزاة فيه إلى سان استفانو ، وساد الفزع الأكبر ، وشغل السلطان بتدبير ما يؤول إليه العرش العثماني الذي أورثه إياه آباؤه وأجداده العظام ، فدخل عليه الآغا وقال له: "لا يهتم مولانا الأعظم ، فقد خرجت إلى ظاهر القصر، ونظرت يميناً وشمالاً فوجدت جميع ما انتهى إليه بصري هو ملك جلالتك فلا تحزن فإنه يكفينا".

ومن أدلة نفوذ أولئك الخصيان أن بهرام هذا منع عبدالحميد من إرسال جند عثمان إلى مصر في أثناء الحوادث العرابية ، وكانت إنجلترا قد أوعزت إليه أن يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها ، فزعم الآغا المذكور أن السلطان إذا أرسل جنوداً إلى مصر لم يبق في يلدز من يحافظ على حياته .

ويلي الباش آغا من الخصيان طبقة المصاحبين ، واشتهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن في زمن عبدالحميد . انتهى من الكتاب المذكور .

هذا ولما كان لأغوات المسجد الحرام فيما سبق شأن كبير ، كان تعيين أحدهم شيخاً ورئيساً عليهم لا بد أن يكون من قبل السلطان وأن يصدر له بذلك مرسوم سلطاني ، وقد ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى صورة من المراسيم السلطانية بذلك لكنها خاصة بأغوات المسجد النبوي – ونحن نذكر هنا نص كلامه في كتابه المذكور مع نص المرسوم السلطاني – قال رحمه الله تعالى :

وقد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشيّة يعين لذلك من الأبواب السلطانية ، ويكتب له توقيع في قطع الثلث "بالمجلس السامي" بالياء ، مفتتحاً "بالحمد لله" .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك:

الحمد لله الذي شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار، وفضل بالتأهل للدخول في عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين والأنصار، وجعل الاختصاص بمجاورة حرمه أفضل غاية تُهجَر لبلوغها الأوطان والأوطار، وعجل لمن حل بمسجده الشريف تبوأ أشرف روضة تردها البصائر وترودها الأبصار.

نحمده على نعمه التي أكملُها خدمة نبيه الكريم، وأفضلها التوفُّر على مصالح مجاوري قبر رسوله الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وأجملها الانتظام في سلك خدمة حرمه لأنها بمنزلة واسطة العقد الكريم النظيم، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُزْلِفة لديه مقربة إليه، مدّخرة ليوم العرض عليه، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف نبي بعث إلى الأسود والأحمر، وأكرم من أنار ليل الشرك بالشرع الأقمر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين فخرت الحبشة بهجرتهم الأولى، ونجا النجاشي بما اتخذ عندهم من السابقة الحسنة واليد الطولى، وأولَى بلالَهم من السَّبق إلى خدمة أشرف الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، أفضل ما يُولى، صلاة لا يزال شهابها مرشداً، وذكرها في الآفاق مُغيراً ومُنجداً، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى ما أعتمد عليه من أفاء الله عليه من نعمه وأفاض عليه من ملابس كرمه، وشرّف قدره بأن أهله لخدمة سيد الرسل بل لمشيخة حرمه، وخصه برتبة هي أسنى الرتب الفاخرة، وأجمع الوظائف لشرف الدنيا والآخرة، من رجحه لذلك دينه المتين، وورعه المكين، وزهده الذي بلغ به إلى هذه الرتبة التي سيكون بها -إن شاء الله تعالى- وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين.

ولما كان فلان هو الذي أدرك من خدمة سيد الرسل غاية سؤله، وزكت عند الله هجرته التي كانت على الحقيقة إلى الله ورسوله، وسلك في طريق خدمته الشريفة أحسن السلوك، وانتهت به السعادة إلى خدمة رسول الله ﷺ ليعرض بجوهرها الأعلى عن عَرَض خدمة الملوك، وفاز من مجاورة الحجرة الشريفة بما عظمت عليه به المنة، وحل به مما بين القبر والمنبر في روضة من رياض الجنة، وأقام في مقام جبريل، ومهبط الوحي والتنزيل، يتفيأ ظلال الرحمة الوارفة، ويتهيأ من تلك النعمة بالعارفة بعد العارفة تعين أن يكون هو المحلى بعقود مشيخة ذلك الحرم، والمتولي لمصالح هذه الطائفة التي له في التقدم عليهم أثبت قدم.

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... أن تفوّض إليه المشيخة على خُدّام الحرم الشريف النبوي : للعلم بأن العامل الورع ، والكافل الذي يعرف أدب تلك الوظيفة : من خدمة الرسول ﷺ على ما شرع ، والزاهد الذي آثر جوار نبيه على ما سواه ، والخاشع الذي نوى بخدمة الدخول في زمرة مَن خدَمه في حياته " ولكل امرئ ما نواه " .

فليستقر في هذه الوظيفة الكريمة قائماً بآدابها ، مشرّفاً بها نفسه التي تشبَّثت من خدمته الشريفة بأهدابها ، سالكاً في ذلك ما يجب ، محافظاً على قواعد الورع في كل ما يأتي وما يجتنب ، قاصداً بذلك وجه الله الذي لا يُخيب لراج أملاً ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ملزماً كلاً من طائفة الخدام بما يقربه عند الله زلفى ، ويضاعف الحسنة الواحدة سبعين ضعفاً ، هادياً من ضل في قوانين الخدمة إلى سواء السبيل ، مبدياً لهم من آداب سلوكه ، ما يغدو لهم منه أوضح هاد وأنور دليلاً ، وفيه من آداب دينه ما يغني عن تكرار الوصايا ، وتجديد القضايا ، والله تعالى يسدده في القول والعمل ، ويوفقه لخدمة سيد المرسلين ﷺ وقد فعل بمنه وكرمه . انتهى من كتاب صبح الأعشى من المجلد الثاني عشر .

ولم نر القلقشندي ذكر في كتابه المذكور صورة مرسوم سلطاني لأغوات المسجد الحرام ، وسببه والله تعالى أعلم أنه كان للمسجد النبوي أغوات في زمانه فقد أرسلوا إليه الطواشية سنة (٥٥٧) كما سبق الكلام عليه ، وأما المسجد الحرام وإن كان به خدم لكن لم يكونوا طواشية ، فطواشية المسجد الحرام حدث فيما بعد ذلك ، والقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى مولود سنة (٧٥٦) فالظاهر إما أنه إلى هذا الوقت لم يكن في المسجد الحرام طواشية ، وإما أنه لم يعثر على صورة مرسوم سلطاني لهم . والله تعالى أعلم .

ولأغوات المسجد الحرام كثير من الأوقاف المرصودة لهم في بعض البلدان كبغداد والبصرة والشام والمغرب .

أغوات المسجد الحرام في عصرنا هذا

عدد أغوات المسجد الحرام في عصرنا هذا (٢٤) أربعة وعشرون شخصاً عليهم شيخ ونقيب . فمن أعمالهم القيام بتنظيف دائرة المطاف وما يليها فقط ليلاً ونهاراً ، والقيام بخدمة الخطيب حال الخطبة على المنبر ، ولهم لباس خاص يعرفون

به ، كما لهم نظام مستقلون به ، وكل منهم له لقب خاص اصطلحوا عليه فيما بينهم ، يحترمون شيخهم ولا يخرجون عن أمره مطلقاً .

وكنا نرغب أن نأتي بنظامهم والقوانين التي يمشون عليها بدقة تامة ، لكن صرفنا النظر عن ذلك حتى لا يطول بنا الكلام .

مبدأ الرق والاسترقاق

نكتب هذا الفصل بمناسبة ما ذكرنا عن أغوات المسجد الحرام (أي الطواشي) قال في المصباح المنير : "... والرق بالكسر العبودية وهو مصدر رَق الشخص يرق من باب ضرَب فهو رقيق... ويطلق الرقيق على الذكر والأنثى وجمعه أرقاء... إلخ". اهـ.

وقال بعضهم في الرق هو : حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكاً للغير ، وفي عرف الفقهاء : عبارة عن عجز حُكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر ، والنخاسة بيع الرقيق والدواب ، والنخّاس البيَّاع أي الدلال .

ومبدأ الاسترقاق يرجع إلى العصور الأولى منذ نشأة الاجتماع الإنساني ، وهو أمر طبيعي للبشر فالقوي يُسخّر الضعيف لخدمته ، ومنذ ظهور الحروب على وجه الأرض والتطلع إلى تملك البلدان والأقوام اتسع نطاق الاسترقاق والعبودية .

فكان الرق عند قدماء المصريين والهنود والأشوريين والفرس والصينيين والعبرانيين واليونانيين "الإغريق" والرومانيين وغيرهم ، والأرقاء عند هؤلاء الأمم أنواع وأقسام ولهم نظام وقوانين عند كل أمة منهم يعاملونهم بموجبها ذكرها الأستاذ أحمد شفيق بك المصري في كتابه "الرق في الإسلام" وهو كتاب صغير الحجم يقع في ١١٢ صحيفة ، ألفه المذكور باللغة الفرنساوية وترجمه الأستاذ أحمد زكي إلى اللغة العربية وقد طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٠٩ هجرية الموافق لسنة ١٨٩٢ ميلادية بالمطبعة الأهلية الأميرية ببولاق بمصر ، والحق أنه كتاب قيم وفق فيه المؤلف أعظم توفيق ، وزاد من قيمته التعليقات والحواشي التي كتبها فيه مترجمة إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد زكي ، ونظنه هو شيخ العروبة "أحمد زكي باشا" فيما بعد .

وقد بين المؤلف في كتابه حكم الاسترقاق في بعض الديانات وكذلك في الديانة الإسلامية التي حثت على حسن معاملة الأرقاء وعلى عتقهم. ويستحسن أن نذكر ما قاله المؤلف المذكور رحمه الله تعالى في الفرع الخامس بصحيفة ٩٣ عن خلاصة ما تقدم من كتابه المذكور وهو هذا بنصه :

من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة وأقوال الأئمة وشواهد التاريخ التي سردناها في المطالب السابقة، يتضح أن الديانة الإسلامية قد حصرت من غير شك ولا مراء حدود الاسترقاق وعملت على إنضاب منبعه، إذ حتمت شروطاً وفرضت قيوداً لا بد منها لوقوع الاسترقاق، وبينت الطرق وأوضحت الوسائل التي يكون بها الخلاص من ربقته، فإذا اتفق لشخص مع كل هذه الوسائط ووقع القضاء المحتوم عليه فأوقعه في الاسترقاق، فقد رأينا أن الشريعة الإسلامية لا تتخلى عنه ولا تتركه وشأنه، بل تبسط عليه جناح حمايتها ولواء رعايتها فتعتبره جديراً بالشفقة خليقاً بالمرحمة لما تراه فيه من الضعف والمسكنة، ولذلك وردت فيها الوصايا التي تفرض على الموالي أن يعاملوا أرقاءهم كما يعاملون أنفسهم، وأن يسعوا في إسعادهم ونعومة بالهم وتأديبهم وتهذيبهم وتعليمهم، وأن لا يزدروا بهم ولا يضيعوا من قدرهم، وأن يزوجوهم أو يتزوجوهن تعجيلاً لتخليصهم من ربقة الرق وإيرادهم موارد الحرية.

هذا وإن العتق الذي جئت فقط على ذكر قواعده العمومية وأصوله المهمة على وجه الإجمال لهو والحق يقال من أفخر ما يفتخر به الإسلام، فإن شريعتنا المحمدية قد سعت في تقويض دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه، ولكن كيف العمل؟ هل كان الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ما وجد الاجتماع الإنساني وتوالت عليه الأيام والأعوام والشهور والدهور، إلا أن ذلك كان يجرّ وراءه بلا شك انقلاباً عظيماً في نظام الاجتماع، وفتنة كبيرة في نفوس الأمم والأقوام.

فلهذا جاءت شريعة الإسلام بهذه الغاية من طريق آخر تزول أمامه الصعوبات وتتذلل العقبات، بدلاً من تهييج العقول وإثارة الخواطر والأفكار، بإلغاء الاسترقاق مرة واحدة، فخوطب المسلمون بأن يتقربوا إلى الله تعالى بعتق العبيد المساكين في ظروف كثيرة وأحوال متنوعة. وحث النبي ﷺ كثيراً على السعي في نوال هذه الغاية الجليلة، ولذلك جاءت قواعد العتق في غاية السعة ونهاية اليسر،

بحيث يتسنّى دائماً للرقيق أن يجد فيها طريقاً يساعده على الخلاص من الاستعباد إذا طلب ذلك بل ولو لم يطلبه .

انتهى من كتاب "الرق في الإسلام" وهو كلام عليه طلاوة وحلاوة كما لا يخفى .

نقول : إن من أهم ما عثرنا عليه صورة العقد الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته ويتضمن عتق مولاه أبي رافع رضي الله عنه ، وهو صورة فريدة للعتق النبوي أحببنا نقلها هنا . وإليك نص العبارة :

صورة عقد عتق أبي رافع مولى رسول الله ﷺ

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه : قال القاضي ابن باديس في شرح مختصر ابن فارس نقلاً عن العمدة لأبي عبدالله التلمساني : الصحيح في اسمه أسلم لأجل عقد عتقه ونصه بخط الحكم المنتصر بالله أمير المؤمنين بن عبدالرحمن الناصر المرواني "بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من محمد رسول الله لفتاه أسلم إني أعتقك لله عتقاً مبتولاً . الله أعتقك وله المنّ علي وعليك فأنت حر لا سبيل لأحد عليك إلا سبيل الإسلام وعصمة الإيمان شهد بذلك أبو بكر وشهد عثمان وشهد علي وكتب معاوية بن أبي سفيان كان في الكتاب معاوية . ما كان بخط الحكم".

قال الشيخ أبو عبدالله : كتبته من منقول نقل من خط الحكم هـ. فهذا عقد في عتق نبوي بنصه من الذخائر المكنونة والكنوز الثمينة فتلقه شاكراً وللمغاربة ذاكراً حيث إن كلاً من الحكم المنتصر وصاحب العمدة وفوائد الدرر مغاربة ، وكأنه لم يقف عليه أحد من أعلام المشرق فلذلك لا تراه في مدوناتهم الأثرية . وسيأتي في باب الوقف ما يقتضي أن الصحابة كانوا يكتبون أوقافهم وسياق بعض نصوصها فانتظره في محله (زقلت) انتهى من كتاب التراتيب الإدارية .

ومما يلحق بهذا الفصل من باب الاستطراد : أنه في سنة (١٢٧١) إحدى وسبعين ومائتين وألف من الهجرة جاء أمر من دار السلطنة العثمانية إلى الوالي التركي بمكة كامل باشا بمنع بيع الرقيق علناً في الأسواق تنفيذاً لمعاهدة خاصة بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية فبلغه كامل باشا لدلالي الرقيق فلما علم أهالي مكة بذلك تنادوا بالجهاد واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء الشيخ

جمال شيخ وطلبوا إليـه أن لا يرضخ لما يخالف الشرع وأن ينتقل معهم إلى دار القاضي ليمنع صدور ذلك الأمر ، فلما مشت جموعهم في الشوارع انضم إليهم الجمهور ونادوا بالثورة واشتبكوا مع الأتراك في قتال عنيف وامتد القتال إلى المسجد الحرام فقتل فيه عدة أشخاص من الفريقين ، فلما انتهت الأخبار إلى الشريف عبدالمطلب وكان بالطائف غضب للأمر وجمع جموعه من القبائل لإعانة الأهالي في مكة ضد الترك ، فخف الأتراك إلى جدة وتحصنوا بها وأعلن كامل باشا في جدة أن المراسيم السلطانية قد وصلت إليه بعزل عبدالمطلب وتولية الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون... الخ ما ذكره الأستاذ السباعي بصحيفة ٣٧٥ من كتاب "تاريخ مكة" . وتؤخذ من هذه الرواية جملة أمور لا تخفى على العاقل اللبيب.

اقتناء الجواري

جاء في الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجوائب المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف من الهجرة بالآستانة عن اقتناء الجواري ما يأتي :

لا يخفى أن تملك الجواري السود بالآستانة يعد من النقم لا النعم ، فأبيّن الآن سببه بالتفصيل ، وهو أن جميع هؤلاء النساء يعتقدن بالجن والعفريت ، ويتشاءمن ويتطيرن ، وكل واحدة منهن لها في الشهر يوم معلوم ينتابها فيه الجن ، فإذا زارها طلبت أن تذهب إلى زعيمتها وقدوتها لكي تبخرها وتعزم عليها ، وإلا فإنها تلزم الفراش وتتمارض ولا تأتي شيئاً من الأعمال ، ومتى ذهبت لزمها أن تنقد الزعيمة ريالاً مجيدياً ، وإذا كان لصاحب العيلة جارية واحدة استوحشت منه ومن عيلته وداره ، وطلبت أن تشفع بأخرى لتؤانسها وتحمل عنها أثقال الخدمة ، فإذا حضرت الثانية وكانت من غير بلادها وجنسها ، وقع بينهما الخصام والنزاع ، فأدى ذلك إلى بيع إحداهما ، فإن كانت من بلادها وجنسها تآلفتا على الشر والخبائث ، ولا سيما إذا كان في الدار خادم من الرجال ، ومن عادتهن أنهن لا يخرجن إلى السوق لشراء ما يلزم لصاحب الدار من نحو المأكولات والمشروبات ، فيضطر في هذه الحالة إلى أن يكون عنده خادم مخصوص لهذا أو أنه يذهب بنفسه ويشتري ما لزمه ، فهذه حالة الجواري السود اللائي يقع عليهن البيع والشراء في

الآستانة لكونهن أسيرات ، فمن سمع من الإفرنج بأن نوعاً من جنس بني آدم يباع ويشرى، استعظم ذلك وعده مغايراً للإنسانية ، والحال أنه أسرٌ للمشتري (بكسر الراء) لا للمشترى (بفتح الراء) ، فإن الأول هو الذي يشقى ويعنى بوجود الجواري ، في حالة كونهن منعمات مترفهات ، لا يخرجن من الديار إلا للتنزه ، ولا يأتين من الأعمال إلا ما طاب لهن ، وشر ما في القضية أنه لا بد منهن ، إذ لم تجر العادة عند متوسطي الحال من أصحاب العيال ، أن يستخدموا نساء من النصارى ، وإنما يجوز ذلك لرجال الدولة ، وزد على ذلك أن مفتشي الضبطية صاروا الآن يفتشون السفن التي يجلب فيها الجواري ، فإذا ظفروا بطائفة منهن أحضروهن إلى ديوان الضبطية ، وهناك يحجز عليهن ويمنعن من البيع ، فالظاهر أن الدولة عازمة على منع جلب الرقيق رأساً ، وهو من بعض المآثر التي تبديها في هذه الأيام .

ولكن إذا كان هذا الأمر واجباً عندها وجب أيضاً أن يمنع البيع من بيوت النخاسين ، مع أنا نرى النخاسين لا يتحاشون من البيع أصلاً ، فالأولى إذاً أن تمنع البيع والجلب معاً أو تتركهما معاً ، وفي الحالة الأولى يقع الناس في داهية من الحاجة إلى الجواري ، كما وقعوا في داهية من الحاجة إلى وجود الديار ، إذ ليس في الآستانة من الخوادم من يسد مسد الجواري ، فنحتاج والحالة هذه إلى استخدام نساء النصارى أو اليهود ، إذ ليس من المحتمل أن يأتينا نساء من الأناضول أو غيرها للخدمة .

وسبب ذلك فيما قيل لي أن صاحب العيلة إذا استخدم نساء من البيض ، فربما تاقت نفسه إلى إحداهن فيتزوجها ، فتكون ضرة على زوجته الأولى ، فلهذا كان من هم النساء المتزوجات هنا أن يقتصرن على الجواري السود ، فكأنهن يزعمن أن الرجال البيض لا يشتهون النساء السود ، ولعل عدم استخدام نساء النصارى هو أيضاً من هذا القبيل ، أعني لكيلا يكون سبباً في عشق الرجال لهن فالظاهر أن الرجال هنا لا هم لهم إلا النزو على النساء ، أو أن النساء لما كن لا يفكرن إلا في الرجال لعدم اشتغالهن بشيء من أمور المعاش ، يحسبن الرجال مثلهن ، ومهما يكن من صحة أحد هذين الاحتمالين ، فالمهم الآن أن يتبصر في قضية هؤلاء الجواري ، وفي الاستغناء عنهن من قبل أن يقال لنا أن بيعهن صار محظوراً ، وقد طالما تمنينا أن تكون الآستانة سالمة من هذه المصيبة، كما سلمت تونس بل مصر أيضاً قد

أشرفت على السلامة منها ، إذ يقال أن الرقيق فيها متى شاء التخلص من الرق ذهب إلى ديوان الضبطية وطلب العتق فيعتق في الحال ، مع أن أهل تونس ومصر يمكنهم الاستغناء عن الجواري السود بنساء الأرياف ، أما في الآستانة فلا غنى عنهن ، فلا بد لصاحب العيلة العتيق أن يصير أسيراً باستخدام واحدة أو اثنتين من هؤلاء الأسيرات .

فبقي لنا أن نسأل هنا هل تداركُ هذا الأمر منوط بالجوائب أو بالمجلس البلدي أو بالدولة ؟ فإن رجع الأمر إلينا قلنا : أن استخدام النساء بالأجرة أولى من شراء الرقيق ، فإن المرأة متى كانت مستأجرة حرصت على أجرتها فقامت بواجب خدمتها أتم قيام ، وصانت أمتعة البيت عن الكسر والابتذال ، بخلاف الجواري فإنهن عفك لا يحسنّ شيئاً من الخدمة ، ولا يأتين عملاً إلا تكلفاً ، ولا يزلن في تسخط ودمدمة ، ما عدا كونهن ممنيات بزيارة الجن ، ولكن من أين الحصول على الخوادم بالأجرة ، إذا كانت العادة لا تسوغ استخدام نساء من الأناضول ، ولا من النصارى ولا من اليهود ولا من النَّوَر -الغجر- كما أنها لا تسوغ العمل لصاحبة البيت ولا لبناتها ، فإن النساء إنما خلقن هنا للزينة فقط ، فقد أعجزتنا الحيلة في أمر هؤلاء الجواري ، كما أعجزتنا في الديار وترتيب الأسواق ، فلم يبق لنا إلا تفويض ذلك إلى المجلس البلدي ، جيران سكنى الآستانة في هذه الأوقات صارت أمراً شاقاً وتعباً بائقاً ، إذ على فرض أن يكون الإنسان فيها ذا وظيفة ، فلا يجد فيها ما يأكل ولا ما يشرب ولا ما يركب ولا ما يسكن ، فأينما توجه في طلب ما يعوزه وجد دونه مصاعب ومشاقاً ، خلافاً لبلاد أوربا ، فإن الصعوبة فيها إنما هي في تحصيل الوظيفة ، فمتى حصل عليها فقد حصل على كل ما يتمناه ويشتهيه ، فما دامت هذه الحال عندنا هكذا ، فألف معلم وأستاذ ومترجم ، في دار الفنون ومجلس المعارف لا يغنون شيئاً ، وإنما هي أماني يتشاغل بها الذين لا شغل لهم ، إذ لو كان مرادنا الجد في أسباب التمدن ، لوجب علينا أن نفكر بادئ بدء ، في أن الآستانة قد خلت عن عشرة آلاف دار في الأقل ، وأنه ليس في كل خمسمائة دار قائمة فيها دكان واحد تباع فيه البقول الطيبة أو الفاكهة الناضجة أو الخبز الخاص ، وإنما هو سداد من عوز ، فأي نفع يحصل من تكثير المكاتب والكتب والمترجمين ، إذا كان بائع الخضراوات ليس عنده عرق من البقول ، وقد نرى أن كثيراً ممن ساسوا البلاد وضبطوها أحسن ضبط ، لم يكونوا يعلمون بوجود أوميروس وفرجيل

وراسين وشلر وشكسبير ، فأهم ما نحتاج إليه إنما هو الهمة ، لا الترجمة وترتيب الأسواق والدكاكين ولا تكثير المترجمين . انتهى من الكتاب المذكور .

بيع الرقيق في الآستانة

جاء في الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب من منتخبات الجوائب المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف من الهجرة بالآستانة عن بيع الرقيق في الآستانة ما يأتي :

قد تقرر في خواطر أصحاب البيوت الموسرين وغير الموسرين بالآستانة ، أنه لا بد من شراء الجواري البيض والسود لخدمتهم أو للتمتع بهن ، فتجد في بيت الموسر عدة منهن ، والغالب أن الجواري السود يخدمن في المطبخ ، وأما الجواري البيض فإنهن يستخدمن في تنظيف الحريم ، والفرش والخياطة وما أشبه ذلك ، ومن العادة أنه متى أراد أحد أن يشتري واحدة من هذه الجواري أبقاها عنده يومين أو ثلاثه للتجربة ، فتظهر الجارية في خلال ذلك غاية الخضوع والانقياد والاجتهاد في أشغال البيت والحرص على تنظيف آنيته وفرشه ، ويظن الإنسان أنه قد ظفر بضالته التي يطلبها ، حتى إذا أدى ثمنها تخلقت بأخلاق أخرى ، فتتقاعس عن العمل ، وتأخذ في تعداد محاسن البيت الذي كانت فيه أولاً فتقول إني كنت هناك آكل كذا وأشرب كذا ، وكنت أتنزه في الحدائق وأتنعم في الحمام وأخرج إلى الأسواق ، وكان لي جارية ، مخصوصة لخدمتي ، لأن سيدي الأول كان يفضلني على جميع جواريه ، بل كان يحبني حتى غارت زوجته مني فخاصمته لأجلي ، وحيث كان له منها بنون وبنات لم يسعه إغضابها فباعني ، وهو إلى الآن يحبني ويود أني أعود إليه ، ثم تأخذ في استعمال حيل ومكائد تستميل بها قلب سيدها الثاني إليها ، فتتبعه إلى مواضع خلوته وراحته ، لأنها تعلم أنها إذا علقت منه تعتق ، فلذا تجعل أقصى همها وإربها في الحصول على الحرية من هذا الوجه ، فإن من يملك جارية لا يعتقها إلا إذا علقت منه ، وإذا كان قد مضى عليها في خدمته سبع سنين وربما أعتقها لوفاء نذر عليه ، وذلك كأن يقول: إني إذا حصلت على منصب أو تزوجت فلانة أعتقت إحدى جواري ، فإذا علمت أن سيدها معرض عنها ملت الإقامة عنده ، فتأخذ في كسر آنيته وإتلاف حاجته ، وفعل ما يغيظه ويغيظ زوجته رجاء أن يبيعها ، فإذا سألتها سيدتها لأي شيء كسرت الحاجة

الفلانية ، قالت لها: إن ثمني أغلى من ثمنها ، وإن هي إلا حويجة فما ينبغي أن تشغلي خاطرك بها ، ولا تزال تأتي مثل هذه الأفعال حتى يضطر سيدها أو سيدتها إلى بيعها ، ولا يكون ذلك إلا بخسارة وهي من ألف قرش إلى ألف وخمسمائة هذا في الجواري السود ، أما في الجواري البيض فأضعاف هذا المبلغ .

وهنا مفسدة قد تواطأ عليها الذين يبيعون الرقيق ، وهي أنهم يغرون هؤلاء الجواري بعدم الإقامة عند من يشتريهن ، فإذا عزم أحدهم على بيع واحدة منهن ، قال لها: لا تمكثي عند سيدك إلا إذا أرضاك تمام الرضى ، فإذا كان لا يرضيك فاطلبي منه أن يبيعك وأنا أرى لك موضعاً آخر يليق بك ، والقصد من ذلك منفعة نفسه لا منفعة الجارية ، لأن مالك الجارية إذا أراد بيعها فإنما يبيعها في الغالب لمن اشتراها منه ، وذلك لا يكون إلا بوضع من ثمنها الأصلي كما تقدم ، ومع أن أقصى مرام هؤلاء الجواري هو التفريق ما بين الرجل وزوجته ، أو إفساد بنيه إن كان له بنون ، أو إفساد امرأته حتى يستحوذن عليها ، فما أحد من أصحاب البيوت تنبه إلى الآن لاستئصال هذا الشر ، فتراهم أبداً مدخلين جارية ومخرجين أخرى ، وهذا مع عسر الأحوال في هذه الأوقات من أعجب العجائب ، والظاهر أنه لا علاج لهذا الداء ، لأن النساء الفقيرات من الترك يستنكفن من الخدمة بل يحسبنها معرة فلا يكون بد والحالة هذه لأصحاب البيوت من شراء هؤلاء الجواري المفضي إلى خراب بيوتهم ، فكم لعمري من بيت خرب بسببهن ، إما بتطليق الرجل زوجته وأم أولاده في حب واحدة منهن ، وإما بإسرافه عليهن إن رضيت الزوجة بالإقامة معه ، وإما أنهن يحرقن البيت بما فيه تشفياً من حنقهن على سيدتهن ، وإما لسبب آخر ولا أكثر من الأسباب التي تخرب بها البيوت العامرة .

على أنك إذا تأملت في أصل بيع هؤلاء الجواري ، علمت أنه فاسد لا يسوغه مسوغ سوى العادة ، إذ هو مخالف للإنسانية فضلاً عن كونه مغاير للدين أما الجواري من الجركس ، فكل يعلم أن أهلهن وأقاربهن هم الذين يبيعونهن ، وذلك لعدة أسباب :

أحدها : أن الجراكسة في الزمان القديم كانوا يغيرون على أعدائهم ويسبون منهم وكانوا يبيعون السبي ، ثم اختلط سبيهم بذراريهم فلم يهمهم تميز أحدهما عن الآخر .

والثاني : أنهم كانوا يزعمون أن بيع الجـواري والغلمـان في الممـالك العثمانيـة الإسلامية ، أولى من إقامتهم تحت الحكومة الروسية .

والثالث : ولعله أعظم الأسباب أنه يبلغهم عن دار الخلافة أنها دار عز وسعادة وثروة ووجاهة ، فإذا باعوا ذريتهم لأحد مـن عظمائهـا ترجـو أن ذلـك يكـون في المستقبل مفيداً لهم ، فضلاً عن فائدة الثمن ، حتى أن البنـات ليلتمسـن مـن آبـائهن بإلحاح أن يبيعوهن ، إذ يزعمن أنهن متى جئن إلى دار الخلافة وجدن جميع أبـواب الحظ والرفاهية مفتحة لهن ، فيلبسن الديباج ، ويتحلـين بالمـاس والزمـرد واليـاقوت والدر والمرجان ، ويتنعمـن في الحمـام ويتنزهن في الحدائق ، ويركبن الكروسـات البهية ، ويتكئن على الأرائك المزخرفة ، ويرقدن على فرش مرفوعـة محشـوة بريـش النعام ، ويتلذذن بأفخر الطعام ، ويقوم بين أيديهن عدة من الوصائف .

فأين هذه العيشة من عيشـة الجبـال ، ورعايـة الماشـية وجمـع الحطـب ، وحمـل الأحمال الثقيلة ، مع التقشف والتردي بأخلاق الشباب ، وتحمل حر الصيـف وبـرد الشتاء ، وفي الحقيقة فإن كثيراً من أمـاني هـؤلاء الجـواري قـد صـح ووقـع فعـلاً ، وكثيراً من أولئك الآباء الذين طابت نفوسهم عن بيع ذريتهـم قـد انتفعـوا بغيـابهم عنهم أكثر من نفعهم بحضورهم عندهم ، فإن الأب متى عرف أن بنته استقرت في دار أحد الأمراء وحظيت عنده انتابها حيناً فحينـاً ، ونـال مـن فواضـل سيدهـا مـا يطيب عيشه به، ولقد بلغنا عن كثير من هؤلاء الجواري أنهن يعترفن جهـراً بـأنهن حرائر ، وأن بعض أقاربهن هم الذين باعوهن ، لنفع كـل مـن الفريقـين ، إلا أنهـن يخترن عيشة الأسْر على عيشة الحرية ، فإنهن في حالة الحريـة مجهـودات لا يظهـرن لهن مع جهدهن حسـن ولا جمـال ، فمـا يتصبين والحالـة هـذه أحـداً مـن النـاس ، بخلاف ما إذا ترفهن وتنعمن في حالة الأسر ، فإنهن يطمعن حينئذ في أن ينتقلن من دار إلى صرح ، ومن غني إلى أغنى ، إلى أن يتمتعن بجميع لذات المعيشة ، فبقـي لنـا أن نسأل أهل الرشد والإنصاف هل يجوز للأب أن يبيع أولاده لأجل هـذا النفـع ، أم يجوز إبقاء هذه العادة الذميمة مراعاة لشهوات الأغنيـاء القـادرين علـى مشـتري الجواري ، وهل أحد بذل جهده عند شـراء واحـدة منهـن في تحقيـق معرفـة حالهـا ليعلم هل هي حرة أو سبي ؟ كلا ، وإنما هي نهمة البطرين المترفين على تملـك هـذا الجيل ، لما تقرر في عقولهم من أن وصائف السراية السلطانية منه ، فيتهافتون عليهن كيفما اتفق.

لعمري إن من ولد في دار الإسلام مسلماً لجدير بأن يكون حراً وإن كان أبوه أو جده أسيراً ، ولكن متى كان هذا الأسر وأين الدليل عليه ، وكيف أمكن للجراكسة أن يحفظوا علم ذلك عندهم منذ مائتي سنة ، وكثيراً ما ترى أحدهم قادماً إلى الآستانة ومعه أطفال صغار يشبهونه خلقاً وهيئة فإذا أشبعته أحدهم باعه في الحال ، فكيف يمكن أن يحكم بأن أصل هؤلاء الأطفال أسرى وهم يشبهونه ؟ وهب أن أصلهم من السبي فكان من الواجب أن كل من يضع قدمه في أرض الآستانة يصير حراً ، ومع أن الدولة العلية قد نهت عن بيع الجراكسة منذ سنتين فأكثر ، وبذلك طبلت جرنالات الإفرنج المنشورة فيها وزمرت ، فلم يزل هذا الأمر مباحاً لكل واحد ، فكل من أراد أن يشتري جارية بكراً كانت أو ثيبة وجدها على طرف الثمام .

وأما تشريف الجواري السود لهذه الأوطان فله سببان :

أحدهما : أن سكان البلاد المجاورة لبلادهن يخطفونهن خطفاً ، ثم يأتون بهن إلى بعض الجهات التي يروج فيها بيعهن ويبيعونهن بثمن بخس .

والثاني : أن قبائل بلاد السودان الذين دأبهم القتال وشن الغارات والنهب ، متى ظفرت قبيلة بأخرى باعت نساءها وأولادها وأفنت رجالها .

والذي يفهم من كلام الجواري أن أولئك القبائل مسلمون ، فإذا أخذنا بقولهن واعتبرنا طريقة الخطف حكمنا بأن بيعهن حرام قطعاً ، وإذا فرضنا أن تلك القبائل ليسوا على الإسلام ، فالسياسة تقتضي منع هذه التجارة الذميمة ، فإن الدولة الروسية قد حررت جميع من كان في بلادها على حالة العبودية وكان مقدارهم عظيماً ، وكذلك دولة أمريكا الشمالية حاربت سكان الجنوب أربع سنين لإبطال العبودية من أرضها ، مع أن أهل الجنوب كانوا من ذوي قرابتهم ، والآن لا يوجد في روسية وأميركا أحد رقيقاً ، فكلهم نالوا الحرية التامة ، فأجدر بالدولة العلية أن تعتق من في بلادها من العبيد والإماء وإننا أجدر الناس جميعاً بهذا العمل الخيري من عدة أوجه:

أولها : أن هؤلاء الجواري لا يحسن الخدمة اللازمة لأصحاب العيال ، فإنهن لا يعرفن الخياطة ، ولا غسل الثياب ، ولا تنظيف الديار ، ولا تنضيد فرشها ، حتى الطبيخ لا يدرين منه شيئاً معجباً لذي الذوق السليم ، مع أنهن إنما يشترين له .

والثاني : أن عددهن بالنسبة إلى عبيد أمريكا قليل جداً ، وإن يكن في كل دار من ديار الآستانة واحدة منهن أو أكثر ، إذ داخل المملكة خال بحمد الله منهن ، فلا تكاد ترى لهن هناك عيناً ولا أثراً ، وإن رأيت فإنما يكون في بيت أحد المأمورين الذين ساروا من الآستانة إلى بعض المدن في خدمة ما للدولة ، فإنهم إذا استخدموا في الخارج نقلوا معهم من كان عندهم بالآستانة من العبيد والجواري والأتباع .

والثالث : أن هؤلاء الجواري شكسات الأخلاق متكبرات لا يقبلن التأديب والتربية ، إذ يزعمن أن النبي ﷺ كان من السود ، وهذا مسبب عن أحد أمرين إما لاعتقادهن أن اللون الأسود خير من اللون الأبيض ، حتى أنهن ينبزن البيض بحمر الآذان ، وإما لأن أهل الآستانة يدعون جنس السود غرباً ما عدا الجواري اللاتي كن في مكة ، والمدينة ، فإنهن يعرفن أن هذا الزعم باطل ، إلا أنهن يكتمن ما عرفنه من هذه الحقيقة .

والرابع : إنك لا تكاد ترى واحدة منهن سليمة في العقل والبدن ، أما في العقل فلأنهن جميعاً يعتقدن بوجود روح من الأرواح التي تتولى أفعال بني آدم في زعمهن ، ويقال له بلغتهن برى ، فيزعمن أنه ينتابهن في المنام ويأمرهن وينهاهن ، فيقول لهن مثلاً: لا تمكثن في هذه الدار فإنكن تبتلين فيها بشر وسوء ، فمهما تكن المرأة منهن مستريحة في الأعمال والأشغال عند أحد ، فإذا رأت الروح ينهاها عن الإقامة عنده طلبت منه أن يبيعها ، ولهن يوم معلوم في السنة يجتمعن فيه ويبدين من الكلام والحركات ما يعجب منه ، فمنهن من تنطق بالمغيبات ، ومنهن من تلطم صدرها وتبخع نفسها كما تفعل العجم في يوم عاشوراء ، ومنهن من تذبح ضحية لوفاء نذر ، ومنهن من تضرب بالدف أو تغني ، كل ذلك لإرضاء البري وإيفاء ما اقترحه عليهن ، وأما في البدن فلأن هواء إسلامبول شديد عليهن ، فإذا بلغن سن الكهولة لا يصلحن لشيء من الخدمة .

والخامس : أنه قد صار من العادة في هذه الأيام الأخيرة ، أن ذات المقام من الحرائر تستحي من أن تستصحب إلى الأسواق والشوارع امرأة سوداء ، وإنما تؤثر الجواري البيض ، لأن أصل مشترى السود للمطبخ .

والسادس : أنه يظهر أن الدولة العلية يعنيها إبطال العبودية ، فقد نهت عن بيعهن في المزاد ، إلا أن النخاسين لما لم يكن عليهم رقيب دائم من طرف

الضابطية ، وكان حب الكسب مستحوذاً على قلوبهم من أي وجه كان ، لم يكن ليردعهم عن المزاد نهي ولا أمر ، فهم يأتونه اليوم كما كانوا يأتونه في السابق ، وعندي أن البيع في البيوت وفي المزاد على حد سواء كلاهما خبيث .

والسابع : هو أن هؤلاء الجواري لا يخرجن إلى السوق لشراء ما يلزم لمالكهن من المأكول والمشروب ، وإنما يخرجن للتنزه أو للحمام ، فإذا لزم للمالك شيء من ذلك تعين عليه أن يذهب بنفسه ويشتريه ، أو أنه يستخدم رجلاً مخصوصاً ، وحينئذ تقوم الحيل والمكائد المفضية إلى الفساد بينه وبينهن .

وهناك أسباب أخرى عديدة توجب على كل ذي همة ومروءة ، أن يسعى في إبطال هذه العبودية من الديار الإسلامية ، وفي اتخاذ طريقة تغني عنها . انتهى من الكتاب المذكور .

نقول : لقد كان بيع الأرقاء من نساء ورجال وأطفال أمراً شائعاً في جميع المملكة العربية السعودية إلى مدة قريبة ثم إنه في سنة (١٣٨١) ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية أبطلت الحكومة السعودية بيع كل ذلك ومنعت بيع الرقيق بتاتاً ، ولقد أحسنت في ذلك لأن وجود الرقيق في عصرنا لا يقره ديننا الحنيف لعدم توفر شروط الرق الآن .

الاسترقاق

ويعجبنا ما كتبه السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى عن التسرِّي الصحيح في الإسلام فقال ما نصه : كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الأمم الحاضرة من التسري واتخاذ الأخدان فهو في شرع الإسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب ، وكل من يستبيح هذا الفجور الخفي وما هو شر منه من السفاح الجلي فهو بريء من دين الإسلام . وأما التسري الشرعي المباح في الإسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية إذا أمر إمام المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن ، وإنما يكون له أن يأمر بذلك إذا ثبت عنده بمشاورة أهل الحل والعقد ، أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق ، ومن افتداء أسرى المسلمين وسباياهم بهنّ ، إن وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجباً في الإسلام ، لكنه يباح إذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة ، ولكل حكومة إسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الإسلام

العامة ، والاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود والبيض كله باطل في الإسلام ، فالتسرِّي بالنساء اللاتي يختطفهن النخّاسون أو يبيعهن الآباء والأقربون أو يغريهن التجار والقوّادون ، كله عصيان لله ولرسوله . انتهى كلامه نقلاً عن كتاب حاضر العالم الإسلامي .

إحرام الكعبة في موسم الحج

معنى إحرام الكعبة إلباسها الإزار الأبيض من أسفلها إلى ما فوق الحجر الأسود بقليل ، وذلك قبيل الطلوع إلى عرفات بأيام أي في اليوم السابع من ذي الحجة ، فتلبس الكعبة الإحرام كما يلبسه المحرم بالنسك ، وفي ذلك من التجاوز اللفظي ما لا يخفى ، إذ ليس من المعقول أن يراد بإحرامها حقيقة الإحرام المراد به شرعاً ، وسبب إحرام الكعبة في الموسم هو المحافظة على كسوتها الأصلية حتى لا تصل إليها أيدي الحجاج فتتمزق من كثرة لمسهم بأيديهم كما سيظهر ذلك مما سيأتي .

جاء في رحلة ابن جبير الأندلسي التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية عن إحرام الكعبة المشرفة ما يأتي :

وفي هذا اليوم المذكور الذي هو السابع والعشرون من ذي القعدة شمرت أستار الكعبة إلى نحو قامة ونصف عن الجدار من الجوانب الأربعة ويسمون ذلك إحراماً لها فيقولون : أحرمت الكعبة . وبهذا جرت العادة دائماً في الوقت المذكور من الشهر ، ولا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة ، فكأن ذلك التشمير للسفر ، إيذاناً بقرب وقت وداعها المنتظر ، لا جعله الله آخر وداع وقضى لنا إليها بالعودة وتيسير سبل الاستطاعة بعزته وقدرته .

ثم قال ابن جبير بعد هذا الكلام بسبعة أسطر : وفي يوم إحرام الكعبة المذكور أقلعت عن موضع المقام المقدس -يعني مقام إبراهيم عليه السلام- القبة الخشبية التي كانت عليه ووضعت عوضها قبة الحديد إعداداً للأعاجم المذكورين ، لأنها لو لم تكن حديداً لأكلوها أكلاً فضلاً عن غير ذلك ، لما هم عليه من صحة النفوس شوقاً إلى هذه المشاهد المقدسة وتطارحهم بإحرامهم عليها ، والله تعالى ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه . انتهى من رحلة ابن جبير .

ومثل ما تقدم قال ابن بطوطة في رحلته أيضاً عن إحرام الكعبة وكانت حجته سنة (٧٢٨) هجرية وهذا نص كلامه في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة: تشمر ستارة الكعبة الشريفة إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صوناً لها من الأيدي أن تنتهبها ويسمون ذلك إحرام الكعبة وهو يوم مشهور بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة. انتهى.

نقول: وأما إحرام الكعبة في عصرنا هذا، فإن سدنتها يُعلِّقون عليها إزاراً من قماش "البَفْتة البيضاء" يحيط بها من جميع الجهات من أسفلها ويكون ارتفاع القماش نحو قامة أو أكثر بقليل، وذلك في اليوم السابع من ذي الحجة في كل عام.

ولم نعلم متى كان ابتداء وضع الإحرام عليها وما سبب ذلك، والذي نظنه أن ابتداء عمل ذلك كان بعد الإسلام إما في زمن يزيد بن معاوية أو في زمن المأمون، فقد روى الأزرقي عن جده قال: كانت الكعبة تكسى في كل سنة كسوتين كسوة ديباج وكسوة قباطي، فأما الديباج فتكساه يوم التروية فيعلق عليها القميص ويدلى ولا يخاط، فإذا صدر الناس من منى خيط وترك الإزار حتى يذهب الحجاج لئلا يخرقونه، فإذا كان العاشوراء علق عليها الإزار فوصل بالقميص، فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان فتكسى القباطي للفطر.

انظر: صورة رقم ١٠٨، المسجد الحرام وترى فيه الكعبة المعظمة وقد وضعوا في أسفلها إزاراً من القماش الأبيض تشبيهاً بالإحرام

قال: فلما كانت خلافة المأمون رُفع إليه أن الديباج يبلى ويتخرق قبل أن يبلغ الفطر ويرقع حتى يسمج فسأل ابن مبارك الطبري مولاه وهو يومئذ على بريد مكة وصوافيها: أيّ كسوة الكعبة أحسن فقال له: البياض. فأمر بكسوة من ديباج أبيض فعملت فعلّقت سنة (٢٠٦) فأُرسل بها إلى الكعبة، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كِساً: الديباج الأحمر يوم التروية، وتكسى القباطي يوم هلال رجب، وجعلت كسوة الديباج الأبيض التي أحدثها المأمون يوم ٢٧ من شهر رمضان للفطر، فهي تكسى إلى اليوم ثلاث كِساً.

قال : ثم رفع إلى المأمون أيضاً أن إزار الديباج الأبيض الذي كساها يتخرّق ويبلى في أيام الحج من مس الحجاج قبل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر الذي يخاط في العاشور ، فبعث بفضل إزار ديباج أبيض تكساه يوم التروية أو يوم السابع فيستر به ما تخرق من الإزار الذي كسيته للفطر إلى أن يخاط عليها الديباج الأحمر في العاشور... إلى آخر كلام الإمام الأزرقي و لم ننقله كله لأن فيما تقدم كفاية للاستدلال والاستنتاج .

نقول : نستنتج مما تقدم أن إحرام الكعبة منذ العصور السابقة كان بسبب كثرة مس الحجاج للكسوة وتمسحهم بها فتتخرق وتتلف من ذلك ، فصوناً لكسوتها الأصلية ومحافظة عليها ، يعمل للكعبة إزار بقدر قامة واحدة تقريباً يحيط بها من جميع جوانبها ، ولون الإزار يكون دائماً أبيض كما كان في عهد المأمون وإلى عصرنا هذا هو كذلك تحرم الكعبة بالإزار الأبيض . وكانت تكسى به يوم ٢٧ ذي القعدة ، أو سابع ذي الحجة أو ثامنة وهو يوم التروية .

ونستنتج أيضاً أن إحرام الكعبة في موسم الحج لم يكن زمن الجاهلية وإنما حدث بعد الإسلام إما في زمن يزيد بن معاوية أو في عهد المأمون كما تقدم الكلام عن ذلك . وا لله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

(والخلاصة) أن سدنة الكعبة المعظمة آل الشيبي الفضلاء ، يضعون الإزار الأبيض على الكعبة المشرفة في صباح اليوم السابع من شهر ذي الحجة في كل عام إلى اليوم حسب العادة القديمة ، فإذا رآها الناس على هذه الصفة قالوا : قد أحرمت الكعبة ، وعلموا في يوم إحرامها ووضع الإزار الأبيض حولها من أسفلها أن ذلك اليوم هو اليوم السابع من الشهر بيقين ثابت ، وأن تاسع ذي الحجة وهو يوم الوقوف بعرفة سيكون يوم كذا ، ويستعدون للخروج إلى عرفات . وسدنة الكعبة وفقهم ا لله تعالى وأدام عليهم الخيرات لا يحيطونها بالإزار الأبيض من أسفلها إلا بعد غسيل داخلها بماء زمزم الممزوج بالعطر في صباح اليوم السابع من ذي الحجة من كل عام ، وهي عادة حسنة جروا عليها من عصور قديمة ، ليعلم الناس يوم الوقوف بعرفة على التحقيق فلا يداخلهم الشك والظنون ، وإذا نظرنا أنه لم يكن قد ظهرت الجرائد والمجلات في البلاد ، و لم تكن الإذاعات والراديو موجودة في العصور السابقة ، علمنا أن وضع الإزار الأبيض على الكعبة المعظمة في اليوم السابع

من ذي الحجة تعيين يوم الوقوف ، فسبحان الملهم والموفق إلى سبيل الخير والرشاد .

تجريد الكعبة من كسوتها عند تجديدها

ما هناك بأس من تجريد الكعبة المعظمة من كسوتها القديمة لتلبيسها كسوة جديدة ، فقد كانت في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بدون كسوة حتى جاء تبّع الحميري فكساها فهو أول من كساها على أشهر الأقوال .

وكان في الجاهلية إذا بلي شيء من كسوة الكعبة يطرح فوقها ثوب آخر ، قال في الإعلام : روى الأزرقي عن ابن مليكة قال: كان يهدى للكعبة هدايا فإذا بلي شيء منها جعل فوقه ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شيء اهـ . ولا يخفى الآن أن بقاء الثياب الخلِقة الممزقة البالية على بيت الله الجليل ليس من الذوق السليم ولا يستحسنه أرباب العقول وذو الألباب ، وأهل الجاهلية معذورون بالنسبة لزمانهم ، وما كان إبقاؤهم للثياب البالية على الكعبة إلا عن اعتقاد وحسن نية . فلما جاء الإسلام تنورت الأفكار وترقت المدارك ، فكان أول من جرّد الكعبة لتنظيفها وتخفيف ثياب الجاهلية عنها وإلباسها كسوة جديدة مع تطييبها بالعطر الغالي هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحَجبي الذي ينتهي إليه نسب سدنة الكعبة وهم الشيبيون . فقد روى الأزرقي عن عطاء بن يسار قال : كانت قبل هذا لا تجرد -يعني الكعبة- إنما يخفف عنها بعض كسوتها وتترك عليها حتى كان شيبة بن عثمان فهو أول من جرّدها وكشفها اهـ .

وروى الأزرقي في تاريخه أيضاً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينزع كسوة البيت في كل سنة فيقسمها على الحاج فيستظلون بها على السمُر بمكة ، وروى أيضاً عن عبدالجبار بن الورد المكي قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول : كانت على الكعبة كسى كثيرة من كسوة أهل الجاهلية من الأنطاع والأكسية والكرار والأنماط فكانت ركاماً بعضها فوق بعض فلما كسيت في الإسلام من بيت المال كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء وكانت تكسى في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي يؤتى به من مصر غير أن عثمان رضي الله عنه كساها سنة بروداً يمانية أمر بعملها عامله على اليمن يعلى بن منبه فكان أول من ظاهر لها كسوتين ، فلما كان معاوية كساها الديباج مع القباطي فقال شيبة بن

عثمان : لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية فخفف عنها حتى لا يكون مما مسه المشركون شيء لنجاستهم فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام فكتب إليه أن جردها وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباطي وحبرة ، قال : فرأيت شيبة جردها حتى لم يترك عليها شيئاً مما كان عليها وخلق جدرانها كلها وطيبها ثم كساها تلك الكسوة التي بعث بها معاوية إليها وقسم الثياب التي كانت عليها على أهل مكة وكان ابن عباس حاضراً في المسجد الحرام وهم يجردونها قال : فما رأيته أنكر ذلك ولا كرهه .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج عن عبدالحميد بن جبير بن شيبة قال : جرد شيبة بن عثمان الكعبة قبل الحريق فخلقها وطيبها قلت : وما تلك الثياب ؟ قال: من كل نحو كرار وأنطاع وخيراً من ذلك وكان شيبة يكسو منها حتى رأى على امرأة حائض من كسوته فدفنها في بيت حتى هلكت -يعني الثياب- .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن إبراهيم بن يزيد عن ابن أبي مليكة قال: رأيت شيبة بن عثمان جرد الكعبة فرأيت عليها كسوة شتّى كراراً وأنطاعاً ومسوحاً وخيراً من ذلك . حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبدالحكيم بن عبدالله بن أبي فروة عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار قال : قدمت مكة معتمراً فجلست إلى ابن عباس في صفّة زمزم وشيبة بن عثمان يومئذ يجرد الكعبة قال عطاء بن يسار : فرأيت جدارها ورأيت خلوقها وطيبها ورأيت تلك الثياب التي أخبرني عمر بن الحكم السلمي أنه رآها في حديث نذر أمه البدنة قد وضعت بالأرض فرأيت شيبة بن عثمان يومئذ يقسمها أو قسم بعضها فأخذت يومئذ كساء من نسج الأعراب فلم أر ابن عباس أنكر شيئاً مما صنع شيبة بن عثمان قال عطاء بن يسار : وكانت قبل هذا لا تجرد إنما يخفف عنها بعض كسوتها وتترك عليها حتى كان شيبة بن عثمان أول من جردها وكشفها . وأخبرني محمد بن يحيى قال : حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن ابن جريج عن عبدالحميد بن جبير بن شيبة أنه قال : جرد شيبة بن عثمان الكعبة قبل الحريق من ثياب كان أهل الجاهلية كسوها إياه ثم خلقها وطيبها قلت : وما كانت تلك الثياب ؟ قال : من كل ، كراراً وأنطاعاً وخيراً من ذلك وكان شيبة يقسم تلك الثياب فرأى على

امرأة حائض ثوباً من كسوة الكعبة فرفعه شيبة فأمسك ما بقي من الكسوة حتى هلكت -يعني الثياب- .

ثم قال الإمام الأزرقي : سمعت غير واحد من مشيخة أهل مكة يقول : حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين ومائة فجرد الكعبة وأمر بالمسجد الحرام فهدم وزاد فيه الزيادة الأولى ، وأخبرني عبدا لله بن إسحاق الحَجبي عن جدته فاطمة بنت عبدا لله قالت : حج المهدي فجرد الكعبة وطلى جدرانها من خارج بالغالية والمسك والعنبر قالت : فأخبرني جدك - تعني زوجها محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحَجبي . قال : صعدنا على ظهر الكعبة بقوارير من الغالية فجعلنا نفرغها على جدران الكعبة من خارج جوانبها كلها وعبيد الكعبة قد تعلقوا بالبكرات التي تخاط عليها ثياب الكعبة ويطلون بالغالية جدرانها من أسفلها إلى أعلاها قال أبو محمد الخزاعي : أنا رأيتها وقد غير الجدر الذي بناها الحجاج مما يلي الحجر وقد انفتح من البناء الأول الذي بناه ابن الزبير مقدار إصبع من دبرها ومن وجهها وقد رهم بالجص الأبيض -ومعنى رهم أي: طلي بالجص-.

وحدثني جدي قال : حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين ومائة فرُفع إليه أنه قد اجتمع على الكعبة كسوة كثيرة حتى أنها قد أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقل الكسوة فجردها حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ثم ضمخها من خارجها وداخلها بالغالية والمسك والعنبر وطلى جدرانها كلها من أسفلها إلى أعلاها من جوانبها كلها ثم أفرغ عليها ثلاث كسى من قباطي وخز وديباج والمهدي قاعد على ظهر المسجد مما يلي دار الندوة ينظر إليها وهي تطلى بالغالية وحين كسيت . ثم لم يحرك ولم يخفف عنها من كسوتها الشيء حتى كان سنة المائتين وكثرت الكسوة أيضاً عليها جداً فجردها حسين بن حسن الطالبي في الفتنة وهو يومئذ قد أخذ مكة ليالي دعت المبيضة إلى أنفسها وأخذوا مكة فجردها حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ، قال جدي : فاستدرت بجوانبها وهي مجردة فرأيت جدات الباب الذي كان ابن الزبير جعله في ظهرها وسده الحجاج بأمر عبدالملك فرأيت جداته وعتبه على حالها وعددت حجارته التي سد بها فوجدتها ثمانية وعشرين حجراً في تسعة مداميك في كل مدماك ثلاثة أحجار إلا المدماك الأعلى فإن فيه أربعة أحجار . رأيت الصلة التي بنى الحجاج مما يلي الحجر حين هدم ما زاد ابن الزبير قال : فرأيت تلك الصلة بينه في الجدر وهي كالمتبرية من الجدر الآخر ، قال

إسحاق : ورأيت جدارتها كلون العنبر الأشهب حين جردت في آخر ذي الحجة من سنة ثلاث وستين ومائتين وأحسبه من تلك الغالية ، وقال: وكان تجريد الحسين بن الحسن إياها أول يوم من المحرم يوم السبت سنة مائتين ، ثم كساها حسين بن حسن كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء ، والأخرى بيضاء مكتوب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأخيار أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية إلى محمد بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام ، قال أبو الوليد : وابتدأت كسوتها من سنة المائتين وعدتها إلى سنة أربع وأربعين ومائتين : مائة وسبعون ثوباً ، قال محمد الخزاعي : وأنا رأيتها وقد عمر الجدار الذي بناه الحجاج مما يلي الحجر فانفتح من البناء الأول الذي بناه ابن الزبير مقدار نصف إصبع من وجهها ومن دبرها وقد رهم بالجص الأبيض وقد رأيتها حين جردت في آخر ذي الحجة سنة ثلاث وستين ومائتين فرأيت جدارتها كلون العنبر الأشهب من تلك الغالية . انتهى كلام الإمام الأزرقي عن تجريد الكعبة المشرفة ، وقد نقلنا كلامه كله لما فيه من الفوائد المتعددة .

ثم رأينا أن الإمام السيوطي رحمه الله تعالى ذكر في كتابه "حسن المحاضرة" أنه في اليوم الثامن عشر ربيع الآخر سنة (٦٤٤) أربع وأربعين وستمائة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ومكثت إحدى وعشرين يوماً ليس عليها كسوة . انتهى من الكتاب المذكور .

والظاهر أن هذه الريح كانت أشد عاصفة بمكة حتى ألقت بستارة الكعبة ، ولم تمكث بدون ستارة هذه المدة الطويلة إلا لأنها مزقت تمزيقاً بحيث احتاجت إلى إصلاحها مدة طويلة . والله يعلم كم ألحقت هذه الريح بالناس من الخسارة . نسأل الله السلامة والعافية .

وفي تاريخ القطبي أنه في سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة حينما أجرى الأمير سودون العمارة بالمسجد الحرام جرد الكعبة من كسوتها لإصلاح سقفها وخشبها فاستمرت مجردة يومين وليلتين يشاهد الناس أحجارها إلى أن أكمل ترميمها وإصلاحها ، ثم أعيدت الكسوة عليها في ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر من السنة المذكورة . اهـ.

أما في زماننا هذا فقد بقيت الكعبة الشريفة مكشوفة بدون ستارة ولا ثوب ، بسبب تجديد سقفها الذي كان بدؤه في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، وكان انتهاؤه يوم السبت الحادي عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة .

لكن الكعبة لم تظهر للناس مكشوفة منذ بدء عمارتها إلى انتهائها بسبب إحاطتها كلها بالخشب من أرض المطاف إلى ما فوق سطحها بنحو متر ونصف متر ، وإنما ظهرت الكعبة مكشوفة للناس تماماً منذ إزالة الخشب عنها ، بعد انتهاء ترميمها وعمارة سقفيها كما فصلنا ذلك في محله ، وذلك من بعد المغرب من ليلة الأحد الثاني عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة إلى ضحى اليوم المذكور فقط ، أي إلى قبل الظهر بساعتين ، فإنه في ضحى هذا اليوم ألبسوها ثوبها الأسود فسترت حجارتها عن أعين الناس ، وقد تركوها كذلك ليلة واحدة وجزءاً من النهار ، لينظر الناس إلى عمارتها .

الكلام على من يهدم الكعبة في آخر الزمان

قال الإمام الأزرقي : حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال : حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد ابن العاص السعيدي عن عبدا لله بن عمرو ابن العاص أنه قال: اخرجوا يا أهل مكة قبل إحدى الصيلمين قيل : وما الصيلمان قال : ريح سوداء تحشر الذرة والجعل ، قيل : فما الأخرى ؟ قال : تجيش البحر بمن فيه من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهوا إلى الكعبة فيخربونها والذي نفس عبدا لله بيده لأنظر إلى صفته في كتاب ا لله أفيحج أصيلع قائماً يهدمها بمسحاته ، قيل له : فأي المنازل يومئذ أمثل؟ قال : الشعف يعني رؤوس الجبال .

حدثني جدي عن ابن عيينة عن زياد بن سعد عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول ا لله ﷺ: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة .

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبدا لله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول : كأني به أصيلع أفيدع قائماً عليها يهدمها بمسحاته قال مجاهد : فلما هدم ابن الزبير الكعبة جئت أنظر هل أرى الصفة التي قال عبدا لله بن عمرو : فلم أراها .

حدثني جدي قال: حدثنا ابن عيينة عن هشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أبي العالية عن علي بن أبي طالب أنه قال: استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه فكأني أنظر إليه حبشياً أصيلع أصيمع قائماً عليها يهدمها بمسحاته.

حدثني جدي قال: حدثنا ابن عيينة عن أمية بن صفوان بن عبدا لله ابن صفوان عن جده عبدا لله بن صفوان عن حفصة أنها قالت: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ليؤمن هذا البيت حبش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأوسطهم وينادي أولهم آخرهم فخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم، فقال رجل لجدي: أشهد ما كذبت على حفصة ولا كذبت حفصة على رسول ا لله ﷺ قال أمية: فلما جاء جيش الحجاج لم نشك أنهم هم حبش.

حدثني مهدي ابن أبي المهدي قال: حدثنا عبدالرحمن بن عبدا لله مولى بني هاشم قال: حدثنا سعيد بن سلمة عن موسى بن جبير بن شيبة عن أبي أمامة بن سهل عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال: اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السوقيتين من الحبشة.

حدثني جدي قال: حدثنا بن عيينة عن موسى بن أبي عيسى المديني قال: لما كان تبع بالدف من جمدان دفت بهم دوابهم وأظلمت عليهم الأرض فدعا الأحبار فسألهم فقالوا: هل هممت لهذا البيت بشيء؟ قال: أردت أن أهدمه قالوا: فانو له خيراً تكسوه وتنحر عنده ففعل فانجلت عنهم الظلمة قال: وإنما سمي الدف من أجل ذلك.

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني رجل عن سعيد بن إسماعيل أنه سمع أبا هريرة يحدث أبا قتادة أن رسول ا لله ﷺ قال: يبايع للرجل بين الركن والمقام ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب وتأتي الحبش فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه. انتهى من تاريخ الأزرقي.

ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب

الكعبة المشرفة واقعة بوسط المسجد الحرام مكشوفة تحت السماء، لا يسترها شيء عن الشمس والمطر والرياح.

ولم تستر الكعبة كلها بالخشب منذ بناء إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا إلا ثلاث مرات فقط، وتفصيل ذلك كما يأتي:

المرة الأولى: حين بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، فإنه لما هدمها حتى ألصقها بالأرض من جميع جوانبها، وذلك في يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين هجرية أرسل إليه عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما وكان غائباً من مكة يقول له: لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون إليها، ففعل ذلك ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

والمرة الثانية: حين بناء السلطان مراد الرابع، فإنه وقع مطر عظيم بمكة وضواحيها لم يسبق له مثيل، ونزل معه برد كثير فهجم السيل على مكة ودخل المسجد الحرام فامتلأ بالماء حتى بلغ إلى ما فوق باب الكعبة، أي بلغ ارتفاع الماء أكثر من أربعة أمتار، فانهدم بسببه جدران الكعبة المشرفة كما بينا تفصيله في محله، وكان ذلك في التاسع عشر وفي العشرين من شهر شعبان سنة (١٠٣٩) تسع وثلاثين وألف هجرية، فشرع المهندس علي بن شمس الدين يستر حول الكعبة بأخشاب من جذوع النخل استعداداً لبناء الكعبة وعمارتها، واستمر العمل في ذلك سبعة عشر يوماً -من ٢٦ رمضان إلى ١٣ شوال من السنة المذكورة- ثم ألبست هذه الأخشاب ثوباً صبغ باللون الأخضر.

والمرة الثالثة: ما وقع في عصرنا هذا، فإنه لما أمر الملك السابق سعود بن عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بتعمير سطح الكعبة المعظمة زادها الله شرفاً ومهابة وإجلالاً وإصلاح ما فيها من خراب.

قام بمباشرة هذا العمل الجليل المبارك معالي الشيخ محمد بن لادن الحضرمي المكي يساعده في ذلك الشهم الكريم سعادة الشيخ عبدالله بن سُعَيّد، بضم السين المهملة وفتح العين وتشديد الياء المكسورة. فأحضروا قبل كل شيء الخشب والنجارين وجميع ما يلزم من العمال والأدوات.

فلما كان ليلة السبت لإحدى وعشرين من جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، ولأحد عشر من شهر يناير سنة (١٩٥٨) ثمان وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، ولعشرين من شهر الجدي سنة (١٣٣٦) ست

وثلاثين وثلاثمائة وألف شمسية ، قاموا في هذه الليلة بتركيب الأخشاب حول الكعبة المشرفة ، وذلك بعد صلاة العشاء في المسجد الحرام وخروج الناس منه حتى لم يبق فيه إلا قليل منهم ، أي في الساعة الثالثة العربية بحسب توقيت مكة التي تغيب فيها الشمس في الساعة الثانية عشرة تماماً ، فالساعة الثالثة العربية بمكة ليلا توافق الساعة الثامنة الإفرنجية .

مع العلم بأن أذان العشاء بمكة يكون بالضبط الساعة الواحدة والنصف ، ولا يختلف ميعاد أذان المغرب وأذان العشاء عن الوقت المذكور بالحجاز مطلقاً لا صيفاً ولا شتاءً . وتختلف أوقات الصلوات الأخرى حسب دوران الفلك .

أما في مصر فأوقات الصلوات فيها تختلف على الدوام بالساعات الإفرنجية ما عدا أذان الظهر فإنه يكون عند الساعة الثانية عشرة إفرنجية وقد تنقص عنها أو تزيد بضع دقائق بحسب الصيف والشتاء .

فكان ابتداء وضع الأخشاب حول الكعبة المعظمة في الساعة الثالثة العربية من ليلة السبت المذكور ، وقد استمر العمل في تركيب الأخشاب فانتهوا من تركيبها في منتصف ليلة الأربعاء الموافق ٢٥ من الشهر المذكور ، فتم ستر الكعبة المعظمة كلها إلى ما فوق سقفها بمتر واحد ونصف متر بالأخشاب في الوقت المحدد تماماً من الليلة المذكورة ، ثم قاموا بعمارة سقف الكعبة كما بينا ذلك في غير هذا المحل ، فلما انتهوا منها أزالوا جميع الأخشاب المحيطة بالكعبة في ليلة الأحد الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة فما جاء فجر هذه الليلة إلا وقد أزيلت الستارة الخشبية كلها ، ثم في ضحى اليوم المذكور ألبسوا الكعبة ثوبها الأسود ، زادها الله تعالى تشريفاً وتعظيماً ومهابة .

جاء في تاريخ الكعبة المعظمة ما يأتي : ذكر الطبري في الإتحاف أنه في سنة (١٠٧٣) ألف وثلاث وسبعين من الهجرة ، انكسرت خشبة من سقف الكعبة فاقتضى الحال إلى كشف السقف وإزالة تلك الخشبة وعمر السقف عمارة جديدة ، وأحاطوا الكعبة بسقايل الخشب من الأرض إلى السقف وستروا على المعلمين بالخصف من خارج السقايل إلى أن تم العمل ، وكان ذلك على يد سليمان بك صنجق جدة وقد فوض إليه مشيخة الحرم ونظارة العمارة اهـ.

وجاء فيه أيضاً ما يأتي : ذكر السنجاري في منائح الكرم أنه في يوم الخميس غرة ربيع الثاني سنة (١٠٩٩) ألف وتسع وتسعين من الهجرة ، عمّر "محمد بك"

شيئاً من أخشاب الكعبة وطلعوا أرتالاً من جدة جعلوها حول الكعبة من الخارج وركبوا الكسوة فيها ، لتغيير إفريز السطح من التي تربط فيه الكسوة فإنه استأكل فيه ، وجددوا رفرف مقام الشافعي لخلل وقع فيه ولم يزالوا إلى أن خلصوا منه . انتهى باختصار من تاريخ الكعبة .

والحقيقة : أن ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب أو بالقماش عن أعين الناس حال تعميرها وإجراء الإصلاح فيها أمر لازم معقول مطلوب ، ففي سترها فائدتان :

الأولى : عدم ظهور شيء من العمارة فيها يشغل قلوب الطائفين والمصلين .

والثانية : أن في سترها عن أعين الناس وقت العمارة ، ضماناً من تقليل هيبتها من قلوب الجهلة والعوام ، وحفظاً من وسوسة الشيطان لبعضهم بما لا يسوغه الشرع الحنيف .

فستر الكعبة من تمام الأدب وهو عين الصواب والحكمة ، وإذا كان في بعض البلدان يستر المهندسون والعمال بعض الأشغال المهمة كإقامة التماثيل ونحوها بالأخشاب ، لئلا يظهر نوع العمل أو يظهر سر المهنة ولئلا يؤدي إلى تشويش القائمين بالعمل من أنظار الناس ولغطهم ، حتى ينتهوا منه تماماً ، ثم يكشفون الستارة .

فبيت الله المعظم أولى وأجدر بالستر حين إجراء العمارة فيه ، ليتم العمل بهدوء وطمأنينة ، ولئلا ينشغل المصلون والطائفون بالنظر إلى العمل فتنصرف قلوبهم عن الخشوع المطلوب في هذا المكان المقدس . نسأل الله العظيم الحليم أن يسترنا في الدارين ، وأن يعمر قلوبنا بالإيمان والتقوى ، وأن يوفقنا للأعمال الصالحة ، ويختم حياتنا بها "اللهم توفني مسلماً وألحقني بالصالحين" آمين يا رب العالمين ، وصلى الله على نبينا "محمد" أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

مقدار ما استعمل من الأخشاب والعواميد لستر الكعبة

مما يجب أن نذكر هنا مقدار ما صرف لستر الكعبة المشرفة عند تغيير سقفها في زماننا هذا ، من الأخشاب والعواميد ويقال لها "المرابيع والعروق" والمسامير والحبال ، من جميع جوانب الكعبة مع السقائل بمشّاياتها من أرض المطاف إلى ما

فوق سقف الكعبة بمتر واحد ونصف المتر ، مع العلم بأنه كان بين الكعبة وبين تركيب ألواح الخشب حولها ثلاثة أمتار من الثلاث الجهات ، أما من جهة حِجْر إسماعيل فبينها وبين الخشب أربعة أمتار . وسبب الزيادة من هذه الجهة أن الناس يصلون إلى الكعبة بكثرة تحت الميزاب فلزم زيادة بُعد المسافة من هذه الجهة .

فمقدار ما استعمل لستر الكعبة المشرفة كما أخبرنا بذلك رئيس النجارين المشرف على أعمال المسجد الحرام المسمى "سالم بن عُبُود" بضم العين والباء وتخفيفها هو كما يأتي :

استعمل من ألواح الخشب أربعة آلاف لوح تقريباً ، وطول بعض هذه الألواح أربعة أمتار وبعضها خمسة أمتار ، وعرض بعضها خمسة عشر سنتيمتراً وبعضها عشرين سنتيمتراً.

واستعمل من العواميد ، أي المرابيع ، التي تركب عليها هذه الأخشاب ، ثمانية آلاف عمود تقريباً .

واستعمل من المسامير ستمائة كيلو تقريباً ، والكيلو عبارة عن ثلاثمائة درهم وبضعة دراهم .

واستعمل من الحبال في ربط العواميد والمرابيع نحو ألف ربطة ، ومقدار الربطة الواحدة بعضها أربعة أمتار وبعضها خمسة أمتار تقريباً .

وقد اشتغل في تركيب هذه الستارة الخشبية حول الكعبة شرفها الله تعالى نحو مائة وثمانون شخصاً من النجارين والعمّال ، وقد شاهدنا بأنفسنا كل هذه الأعمال ، نسأل الله تعالى عفوه وغفرانه إذا أسأنا الأدب في المسجد الحرام وعند بيته المعظم . إنه بعباده لطيف خبير .

عمل نطاق للكعبة المشرفة

الظاهر والله تعالى أعلم أنه لم يعمل للكعبة زادها الله شرفاً وتعظيماً ، نطاق ، بكسر النون ، يشد به جدرانها إلا مرة واحدة فقط ، وذلك كما ذكره الأسدي : أنه حصل في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة تشقق بالجدار الشامي "أي الذي في ناحية حجر إسماعيل" وقد ازداد في عام (١٠١٩) تسعة عشر وألف ، حيث وقع مطر بمكة جاء على إثره السيل فدخل المسجد الحرام ، فانهلت مياه الأمطار

إلى داخل الكعبة من سطحها ، وأصاب الجداران الشرقي والغربي وجدران الحجر تصدع .

فأراد السلطان أحمد بن السلطان محمد هدم البيت الشريف ، وأن يجعل حجارة هذه الجدران للكعبة المعظمة ملبسة واحداً بالذهب وواحداً بالفضة . فمنعه العلماء من ذلك وقالوا له : يمكن حفظها بنطاق يلم هذا الشعث ، فعمل لها نطاقاً من النحاس الأصفر مغلفاً بالذهب ، أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار ، وجرى تركيبه في أواخر عام (١٠٢٠) وأوائل عام (١٠٢١) هـ.

فهذا النطاق هو النطاق الوحيد الذي عمل في العام المذكور لحفظ جدران الكعبة المشرفة من السقوط ، فلم يسبق عمل مثله قبل ذلك ، ولم يعمل مثله للكعبة بعد ذلك إلى عصرنا هذا .

والحقيقة أن عمل نطاق للكعبة تحزم به من وسطها ، وتشد به جدرانها عند وهنها لا بأس به ، لكنه عمل موقت لا يدوم طويلاً ، لذلك دام هذا النطاق على الكعبة تسعة عشر سنة ، فلما كان صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام (١٠٣٩) ألف وتسعة وثلاثين للهجرة ، وقع مطر عظيم بمكة دخل على إثره سيل كبير إلى المسجد الحرام ووصل إلى أعلا باب الكعبة ، فانهدمت وسقطت جدرانها بسبب ذلك ، فقام بتعميرها السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى ، ولم يذكر أحد من المؤرخين من أخذ هذا النطاق حينما هدمت الكعبة المشرفة في هذا السيل الكبير ، هل أخذه سدنة الكعبة أم أخذه سلطان ذلك الزمن ، الله تعالى أعلم بذلك فهو علام الغيوب ذو الجلال والإكرام لا إله إلا هو العزيز الغفار .

ستر الكعبة في حرب ابن الزبير

مما لا شك فيه أن الحرب بين عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وبين الحصين بن نمير كانت بواسطة المنجنيق والعرّادات أي الآلات الحربية لرمي الحجارات والصخور ، فقد فرض الحصين على أصحابه عشرة آلاف صخرة يرمونها كل يوم ، فلهذا كان من الواجب على ابن الزبير رضي الله عنه وهو متحصن بالمسجد الحرام وبجوار الكعبة المعظمة أن يحافظ عليها أشد المحافظة ، لأنه لا يؤمن من وقوع الحجارة عليها الآتية من أخشبي مكة جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان ، فهو لذلك

قد ستر الكعبة بـألواح مـن خشـب السـاج وغيرهـا ، كمـا جـاء ذلـك في كتـاب "الإمامة والسياسة" عند الكلام على غلبة ابن الزبير رضي ا لله عنهما وظهـوره ، وهذا نص ما جاء فيه :

قال: وذكروا أن أبا معشر قال: حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتـال ابـن الزبير قال: لما نزل الحصين بمكة وغلب عليها كلها إلا المسـجد الحـرام قـال: فـإني لجالس مع ابن الزبير ومعه من القرشيين عبدا لله بن مطيـع والمختـار ابـن أبـي عبيـد والمسور بن مخرمة والمنذر بن الزبير ومصعب بن عبدالرحمن ابن عـوف في نفـر مـن قريش قال : فقال المختار بن عبيد : وهبت رويحة وا لله إنـي لأجـد النصـر في هـذه الرويحة فاحملوا عليهم قال: فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكـة وقتـل المختـار رجلاً وقتل ابن مطيع رجلاً قال: فجاءه رجل من أهل الشام في طرف سنان رمحـه نار قال: وكان بين موت يزيد بن معاوية وبين حريق الكعبة إحدى عشـر ليلـة ثـم التحمت الحرب عند باب بني شيبة فقتل يومئذ المنذر بن الزبير ورجلان من إخوتـه ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف والمسـور بـن مخرمـة وكـان الحصـين قـد نصـب المجانيق على جبل أبي قبيس وعلى قعيقعان فلم يكن أحد يقـدر أن يطـوف بـالبيت وأسند ابن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت وألقى عليها القطائف والفـرش فكـان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت فكانوا يطوفون تحـت تلـك الألـواح فـإذا سمعـوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا وكان طول الكعبة في السماء ثمانية عشر ذراعاً وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية من المسـجد فكلمـا جرح أحد من أصحابـه أدخلـه ذلـك الفسـطاط . انتهـى مـن الإمامـة والسياسـة . والساج : شجر عظيم صلب الخشب .

نقول : ويشبه ما تقدم ، ما يقع الآن من ستر الحجر الأسـود بـالفراش الثخين المطوي عدة طيات مع وضع قطعة لوح من الحديد فوق الفراش ثـم ربطـه بالحبـال على أستار الكعبة المشرفة ، وذلك خوفـاً مـن الحجـارة المتطايرة مـن جبـل الصفـا بسبب تكسيره بواسطة الألغـام وذلـك لتوسـعة المسـجد الحـرام ، ابتـداء مـن سـنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، وتسمى بالتوسـعة السـعودية وقـد تقـدم الكلام عنها ، والألغام جمع لَغَم بفتحتين وهو يستعمل لتفجير الصخور والأحجـار العظام وذلك بأن يثقب عدة ثقوب في الصخر والجبل القوي بمثقـاب ، ثـم تحشـى هذه الثقوب بالديناميت والمواد المتفجرة ، وتوضع في الثقوب فتائل تمتد إلى خـارج

الثقوب قليلاً ، ثم تشعل هذه الفتائل من طرفها ، فتسري النار فيها إلى أن تصل إلى الديناميت في الثقوب فتثور الألغام وتنفجر فتتطاير قطع الصخور والأحجار من الجبل ، وقبل إشعال الفتائل ينذر الناسَ جنودُ الشرطة ليبتعدوا ويهربوا خوفاً من أن تصيبهم الأحجار المتطايرة .

ويكون ذلك في الغالب بعد صلاة الظهر مباشرة في المسجد الحرام . وقد تكلمنا على ستر الحجر الأسود في عصرنا عند توسعة المسجد الحرام في مبحث عدم خلو الكعبة من الطائفين .

فإن قيل : لماذا لم تستر الحكومة السعودية الكعبة المشرفة خوفاً عليها من الحجارة المتطايرة عن إثارة الألغام كما سترها ابن الزبير رضي الله عنه ؟

نقول : إن حجارة الألغام في تكسير الصفا اليوم إنما هي أحجار تتناثر في جميع الجهات في جهة الشوارع والمسجد الحرام في مدة لا تتجاوز الربع الساعة فقط ، فلا خوف منها مطلقاً على الكعبة المشرفة وإنما ستر الحجر الأسود زيادة في الاحتياط لحفظه .

أما ستر الكعبة المعظمة في حرب ابن الزبير رضي الله تعالى عنه وعن أبيه ، فهو واجب وجوباً أكيداً ، لأنه متحصن بنفس المسجد الحرام وخيام جيشه منصوبة بوسطه عند الكعبة ، وعدوه الحصين بن نمير قد نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وعلى جبل قعيقعان "جبل هندي" لرمي الحجارة من الجبلين المتقابلين على موضع ابن الزبير وهو المسجد الحرام وقد فرض على جنوده أن يرموا كل يوم عشرة آلاف صخرة . فلا بد أن هذه الصخور تأتي المسجد الحرام وتصيب الكعبة المشرفة ، فهنا يجب العمل على وقاية الكعبة المشرفة من صخور المنجنيق بقدر المستطاع فسترها ابن الزبير كما تقدم .

ومع ذلك فقد وهنت الكعبة من حجارة المنجنيق وأصابها أيضاً الحريق فهدمها ابن الزبير رضي الله عنه وبناها من جديد كما تقدم تفصيل ذلك . اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً ومهابة ، واحفظه وجيرانه في بلدك الأمين من كل ضرر وأذى ، وارض عنا واسترنا بسترك الجميل في الدنيا وفي الآخرة بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين آمين ، وصلى الله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

ما وجد في الكعبة من الكتابات القديمة

نذكر هنا ما وجد في الكعبة من الكتابات القديمة مما هو قبل ظهور الإسلام .

جاء في تاريخ الغازي ما نصه : ووجد قريش كتاباً بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود فإذا فيه : أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن .

ووجد في المقام أي محله كتاب آخر مكتوب فيه : مكة بيت الله يأتيها رزقها من ثلاث سبل . ذكره الحلبي .

وفي كلام بعضهم وجد حجر مكتوب فيه ثلاثة أسطر ، السطر الأول : أنا الله ذو بكة صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر . وفي الثاني : أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت له اسماً من أسمائي فمن وصله وصلته ومن قطعه بتته . وفي الثالث : أنا الله ذو بكة خلقت الخير والشر فطوبى لمن كان الخير على يديه وويل لمن كان الشر على يديه .

وفي تاريخ الأزرقي : وجد في حجر في الحِجْر كتاب من خلقة الحجر : أنا الله ذو بكة الحرام وصنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشباها مبارك لأهلها من اللحم والماء . وعن مجاهد قال: وجد في بعض الزبور : أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصنعتها يوم صنعت الشمس والقمر حففتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادي وأسفله وكَداء وباركت لأهلها في اللحم والماء. انتهى من تاريخ الغازي .

وهذا الذي عثروا عليه في الكعبة من الكتابات ، غير ما كان فيها من الأصنام والصور التي وضعها المشركون والتي أمر رسول الله ﷺ بإزالتها يوم فتح مكة شرفها الله تعالى .

فقد جاء في تاريخ الإمام الأزرقي أنه كانت في بطن الكعبة صوراً وتماثيل ، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبلَّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست . اهـ.

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت... الخ . وفي سنن أبي داود أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحوا كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور... الخ اهـ .

فكان في الكعبة كما في الأزرقي صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، أي تمثال مريم مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً .

وكان فيها أيضاً قرني الكبش الذي فدى به الذبيح إسماعيل، وكان فيها حمامة من عيدان . انتهى من الأزرقي .

فرش أرض الكعبة بالرخام

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : قال أبو الوليد: وأرض الكعبة مفروشة برخام أبيض وأحمر وأخضر عدد الرخام ستة وثلاثون رخامة منها أربع خضر بين الأساطين وبين صدري الكعبة عرض كل رخامة ذراع وأربع أصابع وعرضهن من عرض كراسي الأساطين ومن الجدار الذي فيه الباب -باب الكعبة- إلى الرخام الأخضر الذي بين الأساطين ست عشرة رخامة منها ست بيض وسبع حمر طولهن سبعة أذرع وخمسة عشر إصبعاً وبين جدار الدرجة وبين الرخام الأخضر ثلاث رخامات منها اثنتان بيضاوان وواحدة حمراء طول كل رخامة منها أربعة أذرع ونصف ، وست عشرة رخامة ثمان بيض وثمان حمر طول كل رخامة سبعة أذرع وتسع أصابع وأطرافهن في حد الرخام الأخضر الذي بين الأساطين والجدرين وأطرافهن في الجدر الذي يستقبل باب الكعبة منها رخامة بيضاء عرضها ذراعان وإصبعان ذكر أن النبي ﷺ صلى في موضعها وهي الثالثة من الرخام البيض من حد الركن اليماني وطرفها في الأسطوانة الأولى من حيال باب الكعبة وعند عتبة باب الكعبة رخامتان : خضراء وحمراء مفروشتان . انتهى من تاريخ الأزرقي .

وإن شاء الله تعالى سنذكر فرش أرض الكعبة بالرخام في عصرنا الحاضر أي في سنة (١٣٧٧).

صفة المسامير التي كانت في الكعبة

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : قال أبو الوليد : وفي الألواح التي تلي الملتزم ثلاثة ، وفي الألواح التي بين الركن اليماني والركن الأسود وهي التي تلي الركن اليماني ثلاثة ، ومنها مسمار في بطن الكعبة على ثلاثة أذرع ونصف وفي بقية الألواح مسمار أو مسماران والمسامير مفضضة مقبوة منقوشة تدوير كل مسمار سبع أصابع ، والمسامير من بطن الكعبة على أربعة أذرع ونصف وفوق الإزار إزار من الرخام منقوش مدار في جوانب البيت كله وفي نقشه حبل غير منقوش بذهب وبين هذه الإزار الذي فيه الحبل إزار صغير كما يدور البيت منقوش عليه بماء الذهب من تحت الإفريز الذي تحت السقف والإفريز من فسيفسا منقوش واصل بالسقف.

صفة باب الكعبة في عهد الأزرقي

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : وذرع طول باب الكعبة في السماء ستة أذرع وعشرة أصابع وعرض ما بين جداريه ثلاثة أذرع وثماني عشرة إصبعاً والجداران وعتبة الباب العليا ونجاف الباب ملبس صفايح ذهب منقوش ، وفي جدار عضادتي الباب أربع عشرة حلقة من حديد مموهة بالفضة متفرقة في كل جدار سبع حلق يشد بها جوف الباب من أستار الكعبة وفي عتبة باب الكعبة ثمانية عشر مسماراً منها أربعة على الباب وأربعة عشر في وجه العتبة والمسامير حديد ملبسة ذهباً مقبوة منقوشة تدوير حول كل مسمار سبع أصابع وملبن باب الكعبة الذي يطأ عليه من دخلها داخل في الجدار عشر أصابع والملبن ساج ملبس صفايح ذهب وعرض وجه الملبن عشر أصابع وعرض وجهه الآخر أربع أصابع وفي الملبن من المسامير ستة وأربعون مسمار منها سبعة في أعلا الملبن وهي تلي العتبة ، وفي الجانب الأيمن تسعة عشر مسماراً وفي الجانب الأيسر عشرون مسماراً والمسامير مقبوة ملبسة ذهباً منقوشة تدوير حول كل مسمار منها سبع أصابع ، وذرع طول باب الكعبة في السماء ستة أذرع وعشر أصابع وهما مصراعان عرض كل مصراع ذراع وثماني عشرة إصبعاً وعود الباب ساج وغلظه ثلاث أصابع فإذا غلقا فعرضهما ثلاثة أذرع ونصف ، وفي مصراع ست عوارض والعوارض من ساسم

وظهر الباب من داخل ملبس صفايح فضة ، وفي المصراع الأيمن من داخل غلق رومي وأم الغلق ملبسة فضة وطول الغلق أربع عشرة إصبعاً وفي المصراع الأيسر حلقة فضة يكون فيها غلق الباب إذا غلق ، وفي الباب الأيسر سكرة ووجه الباب ملبس صفايح ذهب منقوشة وصفايح ساذج ما بين المسامير التي في العوارض صفايح مربعة منقوشة في كل مصراع خمس صفايح وتدوير حول الصفايح الساذج صفايح منقوشة وفي الباب الأيسر أنف الباب ملبس ذهباً منقوشاً طرفاه مربعان وعلى الأنف كتاب فيه بسم ا لله الرحمن الرحيم ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام... الآية﴾ محمد رسول ا لله ، وعدد المسامير مائتا مسمار منها مائة كبار منها في العوارض اثنان وسبعون مسماراً في كل عارضة ستة مسامير ، وفي كل مصراع عشرة مسامير وبين كل عارضتين مسماران في طرفي الباب ومنها حول خرتة الباب التي يدخل فيها الرومي اثنا عشر مسماراً صغاراً ، ومنها في المصراع الأيمن مسماران من فضة سازج موهان تدوير حول كل مسمار ست أصابع وبينهما حاجز يفتح فيه الغلق الرومي الداخل وما بين المسامير تسع أصابع والمسامير مقبوة ملبسة ذهباً وهي منقوشة تدوير كل مسمار سبع أصابع والمسامير الصغار التي في المصراع الأيسر خمسون مسماراً وهي مضروبة حول الصفايح المربعة المنقوشة التي بين العوارض ، حول كل صفيحة عشرة مسامير والمسامير ملبسة ذهباً مقبوة منقوشة وهي على صفايح ساذج عرض الصفايح إصبعان كما يدور حول الصفيحة المنقوشة ورجلا البابين حديد ملبسان ذهباً وفي المصراعين سلوقيتان فضة موهتان وفي السلوقيتين لبنتان من ذهب مربعتان وفوق اللبنتين صغيرتان وفي طرف السلوقيتين حلقتا ذهب سعة كل حلقة ثمان أصابع وهما حلقتا قفل الباب وهما على ذراعين وستة عشر إصبعاً من الباب .

انتهى من تاريخ الأزرقي .

وجود سقفين للكعبة

للكعبة إلى يومنا هذا سقفان بينهما نحو قامة كما رأينا ذلك بأنفسنا ، ولم نعلم لماذا عمل السقف الثاني داخل الكعبة ، ومن الذي عمله لأول مرة ، أما قريش فلم يجعلوا للكعبة سقفين حين بنائها ، فالظاهر أنه من عمل عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنه عند بنائه لها ، ولكن يعرض علينا إشكال ، وهو أن ابن الزبير جعل

في سطح الكعبة أربعة روازن "أي فتحات" لدخول الضوء والنور في جوف الكعبة فعمل السقف الثاني في داخل الكعبة يمنع دخول الضوء لجوفها ، ويمكن أن ندفع هذا الإشكال بأنه جعل في السقف الثاني أيضاً روازن مقابل الروازن التي في السقف الأعلا لينفذ الضوء منهما إلى جوف الكعبة .

فإن قيل : ما فائدة السقف الثاني من الداخل ؟

نقول : ربما كان لوضع بعض أمانات الكعبة وهداياها وبعض الأشياء المتعلقة بها ، أو لتزيين وجه السقف الثاني المقابل لأرض الكعبة بالذهب والفضة والألوان والزخارف . وا لله تعالى أعلم بذلك .

ونقول أيضاً عن السقفين للكعبة : أنه لم يذكر أحد من المؤرخين من أول مَن عمل سقفين للكعبة المشرفة ، غير أن الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني للهجرة قال "في باب ذرع البيت من الخارج" ما نصه: "والكعبة لها سقفان أحدهما فوق الآخر" وقال أيضاً في الباب الذي بعد الباب المذكور ما نصه: "وعلى الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البلق وبين السقفين فرجة" . انتهى كلامه .

فعلم من هنا صريحاً بأنه كان للكعبة سقفان أحدهما فوق الآخر ، في عهد ابن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما بدون شك .

بقي علينا أن نعرف هل كان للكعبة سقف واحد أم سقفان في بناء قريش الذي كان قبل بناء ابن الزبير ، فالظاهر أنه كان للكعبة في بناء قريش سقف واحد فقط لا غير ، أما قبل بناء قريش إلى عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فإنه لم يكن للكعبة إلا سقف واحد فقط بدون شك ولا ريب ، وأما خليل ا لله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه حين بناء الكعبة لم يجعل لها سقفاً مطلقاً كما بينا ذلك في محله .

فعليه نرى أن السقفين للكعبة كانا من عمل عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما ، ونرى أن علة ذلك هي وضع هدايا الكعبة المشرفة بينهما ، لأن خزانة الكعبة التي كانت في أرضها من عصور قديمة قد ردمت عند بناء قريش للكعبة . وا لله تعالى أعلم بالغيب .

ولقد ذكر الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة ، السقفين للكعبة في تاريخه . قال عند باب ذرع البيت من الخارج : والكعبة لها سقفان أحدهما فوق الآخر .

ثم قال في ذرع الكعبة من داخلها : وذرع طول الكعبة في السماء من داخلها إلى السقف الأسفل مما يلي باب الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ونصف ، وطول الكعبة في السماء إلى السقف الأعلى عشرون ذراعاً ، وفي سقف الكعبة أربع روازن نافذة من السقف الأسفل للضوء ، وعلى الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البَلق ، وبين السقفين فرجة ، وذرع التحجير الذي فوق ظهر سطح الكعبة ذراعان ونصف... الخ انتهى من تاريخ الأزرقي .

نقول: ولقد أسعدنا الله تعالى في دخولنا بيته الحرام ، فقد دخلنا الكعبة المشرفة في صباح يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، مع بعض إخواننا الفضلاء منهم سعادة الشيخ صالح باخطمة والسيد محمد الهادي عقيل والشيخ عبدا لله العقلا والشيخ محمود نتو والشيخ إسماعيل جمال وغيرهم ، وبعد أن صلينا ركعتين داخلها ودعونا الله تبارك وتعالى بما ألهمنا به ، قمنا بغاية الأدب بكتابة بعض ما في داخل الكعبة وطلعنا إلى سطحها ودخلنا بين السقفين للتحقق منهما وإليك شيء من وصفهما :

إذا صعد الإنسان من درج الكعبة الداخلي فقبل وصوله إلى السطح بنحو قامة يرى أمامه باباً صغيراً وعن يساره باباً مثله ، وكلاهما يدخل إلى ما بين سقفي الكعبة ، ومسافة ما بين السقفين (١٢٠) مائة وعشرون سنتيمتراً وقد قسنا ذلك بأنفسنا .

وقد نوّهنا عن بحث أعواد السقفين في مبحث "عدد أعواد سقف الكعبة" فليراجع هناك .

والسقف الأول الذي يعلو أرض الكعبة مكسوّ بالقماش الأحمر المكتوب أي من نفس قماش الكسوة الداخلية الحمراء للكعبة . أما السقف الثاني الذي فوق السقف الأول فليس مكسوّ بالقماش ولا بغيره ولا يوجد به نقش ولا زخرفة بل يظهر خشبه وأعواده مجردة من كل زينة ، وذلك عندما يدخل المرء بين السقفين وينظر إليه .

ولقد ذكر الإمام الأزرقي عن نقش سقف الكعبة بصحيفة ١٩٧ في الجزء الأول من تاريخه : والجوائز منقوشة بالذهب والزخرف ، وسقف الكعبة منقوش بالذهب والزخرف ، ويدور تحت السقف إفريز منقوش بالذهب والزخرف ، وتحت الإفريز طوق من فسيفسا . انتهى كلامه .

والجوائز جمع جائز وهو خشبة معترضة بين حائطين – قاله في المنجد – فانظر رحمك الله إلى عناية أهل القرون الأولى ببيت الله الحرام .

كيفية وضع الكسوة على الكعبة الشريفة

يظن الناس أن كسوة الكعبة توضع في داخلها أولاً ثم ترفع إلى سطحها من درجتها التي في داخلها ، لكن ليس الأمر كذلك ، لأن درجة الكعبة التي في داخلها والتي توصل إلى سطحها ضيقة جداً بحيث لا يتسع إلا لمرور رجل واحد فقط ، فالطلوع إلى سطحها والنزول منه يكون رجلاً رجلاً فقط .

والكسوة كما هي معروفة تشتمل على عشر قطع بما في ذلك من ستارة باب الكعبة من الخارج وستارة باب درجتها من الداخل ، وكل قطعة منها كبيرة جداً بحيث يستحيل رفعها إلى السطح من الدرجة الداخلية الصغيرة الضيقة . لذلك يكون رفع الكسوة إلى سطح الكعبة بالكيفية الآتية :

بعد وصول الكسوة من مصر إلى مكة شرفها الله تعالى تنشر في المسجد الحرام بالحصوة قطعة قطعة ، وترتب قطعها ويخيط ما يحتاج إلى خياطة ، ثم تلفّ كل قطعة وتوضع بجوار الكعبة من جميع جهاتها الأربعة ، ثم تدلى حبال قوية من سطح الكعبة من كل جانب من جوانبها ، فترتبط بها كل قطعة وحدها ثم يسحبها الرجال إلى سطحها وتوضع في طرف الجدار ، كل قطعة في المكان المناسب لها من الكعبة من غير أن يحل رباطها . وذلك في صباح اليوم الثامن من شهر ذي الحجة .

وتبقى القطع على حالتها في طرف الجدران من سطح الكعبة إلى اليوم العاشر وهو يوم عيد النحر ، ففي صباح هذا اليوم المبارك يطلع بعض الناس إلى سطح الكعبة ، فيحلون الأربطة الملفوفة حول قطع الكسوة الجديدة المطوية ، كما يحلون أربطة الكسوة القديمة من أماكنها من فوق السطح ، فتسقط القديمة إلى أرض المطاف ، وفي نفس اللحظة ينزلون الكسوة الجديدة بأثر القديمة من فوقها ، فبهذه

الكيفية لن تكون الكعبة المشرفة عارية عن الكسوة لحظة واحدة حين إلباسها الثوب الجديد في كل عام .

ولا بد من ظهور شيء قليل من جدرانها في هذا الوقت لعدم استكمال خياطة الثوب الجديد ، ثم يشتغلون بضعة أيام بخياطة قطع الكسوة بعضها ببعض وهي على نفس الكعبة ، والخيّاط يجلس على كرسي خاص يتدلى من سطحها بالحبال على مواضع الخياطة وينزل شيئاً فشيئاً إلى أسفل حتى ينتهي من خياطة القطعتين ، فينتقل إلى جهة أخرى لخياطة بقية القطع حول الكعبة .

ولا تكون الخياطة إلا من الصباح المبكر كل يوم إلى الضحى العالي حيث تشتد حرارة الشمس ، فعندئذ يقف العمل ، فالكعبة تقع في الفضاء معرضة للشمس والعمل عند اشتداد حرارة الشمس متعذر .

هذه هي كيفية وضع الكسوة على الكعبة المشرفة في كل عام .

انظر: صورة رقم ١٠٩ ، وضع الكسوة الجديدة فوق الكعبة وخياطتها

تفرقة الرجال عن النساء في الطواف وفي المسجد الحرام

جاء في صحيح البخاري في كتاب الحج في باب طواف النساء مع الرجال : وقال عمرو بن علي : حدثنا أبو عاصم قال ابن جريج: أخبرنا قال: أخبرني عطاء إذ مَنَع ابن هشام النساء الطواف مع الرجال ، قال: كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال ، قلت: أبعد الحجاب أو قبل؟ قال : أي لعمري لقد أدركته بعد الحجاب ، قلت : كيف يخالِطن الرجال ، قال: لم يكنَّ يخالطن ، كانت عائشة رضي الله عنها تطوف حَجْرَةً من الرجال لا تخالطهم ، فقالت امرأة : انطلقي نستلم يا أم المؤمنين قالت : عنك ، وأَبَتْ وكن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال ولكنهن كن إذا دخلن البيت قمن حتى يدخلن وأخرج الرجال . وكنت آتي عائشة أنا وعبيد بن عمير ، وهي مجاورة في جوف ثبير ، قلت : وما حجابُها؟ قال : هي في قبة تركية لها غشاء ، وما بيننا وبينها غير ذلك ، ورأيت عليها درعاً موردًا . انتهى .

قال الغازي في الجزء الثاني من تاريخه : كان الرجال والنساء يطوفون معاً مختلطين ، حتى ولي مكة خالد بن عبدا لله القسري لعبدالملك بن مروان ، ففرق بين

الرجال والنساء في الطواف ، فأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط يفرقون بين الرجال والنساء ، فهو أول من فرق بينهما . انتهى من الغازي .

وروى الغازي في الجزء الثاني من تاريخه : أن علي بن الحسن الهاشمي الذي تولى أمر مكة في خلافة المهتدي بن الواثق ، هو أول من فرق بين الرجال والنساء في جلوسهن في المسجد الحرام ، فقد أمر بحبال تربط بين الأساطين التي يقعدن عندها تفصل بينهن وبين الرجال . انتهى .

ونظن أن ذلك كان بعد سنة (٢٥٥) خمس وخمسين ومائتين .

الترغيب في الحج والعمرة

اعلم أن الحج خامس أركان الإسلام ، فرض في السنة السادسة من الهجرة كما هو المشهور ، وقيل : في الخامسة ، وقيل : قبل الهجرة . والحج فرض عين مرة واحدة في العمر على التراخي ، وكذلك العمرة وقد يجبان أكثر من مرة لعارض كنذر وهو يكفر الصغائر والكبائر حتى التبعات على المعتمد .

وقد حج ﷺ قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججاً لا يدرى عددها ، وحج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين ، وكذلك اعتمر قبلها عمراً لا يدرى عددها ، وأما بعدها فعمرة في رجب ، وثلاثاً بل أربعاً في ذي القعدة ، أي : في ثلاثة أعوام ؛ لأنه في حجة الوداع ، كان في آخر أمره قارناً ، وعمرة في شوال كما صح في أبي داود ، وعمرة في رمضان كما في البيهقي . وفرضية الحج والعمرة واردة صريحاً في الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقد قال الله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ وقال: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وقال آمراً نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ۞ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ إلى آخر الآيات .

وأما السنة فقد قال رسول الله ﷺ: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" رواه البخاري وغيره ، وروى ابن حبان عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: " إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة

وحطّ عنه بها خطيئة . فإذا وقفوا بعرفات باهى الله بهم ملائكته يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُعْثاً غُبْراً أُشْهدكم أني غفرت ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء ورمل عالج . وإذا رمى الجمار لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة ، وإذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة ، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . اهـ. وقال عليه الصلاة والسلام : "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" رواه الشيخان ، وقال: "تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ، والذهب والفضة . وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" رواه أحمد وغيره . وقال: "من حج عن أبيه أو أمه فقد قضى عنه حجته . وكان له فضل عشر حجج" رواه الدار قطني . وقال: "إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه ، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له" رواه أحمد. وقال : "اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج" . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد. ويستحب الإكثار من العمرة لا سيما في رمضان ، لما أخرجه ابن حبان وغيره: "عمرة في رمضان تعدل حجة معي" وفي رواية البخاري: "تقضي حجة ، أو حجة معي" .

ويستحب أن يحج الإنسان عن نفسه بعد حجة الإسلام ثانية وثالثة ، فقد ورد : "من حج حجة فقد أدى فرضه ، ومن حج ثانية فقد داين ربه ومن حج ثالثة حرم الله جسده على النار".

وفي الحديث القدسي : "إن عبداً صححت له جسمه وأوسعت عليه معيشته تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم" . وهناك أحاديث كثيرة وردت في هذا الشأن اكتفينا بما ذكرناه بغية الاختصار .

انتهى من كتابنا إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة. وإليك صورة بعض الحجاج.

انظر: صورة رقم ١١٠ ، الحجاج في عرفات

واعلم: أن الأيام المعلومات المذكورة في سورة الحج هي: عشر ذي الحجة على الأصح ، والأيام المعدودات المذكورة في سورة البقرة هي: أيام التشريق ، وهي الثلاثة الأيام بعد يوم النحر . ويسمى اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية ، واليوم التاسع من يوم عرفة واليوم العاشر منه يوم النحر ، واليوم الحادي عشر منه

يوم القَرّ بفتح القاف وتشديد الراء، واليوم الثاني عشر منه يوم النفر الأول ، واليوم الثالث عشر منه يوم النفر الثاني.

أسرار الحج ومزاياه

نتقل هنا ما ذكرناه في كتابنا المطبوع بمصر "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" وهو كما يأتي:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ (سورة الحج ٢٦-٢٩).

يرتبط الحج بالكعبة المعظمة منذ بنائها الأول ، فهو لذلك من الأمور الدينية القديمة العهد جداً ، وقد حج كثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكان أهل الجاهلية يحجون ويقفون بعرفات ويبيتون بمزدلفة ويمكثون بمنى ، وكانوا يصنعون للحاج طعاماً أيام الموسم بمكة ومنى . ولما حج سيدنا يونس عليه السلام كان يؤثر عنه : لبيك كاشف الكرب لبيك .

ولئن كان الحج خامس أركان الإسلام في الترتيب فإنه جامع لمعانيها كلها ، كدين الإسلام فإنه أتى آخراً ولكنه جمع حقائق الأديان كلها ، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده كما يقول في كتابه العزيز: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ويقول: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

وما كان الحج خامس الأركان ترتيباً في الحديث إلا لكونه واجباً في العمر مرة على المستطيع ، بخلاف الصلاة والزكاة والصيام فإنها تتكرر على الدوام ، إما يومياً وإما سنوياً.

فالحج هو أكبر مؤتمر إسلامي دائر بدوران السنين والأعوام إلى يوم القيامة ، وهو أوسع وأشرف مجمع ديني ، وأعظم وأفخم ناد صحراوي ، يعقد بأمر إلهي

وبوازع الإيمان القوي مرة كل عام، وأعضاء هذا المؤتمر الأكبر هم جميع المؤمنين على اختلاف طبقاتهم وتنوع شعوبهم وأممهم لا فرق بين الكبير والصغير، والأمير والحقير، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والعامل والعاطل، وكل منهم بالوحدة العامة، ويهدف إلى التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

ولقد كان الإفرنج والحكومات الأجنبية يتخوفون ويهابون الإسلام لأمرين خطيرين:

الأول: الحج إلى بيت الله الحرام، الذي هو بمثابة الوحدة الإسلامية، التي تجمع كلمتهم وتقوي عزائمهم.

والثاني: الخلافة، وهي التي يستندون إليها، ويرتبطون بها ويستظلون تحت لوائها، فهي مركز سلطانهم ومصدر نفوذهم. وانظر كتاب "حاضر العالم الإسلامي" لمستر لوثروب سنودارد الأمريكي صحيفة (٢٨٧) في الفصل الثاني بعنوان "الجامعة الإسلامية" فقد بسط الكلام عن الحج والخلافة بما يشفي الغليل.

أما الخلافة فلا نتكلم عنها، وأما الحج فكيف لا يخافون منه وهو العامل الأكبر في التعاون والتعاضد والرابطة، أليس يقول الله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ فأي منفعة أعظم وأكبر للمسلمين من تقوية الرابطة الدينية، وربط الشعوب المختلفة بعضها ببعض، الذين أتوا من كل فج عميق، ففي إطلاق لفظ المنافع في الآية، دليل واضح على تعميمها، فيدخل كل ما له منفعة للمسلمين، كالأمور الوطنية، والعلمية، والثقافية، والاجتماعية، والانسانية والتجارية، وغير ذلك.

والحق يقال: أن الناظر في يوم عرفة إلى تلك الجموع المحتشدة وإلى ذلك البحر الزاخر من المسلمين الذين أتوا يوحدون الله ويلبون دعاءه، من مشارق الأرض ومغاربها، ومن مختلف الأجناس واللغات، ليندهش اندهاشاً ويستغرب عجباً، ويزداد إيماناً بالله تعالى وبقدرته وعظمته "وما راءٍ كمن سمعا".

فلئن شرعت صلاة الاستسقاء باجتماع الناس بأطفالهم ودوابهم وحيواناتهم لإنزال القطر والمطر ولئن جعلت أيضاً صلاة الجمعة فرضاً لوعظ الناس وإرشادهم لأمور دينهم ودنياهم، فإن يوم عرفة لأعظم من الاستسقاء والجمعة، وهو أفضل الأيام على الإطلاق، ولذلك كان صبيحة ليلتها هو العيد الأكبر للمسلمين في جميع الأقطار، وكيف لا يكون كذلك والله عز شأنه يتجلى على هذا الجمع الغفير من الأمة المحمدية بالرحمة والغفران والفضل والإحسان، والعتق من النار، بل

حتى يباهي بهم الملائكة، ذلك يوم اختلط العربي بالعجمي ، والأبيض بالأسود ، والحيوان بالبشر ، وصار كل واحد يدعو الله مخلصاً بقلبه ، سائلاً له بلسانه ولغته، ساكباً من العبرات والدموع ما يبلغه أعلى مراتب الخضوع والخشوع.

كلهم في ذلك اليوم لا يرجون إلا الله ، ولا يدعون إلا إياه ، نشيدهم الروحي "لبيك اللهم لبيك" وشعارهم الديني "لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون"، قد تركوا أوطانهم وفارقوا أولادهم ، وكشفوا رؤوسهم ، ونزعوا ثيابهم ، وأبدلوها بالإحرام الأبيض كالأكفان ، ووقفوا في ذلك الصحراء الواسع ، امتثالاً لأمر الله وابتغاء لمرضاته.

فمن أسرار الحج أن يكون هذا الموقف العظيم والمحشر الأصغر يوم عرفة ، في فضاء متسع وصحراء مترامية الأطراف ، مجردة عن الدور والبنيان.

وأن تكون هذه الجموع البشرية في صحة تامة أيام الحج ، مع كثرة عددهم وتعرضهم للشمس والهواء والغبار والتراب الناشئ من كثرة انتقالاتهم بشتى وسائل الركوب من سيارات وجمال ودواب أخرى ، ومع كونهم يستظلون بالخيام وتحت الهوادج وبين الصخور والأحجار الكبار ، وما ذاك إلا لأنهم تركوا الوساوس والأوهام في هذه الأيام ، فلا يهمهم إلا الاجتهاد في العبادة والإخلاص في الدعاء والشكر والفرح بأداء هذه الفريضة المقدسة .

ومن أدق أسرار الحج أن الرؤيا المنامية في ليالي عرفة ومزدلفة ومنى تختلف عنها في بقية الليالي الأخرى، كما يعرف ذلك أرباب البصائر والعلماء العاملين كل واحد بحسب استعداده من حسن نيته ونظافة قلبه ودرجة صلاحه.

وإن من أعظم الدليل على فضل يوم عرفة على سائر الأيام نزول هذه الآية الجليلة فيه التي في أول سورة المائدة وهي: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ فإنها نزلت في يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت .

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤنها ، لو علينا أنزلت معشر اليهود ، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأي آية قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي

نزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جمعة ، لفظ مسلم وعند النسائي "ليلة جمعة" . نقلنا هذه الرواية من تفسير القرطبي.

ولا يخفى أن هذه الآية الكريمة أعظم بشارة وأكبر فرح للمسلمين لاشتمالها على ثلاث مسائل كل واحدة أعظم من أختها كما هي ظاهرة من منطوق الآية:

(١) أن الله تعالى قد أكمل لنا ديننا الحنيف.

(٢) قد أتم علينا نعمته من جميع الوجوه.

(٣) قد اختار لنا بنفسه دين الإسلام القويم ، كل ذلك بمحض فضله ورحمته.

ولما جرت العادة أن البشائر الكبرى ، والأخبار المهمة العمومية ، تكون بالإعلان عنها على رؤوس الأشهاد بشتى الطرق والوسائل ، تكرم الله عز شأنه أن يكون نزول هذه الآية الجليلة في يوم عرفة ، لاجتماع كافة المسلمين فيه وحضور رسول الله ﷺ بينهم لينتشر ذلك فيهم بسرعة البرق ، فيعم البِشْر والسرور والفرح والحبور للمسلمين جميعاً في وقت واحد.

ويفهم من هذه الآية قرب انتقال رسول الله ﷺ إلى الدار الآخرة ، فما دام الدين الإسلامي قد كمل وأدّى النبي رسالته للناس وبلغهم ما أنزل إليه ، فليلحق بالرفيق الأعلى ، وليسترح من تعب الدنيا.

وفي نزول هذه الآية الكريمة حكمة كبرى ، وهي اطمئنان المسلمين إلى أن دينهم قد كمل فلا يحتاج إلى زيادة شيء ، فلو لم تنزل هذه الآية ، ومات رسول الله ﷺ لخطر في البال وجال في الصدور ، أن دين الإسلام ربما لم يكمل ، وأنه لو لم يمت ﷺ لتوالى نزول الآيات القرآنية ، وازدادت أحكام الديانة الإسلامية ، فلهذه الآية الجليلة موقع عظيم ، ومعنى دقيق لا يغيب على ذوي الألباب .

وهنا نمسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا المعنى ، فلو أردنا أن نتكلم عن مزايا الحج وأسراره ، لاحتجنا إلى أن نضع فيه مؤلفاً خاصاً ، وفي هذا القدر كفاية للفضلاء . ﴿وما توفيقي إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

انتهى من كتاب إرشاد الزمرة.

فضل العمرة

قال الطبري رحمه الله تعالى في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه: تقدم في الباب الأول حديث: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما"، وحديث: "تابعوا بين الحج والعمرة"، وحديث: "الحاج والعمار وفد الله"، وحديث: "من مات حاجاً أو معتمراً"، وأحاديث تتضمن الحج والعمرة.

وعن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه، أن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: لا تنسنا من دعائك وأشركنا في دعائك أخرجه أبو داود. وأخرجه أحمد بزيادة، ولفظه: عن عمر أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له، وقال: يا أخي لا تنسنا من دعائك. وفي لفظ: يا أخي أشركنا في دعائك، قال: ما أحبّ أن يكون لي بها ما طلعت عليه الشمس. لقوله: "يا أخي" أخرجه كذلك الحافظ السلفي وصاحب الصفوة، وأخرجه ابن حرب الطائي، ولفظه: أشركنا في صالح دعائك ولا تنسنا.

وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ: أن العمرة الحج الأصغر. أخرجه ابن الحاج في منسكه. انتهى من كتاب الطبري المذكور.

إتيان العمرة في شهر رجب

إتيان العمرة في شهر رجب من الأمور القديمة بعد الإسلام، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند قوله تعالى:

﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم... الآية﴾ ما نصه:

وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثةٌ سرد، وواحدٌ فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره، ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً. انتهى من تفسير ابن كثير.

وذكر بعض المؤرخين أن أهل مكة قد اعتادوا إتيان العمـرة في شـهر رجـب ، وذكروا لذلك علة وهي أن أصل هذه العمرة الرجبية يرجـع إلى فـراغ عبـدا لله بـن الزبير من بناء الكعبة وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر رجـب حيـث خرج هو وأهل مكة بعد الفراغ من البناء حتى اعتمروا مـن التنعيـم شـكراً لله عـز وجل . قالوا : فبقيت تلك العمرة سنة عنـد أهـل مكـة يشـاركهم في ذلـك بعـض القبائل الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد حيث يبادرون بـالحضور إلى مكـة في شهر رجب لإتيان العمرة فيه ويجلبـون معهـم الحبـوب والطعـام والسـمن والعسـل والزبيب واللوز ونحو ذلك ، فينتفع أهل مكة منهم وينتعش السوق بهم .

هكذا ذكر بعض المؤرخين ، ولا ندري متى بطلت هذه العادة مـن أهـل مكـة فقد كانوا يأتون بالعمرة الرجبية إلى مـا بعـد زمـان ابـن بطوطـة الـذي ذكـر هـذه العمرة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) هجرية فعليه تكون هذه العـادة فيهـم إلى ما بعد القرن الثامن . وا لله تعالى أعلم متى تركوها.

أما في عصرنا فلم نسمع قط بالعمرة الرجبية بمكة، وإنمـا العـادة عندنـا الزيـارة الرجبية ، فقد كان الركب يمشي إلى المدينة المنورة في شـهر رجـب ولا تـزال هـذه العادة إلى اليوم حتى في بعض البلـدان النائيـة كمصـر والشـام فـإنهم يـأتون لزيـارة المدينة في شهر رجب ، ولم نعلم عن أصل هذه الزيارة الرجبية أيضاً شيئاً .

والذي نراه عن أصل العمرة الرجبية هو غير ما ذكره بعض المؤرخين وأربـاب الرحلات من أن أصله يرجع إلى إتيان ابـن الزبير العمرة في يـوم ٢٧ رجـب بعـد فراغه من بناء الكعبة ، فإن اعتمار ابن الزبير كان شكراً لله تعالى على توفيقه لبنـاء بيته الحرام ، وبزوال هذه العلة وعدم تكرر البناء والهدم في زمانه لم يبق وجه لإتيـان العمرة في رجب .

ونرى أن اعتمار الناس في شهر رجب له سبب غير مـا تقـدم وهـو مـا ذكـره العلامة الطبري في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ، فقد جاء فيه عند الكلام علـى عمرة رجب ما خلاصته:

عن ابن عمر وابن عباس رضي ا لله تعالى عنهم أن النبي ﷺ اعتمر أربـع عمـر إحداهن في رجب وقد تقدم الحديثان في فصل عـدد عمـره ﷺ ، وعـن ابـن عمـر رضي ا لله عنهما أنـه كـان يعتمـر في رجـب كـل عـام ويتبـع في ذلـك فعـل عمـر وعثمان وكلاهما كانا يعتمران في رجب ويرونه شهراً حراماً من أوسط الشهور ،

وأحق أن يعتمر فيه لتعظيم حرمات الله تعالى . أخرجه أبو ذر في منسكه ، وفي رواية أنه كان يعتمر في رجب ويهدي قال نافع: وليس الهدي بواجب إنما كان هدي تطوع .

وعن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تعتمر من المدينة في رجب وتهل من ذي الحليفة .

وروى الواقدي عن أشياخه أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه اعتمر في رجب سنة إحدى عشرة ودخل مكة ضحوة النهار فأتى منزله وأبوه أبو قحافة جالس على باب داره فقيل له: هذا ابنك فنهض قائماً وعجل أبو بكر أن ينيخ راحلته فنزل عنها وهي قائمة فجعل يقول: يا أبة لا تقم ثم التزمه وقبّل بين عيني ابن قحافة وجعل الشيخ يبكي فرحاً بقدومه وجاءه والي مكة عتاب بن أسيد وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام فسلموا عليه سلام عليك يا خليفة رسول الله وصافحوه جميعاً فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ... إلى آخر كلام الواقدي .

قال ابن الصلاح: وروي الاعتمار في رجب عن جماعة من السلف ، وعن أبي إسحاق السبيعي أنه سئل عن عمرة رمضان فقال: أدركت أصحاب عبدالله لا يعدلون بعمرة رجب . وهذا كله لا يعدل الحديث الصحيح في عمرة رمضان . انتهى كل ذلك من كتاب الطبري المذكور .

نقول : هذا ما نراه أصلاً في العمرة الرجبية . والله تعالى أعلم .

وبمناسبة الكلام على الاعتمار في شهر رجب نذكر ما جاء في رحلة ابن جبير عن كيفية اعتمار أهل مكة في رجب ونذكر أيضاً ما جاء في كتاب الطبري "القرى لقاصد أم القرى" عن عمرة الحريق . ولنتكلم عن هذه العمرة أولاً :

قال الإمام الطبري بصحيفة (٥٧٩) من كتابه المذكور ما نصه:

ذكر الإمام أبو عبدالله محمد بن الحاج المالكي في منسكه المترجم بكتاب المنهاج قال الشيخ أبو محمد مكي بن أبي طالب رحمه الله تعالى : كانوا إذا كان ليلة عاشوراء اجتهد الناس في الطواف والصلاة ، وأخذ سكان مكة في شعابها في الحريق يوقدون النيران على جيف إبل الحاج ليذهب عنهم ريحها ولو تكلفوا إخراجها لطال عليهم لكثرة الجيف ، ويوقدون على الجبال المشرفة على البيت سنة

لهم ثم يصبح الناس إلى العمرة فلذلك تسمى "عمـرة الحريـق" ثـم يخرج النـاس إلى ثور وهو الجبل الذي فيه الغار الذي ذكره الله تعالى في القرآن وبين ثور وبين مكة ثلاثة أميال . انتهى من الكتاب المذكور.

العمرة الرجبية

أما ما ذكر ابن جبير عن كيفية اعتمار أهل مكة في شـهر رجـب ، فإليك مـا جاء في رحلته:

قال ابن جبير الأندلسي عنها في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمـان وسـبعين وخمسمائة ما يأتي:

وهذا الشهر المبارك "أي رجب" عند أهل مكـة موسـم مـن المواسـم العظيمـة وهو أكبر أعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديمـاً وحديثـاً يتوارثـه خلفـاً عـن سـلف متصلاً ميراث ذلك إلى الجاهليـة لأنهـم كـانوا يسـمونه متصـل الأسـنة وهـو أحـد الأشهر الحرم وكـانوا يحرّمـون القتـال فيـه ، وهـو شـهر الله الأصم كمـا جـاء في الحديث عن رسول الله ﷺ والعمرة الرجبية عندهـم أخـت الوقفـة العرفيـة لأنهـم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثلـه ويبـادر إليهـا أهـل الجهـات المتصلـة بهـا فيجتمع لها خلـق عظيـم لا يحصيهـم إلا الله عـز وجـل فمـن لم يشـاهدها بمكـة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجباً . شاهدنا من ذلك أمراً يعجـز الوصـف عنه .

والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلـك لأننـا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعـاء وهـي العشـية الـتي ارتقـب فيهـا الهلال قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرهـا من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابهـا ووفرهـم وكـل يتـأنق ويحتفـل بقـدر استطاعته فـأخذوا في الخـروج إلى التنعيـم ميقـات المعتمريـن فسـالت تلـك الهوادج في أباطح مكة وشعابها ، والإبل قد زينت تحتها بـأنواع التزيين وأشـعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظـر مـن الحريـر وغـيره ربمـا فـاضت الأسـتار الـتي علـى الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض ومن أغرب ما شاهدنا من ذلـك هـودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمت الأمير مكثر ، فإن أذيال ستره كانت تسحب على

الأرض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الإحصاء فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق و لم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها ومن المحاورين وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة . فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة وقد مضى هدو من الليل أبصرناه كله سراجاً ونبراساً وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن فكنا لا نتخلص إلا بين هودجهن وبين قوائم الإبل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجباً يحدث به ولا عجباً يذكّره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين داعين ا لله عز وحل ضارعين . والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكت المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجاً فتلألأ نوراً وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم . فلما كانت صبيحة الخميس خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة عن بَكرة أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً فكيف وهم من بلد واحد وهذا أول الدلائل على بركة البلد فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها والراجلة يتواثبون ويتثاقفون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التي يستجنون بها وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم وهم في زحام لا يمكن فيه المجال وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده وأبنائه أمامه وقد قاربوا من الشباب والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه والسكينة

تفيض عليه وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه أخذ في الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم والراجلة على الصفة المذكورة من التجاول وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجباً صهبا لم ير أجمل منظراً منها وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه إلى أن وصل المسجد الحرام. فطاف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمي يفرد في سطح قبة زمزم رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة . فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه وقد أخرج له من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التي يصلى خلفها . فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به ثم أعيدت القبة عليه وأخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى والجحفل بين يديه . فسعى راكباً والقواد مطيفون به والراجلة الحرابة أمامه . فلما فرغ من السعي استلت السيوف أمامه وأحدقت الأشياع به وتوجه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحفاً به وبقي المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات فلما كان اليوم الثاني وهو يوم الجمعة كان طريق العمرة في العمارة قريباً من أمسه راكبين وماشين رجالاً ونساء والنساء الماشيات المتاجرات كثيراً يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة تقبل الله من جميعهم بمنه . وفي أثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ، ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم والنساء كذلك والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم لهم يعبئون به وله يحتفلون وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم يقدمون النظر في ذلك الاستعداد له بأشهر . انتهى من رحلة ابن جبير .

وجاء في تاريخ الغازي المسمى إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ما يأتي :

قال ابن بطوطة: وأهل مكة يحتفلون بعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلاً ونهاراً ، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصاً أول يوم منه . ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة

بقلائد الحرير وأسناد الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين فترق النفوس وتنهمل الدموع . فإذا قضوا العمرة طافوا بالبيت وخرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات في هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نوراً وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة المكية لأنهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه .

وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجبله وزهران يبادرون لحضور العمرة ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق . انتهى من تاريخ الغازي وهو مخطوط غير مطبوع .

الزيارة الرجبية

لم نقف على علة زيارة الناس للنبي ﷺ في شهر رجب وتسمى إلى اليوم الزيارة الرجبية ، والظاهر أن هذا حدث تبعاً لزيارة البيت الحرام من السابق ، فقد قال ابن كثير في تفسيره عن آية : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم...﴾ ما نصه :

وحُرِّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً اهـ.

فمن هنا درج الناس على هذا المنوال إلى يومنا هذا ، فيأتي بعضهم من جهة العراق والشام واليمن إلى مكة المشرفة للاعتمار ثم يذهبون إلى زيارة النبي ﷺ ، كما يقوم بعضهم من نفس مكة وأطرافها إلى المدينة المنورة للزيارة في شهر رجب ، ويستعدون لها قبل وقتها بأيام وغالباً يذهبون على الدواب .

وجوب الحج والعمرة

قال الله تعالى: ﴿و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ وقال: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ .

اعلم أن الحج والعمرة عند الشافعية والحنابلة كل واحد منهما فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور ، أما عند الحنفية فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور عند أبي يوسف وعلى التراخي عند محمد والعمرة سنة مؤكدة ، وأما عند المالكية فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور والعمرة سنة مؤكدة على المعتمد .

قال في شرح الخرشي : وأما العمرة فهي سنة في العمر مرة على المشهور وهي آكد من الوتر ، وقيل : فرض كالحج وبه قال الشافعي . انتهى .

ولقد حج رسول الله ﷺ قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججاً لا يدرى عددها وحج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين ، وكذلك اعتمر قبلها عمراً لا يدرى عددها ، وأما بعدها فعمرة في رجب وثلاثاً بل أربعاً في ذي القعدة - أي في ثلاثة أعوام لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارناً - وعمرة في شوال كما صح في أبي داود وعمرة في رمضان كما في البيهقي .

والحج يكفر الصغائر والكبائر حتى التبعات على المعتمد ، وقد ورد في الحج والعمرة كثير من الأحاديث . منها ما رواه الشيخان: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" ومنها ما رواه أحمد وغيره: "تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" .

إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة في كتب الفقه .

قال رسول الله ﷺ : "أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ، ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر ، يمدّ يديه إلى السماء يا رب يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وغُذِي بالحرام ، فأنّى يستجاب لذلك" . رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

إذا حججت بمال أصله سحت فما حججت ولكن حجت العير
لا يقبل الله إلا كل صالحة ما كل حجّ لبيت الله مبرور

سنن الحج والعمرة في المذهب الشافعي

اعلم أن سنن الحج كثيرة :

منها : الغسل عند إرادة الإحرام بحج أو عمرة أو بهما معاً ، فإن عجز عن الغسل تيمم ، ويسن الغسل للإحرام حتى الحائض والنفساء وحتى غير المميز .

ومنها : التطيب في البدن عند إرادة الإحرام قبل النية وبعد الغسل للذكر والأنثى غير الصائم ، ولا يضر استدامة الطيب بعد الإحرام ولا انتقاله من محل إلى محل آخر بواسطة العرق ، أما لو أخذه من بدنه ثم رده إليه لزمته الفدية .

ومنها : الغسل لدخول مكة لمحرم بحج أو عمرة أو بهما معاً .

ومنها : الغسل للوقوف بعرفة ، والأفضل كونه بعد الزوال من تاسع ذي الحجة .

ومنها : الغسل للمبيت بمزدلفة إن لم يغتسل بعرفة .

ومنها : الغسل للوقوف بالمشعر الحرام ، وهو جبل بطرف المزدلفة ، ويسمى قزح .

ومنها : الغسل لرمي الجمار الثلاث في أيام التشريق الثلاث ، فيغتسل لرمي كل يوم منها غسلاً . أما رمي جمرة العقبة يوم النحر ، فلا يغتسل له ، إن اغتسل للوقوف بالمشعر الحرام .

ومنها : ركعتان سنة الإحرام بعد الغسل له ، ثم ينوي بعدهما بالحج أو بالعمرة أو بهما.

ومنها : ركعتان بعد أي طواف كان .

ومنها : طواف القدوم لحلال أو حاج دخل مكة قبل الوقوف بعرفة . أما المعتمر إذا طاف للعمرة فلا يسن له طواف القدوم .

ومنها : المبيت بمنى ليلة التاسع حال ذهابه إلى عرفة لأنه للاستراحة لا للنسك .

ومنها : أن يجمع بين الليل والنهار في الوقوف بعرفة في اليوم التاسع ، فلو خرج من عرفة بعد الزوال من يوم التاسع فقد أدرك الوقوف .

ومنها : الإفراد وهو تقديم الإحرام بالحج والفراغ من أعماله على الإحرام بالعمرة والإتيان بأعمالها فلو لم يقدم الحج على العمرة لم يكن مفرداً .

ومنها : التلبية عند الإحرام أو عند تغاير الأحوال كصعود وهبوط وركوب واختلاط رفقة وعقب الصلوات ويكثر منها ما دام محرماً ، ويرفع صوته بها إن لم يؤذ غيره . ووقت التلبية من حين إحرامه إلى أن يرمي جمرة العقبة يوم النحر.

وأما سنن العمرة : فإنه يسن لها ما يسن للحج إلا في بعض المسائل التي لا تكون إلا للحج وهي معروفة في كتب الفقه ، فلا لزوم لبيانها هنا.

ولفظ التلبية كما يأتي:

لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، يقولها ثلاث مرات ، ثم يصلي على النبي ﷺ بأي صيغة كانت ، والإبراهيمية أفضل ، ثم يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ومعنى لبيك : أنا مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة وإجابة بعد إجابة ، وسن وقفة لطيفة على الثالثة وعلى لبيك بعد لا شريك لك ، ووقفة على الملك وقبل لا شريك لك .

وسن أن يدعو بعد ذلك بما أحب ، كأن يقول : (اللهم إني أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار) ، وأن يقول: (اللهم اجعلني من الذين استجابوا لك ولرسولك وآمنوا بك ، ووثقوا بوعدك ووفوا بعهدك واتبعوا أمرك ، اللهم اجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت ، اللهم يسر لي أداء ما نويت وتقبل مني يا كريم) . وليحذر الملبي في حال تلبيته مما يفعله بعض الجهلة من الضحك واللعب ، وليكن مقبلاً على ما هو بصدده ، فإن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عليه ، وإن أعرض أعرض الله عنه ، فالله تعالى غني عن العالمين .

قصيدة أبي نُواس في التلبية

ومن لطائف قول أبي نُواس رحمه الله تعالى في التلبية ما يأتي:

إلهنا ما أعدلك ... مليكُ كل من ملك

لبيك قد لبيتُ لك ... لبيك إنّ الحمد لك

والملك لا شريك لك ... ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك ... لولاك يا رب هلك
لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك ... والسابحات في الفلك
على مجاري المنسلك ... كل نبي أو ملك
وكل من أهلّ لك ... سبح أو لبى فلك
يا مخطئاً ما أغفلك ... عجّل وبادر أجلك
واختم بخير عملك ... لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك ... والحمد والنعمة لك

هذه القصيدة لو قرأها جماعة من الحجاج بصوت واحد ونغم جميل كان لها تأثير في نفوس السامعين خصوصاً حين الدفع عن عرفات إلى مزدلفة .

وأما التكبير فإنه يسن للحاج أن يكبر عقب الصلوات من ظهر يوم النحر إلى صبح آخر أيام التشريق ، وصيغته المسنونة هي :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، والله أكبر . انتهى من كتاب إرشاد الزمرة .

[الميقات الزماني والمكاني]

للحج ميقاتان : زماني ومكاني ، فالميقات الزماني هو شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة ، أي من أول ليلة عيد الفطر إلى ما قبل فجر يوم النحر بما يسع الوقوف بعرفة فمن أحرم قبل فجره بلحظة وهو بعرفة فقد أدرك الحج ، ثم يأتي ببقية أعماله .

والميقات المكاني الذي يجب عنده الإحرام الداخل حرم مكة معروف في جميع الأطراف ، وهو خمسة مواضع ، نظمها بعضهم بقوله :

قرن يلملم ذات عرق كلها ... في البعد مرحلتان من أم القرى

ولـذي الحليفـة بـالمراحل عشـرة وبهـا لجحفـة ستة فاخـبر تـرى

فميقات المتوجه من المدينة ذو الحُلَيفة ، بضم الحاء وفتح اللام ، وهو المعـروف بآبار علي وهي أبعد المواقيت من مكة ، وأقربها إلى المدينة وقد تُرى منها .

وميقات المتوجه من الشام ومصر والمغرب والسودان من جهة البحر ، الجحفـة بضم الجيم وسكون الحاء ولما كان السيل أزالها أبدلت برابغ .

وميقات المتوجه من تهامة اليمن يلملم .

وميقات المتوجه من نجد الحجاز ونجد اليمن ومن الطائف قَرْن ، بفتـح القـاف وسكون الراء ، ويقال لها قرن المنازل ، وهي على مرحلتين من مكـة لنجـد ، وهـي تعادل السيل الكبير يحرم منه أهل نجد الآن ، وقد توهم بعضهم أن قرن المنـازل هـو قرن الثعالب ، وليس ذلك بصحيح ، بل هما موضعان ، فقرن الثعـالب قريـب مـن عرفات ، وليس من المواقيت ، وقرن المنازل هو الموازي للسيل الكبير ، وهو الميقات المعروف .

وميقات المتوجه من المشرق ، أي الإقليـم الـذي تشرق الشـمس مـن جهتـه ، وهو شامل للعراق وغيره ذات عِرْق ، بكسر العين وسكون الراء ، قرية خربة علـى مرحلتين من مكة أيضاً .

والميقات المكاني للعمرة هو ميقات الحج ، والميقات الزماني لهـا جميـع السـنة . والأفضل أن يحرم الشخص من أول الميقات ، ويجوز مـن آخـره فلـو أحـرم حـلال بالحج في غير وقته كأن أحرم به في رمضان انعقد عمرة مجزئة عـن عمـرة الإسـلام على الصحيح ، سواء كان عالماً أو جاهلاً لأن الإحرام شديد التعلـق والـلزوم ، أمـا لو كان محرماً بعمرة ثم أحـرم بحـج في غـير أشـهره ، فـإن إحرامـه لم ينعقـد حجـاً لكونه في غير أشهره ، ولا عمرة لأن العمرة لا تدخل على العمرة .

ومن كان مقيماً بمكة مكياً كان أو غريباً ، فميقاته للحـج ولـو بقـران : نفـس مكة ، لا سائر الحرم ، فإن فارق بنيانها وأحرم بالحج أساء ولزمـه الـدم لأن ميقاتـه هو البلد وقد تركه ، فإن عاد إليها قبل الوقوف سقط الدم ، وقيل ميقاته للحج كل الحرم لأن مكة وسائر الحرم في الحرمة سواء والصحيح هو الأول ، وميقاته للعمـرة أدنى الحل ، فمن أحرم بـالعمرة مـن مكة وتمـم أفعالهـا و لم يخرج إلى الحـل أجـزأه ولزمه الدم ، ومتى خرج إلى الحل قبل أن يطوف سقط عنه الدم .

وميقات العمرة لمن هو خارج الحرم ميقات الحج ، ومن بالحرم يلزمه الخروج إلى أدنى الحل ولو بخطوة ، فإن لم يخرج وأتى بأفعال العمرة أجزأته في الأظهر وعليه دم ، فلو خرج إلى الحل بعد إحرامه سقط عنه الدم ، وقيل لا يجزئه لأن العمرة أحد النسكين ، فيشترط فيها الجمع بين الحل والحرم كالحج فإنه لا بد فيه من الحل وهو عرفة .

وأفضل جهات الحل لإتيان العمرة : الجعرانة وهي على طريق الطائف ، وماؤها أعذب المياه ، فالتنعيم المسمى بمسجد عائشة ، وهو أقرب جهات الحل إلى مكة ، وغالب الناس بمكة يأتي بالعمرة منها ، فالحديبية وتسمى الآن "بالشميسي" على طريق جدة وهي إلى مكة أقرب ، وسميت حديبية لشجرة حدباء كانت هناك ، وعندها حصلت بيعة الرضوان ، ومن سلك طريقاً في بر أو بحر لا ينتهي إلى ميقات ، فإن حاذى ميقاتاً أحرم من محاذاته ، أو ميقاتين فالأصح أن يحرم من محاذاة أبعدهما من مكة ، وإن لم يحاذ شيئاً من المواقيت أحرم على مرحلتين من مكة .

ومن مسكنه بين مكة والميقات فميقاته مسكنه ، ومن بلغ ميقاتاً غير مريد نسكاً ثم أراده فميقاته موضعه وإن بلغه مريداً للنسك ، وإن أراد إقامة طويلة ببلد قبل مكة لم تجز بمجاوزته إلى جهة الحرم بغير إحرام ، فإن أحرم و لم يعد إليه لزمه الدم ولو كان معذوراً . انتهى من كتاب إرشاد الزمرة .

خطب الحج

اعلم أنه يستحب للإمام أو نائبه أن يخطب في كل خطبة من خطب الحج يخبر الناس بما بين أيديهم من المناسك ويعلمهم الأحكام إلى الخطبة الأخرى ، ويسن في الحج أربع خطب :

الأولى : يوم السابع من ذي الحجة بمكة ، ويسمى يوم الزينة لتزيينهم فيه هوادجهم ، والثانية : يوم عرفة ، والثالثة : يوم النحر بمنى ، والرابعة : يوم النفر الأول بمنى أيضاً ، وكل هذه الخطب الأربع إفراد ، وبعد صلاة الظهر إلا التي بعرفات فإنها خطبتان وقبل صلاة الظهر وبعد الزوال .

١ - فيخطب الإمام أو منصوبه بعد صلاة الظهر في اليوم السابع بمكة يأمر الناس فيها بأن يتأهبوا إلى الذهاب إلى منى في الغد ، وهو يوم الثامن المسمى يوم

التروية لأنهم يتروون فيه الماء : أي يأخذونه معهم . ويعلمهم المناسك التي بين أيديهم إلى الخطبة المشروعة يوم عرفة بنمرة .

٢- ويخطب خطبتين يوم عرفة بمسجد إبراهيم -وهو مسجد نمرة- الخطبة الأولى قبل أذان الظهر ، يبين لهم كيفية الوقوف وشرطه وآدابه حتى الدفع من عرفات إلى مزدلفة ، وغير ذلك من المناسك التي بين أيديهم إلى الخطبة التي تكون بمنى يوم النحر بعد الزوال ، ويحرضهم فيها على الإكثار من الدعاء والتهليل والتلبية وغير ذلك من الأذكار في الموقف ، ويخفف هذه الخطبة لكن لا يبلغ تخفيفها تخفيف الثانية ، فإن كان فقيهاً قال : هل من سائل وإن لم يكن فقيها لم يتعرض للسؤال ، فإذا فرغ من هذه الخطبة جلس للاستراحة قدر سورة الإخلاص ثم يقوم للخطبة الثانية ويخففها جداً ويأخذ المؤذن في الأذان مع شروع الإمام في هذه الخطبة الثانية بحيث يفرغ منها مع فراغ المؤذن من الأذان ، فإذا فرغ من الخطبتين نزل فصلى بالناس الظهر ثم العصر جامعاً بينهما ، ثم يروح إلى عرفة ويقف .

٣- ويخطب يوم النحر بمنى بعد صلاة الظهر ، ويعلّم الناس الرمي والإفاضة وغيرهما من المناسك ، ويستحب لكل أحد من الحجاج حضور هذه الخطبة ، ويستحب لهم وللإمام الاغتسال لها والتطيب إن كان قد تحلل التحللين أو الأول منهما .

٤- ويخطب بعد صلاة الظهر يوم النفر الأول بمنى أيضاً ، وهو اليوم الأوسط من أيام التشريق ، ويودع الحجاج ويعلمهم جواز النفر وما بعده ومن طواف الوداع وغيره ويحثهم على طاعة الله تعالى ، وعلى أن يختموا حجهم بالاستقامة والثبات على التقوى ، وأن يكونوا بعد الحج خيراً منهم قبله ، وتسمى هذه الخطبة خطبة الوَداع -بفتح الواو- .

دعاء عرفة

لقد كنا ألفنا رسالة صغيرة في دعاء يوم عرفة وطبعت في سنة (١٣٧١هـ) والآن أحببنا نقلها هنا تكملة للفائدة العامة ولنذكر أولاً خطبة هذه الرسالة وبعدها نذكر الدعاء إن شاء الله تعالى وهي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فلما كان يوم عرفة أفضل الأيام ودعاؤه أفضل الدعاء ، أحببت أن أجمع في هذه الرسالة من الأدعية الواردة وغيرها ما ينشرح له صدر كل مسلم حينما يدعو ربه عز وجل في يوم عرفة ذلك اليوم العظيم ، ووقت الدعاء في يومها يكون من بعد الزوال وبعد صلاة الفريضة ، وإذا انشرح صدر الحاج للدعاء فليدع ربه الكريم بما أراد بأي لسان كان فإن ذلك من علامات القبول ، وليجزم بالإجابة فإن الله أعظم وأجل من أن يرد حاجة عبده المؤمن في ذلك اليوم المشهود ، وهو الذي يتجلى فيه على عباده بأنواع البر والإحسان ، واللطف والرحمة ، وكيف لا يكون كذلك وهو أرحم الراحمين والغني عن العالمين ، لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا ، ولقد أعطى وأنفق منذ خلق السموات والأرض وما نقص من ملكه مثقال ذرة.

نسأل الله الكريم الحليم رب العرش العظيم العفو والعافية والصحة التامة والبر والإحسان واللطف والغفران والقبول والتوفيق والراحة عند الموت والعفو عند الحساب آمين . وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

رجب ١٣٧١ مؤلفها وكاتبها

محمد طاهر الكردي الخطاط

كاتب مصحف مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم. شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في بصري نوراً وفي سمعي نوراً وفي قلبي نوراً . اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وشر فتنة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما تهب به الرياح وشر بوائق الدهر .

اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي ولك رب تراثي اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر اللهم اني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح .

اللهم لك الحمد حمداً يوافي نعمك ويكافئ مزيدك وكرمك . أحمدك بجميع محامدك ما علمت منها وما لم أعلم . وأستغفرك من ذنوبي كلها ما علمت منها وما لم أعلم . الحمد لله على ما أولانا. الحمد لله على ما أعطانا . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا ا لله . الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحب ربنا ويرضى. اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت . يا من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية هب لي ما لا ينفعك واغفر ما لا يرضك يا واسع المغفرة. اللهم أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك ولذة طاعتك وتقبل مني صالح الأعمال. واعصمني عن الخطأ والزلل فيما بقي من عمري. وافتح لي أبواب رحمتك وزودني التقوى والتوفيق. واجعلني أتقلب في رضائك ونعمك ما حييت . وألبسني ثوب الصحة والعافية ما بقيت يا أرحم الراحمين ويا خير مسؤول . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم .اللهم اغفر لي مغفرة من عندك تصلح بها شأني في الدارين . وارحمني رحمة منك أسعد بها في الدارين . وتب علي توبة نصوحاً لا أنكثها أبداً . وألزمني سبيل الاستقامة لا أزيغ عنها أبداً . اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة . وأغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك . ونور قلبي وقبري . وأعذني من الشر كله واجمع لي الخير كله. اللهم استودعتك ديني وأمانتى وقلبي وبدني وخواتيم عملي وجميع ما أنعمت به علي . فأنت خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين اللهم إني أسألك إيماناً كاملاً . ويقيناً صادقاً . وقلباً خاشعاً . ولساناً ذاكراً . ورزقاً حلالاً واسعاً . وتوبة قبل الموت وراحة عند الموت . ومغفرة ورحمة وعفواً عند الحساب. اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق. وسوء المنظر والمنقلب في المال والأهل والولد . اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك . اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري . وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي . وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي . واجعل الحياة زيادة لي في كل خير . واجعل الموت راحة لي من كل شر . اللهم اغفر لي

خطئي وعمدي وهزلي وجدي وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير . اللهم إني أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار . اللهم إني أعوذ بك من فتنة القبر ومن فتنة المحيا والممات. اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع . اللهم فاطر السموات والأرض ضجت لك الأصوات بصنوف اللغات يمجدونك ويسألونك الحاجات . وحاجتي إليك أن تحيي قلبي وأن تلحقني بالصالحين ممن ذاقوا حلاوة طاعتك وفازوا برضائك ودخلوا في رحمتك وغنموا فضلك وإحسانك ونالوا كرمك وعفوك . يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك . ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا . ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا . وانصرنا على من عادانا . ولا تجعل مصيبتنا في ديننا . ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

اللهم استرنا في الدنيا والآخرة بسترك الذي لا ينكشف . واجعلنا من التوابين المتطهرين الذين تحبهم وترضى عنهم . واختم لنا بخاتمة أهل الخير والسعادة. وهون علينا سكرات الموت حتى لا نجد له تعباً ولا نصباً . واجعل موتنا على طهارة ونظافة وشهادة وهيئة حسنة يا أرحم الراحمين . اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وعملاً صالحاً مقبولاً وتجارة لن تبور. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي من هذا الموقف العظيم ومن هذا المشهد المبارك واجعلني فيه من الفائزين المقبولين . اللهم يا مجيب الدعوات يا قاضي الحاجات يا خالق الأرض والسموات . أنت الله الذي لا إله إلا أنت الواحد الأحد الفرد الصمد . الوهاب الذي لا يبخل والحليم الذي لا يعجل . لا راد لأمرك ولا معقب لحكمك . أسألك أن تشرح صدري وتنور قلبي وتيسر أمري . وأسألك رضاك والجنة والهدى والرشاد وحسن الخاتمة . اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنباً إلا غفرته ولا

هماً إلا فرجته ولا كرباً إلا كشفته .ولا دينا إلا قضيته ولا عـدواً إلا كفيتـه . ولا فساداً إلا أصلحته . ولا مريضاً إلا شفيته ولا شـاكياً إلا عافيتـه . ولا حاجـة مـن حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين ووفقهم للتمسك بـالدين. وارفـع عنهـم التنـازع والشقاق والنفاق. واهدهم إلى الصراط المستقيم ومحاسن الأخـلاق . وأكثر فيهـم من العلماء العاملين . والأتقياء المخلصين والأبرار المقربين . وأهلـك اللهـم الكفـرة والمشركين واجعل بأسهم بينهم إلى يوم الدين. وفرق كلمتهم وشتت شملهم ودمر ديارهم يا رب العالمين .

اللهم وفق ملوك المسلمين ووزراءهم وأمراءهم وولاتهم إلى الخير وإلى ما يعود نفعه للرعية .

اللهم وفقهم لمعرفة شريعتك ونصرة دينك القويم واقـذف في قلوبهـم الخـوف منك حتى يبتعدوا عن الظلم والاستبداد . ونوّر بصائرهم حتى يروا طريـق الرشـاد فيشـتغلوا بمـا ينفعهـم وينفـع العبـاد والبـلاد . وألـن قلوبهـم للضعفـــاء والفقــراء . ووجههم إلى المصالح العامة والخاصة . واجعل المحبـة متبادلـة بينهـم وبـين شـعوبهم ورعاياهم . وتوّجهم بتاج العز والكرامة . وانصرهم نصراً مبيناً على أعداء الدين يا رب العالمين .

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشـايخنا في الديـن ولإخواننـا في الله . ولجـامع هـذه الأدعية وطابعها وناشرها. وللمؤمنين والمؤمنات والمسـلمين والمسـلمات . الأحيـاء منهم والأموات في مشارق الأرض ومغاربها آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد أبي القاسم الأمـين وعلـى آلـه وصحبـه أجمعـين. سـبحان ربـك رب العـزة عمـا يصفـون وسـلام علـى المرسـلين والحمــد لله رب العالمين .

بحمد الله تعالى وتوفيقه وفضله قد تم دعاء يوم عرفة

وتليه جملة من الفوائد في مناسك الشافعي

جامعهما وكاتبهما محمد طاهر الكردي

الخطاط سنة ١٣٧١

أنواع النسك

النسك والمناسك جمع منسك، بفتح السين وكسرها، فبالفتح مصدر وبالكسر اسم لموضع العبادة، مأخوذ من النسيكة، وهي الذبيحة المتقرب بها، ثم اتسع فيه فصار اسماً للعبادة والطاعة، ومنه قيل للعابد: ناسك، وقد غلب إطلاقها على أفعال الحج لكثرة أنواعها، ولما تتضمنه كثرة الذبائح المتقرب بها. انتهى من كشف القناع.

واعلم أن الحج والعمرة يؤديان على ثلاثة أوجه:

الأول: الإفراد، وهو: أن يحرم بالحج، وبعد الفراغ من أعماله يخرج من مكة إلى أدنى الحل فيحرم بالعمرة ويأتي بأعمالها.

والثاني: التمتع، وهو: أن يحرم بالعمرة ويأتي بأعمالها ثم يحرم بالحج ويأتي بأعماله، سواء كانت العمرة في أشهر الحج أو قبله على المعتمد، لكن الذي يوجب الدم على المتمتع، هو أن يحرم بالعمرة من ليس من حاضري المسجد الحرام في أشهر الحج من الميقات، وبعد الفراغ من أعمالها يحرم بالحج من مكة من عامه وإن كان أجيراً فيهما لشخصين، فمن لم يحج من عامه الذي اعتمر فيه لا شيء عليه، وعلى من حج من عامه لكن عاد إلى ميقات عمرته أو مثل مسافته، وكذا إلى ميقات دون مسافة ميقاته وأحرم بالحج، وكذا لو عاد إلى الميقات محرماً به قبل تلبسه بنسك، لأن المقصود قطع تلك المسافة محرماً، ولأن المقتضي لإيجاب الدم هو ربح الميقات، وقد زال بعوده إليه. وأما حاضروا المسجد الحرام فلا دم عليهم، وهم المستوطنون محلاً دون مرحلتين من الحرم، ولا دم على من أحرم بالعمرة في غير أشهر الحج وإن أتى بأعمالها فيها وحج من عامه كأن أحرم بها في آخر رمضان وأتى ببقية أعمالها في شوال. ودم التمتع يجب بالإحرام بالحج، وإذا أراقه بعد الفراغ من العمرة وقبل الإحرام بالحج جاز، لا قبل الفراغ من العمرة، ولكن الأفضل إراقته يوم النحر للاتباع وخروجاً من خلاف من أوجبها فيه. وإذا فرغ المتمتع من أفعال العمرة صار حلالاً، وحل له الطيب واللباس والنساء وكل محرمات الإحرام، سواء كان ساق الهدي أم لا.

والثالث : القران ، وهو : أن يحرم بالحج والعمرة معاً في أشهر الحج أو يحرم بالعمرة وقبل الشروع في أعمالها يحرم بالحج ، فتندرج أعمال العمرة في أعمال الحج ، فيجزئ عنهما ، طواف واحد وسعي واحد وحلق واحد.

وإنما يجب الدم على القارن إن لم يكن من حاضري المسجد الحرام ، وإن لم يرجع إلى الميقات الذي أحرم منه بعد دخول مكة وقبل الوقوف بعرفة.

وأفضل هذه الوجوه الثلاثة : الإفراد إن اعتمر من عامه أي مما بقي من ذي الحجة الذي هو شهر حجه ، ثم التمتع ، ثم القران .

وقد يكون القران أفضل من الإفراد ، إذا لم يعتمر بعد الحج في عامه ، فإن تأخير العمرة عن سنة الحج مكروه.

ولا يجب على المكي إذا قرن إنشاء الإحرام من أدنى الحل، كما لو أفرد العمرة على الأصح ، بل يحرم من جوف مكة إدراجاً للعمرة تحت الحج في الميقات كما أدرجت أفعالها في أفعاله ، ومثل المكي الآفاقي إذا كان بمكة وأراد القران.

ولو استوطن غريب مكة فهو حاضر بلا خلاف ، وإن استوطن مكي العراق أو غيره فليس بحاضر بالاتفاق .

انتهى من كتابنا (إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة) . وانظر صورة الحجاج وهم في عرفات.

انظر: صورة رقم ١١١ ، الحجاج في عرفات .

بعض فوائد في المناسك على المذهب الشافعي

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين . اعلم أن من دخل مكة وكان محرماً بالحج أو قارناً وسعى بعد طواف القدوم أجزأه ووقع ركناً وحسب له من سعي الحج فإذا نزل من عرفات فإنه يطوف طواف الإفاضة ويكره له أن يعيد السعي ثانياً .

ويسن الوقوف بعرفة إلى غروب الشمس فلو فارقها قبل الغروب و لم يعد إليها سُنّ له دمٌ لفوات الجمع بين الليل والنهار فإن عاد ولو ليلاً لم يسن له الدم.

والمبيت بمزدلفة واجب فلو تركه لزمه دم والمراد من المبيت بها وجوده فيها لحظة من نصف الليل الثاني.

وينبغي للحاج إذا وصل إلى منى من عرفات أن يقطع التلبية بأول حصاة يرميها لجمرة العقبة ويكبر بدل التلبية ، فإذا فرغ من الرمي ذبح أضحيته أو هديه أو فديته ، فإذا فرغ من النحر حلق رأسه أو قصّر والحلق أفضل ، ثم نزل إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة وهذا الترتيب مستحب فلو خالف فقدم بعضها على بعض جاز.

واعلم أن للحج تحللين فالتحلل الأول يحصل بفعل اثنين من ثلاثة وهي رمي جمرة العقبة وطواف الإفاضة المتبوع بالسعي إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم والحلق أو التقصير ، فيحل له حينئذ محرمات الإحرام ما عدا ما يتعلق بالنساء من عقد النكاح والمباشرة بشهوة والوطء.

انظر: صورة رقم ١١٢ ، المسجد الحرام

والتحلل الثاني يحصل بفعل الثلاثة المذكورة كلها فيحل له حينئذ جميع محرمات الإحرام حتى ما يتعلق بالنساء ويجب عليه الإتيان بما بقي من الحج وهو الرمي والمبيت بمنى. وأما العمرة فليس لها إلا تحلل واحد وهو يحصل بالفراغ من أعمالها كلها .

يدخل وقت ذبح الأضحية والهدي إذا مضى قدر صلاة العيد وخطبتين معتدلتين بعد الشمس يوم النحر ويبقى إلى غروب الشمس من آخر أيام التشريق وهي الثلاثة المتصلة بعاشر ذي الحجة .

ويدخل وقت ذبح الدم الواجب في الحج بسبب التمتع أو القران أو اللبس أو غير ذلك من حين وجوبها بوجود سببها ولا تختص بيوم النحر ولا غيره لكن الأفضل فيما يجب منها في الحج أن يذبحه يوم النحر بمنى في وقت الأضحية والحرم كله منحر حيث نحر منه أجزأه في الحج والعمرة لكن السنة في الحج أن ينحر بمنى لأنها موضع تحلله وفي العمرة بمكة لأنها موضع تحلله أيضاً.

ولا يجزئ في الفدية أو الأضحية أو الهدي إلا الجذع من الضأن وهو ما له سنة على الأصح وقيل ستة أشهر وقيل ثمانية أشهر . والثني من المعز وهو ما له سنتان وقيل سنة . والثني من البقر وهو ما له سنتان . والثني من الإبل وهو ما له خمس سنين كاملة .

ويجزئ ما فوق الثني والجذع وهو أفضل ويجزئ الذكر والأنثى ولا يجزئ فيها معيب بعيب يؤثر في نقص اللحم تأثيرا بيّناً ولا يجزئ ما قطع من أذنه جزء بين ويجزئ الخصي وذاهب القرن والتي لا أسنان لها إذا لم تكن هزلت.

وتجزئ الشاة عن واحد والبدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة سواء كانوا أهل بيت واحد أو أجانب ولو كان بعضهم يريد اللحم وبعضهم يريد الأضحية جاز . وأفضلها أحسنها وأسمنها وأطيبها وأكملها والأبيض أفضل والشاة أفضل من المشاركة بسبع بدنة.

يدخل وقت رمي جمرة العقبة بنصف ليلة النحر بعد الوقوف بعرفة ويبقى إلى آخر أيام التشريق الثلاثة.

ويدخل وقت رمي كل يوم من أيام التشريق بزوال شمسه ويبقى إلى آخر أيام التشريق الثلاثة ولا يصح الرمي بعد أيام التشريق أصلاً بل يلزمه دم بترك ثلاث حصيات فأكثر ويجوز الرمي ليلاً على المعتمد.

ومن ترك رمي يوم أو يومين من أيام التشريق عمداً أو سهواً أو جهلاً تداركه في باقي الأيام منها وكذا يتدارك رمي يوم النحر في باقي الأيام إذا تركه ولا شيء عليه في كل ذلك . وكيفية الرمي عما فاته وعن يومه تكون هكذا أن يرمي الجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم العقبة ثم يرجع لرمي يومه فيبدأ بالصغرى ثم الوسطى ثم العقبة.

ومن عجز عن الرمي بنفسه لنحو مرض وأيس من القدرة على الرمي في أيام التشريق أن يستنيب من يرمي عنه فالنائب يرمي أولاً عن نفسه ثم يرمي عن المستنيب.

اقتراح لمؤلف هذا التاريخ

لا يخفى أن القاصدين إلى بيت الله الحرام لأداء منسك الحج والعمرة، هم جموع زاخرة من الحجاج يأتون من جميع الأقطار والممالك والبلدان في كل عام، على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لذلك نقترح على أولي الأمر والسلطة أن يأمروا بتشكيل لجنة رسمية من كبار علماء المذاهب الأربعة ليضعوا كتاباً مبسطاً عن أحكام الحج والعمرة يمكن صلاحيته لعامة الناس بدون تعقيد ولا تشويش، وأن

يتوخوا فيه اليسر والتسهيل وتقريب المذاهب ما وسعهم الشرع الشريف، رحمة وتخفيفاً على عامة الناس وجهالهم. فقد روى الشيخان أحسن الله تعالى إليهما "أنه ﷺ ما سئل عن شيء يومئذ قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج" وأنه قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال: لا حرج، فالنبي ﷺ يقصد بذلك التيسير والرحمة بالناس في أعمال الحج الكثيرة، وهو الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. كما نقترح ترجمة هذا الكتاب الذي تضعه هذه اللجنة المعتبرة المحترمة، إلى عدة لغات: أي بعدد لغات أجناس الحجاج وطبعه على نفقة الحكومات الإسلامية. كما نقترح أيضاً أن توفد كل حكومة مع حجاجها عدداً كافياً من العلماء ليرشدوا عوام الحجاج إلى مناسك الحج وليعلموهم الأحكام بنفس لغاتهم فيكون ذلك أدعى إلى نشر الدين والتعليم بين كافة طبقات الحجاج وأجناسهم. قال الله تعالى في أول سورة إبراهيم: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾.

ويعجبنا في هذا الصدد ما ذكره العلامة شاه ولي الله الدهلوي المتوفى سنة (١١٨٠) هجرية رحمه الله تعالى في كتابه "عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد" ما ملخصه: أن العامي الصرف ليس له مذهب وإنما مذهبه فتوى المفتي، ثم قال: وفي عمدة الأحكام من كشف البزدوي: يستحب للمفتي الأخذ بالرخص تيسيراً على العوام، وفيه أيضاً في كتاب الكراهية: سؤر الكلب والخنزير نجس خلافاً لمالك وغيره ولو أفتى بقول مالك جاز، قال: وفي القنية: ينبغي للمفتي أن يأخذ بالأيسر في حق غيره خصوصاً في حق الضعفاء، لقوله ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ حين بعثهما إلى اليمن: يسِّرا ولا تعسِّرا. انتهى منه.

نقول: هذا كلام حسن جداً ومعقول جداً وهو لا يخرج عن حد الشرع الشريف قيد شعرة، فالعامي ليس له مذهب خاص وهو إذا انتسب لمذهب من المذاهب الأربعة إنما هو انتساب صوري لا حقيقي فهو إذا سمع من أبيه أو أخيه أو عمه أو ذويه أنه شافعي أو حنفي مثلاً فهو يقلده ويقول مثله، ولا يدري ما مذهب الشافعي ولا الحنفي ولا المالكي ولا الحنبلي إنما هو يقلد تقليداً أعمى، خصوصاً عوامّ زماننا، فالأفضل للعالم الفاضل والمرشد العاقل إذا سأله أحد من العوام الجهال عن حكم من الأحكام، أن يفتيه بحسب ما يعلم من الحكم الشرعي في المسألة من غير نظر إلى مذهب السائل، كما عليه أن يفتي بحسب حال السائل

من فقر أو غنى ، أي إذا ارتكب السائل شيئاً من محظورات الإحرام وأوجب أحد المذاهب عليه الفدية وأوجب مذهب آخر عليه التصدق من طعام فعلى العالم العاقل أن يفتي بحسب حال السائل فإن كان فقيراً يقول له : تصدق بكذا وإن كان غنياً يقول له : اذبح فدية فالدين يسر لا عسر . وليس من المعقول ولا من المقبول أن نكلف الحاج الفقير بذبح شاة بينما هناك أحد المذاهب الأربعة يجوز له إخراج مدّ من الطعام مثلاً فيكون هذا امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ حيث قال : "يسروا ولا تعسروا . وبشروا ولا تنفروا" رواه الشيخان وغيرهما .

فتيسير الأمور والأخذ بالرخص في أحكام الحج بالنسبة إلى العوام والجهال أمر واجب . خصوصاً في زماننا هذا الذي انتشر فيه الجهل وعدم المعرفة في أمور الدين انتشاراً فاضحاً حتى لدى أهل المدارس العصرية مما لا يدرس فيه الكتاب والسنة على الوجه المطلوب والله الهادي إلى سواء السبيل.

بعض أحكام الحج والعمرة على المذهب الشافعي

قلنا أن الحج خامس أركان الإسلام ، فرض في السنة السادسة من الهجرة كما هو المشهور وقيل : في الخامسة وقيل : قبل الهجرة ، وهو يكفر الصغائر والكبائر على المعتمد ، فرحمة الله واسعة وهو الكريم العظيم قادر على إرضاء أصحاب الحقوق عن خصمائهم يوم القيامة .

فالحج عند الشافعية فرض عين مرة واحدة في العمر على التراخي وكذلك العمرة ، وقد يجبان أكثر من مرة لعارض كنذر .

(وأما عند الحنفية) ففرض عين في العمر مرة واحدة على الفور عند أبي يوسف وعلى التراخي عند محمد ، والعمرة سنة مؤكدة .

(وأما عند المالكية) فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور ، والعمرة سنة مؤكدة على المعتمد . قال في شرح الخرشي : وأما العمرة فهي سنة في العمر مرة على المشهور ، وهي آكد من الوتر وقيل : فرض كالحج ، وبه قال الشافعي . اهـ .

(وأما عند الحنابلة) فالحج والعمرة كل واحد منهما فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور .

واعلم أنه يُندب الإكثار من العمرة وتتأكد في شهر رمضان باتفاق الأئمة الثلاثة ، وأما المالكية فقالوا يكره تكرار العمرة في السنة مرتين إلا لمن كان داخلاً مكة قبل أشهر الحج ، وكان ممن يحرم عليه مجاوزة الميقات حلالاً فإنه لا يكره له تكرارها ، بل يحرم بعمرة حين دخوله ولو كان قد تقدمت له عمرة في هذا العام ، فإذا أراد دخول مكة في أشهر الحج دخل بحج لا بعمرة ، وأما فعل العمرة مرة ثانية في عام آخر فهو مندوب ولا فرق عندهم بين رمضان وغيره فلا تتأكد فيه .

واعلم أنه ﷺ قد حج قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججاً لا يدرى عددها ، وحج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين ، وكذلك اعتمر قبلها عمراً لا يدرى عددها وأما بعدها فعمرة في رجب ، وثلاثاً بل أربعاً في ذي القعدة أي في ثلاث أعوام لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارناً ، وعمرة في شوال كما صح في أبي داود وعمرة في رمضان كما في البيهقي .

وفرضية الحج والعمرة واردة صريحاً في الكتاب والسنة ، وأما الكتاب فقد قال الله تعالى : ﴿و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ وقال: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وقال آمراً نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ۞ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . . . إلى آخر الآيات﴾ .

وأما السنة فقد قال رسول الله ﷺ: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" رواه البخاري وغيره ، وروى ابن حبان عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة وحط عنه بها خطيئة فإذا وقفوا بعرفات باهى الله بهم ملائكته يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غُبْراً أشهدكم أني غفرت ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء ورمل عالج وإذا رمى الجمار لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة وإذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة ، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . اهـ.

قال في المصباح المنير: رمل عالج جبال متواصلة يتصل أعلاها بالدهناء ، والدهناء بقرب اليمامة وأسفلها بنجد ويتسع اتساعاً كثيراً قال البكري : رمل عالج

يحيط بأكثر أرض العرب اهـ. وقال ﷺ: "إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً" رواه أحمد والطبراني .

وقال عليه الصلاة والسلام : "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" رواه الشيخان وقال: "تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ، والذهب والفضة . وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" رواه أحمد وغيره . وقال : "من حج عن أبيه أو أمه فقد قضى عنه حجته وكان له فضل عشر حجج" رواه الدارقطني . وقال : "إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له" رواه أحمد . وقال : "اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج" رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد.

ويستحب الإكثار من العمرة لا سيما في رمضان ، لما أخرجه ابن حبان وغيره : "عمرة في رمضان تعدل حجة معي" وفي رواية البخاري : "تقضي حجة أو حجة معي".

ويستحب أن يحج الإنسان عن نفسه بعد حجة الإسلام ثانية وثالثة فقد ورد : "من حج حجة فقد أدى فرضه ، ومن حج ثانية فقد داين ربه ومن حج ثالثة حرم الله جسده على النار" .

وفي الحديث القدسي : "إن عبداً صححتُ له جسمه وأوسعت عليه معيشته تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليّ لمحروم" وهناك أحاديث كثيرة وردت في هذا الشأن اكتفينا بما ذكرناه بغية الاختصار .

واعلم أن وقفة الجمعة لها مزية على غيرها لأن الأعمال تشرف بشرف الزمان كما تشرف بشرف المكان ، ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فيكون العمل فيه أفضل فقد ورد: "إذا كان يوم عرفة جمعة غفر الله لجميع أهل الموقف" وورد أيضاً : "أفضل الأيام يوم عرفة وإذا وافق يوم جمعة فهو أفضل من سبعين حجة في غير يوم الجمعة" أخرجه رزين . وقال عليه الصلاة والسلام: "إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاه إياه" رواه مسلم وأحمد وغيرهما .

وقد كانت وقفته ﷺ في حجة الوداع يوم الجمعة لأن الله تعالى إنما يختار له الأفضل ولهذا اشتهر وصف الحج بالأكبر إذا كانت الوقفة يوم الجمعة .

واعلم أن للحج ميقاتين ، زمانياً ومكانياً . فالميقات الزماني : هو شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة أي يبتدئ من أول ليلة عيد الفطر إلى ما قبل فجر يوم عيد النحر بما يسع الوقوف بعرفة فلو أحرم بالحج قبل هذا الوقت أو بعده فلا يصح حجاً ولكن ينعقد عمره .

والميقات المكاني الذي يجب عنده الإحرام حرم مكة وهو معروف في جميع الأطراف وسيأتي بيانه .

(والميقات المكاني للعمرة) هو ميقات الحج والميقات الزماني لها جميع السنة فيجوز الإحرام بالعمرة في كل وقت من غير كراهة وفي يوم النحر وأيام التشريق لغير الحاج . وأما الحاج فلا يصح إحرامه لعمرته ما دام محرماً بالحج وكذا لا يصح إحرامه بعد التحللين ما دام مقيماً بمنى للرمي فإذا نفر من النفر الثاني أو الأول جاز أن يعتمر فيما بقي من أيام التشريق لكن الأفضل أن لا يعتمر حتى تنقضي أيام التشريق . ومن كان مقيماً بمكة فميقاته للحج مكة وميقاته للعمرة أدنى الحل وقد أقت النبي ﷺ مواقيت الإحرام في حجة الوداع كما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وحجة الوداع كانت في السنة العاشرة ، ومن أحرم بالحج والعمرة معاً فأعمال العمرة تندرج في أعمال الحج . وطواف الإفاضة هو ما وقع بعد الوقوف بعرفة ويسمى أيضاً طواف الركن ، وطواف الزيارة .

واعلم أن الحج والعمرة يؤديان على ثلاثة أوجه :

الأول: الإفراد وهو: أن يحرم بالحج ، وبعد الفراغ من أعماله يخرج من مكة إلى أدنى الحل بالعمرة ويأتي بأعمالها .

والثاني : التمتع وهو: أن يقدم العمرة على الحج ، سواء كانت العمرة في أشهر الحج أو قبله على المعتمد ، ويأتي بأعمالها ، ثم يحرم بالحج ، ويأتي بأعماله .

الثالث: القران وهو: أن يحرم بالحج والعمرة معاً في أشهر الحج ، أو يحرم بالعمرة وقبل الشروع في أعمالها يحرم بالحج ثم يعمل عمل الحج . وأفضل هذه الأوجه الإفراد ثم التمتع ثم القران .

واعلم أن بعض الحجاج يقع في خطأ عظيم بأن يحرم من الميقات بحج أو عمرة متحرراً من ثيابه لابساً ثوبي إحرامه ، ثم يبدو له قبل وصوله مكة أو بعد وصوله إليها وقبل الشروع في أعمال حجه أو عمرته أن يتوجه إلى زيارة المدينة المنورة

فيفك إحرامه ويلبس ثيابه وقد يأتي النساء ويمس الطيب معتقداً أنه حلال، وأنه لا شيء عليه في ذلك، ثم بعد الزيارة يستأنف إحراماً آخر بحج أو عمرة معتقداً أن إحرامه الأول صار لاغياً، مع أنه لا يزال باقياً يجب عليه إتمامه وقضاؤه إن أفسده، ولقد أخطأ في هذا العمل من وجوه:

الأول: إقدامه على رفض ما أحرم به، وإبطاله في زعمه بدون مسوغ شرعي.

الثاني: ارتكاب ما هو محظور بالإحرام من لبس الثياب، وترك الواجبات وقد يأتي بما يفسد النسك.

الثالث: إقدامه بعد عودته من الزيارة على إحرام آخر.

فيجب على الحجاج أن يتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة، لقوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ حتى يكون حجهم مبروراً وسعيهم مشكوراً، وقد نبه على هذه المسألة العلامة الجليل الشيخ "محمد حسنين مخلوف" رحمه الله تعالى في كتابه "دليل الحاج".

واعلم أن في الحج ثلاثة أطوفة: طواف القدوم، وطواف الإفاضة وطواف الوداع، وهذا خلاف طواف التطوع، فطواف القدوم سنة، فلو تركه لم يلزمه شيء وطواف الإفاضة ركن لا يصح الحج إلا به ولا يجبر بدم ولا غيره، وطواف الوداع واجب مستقل على المعتمد، فلو تركه لزمه دم، ومحل طواف القدوم عند دخول الحاج مكة، ومحل طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة، وبعد نصف ليلة النحر، ومحل طواف الوداع عند إرادة السفر من مكة.

واعلم أن للحج تحللين:

(فالتحلل الأول) يحصل بفعل اثنين من ثلاثة وهي: رمي جمرة العقبة وطواف الإفاضة المتبوع بالمسعى إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم والحلق أو التقصير، فيحل له حينئذ محرمات الإحرام، ما عدا ما يتعلق بالنساء: من عقد النكاح والمباشرة بشهوة والوطء.

(والتحلل الثاني) يحصل بفعل الثلاثة المذكورة كلها فيحل له حينئذ جميع محرمات الإحرام، حتى ما يتعلق بالنساء ويجب عليه الإتيان بما بقي من أعمال الحج وهي: الرمي والمبيت بمنى.

وأما العمرة فلها تحلل واحد، وهو فعل أعمالها كلها، وهذا في غيره عمرة الفوات. وأما هذه فلها تحللان:

الأول: يحصل بالطواف المتبوع بالسعي وإن لم يكن سعى أو بالحلق أو التقصير.

والثاني: يحصل بفعل ما بقي منهما ولا يفسد الإحرام إلا الوطء في الفرج.

ومن ترك ركناً من أركان الحج غير الوقوف بعرفة أو ترك ركناً من أركان العمرة لم يحل من إحرامه حتى يأتي به فيستمر محرماً ولو سنين، لأن الطواف والسعي والحلق لا آخر لوقتها.

ومن ترك واجباً من واجبات الحج أو العمرة عمداً أو سهواً أو جهلاً لزمه دم. ومن ترك سنة من سننهما لم يلزمه شيء.

والأيام المعلومات المذكورة في سورة الحج: هي عشر ذي الحجة على الأصح، والأيام المعدودات المذكورة في سورة البقرة هي: أيام التشريق وهي الثلاثة بعد يوم النحر، ويسمى اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية، واليوم التاسع منه يوم عرفة، واليوم العاشر منه يوم النحر، واليوم الحادي عشر منه يوم القر، واليوم الثاني عشر منه يوم النفر الأول، واليوم الثالث عشر منه يوم النفر الثاني.

ومن أراد زيادة الاطلاع على أحكام الحج والعمرة فعليه بمراجعة كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة على المذهب الشافعي" وهو كتاب مطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة، أو عليه أن يطالع كتب الفقه.

معنى الحج لدى الطوائف المختلفة

الحج في اللغة: القصد، وشرعاً: قصد بيت الله الحرام للنسك أي: أعمال الحج من النية والطواف والسعي والوقوف بعرفة والحلق وترتيب معظم الأركان، وذلك في وقت مخصوص من كل سنة، هذا هو الحج في الديانة الإسلامية.

وأمكنة الحج معروفة، ففي مكة المشرفة يكون الطواف والسعي، وفي عرفات يكون الوقوف، وفي مزدلفة يكون المبيت، وفي منى يكون المبيت ورمي الجمار، والمسلمون في جميع هذه الأعمال لا يقصدون عبادة الأمكنة ولا الأحجار، وإنما

يقومون بأداء هذه الأعمال امتثالاً لأمر الله عز وجل واقتداء بعمل نبينا "محمد" صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما معنى الحج لدى بقية الديانات والشعوب الأخرى فيختلف عما عليه المسلمون اختلافاً عظيماً . وقد أوضح كل ذلك مؤلف "الرحلة الحجازية" فرأينا نقل كلامه للإحاطة ونحمد الله أن هدانا للإسلام وعمّر قلوبنا بالإيمان الكامل واليقين التام . قال رحمه الله في كتابه المذكور بصحيفة (١٥٠) من الطبعة الثانية ما نصه :

الحج في اللغة: القصد ورجل محجوج أي مقصود ، وفي اصطلاح المسلمين: قصد مكة لأداء المناسك في زمن مخصوص من كل سنة قمرية ، وواحدته حجة ، وتطلق على السنة فيقال عمر هذا الصبي سبع حجج أي سبعة سنين .

وهو سنة قديمة جداً في الأمم ، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض ، وإن كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية ، تزيد في رقي الأمة أدبياً ومادياً . وقد كان المصريون قبل أربعين قرناً يحجون إلى هيكل معبودهم إيزيس ، بمدينة سايس (صا) وفتاح في منفيس ، وآمون في طيبة .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرناً إلى هيكل ديانا في أفسوس . ثم انتقلوا في بدء القرن الثاني قبل المسيح إلى حج معبد مينا رفافي في أثينا ، وجوبيتر في أولمبيا . واليابان يحجون من عهد بعيد إلى هيكل عظيم مشهور في ولاية أسجي وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون إليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم إلا ما يستر عورتهم ، ويقطعون إليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحجون إلى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جداً . والهنود لا يزالون يحجون إلى هيكل جاغرنات أو هيكل الورا في حيدر أباد وهو محفور في الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحجون إلى هيكل بوذا بجزيرة منا قرب سيلان . وهم يكثرون من الطواف حول هياكلهم ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود يحجون من القرن الرابع عشر قبل المسيح إلى المكان الذي به تابوت العهد وكانوا يحجون إليه ثلاث مرات في السنة . وكان ذلك أكبر سبب لعمار أورشليم حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الروماني وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، وما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت

العرب عليها سنة ٦٣٦م (سنة ١٦ هجرية) فأقرهم عمر رضي الله عنه مع النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس. ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم إلى أن استولت دولة بني عثمان على أورشليم في سنة ١٥١٧م فأمنت الطرق ومهدت السبل إلى بيت المقدس، وهم يحجون الآن إلى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية من المسجد الأقصى ويسمونها البراق. أما النصارى فإنهم يحجون إلى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح، أي منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين إلى أورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة وكانوا يخرجون إليه من غرب أوربا باحتفال عظيم، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلاً منهم بعصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون إليها مدة سفرهم، وإذا وصل الحاج إلى بيت المقدس، يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفناً عند موته. فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قلَّ حجاج الإفرنج إلى أورشليم وحولوا وجوههم إلى كنيسة القديس بطرس وبولس في روما، وفي تريف بجرمانيا ويزعمون أن بالأخيرة قميص المسيح الذي كان يلبسه. وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليوناً ومائة ألف نفس من الإفرنج وهم يحجون أيضاً إلى كنيسة لورد، في جنوب فرنسا بعد أن شاع في أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون إلى اليوم بأن فيه شفاء للناس ويرسلون منه إلى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء. ولم تكثر حجاج بيت المقدس إلا بعد عمل السكة الحديدية إليها من يافا.

والعرب كانت تحج إلى الكعبة قبل الإسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب. وكانوا يقصدونها سنوياً للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين، لأنها كانت عندهم بيتاً لله الذي هو إله العالمين. ورغماً من شيوع عبادة الأوثان في سواد قبائل العرب فإنه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة. انتهى المراد من الرحلة الحجازية، ثم تطرق المؤلف إلى عبادة الأحجار واحترامها أيام الجاهلية أضربنا عن ذكرها هنا لعدم تعلقها بهذا الفصل.

لباس الإحرام في الحج والعمرة

يحرم على كل محرم ذكر بحج أو عمرة لبس ما يحيط بجميع بدنه أو بجزء منه ، سواء كان المحيط بخياطة أو بغير خياطة فإن لبس شيئاً من ذلك وجب عليه الفدية ، فيلبس المحرم إزاراً ورداءً من أي قماش كان والأبيض أفضل الألبسة ، والإزار هو : ما يستر نصفه الأسفل ، والرداء هو : ما يوضع على الكتفين فيكون هيئة المحرم كهيئة من هو داخل الحمامات بالفوطة ، ويقال لها المنشفة أو البشكير ، ولبس الإزار شائع في بلاد اليمن وفي بلاد السودان فغالبهم لا يلبس السروال ومئزرهم عبارة عن قطعة من القماش نحو مترين بدون خياطة يلفونها على نصفهم الأسفل من السرة إلى ما تحت الركبتين ، ومثلهم أهل جاوه وبعض الهند فهؤلاء أيضاً لا يلبسون السروال وإنما يلبسون إزاراً مخيطاً يسمونه "الفوطة" وهي مخيطة من الجانب كالكيس لكنها مفتوحة من الرأسين ، وهذه لا يصح بها الإحرام كما لا يخفى .

ولننقل هنا باختصار ما ذكره الأستاذ محمد لبيب البتنوني رحمه الله تعالى عن اللباس في كتابه "الرحلة الحجازية" منذ قديم الزمن فقد قال ما ملخصه :

كان الناس قديماً يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جداً ، والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المئزر ثم البرنس وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف ، وتربط بحزام وترسل إلى الركبتين في العامة أو إلى أسفل منها في الخاصة ، حتى إذا ترقت الدولة في عمرانها أطالوا من ذلك البرنس إلى الكعبين ولبسوا من تحته قميصاً لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين سكان أثيوبيا وهي مملكة قديمة حبشية ، وكانوا في مبدأ أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد "أخضر أو أزرق أو أحمر" ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دوائرها بالأشرطة المنقوشة.

أما الأشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرون بها من تحت إبطهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك ، ثم غيّروا هذا الزي بأن لبسوا قميصاً صغيراً ومن فوقه شيء يشبه العباءة ، والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلاً واسعاً ويمرون به من تحت إبطهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه ، ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمونها شيون CHION كما تراه إلى اليوم في عرب البادية المصرية خصوصاً عرب المغرب ، ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته إلى الآن ، وهذا الشكل منه صور كثيرة على الآثار الرومانية . وتوجد في كثير من المتاحف بعض تماثيل بلباسهم القديم .

وكان أبسط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الأشوريين الذين هم إخوان الكلدانيين الذين خرج منهم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأن كليهما من الجنس السامي ، وعليه فلباس الإحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه إبراهيم عليه السلام حين أمر الله تعالى بالحج قائلاً : ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ وما زالت هذه السنة قائمة في حج بيت الله إلى الآن .

وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة وإلا فالغرض من الإحرام لبس غير المخيط مطلقاً إشارة إلى أن الإنسان خرج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها إلى بساطة الوجود وبداوته ، فهذا الزي يستوي فيه الصعلوك والملوك ويشترك فيه جميع الطوائف والأجناس ، وبهذا الزي تقريباً يخرج الإنسان من الدنيا ويستقر في جوف القبر ، ففي هذا الزي عبرة وحكمة لا تخفيان على ذوي الألباب . انتهى باختصار من "الرحلة الحجازية" .

الحكمة في لباس الإحرام بالحج أو بالعمرة

قلنا الحج هو : قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج أو العمرة ، ومن أركان الحج والعمرة الإحرام مع نية الدخول فيهما أو في أحدهما ، حتى يعرف الحاج أو المعتمر بلباس إحرامه وهيئته وشكله من بين سائر الناس .

فإذا نظر الإنسان إلى هذا الحجيج الأعظم في جبل عرفات يوم الوقوف ، يشبه جموعهم بيوم المحشر بعد بعث الناس من قبورهم ، وقد اختلط الأمير بالفقير

والكبير بالصغير والعالم بالجاهل . فالحكمة من لباس الإحرام في النسك إذاً هو تشبيه هذا الحجيج . المجموعين في يوم الوقوف بعرفات ، ببعث الأموات من قبورهم ليوم المحشر للحساب والجزاء فلباس الإحرام يكون للحجاج بمثابة الأكفان للأموات ، فكما أن الأموات إذا كفنوا ووضعوا بجوار بعضهم في ساحة واحدة ، لا يتميز بعضهم عن بعض ولا يعرف الأمير من الفقير ، ولا الجاهل من العالم ، ولا الصالح من الفاسق ، كذلك يكون حكمة الإحرام في الحج حتى لا يتميز الرئيس من المرؤوس ولا التابع من المتبوع ، ولا الأمير من الصغير ، ولا السيد من العبد .

فإن الإنسان إذا نظر في يوم عرفة إلى هذا الحجيج الأعظم ، فإنه يرى جميع الناس بجردين من ثيابهم العادية ، وكلهم بشكل واحد وهيئة واحدة يرتدون الإزار والرداء ، مكشوفي الرؤوس لا يلبسون في أرجلهم سوى نعال خفيفة ، فلا يلبسون عمامة أو عقالاً على رؤوسهم ولا يلبسون ثياباً مخيطة من الجبة والقفطان ، ولا من المشالح "العبايات" فوق الثياب ، ولا من السراويل والبنطلونات ، وإنما الجميع بلباس واحد وهيئة واحدة ، ويدعون كلهم بلسان واحد لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك لك والملك لا شريك لك .

فالحج بلباس الإحرام ، وترك الطيب والنساء وأطايب الطعام ، معناه التجرد من الدنيا وشهواتها ، والتفرغ التام لعبادة الملك القدوس السلام ، من أداء الفروض والسنن ، والتلبية والتهليل والتسبيح والاستغفار للعزيز الغفار بصدق وإخلاص والالتجاء إلى الكبير المتعال بالدعاء والتضرع ولزوم باب بيته الحرام ، مدة دوام نسك الحج . عسى أن يتقبل الله عز وجل منا هذا التضرع والدعاء في المشاعر العظام ، لنسعد بذلك في الدارين بفضله ورحمته ، إنه هو الغفور الرحيم .

فالحج إلى بيت الله الحرام ، والوقوف بالمشاعر العظام ، بهيئته المخصوصة وهي لباس الإحرام ، هو شعار جميع المسلمين ، ليتميزوا بهذا الركن الخامس العظيم عن أعداء الدين ، وليتركوا بلباس الإحرام ، جميع علامات التمييز الدنيوي وجميع المعاصي والآثام ، والله عز وجل أكرم من أن يرد عباده الحجاج الكرام ، الذين يقصدون بيت الله الحرام ويتوبون إلى التواب الرحيم ، عند بيته الكريم بصدق وإخلاص خائبين صفر اليدين .

فالله تبارك وتعالى هو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين لا إله إلا هو العزيز الغفار .

ومما لا يخفى لدى أهل الدنيا أن الإنسان إذا أراد المثول بين يدي الملوك ، لا بد له أن يرتدي لباس التشريفة ، وهو ثياب خاصة للمثول بين أيديهم ، فلا يدخل على الملوك رجل رث الثياب سقيم الإهاب أشعث أغبر .

أما الوصول إلى بيت الله عز وجل والوقوف على بابه ، فله ثياب خاصة ، ثياب بسيطة لا تكليف فيها ولا تزيين ، ثياب يليق بداخل بلد الله الأمين ، ولباس صالح لمن يقف على عتبة باب بيت الله المطهر ، وبهيئة يخالف عادات الملوك ونظم أرباب الدولة ، بحيث تكون هذه الهيئة ميسورة للكبير والصغير والجليل والحقير ، لأنه لا يمنع أحد عن باب الواحد الأحد ، فإنه أرحم الراحمين عظيم الفضل واسع الإحسان .

فحكمة تجرد الإنسان من الثياب التي ألفها وارتدائه لباس الإحرام الأبيض عند دخوله بلد الله أو عند إرادة الحج أو العمرة ، هي التجرد من العادات الدنيوية ، والتشبه بحال الأموات الذين مضوا إلى لقاء ربهم ، والتفكر في البعث والنشور ، فإن ذلك مما يلين القلوب ويشرح الصدور ويقرب العبد من ربه ، حتى يعود بعد ذلك إلى العمل الصالح وما ينفعه في الدار الآخرة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون ۞ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

وما أحلى لباس الإحرام على الحجاج وهم داخلون به مكة والمسجد الحرام وواقفون به في منى ومزدلفة وعرفات ، يدعون الله تعالى وينادونه بلفظ "لبيك اللهم لبيك" وما أجمل هذا اللباس وهم على عرفات في صعيد واحد ، لا فرق بين الصعلوك والوزير ، ولا بين الغني والفقير ، ولا بين الكبير والصغير ، ولا بين الأعمى والبصير ، ولا بين العربي والأعجمي ، ولا بين الأبيض والأسود ، ولا بين العالم والجاهل .

اتحد الكل في الزي والشكل ، كما اتحدوا في عبادة الحكم العدل ، في هذا البلد الأمين ، وفي هذه الصحراء الواسعة ، امتثالاً لأمر الله وابتغاء مرضاته ، فيتجلى الله تعالى على هذا الجمع الغفير من الأمة المحمدية بالرحمة والمغفرة والفضل والإحسان ، وهو الغني عن العالمين .

هذا هو الدين الإسلامي الحنيف ، وهو الدين السمح المعقول المقبول اللطيف ، كلما توغل الإنسان في معرفته والعلم بأحكامه ، كلما قوي إيمانه واطمئن قلبه وازداد حباً فيه ومعرفته بربه .

فحكمة لباس الإحرام لدى المسلمين عند إرادة النسك، ترمي إلى الاتحاد في القول والعمل، وإلى ترك الفوارق البشرية حتى لا يزدري بعضهم بعضاً، وحتى يكونوا عباد الله إخوانا، وتشير إلى تذكر الآخرة ليعمل الإنسان لها ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون ۞ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكمة الجليلة اللطيفة المعقولة المقبولة، ثم انظر إلى ما اخترعه في هذا العصر بعض الإفرنج المنبوذين الوقحين من تجردهم من اللباس بالكلية، فتعروا تماماً كما ولدتهم أمهاتهم على زعم أن لا تكون هناك فوارق بين البشر، مع أنهم قد جعلوا بفعلهم هذا القبيح السمج فوارق كبيرة بينهم وبين كافة البشر، فنبذهم الناس وامتنعوا من مخالطتهم، حتى اضطروا إلى أن يتخذوا لهم مدينة خاصة يقيمون فيها ليل نهار حفاة عراة كالحيوانات البهم، فهل هؤلاء يعدون من البشر؟ - كلا والله - فإنهم كالأنعام بل هم أضل، فقد انسلخوا من جميع الأديان كما انسلخوا من جميع العادات البشرية فلا حياء ولا مروءة ولا شهامة، بل لقد حرمهم الله تعالى من متاع الدنيا وزينتها، من الأكل النظيف والشرب السائغ اللطيف، ومن الثياب الفاخرة، والسرور والمقاعد الوثيرة، والفرش الناعمة والزينات المتنوعة البهيجة، ومن جميع ملذات الدنيا ومتاعها، ما حرم الله كل ذلك عليهم، ولكنهم بأنفسهم حرموا أنفسهم، واختاروا عيشة الهمجية الحيوانية على العيشة الهنيئة البشرية، فهم محرومون من كل متعة في الدنيا والآخرة. وإليك ما جاء عنهم:

ذكرت "مجلة المصور" بعدد (١٦٦٠) التي صدرت في القاهرة في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٧٥ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ عن طائفة العراة الذين اتخذوا لهم مدينة خاصة، وقد تعروا حتى لا تكون فوارق بين البشر على زعمهم. ذكرت هذه المجلة تحت عنوان "الجمال بغير احترام" بقلم الأستاذ صالح جودت ما يأتي:

دخلتُ مرة إحدى مستعمرات العراة وأعترف -رغم أنني من أضعف الرجال أمام الجمال- أنني خرجت يومئذ وقد فطنت إلى حقيقة كبرى، وهي أن أول شروط الجمال هو احترام المرأة الجميلة لجمالها وأدركت أن المرأة الجميلة، حينما تتعرى أمام عيون الناس، تفقد كل شروط الجمال، وأولها الاحترام.

تذكرت هذه الحكاية حين قرأت أخيراً أن لأنصار مذهب العراة مستعمرة مساحتها خمسة وعشرين فداناً في ضاحية ويلاند، على مقربة من مدينة أونتاريو. وقد أعلنت جمعية العراة التي تشرف على شئون هذه المستعمرة أنها ستفتح أبوابها للجماهير لمدة ٢٤ ساعة، وقالت: إن غايتها من هذا العرض العام هي أن تثبت أن جميع الشعوب تستطيع أن تعيش في سلام... لأن الناس إذا تجردوا من ثيابهم، التي تحمل مظاهر التفرقة والاختلاف في الثروات والطبقات والجنسيات... أصبحوا جميعاً سواسية متشابهين لا يميز أحدهم على الآخر شيء.

ترى... ألم يجد هؤلاء الأمريكيين سبيلاً إلى محاولة إزالة الفوارق بين البشر إلا عن طريق جماعة فقدت كل شرائط الجمال وأولها الاحترام. انتهى من المجلة المذكورة.

نسأل الله السلامة والعافية من كل ما ينفر عن الخلق والخالق، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه. اللهم ثبت قلوبنا على دينك واختم حياتنا بخير، ومتعنا بسمعنا وأبصارنا، وعقولنا وأفكارنا، ونور قلوبنا وبصائرنا، واشرح صدورنا وأفئدتنا، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأصنام التي كانت في الكعبة أيام الجاهلية

من عجيب أمر الله تعالى، أن بيته الحرام، كان ولم يزل مقدساً معظماً من قديم الزمن، فلم يذكر قط في التاريخ، أن أحداً من أهل الجاهلية كان يعبد الكعبة، كانوا يحترمونها ويطوفون بها، لكن لا يعبدونها قط، وإنما كانوا يضعون فيها وفيما حولها أصنامهم، التي يعبدونها من دون الله، فلما كان يوم فتح مكة، وقد أظهر الله الإسلام وأعلى كلمته، أمر ﷺ بتطهير الكعبة من الأصنام ورميها وتكسيرها.

وإليك ما ذكره صاحب كتاب "تاريخ الخميس" عن كيفية رمي الأصنام وعددها، فقال ما نصّه:

وذكر ابن هشام أيضاً أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام ﴿ما كان

إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت ، وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام ، فقال : قاتلهم الله لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط ، ثم دخل البيت ، فكبّر في نواحي البيت ، ولم يصل ، وفي رواية : صلّى فيه .

وفي الاكتفاء عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً . فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع ذلك الصنم لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع .

وفي رواية : يشير إلى الصنم ، بقوس في يده ، وهو آخذ بسيتها وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، وقل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ، فيقع الصنم لوجهه ، وكان أعظمها هبل ، وهو وجاه الكعبة حذاء مقام إبراهيم لاصقاً بها ، وقال تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصنام معتبر وعلم ‏ ‏ ‏ ‏ لمن يرجو الثواب أو العقابا

وفي «المواهب اللدنية» : وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فكلما مرّ ﷺ بصنم أشار إليه ... الخ ، رواه البيهقي.

وفي رواية أبي نعيم : قد أوثقها الشياطين بالرصاص والنحاس .

وفي تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي : أن الله تعالى أعلمه أنه قد أنجزه وعده بالنصر على أعدائه ، وفتح له مكة ، وأعلى كلمته ودينه ، وأمر إذا دخل مكة أن يقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فيخر الصنم ساقطاً ، مع أنها كلها كانت مثبتة بالحديد والرصاص ، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً بعدد أيام السنة.

قال ابن عباس : ولما نزلت الآية ، يوم الفتح ، قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتي صنماً صنماً ، ويطعن في عينه أو

بطنه بمخصرته ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكبّ الصنم لوجهه ، حتى ألقاها جميعاً ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير أو صفر ، وقال : يا علي ، إرم به . فحمله -عليه السلام- حتى صعد ورمى به وكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون . انتهى كلام «المواهب اللدنية » .

وفي "الرياض النضرة" : روي عن علي أنه قال : حين أتينا الكعبة ، قال لي رسول الله ﷺ: اجلس فجلست إلى جنب الكعبة ، فصعد على منكبيّ ، فذهبت لأنهض به ، فرأى ضعفاً مني تحته ، قال لي : اجلس فجلست ، فنزل عني ، وجلس لي رسول الله ﷺ وقال لي : اصعد على منكبي . فصعدت على منكبيه ، فنهض بي ، وإنه يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت البيت .

وفي شواهد النبوة : سأل رسول الله ﷺ علياً ، حين صعد منكبه : كيف تراك ؟ قال علي : أراني كأن الحجب قد ارتفعت ، ويخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء . فقال رسول الله ﷺ: طوبى لك تعمل للحق ، وطوبى لي أحمل للحق ، أو كما قال. انتهى.

قال : فصعدت البيت وكان عليه تمثال صفر أو نحاس وهو أكبر أصنامهم ، وتنحى رسول الله ، فقال لي: ألق صنمهم الأكبر ، وكان موتداً على البيت بأوتادٍ حديد إلى الأرض ، فقال رسول الله ﷺ: إيه إيه عالجه ، جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت أزاوله أو قال أعالجه عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استكمنت منه ، قال لي رسول الله : اقذف به ، فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير ، ثم نزلت . وزاد الحاكم : فما صعدت حتى الساعة. ويروى أنه كان من قوارير. رواه الطبراني وقال : خرّجه أحمد ، ورواه الزرندي والصالحاني .

ثم إن علياً أراد أن ينزل ، فألقى نفسه من صوب الميزاب ، تأدباً وشفقة على النبي ﷺ ، ولما وقع على الأرض تبسّم، فسأله النبي ﷺ عن تبسمه ، قال: لأني ألقيت نفسي من هذا المكان الرفيع وما أصابني ألم ، قال: كيف يصيبك ألم وقد رفعك محمد وأنزلك جبريل؟ انتهى من "تاريخ الخميس".

مشروعية الأذان وكيفيته

بمناسبة ما ذكرنا عن مبدأ المساجد والمآذن والمحاريب، يستحسن أن نذكر هنا مشروعية الأذان ومبدئه فنقول وبا لله التوفيق:

شرّع الأذان في السنة الأولى من الهجرة وقيل في الثانية، والأذان والإقامة من خصائص هذه الأمة الكريمة المرحومة، وللمؤذن ثواب كثير وأجر كبير، كيف لا وهو يدعو الناس لإقامة الصلوات ويدلهم على الخير، قال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة» رواه مسلم. وقال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخاري. وقال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين» رواه البخاري ومسلم.

جاء في كتاب «نور اليقين» للأستاذ محمد الخضري -رحمه ا لله تعالى- عن بدء الأذان ما يأتي:

"... ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبّه الغافل، ويذكر الساهي، حتى يكون الاجتماع عاماً، فأتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس. فلم يرضوا بذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال الآخرون: نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً، وأشار آخرون ببوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم. فكرهه رسول ا لله ﷺ لأنه لم يكن يحبّ تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقبل هذا الرأي.

وكان أحد المنادين عبدا لله بن زيد الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال: بلى، فقال له: قل ا لله أكبر ا لله أكبر مرتين، وتشهّد مرتين، ثم قل حي على الصلاة مرتين، حي على الفلاح مرتين، ثم كبّر ربّك مرتين، ثم قل لا إله إلا ا لله. فلما استيقظ توجّه إلى النبي ﷺ وأخبر خبر رؤياه، فقال: إنها لرؤيا حق، ثم قال له: لقن ذلك بلالاً، فإنه أندى صوتاً منك. وبينما بلال يؤذن، إذ جاء عمر يجرّ رداءه، فقال: وا لله لقد رأيت مثله يا رسول ا لله، وكان بلال أحد مؤذنيه

بالمدينة والآخر عبدا لله بن أم مكتوم ، وكان بلال يقول في أذان الصبح ، بعد حي على الفلاح ، الصلاة خير من النوم مرتين، وأقره الرسول على ذلك".

انتهى المراد من «نور اليقين».

وفي "تاريخ الخميس" : وفي هذه السنة -أي في السنة الأولى من الهجرة- شرع الأذان ، قال ابن المنذر: إن النبي ﷺ كان يصلي بغير أذان، منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان الناس بها كما في السير وغيرها إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحيّن مواقيتها من غير دعوة . انتهى.

أذان بلال فوق الكعبة يوم فتح مكة

قال الإمام الأزرقي في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدي ، قال : حدثنا عبدالجبار بن الورد المكي ، عن ابن أبي مليكة ، قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على ظهر الكعبة ، فقال بعض الناس يا عباد الله ألهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة، فقال بعضهم: إن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عز وجل : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ الآية. وأخبرني جدي ، عن محمد بن إدريس الشافعي، عن الواقدي عن أشياخه، قالوا : جاءت الظهر يوم الفتح، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة، وقريش فوق رؤوس الجبال، وقد فرّ وجوههم ، وتغيبوا خوفاً أن يقتلوا، فمنهم من يطلب الأمان ومنهم من قد أومن، فلما أذّن بلال رفع صوته كأشد ما يكون، قال: فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله ، تقول جويرية بنت أبي جهل قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي ، ووالله ما نحب من قتل الأحبة أبداً، ولقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى محمد من النبوة فردها و لم يرد خلاف قومه . وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع بهذا اليوم. وكان أسيد مات قبل الفتح بيوم ، وقال الحارث بن هشام : واثكلاه، ليتني مت قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة. وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله الحدث الجليل أن يصيح عبد بني جمح ينهق على بنية أبي طلحة. وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره الله. وقال أبو سفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصاة. فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم، فأقبل حتى وقف عليهم ، فقال: أما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا

فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا ، فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله ﷺ ، قال أبو الوليد: وكان بلال لأيتام من بني السباق ابن عبد الدار ، أوصى به أبوهم إلى أمية بن خلف الجمحي، وأمية الذي كان يعذبه، وكان اسم أخيه كحيل بن رباح. انتهى من الأزرقي.

أذان بلال بعد موت النبي ﷺ

جاء في «تاريخ الخميس» ما نصه: قال إبراهيم التيميّ: لما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ورسول الله ﷺ لم يقبر ، فكان إذا قال ، أشهد أن محمداً رسول الله ، انتحب الناس في المسجد ، فلما دفن قال له أبو بكر : أذن. قال: إن كنت إنما أعتقتني لأن أكون معك ، فسبيلي ذلك، وإن كنت إنما أعتقتني لله فخلني ومن أعتقتني له. قال : ما أعتقتك إلا لله . قال : فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ . قال: فذلك إليك. قال: فأقام حتى خرجت بعوث الشام ، فخرج معهم ، حتى انتهى إليها. وعن سعيد بن المسيب، قال: لما كانت خلافة أبي بكر تجهز بلال ليخرج إلى الشام . فقال له أبو بكر: ما كنت أراك يا بلال تدعنا على هذه الحال ، فلو أقمت معنا فأعنتنا؟ قال: إن كنت إنما أعتقتني لله عز وجل فدعني أذهب إليه، وإن كنت إنما أعتقتني لنفسك ، فاحبسني عندك. فأذن له فخرج إلى الشام فمات بها. وقد اختلف أهل السير أين مات . قال بعضهم : بدمشق ، وقال بعضهم : بحلب سنة عشرين، وقيل : سنة ثمان عشرة وهو ابن بضع وستين سنة. وفي «المنتقى» : قال أبو بكر لبلال : أعتقتك ، وكنت مؤذناً لرسول الله ﷺ ، وبيدك أرزاق رسله ووفوده، فكن مؤذناً لي ، كما كنت لرسول الله ﷺ وكن خازناً لي ، كما كنت خازناً له. فقال له . يا أبا بكر صدقت، كنت مملوكك فأعتقتني، فإن كنت أعتقتني لتأخذ منفعتي في الدنيا ، فخلني أخدمك . وإن كنت أعتقتني لتأخذ الثواب من الرب، فخلني والرب . فبكى أبو بكر، وقال: أعتقتك لآخذ الثواب من المولى ، فلا أعجلها في الدنيا. فخرج بلال إلى الشام ، فمكث زماناً فرأى النبي ﷺ في المنام ، فقال له: يا بلال جفوتنا ، وخرجت من جوارنا، فاقصد إلى زيارتنا. فانتبه بلال وقصد المدينة، وذلك بقرب موت فاطمة . فلما انتهى إلى المدينة ، تلقاه الناس، فأخبر بموت فاطمة، فصاح، وقال: بضعة النبي . ما أسرع ما لقيت بالنبي ﷺ. وقالوا له : اصعد فأذن. فقال : لا أفعل بعدما أذنت

لمحمد ﷺ . فألحوا عليه فصعد ، فاجتمع أهل المدينة، رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم ، وقالوا : هذا بلال ، مؤذن رسول الله ﷺ ، يريد أن يؤذن لنسمع إلى أذانه. فلما قال: الله أكبر الله أكبر ، صاحوا وبكوا جميعاً، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعاً، فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله ، لم يبق في المدينة ذو روح إلا بكى وصاح ، وخرجت العذارى والأبكار من خدورهن يبكين، وصار كيوم موت رسول الله ﷺ حتى فرغ من أذانه، فقال: أبشركم أنه لا تمس النار عيناً بكت على النبي محمد ﷺ . ثم انصرف إلى الشام ، وكان يرجع في كل سنة مرة، فينادي بالأذان إلى أن مات . انتهى من «تاريخ الخميس».

فانظر رحمك الله تعالى ، إلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لرسول الله ﷺ ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وذريته وسلم تسليماً كثيراً، وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، واجزه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته آمين .

عدد المؤذنين لرسول الله ﷺ

جاء في «تاريخ الخميس» في الجزء الثاني، عن عدد المؤذنين لرسول الله ﷺ ما نصه: وأما مؤذنوه ، عليه الصلاة والسلام، فأربعة: اثنان بالمدينة : بلال بن رباح واسم أمه حمامة ، وهو مولى أبي بكر الصديق، وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ ، ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر ، لما قدم من الشام حين فتحها، أذن بلال، فتذكر الناس النبي ﷺ . قال أسلم ، مولى عمر: فلم أر باكياً أكثر من يومئذ . وتوفي بلال سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة أو عشرين بداريا، بباب كيسان، وله بضع وستون سنة. وقيل دفن بحلب وقيل بدمشق.

وعمرو بن أم مكتوم القرشي الأعمى، وفي «معالم التنزيل» اسمه عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي ، وكذا في «الكشاف» وزاد فيه أم مكتوم أم أبيه، هاجر إلى المدينة قبل النبي ﷺ ، وسيجيء موت بلال وابن أم مكتوم في الفصل الثاني، في الخاتمة، في خلافة عمر بن الخطاب.

وأذن له عليه السلام بقباء سعد بن عائذ، أو ابن عبدالرحمن المعروف بسعد القرظي وبالقرظي مولى عمار، بقي إلى ولاية الحجاج ، وذلك سنة أربع وسبعين.

وبمكة أبو محذورة واسمه أوس الجمحي المكي- أبوه مِغْيَر- بكسر الميم وسكون العين المهملة وفتح التحتية ، مات بمكة سنة تسع وخمسين، وقيل تأخر بعد ذلك.

وكان أبو محذورة منهم ، يرجع الأذان، ويثني الإقامة، وبلالاً لا يرجع ويفرد الإقامة، فأخذ الشافعي بإقامة بلال، وأهل مكة أخذوا بأذان أبي محذورة وإقامة بلال، وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة، وأخذ أحمد وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته، وخالفهم مالك في موضعين : إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة. انتهى كل ذلك من «تاريخ الخميس».

جاء في «تاريخ الخميس» : وفي الصفوة عن قاسم بن عبدالرحمن : أول من أذن بلال بن رباح، مولى أبي بكر، واسم أمه حمامة، أسلم قديماً ، فعذبه قومه، وجعلوا يقولون له: ربك اللات والعزى. وهو يقول : أَحَدٌ أَحَد . فأتى عليه أبو بكر ، فاشتراه بسبع أواق، وقيل بخمس، وقيل بغلام أسود، فأعتقه فشهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وهو أول من أذّن لرسول الله ﷺ، وكان يؤذن له حضراً وسفراً، وكان خازنه على بيت ماله .

ثم جاء فيه بعد سطر: قال محمد بن إسحاق: كان أمية بن خلف يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول بلال ، وهو على ذلك : أَحَدٌ أَحَدٌ. ومرّ أبو بكر يوماً على أمية بن خلف، وهو يعذب بلالاً، فقال لأمية: ألا تتقي الله عز وجل في هذا المسكين، حتى متى؟ فقال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود، أجلد منه وأقوى على دينك، أعطيكه به . قال أمية: قد قبلت. قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالاً.

وجاء أيضاً في كتاب «التراتيب الإدارية» في صحيفة ٧٤، من الجزء الأول ، عن عدد المؤذنين لرسول الله ﷺ ما نصه:

في صحيح مسلم، كان لرسول الله ﷺ مؤذنان، بلال وابن أم مكتوم. وقال عياض يعني في وقت واحد . وإلا فقد كان له عليه السلام غيرهما، أذّن له أبو محذورة في مكة، ورتبه لأذانه، وسعد القرظ، أذن بقباء ثلاث مرات، ولكن هذان لازما الأذان بالمدينة . وقلت : وفي مختصر ابن يونس الفقهي : قال ابن حبيب : وقد

أذن للنبي ﷺ أربعة: بلال وأبو محذورة وابن أم مكتوم وسعد القرظ اهـ بواسطة أبي الحسن على المدونة. وفي «السيرة الحلبية» وأذّن بين يديه ﷺ زياد بن الحارث الصدائي وعبد العزيز بن الأصمّ أذن بين يديه مرة واحدة. قلت: عدّ عبدالعزيز بن الأصم من جملة مؤذنيه فيه ما فيه، وإن وقع لجماعة من المتأخرين، وأصله ما في مسند الحارث بن أبي أسامة، عن ابن عمر: كان للنبي ﷺ مؤذنان: أحدهما بلال والآخر عبد العزيز بن الأصم، ولكن قال في «الإصابة»: هو غريب جداً، وفيه موسى بن عبيد ضعيف، ثم ظهرت لي علته، وهو أن أبا قرّة موسى بن طارق أخرج مثله، وزاد: وكان بلال يؤذّن بليل يوقظ النائم، وكان ابن أم مكتوم يتوخى الفجر فلا يخطه، فظهر من هذه الرواية أن عبد العزيز اسم ابن أم مكتوم، والمشهور في اسمه عمرو، وقيل عبدا لله بن قيس بن زائدة بن الأصم، فالأصم جد أبيه، نسب إليه في هذه الرواية. وفي «شرح أنموذج اللبيب» للشمس محمد الرضي المصري المالكي، روى أصحاب السنن: أن مؤذنيه عليه السلام كان عددهم أربعة. وعدهم في «نور النبراس» كذلك أربعة، ثم قال: وزيد عليهم أيضاً اثنان، فصاروا ستة. والأربعة: بلال وعبدا لله ابن أم مكتوم وسعد القرظ وأبو محذورة أوس، والاثنان زياد بن الحارث الصدائي فإنه أذن مرة وأقام في صلاة الصبح، وكان بلال غائباً، فأراد أن يقيم، فقال عليه السلام إن أخا صداء أذّن. من أذن فليقم. والسادس عبد العزيز بن الأصمّ أذّن مرة. اهـ ما نقله.

قال بعضهم: كان المؤذنون في زمانه عليه السلام مؤذنين بلال وابن أم مكتوم. فلما كان زمن عثمان جعلهم أربعة، وزاد الناس بعده، وروي، لما مات عليه السلام ترك بلال الأذان، ولحق بالشام، ولم يؤذن لأحد بعده، عليه السلام، وروي أنه كان يأتي كل عام المدينة لزيارته، عليه الصلاة والسلام، لما أن عاتبه، عليه الصلاة السلام ،في المنام. وقال له: أنت جفوتنا يا بلال، لَمَ لا تزورنا؟ ولما أن ذهب بلال إلى الشام، أتى بسعد القرظ. كان يؤذن بقباء، ثم صار يؤذن بمسجده، عليه الصلاة والسلام، اهـ راجع بقيته فيه.

(فائدة) أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة، عن القاسم بن عبدالرحمن: أول من أذّن، في الإسلام، بلال. وأخرجه أبو الشيخ، عن ابن عباس، وزاد: أول من أقام عبدا لله بن زيد.

وانظر خير البشر بأذان خير البشر.

وفي «خطط المقريزي» : قال الواقدي: كان بلال يقف على باب رسول الله ﷺ ، يعني بعد الأذان ، فيقول: السلام عليك يا رسول الله . وربما قال السلام عليك، بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، حي على الصلاة ، حي على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله.

قال البلاذري : وقال غيره: كان يقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة ، حي على الفلاح، الصلاة يا رسول الله. فلما ولي أبو بكر الخلافة، كان سعد القرظ يقف على بابه، فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة ، حي على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول الله .

قلت : ظفرت بمؤذن سابع له عليه السلام، وهو ثوبان، فقد أخرج عبد الرزاق في مصنفه ، عن ثوبان مولى النبي ﷺ قال: أذّنت مرة، فدخلت على النبي ﷺ فقلت : قد أذّنت يا رسول فقال : لا تؤذّن حتى تصبح. ثم جئته أيضاً فقلت : قد أذنت. فقال: لا تؤذن حتى ترى الفجر ، ثم جئته الثالثة ، فقلت : قد أذنت . فقال: لا تؤذن حتى تراه هكذا، وجمع بين يديه ثم فرقهما ، انظر «كنز العمال» فهذا مؤذن سابع له عليه السلام وقد ظفرت بمؤذن ثامن في "خطط المقريزي" جاء أن عثمان بن عفان كان يؤذن بين يدي رسول الله ﷺ عند المنبر. اهـ منها ص٤٣ من الجزء الرابع طبع مصر سنة ١٣٢٦ .

و لم أر من ذكر عثمان ولا ثوبان المذكور في المؤذنين، فإن معظم الأئمة اقتصر على أربعة، ومنهم من عدهم خمسة، وهو المشهور لدى المتأخرين . وأما عدهم سبعة أو ثمانية، كما ذكرنا، فلم أسبق إليه والحمد لله . وقد نظم أسماء خمسة دون عبد العزيز بن الأصم البرماوي، فقال كما في حاشية الرهوني على الزرقاني:

لخير الورى خمس من الغر أذنوا ... بلال ندى الصوت بدءاً يعين
وعمرو الذي أم لمكتوم أمه ... وبالقرظ أذكر سعدهم إذ يبين
وأوس أبو محذورة وبمكة ... زياد الصداء نجل حارث يعلن

ونظمهم الشيخ التاودي ابن سودة أيضاً فقال:

عمرو بلال وأبو محذورة ... سعد زياد خمسة مذكورة
قد أذنوا جميعهم للمصطفى ... نالوا بذلك رتبة وشرفا

«تنبيه» : أبو محذورة أمره المصطفى عليه الصلاة والسلام بالأذان بمكة عند منصرفه من حنين، فلم يزل يؤذن فيها، وبقي الأذان بمكة في نسل أبي محذورة وأولاده، قرناً بعد قرن، إلى زمن الشافعي. انظر ترجمته في تهذيب النووي. انتهى كل ذلك من كتاب «التراتيب الإدارية».

تحسين الصوت بالأذان

كما يسن تحسين الصوت في قراءة القرآن، يسن تحسينه في الأذان، لأن الصوت الحسن يحرك القلوب، ويوقظ النفس عن غفلتها، ويطرد الملل والسآمة عن الفؤاد. ونحن في هذه الأزمان الأخيرة أحوج ما نكون إلى ما يدفعنا إلى العمل، فالصوت الحسن في قراءة القرآن أو النداء بالأذان أو إلقاء الخطب والمواعظ والتدريس، له مفعول كبير جداً في إيقاظ النفوس وتنشيط الهمم، وكما يوجد أنكر الأصوات يوجد أرق الأصوات. وهذا رسول الله ﷺ، لما أخبره عبدالله بن زيد الأنصاري، أن شخصاً علّمه بين اليقظة والمنام كلمات الأذان، قال له: لقّن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك كما تقدم بيانه.

روى مسلم عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة؟ فقال: أما والله، لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحبّرتها لك تحبيرا» وفيه قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود» وروى الزهري عن أبي سلمة «كان عمر إذا رأى أبا موسى، قال: ذكّرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده».

وجاء في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ، قال: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن. رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه.

قال شيخنا العلامة المحدّث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، رحمه الله تعالى، في شرحه لكتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند هذا الحديث ما ملخّصه:

(تنبيه) يستحب تحسين الصوت بقراءة القرآن، دون تكلف، وحكى النووي الإجماع عليه لكونه أوقع في القلب، وأشد تأثيراً، وأرق لسامعه، فإن لم يكن القارئ حسن الصوت، فليحسنه ما استطاع، هذا إذا لم يخرج عن التجويد المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنه، لم يف تحسين الصوت، بسبب قبح الأداء،

فحكم القراءة بالتلحين أي التطريب، الكراهة عندنا معشر المالكية، كما أشار له خليل في مختصره، بقوله عاطفاً على المكروهات ، وقراءة بتلحين أي تطريب صوت لا يخرج عن حد القراءة، فإن خرج عن حدها حرم اتفاقاً.

قال الأبّي: تحسين الصوت به غير قراءته بالألحان ، فتحسين الصوت تزيينه بالترتيل والجهر.

قال القاضي عياض: لم يختلف في أن تحسين الصوت بالقراءة مندوب إليه، والأحاديث في ذلك محمولة على التحزين والتشويق.

واختلف في الترجيع وقراءته بالألحان ، فكرهه مالك والأكثر لأنه خارج عن ما وضع له القرآن من الخشية والخشوع، وأجازه أبو حنيفة وجمع من السلف ، والأحاديث في ذلك ، لأنه لا يزيد النفس رقة وحسن توقع، وقاله الشافعي في التحزين . اهـ.

قال النووي في «الروضة» : وأما القراءة بالألحان ، فقال الشافعي في «المختصر» : لا بأس بها ، وفي رواية مكروهة، قال جمهور الأصحاب : ليست على قولين ، بل المكروه أن يفرط في المد، وفي إشباع الحركات، حتى يتولد من الفتحة ألف ومن الضمة واو ومن الكسرة ياء أو يدغم في غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة، فإذا أفرط على الوجه المذكور، فهو حرام يفسق به القارئ ، ويأثم به المستمع ، لأنه عَدَلَ به عن نهجه القويم، كما قاله النووي، وغيره، وقالوا: إنه هو مراد الشافعي.

ونحن نقول : إن كل ما ذكره الأئمة الأجلاء والعلماء الفضلاء ، رحمهم الله تعالى، في معنى مثل هذا الحديث المتقدم في حكم قراءة القرآن بالصوت الجميل الحسن، يمكن معرفته وعلمه والإحاطة به بالقارئ والسامع اللذين لهما ذوق حسن ودين وورع ليحكما بالعدل والاعتدال، ويميّزا بين الصوت الحسن الجميل بطبيعته، وبين التغني بالقرآن غناء ، فهذا له حكم وذاك له حكم، وفي الحديث الصحيح الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس... إلخ».

ومما لا يختلف فيه الاثنان: أن كل إنسان خلقه الله بصفة وهيئة خاصة حتى لا يشتبه زيد بعمر «وجلّ من لا شبيه له سبحانه وتعالى» فكل إنسان خلقه الله إما جميلاً وإما قبيحاً، وجعل صوته كذلك إما حسناً جذاباً وإما قبيحاً منفراً، ثم القبح والجمال يتفاوتان في الدرجات والكيفية ، فالصوت الحسن الرنّان، بطبيعة

الخلقة، يزداد حسناً وجاذبية، كلما ازداد صاحبه من العلم والمعرفة وحفظ أصول التجويد والقراءات ، فعليه لا يمكن أن ننكر القراءة بكل صوت حسن جميل ، ونقبل الصوت الخالي من التأثير في النفوس.

وكما خصّ الله عز وجل البشر بالوجه الحسن أو القبيح وبالصوت الحسن أو المنكر خصّ كل جنس منهم بصوت ونغم مخالف للأجناس الأخر ، فمثلاً ، قراءة القرآن في الإذاعة بالراديو من الجنس المصري يكون بصوت وترتيب ، غير قراءته من الجنس العراقي أو الجنس المغربي أو الجنس التكروني -السوداني- أو الجنس اليمني ، أو الجنس الشنقيطي أو أي جنس من الأجناس الإسلامية الذين يتكلمون باللغة العربية فقط. وهؤلاء كلهم طبعاً تكون قراءتهم غير قراءة الأعجام كالفرس والأفغان والتركستان والهندستان ونحوهم . فكل جنس من النوعين «العربي والأعجمي» قراءته للقرآن غير قراءة الآخر ، وصوته وألحانه غير صوت وألحان الآخر، وأن كل جنس منهم لا بد وأن تكون مخارج حروف القرآن غير مخارج الآخر ولو بشيء قليل ، وأن كل جنس من هؤلاء الأجناس إذا قرأ القرآن بصوته الطبيعي، فلا بد من حدوث بعض تغيير عن قواعد علم التجويد المعروفة، لدى علماء الحجاز ومصر وغيرهم، بحكم الاضطرار والخلقة الأصلية . فهل نحكم على كل من حسّن صوته بالقراءة أنه خرج عن القواعد ، ونحكم على صفة قراءته إما بالحرمة أو الكراهة أو غير ذلك - كلا والله - وهل لا يختار شريعتنا الغراء إلا الصوت الخالي والخاوي من التأثيرات المرغبة، في الاستماع، والمجردة من كل جاذبية، تجذب النفوس وتوقظ القلوب وتشرح الصدور -كلا والله- كما أن شريعتنا السماوية السمحاء لا تفضل القراءة التي اتخذت للهو والتلذذ النفساني فقط، ولكن خير الأمور الوسط لا إفراط ولا تفريط.

خير الأمور الوسط الوسيط . وشرّها الإفراط والتفريط

ونرى أن القراءة المصرية ، في الإذاعة والراديو الآن ، في عصرنا هذا، خير القراءات ، وأحسنها صوتاً، وأجملها وقعاً في النفوس، وأشرحها للصدور وأبسطها للأرواح.

وكل ما يقال عن صفة قراءة القرآن الكريم بالصوت الحسن يقال أيضاً عن الأذان للصلوات الخمس بالصوت الحسن، لما لذلك من التأثير البليغ في القلوب ، وهذا رسول الله ﷺ لما أخبره عبدالله بن زيد الأنصاري أن شخصاً علمه بين

اليقظة والمنام كلمات الأذان ، قال له لقن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك . كما تقدم بيانه .

قال الإمام النووي في «كتاب الأذكار» : (فصل) : ويستحب ترتيل الأذان ورفع الصوت به، ويستحب إدراج الإقامة ويكون صوتها أخفض من الأذان، ويستحب أن يكون المؤذن حسن الصوت ثقة مأموناً خبيراً بالوقت متبرعاً. انتهى منه.

ومما يناسب هذا المبحث ، أن عبدا لله ذا البجادين المزني، رضي ا لله تعالى عنه، كان رجلاً صيتاً . وكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقرآن ، فقال عمر: يا رسول ا لله ، ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن فيمنع الناس من القراءة ؟ فقال : دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجراً إلى ا لله وإلى رسوله.

وخبر إسلام وموت عبدا لله ذي البجادين مذكور في «تاريخ الخميس» وفي غيره، فإنه لما مات ، نزل رسول ا لله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدليا إليّ أخاكما، فلما هيأه لشقه ووضعه في اللحد قال: اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه. يقول عبدا لله بن مسعود: يا ليتني كنت أنا صاحب هذه الحفرة.

والبجاد على وزن كتاب الكساء الغليظ الجافي. انتهى.

الأذان الشرعي

هذا العنوان أي -الأذان الشرعي- أخذناه من «مجلة الاثنين» الآتية ، وفيها المقالة المذكورة وليس هنا أذان شرعي وغير شرعي، فالأذان بمعناه وكلماته المعروفة واحد، ليس فارق فيه إلا باختلاف أصوات المؤذنين بالتحسين وغيره، وفي جميع العالم الإسلامي، لا تتغير كلمات الأذان ولا تتبدل مطلقاً، فإن حصل فيه تغيير بزيادة أو نقص في كلماته فلا يسمى أذاناً شرعياً.

وإليك ما ذكرته «مجلة الاثنين» ، التي تصدر بمصر ، وهذه المقالة كانت بعنوان (الأذان الشرعي) ، ومع الأسف، أننا لم نعثر على غلاف المجلة، حتى نكتب تاريخها ، ورقم عددها ، وليس ذلك بمهم ، والمقصود نفس المقالة المنشورة، وإليك نصها:

قضيت ثلاثة أيام في قرية، استمتعت فيها، بالفجر الباسم، ولم تكن تعليمات وزارة الأوقاف، عن الأذان الشرعي، قد وصلت إلى مؤذن القرية، ولهذا كان لا يزال صوته الشادي يتسلل، من نافذة غرفة النوم، وهو يعلن للمؤمنين: (الصلاة خير من النوم) وكانت أذني تتفتح لهذا الصوت الصدّاح، وهو يسري في سكون الليل، يحمل معه إلى قلبي الخشوع، وخشية الله.

قارنت هذا الأذان بالأذان الذي أمر به اليوم، فآمنت أن ترتيل الصلوات، في جميع الأديان، لم يكن عبثاً. إن التلاوة تنفذ إلى الأذان، وأما الترتيل، بالصوت الحسن، فينفذ إلى القلب، وشتان بين أن تؤمن بسمعك، وبين أن تؤمن بقلبك...

وقد ذكرني هذا برجل انكليزي التقيت به في إنجلترا في سنة (١٩٥٠) خمسين وتسعمائة وألف ميلادية، وقدم نفسه لي، على أنه مسلم، وحملني إثم الظن على التفكير في أنه أسلم فراراً من زوجته، ولكنه قطع علي الاسترسال في هذا الإثم، لأنه أعلمني أنه أسلم هو وزوجته وولداه وبنته... فقلت في نفسي: لعل قسم المخابرات أخرجه من دينه ليكون عيناً من عيونه، على الأمم العربية أو رؤساء المسلمين، ورغبت في أن أخلص من التظنن والوقوف على حقيقة إسلامه، فقص عليّ قصته فقال: كنت قد رحلت إلى القاهرة لعمل استصحبت معي عائلتي... وسحرتنا الأحياء القديمة فاتخذناها مقاماً... وأرقت ذات ليلة فصحوت، وسمعت مؤذناً ينادي الناس للصلاة... وكان صوته حسناً ورخيماً، وكان النغم شجياً ورهيباً... وكلما مدّ المؤذن في ندائه للصلاة كلما شعرت برهبة وخشوع... وشاركتني زوجتي سماعه في الليالي التالية، التي حرصنا أن لا نضيّع منها ليلة... وشعرنا أن هذا المؤذن يدفعنا ليلة بعد أخرى إلى الدخول في زمرة المسلمين... ولم نكن في حاجة إلى الإقناع، فبمجرد أن تعلمنا نظرية التوحيد في الإسلام، أسلمنا... ثم وقفنا بعد ذلك على أسرار هذا الدين...» ودعاني الرجل إلى بيته فرأيت أهله يقيمون الصلاة كما يقيمها فقهاء المسلمين...

كانت لهذه القصة عبرة في نفسي لأني وأنا حدث لم أطرب لصوت مؤذن القرية، وحداني تفكيري الساذج أن أطالب «الملاّ» بالمسجد أن يوقف ذلك المؤذن، وأنا أعطيه كل مصروف الشهر -وكان عشرة قروش- ليخلص الناس من صوته الأجش!.

«الملاّ» -بضم الميم وتشديد اللام الألف- : العالم المدرس في لغة غير العرب . والمقصود هنا إمام وخطيب المسجد.

وضحك «الملاّ» من سذاجتي ، وشكاني لوالدي، وكانت (علقة) آمنت بعدها أن صوت هذا المؤذن ليس هو أنكر الأصوات!

كان الحادثان يتراقصان دائماً أمامي ، حتى فوجئت يوماً بالأذان الجديد ...وتساءل الناس ، وتساءلت لماذا لجأنا إلى هذا التجديد؟ فقيل لنا: إن هذا هو الأذان الشرعي، وإننا بقينا طوال القرون الماضية في بدعة ، وكل بدعة في النار!

والقول بأن الأذان كان يؤدى بهذا الطريق الجديد في صدر الإسلام قول يمكن التأمل فيه دون نكرانه، لأنه لم يكن هناك طريق بعد لكتابة الألحان أو تصوير الأنغام... ونحن إن رجعنا لكتاب الأغاني وجدناه وضح كيف كانت تغنى الأصوات . وقد حاول كل ملحن أن يستنبط طريقة التأدية، مما كتب في الأغاني ففشل، وذلك لسبب واحد، هو أن تصوير اللحن لا يمكن أن يكون بالألفاظ...

فإذا كان هذا هو الواقع، فالقول، بأن الأذان كان يؤذن منذ ألف وأربعمائة سنة على هذا الوجه ، قول يتردد فيه الفكر قبل التسليم به... ورجعت إلى أنصار هذا التغيير الجديد، فقالوا لي... يحرم التغني في الأذان لأنه ورد في الحديث أن «الأذان جزم» أي لا مد فيه، ورجعت إلى تفسير هذا الحديث فوجدت فيه أقوالاً عدة، أقربها للعقل قولهم «الأذان جزم» أي مقطوع المد، فلا تقول «ا الله أكبر» بالمد، لأنه استفهام... ثم قالوا: إن الأذان لا ترجيع فيه، ورجعت إلى تفسير هذا ، فقالوا: إن الترجيع هو أن يخفض المؤذن صوته بالشهادتين ، ثم يرجع فيرفعه بهما . وهذا هو الذي يحدث الآن، على عكس ما قال الفقهاء، وقالوا إنه لا يحل فيه (التغني) أي بتغيير كلماته بزيادة حركة أو حرف أو مد.

وكل هذا لا يتناول الأذان في طريقته الأولى ، فإن الغناء له طريقته وهي ترديد المقاطع مرات عدة، بألحان مختلفة، يصحبها كثير من «الشخلعة» إذا أراد المغني إثارة عوامل المرح في السامع... أو يصحبها كثير من الآهات الحزينة إذا أراد المغني إثارة عوامل الشجن... وفي كثير من الأحوال يلجأ المغني إلى اختيار مقاطع الكلمة الواحدة ليؤديها مرات في وقفات متعددة. وهذا التغني الذي يمتنع قطعاً على المؤذن أن يفعله... ولكن المؤذن كان يرتل الأذان كما يرتل القرآن الآن ، فيأخذ بمجامع القلوب ويوحي بالخشية والخشوع.

ومع كل ذلك فإني أسأل السيد وزير الأوقاف، وهو المهيمن على هذا: لقد حرم المتقدمون أخذ الأجر على الأذان والإمامة ، فلماذا أصبحنا وليس هناك من يؤم الناس أو يؤذن فيهم إلا أجيرا، والذي يعين هذا الأجير هو السيد وزير الأوقاف؟ أليس هذا لأن المتأخرين رأوا أنه بمراعاة أوقات الصلاة والاشتغال بالإمامة أو الأذان يقل اكتسابه عما يكفيه لنفسه؟

ونحن الآن لا نعيش في البادية التي يذهب فيها الصوت العادي إلى أبعد الحدود ، وإنما نعيش في ضوضاء الآلة الحديثة، التي يقتضي معها أن يمد المؤذن في صوته، وينوع نغماته ويطيل فيها، حتى يصل إلى سمع السامعين.

لقد اختار الرسول، عليه الصلاة والسلام، بلالاً لصوته الحسن ، وليس لحسن الصوت من وظيفة إلا تأدية النغم، فهذا الاختيار نفسه له دلالته على وجوب تنغيم الأذان وترتيله.

الحق أني لا أجد سنداً يقنعني بوجوب هذا التغيير دعونا نعود للقديم حتى لا نحرم المؤمنين من نعمة الصوت الحسن الذي يذكرنا بخشية الله، وليكن الأذان الشرعي بجوار المنبر إيذاناً بحلول وقت الصلاة...

قصة الأذان

وعندما هاجر النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة «يثرب» حيث استقرت أحوال المسلمين وقويت شوكة الإسلام، ووضع أساس الدولة الإسلامية ، جعل المسلمون يقيمون فرائضهم ، لا يخافون أذى ولا يخشون فتنة ، وكانوا يتحينون أوقات الصلاة فيجتمعون لتأديتها .

ولما كان أمرهم شورى بينهم ، اجتمعوا يوماً ، يتباحثون في طريقة ، لدعوة المصلين لأداء هذه الفريضة في أوقاتها ، فاقترح بعضهم أن يوروا ناراً ، إذ كانت هذه العادة شائعة عند كرماء العرب، فكانوا يوقدون النار، ليسترشد بها الضال في الصحراء. وكان الكريم ، الذي يوقد مثل تلك النار، يعدها من مفاخره ومساره إذا ما استرشد بها الساري، ومن مأثور مفاخرهم في هذا قول بعضهم:

أوقد فإن الليل ليل قرّ   والريح يا غلام ريح صرّ
لعل أن يبصرها المقرّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ

قام في وجه هذا الرأي اعتراض، يوضح وجه الشبه، بين هذه النار وبين نار الفرس، التي كان لا يخمد أوارها، والتي كان يذهب الفرس للتبرك بها وعبادتها .

ثم أدلى بعضهم بفكرة أخرى وهي: أن يوضع بوق ينفخ فيه فيسمعه المسلمون وهنا... «كقرن اليهود» وقال ثالث «أو لا تتخذون ناقوساً يسمعه القاصي والداني» فقال آخر «كناقوس النصارى» وتعددت الآراء... ولم يبت في هذه المسألة، وافترق القوم.

وفي اليوم الثاني اجتمعوا بالنبي ﷺ، وجاء عبدا لله بن زيد وقصّ على رسول ا لله رؤياه في ليلته، وهي أنه سمع أذاناً يدعو للصلاة، فصدقه وأمره بالأذان ففعل، فلما سمع عمر الصوت، وكان منتحياً ناحية من المسجد، أقبل على رسول ا لله ﷺ وقال: «أو لا تبعثون رجلاً آخر يصلح له»، فلما فرغ عبدا لله بن زيد من أذانه، قال له رسول ا لله: «قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك».

ولقد جاء في صحيح البخاري وفي تفسيره عن هذه الرواية صفحة (٧٨) الجزء الأول ما يؤيد ذلك، وهذا نصه:

«حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا عبدالرزاق قال: أخبرنا ابن جريح، قال: أخبرني نافع أن ابن عمر كان يقول: كان المسلمون، حين قدموا المدينة، يجتمعون فيتحينون الصلاة، ليس ينادى لها، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً، مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً، مثل قرن اليهود، فقال عمر: أو لا تبعثون رجلاً ينادي الصلاة؟ فقال رسول ا لله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة».

فنزلت الآية الكريمة: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ثم أسفر النداء ونزلت فيه الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾.

وكان يسمع الأذان في المدينة، خمس مرات في اليوم، يدعو للصلاة في أوقاتها،.... يرتل الأذان ترتيلاً حسناً وبصوت جميل.

وليس للصلاة -غير المفروضة- أذان، فلقد جاء في كتاب «الوجيز في فقه الإمام الشافعي» للإمام الغزالي: «ولا أذان في غير مفروضة، كصلاة الخسوف، والاستسقاء، وصلاة الجنازة، والعيدين، بل ينادى لها: الصلاة جامعة».

وللأذان فضل كبير في التخلص من الشيطان ومن شره، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى النداء أقبل ... إلى نهاية الحديث».

وله فضل عظيم في حقن الدماء، فلقد كان النبي ﷺ إذا غزا قوماً لم يكن يغزوهم حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أغار عليهم. ولقد جاء في صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه قال: «خرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس، قال فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: الله أكبر، الله أكبر. خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

ولما كان للغناء أثره، وللصوت الجميل وقعه في القلوب، رؤي من القديم أن يكون المؤذن حسن الصوت، جميله، ليكون أدعى إلى أن يستمع إليه الناس، ولا ينفرون من سماعه. ولقد جاء في كتاب "الوجيز" للإمام الغزالي، في صفة المؤذن ما يأتي:

"ويشترط في المؤذن أن يكون مسلماً عاقلاً ذكراً، فلا يصح أذان كافر أو امرأة أو مجنون أو سكران مخبط. ويصح أذان الصبي المميز، وليكن المؤذن صيتاً حسن الصوت ليكون أرق لسامعه".

وجمال الصوت في الأذان يرجح صاحبه، حتى أن النبي ﷺ رجّح أذان بلال على أذان عبدالله بن زيد، والصوت النكير يزري بصاحبه، فلقد سمع عمر بن عبدالعزيز رجلاً يؤذن بصوت أجش فقال له: «أذن أذاناً سمحاً وإلا فاعتزلنا».

والليل في سكونه وهدوئه عظمته، وللمؤذن في مأذنته جلاله وروعته، يبعث الصوت بأعذب الألحان وأشجى النغمات بأطيب الدعوات والصلوات، فيحملها النسيم إلى الأسماع، ويرددها الفضاء، فتبعث النشاط في الأبدان، فتقوى على الإيمان، وتوقن بأن الصلاة خير من النوم، فتهب من رقادها وتهرع إلى المساجد تؤدي الفرائض.

وليس أدلّ على ما للصوت الجميل ، في الأذان ، من عظيم الأثر ، في النفوس، والحث على التقوى، والصلاح والعبادة، من أن تستمع الأذان، بعد منتصف الليل، من على مآذن المساجد الكبيرة ، فإن ذلك يبعث في نفسك روعة الحق وجلال الإيمان.

المؤذنون والمؤقتون في المسجد الحرام اليوم

المؤذنون والمكبّرون في المسجد الحرام يبلغ عددهم اليوم اثنين وعشرين شخصاً ، ورئيس المؤذنين في وقتنا الحاضر هو الشيخ الفاضل يعقوب بن يوسف شاكر ويبلغ من العمر نحو السبعين.

وقد اختص بالأذان في المسجد الحرام منذ مائتي سنة خمس عوائل وهم: عائلة شاكر، وعائلة البصنوي، وعائلة بدر، وعائلة جودة، وعائلة البصمجي.

أما التوقيت بالمسجد الحرام، أي معرفة دخول وقت الصلوات الخمس للأذان ، سواء كانت بواسطة المزولة أو الساعة الزمنية، فيختص به بيت «الريّس» فقط بفتح الراء وكسر الياء المشددة.

والقائمون اليوم بالتوقيت من بيت الريس رجلان هما : الشيخ رضوان بن عبدالسلام الريس، والشيخ أسعد بن عبدالسلام الريس.

فإذا دخل وقت الصلاة أذن أحدهما على سطح زمزم قبل هدم المكان الذي كان على بئر زمزم، أو في المكبرية المعمولة الآن فيتبعه كافة المؤذنين على مآذن المسجد الحرام، أما الآن فالمؤذن واحد ويسمع في كافة المكان بواسطة المذياع، كما أنهما كانا ممن يقيمون للصلوات بعد الأذان.

جاء في هامش تاريخ الأزرقي في صحيفة ٧٨، من الجزء الثاني منه ، ما يلي: وكان رئيس المؤذنين يؤذن في منارة باب العمرة في زمن الفاكهي ، ويتبعه سائر المؤذنين.

ثم صار رئيس المؤذنين في زمن الفاسي يؤذن، في منارة باب السلام، ثم صار يؤذن الأوقات الخمسة على قبة زمزم إلى هذا اليوم . انتهى منه.

نقول: والفاكهي المذكور ، هو أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي، توفي في أواخر القرن الثالث أي في سنة (٢٨٠) تقريباً، وله في تاريخ مكة، مؤلف قيّم،

عليه وعلى تاريخ الأزرقي يعتمد المؤرخون في نقل الأخبار. وتاريخ الفاكهي توجد منه نسخة في بعض خزائن أوروبا ، وتاريخ الأزرقي مطبوع طبع مكة، وأما الفاسي، فهو تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي، توفي في الثلث الأول من القرن التاسع أي في سنة (٨٣٢) وله في تاريخ مكة كتاب جليل عظيم الفائدة اسمه « شفاء الغرام » وقد طبع قريباً.

الكعبة المشرفة

درج الكعبة الخارجية الموصلة إلى بطنها

لما بنت قريش الكعبة ، قبل البعثة بخمس سنوات ، جعلوا باب الكعبة المشرفة مرتفعاً عن الأرض حتى لا تدخلها السيول، ولا يدخلها إلا من أرادوا ، وكان بابها قبل ذلك ملتصقاً بالأرض .

ولما كان باب الكعبة، يعلو عن الأرض ، بنحو مترين ، وليس عليه درجة مبنية من الخارج ، فإنه لا يمكن طلوعها إلا بمِرقاة ، وهي الدرج أو السُّلَّم. والمرقاة إليها نوعان في عصرنا الحاضر: نوع يشبه السلّم الصغير يُرقى منه إلى الكعبة شخصاً شخصاً، وهذا السلم يستعمل بعد افتتاح الكعبة، بصفة خاصة ، فلا يسمح بالدخول فيها، إلا لقليل من الناس. ونوع يشبه الدرج يُرقى منه إليها جماعات جماعات ، ويوجد من هذا النوع مدرّجان بجوار بئر زمزم، فإذا فتحت الكعبة لعموم الناس دفعوا أحدهما، حتى يسندوه إلى باب الكعبة، فيشتد الزحام في الصعود عليها، لكن أحد هذين النوعين قد تلف فلم يبق له من أثر كما سيأتي بيانه.

فدرجة الكعبة الخارجية من النوعين معمول من الخشب السميك القوي ، وهو يشبه منابر المساجد غير أن هذه ثابتة في مكانها، والمدرّج يتحرّك بعجلات تحته ، فيدفع من محله إلى أن يسند إلى باب الكعبة ، فيطلع الناس عليها، فإذا أغلق بابها، يدفع المدرّج ثانياً، حتى يصل إلى محله الأول . ونحن هنا نذكر عدد مدرّج الكعبة من عهد الإمام الأزرقي إلى اليوم وهو كما يأتي:

(١) قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه، نقلاً عن الإمام الأزرقي، أنه قال: طول درجة الكعبة ، التي يصعد عليها الناس إلى بطن الكعبة ، من الخارج ، ثماني

أذرع ونصف، وعرضها ثلاثة أذرع ونصف، وفيه من الدرج ثلاث عشرة درجة وهي من خشب الساج اهـ.

(٢) وقال أيضاً ، نقلاً عن الطبري ، في الإتحاف : أن في سنة ثماني عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد الجركسي منبراً حسناً إلى المسجد الحرام، ودرجة يصعد عليها إلى الكعبة، ووصل ذلك في الموسم اهـ.

(٣) وقال أيضاً نقلاً عن السنجاري ، في «المنائح» : وفي شهر رمضان سنة ألف وسبع وتسعين جدد شيخ الحرم درجة الكعبة، وجعل لها حاجزاً من خشب ، وكان أول الدخول عليها يوم الجمعة سادس عشر رمضان . اهـ.

نقول : إن شيخ الحرم المذكور، في ذلك العهد ، اسمه أحمد باشا، فهو شيخ الحرم ووالي جدة من قبل الدولة التركية.

(٤) وقال أيضاً: نقلاً عن «إتحاف فضلاء الزمن» ما ملخصه: أرسل من الهند حسين حميدان درجة للكعبة، فوصلت إلى جدة عام ستة عشر ومائة وألف ، فامتنع عن قبولها والي جدة سليمان باشا، وقال: لا أركبها على الكعبة. فبقيت بجدة إلى سنة سبع وعشرين ومائة وألف فاشتراها محمد باشا المعمار ، والي جدة ، وبعث بها إلى مكة، فركبوها على الكعبة في يوم الخميس رابع عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ورفعوا الدرجة التي كانت قبلها والتي عملها أحمد باشا. ثم في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة، أمر الشريف برفع الدرجة ، التي بعثها محمد باشا المعمار، وإعادة الدرجة القديمة ، التي كانت قبلها ، لعدم استئذان السلطنة التركية، واستئذان الشريف ، فحفظت في بيت الشيخ عبد القادر الشيبي ثم أرسلوا يستأذنون السلطان في تركيبها . وفي افتتاح سنة اثنين وثلاثين ومائة وألف أعادوا الدرجة الأولى ، التي أرسلها محمد باشا المعمار، ورفعوا القديمة . وقد أمر إبراهيم باشا ، والي جدة ، بتلوينها وزخرفتها. انتهى ملخصاً.

(٥) وقال الغازي أيضاً في تاريخه: أرسل إلى مكة نوّاب مدارس محمد منوّر خان بالهند ، درجة للكعبة من خشب الساج، وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف وفيها إحدى عشرة درجة . انتهى.

نقول: هذه الدرجة لا تزال إلى اليوم موجودة بالمسجد الحرام، يصعد الناس عليها ، عند دخولهم الكعبة المعظمة ، ومحل هذه الدرجة بجوار جدار بئر زمزم ، من جهة مقام إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، وعليها اسم راسلها والتاريخ المذكور.

وعرض هذا المدرج مـتران وارتفاعـه عـن الأرض إلى سـطح الدرجـة العليـا مـتران أيضاً، وطوله خمسة أمتار. وقد تطـرق الخلـل في هـذا المـدرّج ، وظهـر فيـه القـدم، وأصلح مراراً ، فقد مرت عليه مائة وأربعون سنة، ولا يزال مستعملاً إلى يومنا.

(٦) وقال الغازي أيضاً نقلاً عن كتاب «أخبار الصناديد» للشـيخ نجـم الغـني بن عبد الغني ، نلخصه فيما يأتي : أرسل إلى مكة نوّاب رامفـور كلـب عَلِيخـان ، -ورامفور بلدة بين دلهي وحيدر أباد بالهند- درجة للكعبة المشرفة. من خشـب . وذلك سنة ثلاثمائة وألـف . وفيهـا أربـع عشـرة درجـة، لكـن لم تستعمل إلا بعـد استئذان الدولة العلية التركيـة ، وكـانت مخصوصـة لصعـود النسـاء إلى الكعبـة يـوم نوبتهن ثم ترك استعمالها بتاتاً . وكانت هذه الدرجة مصفحة بألواح الفضـة، وقـد بلغت قيمتها ، بما فيها من الفضة، (٨٥٣٦٤) خمسة وثمـانين ألفـاً وثلاثمائـة وأربـع وستين روبية هندية . اهـ.

نقول: إن صرف هذا المبلغ الكبير ، في عمـل مـدرّج للكعبـة المشـرفة، أمـر لا يستهان به، خصوصاً إذا عرفنا أن قيمـة الفضـة ، في ذلـك الزمـن، كـانت مرتفعـة وهـذا المـدرّج، كـان موجـوداً ، إلى مـا بعـد سنة (١٣٦٥) ثـم حصـل فيـه تلـف وخراب ، فتصرّف آل الشيبي في فضته وخشبه فلم يبق له اليـوم من أثـر ، وكـان محلّه بجوار المدرّج السابق.

(٧) وفي ابتداء الشروع في توسـعة المسجد الحرام، أي في أوائـل سـنة خمـس وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، أمـر جلالـة الملـك سـعود بـن عبـد العزيـز آل السعود، ملك المملكة العربية السعودية، أدام ا لله توفيقه، بعمل مُـدرّج فخـم لائـق بمكانة بيت ا لله العظيم.

فعمل هذا المدرج بمصر القاهرة ، من الخشـب القـوي المتـين، الملبـس بصفـائح الفضة المزركشة، وفيه مـن النقـوش العربيـة المذهبـة مـا يبهـر النـاظر ، فوصـل هـذا المدرج أو الدرج، أو بعبارة أخرى «السلم» من مصر إلى مكـة المشـرفة، في يـوم الأربعـاء خـامس ذي الحجـة سـنة (١٣٧٦) ألـف وثلاثمائـة وسـت وسـبعين مـن الهجرة.

وفي صباح يوم الخميس سادس ذي الحجة من السنة المذكورة ، اسـتعمل هـذا المدرج لأول مرة من صنعه، فصعد عليه جلالة مليكنا المعظم ، ومعه بعض رؤسـاء

الوفود القادمة من أنحاء العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج، فدخلوا الكعبة المشرفة وقاموا بغسلها ثم خرجوا.

والمدرج المذكور يشتمل على اثنتي عشرة درجة ، وهو بديع الصنع ، جميل المنظر ، يعدّ تحفة نادرة، وآية من آيات الرسم والزخرفة.

درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها

تقدم أن بناء إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، الكعبة لم يكن بالطين ولا بالنورة ولا بالجصّ ، بل كان بالرضم حجارة بعضها فوق بعض ، ولم يكن لها سقف ولا باب يقفل، فما دام البناء على هذه الصورة لا سقف للكعبة ، فلا تحتاج إلى عمل درجة للصعود إلى سطحها.

فلما كان قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ وبنى الكعبة ، جعل لها سقفاً من خشب الدوم، وجريد النخل ، وذلك قبل ولادته، عليه الصلاة والسلام، بنحو مائة وخمسين سنة. ثم صارت بعده بلا سقف إلى أن بنتها قريش.

فلما بنتها قريش سقفتها بخشب الدوم، وجريد النخل أيضاً ، وبنتها بالطين، ولا يزال إلى اليوم ، بناء بعض البيوت بالحجاز، تسقف بجريد النخل وجذوعه، وجعلوا درجة من الخشب، في بطنها من الركن الشامي ، يصعد منها إلى ظهرها. وكان بناؤهم لها قبل البعثة بخمس سنين على الأشهر ، أي بعد ولادة النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة.

ثم لما بنى عبدالله بن الزبير، رضي الله تعالى عنهما، الكعبة سنة أربع وسبعين من الهجرة ، جعل في داخلها درجة ، في ركنها الشامي، على يمين الداخل يصعد فيها إلى سطحها، جعلها من خشب معرجة.

فلما هدم الحجاج بن يوسف الثقفي ما زاده ابن الزبير في الكعبة، من جهة حِجْر إسماعيل ، كان من ضمن ما هدم الدرجة التي بناها ابن الزبير في تلك الجهة ، فلما بناها الحجاج بنى أيضاً درجة في باطنها ، في ركنها الشامي، على يمين من دخلها أيضاً . وقد بقيت عمارة الحجاج للكعبة ، إلى زمن السلطان مراد الرابع ،

ففي عهده هدمت من أثر السيل الكبير، الذي دخل المسجد الحرام، فبناها بناية جديدة محكمة سنة ألف وأربعين من الهجرة وهي العمارة الموجودة في زماننا هذا.

فاعلم مما تقدم، أن عمل الدرجة الداخلية للكعبة، كان منذ عمل السقف لها لأول مرة ، كما هو المعقول، وأن موضع درجتها هو الركن الشامي، على يمين الداخل فيها، منذ بناء قريش الكعبة إلى الآن .

ولقد وصف الإمام الأزرقي ، المتوفى في منتصف القرن الثالث الهجري، في تاريخه ، درجة الكعبة الموصلة لسطحها التي كانت موجودة في زمانه فقال :

وفي الكعبة، إذا دخلتها على يمينك درجة، يظهر عليها إلى سطح الكعبة ، وفي مربعة مع جدري الكعبة، في زاوية الركن الشامي منها، داخل في الكعبة من جدرها ، الذي فيه بابها، ثلاثة أذرع ونصف، وذرع الجدر الآخر الذي يلي الحجر ثلاثة أذرع ونصف، وذرع باب الدرجة في السماء ثلاثة أذرع ونصف ، وذرع عرضه ذراع ونصف، وبابها ساج فرد أعسر، وهو في حد جدار الكعبة، وكان ساجه باديا ليس عليه ذهب ولا فضة، حتى أمر به أمير المؤمنين ، المتوكل على الله ، فضربت على الباب صفائح من فضة، وجعل له غلق من فضة ، في المحرم سنة سبع وثلاثين ومايتين.

وعلى الباب ملبن ساج ، ملبس فضة ، وفي الباب حلقة فضة، وعلى الباب قفل من حديد في الملبن، الذي يلي جدار الكعبة، وباب الدرجة عن يمين من دخل الكعبة مقابله، وطول الدرجة في السماء من بطن الكعبة عشرون ذراعا، وعدد أضفارها ثمانية وأربعون ضفرا، وفيها ثمان مستراحات، وعرض الدرجة ذراع وأربع أصابع، وفي الدرجة ثماني كواء داخلة في الكعبة، منها أربع حيال الباب ، وأربع حيال الأسطوانة ، التي تلي الجدر الذي يلي الحجر ، وعلى بابها، الذي يلي سطح الكعبة، باب ساج طوله ذراعان ونصف ، وعرض ذلك الباب ذراعان. انتهى من الأزرقي.

ويظهر من الكلام الآتي، أن درجة الكعبة، التي كانت من عمل الحجاج الثقفي ، والتي كانت موجودة في زمن الأزرقي قد تلفت وغيّروها بأخرى، فقد قال الغازي في تاريخه: ومن ذلك ما ذكره السنجاري في حوادث سنة تسع ومائة وألف : ولما كان يوم الخميس، سادس محرم منها، طلع مولانا الشريف والقاضي المتولي في هذه السنة، وجماعة من الفقهاء، وحضرة البيك صاحب جدة، وأشرفوا

على سطح الكعبة ، وحقق المهندسون خراب السقف، عند القاضي، بموجب الأمر الوارد من الأبواب، ولما كان يوم الأحد ، ثالث عشر محرم، شرعوا في إصلاح سقف الكعبة فأخرجوا السقف المنكسر، وظهر أن الدرجة الصاعدة إلى السطح محتاجة إلى التعمير، فاستمر العمل فيها وغيروا الدرجة، وجعلوا فيها سبع درج رخام ، والباقي من خشب الساج ، وفرغوا منها أوائل ربيع الأول، وذبح صاحب جدة، يوم فراغ العمارة، نحواً من أربعين شاة، وفرقها على المساكين، وفرق شيئاً من الدراهم على فقهاء المكاتب بالحرم وبعض الفقراء . انتهى من تاريخ الغازي.

عدد درج الكعبة التي بداخلها

لقد أحصينا بأنفسنا درج الكعبة ، التي في بطنها ، الموصلة إلى سطحها ، في يوم تغيير سقف الكعبة ، وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية ، فكان عدد الدرج خمس وثلاثون درجة ، بعضها من المرمر ، وبعضها من الخشب ، فعدد الدرج المرمر ثلاث عشرة درجة ، وما بعدها من الدرج إلى سطحها ، فكلها من الخشب الساج القوي الغليظ ، وعدد هذه الدرجات الخشبية اثنتان وعشرون درجة . ويختلف عرض الدرج ، فبعضها ثلاثة وستون سنتيمتراً ، وبعضها خمسة وستون ، وبعضها سبعون ، وبعضها خمسة وسبعون سنتيمتراً . وأما ارتفاع الدرج فمختلف أيضاً ، فبعضها ٢٤ سنتيمتراً ، إلى ٣٥ سنتيمتراً .

لذلك كان محل الدرج ضيقاً ، فلا يمكن الصعود عليها ، إلا رجلاً رجلاً ، ولا لزوم إلى توسعتها ، لندرة الصعود عليها ، فلا يصعد عليها إلا مرة واحدة في كل عام ، وذلك لإلباس الثوب على الكعبة وقت الحج ، أو إذا احتاج الأمر إلى إصلاح شيء فوق السطح .

وصفة درجها تختلف عن صفة درج المنارة ، فدرج المنارة حلزونية ودائرة عليها من أعلاها إلى أسفلها ، وأما درج الكعبة ، فإنك تطلع ، على كل بضعة من الدرج باستقامة واحدة ، ثم تلفّ قليلاً وتصعد باستقامة معتدلة أيضاً بضعة درج أخرى ، وهكذا حتى تصل إلى سطحها .

وفي الدرج درابزين من الخشب ، من بعد البسطة الثالثة إلى السطح ، لحفظ الصاعد من الوقوع ، ولهذا الدرج باب من داخل الكعبة بمصراع واحد «أي درفة

واحدة» يسمونه الناس باب التوبة، وعلى هذا الباب قفل عادي، ومغطى بستارة تشبه ستارة باب الكعبة من الخارج، وعلى فتحة هذه الدرج، التي هي فوق السطح، غطاء محكم من المعدن، وذلك لسدّ الفتحة، صيانة من نزول ماء المطر منها إلى داخل الكعبة.

وقبل الوصول إلى السطح من الدرج المذكورة، بنحو قامة، توجد فتحتان صغيرتان: إحداهما أمام الصاعد والأخرى على يساره، ولكل منهما باب صغير من الخشب، والفتحتان تدخلان إلى ما بين سقفي الكعبة.

اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا ونجنا من النار، وارفع درجاتنا في الدنيا والآخرة، ونسألك اللهم الدرجات العلا في الجنة ونعوذ بك من النار بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على نبينا «محمد» وعلى آله وصحبه وسلم.

وصف درج الكعبة في عصرنا

درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها، واقعة في الركن، الذي على يمين الداخل للكعبة، أي في الركن الشمالي مما يلي باب الكعبة، وهذه الدرج محجوبة في البناء، غير ظاهرة، ولها باب عليه قفل خاص يقفل ويفتح، وليس فيها شباك أي طاقة ولا منفذ، لذلك صارت الدرج ظلاماً، يحتاج الصاعد إلى سطح الكعبة، إلى السراج والضوء، ومسبل على باب الدرج، ستارة حريرية جميلة، مكتوبة ومنقوشة بالذهب والفضة.

فالدرج مبنية على أربعة جدران، اثنان منها هما أصل جدار الكعبة وهما: جدار وجه الكعبة، وجدار حجر إسماعيل، والجداران الآخران، مبنيان للدرج، من داخل الكعبة، من أرضها إلى سطحها، فعرض الجدار الأول من هذين الجدارين، الذي فيه باب الدرج، متران وخمسة وعشرون سنتيمتراً، وعرض الجدار الثاني المتصل به، متر واحد ونصف متر.

وقد أخذنا هذا القياس حينما تشرّفنا بدخول بيت الله الحرام في صباح يوم الجمعة الموافق للتاسع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، نسأل الله تعالى عفوه وعافيته وغفرانه ورحمته

وفضله وإحسانه، إنه بعباده لطيف خبير، وبإجابة دعائهم وقبول تضرعهم لجدير . وصلى الله على النبي الأمي «محمد» وعلى آله وصحبه وسلم.

روازن الضوء في سطح الكعبة

لم يكن في سقف الكعبة قبل بناء ابن الزبير ، رضي الله تعالى عنهما ، روازن ، فلما هدمها وبناها من جديد، جعل فيها أربع روازن ، يدخل الضوء منها لجوف الكعبة المشرفة، والروازن جمع رَوُزنة بفتح الراء والزاي وهي الكُوَّة، وهي معرّبة كما في مختار الصحاح.

قال الأزرقي في تاريخه : قال أبو الوليد : وفي سقف الكعبة أربع روازن : منها روزنة حيال الركن الغربي ، والثانية حيال الركن اليماني، والثالثة حيال الركن الأسود، والرابعة حيال الأسطوانة الوسطى ، وهي التي تلي الجدار بين الركن الأسود والركن اليماني . والروازن مربعة، في أعلاها رخام يماني ، يدخل منه الضوء إلى بطن الكعبة. انتهى من تاريخ الأزرقي.

وقال أيضاً في موضع آخر: وفي سقف الكعبة أربع روازن نافذة من السقف الأعلى إلى السقف الأسفل ، وعلى الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البَلَق، وبين السقفين فرجة . انتهى منه .

والبَلَق بفتحتين سواد وبياض وكذا البُلْقة بضم الباء وسكون اللام كما في مختار الصحاح.

نقول: وهذه الروازن الأربعة كانت باقية في سطح الكعبة إلى سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة، ففي هذه السنة المذكورة، عمل الأمير سودون المحمدي، بأمر الملك الأشرف برسباي ، بعض تعميرات في المسجد الحرام، وفي الكعبة المشرفة، فأصلح حجارة داخل الكعبة، وأخرج الروازن الأربعة من السطح ، التي كانت تستعمل للضوء، وسدّ محلها من السطح، حتى لا يدخل شيء من المطر إلى جوفها ، وجدد سقف الكعبة ، فلم يبق بعد ذلك أثر مطلقاً للروازن الأربعة إلى اليوم، وقد انتهى من عمل التعميرات والإصلاحات في اليوم الثاني عشر من شهر صفر من السنة المذكورة. وقد ذكر هذا في كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» بصحيفة (٢٣٥) ، وفي كتاب «الجامع اللطيف» لابن ظهيرة القرشي بصحيفة (٤٨) .

نقول: وليس في سطح الكعبة اليوم روازن تضيء جوف الكعبة مطلقاً، ما عدا روزنة واحدة «أي فتحة واحدة» بجهة الميزاب فوق درجتها الداخلية، ولها غطاء محكم، تفتح عند الصعود من الدرجة إلى السطح، فلا يدخل منها الضوء ولا المطر داخل الكعبة؛ لأنها لم تجعل لذلك وإنما جعلت منفذاً للسطح فقط.

الأعمدة الثلاثة التي بداخل الكعبة

مما لا يخفى أن الأعمدة توضع في داخل البيوت أو الغرف لحمل سقوفها، وبيت الله الحرام لما بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لم يجعل له، سقفاً، لأنه بناه بالرضم أي حجارة بعضها فوق بعض، بدون طين ولا نورة، ولم يكن له باب أيضاً. إذاً ما دامت الكعبة في عهده لا سقف لها فلا تحتاج إلى أعمدة في داخلها.

فلما بنتها قريش وسقّفتها سقفاً مسطحاً. جعلوا فيها ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث دعائم، من الشق الشامي، الذي يلي حجر إسماعيل عليه السلام، إلى الشق اليماني لتحمل سقفها، ونقصوا من عرضها، من جهة حجر إسماعيل، ستة أذرع وشبراً، لقلة النفقة الحلال، التي جمعوها لعمارتها، وجعلوا ارتفاع الكعبة، من خارجها، من الأرض إلى أعلاها، ثمانية عشر ذراعاً، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع، ورفعوا بابها عن الأرض أربعة أذرع وشبراً، ثم كسوها وجعلوا لها سلّماً يصعد عليه إلى بطنها، كما ذكره الإمام الأزرقي.

فلما بنى الكعبة عبدالله بن الزبير، رضي الله عنهما، بناها على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجعلها عريضة، أي زاد من جهة حجر إسماعيل ستة أذرع وشبراً، وهذا المقدار كانت نقصته قريش، حين بناء الكعبة، وزاد في ارتفاعها من الأرض إلى أعلاها تسعة أذرع، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض: أحدهما للدخول والآخر للخروج، وجعل ابن الزبير في الكعبة ثلاث دعائم فقط في صف واحد، وكانت قريش في الجاهلية جعلت فيها ست دعائم في صفين كما ذكرنا ذلك. ولا ندري لماذا لم يجعل ابن الزبير، رضي الله عنهما، في الكعبة ست دعائم في صفين كما جعلتها قريش، بل كان المعقول أن يجعل فيها ثمان دعائم، لأنه زاد في بنايته لها ستة أذرع وشبراً، من جهة الحِجر، فهذه الزيادة كانت تحتاج إلى وضع دعامتين. الله تعالى أعلم بذلك. وربما كان سبب وضع ثلاث دعائم داخل الكعبة لقوة البناء ومتانته، فقد قيل: إنه بناها،

رضي الله عنه، بالرصاص المذاب، وأما قريش فبنتها بالطين، وكانت قبل ذلك مبنية بالرضم.

قال صاحب الرحلة الحجازية: وبوسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي، عليها مقاصير، تركز على حائط الميزاب، من جهة، وحائط الحجر الأسود من أخرى، وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيمتراً، وهذه الأعمدة من زمن عبدالله بن الزبير، وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن. انتهى.

ومعنى العود القاقلي: أي من عود الهيل، والهيل: حب عطري حجمه كحجم حب البُنّ وهو يطبخ معه في القهوة في الحجاز ويوضع في الطعام، ويمضغه الناس لطيب النكهة، ويسمونه بمصر «حبَّهان» وبعضهم يسميه حب الهال، ولما كان الهيل من العطريات فإن عود شجره يكون ثمين جداً.

وقال الغازي: وفي تذكار الحجاز للشيخ عبد العزيز صبري: إن في داخل الكعبة ثلاثة أعمدة من العود الماوردي، قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمتراً، وهي منصوبة صفاً واحداً، في وسط البيت من الشمال إلى الجنوب. انتهى.

نقول: إن ما ذكره صاحب كتاب الرحلة الحجازية، وصاحب كتاب تذكار الحجاز، من أن الثلاثة الأعمدة الموجودة اليوم بداخل الكعبة والتي وضعها عبدالله بن الزبير، رضي الله تعالى عنهما، من العود القاقلي أو من العود الماوردي، قد يكون غير صحيح، وبعيد الاحتمال، في نظرنا، وذلك لأمرين:

الأول: من أين يستحضر ابن الزبير هذه الأعمدة العطرية؟ ولا توجد إلا في بلاد الهند، ولم تكن سبل المواصلات في ذلك الزمن سهلة كما هي في عصرنا.

والثاني: لا نعلم هل لشجرة القاقولة «الهيل» أو لأشجار الورد أغصان وأصول غليظة طويلة بحيث يمكن استخراج الأعواد منها للسقوف أم لا، والظاهر أن أشجارهما قصيرة. والله تعالى أعلم.

ولقد توهم صاحبا الكتابين المذكورين فظنا أن تلك الأعمدة الثلاثة من العود القاقلي أو العود الماوردي لما لها من الرائحة الزكية، وأما علمنا فإن هذه الرائحة مكتسبة من كثرة تعطير الكعبة المشرفة، من داخلها وخارجها، والله تعالى أعلم بالصواب.

ولقد ذكر الإمام الأزرقي، رحمه الله تعالى في تاريخه، ذرع ما بين هذه الأعمدة الثلاثة التي سماها بالأساطين ، فقال فيه ما نصه:

وذرع ما بين الجدار، الذي يلي الركن الأسود والركن اليماني، إلى الأسطوانة الأولى، أربعة أذرع ونصف، وذرع ما بين الاسطوانة الأولى إلى الأسطوانة الثانية، أربعة أذرع ونصف، وذرع ما بين الأسطوانة الثانية إلى الأسطوانة الثالثة أربعة أذرع ونصف، وذرع ما بين الأسطوانة الثالثة إلى الجدار الذي يلي الحجر ذراعان وثماني أصابع، وبين الأساطين من المعاليق سبعة وعشرون معلاقاً، والمعاليق في ثلثي الأساطين ، والمعاليق في عمد حديد ، وسلاسل المعاليق فضة، وبين الجدار، الذي بين الحجر الأسود والركن اليماني إلى الأسطوانة الأولى، أحد عشر معلاقاً، ومن الأسطوانة الأولى إلى الأسطوانة الثانية ثماني معاليق ، فيها تاجان، ومن الأسطوانة الثانية إلى الأسطوانة الثالثة، ثمان وبقيتها مموّهة ، ثم أمرت السيدة، أم أمير المؤمنين ، في سنة عشر وثلاثمائة ، غلامها لؤلؤاً بأن يلبسها كلها ذهباً، وهذه المعاليق على ما وصفنا إلى سنة تسع وثلاثين ومائتين .

قال الغازي في تاريخه المخطوط، بصحيفة (١٥٠) ما نصه: وفي سنة ألف ومائتين وواحدة، أرسل مولانا السلطان عبد الحميد الأول خمسين إقة من الفضة، وأمر أن تجعل صفائح مموهة بالذهب، ويطوّق بها بعض العواميد، التي في داخل الكعبة المعظمة، ففعلوا ذلك وطوّقوها بحضور الشريف سرور، وحضور الوزير شيخ الحرم المكي، وهو والي جدة، وبقية المأمورين من رجال الدولة. ذكره السيد أحمد دحلان في سالنامته. انتهى منه.

نقول: المراد بقوله: "ويطوّق بها بعض العواميد التي في داخل الكعبة المعظمة" نفس الأعمدة الثلاثة التي هي من عهد عبدا لله بن الزبير، رضي الله تعالى عنهما، بدون شك، إذ لا يوجد، في جوف الكعبة، غير هذه الأعمدة الثلاثة الأثرية الباقية من ذلك العهد إلى اليوم.

ولقد حصل في هذه الأعمدة الثلاثة المباركة ما يقتضي إصلاحها ، فأصلحت في عهدنا الحاضر، كما ذكره الشيخ حسين باسلامة ، رحمه الله تعالى، في كتابه «تاريخ الكعبة المعظمة» حيث قال فيه ما نصه:

ومما حصل من المرمّات المذكورة، أنه وقع في سنة (١٣٣٢) اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف ، في أسفل الأعمدة الخشب الثلاثة، التي بداخل الكعبة المعظمة،

القائم عليها بساتل سقف الكعبة ، أشطاب وتصديع، حصل ذلك من مياه غسيل الكعبة، ومن دخول السيول إلى جوفها، لأن هذه الثلاثة الأعمدة هي من عهد الخليفة عبدا لله بن الزبير بن العوام، رضي ا لله تعالى عنهما، فأعلم رئيس السدنة ، المرحوم الشيخ محمد صالح الشيبي أمير مكة الشريف الحسين بن علي بذلك، فحضر الشريف الحسين المشار إليه إلى الكعبة في ضحوة يوم الاثنين الموافق ١٣ ربيع الأول من السنة المذكورة، وكان في استقباله بالكعبة رئيس السدنة المذكورة والسادن الثاني الشيخ عبدالقادر بن علي الشيبي وبعض السدنة. ثم أحضروا بعض أهل الخبرة من النجارين ، وكنت أنا مؤلف هذا الكتاب ممن حضر بمعية رئيس السدنة المشار إليه ، فتقرر عمل أخشاب أشبه بالطاب ، على طول القامة، تحاط بأسفل كل عامود من الأعمدة الثلاثة، وتسمر فيها بغاية الإتقان، فعمل ذلك فعلاً، وهي لا تزال على هذه الحالة إلى اليوم، انتهى من كتاب تاريخ الكعبة المعظمة. قوله: «على هذه الحالة إلى اليوم...» أراد المؤلف باليوم عهده وزمانه الذي هو عصرنا هذا فإنه رحمه ا لله تعالى طبع كتابه المذكور سنة (١٣٥٤) هجرية.

ونقول أيضاً: إنه لما أسعدنا ا لله عز وجل بدخول بيته الحرام في يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، نظرنا إلى الثلاثة الأعمدة الخشبية الموجودة في الكعبة المعظمة من عهد عبدا لله بن الزبير، رضي ا لله تعالى عنهما ، فوجدناها أنها من الأخشاب الجيدة القوية النادرة ، ولا نبالغ إن قلنا: إنه لا يوجد مثلها قط اليوم، بنيَّة اللون تميل إلى السواد قليلاً لوجودها داخل الكعبة وعدم تعرضها للضوء والشمس، وقد ظهر عليها القدم لمرور السنين ، والغالب أنه من الخشب الآبنوس ، وهو كما قال في المنجد: شجر عظيم صلب العود أسوده، أو أنها من خشب الساج الذي كان يستعمل بكثرة في ذلك الزمان، قال في المنجد: الساج شجر عظيم صلب الخشب.

ومحيط كل عامود منها متر واحد ونصف المتر، ولكل منها قاعدة مربعة خشبية منقوشة بالحفر على الخشب ، وبين كل عامود متران و٣٥ سنتيمتر، وبين العامود الذي بقرب الجدار من جهة حِجْر إسماعيل والجدار متر واحد، وبين الأعمدة الثلاثة، وكذلك ما بينها وبين الجدارين المتقابلين -جدار ما بين الركنين

والجدار الذي في جهة حجر إسماعيل عليه السلام- مدّاد معلّق فيه قناديل ومباخر فضية متنوعة، مهداة إلى الكعبة المعظمة .

ويمتد على الأعمدة الثلاثة حامل ، يمتد طرفاه إلى داخل الجدارين المذكورين، وهو مكسوّ مثل كسوة السقف والكسوة الداخلية للكعبة.

وهذه الأعمدة الثلاثة مرتفعة إلى السقف الأول، الذي يلي داخل الكعبة، ولا ينفذ من هذا السقف إلى السقف الأعلى، الذي يلي السماء، ولكن جعلت عدة أخشاب بعضها فوق بعض ، على رؤوس هذه الأعمدة الثلاثة، من داخل السقفين ، إلى أن تصل إلى السقف الأعلى، فتكون هذه الأعمدة الثلاثة بهذه الصفة حاملة للسقفين المذكورين.

عدد أعواد سقف الكعبة

ذكر الغازي في تاريخه عند الكلام على بناء السلطان مراد الرابع الكعبة في سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين من الهجرة ما نصه: وفي يوم الأحد شرعوا في عمل خشب السقف ونشر صفايحه، وأخبرني شيخ المعلمين للنجارة، أنه أربع فجوات وكل فجوة اثنان وعشرون عوداً، فيكون مجموع أعواده ثمانية وثمانين عوداً ، عدد ما كان فيها أولاً، وعلى الأعواد صفائح أخشاب مسمرة عليها من ظهرها. انتهى ما ذكره الغازي.

نقول: إنه في صباح يوم الاثنين لثماني عشرة خلت من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف، أسعدنا ا لله تعالى بفضله ورحمته بدخول بيته الحرام، وتشرّفنا بالصعود إلى سطحه، ودخلنا بين السقفين للكعبة فرأينا أعواد السقف الأول وأعواد السقف الثاني كثيرة ، لكن لا ندري هل هي كما ذكره الغازي أم لا، فإننا ما أحببنا المكث بين السقفين كثيراً لعدّ أعواده ، تأدباً واحتراماً، ولا يوجد ثقل على السقف الثاني مطلقاً ، حيث ليس عليه شيء، بخلاف السقف الذي فوقه، المقابل للسماء ، فإن الناس يطلعون عليه ، لربط الكسوة الجديدة لكل عام، كما أنه مبلط بالرخام الأبيض حتى لا ينفذ منه ماء المطر إلى داخل الكعبة . والمسافة بين السقفين هي (١٢٠) مائة وعشرون سنتيمترا.

الإصلاحات والترميمات في الكعبة المشرفة

لقد وقع كثير من الترميمات والإصلاحات في الكعبة المشرفة، ونحن ننقل ذلك باختصار، من كتاب «مرآة الحرمين» ومن كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» وذلك من بعد بناء ابن الزبير والحجاج، فنقول وبالله الحول والقوة:

أرسل الوليد بن عبد الملك، من الشام، الرخام الأحمر والأخضر والأبيض، ففرشت به وأزرت جدرها من الداخل، ولما انفتح الجدار الشمالي، الذي أقامه الحجاج من بقية البناء، رمم ذلك بالجص الأبيض، وكان مقدار الفتح نصف إصبع.

وبعد سنة مائتين، رفعت الفسيفساء، التي كان معمولاً بها سطح الكعبة، لأنها ما كانت تمنع مياه المطر أن تتسرب إلى داخلها، ووضع مكانها المرمر المطبوخ بالجص.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، في زمن المتوكل، قلعت العتبة السفلى لباب الكعبة، وكانت قطعتين من خشب الساج، اندثرتا من طول الزمان، وأبدل بها قطعة من خشب الساج، وألبس صفائح الفضة، وكذلك جدد المتوكل رخام الكعبة، وأزرها بالفضة، وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة أصلح، من قبل الوزير جمال الدين الجواد، سقفها والمدرج، الذي في بطنها، وكذلك أصلح رخامها، حوالي سنة خمسين وخمسمائة من قبل الوزير المذكور أيضاً.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة أصلح الركن اليماني، في عهد الفاطميين، وفي سنة تسع وعشرين وستمائة عمل بعض إصلاحات في الكعبة المستنصر العباسي، وفي سنة ثمانين وستمائة جدد رخامها الملك المظفر صاحب اليمن.

وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة أصلح بعض سقفها وروازنها، وذلك عقب مطر عظيم، وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة، والتي بعدها أيضاً، أمر الملك الأشرف برسباي بإصلاحات جزئية في سقفها وروازنها ورخامها والأخشاب، التي فيها حلق الحديد، التي تربط بها الكسوة، وفي سنة تسع وتسعمائة زمن السلطان سليمان حصل ترميم في الكعبة.

وفي زمن السلطان أحمد الأول، الذي تولى السلطنة سنة اثنتي عشرة وألف، حدث بعض التصدع في جداريها الشرقي والغربي، وفي جدار حجر إسماعيل، فأراد هدمها، فمنعه علماء الروم وأشاروا عليه بعمل نطاق يلم التشعب، فعمل نطاقين من نحاس أصفر مغلف بالذهب، فركب النطاق السفلي على الكعبة، في ليلة السبت ١٢ محرم سنة (١٠٢٢)، ووضعت له أعمدة ثبت أسفلها بالرصاص في الشاذروان، وفي ليلة الأحد شرعوا في وضع النطاق العلوي حتى أتموه.

وفي سنة تسع وثلاثين وألف انهدمت الكعبة، ما عدا الجهة اليمانية، بسبب نزول المطر الغزير، ودخول السيل، إلى المسجد الحرام، فجدد بناءها السلطان مراد خان الرابع، فتم بناؤها سنة أربعين وألف.

قال صاحب «تاريخ الكعبة المعظمة» ما يأتي:

وأما ما وقع من الترميمات، بعد عمارة السلطان مراد خان، فقد ذكر الطبري المكي في «الإتحاف» أنه في سنة (١٠٤٥) خمس وأربعين وألف، ورد المعمار رضوان بك، لعمارة سقف الكعبة، وكان الشريف عرض ذلك إلى السلطان، لما أخبره الحجبة -آل الشيبي- والمهندسون بذلك، فجاء الأمر بإصلاح ما تحتاج إليه، وأن يجدد بابها، ويرسل بالباب العتيق إليه. فلما وصل رضوان بك المذكور إلى مكة عقد مجلساً بالحرم الشريف، وحضر البكري وقاضي المدينة حنفي زاده، وحضر أمير مكة والفقهاء، وبعد أن قرأوا القرآن، قاموا إلى الكعبة وأشرفوا على ذلك، وشرع المعمار الأمير رضوان بك في عمله، في أوائل شهر المحرم من السنة المذكورة، وفرش سطح الكعبة الشريفة بالرخام الأبيض.

ومن ذلك ما ذكره السنجاري، في «منائح الكرم»: أنه في يوم الخميس غرة ربيع الثاني سنة (١٠٩٩) تسع وتسعين وألف هجرية، عمَّر محمد بك شيئاً من أخشاب الكعبة، وطلعوا أرتالاً من جدة، جعلوها حول الكعبة من الخارج، وركبوا الكسوة فيها، لتغيير إفريز السطح، من التي تربط فيه الكسوة، فإنه استأكل فيه، وجددوا رفرف مقام الشافعي، لخلل وقع فيه، ولم يزالوا إلى أن خلصوا منه. وروى أيضاً، أنه في يوم الجمعة ١٩ محرم الحرام سنة (١١٠٠) ألف ومائة هـ طلع الشريف، أمير مكة، سطح الكعبة للإشراف على إفريز الكعبة، التي تربط فيه الكسوة، لإخبار المعلمين له، بأنه استأكل، ويحتاج إلى تغيير. وقد جاء الأمر من السلطان لعمارة ما يحتاج إليه من الكعبة، وإبلاغه ما يصرف على ذلك،

فاتفق أن وجبت الجمعة ، ودخل الخطيب وهو أي الشريف في الكعبة فصلى في جوفها.

وذكر أيضاً أنه في اليوم السادس من ذي القعدة سنة (١١٠٦) ست ومائة وألف نزل الشريف أمير مكة ، وفتحت الكعبة له، وأشرف على جدار بها ، يحتاج إلى ترميم ، وتبديل خشبة في الكعبة، فأمر بذلك ، وتمت الخشبة يوم ٧ ذي القعدة من هذه السنة . وذكر في حوادث سنة ١١٠٩ أنه لما كان يوم الخميس ٦ محرم طلع الشريف أمير مكة، والقاضي المتولي في هذه السنة، وجماعة من الفقهاء، ومتصرف جدة، وأشرفوا على سطح الكعبة، وحقق المهندسون خراب السقف، عند القاضي، بموجب الأمر العالي، ولما كان يوم الأحد ١٣ محرم شرعوا في إصلاح سقف الكعبة، فأخرجوا السقف المنكسر، وظهر أن الدرجة المصعدة إلى السطح محتاجة إلى تعمير، فاستمر العمل فيها، وغيروا الدرجة، وجعلوا فيها سبع درج رخام، والباقي من خشب الساج . فرغوا منها أوائل ربيع الأول ، وذبح صاحب جدة، يوم فراغ العمارة ، نحواً من أربعين شاة، وفرّقها على المساكين وفرّق شيئاً من الدراهم على فقهاء المكاتب بالحرم وبعض الفقراء.

وفي يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة (١١١٨) ثماني عشرة ومائة وألف حضر إيواز بك ، من جدة إلى مكة ، واجتمع بشريف مكة وأميرها والقاضي وأمير الحاج غيطاس بك ، وفتح لهم الشيخ «محمد الشيبي» الكعبة للنظر فيما تحتاجه من التعمير والترميم فأجروا جميع الإصلاحات اللازمة.

وفي يوم السبت ١٤ ذي القعدة سنة (١١٣٦) ست وثلاثين ومائة وألف ، ورد أمر سلطاني ، يتضمن ترميم الكعبة والمسجد الحرام والمدرسة السلطانية، فدخل الكعبة أمير مكة وقاضيها وبعض العلماء ، فرأوا موضع الخراب بها، وأحضروا المعلمين والبنائين، وصاروا يأخذون بأيديهم أواني الجبس والنورة ويناولونها المعلمين ساعة من النهار.

ونقل الشيخ عبدالله غازي، عن بعض علماء مكة، أنه في سنة (١٢٠١) سنة واحد ومائتين وألف ، أرسل السلطان عبدالحميد الأول خمسين إقة من الفضة، وأمر أن تجعل صفائح مموهة بالذهب، ويطوق بها بعض العواميد ، التي في داخل الكعبة المعظمة ، ففعلوا ذلك وطوقوها بحضور أمير مكة الشريف سرور، وبحضور الوزير شيخ الحرم المكي، وهو والي جدة وبقية المأمورين ورجال الدولة. انتهى.

ولم يوجد لهذه الصفائح في العصر الحاضر أثر ولم أقف على خبر نزعها ومتى كان.

وفي سنة (١٢٥٣) ثلاث وخمسين ومائتين وألف أصلحوا فرش الكعبة، وفرشوا فيها الحجر المرمر، الذي جاء من استانبول، وفي سنة (١٢٥٩) تسع وخمسين ومائتين وألف أصلحوا الأحجار، التي حول الحجر الأسود، وكذلك بعض أحجار باطن الكعبة، وفي سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فرش سطح الكعبة بألواح المرمر، وفي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف جدد فرش الكعبة، وغير بعض أخشاب سقفها، وأصلح بعضها، كما ذكره مدير الحرم المكي السابق، أمين أفندي أمصيلي «أما سيه لي» في رسالة ألفها باللغة التركية، في بيان خدمات آل عثمان للحرمين الشريفين.

وفي سنة (١٣١٦) ست عشرة وثلاثمائة وألف، في عهد الشريف عون الرفيق، تسرب من سقف الكعبة إلى جوفها شيء من ماء المطر، ومكث فيها حتى ظهرت منها رائحة كريهة بسببه، فلما بلغ ذلك رئيس السدنة الشيخ «محمد صالح الشيبي»، وكان بالطائف، أرسل ابنه، الشيخ محمد، إلى مكة، ففتح الكعبة فأزالوا الماء المستنقع، وأصلحوا الرخام المتصدع. في سطح الكعبة، وسدوا مواقع الخلل سداً محكماً، ودام العمل نحو نصف شهر.

وفي سنة (١٣٢٨) ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف في عهد الشريف «الحسين بن علي بن محمد بن عون» ملك الحجاز الأسبق، حصل وهن في المرابيع الخشب، بسطح الكعبة، التي يعلق فيها ثوب الكعبة، فأبدلوا تلك الأخشاب بأربعة مرابيع من خشب، أتوا بها خصيصاً لذلك، بواسطة رئيس السدنة، الشيخ «محمد صالح الشيبي» وذلك لتعذر وجود مثل تلك الأخشاب بالحجاز.

وفي سنة (١٣٣٢) اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف حصل في أسفل الثلاثة الأعمدة الخشب، التي بجوف الكعبة، والتي هي باقية من عهد «عبدالله بن الزبير»، رضي الله تعالى عنهما، تصدع وتشقق بسبب غسيل الكعبة، ودخول السيول إلى جوفها، فعلم بذلك الشريف «الحسين بن علي» أمير مكة في ذلك الوقت، فحضر إلى المسجد الحرام في ضحوة يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول من السنة

المذكورة، وكان في استقباله رئيس السدنة الشيخ «محمد صالح الشيبي» وبعض السدنة وفتحوا له الكعبة الشريفة، وحضر بعض أهل الخبرة من النجارين، فأحاطوا كل عمود من الأعمدة الثلاثة، من أسفلها بأخشاب طوال، على قدر القامة، وسمروها فيها بغاية الإتقان، فهي لا تزال إلى اليوم على هذه الحالة. انتهى من «تاريخ الكعبة المعظمة».

نقول: وفي يوم ٢٦ شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية قطعوا الرؤوس المزخرفة فقط، لهذه الأخشاب الطوال، التي تحيط بكل من الأعمدة الثلاثة المذكورة، ثم إنه في أوائل شهر شوال من سنة ١٣٧٧، ركبوا تسعة أطواق من الفضة، محيطة بالثلاثة الأعمدة المذكورة، لكل عامود ثلاثة أطواق، زيادة في استمساكها وتقويتها. نقول: وما يظنه بعضهم بأنه حصل ترميم قليل بأعلى الركن الشرقي للكعبة المشرفة، وذلك في شعبان سنة ١٣٣٤ هجرية، بسبب وصول شظية من المدفع، الذي رمي من قلعة أجياد، أيام حرب الشريف حسين بن علي مع الحكومة التركية فليس ذلك بصحيح. وإنما وقع هو أنه في عصر يوم ٢٣ شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية، بينما الحرب دائرة، بين الشريف حسين المذكور وبين الأتراك المتحصنين في القلعة، التي على جبل أجياد، وقعت شظية من المدافع، التي كانت ترمى من القلعة المذكورة على جنود الشريف، في ثوب مكة المعظمة، بقرب حزامها المكتوب من جهة الركن الأسود، فظهر الدخان من الثوب، ففزع الناس وأسرع فضيلة الشيخ محمد بن محمد صالح الشيبي «رئيس سدنة الكعبة» بالحضور إلى المسجد الحرام، واجتمع الناس عليه، ففتح الكعبة المشرفة، وصعدوا إلى سطحها، وأطفأوا النار، التي على الثوب بالماء، إطفاءاً تاماً، ثم نزلوا، وقد وقف الرمي من العسكرين، لما شاهدوا الحريق في ثوب الكعبة، احتراماً وإجلالاً لها، هذا ما حصل على جزء صغير من ثوب الكعبة في هذه الواقعة بدون قصد.

أما نفس الكعبة المطهرة، فلم يحدث لها أي شيء يحتاج إلى ترميم مطلقاً، إلى سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية، ففي شهر رجب من هذه السنة، حصل فيها إصلاحات كثيرة، وتغيير تام لسقفيها "الأعلى والأدنى" وذلك في عهد الحكومة العربية السعودية في عصرنا الحاضر، وإليك تفصيل ذلك في المبحث الآتي، كما شاهدناه بأنفسنا، ووقفنا على عمارتها خطوة خطوة، وجزءاً

جزءاً ، و لله الحمد، نسأل ا لله الغفور الرحيم، رب هذا البيت الكريم ، ورب السموات والأرض ورب العرش العظيم ، أن يجعلنا وذريتنا من سعداء الدارين بفضله ورحمته آمين ، وصلى ا لله وسلم على النبي الأمي أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

سطح الكعبة وأرضها من الداخل

بحمد ا لله تعالى ، لقد تشرفنا بدخول الكعبة المشرفة ، والصعود إلى سطحها العلوي، وذلك في ضحى يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف، وإليك وصف سطحها الشريف:

أرض الكعبة من الداخل مرصوفة بحجارة المرمر ، وأما سطحها الأعلى مما يلي السماء فمفروش بالحجر الرخام الأبيض الثخين.

والسطح محاط بإفريز ارتفاعه إلى ٨٠ سنتيمتراً، من جهة الميزاب، وفي الجهات الأخرى، أقل من ذلك، تبعاً لانحدار السطح إلى جهة الميزاب، وهذا الإفريز مبلط بالنورة.

وفوق السطح مرابيع من الخشب وهي الأعواد الغليظة المربعة الطويلة التي تربط فيها كسوة الكعبة المعظمة ، وعددها أربعة أعواد، في كل جهة عود واحد، كل عود لاصق في الإفريز المحيط بالسطح من الجوانب الأربعة، وكل عود داخل طرفاه في جدار الإفريز بإحكام تام، حتى لا يتزحزح من موضعه، إذا ربطت فيه الكسوة الثقيلة، وهذه الأعواد الخشبية الحالية وضعت في سنة (١٣٢٨) ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف، بدلاً من الأعواد، التي كانت قبلها وتلفت، كما ذكره الغازي، رحمه ا لله تعالى في تاريخه فقد قال فيه ما نصه:

قال الشيخ حسين باسلامة في «تاريخ الكعبة المعظمة»: ذكر مدير الحرم المكي السابق ، أمين أفندي أمصيلي، في رسالة ألّفها باللغة التركية، في بيان خدمات آل عثمان للحرمين الشرفين، أنه في سنة (١٢٥٣) ثلاث وخمسين ومائتين وألف أصلحوا فرش الكعبة وفرشوا الحجر المرمر ، الذي جاء من استانبول . وفي سنة (١٢٥٩) تسع وخمسين ومائتين وألف، أصلحوا الأحجار التي حول الحجر الأسود، وكذلك بعض أحجار باطن الكعبة. وفي سنة (١٢٩٥) خمس وتسعين ومائتين وألف، فرش سطح الكعبة بألواح المرمر ، وفي سنة

(١٢٩٧) سبع وتسعين ومائتين وألف، جدد فرش الكعبة وغير بعض أخشاب سقف الكعبة وأصلح بعضها اهـ.

وفي الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد دحلان: وفي سنة (١٢٩٩) تسع وتسعين ومائتين وألف، عمّر السلطان عبدالحميد خان في الكعبة المعظمة وفرش باطنها بالرخام اهـ، وفي سنة (١٣١٦) ست عشرة وثلاثمائة وألف، في إمارة الشريف عون الرفيق، وقع خراب في فرش الرخام، الذي على سطح الكعبة، فعمل الصناع لذلك معجوناً من النورة وزلال البيض والإسمنت وغير ذلك، وأصلحوه، ومكث العمل فيه نحو نصف شهر، وفي سنة (١٣٢٨) ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف، حصل خراب ووهن في مرابيع الخشب التي يعلق فيها ثوب الكعبة، بسطح الكعبة، فعمل بدلها أربعة مرابيع، من خشب خصيصاً لذلك، ولا تزال تلك المرابيع على حالها إلى اليوم.

وفي كتاب «المحمل والحج» قال ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ما يأتي:

ولما حججت سنة (٧٣٨) ثمان وثلاثين وسبعمائة، صعدت أنا وأمراء الركب المصري، لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها، فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض، ومن جوانبه جدر قصار فيها حلق لربط الستور، تجرّ فيها الكسوة بحبال، ثم تربط في تلك الحلق. انتهى من الكتاب المذكور.

وفي سنة (١٣٣٢) اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف، وقع في أسفل أعمدة الخشب، التي بداخل الكعبة المعظمة، القائم عليها بساتل سقف الكعبة، أشطاب وتصديع، وهذه الثلاثة الأعمدة هي من عهد الخليفة عبدالله بن الزبير، رضي الله عنهما، فأحضروا بعض أهل الخبرة من النجارين، فتقرر عمل أخشاب أشبه بالطاب، على طول القامة، تحاط بأسفل كل عامود، من الأعمدة الثلاثة، وتسمر فيه، بغاية الإتقان. فعمل ذلك فعلاً، وهي لا تزال على هذه الحالة إلى اليوم. انتهى ما في «تاريخ الكعبة المعظمة» بحذف واختصار. انتهى منه، وإن شاء الله تعالى سيأتي الكلام في محله على تغيير رخام سطح الكعبة وفرشه برخام جديد في عصرنا.

وصف رخام الكعبة في عصر ابن جبير

يقول ابن جبير الأندلسي في رحلته، التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية ، يصف أرض الكعبة الشريفة، المفروشة بالرخام، وذلك حينما دخلها في السنة المذكورة، ما يأتي :

وإذا انفتح باب الكعبة كبّر الناس، وعلا ضجيجهم ، ونادوا بألسنة مستهلة: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ، يا أرحم الراحمين، ثم يدخلون بسلام آمنين.

وفي الصفح المقابل للداخل فيه، هو من الركن اليماني إلى الركن الشامي، خمس رخامات منتصبات طولاً، كأنها أبواب تنتهي إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض ، وكل واحدة منها نحو القامة، الثلاث منها حمر ، والاثنان خضراوان، في كل واحدة منها تجزيع بياض، لم ير أحسن منظراً منه ، كأن فيها تنقيط، فتتصل بالركن اليماني منها الحمراء، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء، والموضع الذي يقابلها متقهقراً عنها بثلاثة أذرع، هو مصلى النبي ﷺ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركاً به، ووضعهن على هذا الترتيب، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور، ويتصل بينهما رخام أبيض ، صافي اللون، ناصع البياض ، قد أحدث الله ، عز وجل ، في أصل خلقته، أشكالاً غريبة مائلة إلى الزرقة، مشجرة مقصنة ، وفي التي تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال، كأنها مقسومة. فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله. فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال، فوضعت كل واحدة بإزاء أختها، والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان، سعتها خمسة أشبار، لا الأشبار المذكورة أو الأشكال فيها تختلف هيآتها ، وكل أخت منها بإزاء أختها، وقد شدّت جوانب هذه الرخامات تكافيف، غلظها قدر إصبعين من الرخام المجزع ، من الأخضر والأحمر المنقطين، والأبيض ذي النحيلان ، كأنها أنابيب مخروطة ، يحار الوهم فيها، فاعترضت ، في هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الأبيض ، ست فرج ، وفي الصفح، الذي عن يسار الداخل، وهو من الركن الأسود إلى اليماني أربع رخامات، اثنتان خضراوان واثنتان حمراوان ، وبينهما خمس فرج، من الرخام الأبيض، وكل ذلك على الصفة المذكورة ، وفي الصفح ، الذي عن يمين الداخل ،

وهو من الركن الأسود إلى العراقي، ثلاث: اثنتان حمراوان وواحدة خضراء، ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض. وهذا الصفح هو المتصل بالركن، الذي منه باب الرحمة، وسعته ثلاثة أشبار وطوله سبعة وعضادته، التي عن يمينك، إذا استقبلته، رخامة خضراء في سعة ثلثي شبر، وفي الصفح الذي من الشامي إلى العراقي ثلاث : اثنتان حمراوان وواحدة خضراء. ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض، على الصفة المذكورة، ولكل هذا الرخام المذكور طرتان: واحدة على الأخرى، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين، ذهب مرسوم في اللازوردي، قد خط فيه خط بديع، وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى، والجهة، التي عن يمين الداخل، لها طرة واحدة، وفي هاتين الطرتين بعض مواضع دارسة، وفي كل ركن من الأركان الأربعة، مما يلي الأرض، رخامتان خضراوان صغيرتان، تكتنفان الركنين، وتكتنف أيضاً كل ما بين من الفضة الذين في كل ركن، كأنهما طاقان عضارتان من الرخام الأخضر، صغيرتان على قدر نقيبها، وفي أول كل صفح من الصفحات المذكورة، رخامة حمراء، وفي آخره مثلها، والخضراء بينهما على الترتيب المذكور، إلا الصفح الذي عن يسار الداخل، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء، ثم حمراء إلى كمال الترتيب الموصوف. انتهى من رحلة ابن جبير.

غسل الكعبة المشرفة

لا يخفى أن كل شيء في الدنيا معرض للاتساخ، والكعبة المعظمة المشرفة مصانة محفوظة عن الأوساخ فلا نوافذ فيها ولا فتحات سوى الباب، بل هي دائماً تعطّر، من قديم الزمان جاهلية وإسلاماً، ولكن قد يطرأ عليها ما يوجب تنظيفها وغسلها من الغبار الذي تأتي به الرياح، ومن ازدحام الناس على زيارتها والدخول في باطنها، لذلك هي لا تحتاج إلى تنظيف وغسل سوى مرتين أو ثلاثاً في السنة .

ومن المعلوم أن الكعبة، من زمان بانيها الأول، بعد الطوفان، وهو الخليل سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لا تحتاج إلى غسل وتنظيف، لأنها بنيت بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض، بدون طين ولا نورة، ولم يكن لها سقف ولا باب من خشب أو حديد، وكانت أرضها الداخلية رملاً أو حصباء، فهي والحالة هذه، لا تحتاج إلى غسل ولا تنظيف ويكفي لغسلها من الأتربة نزول المطر

عليها، لكن بعد بنائها بالطين وتسقيفها وجعل الباب عليها لا بد من تنظيفها كما تنظف الدور والبيوت.

وكان أول من غسل الكعبة رسول الله ﷺ، فقد روي عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة، يوم الفتح، أمر بلالاً، فرقي على ظهر الكعبة، فأذن بالصلاة، وقام المسلمون وتجردوا في الأُزُر وأخذوا الدلاء، وارتجزوا على زمزم، فغسلوا الكعبة، ظهرها وبطنها، فلم يدعوا أثراً، من آثار المشركين، إلا محوه وغسلوه. اهـ.

قال صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة»: وهذا رواه السنجاري في كتاب منائح الكرم، نقلاً عن التقي الفاسي، وهو رواها عن الفاكهي. اهـ.

نقول: فمن هنا، جرت العادة بغسل الكعبة من ذلك التاريخ إلى اليوم، وهي تغسل في العام مرتين، بماء زمزم، مضافاً إليه ماء الورد، ثم يطيبونها بالعطر، ويبخرونها بالعود والعنبر والند، وغالباً يكون ذلك بحضور ولاة الأمور وكبار رجال الدولة. وقد تشرفنا بغسلها ولله الحمد سنة (١٣٦٧) سبع وستين وثلاثمائة وألف، يوم أن فتحوا لنا مقصورة مقام إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بأمر جلالة الملك المعظم سعود بن عبد العزيز نصره الله تعالى.

قال الغازي في تاريخه: ذكر الشيخ حسن بن عبد القادر الشيبي في كتابه «الإتمام على أعلام الأنام» كيفية غسل الكعبة المعظمة فقال: أما غسل الكعبة المعظمة في السنة فمرتان، مرة في أواخر ذي القعدة، وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول مرة.

وكيفيته أنه في صباح اليوم المذكور، بعد الإشراق، يفتح سدنة الكعبة المعظمة، ويأتونه بغلاية فيها ماء الورد، وعطر الورد، وبخور العنبر والندّ، الذي يأتي مع المحمل الشامي، ويعتمدون بشيلان، يحضرها شيخ السدنة، ومن قبل مراسم الغسل، يعطي شيخ السدنة خبراً إلى مولانا أمير مكة المكرمة ورؤساء المأمورين، وتحضر مكانس، من طرف مديرية الأوقاف الهمايونية، بالحرم الشريف المكي، ويأتي شيخ الزمازمة بسطول، ويملأ السقّاؤون من بئر زمزم، ويأتون بها إلى تحت باب الكعبة المعظمة، وهناك تملأ السطول، وتناول إلى من هو واقف في باب الكعبة، ويسلمها للذي في داخلها، وهناك يمسك سيدنا أمير مكة المكرمة في يده مكنسة، وكذلك إن حضر أحد من أنجال سيدنا الأمير، يستحضر له مكنسة،

وكذلك مولانا قاضي مكة المكرمة، وسائر المأمورين، ويغوطون بشيلان، ثم يبتدأ أولاً بصب السطول من عند مولانا أمير مكة وأنجاله، ثم تصب السطول وتملأ في سائر أطراف الكعبة المعظمة للجميع، وتخرج الفارغة من السطول وتدخل ملآنة، وهكذا إلى أن يتم الغسل، ثم يملأ من العطر وماء الورد في طاسات، ويدهن بها جدار الكعبة، مولانا الأمير المشار إليه، وحضرات أنجاله، ويُبخّر بالعنبر والندّ حضرة مولانا القاضي، فكل من أراد كذلك، ثم إن سيدنا الأمير، المشار إليه، أحياناً يقذف من المكانس المغسول بها البيت إلى الحجاج الواقفين عند الباب، بحسب التبرك، ثم يدعو لهم أحد السدنة الشيبيين دعاء، ثم تختم مراسم الغسل، ويخرجون منها، ثم إن السدنة يُنشِّفُون المبلول بالإسفنج ويزيدون تعطيراً وتبخيراً ويغلقون الباب. انتهى من الغازي.

وقال صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» عند غسل الكعبة المعظمة ما يأتي: أما غسل الكعبة، في العصر الحاضر، فهو يجري في العام مرتين: مرة قبل الحج، ومرة بعد سفر الحجاج من مكة، وغالباً يكون الغسل، في المرة الأولى، في أواخر ذي القعدة، وربما كان في أول ذي الحجة من سنة، والمرة الثانية غالباً يكون غسل الكعبة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول.

أما كيفية الغسل فإليك تفصيله: وهو أنه في صباح اليوم المعين لغسل الكعبة المعظمة، يحضر رئيس سدنة الكعبة المعظمة إلى الحطيم، بعد شروق الشمس بلحظة، ومعه السدنة آل الشيبي، فيفتح باب الكعبة المعظمة، ثم يأتي أتباع السدنة بقلال فيها ماء الورد، وقوارير فيها عطر الورد، وبالمباخر والعنبر، والعود، والندّ، ويؤتى بالأزر، وهي تكون غالباً من النوع الذي يسمى (بالشال الكشميري) لأجل الاتزار بها حال غسل الكعبة المعظمة.

وقد جرت العادة أن يدعو رئيس السدنة ولاة الأمر من ملوك أو أمراء، أو ولاة، ووزراء الدولة والقاضي، ورؤساء الدوائر، إلى غسل الكعبة، وقبل حضورهم بلحظة تكون كل مواد الغسل حاضرة، وتحضر مديرية الأوقاف عادة المكانس، ويحضر شيخ الزمازمة الموكلين بسقاية الحاج ماء زمزم، سطولاً مملوءة من ماء زمزم، إلى الكعبة، فيستلمها منهم السدنة وأتباعهم ويدخلونها الكعبة المعظمة.

وبعد استكمال كل ذلك، بداخل الكعبة المعظمة، يحضر المدعوون لغسل الكعبة، بداخل الكعبة، ويأخذ كل واحد منهم إزاراً فيرتدي به، ثم يحمل المكنسة ويباشر الجميع غسل الكعبة المعظمة بماء زمزم، مضافاً إليه ماء الورد، ثم إتمام غسل أرض الكعبة، وبعض أطراف جدارها السفلي، يباشرون مسح جدارها، إلى ارتفاع قامة الإنسان، بماء الورد أولاً، ثم يطيبونها بعطر الورد، ويوضع ذلك في طاسات من معدن أبيض أو بلور، وبعد انتهاء عمل الطيب بالعطر يضعون العنبر، والعود، والندّ، في مباخر بديعة فاخرة وتبخر بها عموم أطراف الكعبة وجميع جوانبها، بعد تجفيف أرضها بالإسفنج، وبعد إتمام غسل الكعبة المعظمة وتطييبها، يقسّم السدنة تلك المكانس على الناس المجتمعين عند باب الكعبة.

وقد حضر جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود غسل الكعبة المعظمة بنفسه عدة مرات، وباشر غسلها بيده الميمونة، وحضر معه في كثير من المرات غسل الكعبة، ولي عهد المملكة العربية السعودية، صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ونائبه العام صاحب السمو الملكي رئيس مجلس الوكلاء الأمير فيصل بن عبد العزيز وأصحاب السمو إخوان جلالته الفخام، وبعض أنجاله المباركين وبعض الأسرة الكريمة، ورجال الدولة، وقضاته. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: ولقد سألنا رئيس سدنة الكعبة المشرفة في وقتنا الحاضر وهو صاحب السيادة والسعادة الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد الشيبي حينما كنا بمنزله العامر، تلبية لدعوته لنا للغداء، وذلك يوم السبت السادس عشر من رجب عام ١٣٧٦ هـ سألناه عن عدد المرات التي تغسل فيها الكعبة في السنة، فقال: تغسل الكعبة مرتين في السنة: إحداهما بعد النصف الثاني من شهر شعبان، إما في اليوم الخامس والعشرين منه أو في السابع والعشرين، وثانيتهما في اليوم السابع من ذي الحجة.

اللهم اغسل خطايانا وأبدل سيئاتنا حسنات بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقي الناس لماء المطر تحت ميزاب الكعبة

وبمناسبة الصلاة في الحجر ، تحت ميزاب الكعبة، فإن الناس إلى اليوم يتلقون ماء المطر النازل من ميزاب الكعبة ، على سبيل البركة، ونذكر هنا ما جاء في رحلة ابن جبير ، التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة، فقد ذكر فيها عن ذلك ، ما يأتي :

ومما يجب أن يثبت ويؤثر ، لبركة معاينة وفضل مشاهدته ، أن في يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى، بعد صلاة العصر ، ومع العشي، جاء مطر ، وتبادر الناس إلى حجر إسماعيل ، فوقفوا تحت الميزاب المبارك، متجردين عن ثيابهم ، يتلقون الماء الذي يصبه الميزاب برؤوسهم وأيديهم وأفواههم ، مزدحمين عليه ازدحاماً عظيماً ، أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيباً ، ودعاؤهم قد علا ، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل ، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء . والنساء قد وقفن خارج الحجر ، ينظرون بعيون دوامع وقلوب خواشع ، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به ، وكان بعض الحجاج المتأخرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ، ويخرج إليهن ويعصره في أيدي البعض منهن ، فتلقينه شرباً ومسحاً على الوجوه والأبدان . وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب ، وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام ، على تلقي ماء الميزاب بالأيدي والوجوه والأفواه، وربما رفعوا الأواني ليقع فيها ، فكانت عشية عظيمة ، استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة، ثقة بفضله وكرمه، ولما اقترن بها من القرائن المباركة : فمنها أنها كانت عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح ، وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر، وقد وقف الناس تحت الميزاب ، وهو من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء ، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه، إلى سطح بيته العتيق، الذي هو حيال البيت المعمور . وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف ، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب ، واختص من رحمة الله تعالى بذنوب ، ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين ، إنه غفور رحيم . انتهى من رحلة ابن جبير.

ومما يناسب هذا المقام، ما ورد في تاريخ الأزرقي: أن داود بن عجلان طاف مع أبي عقال، في مطر قال: ونحن رجال، فلما فرغنا من سبعنا، أتينا نحو المقام، فوقف أبو عقال دون المقام، فقال: ألا أحدثكم بحديث تسرون به أو تعجبون به؟ قلنا: بلى قال: طفت مع أنس بن مالك والحسن وغيرهما في مطر، فصلينا خلف المقام ركعتين، فأقبل علينا أنس بوجهه، فقال لنا: استأنفوا العمل فقد غفر لكم ما مضى، هكذا قال لنا رسول الله ﷺ، وطفنا معه في مطر. انتهى منه.

نقول: لا يزال الناس إلى اليوم، إذا جاء المطر يقفون تحت ميزاب الكعبة، يتلقون الماء النازل، من سطح الكعبة، بأجسامهم للتبرك، وللمطر عندنا بمكة فرحة ونشوة يستبشر الناس به كثيراً. جاء في كتاب «الأذكار» للإمام النووي ما نصه: روى الشافعي رحمه الله تعالى، في الأم بإسناده حديثاً مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش وإقامة الصلاة ونزول الغيث». قال الشافعي: وقد حفظت عن غير واحد طلب الإجابة عند نزول الغيث وإقامة الصلاة. انتهى.

ورد: «ثنتان لا تردان الدعاء عند النداء وتحت المطر» عند النداء أي: الأذان للصلاة، رواه الحاكم في «المستدرك»، قال العزيزي: إسناده ضعيف لكن له شواهد.

وفي صحيح مسلم، عن أنس، رضي الله عنه، قال: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حين أصابه المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه» قال العزيزي: أي بتكوين ربه إياه، ومعناه أن المطر رحمة، وهي قريبة العهد بخلق الله تعالى له فيتبرك بها. انتهى.

قال الشيخ الحفني في حاشية على العزيزي عند كلمة «وتحت المطر» أي فلا بد أن يبرز له، وبعضهم قال الأولى ذلك، وإلا فيستجاب الدعاء وقت نزول المطر أشد إجابة من غيره. انتهى.

نقول: إذا كان الدعاء يستجاب عند نزول المطر مطلقاً في أي موضع كان، فإن الدعاء يكون أكثر إجابة وأرجى قبولاً عند نزوله في الأوقات المباركة والأمكنة المقدسة، عند الأذان للصلاة، وبين الأذان والإقامة وعند التقاء الجيوش، ونزوله بمكة، وفي المسجد الحرام حول الكعبة، وبعرفات عشية الوقوف، ونحو ذلك وفضل الله واسع ورحمته عظيمة، والله تعالى عند حسن ظن عبده به

والأعمال بالنيات، والصدق في الطلب ، والدعاء والإخلاص في التضرع، والخشوع يوجبان القبول والإجابة.

ميزاب الكعبة وعدده

لما بنى خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، البيت المعظم ، بناه على ربوة بالرضم ، حجارة بعضها فوق بعض ، بدون طين ولا جص ولا إسمنت ، ولم يجعل له باباً يفتح ويغلق ، وإنما ترك مكانه فتحة ، للدلالة على وجه البيت ، كما أنه لم يجعل له سقفاً ، وما دام البيت ، لا سقف له ، فلا يمكن وضع ميزاب عليه ، وفائدة الميزاب جريان ماء المطر منه حتى لا يخر السقف ، وحيث لا سقف ولا باب للكعبة المشرفة ، فإن المطر ينزل على أرضها ، ويخرج من فتحة الباب ، ومن شقوق حجارة الجدران ، التي بالرضم فلا خوف عليها من المطر ، ولم تبن كذلك إلا على الفطرة الأولى ، ولعدم وجود أناس كثيرين بمكة المشرفة .

فلما كثر الناس ، وتدرجوا في معرفة بعض الأمور ، جعلوا للكعبة المعظمة سقفاً وميزاباً وباباً يفتح ويغلق ، فأول من جعل لها سقفاً ، بعد سيدنا إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، قصي بن كلاب ، الجد الرابع لنبينا محمد ﷺ ، فإنه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل حين بناها ، ثم صارت بعده بلا سقف ، إلى أن بنتها قريش، فسقفتها بخشب الدوم وجريد النخل أيضاً ، ولا يزال تسقيف بعض البيوت والمنازل في الحجاز إلى عصرنا ، بخشب الدوم وجذوع النخل وجريدها . فيعلم بالضرورة من تسقيف الكعبة المشرفة أنه لا بد من وضع ميزاب على سطحها.

واعلم أن تغيير ميزاب الكعبة أو تغيير شيء مما يتعلق بها يكون لأمرين : إما أن يكون الميزاب أو الشيء قد اعتراه ضعف أو خراب ، وإما أن يكون ذلك بقصد التشرف بخدمة بيت الله الحرام ، رجاء المثوبة ، من عند الله عز وجل ، في كلا الأمرين الأجر والثواب ، فصاحب الخير لا يعدم الخير .

وهنا نذكر ميازيب الكعبة ، منذ العهد القديم إلى اليوم ، فنقول:

١) الميزاب الذي وضعه قصي بن كلاب ، الجد الرابع للنبي ﷺ ، وذلك حينما بنى الكعبة وسقفها ، ولم يذكره المؤرخون، لكن نحن ذكرناه استنتاجاً من تسقيفه لها .

٢) الميزاب ، الذي وضعتـه قريش ، حينما بنـت الكعبـة، قبـل نبينـا محمـد ﷺ، بخمس سنين على أشهر الأقوال . فبعد تسقيفها جعلوا لها ميزاباً ، مصبه علـى حجر إسماعيل، عليه الصلاة السلام ، ولا يزال إلى اليوم، مكان جميع ميـازيب الكعبة، التي توضع عليها ، هو مكان الميزاب الذي وضعته قريش فيه.

٣) الميزاب ، الذي وضعه عبدا لله بن الزبير ، رضي ا لله عنهما، حينما بنى الكعبة وسقفها، وذلك سنة أربع وستين من الهجرة.

٤) الميزاب ، الذي وضعه الحجاج بن يوسف الثقفـي، فإنـه هـدم مـن الكعبـة مـا زاده ابن الزبير فيها ، وهـو مـن جهـة حجـر إسمـاعيل، وبـالضرورة فقـد أزال جميع جدار الكعبة ، الذي من جهة الحجـر ، والـذي فيـه ميـزاب ابـن الزبـير، كما أزال من الجـدار الشـرقي والجـدار الغربـي سـتة أذرع ، مـن كـل منهمـا فقط ، من جهة الحجر، ثم بناها على أسـاس قريـش . فـلا بـد إذاً أنـه وضـع ميزاباً جديداً ، بدل ميزاب ابن الزبير، الذي مضى عليه عشـر سـنين ، وكـان بناء الحجاج لها سنة أربع وسبعين من الهجرة.

و لم يذكره المؤرخون أيضاً ، لكن ذكرناه، استنتاجاً من واقع الحال .

٥) الميزاب، الذي وضعه الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملـك بـن مـروان ، فقـد بعث إلى واليه على مكة ، خالد بـن عبـدا لله القسـري ، بسـتة وثلاثـين ألـف دينار، جعلها صفائح من الذهب ، فيضرب منهـا علـى بـاب الكعبـة، وعلـى الأساطين ، التي بداخلها ، وعلى أركانها من الداخل، وعلى ميزابها.

فالوليد بن عبد الملك هو أول من ذهّب البيت في الإسلام ، كما هو أول مـن حلّى الميزاب بالذهب، وكان ذلك سنة (٩١) إحدى وتسعين هجرية حينمـا أمر بتوسعة المسجد الحرام.

قال الأزرقي : وطول الميزاب أربعة أذرع، وسـعته ثمـاني أصـابع ، في ارتفـاع مثلها ، والميزاب ملبّس صفائح ذهب داخله وخارجه. وكان الذي جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك. اهـ.

وقال مؤلف كتاب "المحمل والحج" عن ميزاب الوليد بن عبـد الملـك : إنـه في سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، أخـذ بنـو الطيـب هـذا الميزاب، وحملـوه إلى اليمن، فابتاعه صاحب اليمن الذي امتلك مكة أيضاً في السنة المذكـورة وردّه إلى مكانه . انتهى.

٦) الميزاب، الذي عمله أبو القاسم إبراهيم، المعروف «برامشت» ابن الحسين الفارسي، صاحب الرباط المشهور، بمكة، وصل به إلى مكة خادمه مثقال، بعد موته، فركب على الكعبة سنة (٥٣٩) تسع وثلاثين وخمسمائة.

٧) الميزاب، الذي عمله الخليفة المقتفي با لله، أبو عبدا لله محمد بن أحمد العباسي، فركب على الكعبة، بعد قلع ميزاب رامشت، وذلك في سنة (٥٤١) إحدى وأربعين وخمسمائة أو في التي بعدها.

٨) الميزاب، الذي عمله الشريف رميثة. قال الغازي في تاريخه، نقلاً عن «تحصيل المرام» وهذا عن القرشي، أنه قال: "وعمل الشريف رميثة صاحب مكة ميزاباً". اهـ ولم يزد على ذلك شيئاً، ونحن لم نقف في تاريخ على ميزاب رميثة، إلا على هذه الجملة التي رواها الغازي. والشريف رميثة، تولى إمارة مكة عشر سنين، مع أخيه حميضة، وخمس سنين مع أخيه عطيفة، وتولاها منفرداً نحو خمس عشرة سنة، وكان أول توليته مع أخيه حميضة بعد وفاة أبيهما سنة (٧٠١) وتوفي رميثة سنة (٧٤٦) فكانت مدة ولايته على مكة ثلاثين سنة. وا لله تعالى أعلم بغيبه، فلا ندري ميزابه كان في أي سنة.

٩) الميزاب، الذي عمله الناصر لدين ا لله، أبو العباس أحمد العباسي، وعمله من الخشب المبطّن بالرصاص، في الموضع الذي يجري فيه الماء، أي من باطن الميزاب، وأما ظاهره، مما يبدو للناس، فهو مطلي بصحائف الفضة، وكان عمل هذا الميزاب بمعرفة الأمير سودون باشا، أثناء عمارته للمسجد الحرام، وذلك سنة (٧٨١) إحدى وثمانين وسبعمائة.

١٠) الميزاب، الذي عمله السلطان سليمان القانوني، عمله من الفضة المطلية بالذهب، فركب على الكعبة المشرفة بعد قلع الميزاب السابق، وذلك سنة (٩٥٩) تسع وخمسين وتسعمائة، وأمر السلطان المذكور بنقل الميزاب القديم إلى خزانة الروم، فتعرض له بنو شيبة، فأعطوا في مقابل ذلك وزنه فضة من بندر جدة.

١١) الميزاب، الذي ورد من مصر، وكان من الذهب فوضع بدل الميزاب الفضة، وأخذ الأول إلى الخزانة العالية للتبرك به، وذلك سنة (٩٦٢) اثنتين وستين وتسعمائة، ذكره مؤلف كتاب «المحمل والحج».

استأذنّا الفنان يوسف أحمد، مفتش الآثار العربية، ومحيي الخط الكوفي بمصر، ومدرّسه بمدرسة تحسين الخطوط الملكية، وبكلية الآداب بالجامعة المصرية،

رحمه الله تعالى، لكن الأستاذ المذكور لم يذكر اسم راسل الميزاب، والذي استنتجناه ، من سياق الكلام، أن هذا الميزاب، الذي ورد من مصر ، كان من طرف السلطان سليمان القانوني أيضاً، لأن مصر كانت تابعة للدولة العثمانية، فالسلطان المذكور ، بعد أن عمل الميزاب السابق ، الذي هو من الفضة، رأى أن يبدله بميزاب من الذهب ، فإن هذا أكمل بمقامه وهو خليفة المسلمين وأن يحتفظ بالميزاب السابق في خزانة الدولة ، بعد أن مكث على سطح الكعبة ثلاث سنوات.

والسلطان سليمان المذكور ، لقب بالقانوني لأنه في زمانه، وضعت قوانين للحكومة ، عينت فيها مراتب الدولة ومناصبها. جلس السلطان سليمان القانوني ، على تخت الملك ، في سنة (٩٢٦) وتوفي سنة (٩٧٣) وعمره أربع وسبعون سنة.

وكان أعظم ملوك الأرض ودولته أقوى الدول وقد افتتح كثيراً من الأقاليم والبلدان.

١٢) الميزاب، الذي عمله السلطان أحمد خان الأول ، ابن السلطان محمد الثالث، وذلك لما بلغه حدوث تصدع في جدار الكعبة المشرفة، بسبب السيل ، الذي دخل المسجد ، فأرسل نطاقاً من الفضة المطلية بالذهب، ليشد به البيت الحرام، وميزاباً للكعبة، كما أرسل أيضاً صحيفة من الذهب ، توضع على وجه باب الكعبة ، مكتوب عليها قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا...﴾ الآية. وصفائح مطلية بالذهب لأعلى المنبر وغير ذلك ، أرسل كل ذلك صحبة حسن آغا المعمر وذلك سنة (١٠٢١) إحدى وعشرين وألف، كما هو مكتوب في حجر أبيض ، في الشاذروان ، على يمين الحفرة التي بجانب باب الكعبة.

قال مؤلف كتاب "المحمل والحج" : هذا الميزاب من الفضة منقوش بالذهب والمينا اللازوردية.

والسلطان أحمد خان الأول ، جلس على تخت الملك سنة (١٠١٢) اثنتي عشر وألف ، وكان عمره أربع عشرة سنة، وقد توفي سنة (١٠٢٦) فكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة ، وهو الذي سن قانون وراثة السلطنة للأكبر والأرشد من آل عثمان.

١٣) الميزاب ، الذي عمله السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان ، وهو من الذهب الخالص ، وعليه كتابة جميلة جداً من الجهات الثلاث ، بقلم الخطاط الشهير عبدا لله الزهدي، الذي توفي بمصر سنة (١٢٩٦) رحمه ا لله تعالى، وقد تم هذا الميزاب مع الكتابة عليه سنة (١٢٧٣) ثلاث وسبعين ومائتين وألف في القسطنطينية «الآستانة».

يقول الشيخ حسين باسلامة ، رحمه ا لله تعالى، في كتابه «تاريخ الكعبة المعظمة» نقلاً عن تحصيل المرام: إن هذا الميزاب فيه خمسون رطلاً من الذهب بحسب التخمين ، وجيء به من الآستانة صحبة الحاج رضا باشا ، وركب على الكعبة سنة (١٢٧٦) ست وسبعين ومائتين وألف ، ووالي مكة يومئذ الشريف عبدا لله بن محمد عبدالمعين بن عون، رحم ا لله الجميع ، وأرسلوا الميزاب القديم إلى الآستانة ليحفظ في متاحفها.

ويقول الغازي في تاريخه : كان الشريف عبدا لله بن محمد المذكور في دار السلطنة «أي الآستانة» فلما مات والده، وجهت الدولة العثمانية إمارة مكة للشريف عبدا لله المذكور، وذلك في شهر رمضان عام (١٢٧٤) ، ومكث في دار السلطنة لقضاء بعض مهماته، إلى أن توجه إلى مكة ، في شهر ربيع الأول سنة (١٢٧٥) ، ودخل مكة في موكب عظيم، وجاء معه بميزاب الكعبة محلّى بالذهب ، لم ير الراؤون أحسن منه، بعثه السلطان عبدالمجيد خان وأرسلوا القديم إلى دار السلطنة. اهـ.

نقول : هذا الميزاب ، الذي أرسله السلطان عبدالمجيد خان، لا يزال موجودا ، إلى يومنا هذا ، ولا تزال صورته الجميلة البديعة باقية على حالته الأصلية ، لأنه عمل بنية خالصة ، وبالذهب الخالص ، فرحم ا لله الأقدمين ، الذين إذا عملوا عملاً أتقنوه.

ومما يجب ذكره أنه في شهر محرم سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، ثار هواء شديد ، ففتق قطعة من ثوب الكعبة الجديد، الذي خيط عليها، قريباً من جهة حجر إسماعيل، فألقى بهذه القطعة على هذا الميزاب المذكور، فالتوى وتعطف منها، لسان الميزاب المتدلي فقط ، و لم تحدث هذه القطعة الثقيلة أي ضرر على الميزاب مطلقاً ، حتى أنه لم يتحرك قيد شعرة عن محله، فانظر رحمك ا لله إلى قوة البناء وإخلاصهم في إحكام وضعه ، ثم إن مديرية الأوقاف أصلحت

لسان الميزاب المعوج، في يوم الأربعاء حادي عشر من ربيع الثاني ، من السنة المذكورة.

والسلطان عبدالمجيد خان صاحب هذا الميزاب البديع، الذي فيه خمسون رطلاً من الذهب الخالص ، هو الذي أرسل أيضاً الطوق الذهبي للحجر الأسود سنة (١٢٦٨) ثمان وستين ومائتين وألف، وكان وزن هذا الطوق عشر إقات من الذهب الصافي ، وقد كان على الحجر ثلاث عشرة سنة ، ثم قلع ووضع بدلاً عنه الطوق الفضي ، الذي أرسله السلطان عبد العزيز خان سنة (١٢٨١) فرحم الله الجميع وجزاهم خير الجزاء.

وفي تقويم أم القرى التي تصدر بمكة المكرمة، بورقة يوم الجمعة ١٩ شوال عام ١٣٦٦، مذكور أن السلطان عبدالمجيد المذكور، كان يمتلك أثمن ساعة، منذ عرفت الساعات ، فقد صنعت هذه الساعة ، في لندن سنة ١٨٤٤ ميلادية ، من ذهب عيار ٢٢ قيراطاً، وكان قطرها خمس بوصات ، وكان ميناؤها من حجر "عين الهر" وهو نوع من أثمن أنواع الأحجار الكريمة ، وعقاربها مرصعة بالألماس واللآلئ ، وظهرها مصنوع من البلور الفاخر، يكشف عن آلاتها، وقد حفرت فيه نقوش بديعة، وكان بها جرس يدق كل ساعة، وقد بلغت تكاليفها "١٢٢٠٠" من الجنيهات أي الذهبية . اهـ.

فإذا كان مثل هذا السلطان ينفق على ساعة واحدة أكثر من اثني عشر ألف جنيه ، فلا نستكثر منه ، رحمه الله تعالى، أن يجعل في سبيل الله ميزاب الكعبة وطوق الحجر الأسود من الذهب الخالص. ففي المثل "وعن الملوك فلا تسل".

عمل باب الكعبة المشرفة

لا نريد أن نتكلم عن بناء الكعبة المشرفة قبل إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، لأن تلك العصور غابرة بعيدة، وإنما نتكلم عن بنائه وبناء من بعده ، فنقول: إن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لما بنى الكعبة بناها بالرضم ، حجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا نورة ، ولم يجعل لها سقفاً ولا باباً، وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي، للدلالة على وجه البيت ، وما دام بناؤه لها كان على هذه الصفة فلا ضرورة لوضع باب عليها . ذكر الفاسي، أنه لما انهدم بناء إبراهيم بنت جرهم الكعبة ، وجعلوا لها باباً بمصراعين وقفلاً، فعلى هذا

تكون جرهم بنت الكعبة قبل العمالقة، وروى الأزرقي العكس، والله تعالى أعلم، ونحن رأينا، أن بناء جرهم وبناء العمالقة لا بد وأن يكون على غرار بناء إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أي بنوها بالرضم، بدون سقف لها، ولا باب، لأن حالة تلك العصور بدائية على الطبيعة الأولى، لذلك ذكرنا هنا، أول من عمل باباً للبيت، تبّع الحميري، والله تعالى أعلم بالغيب.

١) فأول من جعل للكعبة باباً يغلق أسعد الحميري، وهو تبّع، أحد ملوك اليمن، قبل البعثة بزمن بعيد، وهو أيضاً أول من كساها كسوة كاملة ونحر عندها.

٢) قريش لما بنتها، جعلوا لها باباً مرتفعاً عن الأرض، و لم تبق الكعبة بدون باب بعد ذلك، وإنما كان يجدّد لها الباب.

٣) عبدالله بن الزبير، رضي الله عنهما، لما بناها جعل لها بابين لاصقين بالأرض، وجعل لكل منهما مصراعين، وهو كذلك إلى اليوم.

٤) الحجاج بن يوسف الثقفي، فإنه لما بناها، سد الباب الغربي، ورفع الباب الشرقي عن الأرض، وذلك سنة أربع وسبعين.

٥) عمل الخليفة العباسي، المقتفي لأمر الله، باباً للكعبة، بواسطة الوزير جمال الدين، وذلك سنة خمسمائة وإحدى وخمسين عمله مصفحاً بالذهب والفضة، وقلع الباب القديم، وجعله تابوتاً لنفسه، يدفن فيه.

٦) عمل الملك المظفر، صاحب اليمن، باباً للكعبة، لما حج سنة تسع وخمسين وستمائة، وجعل عليه صحائف الفضة زنتها ستون رطلاً.

٧) عمل الناصر محمد بن قلاوون، صاحب مصر، باباً للكعبة، وحلاّه بخمس وثلاثين ألف درهم، وركّبه في الكعبة، ثاني عشر في الحجة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.

٨) عمل الناصر حسنُ بن محمد بن قلاوون باباً للكعبة، من خشب الساج، وذلك سنة إحدى وستين وسبعمائة. وقد أصلحوا تحلية هذا الباب مراراً.

٩) عمل السلطان سليمان خان القانوني، باباً للكعبة، وحلاّه بحلية كثيرة، وذلك سنة أربع وستين وتسعمائة.

١٠) عمل السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان، باباً للكعبة، وذلك بعد عمارته لها بخمس سنين، فركب عليها بمحفل كبير، وذلك في يوم الخميس عشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعين وألف، وجعل فيه من

الحلية الفضية ما زنته مائة وستون رطلاً، بالذهب البندقي، بما قيمته ألف دينار، واستمروا ثلاثة أيام في تركيب هذا الباب حتى صار محكماً ثابتاً.

ونقل الشيخ حسين باسلامة عن السنجاري أنه قال في تاريخه ما ملخصه: أنه في آخر ذي القعدة، سنة تسع عشرة ومائة وألف، قلعوا خدود باب الكعبة، والطراز الذي من الذهب الخايف، فأصلحوا كل ذلك، وكتبوا على الطراز تاريخاً، ذكروا فيه أنه تجديد السلطان أحمد خان، وذلك بحضور الشريف عبدالكريم، وشيخ الحرم الأمير إيواز بك، والسيد يحيى بن بركات، وقاضي الشرع وبعض المعلمين. انتهى منه. لكن السنجاري لم يبين أيّ السلطان أحمد خان يعنيه. فنحن نقول: إن الذي يعنيه السنجاري هو السلطان أحمد خان الثالث، حيث جلس هذا، على تخت المُلك، سنة خمس عشرة ومائة وألف. وإن شاء الله سنذكر بعد هذا المبحث نصّ الكتابة المنقوشة على الطراز المذهّب في زمن السلطان أحمد.

١١) عمل الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، رحمه الله تعالى، باباً للكعبة مصفحاً بالذهب والفضة، فركب عليها باحتفال كبير، وذلك في يوم ٢٣ من ذي القعدة سنة سبعين وثلاثمائة وألف، وقلع الباب القديم الذي كان عمله السلطان مراد خان الرابع، ولم يجعل الملك عبدالعزيز قفلاً جديداً للباب لصلاحية القفل القديم.

انظر: صورة رقم ١١٣، ستارة باب الكعبة

انظر: صورة رقم ١١٤، رأس مفتاح الكعبة المعظمة

وقد كتب في أسفل مصراعي هذا الباب الجديد ما يأتي:

"أمر بصنع هذا الباب جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة (١٣٦٣) فكان بين صدور الأمر الملكي بصنع هذا الباب للكعبة المشرفة وبين تركيبه سبعة أعوام".

قال بعضهم، في الالتجاء إلى الله تعالى، عند باب بيته الحرام:

لُذ بهذا الباب كلما ... خفت ضيق المناهج

فهو باب مجرّب ... لقضاء الحوائج

وقال مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي الخطاط غفر الله تعالى له ولوالديه:

لُذ برب البيت يا من قد أسا ... والتزم "بالملتزم" مستأنسا

كم أتى فيما مضى من مذنب ... قام يدعو ربه مما أسا
دامع العين ذليلاً خاشعاً ... جاهراً يدعو وطوراً هامسا
كم نبي كم رسول قد أتى ... يعبد الله تعالى غلسا
كم تقيّ صالح أو عالم ... عامل لاذ هنا فاستأنسا
هاهنا يشكو ضعيف ظلمه ... وهنا يرجو فقير بُئسا
وهنا يخضع جبار له ... سطوة كبرى ومُلك أسِّسا
قم بباب الله واطلب فضله ... من رجا ما خاب وأبشر فعسى
إن خير الناس من جا تائباً ... عائذاً بالله يرجو قبسا

عمل قفل ومفتاح لباب الكعبة

القفل تابع لنفس الباب، فمتى كان الباب كان القفل ومفتاحه، والقفل يشمل الضبة الخشبية ويشمل القفل الحديد بجميع أشكاله وأنواعه. وقد سبق أن تكلمنا عن تجديد باب الكعبة المعظمة، وهنا نتكلم عن تجديد قفل الباب ومفتاحه، ولا ندري هل يكون تجديد القفل تابعاً لتجديد باب الكعبة أم لا على كل حال نذكر هنا ما وقفنا عليه في بعض كتب التاريخ فنقول:

١) تقدم في البحث السابق أن أسعد الحميري، وهو تبّع، أول من جعل للكعبة باباً يغلق، ومعنى هذا أنه وضع عليه قفلاً، وهو الضبة الخشبية بالطبع.
٢) قريش حينما بنوا البيت جعلوا له باباً وكان يغلق ويفتح، ومعنى هذا أيضاً أنهم جعلوا له ضبة خشبية، وهو قفل زمانهم.
٣) عبدالله بن الزبير، حينما بنى البيت، كان يغلق بالضبة لقرب عهده بقريش.
٤) الحجاج بن يوسف الثقفي، لما بنى البيت، كان يغلق بالضبة، كعهد ابن الزبير.
٥) قال ابن فهد: بعث المعتصم بالله العباسي، سنة تسع عشرة ومائتين، للكعبة، قفلاً فيه ألف دينار.
٦) عمل الملك المظفر صاحب اليمن لما حج سنة خمس وخمسين وستمائة باباً وقفلاً للكعبة.

٧) قفل ومفاتيح أهداه إليها الملك الظاهر بيبرس، صاحب مصر، والمظنون أن ذلك كان حينما حج سنة (٦٦٧) سبع وستين وستمائة هجرية.

٨) قال الغازي: لما استناب الشريف حسن بن عجلان، سنة أربع وثمانمائة في صفر في الحكم بمكة، الأمير بيسق، لسفره إلى حلي، عمل المذكور بمكة بعض أعمال لم يرض بها الشريف حسن فنقم عليه، منها: أنه عمل قفلاً ومفتاحاً في جمادى الأولى من السنة المذكورة، لباب الكعبة، وركبه عليها، وأخذ القفل والمفتاح اللذين كانا على الكعبة، فأخذ الشريف حسن منه القفل والمفتاح القديمين وأعادهما إلى الكعبة. انتهى.

٩) القفل والمفتاح، لباب الكعبة المشرفة، في عصرنا هذا، فقد أمر بصنعهما السلطان عبد الحميد خان في سنة (١٣٠٩) تسع وثلاثمائة وألف.

ولقد أسعدنا الله عز وجل بالصعود إلى باب الكعبة المعظمة، في ضحى يوم الأربعاء سبع وعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف، وذلك للتحقق من القفل والمفتاح الموجودين اليوم على باب الكعبة المعظمة. وإليك أيها القارئ الكريم وصفهما:

فالقفل المذكور طويل، مضلع بستة أضلاع، وهو من الحديد، طوله ثمانية وثلاثون سنتيمتراً، وعرض كل ضلع من أضلاعه الستة ثلاث سنتيمترات، فيكون محيط أضلاعه ثمانية عشر سنتيمتراً، وفي كل ضلع من أضلاعه الستة قطعة رقيقة من النحاس الأصفر، طولها نحو ثمانية سنتيمترات وعرضها نحو سنتيمترين، مكتوب بالحفر في كل منها بالخط الثلث الجميل جدا ما يأتي:

فعلى القطعة الأولى من النحاس الأصفر مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى القطعة الثانية منه: نصر من الله وفتح قريب. إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. وعلى القطعة الثالثة منه: أمر بهذا القفل الشريف مولانا السلطان المعظم. وعلى القطعة الرابعة منه: والخاقان الأفخم السلطان الغازي عبدالحميد خان. وعلى القطعة الخامسة منه: خلّد الله ملكه إلى منتهى الدوران. وعلى القطعة السادسة منه: سنة تسع وثلاثمائة وألف.

أما مفتاح هذا القفل فإليك وصفه وشكله: فهو طويل يشبه يد الهاون من طرفيه، أما ما بينهما فغلظه كغلظ الإصبع الصغير "أي البنصر"، وطول المفتاح أربعون سنتيمتراً وربما نقص نصف سنتيمتر فقط، ورأسه دائرية كشق الرَّحى،

وقطر دائرة الرأس ثلاث سنتيمتر ونصف، وسمكها أي غلظها سنتيمتر واحد فقط ، ورأس المفتاح مشقوق ثلاث شقوق متساوية .

ومن الحكايات المناسبة لقفل الكعبة ومفتاحه ما يأتي:

روى الإمام الأزرقي في تاريخه: أن عائشة سألت أن يفتح لها باب الكعبة ليلاً ، فأبى عليها شيبة بن عثمان، فقالت لأختها أم كلثوم، ابنة أبي بكر ، انطلقي بنا حتى ندخل الكعبة ، فدخلت الحجر ، وفي رواية أخرى أن عائشة سألت النبي ﷺ أن يفتح لها الباب ليلاً، فجاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنها لم تفتح بليل قط . قال: فلا تفتحها ، ثم قال لعائشة : إن قومك لما بنوا البيت قصرت بهم النفقة، فتركوا بعض البيت في الحجر ، فادخلي الحجر فصلي فيه . انتهى من الأزرقي .

ومما يلحق بهذا ، ما رواه الغازي في تاريخه وفي سنة ألف وثلاث وثمانين أراد إسحاق أفندي، الوارد من جهة الروم ، صحبة الحج، وكان من كبار الدولة ، أن يدخل الكعبة الشريفة ليلاً ، فأراد الشيخ عبدالواحد بن محمد الشيبي الحجبي أن يفتح له البيت ، فتعسر فتحه ، فدعا بحداد ، نعت له بالمعرفة ، فأمره بفش القفل ، فاضطربت يده وما قدر. قال الشيخ عبدالواحد: فأصغيت ، وإذا بالباب كان يدفع من داخل البيت ، وأحسست بالدفع والقوة المانعة، قال : فصرفت الناس، وقلت : أيها الناس إن هذا البيت بيد الله ، يفتحه لمن يريد . فانصرف الناس ومنهم إسحاق أفندي ولم يتيسر له الدخول. اهـ.

ومعنى فش القفل: فتحه بحيلة بغير مفتاح.

ويشبه هذه الحكاية ما رواه لنا رئيس سدنة الكعبة المشرفة في وقتنا الحاضر ، وهو فضيلة الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد الشيبي، البالغ من العمر الآن (٨٤) عاماً وذلك حينما كنا بمنزله العامر تلبية لدعوته لنا للغداء ، في أواخر شهر رجب سنة ١٣٧٦ هجرية فقد قال:

أمرني والدي أن أفتح الكعبة ليلاً ، بعد العشاء بساعة، لدخول ابنة راتب باشا التركي ، والي الحجاز ، وذلك في سنة (١٣٢٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وعشرين هجرية، فذهبت صحبة محمود بن محمد عيد ، وكيل والدي في الأعمال

الخصوصية، إلى المسجد الحرام، لفتح الكعبة ، فلما فتحتها وأرادت دخولها ، وقع رجل ، كان واقفاً بجواري، يريد الدخول ، فوقع من عتبة باب الكعبة إلى الأرض، و لم يحصل له ضرر ولا أذى ، ثم نهض وامتنع عن الدخول ، وجلس بعيداً عند زمزم، فلما انتهت الزيارة ، وقفل باب الكعبة ، سألت الرجل عما حصل له ، فقال : لما أردت دخول الكعبة أحسست بيد ناعمة دفعتني في صدري، فوقعت على الأرض ، و لم يحصل لي أي ألم، وأصابتني رهبة شديدة، فعلمت أن ذلك كان بسبب أنني ارتكبت أمراً محظوراً ، قبيل حضوري إلى بيت الله الحرام، ولقد تبت ورجعت إلى الله تعالى، من هذه الساعة ، فأسأل الله أن يغفر لي زلتي ويقبل توبتي.

نقول: لا يستبعد وقوع الحكايتين المذكورتين ، لأن بيت الله عز شأنه ، فيه من الأسرار ما لا نعلمه، وهو عامر بعبادة خلقه من إنس وجن وملك في كل لحظة ليلاً ونهاراً. فقد جاء في شفاء الغرام : روى الأزرقي بسنده إلى وهب بن منبه قال : وقرأت في كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه الكعبة فوجد فيه : أنه ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت ، فينقض من تحت العرش محرماً ملبياً حتى يستلم الحجر ، ثم يطوف سبعاً ويركع في جوفه ركعتين ثم يصعد. اهـ.

وجاء في تاريخ الأزرقي: عن عثمان بن يسار قال: بلغني والله أعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث ملكاً من الملائكة لبعض أموره في الأرض ، استأذنه ذلك الملك في الطواف بالبيت فهبط الملك مهلاً.

وجاء فيه أيضاً: عن وهب بن منبه أن ابن عباس أخبره أن جبريل وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار، فقال رسول الله ﷺ : ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك أيها الروح الأمين ؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن ، فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها. انتهى.

وجاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" لمحب الدين الطبري ما نصه:

وعن سعيد بن جبير أن عائشة قالت : يا رسول الله كل نسائك دخل البيت غيري، قال: فانطلقي إلى قرابتك شيبة يفتح لك الكعبة. فأتته، فأتى النبي ﷺ، فقال: والله ما فتحت بليل قط في جاهلية ولا إسلام، وإن أمرتني أن أفتحها فتحتها. قال : لا . ثم قال: إن قومك قصرت بهم النفقة فقصروا في البنيان، وإن الحجر من البيت فاذهبي فصلي فيه. أخرجه أحمد وسعيد بن منصور وأبو ذر.

قال الغازي: وفي سادس عشر ذي الحجة سنة (١١٣٦) ست وثلاثين ومائة وألف، طلب عثمان باشا أبو طوق، فتح البيت الشريف بالليل، فتوقف الشيخ عبدالقادر بن عبدالمعطي الشيبي، فغضب الباشا، وأرسل يعرف الشريف بذلك، فغضب الشريف على عبدالقادر، لعدم اعتنائه بالوزير، فعزله وولى عمه الشيخ أحمد بن عبدالواحد الشيبي منصبه -والشريف المذكور اسمه الشريف عبدالله بن سعيد- ثم في الحادي عشر ذي القعدة سنة سبع وثلاثين ومائة وألف، عزل باكير باشا أحمد الشيبي، عن حجابة البيت الشريف، وولاها لابن أخيه عبدالقادر الشيبي، وسببه ورود الأمر السلطاني فولاه بمضمون ذلك. اهـ.

نقل الغازي رحمه الله تعالى، من كتاب "إتحاف فضلاء الزمن" ما ملخصه: أنه في محرم سنة ألف ومائة واثنتين وعشرين اجتمع الشيخ سعيد المنوفي بالشلبي حميدان، وزير مكة، وقال له: إن الشريف يأمرك أن تصنع له مفتاحاً يضاهي مفتاح الكعبة الشريفة. فأرسل الشلبي عثمان إلى كمال الصايغ، وأخبره بمراد الشريف، وطلب منه عمل المفتاح، فصنعه له على المطلوب، بحيث لا يفرق أحد بين المفتاح الأصلي والمفتاح التقليدي، فوشى بعضهم به إلى الشريف، فأمر بإحضاره وطلب منه المفتاح، فجاء به، فأرسل الشريف إلى الشيخ عبدالواحد الشيبي، وسلمه المفتاح، فتعجب الشيخ عبدالواحد من هذا المفتاح، الذي هو مطابق للمفتاح الأصلي، الذي يحتفظ به، فحينئذ طلب الشريف الشلبي عثمان وسأله عن حقيقة هذا المفتاح، فقال: صنعته لكم، حيث جاءني الشيخ سعيد المنوفي، وقال لي: إن الشريف يأمرك أن تصنع مفتاحاً يشبه مفتاح الكعبة، فامتثلت الأمر. فأمر الشريف بحل وظائف الشيخ سعيد المنوفي، وإخراجه من البلد، فشفع فيه السيد عبدالمحسن بن أحمد بن زيد، فعفا عنه، وكان مقصود الشيخ سعيد أن يرسل المفتاح لسلطان الهند.اهـ

وجاء في الجزء الثاني، من تاريخ الغازي ما خلاصته: أنه لما استولى على مكة الملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، صاحب اليمن، أخ السلطان صلاح الدين، وذلك في رمضان سنة (٥٨١) إحدى وثمانين وخمسمائة طلع أمير مكة يومئذ مكثر بن عيسى على جبل أبي قبيس، وأغلق باب بيت الله الحرام، وأخذ المفتاح معه، فأرسل إليه سيف الإسلام يطلب منه المفتاح، فامتنع من إرساله، فقال سيف الإسلام لرسوله: قل لصاحبك إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي

ﷺ : لا تأخذوا المفتاح من بني شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه بالمفتاح.

قال الغازي : وذكر السنجاري أيضاً في "منائح الكرم" قصة أخذ المفتاح ، وهذا نصه:

قال صاحب الوقائع أن مكثراً أخذ مفتاح الكعبة، لما صعد قلعة أبي قبيس ، فأرسل طغتكين، إلى شيخ السدنة، وقال له: خذ المفتاح وهاته وإلا أخذناه منك ، فإن الله أمرنا بأمور فتركناها، ونهانا عن أمور فارتكبناها، وإن كان المفتاح لكم نأخذه منكم ، ونستغفر الله تعالى ، فبعث إليه شيخ السدنة بالمفتاح . انتهى من تاريخ الغازي.

وجاء في "تاريخ الكعبة المعظمة" : وذكر في حوادث سنة (٩٧٦) أنه لثلاث بقين من رمضان ، فتح الشيخ عبدالواحد الشيبي الكعبة المشرفة للنساء، على جري العادة ، فسرق من حجره مفتاح الكعبة، وهو مصفح بالذهب ، فوقعت الضجة وأغلقت أبواب الحرم، وفتشت الناس ، فلم يظفروا به ، ثم وجده سنان باشا باليمن، مع رجل أعجمي ، فأخذه وقرره وكبس داره، فوجد عنده المفتاح وغيره من سرقات ، أقر بها فقطع رأسه ، وأعاد المفتاح إلى الشيخ عبدالواحد ، وعبدالواحد الشيبي هذا غير عبد الواحد الذي تقدم ذكره فزمنهما مختلف .

ومما يلحق بهذه الحكاية ما جاء في رحلة ابن جبير الأندلسي التي كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة ، أنه لما أراد زعيم الشيبيين فتح باب الكعبة المعظمة ، لسيف الإسلام الأمير طغتكين بن أيوب ، أخي صلاح الدين ، بعدما صعدوا إلى سلمها ، الذي يوضع أمام الباب ، سقط مفتاح من كمه، في ذلك الزحام، فوقف وقفة دهشة مذعوراً، ووقف الأمير على المدرج، لكنهم وجدوه سريعاً ، ففتحوا الباب ودخلوا الكعبة . انتهى.

الكتابة التي بأعلى باب الكعبة

ما كنا نظن أنه توجد كتابة بأعلى باب الكعبة ، على العقد، من الخارج ، لعدم ظهور شيء ، بسبب برقع باب الكعبة، -أي الستارة التي عليه- لكن ظهر لنا جزء يسير من الكتابة مصادفة، لانحسار البرقع ، عن أعلى الباب قليلاً. ولما كان عقد الباب عالياً ، أكثر من خمسة أمتار ، لم نتمكن من قراءة ما هو مكتوب عليه ،

خصوصاً والمطاف مزدحم بالطائفين من الناس ، فقد انشغل بالنا كثيراً لمعرفة الكتابة ، حتى يسر الله تعالى لنا الوصول إلى ما فوق الباب الشريف فقرأناها بكل هدوء وراحة.

ولقد كانت هذه الكتابة ، في عهد السلطان أحمد خان الثالث، أحد سلاطين آل عثمان ، وذلك حينما جدد خدود باب الكعبة ، والطراز الذهب الخايف، كما سبق بيان ذلك ، في مبحث "عمل باب للكعبة المشرفة".

وإليك تفصيل ما قمنا بتحقيق قراءة الكتابة المذكورة على عقد الباب:

إنه في يوم السبت خامس عيد الفطر سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، ذهبنا ، قبيل الظهر، إلى المسجد الحرام ، وقد أخذنا معنا سلماً طويلاً ، يصل من أرض المطاف إلى أعلى باب الكعبة المشرفة، لقراءة ما هو مكتوب في أعلى عقد باب الكعبة، بعد استئذان فضيلة الشيخ محمد الشيبي ، سادن بيت الله الحرام، فصعدنا السلم ، فإذا على عقد الباب مكتوب سطران بخط الثلث الواضح الجميل ، على ستة ألواح رقاق من الذهب الخالص النظيف ، والكتابة باللون الأسود، من نفس الذهب لا بالبوية، وهذه الألواح الذهب مسمرة على خشبة ثخينة، ممتدة من أول الباب إلى آخره، أي بمقدار عرض الباب بل أكثر من ذلك ، بحيث تزيد على اليمين ، بنحو شبر، وعن اليسار مثل ذلك، وداخلة في نفس البناء ، أي أن الخشبة غير بارزة خارج البناء ، وطول هذه الخشبة نحو مترين وثلاثين سنتيمتراً ، وعرضها نحو نصف متر كما قسنا بنفسنا.

(فالسطر الأول) : مكتوب على ثلاثة ألواح من الذهب ، مسمر كل لوح منها بطرف الآخر بالطول ، على خشبة العقد المذكورة ، وطول كل لوح منها تسعون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منها أربع وعشرون سنتيمتراً.

وقد كتب على الثلاثة الألواح التي تمثل السطر الأول ما يأتي:

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾.

(والسطر الثاني) : مكتوب على ثلاثة ألواح أيضاً من الذهب، مسمرة على خشبة العقد المذكورة، طول كل لوح وعرضه مثل ألواح السطر الأول تماماً، بدون زيادة ولا نقصان.

وقد كتب على هذه الثلاثة الألواح التي تمثل السطر الثاني ثلاثة أبيات وهي هذه:

لقد رمّم الحُنكار باباً لبيته ... له كل مخلوق يصلي ويسجد
وخلف ذخر الأجر من بعد جده ... بنى ملك عثمان أحمد يحمد
فقل فيه مدحاً ما استطعت مؤرخاً ... بتجديده بالبيت قد فاز أحمد

هذا هو نص السطرين المكتوبين على عقد باب الكعبة المشرفة، في الألواح الستة الذهبية، وليس فيها تاريخ كتابة هذه الألواح بالأرقام، اكتفاء بالشطر الأخير "بتجديده بالبيت قد فاز أحمد" فإنه يكون على حساب الأبجدية سنة (١١١٨) ثمان عشرة ومائة وألف. فإن مجموع حساب كلمة "بتجديده" هو ٤٢٨ ومجموع حساب "بالبيت" هو ٤٤٥ ومجموع "قد" هو ١٠٤ ومجموع حساب "فاز" هو ٨٨ ومجموع حساب "أحمد" هو ٥٣ فإذا جمعنا كل هذه الأرقام كان الناتج (١١١٨) وهو عام تجديد خدود باب الكعبة، في زمن السلطان أحمد خان، ومعنى كلمة "حنكار" في الشطر الأول، من الأبيات، لقب من ألقاب الملوك السابقين.

واعلم أن عقد باب الكعبة مستقيم تمام الاستقامة، ليس فيه تدوير ولا انحناء، كما كان كذلك من سابق الأزمان المتقدمة.

وعتبة الباب عبارة عن حجر واحد مستقيم أملس، من حجارات مكة القوية الصماء، طوله كطول الباب مائة وتسعون سنتيمتراً، وعرضه تسعة وثلاثون سنتيمتراً، وارتفاعه سبعة وعشرون سنتيمتراً، وفي وسط هذه الحجر خرق مدور، قطر دائرته ثلاث سنتيمترات، جعل بمثابة ميزاب يخرج منه الماء، إلى أرض المطاف، عند غسل داخل الكعبة، ومن هذا الحجر الذي هو عبارة عن عتبة باب الكعبة، إلى أرض المطاف مائة واثنان وتسعون سنتيمتراً، ثم من عتبة الباب، أي من هذا الحجر، إلى منتهى ارتفاع الباب، ثلاثة أمتار وسبعة سنتيمترات.

فيعلم من كل ما تقدم أن الكتابة، التي على عقد باب الكعبة ، والتي هي في الألواح الستة ، من الذهب ، ترتفع عن أرض المطاف بمقدار خمسة أمتار ونصف متر تماماً.

وأما الدرجة الواحدة، التي يقف عليها الناس للدعاء، تحت باب الكعبة ، فإنها ترتفع عن أرض المطاف بثمان سنتيمترات فقط.

نقول: لم نجد أحداً من المؤرخين اطلع على ما كتب فوق عقد باب الكعبة ، وذكر نص ما هو مكتوب عليه غيرنا و لله الحمد، فلأول مرة يظهر التحقيق التام في هذا البحث ، فالحمد لله على توفيقاته المتوالية ونعمائه المتتالية، ونسأله المزيد من فضله الواسع ، وإحسانه العميم إنه هو العلي الكبير ، وصلى الله على النبي الأمي "سيدنا محمد" وعلى آله وصحبه وسلم.

انتقال مفتاح الكعبة من شخص لآخر قبل الإسلام

تقدم أن خليل الله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لما بنى الكعبة بناها بالرضم ، حجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا نورة ، ولم يجعل لها سقفاً ولا باباً، وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي، للدلالة على وجه البيت الحرام.

فما دامت الكعبة بنيت بالحجارة فقط ، وكانت بدون سقف فلا تحتاج إلى وضع باب عليها ولا إلى مفتاح ، فمتى صار لها باب ومفتاح ، كان المفتاح بيد أحد كبار أهل مكة فكان أميناً عليه.

فأول من جعل للكعبة باباً يغلق تبّع الحميري وهو أسعد ، أحد ملوك اليمن ، قبل البعثة بزمن بعيد ، كما أنه هو أول من كساها ونحر عندها . ومعنى أنه جعل للكعبة باباً يغلق ، أي كان للباب مفتاح ، والله تعالى أعلم، كان في يد أيّ رجل ، فمن جملة من كان المفتاح بيده قديماً حُلَيْل بن حبشية ابن سلول الخزاعي ، وحليل "بالحاء المهملة" يومئذ يلي الكعبة وأمر مكة، وقد خطب ابنته حبي قصي بن كلاب بن مرة، وهو الجد الرابع للنبي ﷺ فعرف حليل نسب قصي، ورغب فيه ، فزوجه ابنته حبي ، فولدت لقصي عبد الدار ، وهو أكبر ولده، وعبد مناف وعبد العزى وعبد بن قصي، فكان حليل يفتح البيت، فإذا اعتل أعطى ابنته حبي المفتاح، ففتحته، فإذا اعتلّت أعطت المفتاح زوجها قصياً أو بعض ولدها فيفتحه ، وكان

قصي يعمل في حيازته إليه، وقطع ذكر خزاعة عنه، فلما حضرت حليلاً الوفاة، نظر إلى قصي، وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته، فرأى أن يجعلها في ولد ابنته، فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت، وأسلم إليه المفتاح وكان يكون عند حبي فلما هلك حليل، أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا المفتاح من حبي، فمشى قصي إلى رجال من قومه من قريش، وبني كنانة، ودعاهم إلى أن يقوموا معه في ذلك وأن ينصروه ويعضدوه، فأجابوه إلى نصره، وأرسل قصي إلى أخيه لأمه، رزاح بن ربيعة، وهو ببلاد قومه من قضاعة يدعوه إلى نصره، ويعلمه ما حالت خزاعة بينه وبين ولاية البيت، ويسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه، فقام رزاح في قومه، فأجابوه إلى ذلك، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه حسن ومحمود وجلهمة بن ربيعة بن حرام، فيمن تبعهم من قضاعة، في حاج العرب مجتمعين، لنصرة قصي والقيام معه، فلما اجتمع الناس بمكة، خرجوا إلى الحج، فوقفوا بعرفة وبجمع، ونزلوا منى، وقصي مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم، بمن معه من قريش وبني كنانة، ومن قدم عليه، مع أخيه رزاح من قضاعة، فلما كان آخر أيام منى، أرسلت قضاعة إلى خزاعة، يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال في الحرم، وحذروهم الظلم والبغي بمكة، وذكروهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه، حين ألحدوا فيه بالظلم والبغي، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك، فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى قال: فسمى ذلك المكان المفجر، لما فجر فيه وسفك فيه من الدماء، وانتهك من حرمته، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، وفشت فيهم الجراحات، وحاج العرب جميعاً، من مضر واليمن، مستكفون ينظرون إلى قتالهم، ثم تداعوا إلى الصلح، ودخلت قبائل العرب بينهم، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب، فيما اختلفوا فيه، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وكان رجلاً شريفاً، فقال لهم: موعدكم فناء الكعبة غداً. فاجتمع إليه الناس وعدوا القتلى، فكانت في خزاعة أكثر منها في قريش وقضاعة وكنانة، وليس كل بني كنانة قاتل مع قصي، إنما كانت مع قريش من بني كنانة قبائل يسيرة. واعتزلت عنها بكر بن عبد مناة قاطبة. فلما اجتمع الناس، بفناء الكعبة، قام يعمر بن عوف فقال: ألا إني قد شَدختُ ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين، فلا تباعة لأحد على أحد في دم، وإني قد حكمت لقصي بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة

دون خزاعة ، لما جعل له حليل ، وأن يخلي بينه وبين ذلك ، وأن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة ، قال : فسمي يعمر من ذلك اليوم الشداخ ، فسلمت ذلك خزاعة لقصي ، وعظموا سفك الدماء في الحرم ، وافترق الناس ، فولي قصي بن كلاب حجابة الكعبة ، وأمر مكة ، وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة ، يستعزّ بهم ، وتملّك على قومه فملّكوه ، وخزاعة مقيمة بمكة ، على رباعهم وسكناتهم ، لم يحركوا ولم يخرجوا منها ، فلم يزالوا على ذلك حتى الآن ، وقال قصي في ذلك وهو يتشكر لأخيه رزاح بن ربيعة :

أنا ابن العاصمين بني لؤي ... بمكة مولدي وبها ربيت

ولي البطحاء وقد علمت معد ... ومروتها رضيت بها رضيت

وفيها كانت الآباء قبلي ... فما شويت أخي ولا شويت

فلست لغالب إن لم تأثل ... بها أولاد قيدر والنبيت

رزاح ناصري وبه أسامي ... فلست أخاف ضيماً ما حييت

فكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب مُلْكاً ، وأطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة ، واللواء ، والقيادة ، فلما جمع قصي قريشاً بمكة سمي مجمعاً وفي ذلك يقول حذافة بن غانم الجمحي يمدحه:

أبوهم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

هم نزلوها والمياه قليلة ... وليس بها إلا كهول بني عمرو

يعني خزاعة . قال إسحاق بن أحمد : وزادني أبو جعفر محمد بن الوليد بن كعب الخزاعي :

أقمنا بها والناس فيها قلايل ... وليس بها إلا كهول بني عمرو

هموا ملأوا البطحاء مجداً وسؤدداً ... وهم طردوا عنها غواة بني بكر

وهم حفروها والمياه قليلة ... ولم يستق إلا بكد من الحفر

حليل الذي عادى كنانة كلها ... ورابط بيت الله في العسر واليسر

أحازم إما أهلكن فلا تزل ... لهم شاكراً حتى توسد في القبر

ويقال من أجل تجمع قريش إلى قصي سميت قريش قريشاً . انتهى من تاريخ الأزرقي .

وجاء في تاريخ القطبي المسمى بالإعلام : لما هلك حليل أوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حبي ، فقالت : لا أقدر على السدانة ، فجعلت ذلك لأبي غبشان ، وكان سكّيراً يحب الخمر ، فأعوزه في بعض الأوقات ما يشربه من الخمر ، فباع مفتاح البيت بزق خمر ، فاشتراه منه قصي ، وسار في الأمثال : "أخسر صفقة من أبي غبشان" فلما صار المفتاح إلى قصي تناكرته خزاعة وكثر كلامها عليه ، فأجمع على حربهم وإخراجهم من مكة... الخ القصة . انتهى المراد منه .

وقال الغازي في تاريخه ما نصه : وفي "منائح الكرم" فلما دنت وفاة حليل ، جعل مفتاح الكعبة إلى ابنته حبي ، وأمرها أن تبعث إلى أخيها المحترس ، وأشرك أبا غبشان الملكاني معها ، في تنفيذ وصايته ، فأعطت حبي المفتاح لأبي غبشان الخزاعي ، وهو سليم بن عمرو بن لؤي بن ملكان ، وقالت : لست أهلاً لخدمتها . فلما رأى قصي ذلك ، قال لولدها عبد الدار : اطلب منها المفتاح ، وحمله على ذلك ، وأنه أحق بها ، لجدهم . فقالت : ومن يكفيني أبا غبشان ، فقال قصي : أنا أكفيكه . وكان أبو غبشان سكّيراً ، فأعوزه الخمر يوماً ، فباع المفتاح من قصي بزق خمر وكبش ، فأشهد عليه قصي ، وأخذ منه المفتاح ، وأعطاه لعبد الدار ، فصار المفتاح بيد قصي وولده ، وضرب المثل بأبي غبشان في خسران الصفقة ، فيقال : "أخسر صفقة من أبي غبشان" فلما آل أمر المفتاح إلى قصي ، تناكرت عليه خزاعة ، بعد موت حليل ، وآذوه بالكلام ، فكلم قصي رجالاً من قريش ، وقال : إنا معاشر قريش أحق بأمر مكة من خزاعة . نحن فرع إسماعيل ، وصريح ولده ، فقالوا : صدقت ولكن من يعينك عليهم ؟ فكتب إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة يستنصره ، ويطلب منه الإعانة ، فأجابه إلى ذلك . انتهى. اهـ.

قال القطبي في تاريخه المسمى بالإعلام ما ملخصه : وكان قصي أول من ملك من بني كعب ، أصاب ملكاً أطاعه به قومه ، وله كلمات حكم تؤثر عنه ، منها : من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان . وقد اجتمع لقصي ما لم يجتمع لغيره من المناصب ، فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة .

فهذه كلها اجتمعت في قصي ، فلما كبرت سنّه وضعف بدنه ، قسمها بين أولاده ، وكان عبد الدار أكبر أولاده ، وكان عبد مناف أشرف زمان أبيه ، فقال قصي لعبد الدار لألحقنك يا بني بالقوم ، وإن شرفوا عليك . فأعطاه الحجابة وسلم

إليه مفتاح البيت ، وقال : لا يدخل رجل منهم الكعبة ، حتى تكون أنت تفتحها له ، وأعطاه السقاية واللواء ، وقال : لا يشرب أحد إلا من سقايتك ، ولا يعقد لواء قريش لحربها إلا أنت بيدك ، وجعل له الرفادة ، وقال : لا يأكل أحد في هذا الموسم طعاماً إلا من طعامك ، وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش من أموالها ، في كل موسم ، فتدفعه إلى قصي ، فيصنع به طعاماً للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد . وكان قصي فرض ذلك على قريش حين جمعهم .

ثم قال القطبي في تاريخه الإعلام : فجعل قصي ، كلما كان بيده من أمر قومه لعبد الدار ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه لعظم شأنه ونفاذ سلطانه . قال ابن إسحاق : ثم إن قصياً هلك ، فقام على أمر قومه بنوه من بعده ، ثم إن بني عبد مناف : هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفلا ، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم ، لشرفهم عليهم وفضلهم ، وتفرقت قريش فكانت طائفة منهم يرون أن بني عبد مناف أحق من بني عبد الدار ، وطائفة يرون إبقاء بني عبد الدار على ما جعله قصي لأبيهم .

فأجمعوا على الحرب ، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف ، والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، وتحالفوا على ذلك . انتهى ما ذكر من الإعلام .

ثم جعل عبد الدار الحجابة إلى ابنه عثمان بن عبد الدار .

وقال بعض المؤرخين : قسّم قصي ، أمر مكة ، بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف ، فأعطى عبد الدار الحجابة أي السدانة واللواء والندوة ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة .

وهذا الاختلاف غير مهم ، والذي يعنينا حجابة الكعبة وسدانتها ، وقد أجمعوا على أنها جعلت بيد عبد الدار .

وقصي بن كلاب المذكور بنى أيضاً الكعبة المشرفة بنياناً قوياً ، لم يبن أحد ممن سبقه مثله ، فبناها وسقفها بخشب الدوم الجيد وبجريد النخل ، ويكون قصي الجد الرابع للنبي ﷺ .

هذا ما كان من أمر مفتاح الكعبة قبل الإسلام ، وأما ما كان من أمره بعد الإسلام ، وبعد فتح مكة ، الذي كان صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، فقد ورد ذلك مفصلاً في كتب الحديث والتفسير والتاريخ ولنذكر شيئاً عن ذلك فقد جاء في كتاب " تاريخ الكعبة المعظمة " ما نصه :

قال ابن كثير في تفسيره في معنى قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهدنة ، بين صلح الحديبية ، وفتح مكة ، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأما عمه عثمان بن أبي طلحة ، فكان معه لواء المشركين ، يوم أحد ، وقتل يومئذ كافراً ، وإنما نبهنا على هذا النسب ، لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ من رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه . انتهى من الكتاب المذكور .

وقال فيه أيضاً ما نصه : فروى ابن سعد ، في الطبقات ، عن عثمان بن طلحة ، قال : كنا نفتح الكعبة في الجاهلية ، يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ، ونلت منه ، فحلم عني ، ثم قال : "يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت" فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت . قال : "بل عمرت وعزت يومئذ" ودخل الكعبة ، فوقعت كلمته مني موقعاً ، ظننت يومئذ ، أن الأمر سيصير إلى ما قال ، فلما كان يوم الفتح ، قال : "يا عثمان ائتني بالمفتاح" ، فأتيته به، فأخذه مني ، ثم دفعه إليّ ، وقال : "خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف" . قال : فلما وليت ناداني فرجعت إليه ، فقال : "ألم يكن الذي قلت لك" قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: "لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت" قلت: بلى أشهد أنك رسول الله . انتهى من الكتاب المذكور .

ومن أراد زيادة التوضيح فلينظر فيما كتبناه في ترجمة شيبة بن عثمان وعثمان بن طلحة . نقول : والحقيقة أن حكم الله عز وجل ، في وضع مفتاح بيته الحرام في

بني شيبة ، هو عين الصواب والحكمة ، وذلك حتى لا يحصل في ذلك نزاع وشقاق بين المسلمين ، فلا يطمع فيه سلطان ولا ملك ولا أمير ولا عالم ولا صالح ولا غني ولا فقير ، وما دام البيت بيت الله فصاحب البيت يضع مفتاحه حيث شاء .

ترجمة شيبة بن عثمان وعثمان بن طلحة

ننقل هنا خلاصة ترجمته من كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" للشيخ حسين باسلامة ، رحمه الله تعالى وهي: ينتهي نسب سدنة الكعبة المشرفة وهم الشيبيون في عصرنا هذا إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة . وقد أسلم شيبة عام الفتح على أصح الروايات ، وله صحبة ورواية عن النبي ﷺ وشهد حنيناً وقيل أسلم بحنين. قال الزبير : كان شيبة قد خرج مع رسول الله ﷺ ، يوم حنين مشركاً ، يريد أن يغتال رسول الله ﷺ غرّة ، فأقبل يريده ، فرآه رسول الله ﷺ فقال : "يا شيبة هلمّ لا أمّ لك" فقذف الله في قلبه الرعب ، ودنا من رسول الله ﷺ ووضع يده على صدره ، ثم قال : "أخَسْئ عنك الشيطان" فأخذه ونزع فقذف الله في قلبه الإيمان ، فأسلم وقاتل مع رسول الله ﷺ وكان ممن صبر معه يومئذ وكان من خيار المسلمين .

ودفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، وقال : "خذوها خالدة تالدة إلى يوم القيامة يا بني أبي طلحة لا يأخذها منكم إلا ظالم" قال : فبنوا أبي طلحة هم الذين يلون سدانة الكعبة ، دون بني عبد الدار ، قال ابن عبد البر : شيبة هذا هو جد بني شيبة ، حجبة الكعبة إلى اليوم ، دون سائر الناس أجمعين ، وهو أبو صفية بنت شيبة ، توفي في آخر خلافة معاوية سنة (٥٩) وقيل بل توفي في أيام يزيد ، وذكره بعضهم في المؤلفة قلوبهم ، وهو من فضلائهم اهـ.

وروى ابن سعد ، عن هوذة ، عن عوف ، عن رجل من أهل المدينة ، قال : دعا النبي ﷺ شيبة بن عثمان فأعطاه مفتاح الكعبة ، فقال : "دونك هذا فأنت أمين الله على بيته" قال مصعب الزبيرى : دفع إليه وإلى عثمان بن طلحة ، وقال : "خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم" .

وذكر الواقدي أن النبي ﷺ أعطاها يوم الفتح لعثمان ، وأن عثمان ولي الحجابة إلى أن مات فوليها شيبة فاستمرت في ولده . وروى ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، قال : أسلم العباس وشيبة و لم يهاجرا . أقام العباس على سقايته وشيبة على حجابته . وقال يعقوب بن سفيان : أقام شيبة للناس الحج سنة تسع وثلاثين . قال خليفة : وكان السبب في ذلك أن علياً ، رضي الله عنه ، بعث قثم بن عباس ليقيم للناس الحج ، وبعث معاوية ، رضي الله عنه ، يزيد بن شجرة ، فتنازعا ، فسعى بينهما أبو سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، وغيره فاصطلحا على أن يقيم الحج شيبة بن عثمان ويصلي بالناس . مات شيبة بن عثمان سنة تسع وخمسين وقال ابن سعد عاش إلى خلافة يزيد بن معاوية .

أما عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقد نزلت آية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ في شأنه ، قال ابن كثير ، رحمه الله تعالى ، في تفسيره ، في معنى هذه الآية : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبدا لله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأما عمه عثمان بن أبي طلحة ، فكان معه لواء المشركين ، يوم أحد ، وقتل يومئذ كافراً ، وإنما نبّهنا على هذا النسب لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا .

وبعد أن ذكر ابن كثير ، رحمه الله ، سبب نزول الآية المذكورة ، روى من طريق ابن جرير ، عن ابن جريج ، في الآية ، قال : نزلت في عثمان بن طلحة ، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ الآية ، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح ، قال : وقال عمر بن الخطاب : لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة ، وهو يتلو هذه الآية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فداه أبي وأمي ، ما سمعته يتلوها قبل ذلك .

حدثنا القاسم ، حدثنا الحسن ، حدثنا الزنجي بن خالد ، عن الزهري ، قال : دفعه إليه ، وقال : أعينوه قال : وروى ابن مردويه ، من طريق الكلبي ، عن أبي

صالح، عن ابن عباس، في قوله عز وجل: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة، فلما أتاه، قال: "أرني المفتاح" فأتاه به، فلما بسط يده إليه قام إليه العباس، قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية. فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: "أرني المفتاح يا عثمان" فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: "يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاته" فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسول الله ﷺ وفتح باب الكعبة، فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، معه قداح يستقسم بها، فقال رسول الله ﷺ: "ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن إبراهيم وشأن القداح" ثم دعا بجفنة فيها ماء، فأخذ ماء فغمسه فيه، ثم غمس به تلك التماثيل، وأخرج مقام إبراهيم، وكان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة، ثم قال: "يا أيها الناس هذه القبلة" قال: ثم خرج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين، ثم نزل عليه جبريل، فيما ذكر لنا بردّ المفتاح، ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ حتى فرغ من الآية. هذا ما ذكره عماد الدين بن كثير، في تفسيره، عن سبب رد رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وأن ذلك كان بأمر الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني، في فتح الباري، وروى ابن عائذ من مرسل عبدالرحمن بن سابط، أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان فقال: "خذوها خالدة مخلدة إني لم أدفعها إليكم، ولكن الله دفعها إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم". ومن طريق ابن جريج أن علياً قال للنبي ﷺ: اجمع لنا الحجابة والسقاية، فنزلت: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فدعا عثمان، فقال: "خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم" وروى الفاكهي من طريق محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن النبي ﷺ، لما ناول عثمان المفتاح، وقال له: "غيّبه" قال الزهري: فلذلك يغيّب المفتاح اهـ.

قوله: خالدة تالدة، الخالدة كلمة معروفة، والتالدة هي القديم الأصلي وهي ضد الطارف، أي هو لكم مقسوم من الأزل. ومعنى "غيّبه": أي احتفظ به ولا تهمل شأنه.

نقول: لو لم يَفصل الله عز وجل في أمر مفتاح الكعبة بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وأن النبي ﷺ أعطاه لرجل مخصوص ويبقى في ذريته إلى يوم القيامة، لتلاعب الملوك وأمراء مكة في ذلك، بحسب أغراضهم، فكان في كل زمن وعصر يؤخذ المفتاح من فلان ويعطى لفلان. وقد يحدث بسببه من الفتن والتنافس ما لا يتصور، فكان من الحكمة البليغة أن فصل الله أمر المفتاح، وجعله في آل الشيبي إلى يوم القيامة. وبهذا انتهى الخلاف في ذلك بتاتاً، فالبيت بيت الله، يعطي مفتاحه لمن يشاء من عباده، فيجب على الشيبيين الكرام أن يحمدوا الله عز وجل ويشكروه في كل عصر وأوان، على هذه النعمة الكبرى والمفخرة العظمى، وأن يكونوا أكثر الناس تعظيماً واحتراماً لهذه الكعبة المشرفة، التي كانت سبباً في عزّهم ورفعتهم وكم يكون جميلاً وشريفاً إذا اتّسموا بسمات أهل العلم كشيخ السدنة الشيخ علي بن محمد بن أبي بكر الشيبي المولود سنة ٧٥٥، وكالعلامة شيخ الحجبة محمد بن عمر بن محمد العبدري الشيبي المولود سنة ٥٤٣ فقد ترجم لهما السخاوي في كتابه "الضوء اللامع" كما قال صديقنا الأستاذ الكبير شاعر جلالة مليكنا المعظم الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي فيما يكتبه بقلمه البليغ بعنوان (مطالعات وتعليقات) بجريدة البلاد السعودية بتاريخ ٦ جمادى الثانية عام ١٣٧٥. نسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق والسير على أقوم طريق. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار آمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا "محمد" أبي القاسم وعلى آله وصحبه أجمعين.

تاريخ سدانة الكعبة المشرفة

وهذا المبحث كتبه لنا سادن بيت الله الحرام، صديقنا النبيل الأستاذ الجليل، فضيلة الشيخ طلحة بن حسن الشيبي وفقه الله تعالى.

سدانة الكعبة المشرفة، هي حجابتها، من فتح بابها وغلقه، وتلبيسها وسائر خدماتها، متعلق أمرها بسدنتها وحجبتها بني أبي طلحة العبدريين الحجبيين. لا يجوز لأحد المداخلة في أدنى شؤون بيت الله الحرام، لأنها ولاية من الله ورسوله، ولا تقاس بغيرها من الوظائف. وهذه الوظيفة على موجب ما هو معلوم ثابتة لهم جاهليةً وإسلاماً.

انظر: صورة رقم ١١٥، لوحة موجودة في دار بني شيبة

السدانة قبل الإسلام

منذ أن رفع سيدنا إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل، عليهما أجزل صلاة وتسليم، قواعد البيت، بأمر الله تعالى، كما أخبرنا القرآن الكريم ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ۞ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم با لله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۞ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ولما انتهى بناء البيت، بقي إسماعيل بمكة يعنى بشؤون البيت، حتى قبض، ويقال إنه دفن بالحجر عليه السلام. ثم توارث أبناء إسماعيل، شرف سدانة الكعبة المشرفة، مدة طويلة. ثم اغتصبها منهم جيرانهم وأخوالهم جرهم، ثم اغتصبتها خزاعة من جرهم. ثم استردها منهم قصي بن كلاب وهو من أبناء إسماعيل، وهو الجد الرابع للنبي ﷺ.

قصي بن كلاب

كان يلي أمر البيت حين ذاك، حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي. وابن إسحاق قال: ثم إن قصي بن كلاب، خطب إلى حليل بن حبشية ابنته حبي، فزوجه، فولدت له عبد الدار وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي. فلما انتشر ولد قصي، وكثر ماله وعظم شرفه، هلك حليل. فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر. وأن قريشاً فرعة إسماعيل بن إبراهيم، وصريح ولده، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه. فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه، كتب إلى أخيه من أمه، -وكان ببلاد الشام- رزاح بن ربيعة ومعه إخوته: حن بن ربيعة، ومحمود بن ربيعة، وجلهمة بن ربيعة فجاؤوا، فيمن تبعهم من قضاعة، في حاج العرب، وهم مجمعون لنصرته. قال ابن إسحاق: وخرجت له خزاعة وبنو بكر فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح، وإلى أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب، فحكّموا يعمر بن عوف بن

كعب بن عامر، من ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ، ففيه الدية مؤداة، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة.

فعند ذلك آل أمر مكة ، وعادت سدانة الكعبة إلى قصي، وكانت عند قريش وظائف فيها العز والشرف ، وهي السدانة ودار الندوة واللواء والرفادة والسقاية ، وكان قصي حازها كلها دون قومه.

عبد الدار

لما كبر قصي ورقّ عظمه ، جعل ما بيده ، من أمر قومه ، لولده البكر ، عبدالدار . فأقام أمره في قومه. ثم إن بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بيد بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك . فتعاقدوا وتعاهدوا وغمسوا أياديهم في الطيب ، فسمّي حلفهم : حلف المطيّبين . وتعاهد بنو مخزوم وبنو سهم وبنو عدي مع بني عبد الدار، وتحالفوا على عدم تسليم ما بيدهم ، فسموا الأحلاف ، ثم تداعوا للصلح وتحاجز الناس . واتفقوا على أن تكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبني عبد الدار والسقاية والرفادة لبني عبد مناف.

السدانة في الإسلام

أشرقت شمس الإسلام ، يوم فتح مكة، وأخذ نبينا ، محمد ﷺ ، من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الحجبي، سادن الكعبة، المفتاح ، وفتح بابها، ودخل، وطهرها من الأصنام ، وغسلها بيده الشريفة (واسم أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي) فسأله العباس ، رضي الله تعالى عنه، أن يضم إليه السدانة مع السقاية، فنزل قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فرد ﷺ المفتاح لعثمان بن طلحة، وتلا عليه الآية الشريفة، وأيّده بالأحاديث الشريفة، فقال ﷺ لعثمان وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: (هاك مفتاحك يا عثمان، غيّبوه)، وقال لهما: (خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم)، وقال: (إني لم أدفعها لكم ولكن

ا لله دفعها لكم)، وقال: (إن لله بيتاً أمّنكم عليه)، وقال: (إن لله بيتاً فاحترموه) ، وقال: (كل مأثرة تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) .

روي أن الحكمة في أخذ المفتاح من عثمان، المقصود منه التشريع ، فأخذه ﷺ ، حتى يرده بأمر ا لله تعالى لأنه ما ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى ۞ علمه شديد القوى﴾.

(لطيفة) : حينما نزلت الآية الشريفة بعد موقعة حنين: ﴿واعملوا أن ما غنمتم من شيء، فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ إلى آخر الآية جاء عثمان إلى رسول ا لله ﷺ وقال: يا رسول ا لله الذي لله لمن؟ فضحك النبي ﷺ وقال له: لحجبة بيت ا لله بني عبد الدار وخمش خمشة من الغنائم وأعطاها له . ذكره البيضاوي في تفسيره ، وا لله أعلم.

عثمان بن طلحة

عثمان بن طلحة، اختلف في زمن إسلامه، أكان قبل الفتح أم بعده؟ قال العلامة القسطلاني في "المواهب اللدنية" وفي "الطبقات" لابن سعد : عن عثمان بن طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت عليه ونلت منه فحلم علي ثم قال: يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت. قال: بل عمرت وعزّت، ودخل الكعبة . فوقعت كلمته مني موقعاً، ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إلي ، وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان إن ا لله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. قال : فلما وليت ناداني ، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ فذكرت قوله لي بمكة، قبل الهجرة: "لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت"، فقلت : بلى أشهد أنك رسول ا لله. والصحيح أن إسلام عثمان كان قبيل الفتح. قال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما حينما أسلما -يعني أن عثمان كان مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حين أتيا إلى النبي ﷺ بالمدينة مسلمين قبيل

الفتح- . ويروى أن النبي ﷺ قال حينما أقبلوا عليه بالمدينة : (رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها) . ومات عثمان سنة ٤٢ هجرية عقيماً لا عقب له.

شيبة بن عثمان بن أبي طلحة

قال ابن عبدالبر في الاستيعاب : شيبة بن عثمان بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري الحجبي المكي ، يكنّى أبا عثمان وقيل أبا صفية، وأبوه عثمان بن أبي طلحة يعرف بالأوقص ، قتله علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه، يوم أحد كافراً، واسم أبيه أبو طلحة عبدالله بن عبد العزى. أسلم شيبة يوم فتح مكة ، وشهد حنيناً ، وقيل : بل أسلم بحنين. قال الزبير : كان شيبة قد خرج مع رسول الله ﷺ يوم حنين مشركاً ، يريد أن يغتال رسول الله ﷺ فرأى من رسول الله غرة ، فأقبل يريده، فرآه رسول الله ﷺ، وقال: يا شيبة هلم ، لا أم لك، فقذف الله في قلبه الرعب، ودنا من رسول الله ﷺ، ووضع يده على صدره، ثم قال : اخسئ عنك الشيطان، فأخذه ونزع في صدره، فقذف الله في قلبه الإيمان فأسلم وقاتل مع رسول الله ﷺ وكان ممن صبر معه .

وشيبة هذا هو جد حجبة اليوم، وإليه ينتسب الشيبيون، وهو أبو صفية بنت شيبة . قال الحافظ ابن حجر في "الإصابة": قال ابن السكن: أمه أم جميل بنت عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وهي أخت مصعب بن عمير، قال البخاري، وغير واحد: له صحبة، وأسلم يوم الفتح، وكان أبوه ممن قتل بأحد كافراً، ولبنته صفية، بنت شيبة صحبة ورواية. وروى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة قال : أسلم العباس وشيبة و لم يهاجرا . أقام العباس على السقاية وشيبة على الحجابة . قال يعقوب بن أبي سفيان: أقام شيبة للناس الحج، سنة تسع وثلاثين ، وكان السبب في ذلك أن علياً بعث قثم بن العباس ليقيم للناس الحج ، وبعث معاوية يزيد بن شجرة، فتنازعا ، فسعا بينهما أبو سعيد الخدري وغيره واصطلحا على أن يقيم الحج شيبة بن عثمان ويصلي بالناس مسافع بن عبدالله بن شيبة، وعبدالرحمن بن الزجاج وآخرون . روى شيبة عن النبي ﷺ ، وعن أبي بكر وعمر ومات سنة تسع وخمسين ، على أصح الروايات ، فتولّى أكبر أولاده من بعده وهو مصعب.

وقد روى الكازروني في فتاويه، والبخاري في تاريخه، قال: إن تقديم السدانة في أكبرهم سناً من فعله ﷺ، لأنه دفع المفتاح ، في يوم الفتح ، إلى عثمان، لأنه أكبرهم سناً ، مع وجود شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فلما هاجر عثمان إلى المدينة المنورة، دفع المفتاح إلى ابن عمه شيبة ، فلما رجع عثمان إلى مكة ، أخذ المفتاح منه ، وبقي في يده إلى أن مات.

عبد الله بن شيبة الأعجم

قال الغازي في الجزء الثاني من تاريخه، نقلاً عن ابن فهد، ما ملخصه: أن خالد بن عبدا لله القسري في ولايته لمكة، عن سليمان بن عبد الملك، أحدث حدثاً منكراً، فقام إليه عبدا لله بن شيبة الأعجم، فأمره بالمعروف ونهاه عما فعل ، فغضب خالد غضباً شديداً، وأخاف الرجل ، فخرج إلى سليمان بن عبد الملك، يشكو إليه ويتظلم منه. فشكى إليه أمره . فكتب سليمان إلى خالد أن لا يتعرض له في أمر يكرهه. فلما جاء الكتاب إلى خالد أخذه فوضعه. ثم أرسل بعد ذلك إلى عبدا لله بن شيبة يسأله أن يفتح له الكعبة، في وقت لم ير ذلك عبدا لله بن شيبة ، فامتنع عليه ، فدعى به فضربه مائة سوط على ظهره ، فخرج عبدا لله بن شيبة ، هو ومولى له ، على راحلتين ، فأتى سليمان ، فكشف عن ظهره بين يديه ، وقال له : هذا الذي أوصيته بي . فقال : إلى من تختار أكتب له؟ قال : إلى خالك محمد بن هشام . قال : فكتب إليه إن كان خالد ضربه بعد أن وصل إليه كتابي وقرأه فاقطع يده . وإن كان ضربه و لم يقرأ كتابي فاقده منه ، فقدم بالكتاب على محمد بن هشام ، فدعا بالقسري ، فقرأه عليه ، فقال : ا لله أكبر ، يا غلام ائت بالكتاب . فأتى به مختوماً لم يقرأه . فأخرجه محمد بن هشام إلى باب المسجد ، وحضره القرشيون والناس ، فجرّده ثم أمر به أن يضرب ، فضرب مائة سوط . فقال الفرزدق في ذلك بعض أبيات لا داعي لذكرها . انتهى .

ذكر ابن حزم وابن عبد البر ، جماعة من الشيبيين في زمانه ، وعاشا إلى بعد نصف المائة الخامسة ، وكذا ذكر العلامة القلقشندي في كتابه صبح الأعشى وعاش إلى سنة (٨٢١) .

جاء في كتاب التراتيب الإدارية : (ولا دلالة لزعمهم انقراضهم -أي بني شيبة- في إخدام معاوية عبيداً لأن إخدامها غير ولاية ، فتحها ، كما هو معلوم ،

وكثيراً ما يقع، في كلام المؤرخين كالأزرقي والفاكهي، ذكر الحجبة، ثم الخدمة، بما يدل على التغاير بينهما) . انتهى ملخصاً.

شجرة النسب

في آخر القرن الثالث عشر من الهجرة، توفي زين العابدين بن محمد بن عبدالمعطي، وخلفه ابنه محمد وهو طفل صغير، ولم يوجد من آل شيبة ولد ذكر غيره، وجميع آل شيبة الحاليين، هم من نسله، قال الشيخ حسين بن عبدا لله باسلامة، رحمه ا لله تعالى، في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" ما نصه: هذه سلسلة آل الشيبي أسردها كما وجدتها في دار المفتاح، الذي جعل في هذا العصر، مسكناً لرئيس السدنة على لوحة مكتوبة بخط بديع، بماء الذهب. ابتدأت هذه السلسلة من صاحب الفضيلة مولانا المرحوم الشيخ عبدالقادر بن على بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن عبدالمعطي الذي تولى السدانة سنة ١١٠٤هـ، بن عبد الواحد الذي تولى السدانة سنة ١٠٨٠هـ، بن محمد جمال الدين بن القاسم بن أبي السعود أبي بكر فخر الدين بن محمد جمال الدين بن عمر بن سراج الدين بن محمد بن علي بن غانم بن محمد بن مفرج بن محمد بن يحيى بن عبيدة بن حمزة بن بركات بن شيبة بن عبدا لله بن عبد بن شعيب بن جبير بن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة عبدا لله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي. هذه سلسلة النسب ومنها يعلم أن آل الشيبي يجتمعون مع رسول ا لله ﷺ في قصي بن كلاب. وقد تولى رئاسة السدنة، للكعبة المعظمة، كثير من آل شيبة ممن لم يذكر اسمه في سلسلة النسب المقدم ذكره: منهم غانم وعلي من أبناء غانم بن محمد بن مفرج. ومحمد بن علي، ينتمي نسبهما إلى يحيى بن عبيدة بن حمزة وأحمد الطيب من أولاد سراج الدين بن علي.

محمد بن زين العابدين

قال الشيخ حسين بن عبدا لله باسلامة، رحمه ا لله تعالى، في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" ما نصه: وأما محمد بن زين العابدين بن محمد بن عبدالمعطي الشيبي، الذي هو جد آل شيبة الحاليين المعاصرين لنا، فقد توفي والده زين العابدين في أواخر القرن الثاني عشر في الهجرة، وهو طفل، وتولى سدانة الكعبة،

بعد زين العابدين عبدالقادر الشيبي ابن عم محمد المشار إليه . وفي سنة ١٢١٠هـ توفي عبدالقادر عقيماً. وبذلك آلت السدانة إلى محمد بن زين العابدين وهو يومئذ حديث السن ولم يوجد من آل شيبة ولد ذكر غيره . وكان أمير مكة في ذلك العصر الشريف غالب بن مساعد ، فأخذ الشيخ محمد بن زين العابدين إلى داره وكفله ، واعتنى بتربيته كأولاده ، وأكرمه إلى أن كبر وتولى أمر السدانة ثلاثاً وأربعين سنة . وكان عالماً فاضلاً ، وله رسالة في مناسك الحج ، على مذهب الإمام الشافعي نظماً ، وتوفي سنة ١٢٥٣هـ ، وخلّف من الذكور ستة أولاد وهم عبدالقادر وسليمان وجعفر وأحمد وعبدالله وعلي .

فتولى بعد وفاته ، رئاسة السدنة أكبر أولاده الشيخ عبدالقادر بن محمد سنة ١٢٥٣هـ ، ومكثت بيده المشيخة ومفتاح الكعبة، سبع سنين ، وتوفي سنة ١٢٦٠هـ . فتولى بعده أخوه سليمان وتوفي سنة ١٢٦١هـ ، فتولى بعده أخوه جعفر ، وتوفي سنة ١٢٦٢هـ . فتولى بعده أخوه الشيخ أحمد ، وتوفي سنة ١٢٧٤هـ . ثم تولى بعده أخوه الشيخ عبدالله ، وتوفي سنة ١٢٩٦هـ . وقد توفي الشيخ علي بن محمد في حياة أخيه الشيخ عبدالله المشار إليه ، ولم يل السدانة . فهؤلاء الطبقة الأولى من أولاد الشيخ محمد بن زين العابدين .

الطبقة الثانية

أول من تولى رئاسة السدنة ، منهم الشيخ عمر بن جعفر ، وتوفي سنة ١٣٠٤هـ . ثم تولى بعده رئاسة السدنة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله ، ومكث رئيساً على سدنة الكعبة إلى سنة ١٣١١هـ . فأخذ منه المفتاح ، وعزل من رئاسة السدنة في تلك السنة . وسبب ذلك أنه وقع بين أمير مكة الشريف عون الرفيق بن محمد بن عبدالمعين بن عون وبين والي ولاية الحجاز ، في ذلك العصر عثمان نوري باشا ، نزاع ومشاحنات في السلطة ، ودخل في ذلك النزاع الشيخ عبدالرحمن الشيبي المشار إليه ، وانضم إلى حزب والي الحجاز عثمان نوري باشا ، كما انضم إلى حزبه مفاتي مكة ، ورئيس السادة العلوية ، ونائب الحرم ، وبعض من لهم شخصية بارزة من الأشراف ، ورفع كل من الشريف عون الرفيق وعثمان نوري باشا الأمر إلى السلطان عبدالحميد خان العثماني بن عبدالمجيد خان ، صاحب الولاية والسلطنة على الممالك العثمانية والحجاز ، في ذلك العصر ، واستعان عثمان

نوري باشا على الشريف عون الرفيق بمضبطة من الذوات المتقدمة أسماؤهم ضد الشريف عون الرفيق. فانجلت المعركة بفوز الشريف عون الرفيق على أخصامه، وكان النصر حليفه في ذلك، فصدر أمر السلطان بعزل والي الحجاز عثمان نوري باشا، وبعزل الذوات الموقعين في تلك المضبطة، ونفيهم جميعاً من الحجاز. ونفذ الأمر وعزل الجميع من وظائفهم، ونفوا من الحجاز، غير أن الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله الشيبي، فقد لطف به ولم ينف من الحجاز، وإنما بارح مكة المكرمة، وسكن الهدا، وهي قرية صغيرة واقعة بسفح جبل كرا، الذي هو بشرق مكة، وواقع بين مكة والطائف، وهو من سلسلة جبال السروات، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٢٢٠٠ متراً، ويبعد عن مكة نحو ٣٥ ميلاً، وبينه وبين الطائف نحو ٨ أميال. ومكث الشيخ عبدالرحمن بالهدا إلى أن توفي سنة ١٣٢٠هـ، ودفن فيها. وكان شهماً كريماً محباً للخير، وهو من السدنة، الذين أدركت رئاستهم وعرفتهم شخصياً. ثم تولى سدانة الكعبة ورئاسة السدنة، بعده الشيخ محمد صالح بن أحمد بن محمد الشيبي سنة ١٣١١هـ بعد عزل ابن عمه الشيخ عبدالرحمن الشيبي المتقدم ذكره، وكان شهماً هماماً، فقد تولى رئاسة مجلس الشيوخ، في عهد الملك الشريف الحسين بن علي سنة ١٣٣٥هـ، وكان ذا رأي ثاقب، وفكر واسع، وقد مكث رئيساً للسدنة ٢٤ سنة، إلى أن توفي بمكة يوم النحر، عشر ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ، وكانت ولادته في أول عام ١٢٧١هـ، وقد بلغ من العمر ٦٤ سنة.

ثم تولى بعده الشيخ عبدالقادر بن علي بن محمد الشيبي، رئاسة السدنة سنة ١٣٣٥، وكان شهماً هماماً وديعاً سموحاً، له إقبال على الناس، محباً للخير، وجيهاً. وقد باشر عدة وظائف منها رئاسة مجلس الشيوخ، في عهد الملك الشريف الحسين بن علي، وترأس عدة مجالس في حكومة جلالة ملك المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، وكانت له عند جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود منزلة عالية، ومكث رئيساً للسدنة ١٦ سنة، إلى أن توفي في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥١هـ. وكانت ولادته في منتصف سنة ١٢٧١هـ. وقد بلغ من العمر ثمانين سنة، وبوفاته انتهت الطبقة الثانية الذين هم أحفاد الشيخ محمد بن زين العابدين الشيبي.

وأما الطبقة الثالثة من السدنة ، الذين هم أبناء الأحفاد ، فهم رئيس السدنة الحالي الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين ، ولد سنة ١٢٩٣هـ . وتولى رئاسة السدنة في اليوم الحادي عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥١هـ بعد وفاة المرحوم صاحب الفضيلة مولانا الشيخ عبدالقادر بن علي المتقدم ذكره ، وهو لا يزال في رئاسة السدنة إلى اليوم . وقد أدركت كثيراً من آل الشيبي ممن لم يتولوا رئاسة السدنة فمنهم من أدركته المنية ومنهم من هو على قيد الحياة . أما من أدركتهم وعرفتهم بالذات ممن لم تصل إليهم رئاسة السدنة ، وقد أدركتهم الوفاة منهم : الشيخ زين العابدين بن عبدالله بن محمد الشيبي ، توفي في بلاد المغرب سنة ١٣٣٠هـ . ثم الشيخ محمد سعيد بن عبدالله بن محمد الشيبي ، توفي سنة ١٢٤٠هـ . ثم الشيخ عبدالغني بن عبدالله بن محمد الشيبي ، توفي سنة ١٣٤٢هـ ثم الشيخ جعفر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد الشيبي ، توفي بالطائف سنة ١٣٤٣هـ . ثم الشيخ حسن بن عبدالقادر بن علي الشيبي ، توفي سنة ١٣٤٣هـ بالطائف .

وأما الموجودون من آل الشيبي في العصر الحاضر الذين هم سدنة الكعبة المعظمة فهم رئيس السدنة الحالي الشيخ محمد المتقدم ذكره ، ومن الطبقة الثالثة الشيخ عبدالله بن عبدالقادر بن علي بن محمد بن زين العابدين الشيبي ، ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٩٧هـ . وهو السادن الثاني بعد رئيس السدنة الحالي ، وقد تقلّد عدة وظائف في حكومة جلالة الملك عبدالعزيز المعظم ، وهو الآن حين تحرير هذا المؤلّف ، نائب مجلس الشورى الثاني ، ورئيس هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين ، ورئيس هيئة الإسعاف الطبي ، وهو صاحب جاه وإقبال ومكارم أخلاق وهمة في الأعمال وسخاء ، وله حرمة ومكانة وله من الأولاد الذكور... الخ .

انتهى كلام الشيخ عبدالله باسلامة نقلناه بتصرف . ثم قال الشيخ باسلامة : فهؤلاء السدنة آل شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحجبي ، المثبوت نسبهم ، المعروفون عند أهل مكة خاصة وعند المسلمين عامة ، بأنهم سدنة الكعبة المعظمة ، جاهليةً وإسلاماً ، في عهد عبد الدار بن قصي إلى عهد شيبة بن عثمان ، إلى هذا العصر ، الذي نحرر فيه هذا المؤلف ، وهم محل تجلّة واحترام وإكرام وسؤدد وفخار ، جاهليةً وإسلاماً ، كما دلت على ذلك الأخبار الواردة في حقهم ، في

أصح المصادر ، وهم لا يزالون أصحاب وجاهة في هذا العصر ، عند عموم الملوك والسلاطين والأمراء وبالأخص عند كل ممن تولى خدمة الحرمين الشريفين ، أو إمارة مكة المكرمة ، وعند عموم المسلمين ، حيث بيتهم من أشرف بيوت قريش ووظيفتهم من أعظم الوظائف الإسلامية . ولا يزال وجودهم من معجزات رسول الله ﷺ التي أخبر أمته بها بقوله : خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . فبقاء آل شيبة ، وخلود سدانة الكعبة بأيديهم ، وعدم نزعها منهم أو إسنادها إلى غيرهم ، طيلة هذه القرون ، مع تبدل الولاة والحكام على هذه البلاد ، من عهد رسول الله والخلفاء الراشدين المهديين وخلفاء بني أمية وعبدالله بن الزبير وخلفاء بني العباس والفاطميين وملوك الجراكسة وسلاطين عثمان وأمراء مكة من الأشراف ، من عهد الشريف قتادة وأبي نمي إلى الملك الشريف الحسين بن علي ، وحكم الملك سعود الأول إلى جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ، في العصر الحاضر ، بل وفي حكم المتغلبين من قرامطة ويمنيين وغيرهم . فلا شك ولا شبهة ، أنها معجزة من أعظم المعجزات الخالدة للرسول ، المحسوسة الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار . انتهى كلام الشيخ باسلامة .

ونحن نستعين بالله سبحانه وتعالى لنستكمل البقية الآن فنقول: إن الشيخ عبدالله بن عبدالقادر بن علي ، قد أصبح نائب مجلس الشورى ، حيث أن رئيس الشرف لمجلس الشورى حينذاك هو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل آل سعود ، نائب جلالة الملك المعظم عبدالعزيز آل سعود ، رحمه الله تعالى . كما منح لقب الوزير المفوض ، ثم توفي الشيخ عبدالله في منتصف رمضان سنة ١٣٧١هـ رحمه الله تعالى . أما الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين الشيبي ، فقد توفي في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ . وقد لبث في رئاسة السدنة حول ثلاثين عاماً ، وكان رحمه الله ، عذب الحديث ، حازماً في الأمور ، ولم يخلف أولاداً ، وبوفاته انتهت الطبقة الثالثة . فتولى من الطبقة الرابعة بعده الشيخ أمين بن عبدالله الشيبي سنة ١٣٨٢هـ وهو السادن الأول، وناظر وقف آل الشيبي ، وعضو مجلس الشورى حالياً . والشيخ أمين المذكور له اطلاع واسع في الثقافة العامة ، صريح محب لمحبيه ، أمتعه الله بالصحة والإقبال ولد سنة ١٣٢٥هـ وله من الأولاد الذكور الدكتور فيصل أمين الشيبي وعدنان أمين الشيبي والسدنة الموجودون حالياً كلهم من الطبقة الرابعة نذكرهم حسب ترتيب السن وهم :

الشيخ أمين المتقدم ذكره والشيخ عمر بن جعفر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد الشيبي ، وهو السادن الثاني للكعبة المشرفة ، وأولاده محمد سعيد وعبدالمحسن وخالد وقد ولد الشيخ عمر سنة ١٣٣١هـ . ثم الشيخ طه الشيبي ، ولد سنة ١٣٣٣هـ وله من الأولاد عبدالقادر وحسن وحسين وعبدالملك ومحمد وعادل وممدوح . ثم الشيخ عاصم الشيبي ، ولد سنة ١٣٣٧هـ وتحصّل على الشهادة العالمية ، ثم تحصّل على إجازة التدريس في القضاء العالي من الأزهر وهو الآن من أساتذة الجيل، يساهم بنشاطه في حقل التدريس، وله من الأولاد سعود ومحمد علي . ثم الشيخ زين العابدين ولد سنة ١٣٣٩هـ . وفي السادس من شهر ذي الحجة عام ١٣٨٣هـ أراد القدوم من المدينة إلى مكة للمشاركة في غسل الكعبة المشرفة ، مع بقية السدنة في اليوم السابع من ذي الحجة ، كما هي العادة سنوياً ، ولأداء مناسك الحج ، ولكنه توفي في الطريق إلى مكة ، وهو بملابس الإحرام ، قاصداً الحج ، وذلك عقب حادث أليم وقع على سيارته في الطريق ، فكان لوفاته حزن عميق لدى محبيه ومعارفه ، لما اشتهر به من حلو الحديث ، وحب الخير للجميع ، وله من الأولاد محمد صالح وعبدالوهاب وعبداللطيف وعبدالله ومصطفى وزيني .

انظر: الصور أرقام ١١٦ ، الشيخ عبدالقادر بن علي الشيبي، ورقم ١١٧ الشيخ عبدالله الشيبي سادن الحرم، ورقم ١١٨ أمين بن عبد الله الشيبي رئيس السدنة، ورقم ١١٩ الشيخ عمر بن جعفر الشيبي السادن الثاني للحرم، ورقم ١٢٠ ثلاثة من آل الشيبي، ورقم ١٢١ عاصم بن عبد الله الشيبي بين ولديه، ورقم ١٢٢ سراج بن عبدالله الشيبي

ثم الشيخ طلحة بن حسن الشيبي ولد سنة ١٣٤٠هـ . وتحصل على الشهادة التوجيهية عام ١٣٦٣هـ من مدرسة تحضير البعثات بمكة (العزيزية الثانوية) ثم عكف على الدراسة الخاصة في المسجد الحرام ، وهو الآن الوكيل الأول للمدرسة العزيزية الثانوية بمكة ، بعد أن قام بالتدريس فيها سنوات طويلة . فقد خدم التعليم حول عشرين عاماً، بذل فيها الكثير من الجهد والنصح ، وله من الأولاد عثمان وعبدالرحمن وسليمان وعبدالله وإبراهيم وزهير وناصر وهو صديق عزيز عليّ ساهم في إعداد هذه البحوث ، مساهمة تذكر فتشكر ، جزاه الله خيراً.

ثم الشيخ سراج الشيبي ولد سنة ١٣٤٤هـ ، وهو من موظفي إدارة الحرم الشريف بمكة ، وله من الأولاد عمر وفهد.

ثم الشيخ عبد العزيز الشيبي ولد سنة ١٣٤٨هـ، وهو عضو في إدارة الحرم الشريف بمكة وهو المشرف على وقف آل الشيبي وله من الأولاد طلال وهشام ومحمد وأحمد. وبهذا انتهى ذكر الطبقة الرابعة وأبنائهم.

ويلاحظ أن الجميع هم إخوة، ما عدا الشيخ عمر والشيخ طلحة، فهم أبناء عمومة لهم.

وعدد أفراد العائلة في عامنا الحالي عام ١٣٨٤هـ اثنان وثمانون شخصاً، نصفهم من الذكور تقريباً حسب ما مر.

عاداتهم

وقد جرت العادة أن يوضع المفتاح لدى أكبرهم سناً وهو السادن الأول. وعند فتح الكعبة يشعر السادن الأول جميع السدنة (الكبار منهم طبعاً) بوقت كاف ليتمكنوا من الحضور جميعاً، إن أمكن ذلك، أو بعضهم. وليس للكعبة الآن مواعيد معينة تفتح فيها، إلا المواعيد التي تغسل فيها من الداخل، وهي تغسل مرتين في العام: المرة الأولى في صباح ٢٧ شعبان والثانية صباح ٧ الحجة من كل عام، فإذا كان يوم غسل الكعبة يحضر جميع السدنة، ويفتح الباب، وينتظرون وصول ولاة الأمر، وكثيراً ما يجري هذا الحفل، تحت رئاسة سمو الأمير فيصل المعظم، وعند تشريفه يصلي داخل الكعبة ركعتين، هو ومن يكون بمعيته من الأمراء أو الضيوف، ثم يصب ماء زمزم ممزوجاً بماء الورد، ثم تمسح الجدار بعطر الورد أو بعطر العود، وتبخر بالعود وبذلك تنتهي مراسم الغسيل. وغسل الكعبة قديم من عام الفتح، حيث طهر النبي ﷺ الكعبة من الأصنام وغسلها بيده الشريفة. أما مواعيد فتح الكعبة في الأزمنة الماضية فقد تكلم عنها البحاثة الرحالة ابن جبير.

ترجمة خالد بن عبد الله القَسْري

المتقدم ذكره

تولى خالد بن عبدا لله القسري ولاية مكة المشرفة مرتين، في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم في خلافة ابنه سليمان، وكان أيضاً قبل ذلك والياً على الشام، وهو

أول من استصبح في المسجد الحرام حول الكعبة ، كما هو أول من فرّق بين الرجال والنساء في الطواف ، أجلس عند كل ركن من أركان الكعبة حرساً معهم السياط يفرّقون بين الجنسين . وسبب ذلك أنه لما بلغه قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من مَوْفَد وحبذا الكعبة من مَشْهَد
وحبذا الآتي يزاحِمْننا عند استلام الحجر الأسود

قال خالد: أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا وأجلس عند كل ركن حرساً بأيديهم السياط يمنعون النساء أن تختلط بالرجال.

ومثل هذا ما حكاه الزمخشري في خالد : قال لما بلغ خالداً ما قاله رجل من موالي الأنصار:

ليتني في المؤذنين نهارى إنهم يبصرون ما في السطوح
فيشيرون أو يشير إليهم بالهوى كل ذات دلّ مليح

أمر بهدم المنائر ، وفي هذا هجاه الفرزدق بثلاثة أبيات.

وخالد القسري هو الذي أدار الصفوف حول الكعبة ، فقد كان الناس يصلون التراويح في رمضان ، في أعلى المسجد الحرام، تركز حربة خلف مقام إبراهيم بربوة، فيصلي الإمام خلف الحربة ، والناس وراءه ، فمن أراد صلى مع الإمام ، ومن أراد طاف وركع خلف المقام.

فلما ولّي خالد القسري مكة، من قبل عبد الملك بن مروان ، وحضر شهر رمضان ، أمر خالد الأئمة أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام وأدار الصفوف حول الكعبة ، لأن أعلى المسجد ضاق بالناس ، فقيل له : تمنع بذلك الناس من الطواف . قال: فإنما آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين بطواف سبعاً، وقد رتبهم في صلاة التراويح والطواف بالبيت، بحيث تنقضي الصلاة مع طلوع الفجر، وقد ذكر الإمام الأزرقي تفصيل ذلك.

ولقد أجرى خالد القسري من عين ثقبة بجبل ثبير ، في طريق منى ماءً عذباً، تجري إلى المسجد الحرام، وتسكب في فسقية من رخام بين زمزم والمقام، وأراد بذلك أن يصرف الناس عن شرب ماء زمزم فلم يبلغ بغيته، لأن أهل مكة أعرضوا عن ماء هذه العين ورغبوا في زمزم ، فلما رأى خالد ذلك صعد المنبر يخطب فيهم

ويؤنبهم على ذلك فلم يلتفتوا لكلامه . انتهى باختصار وتصرف من تاريخ الغازي وغيره.

ولخالد بعض أعمال مستنكرة: منها ما نلخصه من تاريخ الغازي: وهو أنه لما بعث خالد القسري سعيد بن جبير بعد أن شدّه وثاقاً إلى الحجاج ، قال له رجل من أهل الشام : إن الحجاج قد أنذر به وأشعر به مَن قَبلك فما عرض له ، فلو جعلته بينك وبين الله لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله تعالى. قال خالد، وظهره إلى الكعبة قد استند إليها: والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرضاته. وسعيد بن جبير هو أحد الأعلام السابقين أخذ العلم عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهم، قال له ابن عباس : حَدِّث ، فقال : أحدث وأنت ههنا؟ فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدّث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك وإن أخطأت علمتك ، سعيد بن جبير وقصته مع الحجاج مذكورة في تاريخ ابن خلكان وغيره.

ومنها : أنه أحدث حدثاً منكراً ، فقام إليه طلحة بن عبدالله بن شيبة من بني عبد الدار بن قصي. وقيل بل هو عبدالله بن شيبة الأعجم ، فأمره بالمعروف ونهاه عما فعل ، فغضب عليه خالد غضباً شديداً ، وأخاف الرجل ، فخرج إلى سليمان بن عبد الملك يشكوه ويتظلم منه ، فكتب سليمان إلى خالد أن لا يتعرض له بأمر يكرهه، فلما أخذ خالد الكتاب وضعه ، وبعد ذلك طلب من عبدالله بن شيبة أن يفتح له الكعبة فامتنع عليه، فضربه خالد مائة سوط على ظهره، فخرج عبدالله بن شيبة وأتى سليمان فكشف عن ظهره بين يديه وقال له: هذا الذي أوصيته بي . فكتب سليمان إلى خاله محمد بن هشام أن يقتصّ لعبدالله من خالد القسري، فأخرجه محمد بن هشام إلى باب المسجد وأمر بضربه مائة سوط بعد تجريده وحضر الناس والقرشيون.

ومنها: إيصاله الماء من عين ثقبة بجبل ثبير إلى المسجد الحرام، بين زمزم والمقام، وأراد أن يحمل الناس للشرب منه وترك ماء زمزم ، فلم يمتثل الناس أمره وخطب في أهل مكة وأنّبهم في كلامه على ذلك فلم يلتفتوا إلى كلامه وكان يذم ماء زمزم ويسميها أم جعلان ولا يشرب منها. وتفصيل هذه الحادثة في تاريخ الغازي.

ومنها: أنه كان يجهر ويأمر بسبّ علي بن أبي طالب فوق المنابر، وأثنى على الحجاج ثم أمر بلعنه، وأنه في سبيل طاعة بني أمية كان يقول: لو كنت أعلم أن هذه الوحوش لو نطقت و لم تقرّ بالطاعة لأخرجتها من الحرم. انتهى ملخصاً من تاريخ الغازي.

هذه الأمور مما يجرح في خالد القسري ويؤاخذ بها. لكن صديقنا الأستاذ السباعي في كتابه "تاريخ مكة" يستبعد وقوع مثل هذه الأعمال من خالد القسري ويقول ربما أشاعها بعضهم انتقاماً منه أو من بني أمية لأن هذه الجرأة لا تتفق مع الدين.

ولقد كدنا أن لا نصدق كل ذلك في خالد القسري، لكن رأينا في تاريخ ابن خلكان ما يؤيد ذلك ولا سبيل إلى تكذيبه، ونحن نلخص هنا ما ذكره ابن خلكان في ترجمته فقد جاء فيه: هو خالد بن عبدا لله بن يزيد البجلي ثم القَسْري، بفتح القاف وسكون السين المهملة وبعدها راء نسبة إلى قَسْر بن عَبْقَر، وهي بطن من بجيلة، كان أمير العراقين من قبل هشام بن عبد الملك الأموي، وولّي قبل ذلك سنة تسع وثمانين للهجرة، ولجده يزيد صحبة مع رسول ا لله ﷺ، وخالد معدود من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وكان جواداً كثير العطاء، وكانت أمه نصرانية، وذكر أبو الفرج الأصبهاني، أن خالداً كان من شِقّ الكاهن، وهو خالد بن عبدا لله بن أسد بن يزيد بن كرز، وذكر أن كرزاً كان دعياً وأنه كان من اليهود، فجنى جناية فهرب إلى بجيلة فانتسب فيهم، وكرز، بضم الكاف وسكون الراء وبعدها زاء.

قال ابن خلكان: كان شقّ المذكور ابن خالة سطيح الكاهن المبشّر بالنبي ﷺ، وكان شقّ وسطيح من أعاجيب الدنيا: فكان شقّ نصف إنسان ولذلك سمي بشق فكانت له يد واحدة ورِجْل واحدة، وأما سطيح فكان جسداً ملقى، لا جوارح له، وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، وكانت ولادة شقّ وسطيح في يوم واحد، وفتح عليهما في علم الكهانة ما هو مشهور عنهما وعاش كل واحد منهما ستمائة سنة .اهـ.

أما خبر وفاة خالد القسري: فقد ذكر الطبري في تاريخه ما ملخصه: أن هشاماً ولّى خالداً العراق سنة خمس ومائة، ثم عزله وولّى له يوسف بن عمر الثقفي وهو ابن عم الحجاج، وسبب عزل خالد، أن امرأة أتته فقالت: أصلح ا لله

الأمير إني امرأة مسلمة، وإن عاملك فلاناً المجوسي وثب عليَّ فأكرهني على الفجور وغصبني نفسي. فقال لها خالد: كيف وجدت قلفته ؟

فكتب بذلك حسان النبطي إلى هشام، فكتب هشام إلى يوسف بن عمر وكان باليمن بولاية العراق ومحاسبة خالد عمّاله، وأمره أن يستخلف ابنه الصَّلت على اليمن، فخرج يوسف، في نفر يسير، حتى قدم الكوفة سحراً، ثم أخذ خالداً وعمّاله وحاسبه وحبسه وعذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. قيل إنه وضع قدميه بين خشبتين وعصَرهما حتى انقصفتا، ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصفتا، ثم إلى وركيه، ثم إلى صلبه، فلما انقصف صلبه مات، وهو في ذلك لا ينطق ولا يتأوّه. وكان ذلك في المحرم سنة ست وعشرين، وقيل في ذي القعدة سنة خمس وعشرين ومائة، بالحيرة ودفن في ناحية منها ليلاً. والحيرة، بينها وبين الكوفة فرسخ، كانت منزلة آل النعمان بن المنذر ملوك العرب. انتهى كل ذلك من تاريخ ابن خلكان.

كيس مفتاح الكعبة والكراسي التي كانت في داخلها

لم نقف على من أحدث كيساً خاصاً لمفتاح الكعبة، ولا متى حدث. والظاهر أنه حدث ذلك، عندما اختصت مصر بصنع كسوة الكعبة المشرفة، فعمل كيس المفتاح تبعاً لكسوة الكعبة، وكسوة مقام إبراهيم، وستارة باب الكعبة، وستارة باب التوبة، أي الباب الموصل لسطح الكعبة من داخلها، والله تعالى أعلم بغيبه، وزخرفة كيس المفتاح وتحسين منظره تابعان لكسوة الكعبة وكل ذلك يكون في مصر.

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن الرحلة الحجازية: وبجانب باب الكعبة، على يسار الداخل، طاولة من الخشب، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر، موضوع عليها كيس مفتاح الكعبة، وهو من الأطلس الأخضر المزركش بالقصب، يأتي إليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة.

وصفة هذا الكيس كما ذكره مؤلف مرآة الحرمين، رحمه الله تعالى، حيث يقول: هذا الكيس من الأطلس الساسي الأخضر، الذي مقاسه ذراع وثمن، وموضوع عليه مخيش فضة، ملبّس بالذهب البندقي الأصفر، الذي زنته (٤٥) خمس وأربعين مثقالاً، وكنتير شيشخانة أبيض، وترتر فضة أبيض مثقالين، وهو

مبطن بالأطلس الساسي الأخضر، ومركب عليه قيطـان بشرّابتين مصنوعتين من قصب ، ومخيش عقادي أصفر ، وكنتير ششخانة. وقد نقش في إحدى جهتيه ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وفوق ذلك وتحته: أمر بعمل هذا الكيس المبارك مولانا السلطان محمد الخامس، وفي الجهة الأخرى في الوسط قوله تعالى: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وفوق ذلك وتحته جدد هذا أفندينا عباس حلمي باشا خديوي مصر سنة (١٣٢٧) سبع وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية. انتهى.

انظر: صورة رقم ١٢٣ ، كيس من الحرير المطرز من الوجهين لمفتاح باب الكعبة المعظمة

وما جاء فيما تقدم ، من أن كيس المفتاح، يوضع على طاولة من الخشب، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر، في جوف الكعبة، على يسار من دخلها، هذه الطاولة أو بعبارة أخرى هذا الكرسي، هو موضوع من قديم الزمان، داخل الكعبة، ربما كان موضوعاً فيها قبل الإسلام ، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الحج ، عن واصل، عن أبي وائل، قال: جلست مع شيبة على الكرسي في الكعبة، فقال: لقد جلس هذا المجلس عمر ، رضي الله عنه ، فقال: لقد هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته. قلت : إن صاحبيك لم يفعلا. قال: هما المرآن أقتدي بهما . اهـ.

وشيبة المذكور هنا هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي ينتهي إليه نسب سدنة الكعبة في عصرنا وإليه ينسبون فيقال لهم الشيبيون ، وقد أسلم شيبة عام الفتح على أصح الروايات وقد ذكرنا ترجمته.

والظاهر، والله تعالى أعلم ، أن الكرسي الذي كان في الكعبة قديماً كان لجلوس كبير سدنة الكعبة عليه ، عند فتحها ، ولا بأس من ذلك ، ما دام المرء جالساً بالأدب اللائق، ببيت الله الحرام، وبالأخص من كان من سدنته أو خدمه.

ولقد ذكر الأزرقي في تاريخه، عند الكلام على ذرع الكعبة من داخلها، أنه كان في الكعبة ثلاثة كراسي ، وذكر وصفها ، ولكنا لم نفهم تماماً معنى كلامه ، ولا بأس أن نسوق عبارته بنصها للإحاطة . قال رحمه الله تعالى : وفي الكعبة ثلاثة كراسي من ساج "وهو ضرب من الشجر" طول كل كرسي في السماء ذراع ونصف ، وعرض كل كرسي منها ذراع وثماني أصابع في مثلها ، والكراسي

ملبسة ذهباً وفوق الذهب ديباج وتحت الكراسي رخام أحمر بقدر سعة الكرسي ، وطول الرخام في السماء سبع أصابع ، وعلى الكراسي أساطين متفرقة ملبسة: الاسطوانة الأولى ، التي على باب الكعبة ، ثلثها ملبّس صفايح ذهب وفضة ، وبقيتها مموّهة ، وذرع غلظها ثلاثة أذرع ، والاسطوانة الثانية ، وهي الوسطى من الأساطين ، ملبّسة صفايح ذهب وفضة ، وذرع غلظها ثلاثة أذرع ، والاسطوانة الثالثة ، وهي التي تلي الحجر ، ثلثها ملبّس صفايح ذهب وبقيتها مموهة، وذرع غلظها ذراعان ونصف ، وفوق الأساطين كراسي ساج مربعة منقوشة بالذهب والزخرف ، وعلى الكراسي ثلاث جوايز ساج ، أطرافها على الجدر الذي فيه باب الكعبة ، وأطرافها الأخرى على الجدر الذي يستقبل باب الكعبة وهو دبرها ، والجوايز منقوشة بالذهب والزخرف ، وسقف الكعبة منقوش بالذهب والزخرف ، ويدور تحت السقف إفريز منقوش بالذهب والزخرف ، وتحت الإفريز طوق من فسيفساء . انتهى كلام الأزرقي .

فنحن لم نفهم معنى كلام الإمام الأزرقي فهماً تاماً ، فهل الكراسي الثلاثة التي ذكرها الأزرقي هي مثل الكراسي المعروفة في عصرنا ، بمعنى أن الكرسي هو ما يقعد عليه ، بقطع النظر عن شكله وكيفية صنعه وتعدد أنواعه ، أم له معنى آخر في عرف زمانه ، ثم ما معنى وضع الكراسي على رخام أحمر ، وأرض الكعبة كانت مفروشة بالرخام في زمانه ، وما معنى وضع الأساطين على الكراسي ووضع كراسي أخر فوق الأساطين أيضاً ، وما معنى وضع الجوايز على الكراسي أطرافها على الجدارين المتقابلين الشرقي والغربي ، فهل معنى الجوايز وضعه أخشاب طوال عرضاً على الكراسي ليعلق عليها بعض الأشياء ، أم المقصود منها شيء آخر ؟ والنتيجة التي فهمناها أن هذه الكراسي لم تكن للجلوس والقعود . والله تعالى أعلم بالغيب .

أما في عصرنا الآن : فإنه لا يوجد كرسي في الكعبة يصلح للجلوس عليه ، ولكنه يوجد فيها طاولة كالكرسي وهي من الخشب العودي ، بنيّ اللون ، مسدس الأضلاع ، طول كل ضلع نحو خمسين سنتيمتراً وارتفاعه من الأرض نحو متر واحد ، وعلى أضلاعه كتابات محفورة على نفس الخشب ، والظاهر أنه من عهد السلطان عبدالحميد الأول . وهذه الطاولة معمولة لوضع كيس مفتاح الكعبة عليها ، وكذلك بعض الأشياء الصغيرة كمبخرة وعطر ونحوهما .

ثم بعد أيام من كتابة هذا نظرنا إلى الكرسي الموجود الآن في داخل الكعبة المشرفة لنتحقق عنه أكثر . وإليك وصفه بدقة تامة :

وصف الكرسي الذي في الكعبة في وقتنا الحاضر

لقد ذكرنا أنه يوجد الآن في الكعبة كرسي من الخشب، وهنا نذكر وصف هذا الكرسي فنقول: الكرسي الموجود في عصرنا الحاضر في داخل الكعبة المشرفة، عمل سنة (١٢٧٥) هجرية ، وهو سداسي الشكل متساوي الأضلاع يشبه كراسي الفوانيس الكبيرة، يضع فيه سدنة الكعبة بعض الأشياء الخفيفة كقفل بابها ومفتاحه وكيس المفتاح وزجاجة العطر ونحو ذلك ، وطول كل ضلع من أضلاعه الستة نصف متر ، وارتفاعه ثمانون سنتيمتراً، وهو مسدود من جميع جوانبه ما عدا جانب واحد الذي فيه الباب وهو مصراعان "درفتان" وقد كتب بالحفر على نفس خشب الكرسي في كل جانب من جوانبه الستة ما يأتي:

١) جدد هذا الصندوق في عهد سلطان المسلمين وخليفة.

٢) رسول رب العالمين مولانا السلطان الغازي عبد.

٣) المجيد بن المرحوم السلطان محمود خان اللهم انصره.

٤) نصراً تعز به الدين وكان المباشر يومئذ الحاج.

٥) رضا فريق باشا المأمور بإيصال ميزاب الكعبة المعظمة غفر الله له.

٦) وللمسلمين في سنة خمس وسبعين ومائتين وألف هجرية.

هذا ما كتب على جوانب الكرسي، ويظهر من السطر الأول من جملة "جدّد هذا الصندوق" أنه كان في داخل الكعبة كرسي قبل هذا الكرسي حصل فيه خراب من قدم العهد، فرفعوه وعملوا بدلاً عنه هذا الكرسي.

مواعيد فتح الكعبة في الجاهلية والإسلام

لما كانت الكعبة المعظمة بيت الله الحرام ، وأقرب موضع لإجابة الدعاء ، وإليهما يلجأ الخائف المذعور والمظلوم والمقهور، والفقير العسير، والمذنب الكسير، وعندها تسكب العبرات، وينتظر تفريج الكربات من رب البيت الكريم الحليم، والبر التواب الرحيم، ذي الجلال والإكرام، كان الدخول إليها آكد لراحة الضمير ، وأشد اطمئناناً للقلوب، ولو لم يطلب الدخول إلى الكعبة ، لم يجعل خليل

ا لله إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، لها باباً، حينما أقام بناءها ، ورفع قواعدها، فإذا كانت بيوت الملوك والوجهاء محلاً للأمن والإكرام ، كان بيت ا لله ، عز شأنه، أفضل مكان للإكرام والإحسان والعفو والغفران، وكان بلده الأمين أحسن موقع للأمن والأمان والراحة والاطمئنان، فاقصدوا بلد ا لله الأمين لأداء فريضة الحج والعمرة تكونوا من الفائزين ، وتشرفوا بدخول بيته الحرام واسكبوا فيه عبرات التوبة والندم، واطلبوا من فضله العميم وكرمه العظيم، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً، وتكونوا من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

فالدخول إلى بيت ا لله ، بالأدب والسكينة ، مطلوب مرغوب ، وقد جرت العادة بذلك حتى أيام الجاهلية. قال الإمام الأزرقي ، في تاريخه: أخبرني محمد بن يحيى، عن الواقدي، عن عبدا لله بن يزيد ، عن سعيد ابن عمرو الهذلي، عن أبيه ، قال: رأيت قريشاً يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، وكان حجابه يجلسون عند بابه، فيرتقي الرجل، إذا كانوا لا يريدون دخوله، فيدفع ويطرح، وربما عطب ، وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة، أخبرني محمد بن يحيى ، عن الواقدي ، عن أشياخه، قالوا: لما فرغت قريش من بناء الكعبة، كان أول من خلع الخف والنعل، فلم يدخل بهما ، الوليد بن المغيرة، إعظاماً لها، فجرى ذلك سنّة. انتهى من الأزرقي.

وننقل هنا تفصيل مواعيد فتح الكعبة المشرفة من كتاب "المحمل والحج" فقد جاء فيه ما نصه:

كانت الكعبة في الجاهلية تفتح يوم الاثنين ، ويوم الجمعة، وقبل يوم الخميس عوضاً عن الجمعة وأما في الإسلام فكانت تفتح يوم الجمعة، وترك يوم الاثنين، ثم أعيد فتحها في يوم الاثنين.

وقال ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٩هـ أنها تفتح يوم الاثنين ، ويوم الجمعة إلا في رجب فتفتح في كل يوم. اهـ.

وقد تفتح في أي وقت لمن يريد زيارتها من الحجاج، نظير أتاوة يتقاضاها أمين المفتاح هناك، ويكون ذلك ميسوراً في اليوم العاشر للرجال ، وفي الحادي عشر منه للنساء.

ومواعيد فتحها كالآتي :

في يوم ١٠ المحرم للرجال، وفي يوم ١١ منه للنساء.

في ليلة ١٢ ربيع الأول للدعاء لجلالة الملك ابن السعود ، ولا يدخلها الزوار.

في يوم ١٢ ربيع الأول للرجال ، وفي ليلة ١٣ منه للنساء.

في يوم ٢٠ ربيع الأول لغسلها.

في أول جمعة من رجب للرجال، وفي اليوم التالي للنساء.

في ليلة ٢٧ رجب للدعاء لجلالة الملك ابن السعود.

في يوم ٢٧ رجب للرجال، وفي المساء للنساء.

في ليلة نصف شعبان للدعاء.

في يوم ١٥ شعبان للرجال، وفي المساء للنساء.

في يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال، وفي اليوم التالي للنساء.

في ليلة ١٧ رمضان للدعاء لجلالة الملك.

في آخر جمعة من رمضان للدعاء أيضاً.

في نصف ذي القعدة للرجال، وفي اليوم التالي للنساء.

في ٢٠ ذي القعدة لغسلها.

وتفتح عل سبيل الخصوصية لبعض الأعيان، وتفتح لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع ريالاً لمن يتولى فتح الباب، وإذا كان الزائر غنياً يدفع بضعة جنيهات، وبعض الناس ينتهز فرصة غسل الكعبة ويدخل مع الغاسلين.

في ٢٨ ذي القعدة تؤزر الكعبة بإزار أبيض في أسفلها، وهذا اليوم الأخير ليس بيوم دخول عام، وإنما يدخلها القيّم وأمير الحج المصري وأتباعهما المعينون في ذلك ، لتعليق الكسوة الجديدة. ولا ينصب سلّم للدخول وإنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء ، وعلى باب أحد خدم الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه، فإن منعوا من جانب ، دخلوا من جانب آخر، وربما يتعامى عن البعض، ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب، من ضرب أو شتم، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفواً . انتهى كل ذلك من كتاب "المحمل والحج".

ولقد ذكر الأستاذ السباعي حفظه الله تعالى في كتابه "تاريخ مكة" أن الملك المسعود، صاحب مصر، الملك الكامل الأيوبي وكان في اليمن اتصل به الشريف راجح بن قتادة، واستثاره ضد أخيه الحسن وزين له أن يحتل مكة، فذهب المسعود إليها واحتلها في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة (٦١٩) تسع عشرة وستمائة، أو في التي بعدها، وظل فيها إلى ما بعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن بعد أن أناب أحد قواده. قال السباعي: وسهل المسعود على الحجاج أمر دخول الكعبة، فأمر بجعل بابها مفتوحاً ليلاً ونهاراً، مدة مقام الحج فيها، وأطلق لسدنة الكعبة من بني شيبة مالاً لقاء ما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا، وتحاشياً من زحام الناس لقصر المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب، وعظم ما يناله الناس من إرهاق وضرب وموت. انتهى منه.

ونظن والله تعالى أعلم أن هذه هي أول مرة تفتح الكعبة ليلاً ونهاراً فلم نسمع بحصول ذلك لا من قبل ولا من بعد.

نقول: لقد سألنا صاحب الفضيلة صاحب مفتاح بيت الله الحرام عن مواعيد فتحه في أيامنا، فأجابنا بأنه ليس هناك تحديد لفتح الكعبة في أيام أو مواعيد مخصوصة إلا بطلب من صاحب الجلالة، أو من أرباب المصالح من شخصيات الحجاج أو تفتح لسبب قوي من الأسباب الداعية لذلك، والفتح يجري عادة من رئيس بني شيبة صاحب مفتاح بيت الله الحرام. أما الفتحات وتخصيصها للرجال أو النساء، فقد جرت العادة من السابق أن يكون يوماً للرجال ويوماً للنساء، وذلك في الفتحات العامة التي تتلو الفتحات الخاصة عادة.

هذا نص جواب سادن بيت الله الحرام، مع العلم بأن مواعيد فتح الكعبة المشرفة لم يرد فيها أمر شرعي، وإنما هي عادة اصطلح عليها الشيبيون.

وصف فتح الكعبة ودخول الناس فيها

يقول ابن جبير الأندلسي، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية، يصف فتح الكعبة ودخول الناس فيها ما يأتي:

وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة، إلا في شهر رجب فإنه يفتح في كل يوم. وفتحه أول بزوغ الشمس. يقبل سدنة البيت الشيبيون، فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً شبه المنبر الواسع، له تسعة أدراج مستطيلة، قد

وضعت له قوائم من الخشب متضامنة مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يجري الكرسي عليها، حتى يصل إلى البيت الكريم، فيقع الأعلى متصلاً بالعتبة المباركة من الباب، فيصعد زعيم الشيبيين إليه، وهو كهل جميل الهيئة والشارة، وبيده مفتاح القفل المبارك، ومعه من السدنة من يمسك في يده ستراً أسوداً، تفتح يديه به أمام الباب، خلال ما يفتحه الزعيم الشيبي المذكور، فإذا فتح القفل، قبّل العتبة، ثم دخل البيت وحده، وسد الباب خلفه، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضاً، ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم، يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة، وأيد مبسوطة إلى الله ضارعة. وإذا انفتح الباب كبّر الناس وعلا ضجيجهم، ونادوا بألسنة مستهلة: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ثم يدخلون بسلام آمنين.

ويقول ابن جبير، في مكان آخر، من رحلته ما يأتي: وفي هذه الأيام -أي بعد نزول الناس من منى في النفر الثاني وانتهاء أعمال الحج- يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي، فظهر من تزاحمهم وتطارحهم، على الباب الكريم، ووصول بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض، كأنهم في غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدي إلى تلف المهج، وكسر الأعضاء، وهم في خلال ذلك لا يبالون، ولا يتوقفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم، في فرط الطرب والارتياح كإلقاء الفراش بنفسه على المصباح، فعادة أحوال السرو اليمنيين، في دخولهم البيت المبارك، على الصفة المتقدمة الذكر، حال تؤدة ووقار، بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغنام، نفعهم الله بنياتهم، وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد، من دنا أجله، والله يغفر للجميع، وربما زاحمهم، في تلك الحال، بعض نسائهم، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخاً، في مضيق ذلك المعترل، الذي حمي بأنفاس الشوق وطيشه، والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته.

ويقول ابن جبير، في موضع آخر من رحلته، يصف قبائل السرو من اليمن في الكعبة، ما يأتي: وإذا فتح باب الكعبة، فهم الداخلون بسلام، فتراهم، في محاولة دخولهم، يتسلسلون كأنهم مرتبطون بعضهم ببعض، يتصل منهم على هذه الصفة، الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضهم

بعضاً، وربما انفصمت بواحد يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك، ثم ذكر صلاتهم العجيب. انتهى.

ويقول ابن جبير أيضاً عن دخول قبائل السرو من اليمن الكعبة ما يأتي:

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور، شهر ذي القعدة، فتح البيت العتيق، وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبي المعزول، هو أمثل طريقة منه، على ما يذكر، فازدحم السرو للدخول على العادة، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف، يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم، فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً، إلى أن يلجوا على أعظم شقة، ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم، فينحدر الفوج منهم على المصعد، وفوج آخر صاعد فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم إلى بعض، فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين، وتضاغطوا، إلى أن يميلوا، فيقع البعض على البعض، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلاً، فمنهم سليم وغير سليم، وأكثرهم إنما ينحدرون وثباً على الرؤوس والأعناق، ومن أعجب ما شاهدناه في يوم الاثنين المذكور، أن صعد بعض من الشيبيين، أثناء ذلك الزحام، يرومون الدخول إلى البيت الكريم، فلم يقدروا على التخلص، فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب، ثم إن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القينية، الممسكة للأستار، إلى أن علا الرؤوس والأعناق، فوطئها ودخل البيت، فلم يجد موطئاً لقدمه سواها، لشدة تزاحمهم وتراكمهم، وانضمام بعضهم إلى بعض. وهذا الجمع الذي وصل منهم، في هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام، و لله القدرة المعجزة لا إله سواه.

انظر: صورة رقم ١٢٤، دخول الناس في الكعبة المشرفة

أما كيفية دخول النساء الكعبة المشرفة، فلقد ذكر ابن جبير في رحلته ما يأتي:

وفي اليوم التاسع والعشرين من رجب، وهو يوم الخميس أفرز البيت الكريم للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام، كاحتفالهن للمشاهد الكريمة، و لم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم، فلما وصل الشيبيون لفتح البيت المطهر، على العادة، أسرعوا في الخروج منه، وأفرجوا للنساء عنه، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر، و لم يبق

حول البيت المبارك أحد من الرجال، وتبادر النساء إلى الصعود، حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن، عند هبوطهم من البيت الكريم، وتسلسل النساء بعضهن ببعض، وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة، وظهر من تزاحمهن من السرو اليمنيين، مدة مقامهم بمكة، وصعودهم يوم فتح البيت المقدس، وأشبهت الحال، وتمادين على ذلك صدراً من النهار، وانفسحن في الطواف والحجر، وتشفين من تقبيل الحجر، واستلام الأركان. وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر، نفعهن الله به، وجعله خالصاً لكريم وجهه، وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات، يَرَيْنَ البيت الكريم، ولا يلجنه، ويلحظن الحجر المبارك، ولا يستلمنه، فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير مستشعر، فليس لهن سوى الطواف على البعد. وهذا اليوم، الذي هو من عام إلى عام، فهن يرتقبنه أشرف الأعياد، ويكثرن له من التأهب والاستعداد، والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه. انتهى كل ما ذكر من رحلة ابن جبير.

الطواف وآدابه وشروطه

الأذكار المأثورة في الطواف وآدابها

ذكرنا في كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" عند الكلام على سنن الطواف، ما نصه: فمن سننه أن يأتي بالأذكار المأثورة فيه، فيقول عند استلام الحجر الأسود في أول طوافه وكذا في كل طوفة: بسم الله والله أكبر، اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ.

وأن يقول قبالة البيت "اللهم إن البيت بيتك والحرم حرمك والأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار".

وأن يقول بين اليمانيين أي الركن اليماني والحجر الأسود" اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واحفظني في كل غائبة يا مجير إنك على كل شيء قدير" وأن يقول في حالة الرمل في الأشواط الثلاثة الأول "اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنبا مغفوراً وسعياً مشكوراً، وتجارة لن

تبور ، يا عزيز يا غفور" وإن كان معتمراً قال : "اللهم اجعلها عمرة مبرورة وذنباً مغفوراً..." إلخ . ويقول في الأشواط الأربعة الباقية "رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة..." إلخ . وأن يقول عند الركن العراقي وهو المقابل لباب العمرة : "اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد" . ويقول إذا انتهى إلى الميزاب : "اللهم أظلني في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، واسقني بكأس محمد ﷺ شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبداً يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب" .

روى ابن ماجة ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ، قال: «من طاف بالبيت سبعاً ولم يتكلم إلا بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، محيت عنه عشر سيئات وكتبت له عشر حسنات ورفع له بها عشر درجات» الحديث. وأخرج أبو داود ، أن النبي ﷺ ، قال : "ما مررت بالركن اليماني إلا وعنده ملك ينادي ، يقول : آمين آمين ، فإذا مررتم به فقولوا : "اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". وعن عطاء قال: قيل يا رسول الله، نراك تكثر من استلام الركن اليماني، قال : "ما أتيت عليه قط إلا وجبريل قائم عنده يستغفر لمن يستلمه".

وعن مجاهد أنه قال: "ما من إنسان يضع يده على الركن اليماني ويدعو إلا استجيب له ، وإن بين الركن اليماني والركن الأسود سبعين ألف ملك لا يفارقونه هم هنالك منذ خلق الله البيت".

جاء في حاشية البجيرمي ما نصه: روى إمامنا الشافعي، رضي الله عنه ، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: "استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلاً، وكان ﷺ إذا استلم الحجر قال: بسم الله والله أكبر، وقال بينهما : أي بين الركن اليماني والحجر: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" ولم يثبت عنه ﷺ شيء من الأذكار في غير هذا المحل حول الكعبة ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر اهـ. من الحاشية.

واعلم أنه لم يكن للكعبة في زمنه ﷺ غير الركنين : الركن الأسود والركن اليماني فقط ، حيث كان جدارها المقابل لحجر إسماعيل مدوّراً، فلما بنى عبدالله

بن الزبير، رضي الله عنهما ، الكعبة جعل لها أربعة أركان فكانت تستلم كلها في زمانه إلى أن قتل رضي الله تعالى عنه.

وأما آداب الذكر والدعاء في الطواف، فلا يخفى ذلك على الإنسان الكامل، ونأتي هنا بشيء على سبيل الذكرى. فمن الآداب: أن يذكر الله تعالى وهو حاضر القلب ، لأنه يناجي الله تعالى ، ويدعوه ، كما في الصلاة ، وهو مطلع عليه، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره الذي أوله "بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل ... إلخ" فهذا الرجل هو جبريل جاء يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإيمان والإسلام والساعة ، فلما سأله أيضاً عن الإحسان أجابه رسول الله ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ومنها: عدم قطع الذكر ليتكلم مع غيره وهما يطوفان بكلام دنيوي إلا في حالة الاضطرار . ومنها: عدم التشويش على غيره برفع الصوت.

جاء في شفاء الغرام للفاسي : روينا في مسند الدارمي بسند صحيح عن عائشة ، قالت : إنما جعل الطواف بالبيت ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله ، وروينا فيه عن عائشة عن النبي ﷺ نحوه، وأخرجه المحب الطبري في القرى عنها مرفوعاً وزاد بعد قوله ذكر الله تعالى: وإن لم يقترن بها ذكر بالقول ، ثم قال: وينبغي للذاكر في الطواف والتالي أن لا يزيد في رفع صوته على إسماع نفسه لئلا يشوّش على غيره ، واستدل على ذلك بما تقوم به الحجة ، ثم قال: وفي معنى الطائف من كان في المسجد ، قريباً من المطاف، ينبغي له أن لا يرفع صوته بتلاوة ولا ذكر ، لئلا يشوّش على الطائفين . اهـ . انتهى من شفاء الغرام .

أما آداب الطواف فكثيرة ، ولنذكر ما كتبناه في كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" وهو : يكره في الطواف الأكل والشرب وكراهة الشرب أخف ، الكلام إلا لضرورة ، ورفع صوته بقراءة أو ذكر ، لئلا يشوش على غيره، وتشبيك الأصابع وفرقعتها، وجعل يديه وراء ظهره مكتّفاً ، والضحك والمزاح لأنه خلاف الأدب، ومدّ نظره إلى ما لا يحل له النظر إليه من امرأة وأمردَ حسن الصورة ، واحتقار من يراه من الضعفاء والعوام إلى غير ذلك مما هو مخالف للأدب فإنه

متلبس بعبادة ربه، في أطهر مكان وأشرف موضع، فينبغي إظهار الحرمة والخشوع والخضوع وملازمة الأدب، فإن الطواف كالصلاة. انتهى.

جاء في كتاب القرى لقاصد أم القرى، للإمام الطبري، عند مبحث إباحة الكلام في الطواف ما نصه:

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «الطواف بالبيت مثل الصلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير». أخرجه الترمذي.

وعن طاووس، عن رجل أدرك النبي ﷺ، قال: الطواف بالبيت صلاة، فأقلوا من الكلام. أخرجه أحمد والنسائي. وأخرجه الشافعي عن طاووس، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: الطواف بالبيت صلاة، ولكن الله أحلَّ فيه المنطق، فمن نطق فيه فلا ينطق إلا بخير. أخرجه سعيد بن منصور أيضاً كذلك. وأخرجه عن ابن عباس موقوفاً، قال: الطواف بالبيت... الحديث بنحو الحديث الأول.

وعنه أنه قال: إذا طفت بالبيت فأقلّ الكلام فإنك في صلاة.

وعن أبي سعيد الخدري أنه كان يقول لبنيه: إذا طفتم بالبيت فلا تَلْغوا ولا تهجُروا ولا تقاصُّوا أحداً إن استطعتم، وأقلوا الكلام. أخرجهما سعيد بن منصور.

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: أقلُّوا الكلام في الطواف، فإنما أنتم في الصلاة. أخرجه النسائي، وأخرجه الشافعي عن عمر، وقال: في صلاة.

وعن عطاء قال: طُفت خلف ابن عمر وابن عباس، فما سمعت واحداً منهما متكلماً حتى فرغ من طوافه.

وكان عطاء يكره الكلام في الطواف، إلا الشيء اليسير منه، إلا ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن. أخرجه الشافعي.

وعن عروة بن الزبير قال: حججت مع ابن عمر، فالتقينا في الطواف، فسلمت عليه، ثم خطبت إليه ابنته، فما ردّ عليّ جواباً، فغمني ذلك، وقلت في نفسي: لم يرضني لابنته. فلما قدمنا المدينة جئته مُسلّماً، فقال لي: ما فعلت فيما كنت ألقيته إلي؟ فقلت: لم ترد عليّ جواباً، فظننت أنك لم ترضني لابنتك. قال: تخطب إلي في مثل ذلك الموضع، ونحن نتراءى الله عز وجل. ثم قال: بل قد رضيتك، فزوجني، أخرجه الآجري في مسألة الطائفين بسنده.

ثم قال الإمام الطبري في كتابه المذكور بعدما تقدم: واعلم أن التحدث في الطواف على غير النحو المتقدم في الفصل قبله، خطأ كبير، وغفلة عظيمة ، ومن لابَسَ ذلك فقد لابس ما يُمقَت عليه ، خصوصاً إن صدر ممن يُنسب إلى العلم والدين، فإنه إذا أنكر على من دونه احتج به، فصار فتنة لكل مفتون . ومن آثر محادثة المخلوق في أمر الدنيا، والإقبال عليه والإصغاء لحديثه، على ذكر خالقه، والاقبال عليه ، وعلى ما هو متلبس به من عبادته فهو غبين الرأي، لأن طوافه بجسده وقلبه لاهٍ ساهٍ، قد غلب عليه الخوض فيما لا يعنيه ، حتى استرسل في عبادته كذلك ، فهو إلى الخسران أقرب منه إلى الربح، ومثل هذا خليق بأن يشكوه البيت إلى الله عز وجل وإلى جبريل ، ولعل الملائكة تتأذى به، وكثير من الطائفين يتبرمون منه ، فعلى الطائف أن يبذل جهده في مجانبة ذلك . انتهى من الكتاب المذكور.

وإلى هذا المعنى يشير القائل:

يا من يطوف ببيت الله بالجسد … والجسم في بلد والروح في بلد

ماذا فعلت وما أنت فاعله … مهرج في اللقا للواحد الأحد

إن الطواف بلا قلب ولا بصر … على الحقيقة لا يشفي من الكمد

إباحة بعض الأمور في الطواف

يباح بعض الأمور في الطواف لعارض، مما لا يخلّ بآدابه، ومما هو من باب الخير والاضطرار، كالأمور الآتية:

جاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبري ما ملخصه:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه كان يطوف بالبيت ، فأقيمت الصلاة فصلى مع القوم ، ثم قام فبنى على ما مضى من طوافه، وعن عطاء أنه كان يقول في الرجل يطوف بعض طوافه ، ثم تحضر الجنازة ، قال: يخرج يصلي عليها، ثم يرجع، فيقضي ما بقي من طوافه. وعن مجاهد في الرجل يطوف ، ثم تقام الصلاة ولم يفرغ من أسبوعه، قال: يصلي، ثم يقضي ما بقي عليه، أخرج جميع ذلك سعيد بن منصور. وعن عطاء وإبراهيم قالا فيمن رعف وهو يطوف بالبيت: يخرج فيتوضأ . قال إبراهيم يبني على طوافه من المكان الذي قطع منه. وقال عطاء: إن فعل ذلك أجزأه ، وأحبُّ أن يستقبل ذلك من الحَجَر ، وعن الحسن أنه كان يقول

فيمن قطع الطواف لأجل الرُّعاف: يستقبل طوافه، ولا يعتدّ بما فعل. أخرجه سعيد بن منصور.

وعن حميد بن زيد قال: رأيت ابن عمر يطوف بالبيت، فقعد قبل أن يفرغ من طوافه، من حرّ أخرجه الأزرقي. وأخرجه سعيد بن منصور بزيادة. ولفظه: رأيت ابن عمر طاف بالبيت ثلاثة أطواف أو أربعة، ثم جلس يستريح وغلام له يُروِّح عليه، فقام فبنى على ما مضى من طوافه.

وعنه قال: رأيت ابن عمر بعدما كبر، طاف فأعيا، فاستراح، ثم بنى على ما مضى من طوافه. أخرجه سعيد أيضاً.

وعن عطاء عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: إذا طاف بالبيت تطوعا ثم شاء، أن يقطعه قطعه، غير أن لا ينصرف إلا عن وتر: خمس، أو ثلاث، أو شوط. أخرجه سعيد بن منصور.

وعن يزيد بن أبي زياد قال: رأيت أبا جعفر والحسن وعلي بن عبدالله وسعيد بن جبير ومجاهداً يتكلمون في الطواف، وبين الصفا والمروة. وعن عبدالملك بن أبي سليمان، قال: كنا نستفتي سعيد بن جبير، ونكلمه ونحن نطوف. أخرجهما سعيد بن منصور. وهذا الكلام منه محمول على ما تقدم من أنواع الخير.

وعن إسماعيل بن عبدالملك قال: رأيت سعيد بن جبير يتكلم في الطواف ويضحك. أخرجه أبو الوليد الأزرقي.

وهذا محمول على ضحك راجع إلى ما ذكرناه من أنواع الخير، كسرور في طاعة وقربة، أو حسن إقبال على أخ في الله تعالى، لا تفكّهاً وتعجباً، وغفلة عن الله تعالى. والله أعلم. اهـ.

والمراد بالضحك هنا: التبسم لا الضحك المصحوب بالقهقهة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ شرب في الطواف. أخرجه أبو حاتم والشافعي. وعن أبي مسعود الأنصاري، أن النبي ﷺ عطش وهو يطوف بالبيت، فقال: عليَّ بذنوب من ماء زمزم، فصُبَّ عليه، ثم شرب وهو يطوف بالبيت أخرجه الدارقطني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه شرب وهو يطوف فجلس على جدار الحجر، أخرجه الشافعي والبيهقي. انتهى من كتاب القرى للطبري.

ذكر الله وقراءة القرآن في الطواف

جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه: حدثني جدي عن الزنجي، عن ابن جريج، قال: قال عطاء: من طاف بالبيت فليدَع الحديث كله، إلا ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن. حدثني جدي، قال حدثنا يحيى بن سليم، قال حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي حسين أن النبي ﷺ قال لرجل وهو في الطواف: كم تعد يا فلان، ثم قال، تدري لم سألتك؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: لكي تكون أحصى لعدّك. حدثني جدي، عن مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، قال: كان أكثر كلام عمر وعبدالرحمن بن عوف، في الطواف: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

حدثني جدي، قال: حدثنا سفيان، عن إبراهيم بن ميسرة، قال: كنت أطوف مع طاووس فسألته عن شيء فقال: ألم أقل لك؟ قال: قلت: لا أدري، قال: ألم أقل لك إن ابن عباس قال: إن الطواف صلاة فأقلوا فيه الكلام.

حدثنا إسحاق، قال حدثنا أبو الوليد، قال حدثني جدي، قال حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، أنه قدم مكة فطاف سبعاً، فقرأ فيه بالسبع الطوال، ثم طاف سبعاً آخر فقرأ فيه بالمئين، ثم طاف سبعاً آخر فقرأ فيه بالمثاني، قال الخزاعي إسحاق بن أحمد: حدثنا أبو عبيد الله، قال حدثنا سفيان بإسناده مثله، وزاد، ثم طاف سبعاً آخر فقرأ بالحواميم، ثم طاف سبعاً آخر فقرأ إلى آخر القرآن، حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدي قال، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، قال: القراءة في الطواف شيء أحدث.

حدثني جدي، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: أخبرني زهير بن محمد، عن عبدالله بن عبدالله بن توبة، عن عبدالله بن عمر، أنه قيل له: يا أبا عبدالرحمن، ما لنا نراك تستلم الركنين استلاماً لا نرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يستلمهما؟ قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يستلمهما ويقول: استلامهما يمحو الخطايا، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: من طاف سبعاً يحصيه كتب الله له بكل خطوة حسنة، وحطت عنه سيئة ورفعت له درجة، ثم صلى ركعتين كان له كعتق رقبة. وقال في كتابه: وأخبرني يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية قال: لئن عشت وطالت بك حياتك لترين الناس يطوفون حول الكعبة ولا

يصلون، قال: وسمعت غير واحد من الفقهاء يقولون : بني هذا البيت على سبع وركعتين.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال : حج آدم فطاف بالبيت سبعاً، فلقيته الملائكة، فقالوا: بر حجك يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون في الطواف؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال آدم: فزيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: فزادت الملائكة فيها ذلك. قال: فلما حج إبراهيم، عليه السلام، بعد بنائه البيت، فلقيته الملائكة في الطواف، فسلموا عليه، فقال لهم إبراهيم : ماذا تقولون في طوافكم؟ قالوا: نقول قول أبيك آدم سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فأعلمناه ذلك فقال: زيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال إبراهيم: زيدوا فيها العلي العظيم. ففعلت الملائكة. انتهى من الأزرقي.

نقول: إن ذكر الله تعالى أو قراءة القرآن حال الطواف بالبيت الحرام إنما هو سنة ، فمن طاف ولم يذكر الله تعالى ولم يقرأ شيئاً من القرآن صح طوافه سواء كان فرضاً أو نفلاً، لكن فاتته فضيلة الذكر والقراءة. ومثل الطواف في ذلك السعي.

الدعاء وآدابه

لما كانت مواضع الإجابة هي عند الكعبة المشرفة، وفي الملتزم والحجر والركنين والمقام وغيرها ، كان من اللازم أن نأتي بشيء في فضل الدعاء وآدابه، ترغيباً في تقرب العبد الضعيف الآبق، إلى الرب الكريم الجليل الخالق، حتى لا ييأس المذنب من رحمة الله، ولا يقنط المسرف من عفو الله ، فالله تعالى ، الذي لا تنفعه الطاعات، ولا تضره المعاصي، عند حسن ظن عبده به. فنقول وبالله الاعتماد:

الدعاء مطلوب من جميع المؤمنين من الطائع والعاصي، والعالم والجاهل، والغني والفقير، قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ وقال عز شأنه: ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وقال جل جلاله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم

يرشدون﴾ . ولا شك أن أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء هو عين الرحمة والإحسان منه تبارك وتعالى، وعندي أنه أمر عام يشمل البرّ والفاجر ، والمسلم والكافر ، لأن الكافر وإن لم يؤمن بنبينا "محمد" ﷺ فإنه يعلم بيقين أن له رباً خلقه فسواه ورزقه وأعطاه، فهو يرجع إليه في كل أموره ، والمسلم مهما عظمت خطاياه، فهو أولى وأحرى بالتضرع إلى الله عز شأنه ، وتعالت عظمته، ليكشف عنه السوء ويرفع عنه البلاء بفضله ورحمته، إنه بعباده لطيف خبير ، وبإجابة دعائهم لجدير ، جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر .

قال رسول الله ﷺ: "الدعاء هو العبادة" رواه الترمذي وغيره، وهو حديث حسن صحيح ، فالعبد إذا دعا ربه فهو يقرّ بربوبيته ، ويعترف له بعبوديته، ويؤمن بعظمته وجلاله، ويلجأ إليه بضعفه واحتياجه، ويسأله من خيري الدنيا والآخرة ما يجعله سعيداً فيهما ، فهذا لا شك يعتبر عين العبادة وحقيقة الإيمان.

وكم ورد في القرآن العظيم ، من الدعوات المتنوعة، عن الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام، وكم ورد في كتب الحديث من الدعوات المهمة الجامعة، لخيري الدنيا والآخرة، عن رسول الله ﷺ ، فلو أردنا جمع الدعوات النبوية، لاحتجنا إلى تأليف كتاب خاص، ونحن هنا في صدد الترغيب في الدعاء وآدابه، حتى يدعو كل إنسان ربه بلغته، ويلجأ إليه كل امرئ بعزمه وحسن نيته، فليسأل المرء ربه كل ما أهمه من الأمور ، صغيرها وكبيرها، فإنه تعالى بيده خزائن السموات والأرض ، ولقد أنفق ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، ما نقص من ملكه مثقال ذرة، وكيف يتصور النقصان في خزائن من يقول للشيء كن فيكون، جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي هذه المعنى، قال رسول الله ﷺ:" إن يمين الله ملأى لا يُغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض" رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

فسبحان الذي بيده ملكوت السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم، الذي يحتاج إليه جميع الخلق وهو الغني عن العالمين، فالحمد لله الذي زين قلوبنا بنور الإيمان، وأنار بصائرنا بنور المعرفة ، وهدانا إلى الصراط المستقيم.

واعلم، أنه كما توجد أماكن وأزمان هي أقرب لاستجابة الدعاء، تكون هناك آداب تستدعي استجابة الدعاء أيضاً، لمن رعاها وحافظ عليها، فعلى قدر الهمم تتوالى النعم ، وإن رحمة الله قريب من المحسنين . فمن آداب الدعاء، التضرع والخشوع بنية صادقة، والإخلاص والإلتجاء إليه تعالى بإخلاص وحسن ظن ، والدعاء بالكلام العادي، فلا يتكلف السجع ومراعاة قواعد النحو أو الصرف، ولا ينتقي الكلمات الفصيحة البليغة ، لأن كل ذلك ينافي الخشوع وصفاء المناجاة، مع خالق البرايا ، والعليم بما في صدور العالمين، وأن من علامات تحقيق الإجابة انشراح الصدر ، وتوجه القلب إلى الدعاء، فهذه إشارة وبشارة بالقبول من الله الكريم المتعال.

وإن أرجى دعاء للاستجابة هو دعاء المضطر، لأنه بلغ إلى حالة قصوى في الإحتياج والإبتلاء، فالله سبحانه وتعالى يرفع عنه ما نزل ، ويفرج كربته بفضله ورحمته، لشدة اضطراره واحتياجه إلى غوث الله تعالى ، فارج الهم، وكاشف الكرب، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ .

وكذلك دعاء المظلوم، ودعاء الوالدين، ودعاء السلطان العادل في رعيته، والعالم بعلمه، والتقي الصالح القائم بعبادة ربه، وكل من التجأ إلى ربه، بقلب سليم ونيه صادقة، يرى أثر استجابة دعائه، وكشف الضر والبأساء عنه. وكلما كان المؤمن متقرباً إلى الله تعالى بالعبادة والأعمال الصالحة، كان دعاؤه قريب الاستجابة وكان الله له عونا في جميع حالاته.

والحديث الصحيح الآتي أعظم دليل على ذلك، فقد روى أبو هريرة، رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء ، أحبّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" رواه البخاري في صحيحه.

فهنيئاً لعبد ، هذا حاله مع ربه، وهل بعد هذه السعادة سعادة ؟ اللهم أرض عنا، واغفر لنا وارحمنا ، وعافنا واعف عنا، واجعلنا ممن يقومون بما افترضته عليهم، ويتقربون إليك بالنوافل، حتى تحبنا فتعطينا ما نسأل، وتعيذنا مما نستعيذك منه،

وتكون في عوننا في الدنيا والآخرة، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على أبي القاسم الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

واعلم أن أبلغ الدعاء ما كان عن صمت، أي أن الإنسان، إذا بلغ به الحزن أقصاه، لم يقدر على الإفصاح عنه، لأن لسانه لا يطاوعه بالكلام، وإنما يتضرع إلى الله عز شأنه بقلبه، ويدعوه في سره، ويشكو بثه وحزنه إلى الله، ويستعين به على كشف بلواه، قال الشاعر:

ويمنعني الشكوى إلى الله علمه ... بجملة ما ألقاه قبل أقول

والله تعالى عليم بما في الصدور، قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وإذ كان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وهو السميع البصير، فلا يتوقف في الإستجابة إلى رفع الصوت والجهر بالدعاء، فهو عز شأنه لا تخفى عليه خافية: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعلمون بصير ۞ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ۞ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾.

فالحمد لله الذي أذاقنا حلاوة الإيمان والعلم والعمل، ورزقنا حسن الظن به وعظيم الأمل، وأنار لنا طريق الهدى، وأبان لنا الصراط المستقيم، وسلك بنا مسالك أهل النهى والتقى في الطريق القويم، الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن من أعظم أسباب الدعاء، وحصول الخير، وانفراج الكرب والشدائد، هو أكل الحلال، واجتناب الحرام وما فيه الشبهة. وقد قال رسول الله ﷺ: " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، " وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل، يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنّى يُستجاب له. رواه مسلم.

اللهم اغننا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك.

ومما ينبغي لنا التنبيه عليه، هو أن الإنسان يجب أن يحسن الظن بربه عز وجل، وأن لا ييأس من رحمته، ولا يقنط من عفوه وغفرانه، فلا يقول في نفسه كيف أدعو ربي وأنا المنغمس في الذنوب والمعاصي، فإن ذلك من تلاعب الشيطان به، حتى يبعده عن رحمة الله تعالى، وهل التوبة جعلت إلا لأرباب المعاصي والذنوب؟ وإن الله تعالى ليفرح بعبده التائب الذي أناب إليه ورجع، وهو التواب الرحيم.

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما وقع العفو

وما أحلى قول رسول الله ﷺ، في هذا المعنى المروي في الصحيحين، وهو: "أن عبداً أصاب ذنباً وقال: ربي أذنبت فاغفره، فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً فقال: ربي أذنبت آخر، فاغفر لي، قال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم أصاب ذنباً فقال: ربي أذنبت آخر فاغفر لي. قال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء". رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

فهل بعد هذا الحديث الشريف يتطرق اليأس إلى قلب عبد مؤمن عالم بسعة عفو الله تعالى وعظيم رحمته ولطفه بعباده؟ فالله عز شأنه واسع الفضل عظيم الإحسان، لا تنفعه طاعاتنا ولا تضره معاصينا، اللهم عاملنا بما أنت أهله من اللطف والكرم، والعفو والإحسان، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

هذا، ولقد أردنا أن نذكر كثيراً من الأدعية النبوية الواردة في كتب الحديث، ولكن ذلك مما يؤدي إلى التطويل، علاوة على ما هي مذكورة في كتب الأدعية، ولا بأس أن نذكر هنا بضعة من الدعوات النبوية الهامة الجامعة لخير الدنيا والآخرة، مما لها تناسب مع حياتنا هذه في هذا الزمن الأخير وهي هذه:

قال رسول الله ﷺ: "دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له". رواه الترمذي.

وعن أبي أمامة، رضي الله عنه: قال دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً، قلت: يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم يحفظ منه شيئاً، فقال: "ألا أدلكم ما يجمع ذلك كله، تقول اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك

محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك ﷺ ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا با لله". رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة، رضي ا لله عنه ، قال: كان رسول ا لله ﷺ يقول: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي". رواه مسلم.

وعن أبي بكرة، رضي ا لله عنه، أن رسول ا لله ﷺ، قال: "دعوات المكروب، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت" . رواه أبو داود في "السنن".

وعن ابن عباس، رضي ا لله عنهما، أن رسول ا لله ﷺ، كان يقول، عند الكرب:" لا إله إلا ا لله العظيم الحليم، لا إله إلا ا لله رب العرش العظيم، لا إله إلا ا لله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم". وفي رواية لمسلم: أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال ذلك رواه البخاري ومسلم.

وعن علي ، رضي ا لله عنه، أن مكاتباً جاءه ، فقال : إني عجزت عن كتابتي فأعني ، قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول ا لله ﷺ: لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه ا لله عنك، قل: "اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك". رواه الترمذي.

وعن ابن عمر، رضي ا لله عنهما، عن رسول ا لله ﷺ ، أنه قال: "اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك". رواه مسلم وغيره.

وعن ابن مسعود، رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى". رواه مسلم وغيره.

وعن عائشة ، رضي ا لله عنها ، عن رسول ا لله ﷺ، أنه قال: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك". رواه مسلم وغيره.

وعن أنس بن مالك، رضي ا لله عنه، قال: قال رسول ا لله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدين وغلبة الرجال". رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: "اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر خطئي وعمدي، وهزلي وجدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير". رواه البخاري ومسلم.

بعض القصائد في التضرع

لقد أتينا فيما تقدم ببعض الأدعية النبوية الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، وهنا نأتي ببعض القصائد في التضرع إلى الله تعالى، فلكل دعاء ميزة خاصة، ولكل واحد طريقة في التضرع والدعاء، كما قال الله تعالى: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ۞ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

ولا تظن أن الفقير يحمل وحده على كتفيه متاعب الحياة وهمومها، كلا وإنما الخلق جميعاً في ذلك سواء، فقد تختلف درجات الهموم وأنواعها:

كل من في الوجود يحمل هماً ... غير أن الهموم مختلفات

فالسلطان والأمير، والإمام والمأموم، والغني والفقير، والعزيز والحقير، والجاهل والعالم، والمظلوم والظالم، والعزيز والذليل، والصحيح والعليل، والمشغول والعاطل، كل منهم يحمل في قرارة نفسه من الهم والحزن ما لا يعلم به الآخر. فهذا يشكو فقره، وذاك يألم من مرضه، والآخر يتأفف من صديقه، والرابع يستجير من رئيسه، والخامس يبكي فقيداً افتقده، والسادس لا يهنأ بنوم، لكساد تجارته وخسارته، وهكذا حال جميع الناس إلى يوم القيامة، من أول خلقهم إلى يوم القيامة:

كل من لاقيت يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

لذلك جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "تعوّذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء" رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

وكان ﷺ يتعوذ من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال، ومن كثير من الأمور.

فإذا كان رسول الله ﷺ يتعوذ من كل ذلك، ويلجأ إلى الله تعالى فيما أهمه، فنحن أحق وأولى بالابتهال إلى الله الكريم المتعال، فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله، اللهم اشغل قلوبنا فيما خلقتنا له، ولا تشغلنا بما تكفّلت لنا به يا أرحم الراحمين، فنحن الضعفاء وأنت القوي العزيز.

إذا كنت في أمر وضقت بحمله ... وأصبحت في عسر وأمسيت في حرج

تضرّع إلى الله الكريم ولا تمل ... إلى غيره فالله يأتيك بالفرج

وإليك بعض القصائد في التضرع، فإن في ذكرها استئناساً للنفس، وانشراحاً للصدر، واطمئناناً للقلب، ونرجو بذلك استنزال الرحمة والإحسان، من الله الواحد الأحد، الكبير المتعال، السميع البصير والبر الرحيم الودود، الذي هو بعباده لطيف خبير.

(قال بعضهم في التضرع إلى الله تعالى):

لأبتهلن تحت الظلام بدعوة ... متى يدعها داع إلى الله يسمع

تغلغل من بين الضلوع نشيجها ... له شافع من عبرة وتضرع

إلى فارج الكرب المجيب لمن دعا ... فزعت بكربي إنه خير مفزع

فيا خير مدعو دعوتك فاستمع ... ومالي شفيع غير فضلك فاشفع

(وقال بعضهم):

طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا ... وبتّ أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مفتقراً ... إليك يا خير من مدّت إليه يد

فلا تردّنها يا رب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

(وقال بعضهم):

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن جوده في قول كن ... أمنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالإفتقار إليك فقري أدفع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... ولئن رددت فأي باب أقرع

ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فالمذنب العاصي إلى من يرجع

(وقال بعضهم):

يا رب ما زال لطف منك يشملني ... وقد تجدد بي ما أنت تعلمه
فاصرفه عني كما عودتني كرماً ... فمن سواك لهذا العبد يرحمه

(وقال محمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب):

زدني بفرط الخير منك تشكرا ... والطف بما قدرته فيما جرى
يا من له عنت الوجوه جميعها ... رحماك فالعبد الذليل تحيرا
إن لم يكن لي منك لطف شامل ... أو فضل إحسان علي مكررا
فمن الذي أرجو لكشف بليتي ... أو من إليه أميل من بين الورى
والكل مفتقر إليك وسائل ... من فيض جودك أن تقطرا
لا أرتجي أحداً سواك وأنت لي ... نعم الملاذ ومن رجاك استبشرا
إني سألتك والهموم تراكمت ... والدهر عاند والزمان تنكرا
حاشا تخيب من رجاك مؤملاً ... مهما جنى أو كان فيك مقصرا

اللهم يا فتاح يا عليم، يا رحمن يا رحيم، يا عزيز يا غفور، يا عالماً ما في الصدور، يا من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يا مجيب الدعاء، يا راحم عبرة داود، يا كاشف ضر أيوب، يا مفرج حزن يعقوب، ارفع عنا ما نزل وحقق لنا جميع الأمل، وفرّج عنا كل هم وغم، فإنك أنت العزيز الأكرم، اللهم إنا نسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، وعلماً نافعاً، وصحة وعافية، والحفظ من جميع البلاء والسلامة من كل شر، والأمن من كل خوف، والتوفيق للطاعات، والثبات على الإيمان، وحسن الختام، ونسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من النار، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ونسألك اللهم أن تصلي وتسلم على نبيك محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

(وما أحلى قول من قال):

فكم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم يسر أتى من بعد عسر ... وفرج كربة القلب الشجي
وكم أمر تساء به صباحاً ... وتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحد الفرد العلي

(وقول بعضهم):

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

(وقال الآخر):

كن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا
فلربما اتسع المضيـ ... ـق وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشا ... ء فلا تكن متعرضا

(ولبعضهم):

أترك الفكر في الأمور ودعها ... فكما قدّرت تكون الأمور
كل فكر وكل رأي وحزم ... غير مجد إذا جرى المقدور

(وقال آخر):

عسى ما ترى لا يدم وإن ترى ... له فرجاً مما ألمّ به الدهر
عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر
إذا لاح عسر فارج يسراً فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

(وما أظرف قول الطغرائي):

لا تجزعن إذا ما الأمر ضقت به ... ذرعاً ونم وتوسّد فارغ البال
فبين غفوة عين وانتباهتها ... يغيّر الله من حال إلى حال

(وقال بعضهم):

تصبر إن عقبى الصبر خير ... ولا تجزع لنائبة تنوب
فإن اليسر بعد العسر يأتي ... وعند الضيق تنكشف الكروب
وكم جزعت نفوس من أمور ... أتى من دونها فرج قريب

(وقال بعضهم):

إذا ما رماك الدهر يوماً بنكبة ... فهيء لها صبراً وأوسع لها صدرا

فإن تصاريف الزمان عجيبة فيوماً ترى عسراً ويوماً ترى يسرا

(وقال بعضهم):

كل الحوادث قد تمر على الفتى وتزول حتى لا تكون بباله

فالحمد لله في السراء والضراء.

ولنختم هذا الباب بالأحاديث الآتية، عسى أن ننتفع بها نحن، وجميع المسلمين، فإن رجاءنا في كرم الله تعالى لعظيم، وإن حسن ظننا به، سبحانه وتعالى، لكبير، والأحاديث الآتية نقلناها من "الأربعين النووية" وهي كما يأتي:

عن أنس، رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لآتيتك بقرابها مغفرة". رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بَطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه". رواه مسلم بهذا اللفظ.

وعن جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن، ويقول: "إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري،

أو قال: عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، قال: ويسمى حاجته".

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ". رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي عبدالله النعمان بن بشير ، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: "إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" . رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي حمزة أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه، خادم رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه" رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي رقية تميم بن أوس الداري، رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ، قال: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" رواه مسلم.

وعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود، رضي الله تعالى عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه، أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة، مثل ذلك، ثم يكون مضغة ، مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه، وأجله ، وعمله، وشقي أو سعيد. فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر ، رضي ا لله عنهما، عن رسول ا لله ﷺ أنه قال : "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" رواه الشيخان في صحيحيهما واللفظ للبخاري.

وعن أبي العباس عبدا لله بن عباس، رضي ا لله تعالى عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ ا لله يحفظك، احفظ ا لله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل ا لله ، وإذا استعنت فاستعن با لله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه ا لله لك، وإن اجتمعوا علي أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه ا لله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف. رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: احفظ ا لله تجده أمامك ، تعرّف إلى ا لله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطأك واعلم أن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا.

وعن أبي ذر الغفاري ، رضي ا لله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل ، أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكلم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص المِخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم

أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد ا الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. رواه مسلم.

إلى هنا نكتفي بما تقدم من الأحاديث النبوية الشريفة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، والحمد لله الذي سعدنا بكتابتها ونقلها ، ونسعد أيضاً ، إن شاء ا الله تعالى بالعمل بها، فإننا نرجو أن يتغمدنا ا الله تعالى برحمته في الدنيا والآخرة، إنه واسع الفضل عظيم الإحسان، وصلى ا الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الطواف راكباً ودخول المواشي والدواب المسجد الحرام

لما كان المسجد الحرام وشوارع مكة على غير هذه الصفة، أي كان بشكل يمكن دخول المسجد بالدواب في سابق العصور، فقد طاف رسول ا الله ﷺ في يوم فتح مكة من السنة الثامنة من الهجرة راكباً واستلم الحجر الأسود بمحجته وهو راكب ، وروى الإمام الأزرقي في تاريخه، عن ابن جريج، قال : وأُخبرت أن النبي ﷺ كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن بمحْجَنه ثم يقبل طرف المحجَن "والمحجن العصا المنعطفة الرأس".

وروى أيضاً ، عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال لعبدالرحمن بن عوف: كيف فعلت يا أبا محمد في استلام الركن الأسود؟ قال: كل ذلك أستلم وأترك. قال: أصبت . وإن رسول ا الله ﷺ طاف في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجنه يكره أن يُضربِ عنه الناس. وفي الصحيحين عن عائشة، رضي ا الله عنها، أن النبي ﷺ طاف راكباً كراهية أن يصرف الناس عنه، وفي رواية طاف حجة الوداع حول الكعبة. على بعيره كراهية أن يصرف الناس عنه. أخرجه مسلم.

وروى مسلم في صحيحه ، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبدا لله ، يقول: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت، وبين الصفا والمروة، ليراه الناس وليشرف، ولم يطف رسول ا الله ﷺ ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً. اهـ، أي لم يسعوا بعد طواف الإفاضة حيث إنهم لما دخلوا مكة محرمين بالحج وطافوا طواف القدوم وسعوا بعد الطواف ، فمن دخل مكة وكان محرماً بالحج أو قارناً، وسعى بعد طواف القدوم أجزاه ذلك ووقع ركناه، ويكره

له إذا وقف بعرفات، ثم طاف طواف الإفاضة، أن يعيد السعي ، لأن السعي ليس من العبادات المستقلة، التي يشرع تكرارها والإكثار منها، بخلاف الطواف فإنه مشروع في غير الحج والعمرة.

جاء في العقد الثمين في فضائل البلد الأمين للحضراوي: أن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، مرّ على رواحل مناخة بفناء الكعبة، فقال: لو يعلم الركب ماذا يرجعون إليه بعد المغفرة لقرّت أعينهم، ما وضعت خفاً ولا رفعت إلا ترفع له درجة ويحط عنه خطيئة. أخرجه أبو ذر الهروي في منسكه. انتهى منه.

وجاء في كتاب القِرى للطبري عن عمرو بن دينار، قال: طاف رجل على فرس فمنعوه فقال: أتمنعوني أن أطوف على كوكب، قال فكتب في ذلك إلى عمر، رضي الله عنه، فكتب عمر أن امنعوه. أخرجه سعيد بن منصور.

قال الطبري : ولعل المنع لما في الخيل من الخيلاء والتعاظم . انتهى من كتاب القرى .

نقول : إن رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في غاية الصواب والحكمة، فالطواف وإن كان جائزاً حال الركوب ، فإنه غير لائق أن يطوف الإنسان راكباً، وغيره يطوف ماشياً، ثم لو كثر الركبان في المطاف لتعذر الطواف على المشاة، وذهب عن قلوبهم الخشوع لالتفاتهم الدائم على الركبان، حتى لا تدوسهم الدواب، وأيضاً لا يليق الطواف راكباً في أقدس مكان، وما كان طواف رسول الله ﷺ راكباً إلا لبيان جواز ذلك فحكمه حكم الشرب قائماً.

وفي الطبري ، وعن أم سلمة، أنها شكت لرسول الله ﷺ أنها تشتكي، فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . قالت : فطفت ورسول الله ﷺ حينئذ يصلي إلى جنب البيت ، وهو يقرأ: ﴿والطور ۞ وكتاب مسطور﴾. أخرجاه.

وعند البخاري أن رسول الله ﷺ، أراد الخروج، ولم تكن أم سلمة طافت بالبيت ، وأرادت الخروج، فقال لها ﷺ : إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفي على بعيرك والناس يصلون ففعلت، فلم تصل حتى خرجت.

وعنها أنها قدمت مكة وهي مريضة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: طوفي وراء المصلين وأنت راكبة، قالت: فسمعت النبي ﷺ وهو عند الكعبة يقرأ: ﴿والطور﴾ أخرجه النسائي. وفي البخاري أيضاً حديث بهذا المعنى.

وفيه وفيما قبله دلالة على أن صلاته ﷺ كانت بفناء الكعبة، وأن طوافها وراء المصلين . والظاهر أنه كان يؤمّ بهم، وأن الصلاة كانت صلاة الصبح . وفيه أن من طاف راكباً يتوخى خلوة المطاف، لئلا يهوش على الطائفين. وفيه أن الركوب إنما يكون لعذر ، فإن لم يكن عذر فالأفضل أن يطوف راجلاً.

وعنها أنها قالت: يا رسول ا لله ، ما طفت طواف الخروج . فقال ﷺ : إذا أقيمت الصلاة فطوفي على بعيرك من وراء الناس. أخرجه النسائي.

قال الطبري: هذه الأحاديث كلها تدل على جواز الركوب في الطواف، وخصه مالك بالضرورة ، استدلالاً بحديث أحمد وأبي داود، وبقوله :"ليراه الناس ، وليُشرف عليهم". واختاره الشافعي مطلقاً ، مع كراهية. وعند مالك وأبي حنيفة: إن قَرُب أعاد، وإن بعد فعليه دم، انتهى منه.

وقال الإمام الزرقاني، في شرحه على موطأ الإمام مالك بن أنس، عند حديث أم سلمة ، ما نصه: وفيه جواز طواف الراكب لعذر، ويلحق به المحمول للعذر، أما بلا عذر فمنعه مالك وكرهه الشافعي لقوله تعالى: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ ومن طاف راكباً لم يطف به إنما طاف به غيره، وركوبه ﷺ إنما كان للعذر، ففي أبي داود عن ابن عباس: قدم النبي ﷺ مكة وهو يشتكي فطاف على راحلته، وفي حديث جابر عند مسلم أنه ﷺ طاف راكباً ليراه الناس وليسألوه ، فيحتمل أنه فعل ذلك للأمرين، وكذا ركوب أم سلمة للعذر... إلخ انتهى من الزرقاني.

وذكر الغازي في تاريخه: أنه في سنة (٥٨٠) ثمانين وخمسمائة ، حج الشيخ أبو بكر بن الشيخ يحيى الغياتي، فطاف بالكعبة راكباً على بغلة، وحوله نحو ثلاثمائة فقيه يمشون ويطوفون بطوافه . انتهى

و لم نر ترجمة للشيخ أبو بكر المذكور، والظاهر أنه من كبار العلماء العاملين، بدليل أن ثلاثمائة فقيه يمشون بمشيه ويطوفون بطوافه، وأن له مكانة كبيرة في بلاده، وفي غيرها، حتى أذنوا له بالطواف راكباً على بغلة، ولا بد كان له عذر قوي في ركوب البغلة في الطواف ، وا لله تعالى أعلم بالغيب.

وذكر الفاسي ، في تاريخه شفاء الغرام، في الباب الثالث عشر، ما يأتي: قال: "أي السهيلي" لما ذكر بناء ابن الزبير للكعبة ، وفي الخبر أنه سترها، حتى وصل إلى القواعد، فطاف الناس بتلك الأستار، فلم تخل قط من طائف، حتى لقد ذكر أن

يوم قتل ابن الزبير اشتدت الحرب، واشتغل الناس، فلم يـر طـائف يطـوف بالكعبـة إلا جمل يطوف بها . انتهى.

وممن دخل المسجد الحرام راكباً أبو طاهر القرمطي، عامله الله بما يستحق، وذلـك سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة ، فقد دخل مكة، هـو وأصحابه، يوم التروية، وهو اليوم الثامن مـن ذي الحجة ، فأسرفوا في قتل الناس والحجاج، فكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تأخذهم، وكان أبـو طـاهر سكران، راكباً فرساً له، وبيده سيف مسلول ، فصفّر لفرسه فبال عند البيت.

وروى الغازي في تاريخه نقلاً عن خلاصة الكلام، ما ملخصه: أنه في سنة (٨١٠) عشر وثمانمائة، في يوم الجمعة خامس ذي الحجة، حصلت فتنة في المسجد الحرام، انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام، لما حصل فيه من القتال بالسلاح، وإدخال الخيل فيه، وطول مقامها وروثها فيه، وإراقة الدمـاء، وكان القائد الذي وقعت الفتنة بسببه اسمه جراد فلقد هجم في ذلك اليوم جماعة من القواد، ودخلوا المسجد الحرام ، من باب إبراهيم، راكبين خيولهم، لابسين لامة الحرب، إلى أن انتهوا إلى المقام الحنفي، فلقيهم الترك والحجاج وقاتلوهم، إلى أن وصلوا سوق المعلافة، أسفل مكة . ولما كان آخر النهار، أمر أمير الحاج بتسمير أبواب المسجد الحرام، إلا باب السلام، وباب الدريبة وباب مدرسة المجاهدية، وأدخل جميع خيله المسجد الحرام، وجعلها في الرواق الشرقي، قريباً من منزله برباط الشرابي، المسمى الآن برباط قايتباي، وباتت الخيل بالمسجد الحرام حتى الصباح ، ثم أخمد شريف مكة الفتنة، ونادى في الناس بالأمان فاطمئنوا، قال بعضهم: ولا أعلم فتنة أعظم منها بعد القرامطة. انتهى باختصار من تاريخ الغازي.

ولقد ذكر هذه الواقعة صديقنا الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" وقال إنها وقعت في عام (٨١٧) ، والغازي يقول إنها وقعت في عام (٨١٠) والله تعالى أعلم.

وروى الغازي أيضاً في تاريخه نقلاً عن الفاسي، ما ملخصه: أنه في سنة (٧٦٦) ست وستين وسبعمائة ، حصل غلاء عظيم بمكة، وتعرف هذه السنة بأم الجرب ، لإصابة المواشي بالجرب، فاستسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا، وقد أحضرت المواشي إلى المسجد للاستسقاء ، وأدخلت فيه، ووقفت جهة باب

العمرة إلى مقام المالكية، ثم فرج الله تعالى هذه الشدة عن الناس، فضلاً منه ورحمة. انتهى.

وذكر القطبي، في تاريخه، المتوفى سنة (٩٨٨) ثمان وثمانين وتسعمائة، أن أحد الشيوخ المعمرين الصدوقين من أهل مكة، أخبره بأنه شهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا، وتدخل من باب الصفا إلى المسجد الحرام، ثم تعود لخلوّه من الناس. انتهى.

هذا ما أمكن جمعه مما يتعلق دخول الدواب المسجد الحرام، وإذا اطلعنا على ما يشبه ذلك نلحقه هنا أيضاً إن شاء الله تعالى، والله تعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

قياس طوفة واحدة حول الكعبة

أي قياس شوط واحد حولها

قال العلامة حسين بن محمد الديار بكري الكردي، في كتابه "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس" بصحيفة ١٢١ من الجزء الأول: أنه ذرع بنفسه طوفة واحدة حول الكعبة والحجر فكان مائة وسبعة وأربعون ذراعاً وثلاث أصابع اهـ.

نقول: فيكون على ذلك ذرع الطواف الكامل لسبعة أشواط هو: ألف وتسعة وعشرون ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً، قال في صحيفة ١١٩: والذراع أربع وعشرون إصبعاً مضمومة سوى الإبهام، والإصبع ست شعيرات، والشعيرة ست شعرات من شعر البغل اهـ.

ولقد كان ذرع المؤلف المذكور للكعبة وأركانها سنة (٩٣١) إحدى وثلاثين وتسعمائة من الهجرة.

ومما يناسب ما ذكر، ما جاء في كتاب الطبري "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه: وعن محمد بن فضيل، قال: رأيت ابن طارق في الطواف وقد انفرج له أهل الطواف، وعليه نعلان مطوقتان، فحرروا أطوافه في ذلك الزمان، فإذا هو يطوف في اليوم والليلة عشرة فراسخ. أخرجه أبو الفرج في مثير الغرام. انتهى.

نقول: ولقد سألنا ، المهندس المصري، الذي فرش أرض المسجد الحرام بـالمرمر الرخام، في زماننا، قبل التوسعة السعودية ببضع سنوات ، عن مقـدار قيـاس طوافـه واحدة حول الكعبة بالمتر.

فأخبرنا أنه قاس الجهات الأربع للكعبة المشرفة، ومن بعد حجر إسمـاعيل ، أي من خارجه، فكان القياس ستة وستين متراً.

فهذا هو قياس طوفة واحدة، فإذا ضربنا هـذه الأمتـار في سبعة أشـواط كـان خارج الضرب (٤٦٢) متراً أربعمائة واثنين وستين متراً، هـذا هـو قيـاس الطـواف الكامل لسبعة أشواط.

نقول: إننا قمنا بذرع طوفة واحدة فقط، حول الكعبة، في الخامس من شـوال سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألـف هجريـة، فكـان قياسـها نحـو سـبعين متراً، مع العلم بأن الإنسان ، كلما قاس قريباً مـن الكعبـة، نقـص القيـاس، وكلمـا قـاس بعيـداً عنهـا، زاد القيـاس، لذلـك قـد يختلـف قيـاس الـذرع بـين شـخصين، باختلاف موضع القياس، في أرض المطاف، كما يختلف القياس بذراع اليد بحسـب طولها وقصرها .

ويلزم للإنســان في إتمام طوافـه سبعة أشـواط نحـو عشـرين دقيقـة، إذا مشـى الإنسان مشياً معتدلاً ، وقـد تزيـد الدقـائق أو تنقـص، بحسـب البطء والإسـراع ، والقرب من البيت أو البعد عنه، لذلك فإن قيـاس طوفـة واحـدة مـن آخـر حـدود المطاف بعد توسعته في زماننا الحاضر يكون أكثر من كل ما ذكرناه.

قال الفاسي في الجزء الأول من "شفاء الغرام" عـن مقـدار الطـواف مـا نصـه : وأما مقدار الطواف بالكعبة فذكره الأزرقي وسليمان بن خليل، وبينهمـا في ذلـك اختلاف ، لأن الأزرقي ذكر أن طواف سبع بالكعبة ثمانمائة ذراع وسـت وثلاثـون ذراعاً وعشرون إصبعاً. انتهى. وذكر سليمان بن خليل ، أن ذرع موضع الطـواف مائة ذراع وسبعة أذرع. انتهى. وما ذكره ابن خليل، في مقـدار موضـع الطواف، يقتضي أن يكون سبعاً بالكعبة سبعمائة ذراع وتسـعة، بتقديـم التـاء علـى السـين، وأربعين ذراعاً، وذلك ينقص عمـا ذكـره الأزرقـي في مقـدار ذلـك سـبعة وثمـانين ذراعاً وعشرين إصبعا ، والله أعلم بـالصواب . وذكـر ابـن خرداذبـة مـا يوافـق مـا ذكره ابن خليل، لأنه قال: ودور البيت مائة ذراع وسبعة أذرع . انتهى. ولعل ابـن خليل قلده في ذلك والله أعلم . انتهى من كتاب شفاء الغرام.

نقول: إن ما ذكره الإمام الأزرقي ، من قياس الطواف، وما ذكره سليمان بن خليل من قياسه أيضاً فيه فرق كبير عن الحقيقة، التي ذكرناها، فيما تقدم قبل قولهما، وهنا خطأ بيّن واضح، لأن أرض الكعبة ، وما حولها من المطاف، لم يتغير منذ زمن الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا، ولن يتغير إن شاء الله تعالى أبداً ، إلى أن تقوم الساعة. والظاهر، والله تعالى أعلم ، أن كل واحد منهما غلط في حساب الأذرع عند قياسه، أو حصل خطأ من الكاتب عند نقل الكلام ، ولو كان هناك فرق قليل بين القياس لم ننظر إليه، لكنه فرق عظيم بين الكلامين في القياس ومكان المطاف هو هو، لم يتغير منذ عهد إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، إلى اليوم ، والله تعالى أعلم، فرضي الله تعالى عنا وعنهم أجمعين.

واعلم : أن كل ما تقدم من قياس الطوفة الواحدة أو قياس السبعة أشواط، إنما هو بحسب نفس أرض المطاف الأصلي القديم، وأما بعد توسعة المطاف الآن، في وقتنا هذا ، فإن مقدار الطوفة الواحدة، ومقدار السبعة أشواط، يكون أكثر إذا طاف الإنسان في التوسعة الجديدة من المطاف، لبعدها قليلاً عن الكعبة ، وتوسعة المطاف في وقتنا هذا هو أول توسعة له، وقد كانت هذه التوسعة في شهر رمضان من سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية كما تكلمنا عن ذلك بالتفصيل في غير هذا المحل، فكلما قرب الطائف من الكعبة المشرفة نقصت مسافة الطوفة الواحدة، وكل ما بعد عنها زادت المسافة ، وهذا أمر يعرفه كل من وقف في الطواف ، ونظر إلى المطاف بعيني رأسه، فتأمل هذا المبحث، وافهمه جيداً ، فإنك لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

عمارة المطاف وفرشه

كان المطاف وحجر إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، في زمن الجاهلية، مجلساً عاماً ، يجتمعون بفناء الكعبة وظلها، يتذاكرون في مختلف شؤونهم ، وكان لعبد المطلب مفرش ، في الحجر ، لا يجلس عليه غيره ، وكان الندي من قريش "أي الكريم الجواد" حرب بن أمية، فمن دونه يجلسون حوله، دون المفرش ، فجاء رسول الله ﷺ، وهو غلام يدرج ، ليجلس على المفرش، فجذبوه فبكى، فقال عبدالمطلب ، وذلك بعدما حجب بصره، غلاماً لابني يبكي ؟ قالوا له: إنه أراد أن

يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبدالمطلب: دعوا ابني فإنه يحس بشرف، أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط، وقد توفي عبد المطلب والنبي ﷺ ابن ثمان سنين وكان خلف جنازته، يبكي حتى دفن بالحجون. اهـ من الأزرقي.

والمطاف والحجر لم يكونا مفروشين بالرخام أو البلاط، زمن الجاهلية، وإنما كانا تراباً ورملاً، من نفس تربة مكة . فأول من حصب أرضية المسجد الحرام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أي فرشها بالحبصاء، والمقام والحجر داخل في المسجد الحرام، وكان أول بدئه بذلك بالمسجد النبوي، فقد سئل ابن عمر عن ذلك، فقال: مطرنا ليلة فخرجنا لصلاة الغداة، فجعل الرجل منا يحمل في ردائه من الحصباء، فيفرشه على البطحاء، ويصلي عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، قال: ما أحسن هذا البساط، ثم أمر عمر بن الخطاب في خلافته بتحصيبه من وادي العقيق.

قال الغازي، في تاريخه، نقلاً عن درر الفرائد: أول من بلّط المطاف عبدالله بن الزبير، رضي الله عنهما، لما بنى الكعبة، وفرغ من بنائها، بقيت معه من الحجارة بقية، ففرش بها حول البيت، نحواً من عشرة أذرع، وتبعه غيره ففرش باقي المطاف. اهـ. وكانت عمارة ابن الزبير للكعبة سنة (٦٤) أربع وستين.

وقال ابن بطوطة، في رحلته، التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرون وسبعمائة: والمطاف مفروش بالحجارة السود، ويصير بحرّ الشمس كأنها الصفائح المحماة، ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها، فما يجاوز الموضع، الذي يصب فيه، إلا ويلتهب الموضع من حينه. وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب. انتهى كلامه.

وفي سنة (٨٤٦) ست وأربعين وثمانمائة أذيب الرصاص، وجعل بالحفر، التي بأرض المطاف.

وذكر الفاسي في "شفاء الغرام" في الجزء الأول، في أواخر الباب الثاني والعشرين، عن المطاف ما يأتي: المطاف المذكور في كتب الفقهاء، وهو ما بين الكعبة ومقام إبراهيم الخليل، عليه السلام، وما يقارب ذلك من جميع جوانب الكعبة، وقد أشار إلى تعريفه، بما ذكرناه الشيخ أبو محمد الجويني، فيما نقله عنه ابن الصلاح، في منسكه، لأنه قال: قال الشيخ أبو محمد: المطاف المعتاد، الذي

يستنكر ويستبعد مجاوزته، هو ما بين الكعبة والمقام، وفي كل جانب في العادة أمارات منصوبة لا يكاد الناس يخرجون عنها . انتهى.

قلت: وهذا الموضع مفروش بالحجارة المنحوتة حول الكعبة من جوانبها، وعمل ذلك دفعات ، حتى صار على ما هو عليه اليوم، وكان مصيره هكذا في سنة ست وستين وسبعمائة، والمعمول منه في هذه السنة جانب كبير جداً، وهاتان العمارتان، من جهة الملك الأشرف شعبان، صاحب مصر، وعمّر الطواف من ملوك مصر الملك المنصور لاجين المنصوري، واسمه مكتوب بسبب ذلك في رخامة، بين الركن اليماني والحجر الأسود، وعمّره من الخلفاء المستنصر العباسي، في سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، واسمه مكتوب بسبب ذلك في الحفرة، التي عند باب الكعبة، وقد بيّن الفاكهي، أول من فرش الحجارة، في موضع الطواف، ومقدار ذلك، وما كان يضع في موضعه، لأنه قال: ذكر فرش الطواف بأي شيء هو، قال بعض المكيين : إن عبد الله بن الزبير ، لما بنى الكعبة، وفرغ من بنائها، وخلّقها وطلاها بالمسك، وفرش أرضها من داخلها، بقيت من الحجارة بقية ففرش بها حول الطواف كما يدور البيت نحواً من عشرة أذرع، وذلك الفرش باق إلى اليوم ، إذا جاء الحاج في الموسم، جعل على تلك الحجارة رمل من رمل الكثيب، الذي بأسفل مكة ، يدعى كثيب الرمضة، وذلك أن الحجبة يشترون له رملاً كثيراً، فيجعل في الطواف، ويجعل الرمل فوقه، ويرش بالماء حتى يتلبد، ويؤخذ بقية ذلك الرمل ، فيجعل في زاوية المسجد، الذي يلي باب بني سهم، فإذا خف ذلك الرمل ، أعادوه عليه، ويرشوا عليه الماء ، حتى يتلبد، فيطوف الناس عليه، فيكون ألين على أقدامهم في الطواف، فإذا كان الصيف، وحمي ذلك الرمل، من شدة الحر، أمر غلمان زمزم وغلمان الكعبة، أن يستقوا من ماء زمزم، في قرب، ثم يحملونها على رقابهم، حتى يرش به رمل الطواف، فيتلبد ويسكن حره ، وكذلك أيضاً يرشون الصف الأول، وخلف المقام ، كما يدور الصف حول البيت. انتهى.

نقل الغازي عن ابن فهد: أنه في سنة (٨٨١) إحدى وثمانون وثمانمائة عملوا الرصاص بأرض المطاف، حول الكعبة، وغيروا رخام الحجر داخلاً وخارجاً.

ونقل الغازي عن الإعلام: أنه في سنة (٩٦١) إحدى وستون وتسعمائة بعد أن فرغ ناظر الحرم أحمد حلبي من تجديد سطح البيت الشريف، شرع في تسوية فرش المطاف ببلاط جديد، أي رخام، فإن أحجاره انفصلت، وصارت بين كل

حجرين حفراً، كانت تلك الحفر تسد تارة بالنورة، وتارة بالرصاص ، وتسمر بمسامير الحديد، فأزال ما بين الأحجار من الحفر، ونحت طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر ، من جوانبه الأربعة، واستمر في فرش المطاف على هذا الأسلوب ، إلى أن فرغ من ذلك ، وأصلح أبواب المسجد الشريف وفرش المسجد جميعه بالجص . اهـ. وكان عمل أحمد حلبي، بأمر السلطان سليمان خان ، رحمهم ا لله جميعاً. وفي شهر صفر سنة (٨٩٤) أربع وتسعون وثمانمائة أمر ناظر الحرم ، قاضي القضاة، جمال الدين أبا السعودبن ظهيرة ، بحفر جميع حاشية المطاف، وإصلاحه بإخراج البطحات، التي بها ، وذلك بسبب وقع المطر ودخول السيل إلى المسجد ، فحفرت وأخرج منها بطحات كثيرة مخلوطة بالتراب ، فغربلت وبطحت الحاشية ببعض البطحات، وفرق باقيها بالمسجد في الأماكن المحتاجة لذلك، وكان إكمال العمل في أوائل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة اهـ. وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان سنة (٩١٨) ثماني عشرة وتسعمائة أمر الأمير الباش بإذابة الرصاص في المسجد الحرام، في أماكن في المطاف، وعند المزولة، فتم ذلك في يوم واحد. وفي شهر ذي القعدة سنة ٩٢٠ عشرون وتسعمائة رصص أرض المطاف الخواجة ابن عباد ا لله، وأصلح مجرى السيل والمسعى، حسب المرسوم، الذي ورد لنائب جدة، بتفويضه ذلك، وأرسل لهذا العمل رصاصاً ، وصل إلى جدة ، قالوا عنه أنه خمسون قنطاراً ، فوصل بعضه لمكة.

وأول من فرش المطاف بالحجارة الجبلية المنحوتة، هو الوزير الأعظم سنان باشا، وذلك سنة (٩٨٠) تسعمائة وثمانين هجرية أو في التي قبلها أو في التي بعدها.

قال القطبي في تاريخه: فمن آثاره الخاصة بالوزير الأعظم "سنان باشا" في المسجد الحرام هو: تعميره حاشية المطاف، وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف ، دائرة حول المطاف ، مفروشة بالحصا ، يدور بها دور حجارة منحوتة، مبنية حول الحاشية بالحجر الصوان المنحوت، ففرشت به في أيام الموسم ، وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف، من بعد أساطين المطاف، وصار ما بعد ذلك مفروشاً بالحصا الصغار ، كسائر المسجد خاص به، ذكره ا لله بالصالحات وأدام ا لله له العز والسعادات.

ومنها تعمير سبيل في التنعيم، أنشأها وأمر بإجراء الماء إليها، من بئر بعيدة عنها، يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية، مبنية فيما بينهما بالجص والنورة، وعين لها خادماً يسقي من البئر، ويصب في الساقية فيصل الماء إلى السبيل، يشرب منه ويتوضأ به المعتمرون، والواردون والصادرون، ويدعون له بالنصر والتأييد، وعين مصاريف ذلك من ريع أوقاف له بمصر. انتهى من تاريخ القطبي.

وفي سنة (١٠٠٣) هـ ثلاث وألف قلعوا حجارة المطاف، وكانت من الحجر الصوان، ففرشت في الحاشية، التي تلي المطاف، وفرشوا المطاف بالمرمر.

وفي سنة (١٠٠٦) هـ ست وألف فرش جميع أرض المطاف بالرخام الأبيض الناصع الجميل، السلطان محمد خان، من سلاطين آل عثمان، فرش المطاف كله إلى العمد المطيفة به، وقد قال، في ذلك، العلامة أسعد أفندي، مفتي الديار الرومية، وفي مدح سلاطين آل عثمان، قصيدة نقتطف منها ما يخص فرش المطاف بالمرمر للسلطان محمد خان فإنه قال:

فرش المطاف بمرمر   بصفاه يحكي المسجد
كالبدر أشرق نوره   إذ جن ليل أسود
كالكوكب الدري في   أوج السعادة يوقد

إلى أن قال:

فلأجل تاريخ له   قال ابن سعد أسعد
زان المطاف بمرمر   ملك الأنام محمد

وفي سنة (١٠٧٢) هـ اثنتان وسبعون وألف زاد في حاشية المطاف، فرشاً بالحجر المنحوت، زيادة قليلة، سليمان بيك صنجق جدة، والمراد بحاشية المطاف هو الخارج من أعمدة المطاف.

ثم إننا لم نبحث عمن أصلح المطاف بذلك، وربما كتبنا عنه في مبحث آخر من كتابنا هذا، لكن لا نتذكره الآن، فقد حصل إصلاحات وترميمات بالمسجد الحرام كله بعد السنة المذكورة مراراً. والله تعالى أعلم.

حدود المطاف بالأعمدة والأساطين ثم إزالتها بتاتاً في عصرنا

لا يخفى أن المطاف، كان هو حد المسجد الحرام، في زمن الجاهلية، وصدر الإسلام ، إلى أن حصلت التوسعة فيه، والمطاف نسميه الآن "بالصحن": وهو مفروش بالرخام الأبيض، وقد ذكرنا قياسه بالمتر .

و لم يكن المسجد الحرام، الذي حد نفس المطاف، محاطاً بجدار ، وإنما كانت الدور محدقة به من كل جانب، وقد جعلوا بين كل دارين طريقاً ينفذ منه إلى المسجد، فعليه تكون الإضاءة للطائفين بوضع المصباح على هذه الدور.

فأول من استصبح لأهل الطواف في المسجد الحرام ، عقبة بن الأزرق بن عمرو الغساني، وكانت داره لاصقة بالمسجد الحرام، من ناحية وجه الكعبة، والمسجد يومئذ ضيق ، فكان يضع على حرف داره أو جدر داره مصباحاً كبيراً، يستصبح فيه، فيضيء له وجه الكعبة والمقام وأعلى المسجد، وما زال أولاده يضعون المصباح على حرف الدار ، حتى كان خالد بن عبدا لله القسري، فمنعهم من ذلك ، ووضع هو مصباح زمزم مقابل الركن الأسود ، وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، أي في عام (٧٥).

قال الأزرقي: فلم يزل مصباح زمزم على عمود طويل مقابل الركن الأسود، الذي وضعه خالد بن عبدا لله القسري، فلما كان محمد بن سليمان على مكة، في خلافة المأمون سنة (٢١٦) ست عشرة ومائتين، وضع عموداً طويلاً مقابله، بحذاء الركن الغربي، فلما ولي مكة محمد بن داود، جعل عمودين طويلين، أحدهما بحذاء الركن اليماني، والآخر بحذاء الركن الشامي ، فلما ولّي هارون الواثق با لله أمر بعمد من الشبه "وهو نوع من النحاس" طوال عشرة ، فجعلت حول المطاف يستصبح عليها لأهل الطواف، وأمر بثمان ثريات كبار يستصبح فيها، وتعلق في المسجد الحرام في كل وجه اثنتان . اهـ من الأزرقي.

ثم قال أيضاً: قال الخزاعي أخبرني أبو عمران موسى بن منوية قال: أخبرني الثقة أن هذه العمد الصفر كانت في قصر بابك الخرمي، بناحية أرمينية ، كانت في صحن داره يستصبح فيها ، فلما خذله ا لله وقتل بابك، وأتى برأسه إلى سامرا، وطيف به في البلدان، وكان قد قتل خلقاً عظيماً من المسلمين ، وأراح ا لله منه ، هدمت داره وأخذت هذه الأعمدة التي حول البيت الحرام في الصف الأول، ومنها

في دار الخلافة أربعة أعمدة، وبعث بهذه الأعمدة المعتصم بـا لله أمير المؤمنين ، في سنة مائتين ونيف وثلاثين ، فهذا خبر الأعمدة الصفر، التي حول الكعبة، وهي عشرة أساطين، وكانت أربع عشرة اسطوانة فأربع في دار الخلافة بسامرا . انتهى من الأزرقي.

وذكر الفاسي نقلاً عن الفاكهي: أن أول من استصبح بالسرج في المسجد الحرام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وذلك سنة سبع عشرة من الهجرة.

فاعلم مما تقدم، أن أعمدة المطاف وأساطينه، ما وضعت حوله، إلا لتعليق مصابيح الاستضاءة عليها ، وتكون في الوقت نفسه علامة على حد المسجد الحرام ، الذي كان زمن رسول الله ﷺ وزمن أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، وما وراء ذلك فهو من الزيادات.

قال الغازي نقلاً عن تحصيل المرام، وهذا نقلاً عن القرشي، قال عز الدين ابن جماعة: والأساطين التي حول المطاف الشريف أحدثت للاستضاءة بالقناديل ، التي تعلق بينها، بعد العشرين وسبعمائة وكانت من خشب ، ثم جعلت من حجارة سنة (٧٤٩) تسع وأربعين وسبعمائة ، ثم ثارت ريح عاصفة سنة (٧٥١) إحدى وخمسين وسبعمائة فألقتها ثم جددت فيها . انتهى ما ذكره القرشي.

وقال الغازي نقلاً عن ابن فهد، أنه قال: في حوادث سنة (٧٣٦) ست وثلاثين وسبعمائة، وفيها جعلت الأساطين، التي حول المطاف، وجعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة، والباقي آجر مجصص، وجعل بين كل من الأساطين خشبة ممدودة ، راكبة عليها وعلى المقابلة لها ، لأجل القناديل ، التي يعلق ، لأجل الاستضاءة حول الكعبة، عوض الأخشاب ، التي كانت في هذا المكان على صفة الأساطين. وقال: في حوادث سنة (٧٤٩) تسع وأربعين وسبعمائة اجتهد الأمير فارس الدين ، في إصلاح المسجد الحرام، وجدد الأعمدة ، المتخذة حول المطاف. انتهى.

وقال الغازي وفي درر الفرائد: أن السلطان سليمان العثماني غير الأساطين، التي حول المطاف، وكانت من حجارة ، بأعمدة من نحاس في سنة (٩٨٢) اثنتين وثمانين وتسعمائة، وبينها أخشاب ممدودة لتعلق فيها القناديل حول المطاف، وعدة النحاس ثلاثون، وفي جهة زمزم في آخر الأساطين عموداً رخام، وفي آخر الأساطين من الجهة الأخرى من جهة المنبر عموداً رخام. انتهى.

وقال الغازي : قال الصباغ: أقول وقد جدد محمد عزت باشا، في زمن السلطان عبدالمجيد خان، عمودين من رخام، من جهة باب بني شيبة، على حافة الصحن، عليها أعمدة من حديد منقور لها ، بين الأساطين، متصلة تلك الأعمدة بالأساطين القديمة، وقد غيرت أيضاً الأخشاب ، التي بين الأساطين ، التي حول المطاف بأعمدة من حديد، تعلق فيها القناديل وبين كل عمودين سبع قناديل . انتهى .

والظاهر أن ذلك كان حوالي سنة (١٢٥٧) سبع وخمسين ومائتين وألف، حيث حصل في المسجد الحرام، بعض إصلاحات ، في زمن السلطان عبدالمجيد خان رحمه الله تعالى.

ولم نسمع أنه حصل بعد ذلك شيء في أعمدة المطاف ، اللهم إلا من إصلاح بعضها إصلاحاً بسيطاً لا يذكر، أو من ضربها بالبوية الزيتية.

انظر: صورة رقم ١٢٥ ، الحجر الأسود ويرى كحدقة العين وسط الكعبة المعظمة وبابها وحجر إسماعيل، ويظهر أيضاً أعمدة المطاف القديم التي في حدوده قبل التوسعة

توسعة المطاف لأول مرة في التاريخ

كان المطاف الأول هو نفس المسجد الحرام، من عهد إبراهيم، عليه الصلاة السلام ، إلى السنة الرابعة من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أي إلى السنة السابعة عشرة للهجرة. ففي هذه السنة زاد عمر رضي الله عنه، في المسجد الحرام، وهي أول زيادة حصلت فيه، وبقيت حدود المسجد الحرام ، الأول، الذي هو نفس المطاف، محفوظة معلومة إلى عصرنا هذا، رغم تكرار الزيادة في المسجد الحرام ، فالمطاف الأول هو هو، لم يفكر أحد من سلاطين المسلمين وملوكهم أن يوسعوه ويزيدوا رقعته.

فلما كان في زماننا هذا رأى الملك سعود بن عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، أن يوسع المطاف، حرصاً على راحة الحجاج في موسم الحج، فأصدر أمره الكريم بتوسعة المطاف، وهدم المقامات الأربعة، التي في أطراف المطاف. أما هدم المقامات المذكورة فقد تكلمنا عنها في محلها بما فيه الكفاية.

وأما توسعة المطاف: فإنه في الأسبوع الأخير من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين من الهجرة، ابتدؤا في قلع الرخامات، التي بعد المطاف، والمحيطة به، وحفروا الأرض المحيطة بالمطاف، لتتساوى به، بعد وضع الرخامات عليها، كما أنهم قلعوا في الأسبوع الأول من شهر رمضان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، الأعمدة الخضر، التي كانت في حدود المطاف الأول وعلامة عليه، ثم بدؤا، بعد حفر الأرض، في فرشها بالإسمنت، ثم في وضع الرخامات عليه حتى تساوى هذا المطاف الجديد، بالمطاف القديم، وصار على سمته وبلصقه، ومقدار مساحة الجديد كمقدار مساحة القديم تقريباً.

وانتهوا من فرش المطاف الجديد بالرخام في النصف الأول من شهر شوال من السنة المذكورة.

فلو تأملنا لوجدنا أن مكان توسعة المطاف أي "المطاف الجديد" هو نفس المكان الذي زاده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في المسجد الحرام سنة (١٧) سبع عشرة من الهجرة، فلا تنقص هذه التوسعة في المطاف ولا تزيد عن مقدار ما زاده عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في المسجد الحرام، إلا بمقدار قليل نحو مترين أو ثلاثة فقط لا غير.

فالمطاف الجديد يبتدئ من الخط الأسود، الذي يدور حول الكعبة المشرفة، فلقد اقترحنا على القائمين بالتوسعة وضع رخام أسود حول المطاف القديم كله، ليكون فارقاً بين المطاف القديم والمطاف الجديد، لبيان كل منهما، وهنا مسألة لا بد من ذكرها، فلقد جاء في كتاب "شفاء الغرام" في الجزء الأول بصحيفة ٣١٨ ما نصه:

وينبغي للطائف أن لا يخرج عن هذا المكان في طوافه، لأن في الجواهر لابن شاش على مذهب الإمام مالك: لا يطوف من وراء زمزم ولا من وراء السقائف، فلو فعل مختاراً أعاد ما دام بمكة، فإذا رجع إلى بلده فهل يجزيه الهدي أم يلزمه الرجوع للمتأخرين قولان. انتهى. ونحوه لابن بشير وابن الحاجب في مختصره، وقد بسطنا هذه المسأله في أصل هذا الكتاب، والسقائف أروقة المسجد الحرام. انتهى من شفاء الغرام.

مقدار المطافين القديم والجديد وشكلهما

المطاف القديم هو على شكل بيضوي، من أصل الوضع الطبيعي في بادئ الأمر، وسببه أيضاً وجود حِجْر إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، في جهة واحدة من الكعبة المشرفة، وهي الجهة الشمالية، فالطائف يطوف بلصق الكعبة من الجهات الثلاث، فإذا وصل إلى الجهة الشمالية صار يطوف من وراء جدار حجر إسماعيل، أي مبتعداً عن الكعبة من هذه الجهة بمقدار عشرة أمتار تماماً، لأن من شروط الطواف أن يكون من وراء جدار الحِجر. فلهذا كان المطاف القديم، على شكل بيضوي، بطبيعة الحال، لا بفعل فاعل. كما ستراه في الرسم الآتي.

وإليك بيان طول المطاف القديم من الجهات الأربع محرراً مضبوطاً ضبطاً تاماً بالأمتار.

سنتيمتر	متر	طول المطاف القديم من الجهات الأربع
٥٠	١١	طول المطاف القديم من جدار الكعبة الذي فيه الباب من جهة الشرق إلى أول مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.
٦٥	١٦	طول المطاف القديم من جدار الكعبة من ظهرها أي من الجهة الغربية.
٣	٢٢	طول المطاف القديم من جدار الكعبة من تحت ميزابها أي من الجهة الشمالية، بما فيه حِجْر إسماعيل وسمك جداره.
٢٠	١٥	طول المطاف القديم من جدار الكعبة الذي بين الركنين من الجهة الجنوبية.

هذا هو قياس طول المطاف القديم بالأمتار، وهو قياس مضبوط محرر لا يحتمل الشك، لأننا أخذناه من نفس المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف في زماننا سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية.

وأما المطاف الجديد فهو على شكل دائرة كاملة الاستدارة وقد كان هذا الشكل الدائري من عمل المهندسين المصريين الذين أشرفوا على توسعة المطاف، كما ستراه في الرسم الآتي.

وإليك بيان طول هذا المطاف الجديد من الجهات الأربع محرراً مضبوطاً تاماً بالأمتار:

طول المطاف الجديد من الجهات الأربع	متر	سنتيمتر
طول المطاف الجديد من الجهة الشرقية للكعبة، أي من مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.	١٥	٣٠
طول المطاف الجديد من الجهة الغربية ، أي من جهة ظهر الكعبة.	١٠	٧٥
طول المطاف الجديد من الجهة الشمالية، أي من جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام.	٤	٦٥
طول المطاف الجديد من الجهة الجنوبية ، أي من جهة الركنين الأسود واليماني.	١١	٥٠

هذا هو قياس طول المطاف الجديد بالأمتار، وهو قياس محرر مضبوط لا يحتمل الشك، لأننا أخذناه من نفس المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف في زماننا سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين من الهجرة. وبإضافة مقدار القديم على المطاف الجديد ، يظهر مقدار كامل المطافين.

ولقد قسمنا هذه الدائرة إلى أربعة أقسام متساوية كما هو ظاهر في الرسم، لنبيّن مقدار طول المطاف القديم، وطول المطاف الجديد، من الجهات الأربع، وهو رسم صحيح مضبوط مطابق للحقيقة، أخذناه من المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف من أواخر شهر شعبان إلى أوائل شهر شوال من سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية، فالحمد لله على التوفيق.

انظر: صورة رقم ١٢٦ ، المطافين القديم والجديد

الحج

الحج في الجاهلية وبعض عادات العرب فيه

جاء في كتاب "مرآة الحرمين" تأليف إبراهيم رفعت باشا، في الجزء الأول ، عن حج أهل الجاهلية وبعض عاداتهم، ما يأتي:

من زمن مديد والعرب في جاهليتها تحج إلى بيت الله الحرام وكانوا على دينين : "حلة وحمس". فالحمس قريش ومن والاها من كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وقضاعة وجديلة وغطفان وعدوان وغيرهم من قبائل العرب، سموا بذلك

لتحمسهم في دينهم، والحماسة : الشجاعة، والأحمس : الشجاع، أو لأنهم احتموا بالحمساء، وهي الكعبة . وكانت قريش، إذا زوّجت عربياً من بناتهم ، شرطوا عليه أن كل من ولدت منه فهو أحمسي ، على دينهم ويرون أن ذلك أحفظ لشرفهم وأبسط لسلطانهم . وكانت لهم في العرب ميزة ، لم تكن لغيرهم، ومنشأ ذلك فضل فيهم ، وكمال في أخلاقهم ، فقد كانوا حلفاء متآلفين ، وبكثير من شريعة إبراهيم متمسكين ، ولم يكونوا كالأعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقره دين ، ولا يزينه أدب . وكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ، ويقيمون المناسك، ويكفنون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة وتبرأوا من الهربذة ، وتباعدوا في المناكح، من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت، غيرةً وبعداً من المجوسية. ونزل القرآن، بتوكيد صنيعهم، وحسن اختيارهم . وكانوا يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً ، ولذلك قال عبدا لله بن عباس وقد سأله رجل عن طلاق العرب فقال: كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها، فإن طلقها اثنتين فهو أحق بها أيضاً، فإن طلقها ثلاثاً، فلا سبيل له إليها. ولذلك قال الأعشى:

أيا جارتي بيني فإنك طالقة ... كذاك أمور الناس غادٍ وطارقة

وبيني فقد فارقت غير ذميمة ... وموموقة منا كما أنت وامقة

وبيني فإن البين خير من العصا ... وأن لا ترى لي فوق رأسك بارقة

وكان من عادة الحمس، إذا أحرموا، أن لا يأتقطوا الأقط ، ولا يأكلوا السمن ، ولا يسلوه - لا يطبخوه ولا يعالجوه- ولا يمخضوا اللبن، ولا يأكلوا الزبد، ولا يلبسوا الوبر ولا الشعر، ولا يغزلوه أو ينسجوه أو يستظلوا به ما داموا حرماً . وما كانوا كذلك يأكلون شيئاً من نبات الحرم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون ، وكانوا يطوفون بالبيت عليهم لباسهم، وكانوا إذا أحرم الرجل منهم ، في الجاهلية وأول الإسلام، فإن كان من أهل البيوت ، نقب نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل ومنه يخرج. وما زالوا كذلك ، وحتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ فأحرم عام الحديبية، فدخل بيته، وكان معه رجل من الأنصار ، فوقف الأنصاري بالباب ، فقال له: ألا تدخل ؟ فقال الأنصاري: إني أحمسي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : وأنا أحمسي ديني ودينك سواء فدخل الأنصاري مع رسول الله ﷺ من الباب . وفي ذلك نزل قوله تعالى :

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

وقال الحمس لأنفسهم: لا تعظّموا شيئاً من الحل، كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وجعلوا موقفهم بطرف الحرم، من جهة نمرة، يظلون به عشية عرفة، ويفيضون منه إلى المزدلفة، فإذا عمت الشمس رؤوس الجبال، وقفوا، وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس. فعلوا ذلك وأقروا سائر العرب على الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وتلك شريعة إبراهيم يعرفونها حق المعرفة، ولكن ترفعهم ومغالاتهم تنكب بهم عن سبيلها، فشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. ومنشأ ذلك الغلو أن الله تعالى، لما أهلك أبرهة الحبشي، صاحب الفيل، وسلّط عليه الطير الأبابيل -الجماعات- عظّمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، فازدادوا في تعظيم الحرم، والمشاعر الحرام، والشهر الحرام، ووقروها، ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى.

وقالت قريش وأهل مكة: نحن أهل الله، وبنو إبراهيم خليل الله، وولاة البيت الحرام وسكان حرمه وقطانه، فليس لأحد، من العرب، مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا. ولا تعرف العرب لأحد مثل ما تعرف لنا، فابتدعوا، عند ذلك، أحداثاً في دينهم، أداروها بينهم، فكان منها ما تقدم ومنها، أنهم ما كانوا يجيزون لأحد من الحلة -من ليسوا بحمس- أن يطوف بالبيت أول طوافه، إلا إذا لبس ثوباً أحمسياً يشتريه أو يستأجره أو يستعيره، فإذا ما أتى الواحد منهم باب المسجد، رجلاً كان أو امرأة قال: من يعير مصوناً، من يعير ثوباً إلخ... ؟ فإن وفق لثوب أحمسي لبسه وطاف به، وإن لم يوفّق ألقى ثيابه بباب الكعبة من الخارج، ثم دخل للطواف عرياناً. فيبدأ بأساف -صنم- ليستلمه ثم يستلم الركن الأسود ثم يأخذ يمينه ويطوف، جاعلاً الكعبة عن يساره، فإذا ختم طوافه سبعاً، استلم الركن، ثم استلم نائلة -صنم- فيختتم بها، ثم يخرج، فيجد ثيابه، كما تركها لم تمسّ، فيأخذها ويلبسها، ولا يعود بعد ذلك إلى الطواف عرياناً، وكانت النساء يلبسن

درعاً مفرج المقاديم والمآخير. ومنهن من تتخذ سيوراً، تعلقها في حقوتها، وتستتر بها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحلّه

وكانت العادة، أن يطوف العراة، من الرجال نهاراً ومن النساء ليلاً. وكان من له فضل ثياب من الحلة ولم يجد ثوباً أحمسياً يطوف فيه، طاف في ثيابه التي قدم بها من الحل، فإذا ما أتمّ طوافه نزعها فجعلها لقاً يطرح بين إساف ونائلة، فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها، حتى تبلى، من وطء الأقدام والشمس والرياح والمطر. قال ورقة بن نوفل يذكر اللقا:

كفى حزناً كرى عليه كأنه لُقاً بين أيدي الطائفين حريم

وكان من خبر الطواف عرياً، أنه جاءت امرأة يوماً، وكانت ذات هيبة وجمال، فطلبت ثياباً فلم تجد، وتحتّم عليها الطواف عريانة، فنزعت ثيابها بباب المسجد، ثم دخلت عريانة وقد وضعت يديها على فرجها، وجعلت تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

أخثم مثل العقب بادٍ ظله كأن حمى خيبر تملّه

فجعل فتيان مكة ينظرون إليها وتزوجت من قريش.

عادة سيئة وبدعة شنيعة، أبى الإسلام إلا هدمها والقضاء عليها، فبعث رسول الله ﷺ في سنة تسع علي بن أبي طالب إلى أبي بكر، أمير الحج، ليؤذن في الناس بأربع: لا يطوف بالبيت عريان ولا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع مسلم ومشرك في الحرم بعد عامهم هذا، ومن كان له عند النبي ﷺ عهد، فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فعهدته أربعة أشهر. وذلك ما جاء في الآيات من سورة الأعراف وسورة التوبة ففي الأولى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ۞ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وفي الثانية: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ۞ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ إلى أن يقول: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ وفيها: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا

يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

وكان، من عادة أهل الجاهلية، أن يدخلوا الكعبة لابسين أحذيتهم، حتى سنّ لهم، الوليد بن المغيرة، خلع الخف والنعل، إذا ما دخلوا. فاستن العرب بسنته إعظاماً للكعبة وإجلالاً. وكان، من عادتهم أيضاً، إذا اقترب موسم الحج، أن يخرج مريدوه، والذين يرجون إليه تجارة من ديارهم، إلى عكاظ، فيوافوه، مستهل ذي القعدة، ويقيموا فيه عشرين ليلة، تقوم فيها أسواقهم، وتنفق سلعهم، وتنحاز كل قبيلة إلى منزل، أعدّوه للقرى، فأقاموا عليه الرايات. واستدعوا إليه الأضياف، يستقبلهم القادة منهم والأشراف، فينزلونهم أهلاً وسهلاً ومرعى خصباً. وتختلط القبائل بعضها ببعض في بطن السوق متناشدين ومتبايعين.

فإذا ما مضت العشرون، انصرفوا إلى مجنة، فأقاموا بها عشراً، أسواقهم فيها قائمة وتجارتهم رائجة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليال، يروّجون فيها البضاعة، ثم يخرجون من ذي المجاز إلى عرفة، يوم التروية، وسموه بذلك لأنه ينادي بعضهم بعضاً، بذي المجاز، أن ترووا من الماء، لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة. وكان يحضر هذه المواسم من يبتغي مع الحج التجارة، أما من أراده فحسب، فيخرج متى شاء.

وكان أهل مكة يخرجون يوم التروية، بعد أن يتروّوا من الماء، فتنزل الحمس في طرف الحرم من نمرة يوم عرفة، والحلّة تقف بعرفة، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ قبل الهجرة، يترك الحمس إلى الحلة، وكانوا لا يتبايعون يوم عرفة ولا أيام منى، فما أن جاءت الحنيفية أحلت ذلك، قال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾. وكانت الحلة تفيض من عرفة يوم عرفة إذا طفلت الشمس للغروب، والحمس يفيضون من نمرة، في الوقت نفسه، فيلتقون جميعاً في المزدلفة، ويبيتون بها، حتى إذا طلع الفجر، واختلط بياض النهار بظلام الليل، وقف الجميع على قزح، حتى تطلع الشمس على رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال، فيدفعوا من المزدلفة إلى منى، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كما نغير وفي إفاضة الحمس نزل قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ فجعلت الإفاضة للجميع من عرفة وخطب بذلك النبي ﷺ،

في حجة الوداع، يوم عرفة، فكان مما قال: وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس ، ويحل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غداً، إن شاء الله، قبل طلوع الشمس ، هدينا مخالِف لهدي أهل الشرك والأوثان.

وكان أهل الجاهلية يرون أن من أفجر الفجور العمرة، في أشهر الحج، ويقولون : إذا برا الدبر وعفى الوبر ودخل صفر حلت العمرة لمن اعتمر . يعنون دبر الإبل، التي حجوا عليها، ووبرها فقال رسول الله ﷺ: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة ، واعتمر عُمَرَهُ كلها في ذي القعدة عمرة الحديبية وعمرة القضاء وعمرة من الجعرانة.

وكان يعظّمون الحرم والأشهر الحرم، فلا يعد بعضهم على بعض فيها ، ويلقى الرجل قاتل أخيه وأبيه فلا يتعرّض له بسوء، وكان الرجل ، إذا أحدث الحدث فقتل أو لطم أو ضرب، اتخذ من لحا شجر الحرم قلادة لصنعته وقال: أنا صَرُورة فلا يقتصّ منه ، وقد أبطل الإسلام ذلك فقال النبي ﷺ: لا صَرُورة في الإسلام وأن من أحدث حدثاً أخذ بحدثه.

والذي سنّ لهم تلك الشرائع الخرقاء هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعي ، الذي غيّر دين الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام، وكان سيداً شريفاً مطاعاً في قومه، يطعم الطعام، ويحمل المغرم ، وكل ما قال فهو دين متّبع لا يعصى. وهو الذي جاء بهبل، من أرض الجزيرة، فجعله في الكعبة، وجعل عنده عشرة أقداح يستقسمون بها ، في كل قدح منها كتابة يعملون بما تضمّنته. فكان مكتوباً في أحدها أمرني ربي وفي آخر نهاني وثالث غفل ، فإذا أراد الرجل أمراً أو سفراً أخرج هذه الأقداح الثلاثة فضرب بها ، فإن خرج الأولى مضى ، وإن كان الثاني نكص ، وإن طلع الثالث أعاد الكرّة حتى يخرج الآمر أو الناهي ، أما السبعة الباقية فمكتوب على أحدها الفعل، وفي ثان نعم، وفي ثالث لا، وفي رابع منكم ، وفي خامس من غيركم، وفي سادس ملصق، وفي سابع المياه، فإذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا أيماً أو يدفنوا ميتاً ذهبوا إلى هبل بمائة درهم وجزور ، ثم قالوا لغاضرة بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي، الذي إليه أمر القداح : هذه مائة درهم وجزور ولقد أردنا كذا أو كذا ، فاضرب لنا على فلان بن فلان فإن كان كما قال أهله خرج "الفعل" أو "نعم" أو "منكم" فما خرج من ذلك انتهوا إليه في أنفسهم وإن خرج "لا" ضرب على المائة فإن خرج "منكم" كان

منهم وسيطاً وإن خرج "من غيركم" كان حليفاً وإن خرج "ملصق" كان دعياً نفياً ، فمكثوا زماناً وهم يخلطون حتى جاء الإسلام بتحريم ذلك قال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ إلى أن يقول: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

وعمرو هذا ، هو الذي غيّر تلبية إبراهيم ، فبينما هو يسير على راحلته ، في بعض مواسم الحج، وهو يلبي . إذ تمثّل له إبليس ، في صورة شيخ نجدي، على بعير أصهب، فسايره ساعة ، ثم لبّى إبليس ، فقال : لبيك اللهم لبيك. فقال عمرو بن لحي مثل ذلك ، فقال إبليس: لبيك لا شريك لك ، فقال عمرو مثله، فقال إبليس: إلا شريك هو لك ، فاستنكر ذلك عمرو ، فقال إبليس : بعده ما يصلحه: إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، فقال عمرو: ما أرى بهذا بأساً. فما زالت كذلك حتى ردّها الإسلام إلى ما كانت عليه في شريعة إبراهيم "لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك".

ومن عادة العرب في جاهليتهم -كما حكاه الفاكهي- أن الصبية ، إذا بلغت ، ألبسها أهلها من الثياب أحسن ما يجدون، وجعلوا عليها من الحلي ما يقدرون، ودخلوا بها ، المسجد الحرام ، سافرة الوجه، فتطوف بالبيت، والأبصار ترنو إليها، والناس يتساءلون: من هذه ؟ فإن كانت حرة قالوا: فلانة بنت فلان ، وإن كانت مولّدة قالوا: مولّدة فلان قد بلغت أن تخدر في بيتها، وأراد أهلها أن تستكنّ في كنّها، فإذا قضت طوافها خرجت ، تشيّعها الأبصار العفيفة ، فإذ ذاك يرغب في نكاحها إن كانت من الحرائر، وفي شرائها إن كانت من الإماء، وبعد أن تصل إلى بيتها تحتجب فيه، فلا تخرج منه إلا إلى بيت زوجها ، أو إلى حظيرة سيدها . فكانوا يعطون للخطيب فرصة يتعرّف فيها جمال المخطوبة، وجعلوا ذلك في جوار البيت ليأمنوا النظرات الخبيثة.

وكانت الإفاضة في الجاهلية إلى صوفة بن أخزم بن العاص، وكان له ولد تصدق به على الكعبة يخدمها، فجعل إليه حبشية بن سلول الخزاعي، الإفاضة بالناس، من أجل نذره الذي نذر ، وكان إلى حبشية حجابة الكعبة ، وإمرة مكة. فحينما يقف الناس في الموقف يقول حبشية:

أجز يا صوفة. فيقول صوفة: أجيزوا أيها الناس، فيجوزون. وولي الإفاضة بعده ولده أخزم، الذي نذره للكعبة، وقام بخدمتها مع أخواله من جرهم، وأعقب أخزم على الإفاضة ولده من بعده، في زمن جرهم وخزاعة، حتى انقرضوا، وصارت الإفاضة في عدوان بن عمرو بن قيس بن عَيْلان بن مضر، في زمن قريش، في عهد قصي. وكانت من بني عدوان في آل زيد بن عدوان، يتوارثونها، حتى جاء الإسلام، وكان عليها أبو سيارة العدواني، الذي أفاض بالمشركين، في سنة ثمان. وأفاض أمير مكة عتّاب بن أسيد بالمسلمين.

وكان حضنة البيت يكرّمون الحجاج في الجاهلية، فروي عن هاشم بن عبد مناف أنه كان يقول لقريش إذا حضر الحاج: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا أضيافه وزوّار بيته يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد.

وروي مثل هذا عن قصي بن كلاب بن مرة، فكان كل قُرشي يخرج خرجاً من ماله، في كل موسم من مواسم الحج، يعطيه لمن يقوم بالرفادة -إطعام الحجاج- من قريش، فيصنعه طعاماً للحجاج، أيام الموسم بمكة ومنى، وبقي ذلك -مدة في عهد الإسلام- حكاه الأزرقي.

إنساء الشهور

(إنساء الشهور: تأخيرها عن أماكنها الفطرية)، والنسيء مصدر من قول القائل: نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك أي زاد الله في أيام عمرك ومدة حياتك حتى تبقى فيها حياً، وكل زيادة حدثت في شيء فالشيء الحادث فيه الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء، ولذلك قيل للبن إذا أكثر بالماء نسيء وقيل للمرأة الحبلى: نسوء، ونسئت المرأة لزيادة الولد فيها، وقيل: نسأت الناقة وأنسأتها إذا زجرتها ليزداد سيرها.

وكان أهل الجاهلية، إذا ما رغبوا في القتال، في شهر المحرم، أخّروه إلى صفر، وأحّلوا القتال في المحرم، وسموا صفر المحرم، وربيع الأول صفر. وهكذا حتى يكون ذو الحجة، في نهاية السنة، الشهر المحرم، وكانوا يفعلون هذا سنة ويتركونه سنة، فكان ذو الحجة يعود إلى مكانه لأول بعد أربع وعشرين سنة، وأول من أنسأ الشهور من مضر مالك بن كنانة ثم ابنه ثعلبة ثم أخوه الحرث بن مالك المعروف

بالقلمس ثم سرير بن الحارث، ثم كانت النساءة في بني فقيم من بني ثعلبة حتى جاء الإسلام . وكان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف ابن أمية بن عبد بن فقيم، وهو الذي جاء في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى الركن الأسود ، فلما رأى الناس يزدحمون عليه، قال: أيها الناس أنا له جار فأخرّوا عنه، فخفقه عمر بالدرة ثم قال: أيها الجلف الجافي قد أذهب الله عزّك بالإسلام.

وكان ، الذي إليه أمر النساءة، يقوم بفناء الكعبة، يوم الصدر، والناس حوله متجمّعون فيقول ، إذا أراد أن لا يحلّوا المحرم: أيها الناس لا تحلّوا حرماتكم وعظّموا شعائركم فإني أجاب ولا أعاب ولا يعاب لقول قلته. فهنالك يحرّمون المحرم ذلك العام، وإذا ما كانت السنة التي يريدون الإنساء فيها يقول : أيها الناس قد أنسأت العام صفر الأول يعني المحرم -وكانوا يسمونه صفر الأول وصفر صفر الثاني- فيطرحونه من الشهور، ولا يعتدّون به، ويبتدئون العدّة، فيقولون، لصفر وشهر ربيع الأول: صفرين، ويقولون لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى : شهري ربيع ، ويقولون لجمادى الآخر ولرجب: جمادين ويقولون لشعبان: رجب ، ولرمضان : شعبان، ولشوال: رمضان، ولذي القعدة شوال، ولذي الحجة : ذا القعدة، ولصفر الأول وهو المحرم الذي أنسأه: ذا الحجة فيحجّون تلك السنة في المحرّم. ويبطل من هذه السنة شهراً ينسأه. وكانوا ينسئون عاماً ويتركون آخر ، فكان يقع في كل شهر من شهور السنة حجتان في عامين ، وكانوا يحلّون، في الأشهر الحرم، دماء المحلين: طيء وخثعم، لأنهم كانوا يعدون على الناس فيها، من بين العرب، فيغزونهم ويطلبون بثأرهم ولا يقفون عن حرماتها، كما كان يفعل سائر العرب من الحلّة والحمس، فإنهم ما كانوا يعتدون في شهر حرام، ولو لقي أحدهم قاتل أبيه أو أخيه، ولا يستاقون مالاً إعظاماً لحرمة هذه الشهور.

بقي الأمر على هذا المنوال، حتى كانت سنة ثمان من الهجرة، فجاء الحج في ذي القعدة وحج المسلمون والمشركون، في هذا العام، فدفعوا معاً. فكان المسلمون، في ناحية ، يدفع بهم عتّاب بن أسيد، ويقف بهم المواقف لأنه أمير مكة من قبل النبي ﷺ، وكان المشركون ، ممن لهم عهد، ومن ليس لهم عهد، في ناحية أخرى ، يدفع بهم أبو سيارة العدواني، على أتان له، عوراء رسنها من ليف.

فلما كانت سنة تسع ، وقع الحج في ذي الحجة، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق، رضي الله عنه ، إلى مكة، أميراً على الحج، بعد أن علّمه المناسك ، وأمره

بالوقوف على عرفة، وعلى جمع -المزدلفة- ثم نزلت سورة براءة، بعد سفر أبي بكر، إلى مكة بالحجيج، فبعث بها النبي ﷺ مع علي، رضي الله عنه، وأمره إذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته، قام فقرأ على الناس سورة براءة ونبذ إلى المشركين عهدهم -حسب ما قدمنا- وقال: لا يجتمعن مسلم ومشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يخطب الناس ويصلي بهم ويقف المواقف ويدفع منها بالحجيج.

ومما تضمنته سورة التوبة إبطال النسيء قال تعالى فيه: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ۞ إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾. انتهى من الجزء الأول من كتاب "مرآة الحرمين".

معنى النسيء

تقدم أن من عادات أهل الجاهلية إنساء الشهور، على وجه الاختصار، فأحببنا أن نفصّل هنا معنى ذلك بالتفصيل حتى يكون واضحاً كل الوضوح، فنقول وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل: جاء في الجزء الأول من "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري ما نصه:

يقال إن عمرو بن لحي وهو خزاعة -ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعي- هو أول من نسأ الشهور، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، وجعل الوصيلة، والحامي. وهو أول من دعا الناس إلى عبادة هبل، قدم به معه من هيت. ومعنى النسيء أنهم ينسئون المحرم إلى صفر، ورجب إلى شعبان. وكان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهراً من أشهر الحل، ويقولون: نسئ الشهر.

وحكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أن أول من نسأ الشهور على العرب ، وأحل منها ما أحل، وحرم ما حرم، العلمس.

وهو حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد ، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أمية، ثم قام بعد أمية ابنه عوف ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة ، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: "اللهم إني لا أخاف ولا أعاف ، ولا مرد لما قضيت . اللهم إني أحللت شهر كذا -ويذكر شهراً من الأشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شن الغارات فيه- وأنسأته إلى العام المقبل -أي : أخرت تحريمه- وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي".

وكانوا يحلون ما أحل، ويحرمون ما حرم.

وفي ذلك يقول عمير بن قيس بن جذل الطعان ، من أبيات يفتخر:

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

وحكى السهيلي في كتابه المترجم "بالروض الأُنُف" أن نسيء العرب كان على ضربين: أحدهما تأخير المحرم إلى صفر، لحاجاتهم إلى شن الغارات وطلب الثأر، والثاني تأخير الحج عن وقته، تحرياً منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوما، حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة، فيعود إلى وقته. فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه، فوافق حجه في ذي القعدة ، ثم حج رسول الله ﷺ في العام القابل، فوافق عود الحج إلى وقته، في ذي الحجة ، كما وضع أولاً . فلما قضى رسول الله ﷺ حجه، خطب فكان مما قال في خطبته ﷺ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، يعني أن الحج قد عاد في ذي الحجة...

انتهى من كتاب نهاية الأرب.

وجاء في تاريخ الأزرقي عن إنساء الشهور أيضاً ما نصه:

قال الكلبي: فكان أول من أنسأ الشهور من مضر مالك بن كنانة، وذلك أن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندي وهو يومئذ في كندة، وكانت

النساءة، قبل ذلك، في كندة، لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة ومضر، وكانت كندة من أرداف المقاول، فنسأ ثعلبة بن مالك، ثم نسأ بعده الحارث ابن مالك بن كنانة وهو القلمس، ثم نسأ بعده سرير بن القلمس، ثم كانت النساءة في بني فقيم من بني ثعلبة، حتى جاء الإسلام، وكان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد بن فقيم، وهو الذي جاء في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى الركن الأسود، فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال: أيها الناس أنا له جار فأخرّوا عنه فخفقه عمر بالدرة ثم قال: أيها الجلف الجافي قد أذهب الله عزّك بالإسلام. فكل هؤلاء قد نسأ في الجاهلية، والذي ينسأ لهم، إذا أرادوا أن لا يحلوا المحرم، قام بفناء الكعبة يوم الصدر فقال: أيها الناس لا تحلوا حرماتكم وعظموا شعائركم فإني أجاب ولا أعاب ولا يعاب لقول قلته فهنالك يحرمون المحرم ذلك العام. وكان أهل الجاهلية يسمون المحرم صفر الأول وصفر الآخر فيقولون: صفران وشهرا ربيع وجماديان ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، فكان ينسأ الإنساء سنة ويترك سنة، ليحلّوا الشهور المحرمة، ويحرموا الشهور، التي ليست بمحرمة. وكان ذلك من فعل إبليس، ألقاه على ألسنتهم، فرأوه حسناً، فإذا كانت السنة، التي ينسأ فيها، يقول فيخطب بفناء الكعبة. ويجتمع الناس إليه يوم الصدر فيقول: أيها الناس إني قد أنسأت العام صفر الأول -يعني المحرم- فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به، ويبتدئون العدة فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول: صفرين، ويقولون لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى: شهري ربيع، ويقولون لجمادى الآخرة ولرجب جمادين، ويقولون لشعبان رجب ولشهر رمضان شعبان، ويقولون لشوال شهر رمضان، ولذي القعدة شوال، ولذي الحجة ذا القعدة، ولصفر الأول، وهو المحرم الشهر الذي أنسأه، ذا الحجة. فيحجون تلك السنة في المحرم، ويبطل في هذه السنة شهراً ينسئه، ثم يخطبهم في السنة الثانية، في وجه الكعبة، أيضاً فيقول: أيها الناس لا تحلوا حرماتكم، وعظموا شعائركم، فإني أجاب ولا أعاب، ولا يعاب لقول قلته، اللهم إني قد أحللت دماء المحلين طيء وخثعم، في الأشهر الحرم، وإنما أحل دماءهم، لأنهم كانوا يعدون على الناس في الأشهر الحرم، من بين العرب، فيغزونهم ويطلبون بثأرهم، ولا يقفون عن حرمات الأشهر الحرم، كما يفعل غيرهم من العرب. فكان سائر العرب، من الحلّة والحمس، لا يعدون في الأشهر الحرم على أحد، ولو لقي أحدهم قاتل أبيه أو أخيه. ولا يستاقون مالاً، إعظاماً

للشهور الحرم، إلا خثعم وطيء، فإنهم كانوا يعدون في الأشهر الحرم. فهنالك يحرّمون، في تلك السنة، المحرم، وهو صفر الأول، ثم يعدّون الشهور على عدّتهم التي عدّوها في العام الأول، فيحجون في كل شهر حجتين، ثم ينسأ في السنة الثانية فينسأ صفر الأول في عدتهم هذه ، وهو صفر الآخر في العدة الثانية، حتى تكون حجتهم في صفر أيضاً حجتين . وكذلك الشهور كلها حتى يستدير الحج في كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذي ابتدأوا منه الإنساء يحجون في الشهور كلها في كل شهر حجتين، فلما جاء الله بالإسلام أنزل في كتابه: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾ فأنزل الله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم﴾.

فلما كان عام فتح مكة ، سنة ثمان ، استعمل النبي ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، على مكة. ومضى إلى حنين فغزا هوازن، فلما فرغ منها، مضى إلى الطائف، ثم رجع عن الطائف إلى الجعرانة، فقسم بها غنائم حنين في ذي القعدة ثم دخل مكة ليلاً معتمراً فطاف بالبيت وبين الصفا والمروة، من ليلته، ومضى إلى الجعرانة فأصبح بها كبائت، فأنشأ الخروج منها، راجعاً إلى المدينة، فهبط من الجعرانة في بطن سرف، حتى لقي طريق المدينة من سرف، ولم يؤذن للنبي ﷺ في الحج تلك السنة، وذلك أن الحج وقع تلك السنة في ذي القعدة. ولم يبلغنا أنه استعمل عتاباً على الحج، تلك السنة، سنة ثمان، ولا أمره فيه بشيء. فلما جاء الحج حجّ المسلمون والمشركون، فدفعوا معاً، فكان المسلمون في ناحية يدفع بهم عتاب بن أسيد ويقف بهم المواقف لأنه أمير البلد، وكان المشركون ممن كان له عهد ومن لم يكن له عهد في ناحية يدفع بهم أبو سيارة العدواني على أتان عوراء رسنها ليف، قال: فلما كان سنة تسع ، وقع الحج في ذي الحجة، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق، رضي الله تعالى عنه، إلى مكة واستعمله على الحج، وعلّمه المناسك، وأمره بالوقوف على عرفة، وعلى جمع ، ثم نزلت سورة براءة خلاف أبي بكر، فبعث بها النبي ﷺ مع علي، عليه السلام، وأمره ، إذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته، قام علي فقرأ على الناس سورة براءة . ونبذ إلى المشركين عهدهم وقال:

لا يجتمعن مسلم ومشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا وكان أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، الذي يخطب على الناس ويصلي بهم ويدفع بهم في المواقف، فلما كان سنة عشر أذن الله عز وجل لنبيه ﷺ في الحج، فحج رسول الله حجة الوداع -وهي حجة التمام- فوقف بعرفة فقال: يا أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض فلا شهر ينسأ ولا عدة تخطأ، وإن الحج في ذي الحجة، إلى يوم القيامة. انتهى من تاريخ الأزرقي.

وحديث: (إن الزمان قد استدار كهيئته... إلخ) مذكور بتمامه في الصحيحين البخاري ومسلم، وقد أتينا به عند الكلام على خطبة حجة الوداع.

ذكر السنين التي يضرب بها المثل

بمناسبة ما تقدم نذكر هنا السنين الهجرية، التي كان يضرب بها المثل، أما ما كان في الجاهلية، كعام الفيل، فلم نتكلم عن ذلك. جاء في الجزء الأول، من نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ما نصه:

الأعوام التي يضرب بها المثل هي:

١- عام الجراد: كان سنة ثمان من الهجرة.

٢- عام الرمادة: كان سنة ثماني عشرة من الهجرة، في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصاب الناس فيه قحط حتى صارت وجوههم في لون الرماد من الجوع. وقيل: كانت الريح تسفي تراباً كالرماد لشدة يبس الأرض، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في التاريخ.

٣- عام الرعاف: كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرعاف.

٤- عام الجماعة: كان سنة أربعين من الهجرة. فيه سلّم الحسن بن علي، رضي الله عنهما، الخلافة لمعاوية، فاجتمعت الكلمة فيه.

٥- عام الجُحاف: كان سنة ثمانين من الهجرة، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول.

٦- عام الفقهاء: وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة. فيها مات علي بن الحسين زين العابدين، وأبو بكر بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله

عنهم ، وسعيد بن السيب، وعروة بن الزبير وعطاء بن يسار، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير.

٧- سنيات خالد: يضرب بها المثل في الجدب. وهو خالد بن عبد الملك ابن الحارث المعروف بأبي مطير. كان قد تولى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين، وتوالى القحط فيها، حتى أجلى أهل البوادي.

٨- سنة عشر ومائة: مات فيها قرينان في الزهد: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وقرينان في الشعر: جرير والفرزدق.

٩- سنة ست وخمسين وثلاثمائة: مات فيها جماعة من الملوك وهم شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ومعز الدولة ابن بويه، وكافور الإخشيدي صاحب مصر، ونقفور ملك الروم ، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدولة ابن حمدان ، ممدوح المتنبي، والحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان. انتهى من كتاب نهاية الأرب.

أمر الإفاضة في الجاهلية والإسلام

جاء في كتاب مرآة الحرمين ما نصه:

وكانت الإفاضة في الجاهلية إلى صوفة بن أخزم بن العاص ، وكان له ولد، تصدّق به على الكعبة يخدمها . فجعل إليه حبشية بن سلول الخزاعي، الإفاضة بالناس، من أجل نذره، الذي نذر. وكان إلى حبشية حجابة الكعبة وإمرة مكة. فحينما يقف الناس في الموقف يقول حبشية : أجز يا صوفة فيقول صوفة: أجيزوا أيها الناس فيجوزون ، وولي الإفاضة بعده ولده أخزم، الذي نذره للكعبة ، وقام بخدمتها مع أخواله من جرهم ، وأعقب أخزم على الإفاضة ولده من بعده ، في زمن جرهم وخزاعة، حتى انقرضوا، ثم صارت الإفاضة في عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان بن مضر في زمن قريش في عهد قصي . وكانت من بني عدوان في آل زيد بن عدوان، يتوارثونها، حتى جاء الإسلام، وكان عليها أبو سيارة العدواني الذي أفاض بالمشركين في سنة ثمان، وأفاض أمير مكة عتّاب بن أسيد بالمسلمين . انتهى من الجزء الأول من كتاب مرآة الحرمين.

وأما أمر الإفاضة في الإسلام ، فإنه يسن للإمام ، إذا غربت الشمس وتحقق غروبها ، أن يفيض من عرفات ويفيض الناس معه إلى مزدلفة ، ويؤخروا صلاة المغرب، بنية الجمع إلى العشاء بمزدلفة ، بشرطه المعروف في كتب الفقه. ويسن أن لا يدفع أحد من الحجيج حتى يدفع الإمام أو نائبه، فإن دفع قبله صح لكن كره ذلك.

فإذا وصلوا إلى مزدلفة باتوا بها وجمعوا منها حصيات جمرة العقبة، وبعد صلاة الفجر يقفون بجبل قزح ، يذكرون الله تعالى ، ثم يدفعون إلى منى قبيل طلوع الشمس ، اقتداء برسول الله ﷺ ، وامتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾.

ذكر من حج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

لا يعرف عدد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، منذ أن خلق الله الدنيا، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى في سورة النساء: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ۝ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. فأول الأنبياء آدم ، عليه السلام، وآخرهم نبينا "محمد" ﷺ.

فاختلفوا في عددهم ، فقيل : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وقيل : ألفا ألف ومائتا ألف وخمسة وعشرون ألفاً، وقيل غير ذلك. والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والمذكورون منهم ، في القرآن الكريم ، خمسة وعشرون مجموعون في هذين البيتين وهما:

في "تلك حجتنا" منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا

إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فقوله: "في تلك حجتنا" يشير الناظم، رحمه الله تعالى ، إلى الآيات الأربعة ، التي في سورة الأنعام، وهي: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ۝ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ۝ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ۝

وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين﴾ فهذه الآيات الأربعة جمعت أسماء ثمانية عشر من الأنبياء وأسماء سبعة منهم مذكورة في البيت الثاني، فصار الجميع خمسة وعشرون نبياً وهم المذكورون في القرآن المجيد.

أما عدد أولي العزم منهم فخمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم وعلى جميع إخوانهم الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم. وقيل هم أكثر من خمسة فهؤلاء الخمسة، من أولي العزم، مجموعون في أول سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين.

قال النحويون وجميع أسماء الأنبياء أعجمية أي من أوضاع غير العرب، فهي ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة، إلا أربعة وهم محمد، وصالح، وشعيب، وهود، فهذه الأربعة عربية ولهذا صرفت، والحق بهذا في الصرف شيث، ونوح، ولوط. وقد نظم ذلك بعضهم فقال:

إلا أن أسماء النبيين سبعة لها الصرف في إعراب من يتنشّد
فشيت ونوح ثم هود وصالح شعيب ولوط والنبي محمد

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والفرق بين النبي والرسول: هو أن النبي إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ ما أوحى الله إليه، والرسول قد يستعمل مرادفاً له، وقد يختص بمن هو صاحب كتاب فيكون أخص من النبي. وقيل النبي إنسان أنزل عليه شريعة من عند الله، بطريق الوحي، تتضمن تلك الشريعة بيان كيفية تعبده لله تعالى، فإذا أمر بتبليغها إلى الغير يسمى رسولاً، وقيل الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة مجدّدة يدعو الناس إليها، والنبي يعمّه، فالنبي أعم من الرسول وكلامنا هنا فيمن حج منهم يشمل النبي والرسول.

واعلم أن أربعة من الأنبياء سريانيون وهم: آدم، وشيت، وإدريس، ونوح وأربعة منهم من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد. أول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. واعلم أيضاً أن إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، هو جد غالب الأنبياء والمرسلين. قال ابن كثير في تاريخه: فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من

السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعه من الله تعالى وكرامة له . انتهى .

وقد ذكرنا أسماء الأنبياء الذين ليسوا من نسل إبراهيم الخليل عند ترجمته . هذا ولما كان آدم ، عليه الصلاة والسلام ، هو أول من بنى الكعبة المشرفة ، صار الحج من الشرائع القديمة ، وإن لم يكن بهذه الكيفية ، التي أخذناها ، من نبينا محمد ﷺ.

فعليه يكون آدم ، عليه السلام ، هو أول من حج من الأنبياء ، فإذا كان الحج فرض على جميع الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، بالكيفية التي أمرهم الله تعالى بها ، فقد حج كلهم بلا ريب ، وإذا كان مفروضاً على بعضهم ، فقد حج هؤلاء أيضاً ، فلما جاء طوفان نوح عليه السلام ، وعمّ الأرض الغرق ، لم يبق للبيت الحرام من أثر إلا مكانه ، حيث كان ربوة حمراء ، فجاء إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، فبنى الكعبة المعظمة وعلّمه الله المناسك ، وأمره أن يدعو الناس إلى الحج ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ ، والآية الأخرى التي بعدها ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ قالوا وحجّت بعد ذلك الأنبياء والأمم ، وكان إبراهيم يحجه كل سنة على البراق ، روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كانت الأنبياء ، عليهم السلام ، يدخلون الحرم مشاة حفاة ويطوفون بالبيت ويقضون المناسك حفاة مشاة . اهـ.

وفي تاريخ الغازي : وعن مجاهد : إن موضع البيت كان قد خفي ودرس من الغرق أيام الطوفان ، فصار موضعه أكمة حمراء مدورة ، لا يعلوها السيل ، غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبتونه ، وكان المظلوم يأتي من أقطار الأرض ويدعو عنده ، فقلَّ أنه من دعا هنالك إلا استجيب له . وعن ابن عمر ، رضي الله عنهما إن الأنبياء كانوا يحجون ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله تعالى للخليل إبراهيم ، وأعلمه مكان البيت . انتهى من تاريخ الغازي .

روي عن عبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، أنه قال : حج البيت ألف نبي من بني إسرائيل ، لم يدخلوا مكة ، حتى وضعوا نعالهم بذي طوى . وروي عن عبدالله بن ضمرة السلولي أنه قال : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر سبعة وسبعين نبياً جاؤوا حجاجاً فقبروا هنالك . وروي عن عثمان بن ساج أنه قال : أخبرني صادق أنه بلغه عن النبي ﷺ قال مرّ بفج الروحاء سبعون نبياً على نوق

حمر ، خطمهم الليف ، لبوسهم العباء، وتلبيتهم شتى . وروي عن مجاهد أنه قال : حج خمسة وسبعون نبياً ، كلهم قد طاف بالبيت ، وصلى في مسجد منى ، فإن استطعت ألا تفوتك الصلاة في مسجد منى فافعل . قال ابن إسحاق : لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا وقد حج . وروي عن وهب بن منبه أنه قال : قرأت في بعض الكتب الأولى ، أنه ليس من ملك يبعثه الله تعالى إلى الأرض ، إلا أمره بزيارة البيت ، فينقض من تحت العرش محرماً ملبياً حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعاً بالبيت ثم يركع في جوفه ركعتين ثم يصعد .

ونحن هنا نذكر من حج من الأنبياء ، صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين ، حسبما وقفنا عليهم ، في كتب التاريخ ، وورد ذكرهم في الأثر ، وهناك كثير منهم حجوا وطافوا بالبيت الحرام . وهنا ننقل باختصار ما جاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبري فنقول وبالله العون والتوفيق:

١) حج آدم عليه الصلاة والسلام ، عن ابن عباس ، أن آدم ، عليه السلام ، حج أربعين حجة من الهند على رجليه . قيل لمجاهد : أفلا كان يركب ؟ قال : وأي شيء كان يحمله ؟ وعن عطاء بن أبي رباح: أن آدم هبط بأرض الهند ومعه أربعة أعواد من الجنة ، فهي هذه التي يتطيب بها الناس. وأنه حج هذا البيت وطاف بين الصفا والمروة وقضى مناسك الحج. وعن عثمان بن ساج قال : أخبرني سعيد أن آدم ، عليه السلام، حج على رجليه، سبعين حجة ماشياً، وأن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا: برّ حجك يا آدم . لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . والمأزمان موضع بين عرفة ومزدلفة وهو المضيق في الجبال.

٢) وحج نوح عليه الصلاة والسلام، قال عروة بن الزبير: بلغني أن البيت وضع لآدم ، عليه السلام، يطوف به، وأن نوحاً قد حجه وجاءه وعظمه قبل الغرق.

٣ و٤ و٥) قال وهب بن منبه: خطب صالح في الذين آمنوا معه، فقال لهم: إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها . فاظعنوا منها فإنها ليست لكم بدار ، قالوا: رأينا لرأيك تبع فمرنا نفعل . قال: تلحقون بحرم الله تعالى وأمنه، لا أرى لكم دونه ، فأهلّوا من ساعتهم بالحج وأحرموا في العباء، وارتحلوا قلصاً حمراً مخطمة بحبال الليف، ثم انطلقوا آمّين البيت الحرام، حتى

وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني هاشم، وكذلك فعله هود ومن آمن وشعيب ومن آمن معه.

٦ و٧ و٨) وحج إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، عليهم الصلاة والسلام، قال محمد بن إسحاق ما ملخصه: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حج بإسماعيل ومن معه من المسلمين من جرهم، وهم سكان الحرم يومئذ مع إسماعيل وهم أصهاره، ووقف بهم المواقف كما علمه جبريل ، عليه السلام، وأراه المناسك، حتى إذا فرغ من الحج كله، انصرف إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، راجعاً إلى الشام فتوفي بها . وقال مجاهد: حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين وقال أيضاً: وحج البيت إسحاق وسارة من الشام.

٩) وحج يونس عليه الصلاة والسلام ، قال رسول الله ﷺ (من ضمن حديث صحيح): كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، خطام ناقته ليف خلبة، وعليه جبة من صوف، ماراً بهذا الوادي ملبياً. وعن مجاهد قال: حج البيت سبعون نبياً فيهم موسى، عليه السلام، عليه عباءتان قطوانيتان ، وفيهم يونس يقول: "لبيك كاشف الكرب لبيك".

١٠) وحج موسى عليه الصلاة والسلام، قال رسول الله ﷺ (من ضمن حديث صحيح): ... كأني أنظر إلى موسى يرمي الجمرة على ناقة حمراء خطامها من ليف وعليه جبّة من صوف.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: كأني أنظر إلى موسى بن عمران في هذا الوادي محرماً يلبي بين قطوانيتين. القطوانيّة عباءة بيضاء وقصيرة الخمل، ويقال كساء قطواني.

وعن مجاهد قال: حج موسى النبي ﷺ على جمل أحمر ، فمرّ بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان، مؤتزراً بإحداهما مرتدياً بالأخرى، وطاف بالبيت ثم طاف بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتاً من السماء "لبيك عبدي أنا معك". قال: فخر موسى ساجداً.

١١) وحج عيسى عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس ، رضي الله عنهما: أتى على هذا الوادي عيسى وموسى وصالح، وذكر غيرهم من الأنبياء على بكرات خطمهم الليف أزرهم النمار وأرديتهم العباء يحجون البيت العتيق.

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقوم الساعة حتى يمر عيسى بن مريم ببطن الروحاء حاجاً أو معتمراً يلبي ،

لبيك اللهم لبيك- فأيكم لقيه فليقل أبو هريرة يقرئك السلام - ولا يخفى أن نبينا "محمداً" خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، قد حج مراراً قبل البعثة ، كما حج حجة الوداع قبل موته ﷺ ، وسنذكر فيما بعد حجة الوداع .

هذا ما ورد من الأحاديث أو من الأثر في حق بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الذين حجوا، وهناك كثير منهم حجوا وطافوا بالبيت ولكن لم يرد عنهم شيء.

وفي هذا القدر كفاية -ذكرنا كل ذلك من كتاب القرى للطبري باختصار- ويوجد ذلك في تاريخ الأزرقي أيضاً.

١٢) أما نبينا "محمد" ﷺ فقد ذكر العلماء ، أنه قد حج قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججاً لا يُدرى عددُها ، وحج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين، وكذلك اعتمر قبل الهجرة عمراً لا يدرى عددها ، وأما بعدها فعمرة في رجب، وثلاثاً بل أربعاً في ذي القعدة، -أي في ثلاثة أعوام- لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارناً ، وعمرة في شوال كما صح في أبي داود وعمرة في رمضان كما في البيهقي.

فكان من حج واعتمر من الخلائق المكلّفين المؤمنين، إنما هو امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى : ﴿و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ وكل ذلك حباً في رضائه عز شأنه، بالطواف حول بيته المطهر، والإقامة ببلده الأمين المقدس. فالحمد لله الذي جعلنا من هذا الصنف، ونسأله تعالى أن يوفقنا لتعظيم شعائر الله واحترام الأمكنة المقدسة والأدب فيها.

ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة وخمس وثلاثين من الهجرة

لقد تقدم ذكر من حج من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام ، والخلفاء وأمراء المؤمنين أيضاً ونوابهم ، أي من كان أميراً على الحج في سنوات متعاقبة، وذلك من عام فتح مكة المشرفة إلى عام خمس وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وذلك نقلاً عن تاريخ المسعودي المسمى "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للعلامة أبي الحسن علي

ابن الحسين المسعودي، رحمه الله تعالى، الذي كان موجوداً في العام المذكور . أما من حج بالناس بعد ذلك فلم نبحث عنه. وقد سرد المسعودي في تاريخه ذلك سرداً ، ونحن وضعنا ما ذكره بنصه هنا ، لكن وضعناه في قالب بديع على صفة الجدول، لتسهل معرفته وليصل القارئ الكريم سريعاً إلى غرضه.

ففي عام الفتح سنة ثمان من الهجرة حج بالناس عتّاب بن أسيد ، رضي الله عنه. الذي استعمله رسول الله ﷺ على مكة، وقيل بل حج الناس أوزاعاً ليس عليهم أحد ، وفي العام التاسع حج أبو بكر ، رضي الله تعالى عنه، بالناس وقد خرج من المدينة في ثلاثمائة رجل ، وبعث رسول الله ﷺ عشرين بدنة هدايا ، وساق أبو بكر معه خمس بدنات، وإليك ما ذكره المسعودي في تاريخه في الجدول الآتي، وقد بدأناه بحج رسول الله ﷺ بالناس سنة عشر من الهجرة . وهو هذا:

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
١	١٠	رسول الله ﷺ	حج بالناس وهذه الحجة هي حجة الوداع
٢	١١	عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه	حج بالناس في خلافة أبي بكر رضي الله عنه
٣	١٢	أبو بكر رضي الله تعالى عنه	حج بالناس
٤	١٣	عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه	حج بالناس في خلافة عمر رضي الله عنهما
٥	١٤	عمر بن الخطاب رضي الله عنه	حج بالناس في خلافته
٦	١٥	....	لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة
٧	١٦ إلى ٢٣	عمر بن الخطاب رضي الله عنه	حج بالناس إلى سنة ثلاث وعشرين ثم قتل آخر ذي الحجة
٨	٢٤	عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	حج بالناس ، في خلافة عثمان رضي الله عنه

ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة وخمس وثلاثين من الهجرة

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
٩	٢٥	عثمان بن عفان رضي الله عنه	حج بالناس إلى سنة أربع وثلاثين ثم توفي بعد منتصف ذي الحجة سنة ٣٥
١٠	٣٥	عبدالله بن عباس رضي الله عنهما	حج بالناس بأمر عثمان وهو محصور
١١	٣٦	عبدالله بن عباس رضي الله عنهما	حج بالناس في خلافة علي كرم الله وجهه
١٢	٣٧	عبدالله بن عباس وسحرة الرهاوي	حج بالناس عبدالله بن عباس بأمر علي بن أبي طالب وسحرة الرهاوي بأمر معاوية
١٣	٣٨	قثم بن عباس نائب مكة من قبل علي	حج بالناس في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٤	٣٩	شيبة بن عثمان	حج بالناس في خلافة علي رضي الله عنه
١٥	٤٠	المغيرة بن شعبة	حج بالناس عن كتاب يقال أنه افتعله فيما قيل حيث كان النزاع بين معاوية والحسين
١٦	٤١	عتبة بن أبي سفيان	حج بالناس ثم حج بعده مروان بن الحكم
١٧	٤٤	معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه	حج بالناس
١٨	٤٥	مروان بن الحكم	حج بالناس
١٩	٤٦	عتبة بن أبي سفيان	حج بالناس
٢٠	٤٧	عتبة بن أبي سفيان	حج بالناس
٢١	٤٨	مروان بن الحكم	حج بالناس
٢٢	٤٩	سعيد بن العاص	حج بالناس
٢٣	٥٠	معاوية بن أبي سفيان	حج بالناس
٢٤	٥٢	سعيد بن العاص	حج بالناس عامين

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
٢٥	٥٤	مروان بن الحكم	حج بالناس
٢٦	٥٥	مروان بن الحكم	حج بالناس
٢٧	٥٦	عتبة بن أبي سفيان	حج بالناس
٢٨	٥٧	الوليد بن عتبة	حج بالناس عامين
٢٩	٥٩	عثمان بن أبي سعيد	حج بالناس
٣٠	٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص	حج بالناس
٣١	٦١	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان	حج بالناس عامين
٣٢	٦٣	عبدالله بن الزبير	حج بالناس إلى سنة إحدى وسبعين، حج بالناس الحجاج وقتل عبدالله بن الزبير
٣٣	٧٤	الحجاج بن يوسف	حج بالناس
٣٤	٧٥	عبد الملك بن مروان	حج بالناس
٣٥	٧٦	أبان بن عثمان بن عفان	حج بالناس إلى سنة ثمانين
٣٦	٨١	سليمان بن عبد الملك بن مروان	حج بالناس
٣٧	٨٢	أبان بن عثمان بن عفان	حج بالناس
٣٨	٨٣	هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن مغيرة المخزومي	حج بالناس إلى سنة خمس وثمانين
٣٩	٨٦	العباس بن الوليد بن عبد الملك	حج بالناس
٤٠	٨٧	عمر بن عبد العزيز بن مروان رضي الله عنه	حج بالناس
٤١	٨٨	الوليد بن عبد الملك	حج بالناس
٤٢	٨٩	عمر بن عبد العزيز	حج بالناس

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
		رضي ا الله تعالى عنه	
٤٣	٩٠	عمر بن عبد العزيز رضي ا الله تعالى عنه	حج بالناس
٤٤	٩١	الوليد بن عبد الملك	حج بالناس
٤٥	٩٢	عمر بن عبد العزيز رضي ا الله عنه	حج بالناس
٤٦	٩٣	عثمان بن الوليد بن عبد الملك	حج بالناس
٤٧	٩٤	مسلمة بن عبد الملك	حج بالناس
٤٨	٩٥	الوليد بن عبد الملك	حج بالناس
٤٩	٩٦	أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم	حج بالناس
٥٠	٩٧	سليمان بن عبد الملك	حج بالناس
٥١	٩٨	عبد العزيز بن عبدا لله بن خالد ابن أسيد بن العاص بن أمية	حج بالناس
٥٢	٩٩	أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم	حج بالناس
٥٣	١٠٠	أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم	حج بالناس
٥٤	١٠١	عبد العزيز بن عبدا لله أمير مكة	حج بالناس
٥٥	١٠٢	عبدالرحمن بن الضحاك الفهري	حج بالناس
٥٦	١٠٣	عبدا لله بن كعب بن عمير بن سبع ابن عوف بن نضر بن معاوية	حج بالناس عامين

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
		النضري	
٥٧	١٠٥	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي	حج بالناس
٥٨	١٠٦	هشام بن عبد الملك	حج بالناس
٥٩	١٠٧	إبراهيم بن هشام المخزومي	حج بالناس إلى سنة اثنتي عشرة ومائة
٦٠	١١٣	سليمان بن هشام بن عبد الملك	حج بالناس
٦١	١١٤	خالد بن عبد الملك بن أمية	حج بالناس
٦٢	١١٥	محمد بن هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة	حج بالناس
٦٣	١١٦	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	حج بالناس وهو ولي عهد
٦٤	١١٧	خالد بن عبد الملك	حج بالناس
٦٥	١١٨	محمد بن هشام بن إسماعيل	حج بالناس
٦٦	١١٩	مسلمة بن هشام أبو شاكر وقيل ابن عبد الملك	حج بالناس
٦٧	١٢٠	محمد بن هشام بن إسماعيل	حج بالناس إلى سنة أربعة وعشرين
٦٨	١٢٥	يوسف بن أبي الحجاج بن يوسف	حج بالناس
٦٩	١٢٦	عمر بن عبدا لله بن عبد الملك	حج بالناس

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
٧٠	١٢٧	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	حج بالناس
٧١	١٢٨	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	حج بالناس
٧٢	١٢٩	عبدالواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان	حج بالناس
٧٣	١٣٠	محمد بن عبد الملك بن مروان	حج بالناس
٧٤	١٣١	عروة بن محمد بن عطية السعدي	حج بالناس بكتاب افتعله على لسان عمه عبد الملك وهو والي الحجاز واليمن لمروان بن محمد، قال المسعودي: "فهذا آخر ما حج بنو أمية"
٧٥	١٣٢	داود بن علي بن عبد الملك بن العباس بن عبدالمطلب	حج بالناس
٧٦	١٣٣	زياد بن عبدا لله الحارثي	حج بالناس
٧٧	١٣٤	عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدا لله بن عباس	حج بالناس
٧٨	١٣٥	سليمان بن علي بن عبدا لله بن عباس	حج بالناس
٧٩	١٣٦	أبو جعفر المنصور	حج بالناس وفيها بويع لأبي جعفر المنصور
٨٠	١٣٧	إسماعيل بن علي بن عبدا لله بن عباس	حج بالناس
٨١	١٣٨	الفضل بن صالح بن علي	حج بالناس

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
٨٢	١٣٩	العباس بن محمد بن علي	حج بالناس
٨٣	١٤٠	أبو جعفر المنصور	حج بالناس
٨٤	١٤١	صالح بن علي	حج بالناس
٨٥	١٤٢	إسماعيل بن علي	حج بالناس
٨٦	١٤٣	أبو جعفر المنصور	حج بالناس
٨٧	١٤٤	....	لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة
٨٨	١٤٥	السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبدالمطلب	حج بالناس
٨٩	١٤٦	عبدالوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي بن علي بن عبدالله بن العباس	حج بالناس
٩٠	١٤٧	أبو جعفر المنصور وقيل محمد بن إبراهيم الإمام وقتل في ١٤٨	حج بالناس
٩١	١٤٩	عبدالوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي	حج بالناس
٩٢	١٥٠	عبدالصمد بن علي	حج بالناس
٩٣	١٥١	محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي	حج بالناس
٩٤	١٥٢	أبو جعفر المنصور	حج بالناس
٩٥	١٥٣	المهدي محمد بن عبدالله بن محمد بن علي	حج بالناس
٩٦	١٥٤	محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي	حج بالناس

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
٩٧	١٥٥	عبدالصمد بن علي	حج بالناس
٩٨	١٥٦	العباس بن محمد بن علي	حج بالناس
٩٩	١٥٧	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٠٠	١٥٨	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٠١	١٥٩	يزيد بن منصور بن عبدالله بن شهر بن يزيد بن مثوب الحميري	حج بالناس
١٠٢	١٦٠	الهادي بن موسى بن المهدي	حج بالناس وهو ولي عهد
١٠٣	١٦٢	إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر	حج بالناس
١٠٤	١٦٣	علي بن المهدي	حج بالناس
١٠٥	١٦٤	صالح بن أبي جعفر	حج بالناس
١٠٦	١٦٥	صالح بن أبي جعفر	حج بالناس
١٠٧	١٦٦	محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي	حج بالناس
١٠٨	١٦٧	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٠٩	١٦٨	علي بن محمد المهدي	حج بالناس
١١٠	١٦٩	سليمان بن أبي جعفر المنصور	حج بالناس
١١١	١٧٠	هارون الرشيد	حج بالناس
١١٢	١٧١	عبدالصمد بن علي	حج بالناس
١١٣	١٧٢	....	لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
١١٤	١٧٣	هارون الرشيد	حج بالناس وخرج محرماً من عسكره إلى مكة
١١٥	١٧٤	هارون الرشيد	حج بالناس إلى سنة ١٧٩ "تسع وسبعين ومائة"
١١٦	١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي	حج بالناس
١١٧	١٨١	هارون الرشيد	حج بالناس
١١٨	١٨٢	موسى بن عيسى	حج بالناس
١١٩	١٨٣	العباس بن محمد المهدي	حج بالناس
١٢٠	١٨٤	إبراهيم بن المهدي	حج بالناس
١٢١	١٨٥	منصور بن المهدي	حج بالناس
١٢٢	١٨٦	هارون الرشيد	حج بالناس
١٢٣	١٨٧	عبدالله بن العباس بن علي. وقيل منصور بن المهدي	حج بالناس
١٢٤	١٨٨	هارون الرشيد	حج بالناس
١٢٥	١٨٩	العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٢٦	١٩٠	علي بن الرشيد	حج بالناس
١٢٧	١٩١	العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور	حج بالناس عامين
١٢٨	١٩٣	داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٢٩	١٩٤	علي بن الرشيد	حج بالناس
١٣٠	١٩٥	داود بن عيسى بن موسى	حج بالناس

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
١٣١	١٩٦	العباس بن موسى	حج بالناس إلى سنة ثمان وتسعين ومائة
١٣٢	١٩٩	محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي	وثب ابن الأفطس العلوي من مكة فقبض عليه فتنحّى محمد بن داود و لم يمض إلى عرفة وخرج الناس فوقفوا بغير إمام فلما كانوا بالمزدلفة طلع عليهم ابن الأفطس فأقام لهم باقي حجتهم
١٣٣	٢٠٠	المعتصم بن إسحاق	حج بالناس
١٣٤	٢٠١	إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي	حج بالناس
١٣٥	٢٠٢	إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنهم	حج بالناس وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام على أنه أقام متغلّباً عليه لا مولى من قبل خليفة. كان ممن سعى في الأرض بالفساد وقتل أصحاب إبراهيم بن عبيد ا لله الحجبي وغيره في المسجد الحرام ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي وغيره من أهل العبادة.
١٣٦	٢٠٣	سليمان بن عبدا لله بن جعفر بن سليمان بن علي	حج بالناس
١٣٧	٢٠٤	عبيدا لله بن الحسن بن عبيدا لله	حج بالناس عامين
١٣٨	٢٠٦	أبو عيسى بن الرشيد	حج بالناس عامين
١٣٩	٢٠٨	صالح بن الرشيد	حج بالناس ومعه زبيدة إلى سنة عشرة

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
			ومائتين
١٤٠	٢١١	إسحاق بن العباس بن محمد بن علي	حج بالناس
١٤١	٢١٢	المأمون	حج بالناس
١٤٢	٢١٣	أحمد بن العباس	حج بالناس
١٤٣	٢١٤	عبيدالله بن عبدالله	حج بالناس
١٤٤	٢١٥	عبدالله بن عبيدالله	حج بالناس
١٤٥	٢١٦	....	لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة
١٤٦	٢١٧	سليمان بن عبدالله بن علي	حج بالناس
١٤٧	٢١٨	صالح بن العباس بن محمد	حج بالناس عامين
١٤٨	٢٢٠	صالح بن العباس	حج بالناس عامين
١٤٩	٢٢٢	محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب	حج بالناس إلى سنة ست وعشرين ومائتين
١٥٠	٢٢٧	جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد	حج بالناس
١٥١	٢٢٨	محمد بن داود بن عيسى	حج بالناس إلى سنة خمس وثلاثين ومائتين
١٥٢	٢٣٦	محمد المنتصر	حج بالناس ومعه جدته شجاع
١٥٣	٢٣٧	علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور	حج بالناس
١٥٤	٢٣٨	عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى بن	حج بالناس إلى سنة إحدى وأربعين ومائتين

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
		موسى بن علي بن عبدا لله بن عباس	
١٥٥	٢٤٢	عبدالصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام	حج بالناس إلى سنة أربع وأربعين ومائتين
١٥٦	٢٤٥	محمد بن سليمان بن عبدا لله بن محمد بن إبراهيم الإمام	حج بالناس إلى سنة ثمان وأربعين ومائتين
١٥٧	٢٤٩	عبدالصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدا لله بن عباس	حج بالناس
١٥٨	٢٥٠	جعفر بن الفضل بن موسى بن عيسى بن موسى ويلقّب بساسان	حج بالناس
١٥٩	٢٥١	إسماعيل بن يوسف العلوي	حج بالناس ولكن بطل الحج إلا يسيراً لأن إسماعيل هذا طلع على الحاج وهم بعرفة في جموعه فقتل من المسلمين خلقاً عظيماً حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى وكان شأنه في الفساد عظيماً.
١٦٠	٢٥٢	كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور	حج بالناس
١٦١	٢٥٣	عبدا لله بن محمد بن سليمان بن عبدا لله الرس	حج بالناس
١٦٢	٢٥٤	علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن	حج بالناس عامين

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
١٦٣	٢٥٦	محمد بن علي كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور	حج بالناس
١٦٤	٢٥٧	الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي	حج بالناس عامين
١٦٥	٢٥٩	إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن بويه	حج بالناس عامين
١٦٦	٢٦١	الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي	حج بالناس إلى ثلاث وستين ومائتين
١٦٧	٢٦٤	هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى	حج بالناس إلى سنة ثمان وسبعين ومائتين "خمسة عشر عاماً متوالية"
١٦٨	٢٧٩	أبو عبدا لله محمد بن عبدا لله بن داود بن عيسى بن موسى	حج بالناس إلى سنة سبع وثمانين ومائتين "تسع حجج متوالية"
١٦٩	٢٨٨	محمد بن هارون بن العباس بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبى جعفر المنصور	حج بالناس
١٧٠	٢٨٩	الفضل بن عبد الملك بن عبدا لله بن العباس بن محمد بن علي	حج بالناس إلى سنة خمس وثلاثمائة
١٧١	٣٠٦	أحمد بن العباس بن محمد	حج بالناس عامين

عدد	السنة الهجرية	اسم من حج بالناس	ملاحظات
		بن عيسى بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام وهو المعروف بأخي أم موسى الهاشمية قهرمانة شغب أم المقتدر با لله	
١٧٢	٣٠٨	إسحاق بن عبد الملك بن عبدا لله بن عبيدا لله	حج بالناس إلى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة
١٧٣	٣١٢	الحسن بن عبد العزيز بن عبدا لله بن عبيدا لله بن العباس بن محمد بن علي بن عبدا لله بن العباس	حج بالناس
١٧٤	٣١٣	أبو طالب عبدالسميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبدا لله بن العباس بن محمد	حج بالناس خليفة لعمه الحسن
١٧٥	٣١٤	عبدا لله بن عبيدا لله بن سليمان بن محمد الأكبر	حج بالناس
١٧٦	٣١٥	عبدا لله بن عبيدا لله بن العباس بن محمد المعروف بأبي أحمد الأزرق	حج بالناس خليفة الحسن بن عبدالعزيز بن العباس عامين
١٧٧	٣١٧	وفي هذه السنة دخل القرامطة مكة	دخل سليمان بن الحسن صاحب البحرين مكة ، وقد حضر عمر بن الحسن بن عبد العزيز المقدم نسبه إليه لإقامة الحج خليفة لأبيه فكان من أمر الناس ما كان ، ولم يتم حج في موسم سنة سبع وعشرة وثلاثمائة هذه من

ملاحظات	اسم من حج بالناس	السنة الهجرية	عدد
أجل حادثة القرامطة لعنهم الله إلا لقوم يسير غدروا فتمّ حجهم دون إمام وكانوا رجالة.			
حج بالناس خليفة لأبيه الحسن بن عبد العزيز	عمر بن الحسن بن عبدالعزيز الهاشمي	٣١٨	١٧٨
حج بالناس وهو خليفة الحسن بن عبد العزيز	جعفر بن علي بن سليمان	٣١٩	١٧٩
حج بالناس وهو خليفة لأبيه المذكور أيضاً. ولم يزل يحج بالناس إلى سنة (٣٣٥) خمس وثلاثين وثلاثمائة وهو على قضاء مكة في هذا الوقت وهو جمادى الآخرة من السنة المذكورة وهي سنة (٣٣٥) وإليه قضاء مصر وغيرها.	عمر بن الحسن بن عبدالعزيز كما هو موضح ذلك أمام اسمه هنا	ومن ٣٢٠ إلى ٣٣٥	

انتهى كل ذلك من آخر الجزء الثاني من تاريخ المسعودي ، ببعض تصرف يسير ، ومن ذلك وضعنا كلامه في هذا الجدول المرتب .

ذكر بعض من حج من الخلفاء والملوك

نذكر هنا بعض من حج من الخلفاء والملوك بعد مبايعتهم للخلافة ، أما حجهم قبل الخلافة فلم نتعرض له ، وذلك نقلاً باختصار عن تاريخ الشيخ عبدالله الغازي ، رحمه الله تعالى ، المسمى "إفادة الأنام بذكر بلد الله الحرام" وهو كتاب مخطوط بخط المؤلف نفسه غير مطبوع ، فقد جاء فيه وفي غيره ما ملخصه:

١) حج بالناس أبو بكر ، رضي الله عنه ، في سنة اثنتي عشرة من الهجرة .

٢) وحج بالناس عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، جميع خلافته ، إلا السنة الأولى، فقد حج بالناس عبدالرحمن بن عوف ، رضي الله عنه .

٣) وحج بالناس عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، في سنة خمس وعشرين . قال الطبري : فلم يزل يحج إلى سنة أربع وثلاثين ثم حصر في داره وحج عبدالله بن عباس بالناس . اهـ.
أما علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، فلم يتفق له الحج بالناس بعد الخلافة لانشغاله في الحروب.

٤) وحج بالناس معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، حج بالناس في سنة أربع وأربعين وفي سنة خمسين .

٥) وحج بالناس عبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، قال الطبري : لما بويع له حج ثماني حجج متواليات .

٦) وحج بالناس عبدالملك بن مروان في سنة خمس وسبعين بعد قتل ابن الزبير .

٧) وحج بالناس الوليد بن عبد الملك ، في سنة خمس وتسعين ، وقال الطبري : سنة إحدى وتسعينة .

٨) وحج بالناس سليمان بن عبد الملك ، في سنة سبع وتسعين .

٩) وحج بالناس هشام بن عبد الملك ، في سنة ست ومائة .

١٠) وحج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، في سنة ست عشرة ومائة .

١١) وحج بالناس أبو جعفر المنصور ، في سنة أربعين ومائة . قال الطبري : حج المنصور في سنة (١٤٠) وفي سنة (١٤٤) وفي سنة (١٤٧) وفي سنة (١٥٢) وفي سنة (١٥٨).

١٢) وحج بالناس محمد المهدي بن المنصور ، في سنة ستين ومائة ، وفي سنة أربع وستين ومائة .

١٣) وحج بالناس هارون الرشيد بن المهدي تسع حجات متفرقات ، أولها سنة (١٧٠) سبعين ومائة وسنة (١٧٣) و (١٧٤) و (١٧٥) و (١٧٧) و (١٧٩) و (١٨١) و (١٨٦) و (١٨٨) من الهجرة .

١٤) وحج الملك المعظم عيسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب ، في سنة إحدى عشرة وستمائة .

١٥) وحج الملك المظفر ملك اليمن ، في سنة خمس وخمسين وستمائة .

١٦) وحج الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر ، في سنة سبع وستين وستمائة .

١٧) وحج الملك المجاهد أنس بن السلطان العادل كتبغا المنصوري صاحب مصر والشام ، سنة أربع وتسعين وستمائة .

١٨) وحج الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثلاث حجات في سنة (٧١٢) اثني عشر وسبعمائة ، وفي سنة (٧١٩) وفي سنة (٧٣٢) هجرية .
١٩) وحج ملك التكرور موسى بن أبي بكر ، في سنة أربع وعشرين وسبعمائة .
٢٠) وحج الملك المجاهد صاحب اليمن ، في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وفي سنة ٧٥١ .
٢١) وخرج للحج الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، لكنه قتل في أيلة جهة العقبة .
٢٢) وحج السلطان قايتباي ، في سنة أربع وثمانين وثمانمائة.
٢٣) وحج أحد سلاطين الأعاجم ، في سنة ست وسبعين وألف . فأرسل الشريف سعد رسله إلى جدة يهنئونه بالوصول .
٢٤) وحجت ملكة بهو بال بالهند سكندر بيكم ، في سنة ثمانين ومائتين وألف .
٢٥) وحجت ملكة بهو بال بالهند سلطان جهان بيكم ، في سنة أحد وعشرين وثلاثمائة وألف .
٢٦) وحج عباس حلمي باشا خديوي مصر ، في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف وذلك في زمن أمير مكة الشريف الحسين بن علي ، الذي صار فيما بعد ملك الحجاز في عصرنا هذا .

انتهى ما نقلناه من تاريخ الغازي بغاية الاختصار جداً ، وقد يكون هناك بدون شك من حج من الملوك ولم يذكرهم الشيخ الغازي في تاريخه ، بدليل أنه لم يذكر من حج منهم في الزمن الذي بين هارون الرشيد وبين الملك المعظم عيسى ، وهو أكثر من أربعمائة سنة .

وفي هذا التاريخ مذكور ما عمله كل ملك وسلطان ووزير ، قدم للحج في الحرمين الشريفين ، من أعمال البر والخير والصدقات والإحسان بتفصيل تام ، لم ننقل كل ذلك مع ما فيه من الفوائد والدرس خوفاً من التطويل ، ولهذا السبب نفسه لم نتعرض لذكر من حج من الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان وكبار الناس ، ولم نذكر أيضاً من حج من الملوك والرؤساء في عصرنا هذا ، حيث لم نتنبه لهذا الأمر من قبل حتى نقيده لدينا ونسجله عندنا فنوكل ذلك إلى غيرنا من المؤرخين .

ولقد أتينا بهذه النبذة استنهاضاً لهمم الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء والأعيان في المبادرة لأداء فريضة الحج، والله الموفق وإليه المرجع والمآب.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا حج ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، بالناس، وكذلك الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله تعالى، حج بالناس بعد أن تولى على الحجاز، ثم حج بالناس بعده ابنه الملك سعود بن عبد العزيز، وكذلك حج بالناس أخوه الملك فيصل بن عبد العزيز وحج بهم قبل أن يكون ملكاً، وذلك في سنة ١٣٨٣ من الهجرة. وفق الله تعالى الجميع لمرضاته وتقبل منا ومنهم صالح الأعمال.

حجة الوداع نقلاً عن تاريخ الخميس

كانت حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، سميت هذه الحجة بحجة الوداع، لأن رسول الله ﷺ كان يودّع الناس فيها، كما هو صريح لفظ خطبته: "أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا... الخ".

وبالفعل فقد ودّع ﷺ هذه الدنيا الفانية ولحق بالرفيق الأعلى، بعد رجوعه من حجة الوداع إلى المدينة، وذلك يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

إننا نحبّ أن نطول الكلام عن حجة الوداع للنبي ﷺ لما يعود على القارئ الكريم بالمنافع الجمة، ولقد ورد وصف حجة الوداع -بفتح الواو- في كثير من الكتب، اخترنا أن ننقل ما ورد عنها من كتابين:

(١) تاريخ الخميس، (٢) ومرآة الحرمين. ومع أن كلاً منهما أتى في وصفها بالشرح الوافي التام، لم نقتصر في النقل عن أحدهما، بل نقلنا ما جاء فيهما بالحرف والنص، لأن في كل منهما من الفوائد المهمة ما لا يستغني عنه طلاب العلم، ولا بأس في إطالة الكلام ما دام هناك منافع متعددة ومتنوعة. فنقول وبالله التوفيق وعليه الاعتماد والتكلان:

جاء في تاريخ الخميس في الجزء الثاني عن حجة الوداع -بفتح الواو- ما نصه :

وفي هذه السنة "أي في السنة العاشرة" كانت حجة الوداع ، وتسمى حجة الإسلام وحجة التمام وحجة البلاغ ، وكره ابن عباس أن يقال : حجة الوداع ، وكان رسول الله ﷺ أقام بالمدينة يضحي كل عام ويغزو المغازي . فلما كان في ذي القعدة سنة عشر من الهجرة ، أجمع على الخروج إلى الحج ، قال ابن سعد: لم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله .

وفي البخاري ، عن زيد بن أرقم ، أن النبي ﷺ غزا تسع عشرة غزوة ، وأنه حج بعدما هاجر حجة واحدة وهي حجة الوداع ولم يحج بعدها . قال ابن إسحاق : وأخرى بمكة . وقيل حج بمكة حجتين . وهذا بعد النبوة ، وما قبلها لا يعلمه إلا الله ، وأخرج الترمذي ، عن جابر بن عبدالله ، حج رسول الله ﷺ ثلاث حجات : حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر معها عمرة . هذا لفظ الدارقطني وابن ماجة والحاكم وصححه على شرط مسلم . قال الشيخ محب الدين الطبري : لعل جابر أشار إلى حجتين بعد النبوة . وقال ابن حزم : حج رسول الله واعتمر قبل النبوة وبعدها ، وقبل الهجرة وبعدها ، حججاً وعمراً لا يعلمها إلا الله . وكذا قال أبو الفرج في كتاب مثير الغرام ، وقال السهيلي ، في شرح السيرة : لا ينبغي أن يضاف إليه في الحقيقة إلا حجة الوداع . وإن حج مع الناس ، إذ كان بمكة ، فلم يكن ذلك الحج على سنة الحج وكماله ، لأنه ﷺ كان مغلوباً على أمره ، وكان الحج منقولاً عن وقته ، فقد ذكر أن أهل الجاهلية كانوا ينقلون الحج عن حساب الشهور الشمسية ، ويؤخرونه في كل سنة أحد عشر يوماً ، وقد كان النبي ﷺ أراد أن يحج مقفله من تبوك ، وذلك إثر فتح مكة بيسير ، ثم ذكر أن بقايا المشركين يحجون ويطوفون بالبيت عراة ، فأخّر الحج حتى نبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وذلك في السنة التاسعة ، ثم حج في العاشرة بعد إمحاء رسوم الشرك كذا في البحر العميق .

وفي الاستيعاب : لم يحج رسول الله من المدينة، غير حجته الواحدة، وهي حجة الوداع ، وذلك في سنة عشر من الهجرة . وفي سيرة اليعمري: حج ﷺ بعد فرض الحج حجة واحدة، وقبل ذلك مرتين ، واعتمر ﷺ أربع عمر، كلها في ذي القعدة، إلا التي مع حجته واحدة منهن في ذي القعدة عام الحديبية ، سنة ست من

الهجرة، وصدّوا فيها، فتحلّل فحسبت له عمرة، والثانية في ذي القعدة من العام المقبل وهي سنة سبع وهي عمرة القضاء، والثالثة في ذي القعدة سنة ثمان، وهي عام الفتح من جعرانة، حيث قسّم غنائم حنين، والرابعة مع حجته الكبرى سنة عشر، وكان إحرامها في ذي القعدة، وأعمالها في ذي الحجة. كذا رواه البخاري في صحيحه ، عن أنس وكذا في منهاج النووي. ولما أراد رسول الله ﷺ حجة الوداع خرج من طريق الشجرة، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة ويدخل من طريق المعرس وهو موضع معروف على ستة أميال من المدينة، كذا في منهاج النووي، وهو أسفل من المسجد ، الذي ببطن الوادي. وأن رسول الله ﷺ إذا خرج إلى مكة ، يصلي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلى بذي الحليفة ، ببطن الوادي، وبات حتى يصبح . رواه البخاري، وذو الحليفة ماء لجشم على ستة أميال من المدينة، قاله النووي، وقال ابن حزم: إنه على أربعة أميال وقيل سبعة ، وفي شرح مختصر الوقاية للشمني ، فسّر ابن شجاع الميل بثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع إلى أربعة آلاف ، وفي الصحاح الميل من الأرض منتهى مد البصر ، عن ابن السكيت، وفي شرح الكنز ثلاث فراسخ أربعة آلاف بذراع محمد بن فرج الشاشي طولها أربعة وعشرون إصبعاً، وعرض كل إصبع ست حبات شعير ملصقة ظهر البطن.

وفي الينابيع: الميل ثلث فرسخ، والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة، وكل خطوة ذراع ونصف، بذراع العامة، وهو أربعة وعشرون إصبعاً . ومسجد ذي الحليفة يسمى مسجد الشجرة ، وقد خرب وبه البئر ، التي تسميها العوام بئر علي ، وينسبونها إلى علي بن أبي طالب، لظنهم أنه قاتل الجن بها. وهو كذب كذا في تشويق الساجد، وذو الحليفة هو الميقات لأهل المدينة ، ولمن مرّ به من غيرهم، وهو أبعد المواقيت ، وهناك منزل رسول الله ﷺ وارداً وصادراً ، فخرج ﷺ من المدينة مغتسلاً مدهناً مترجلاً في ثوبين إزار ورداء وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة فصلى الظهر بذي الحليفة.

وفي المواهب اللدنية، ثبت في الصحيحين ، عن أنس: صلينا مع النبي ﷺ الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين.

صرّح الواقدي: بأن خروجه ﷺ كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة وكان وقت خروجه من المدينة بين الظهر والعصر، وكان أول ذي الحجة

يوم الخميس وكان دخوله مكة صبح أربعة إلى رابع ذي الحجة كما ثبت في صحيح حديث عائشة وذلك يوم الأحد.

وفي سيرة اليعمري: دخل مكة يوم الأحد بكرة. وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت كما تقدم فيكون المكث في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى. وخرج معه، عليه السلام، تسعون ألفاً ويقال مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويقال أكثر كما حكاه البيهقي.

وكانت الوقفة يوم الجمعة، وأخرج ﷺ معه نساءه كلهن في الهوادج وأشعر هديه وقلّده. وفي سيرة اليعمري: خرج في حجة الوداع نهاراً بعدما ترجل وادهن وتطيب وبات بذي الحليفة، وقال: أتاني الليلة آتٍ من ربي، وقال: صل بهذا الوداي المبارك وقل عمرة في حجة فأحرم بهما قارناً.

وسئل جابر بن عبدالله عن حجة رسول الله، قال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس، في العاشرة، أن رسول الله حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله كيف أصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري واحرمي فصلّى رسول الله ﷺ ركعتين، في مسجد ذي الحليفة، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به على البيداء كان إلى مد البصر، الناس من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك فأهلّ بالتوحيد "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك". وأهلّ الناس بهذا ولزم رسول الله تلبيته، قال: لسنا ننوي إلا الحج ولسنا نعرف العمرة.

وعن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يدخل مكة من الثنية العليا يعني كداء، وهو المشهور بالمعلاة، ويخرج من الثنية السفلى يعني كدي -كذا رواه البخاري- وفي سيرة اليعمري ونزل على الحجون، وفي مناسك الكرماني روي أن النبي ﷺ دخل مكة صبيحة اليوم الرابع من ذي الحجة، وأقام بها محرماً إلى يوم التروية، ثم راح إلى منى محرماً بذلك الإحرام.

قال جابر: حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فجعل

المقام بينه وبين البيت، فصلى فيه ركعتين. وكان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾ عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاها كان كعتق رقبة. رواه الترمذي كذا في المشكاة. قال جابر: ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا منه قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ وقال: أبدأ بما بدأ الله به، فرقي عليه، حتى رأى البيت فاستقبله، فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى انصبّت قدماه في بطن الوادي، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل عليها كما فعل على الصفا، حتى أتم السعي على المروة. وفي سيرة اليعمري سعى راكباً. انتهى.

قال جابر، قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي، فليحلّ وليجعلها عمرة. فقام سراقة بن مالك بن جُعْشم، فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله أصابعه واحدة في الأخرى وقال: "دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبد".

وقدم علي من اليمن ببدن رسول الله ﷺ، فوجد فاطمة ممن حل، ولبست ثياباً صبيغاً، واكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: أبي أمرني بهذا.

قال علي: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة، للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله، فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها، فقال: صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك، قال: فإن معي الهدي فلا تحل. وكانت جملة الهدي، الذي قدم به علي من اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ مائة، فحلق الناس كلهم، وقصروا، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية، توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب النبي ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ومكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس فقال: إن

دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوعة ، وأول رباً أضع ربا العباس بن عبدالمطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك ، فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما أن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات ، ثم أذّن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب ، حتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرة وجعل حبل المشاة بين يديه فوقف مستقبل القبلة ، وكان يوم الجمعة وكان واقفاً إذ نزل عليه : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية . وفي بحر العلوم ، فبركت ناقته ، من هيبة القرآن .

قال جابر : فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وأردف أسامة خلفه ودفع شنق القصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك الرحل ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة ، كلما أتى جبلاً من الجبال ، أرخى لها قليلاً ، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يسبّح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبيّن الصبح وركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، ودعا الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع ، قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله ﷺ ، مرت ظعن البحرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع ﷺ يده على وجه الفضل ، فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر، ينظر فحوّل ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر فحرك قليلاً.

وفي شفاء الغرام، ذكر المحب الطبري وابن خليل سمي محسراً ؛ لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه أي أعيا . وأهل مكة يسمونه وادي النار، زعموا أن رجلاً اصطاد فيه غزالة فنزلت نار فأحرقته وا لله أعلم.

وليس وادي محسر من مزدلفة ولا من منى وهو مسيل ما بينهما وفي المشكاة : وادي محسر من منى.

ثم قال المصنف ، رحمه ا لله تعالى، بعد بضعة أسطر: وفي المشكاة عن عباس بن مرداس أن رسول ا لله ﷺ دعا لأمته، عشية عرفة، بالمغفرة ، فأجيب بأني قد غفرت لهم، ما خلا المظالم ، فإني آخذ للمظلوم من الظالم، قال: أي ربي إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة، وغفرت للظالم. فلم يجب عشيته ، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل . قال فضحك رسول ا لله ﷺ أو قال تبسم فقال له أبو بكر وعمر: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنا نضحك فيها ، فما الذي أضحكك ؟ -أضحك ا لله سنك- قال : إن عدو ا لله إبليس ، لما علم أن ا لله عز وجل ، قد استجاب دعائي ، وغفر لأمتي ، أخذ التراب فجعل يحثو على رأسه، ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه. رواه ابن ماجة والبيهقي في كتاب البعث والنشور .

قال جابر: ثم سلك الطريق الوسطى ، التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة ، التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات مثل حصى الخذف، يكبر مع كل حصاة منها، من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر بيده ثلاثاً وستين بدنة ، وأعتق ثلاثاً وستين رقبة، عدد سني عمره ، ثم أعطى علياً ما بقي إلى تمام المائة. وقد كان ﷺ أتى ببعضها وقدم علي بشيء منها من اليمن .

وفي حياة الحيوان : نحر بيده في حجة الوداع ، ثلاثاً وستين بدنة، وأعتق ثلاثاً وستين رقبة ، ثم حلق رأسه بمنى جانبه الأيمن ثم الأيسر، حالقه معمر بن عبدا لله العدوي، وقيل اسمه خراش بن أمية بن ربيعة الكلبي.

وفي منهاج النووي أن رسول ا لله ﷺ أتى منى، ثم أتى الجمرة، و لم يزل يلبي حتى رمى، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق : خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس . وفي المناسك للكرماني : أن النبي ﷺ لما رمى جمرة العقبة، رجع إلى منزله بمنى، ثم دعا بذبائح فذبح ، ثم دعا بالحلاق فأعطاه شقه الأيمن فحلقه، فدفعه إلى أبي طلحة، ليفرقه بين الناس ، ثم أعطاه شقه

الأيسر فحلقه ، ثم دفعه إلى أبي طلحة ليفرقه بين الناس، قيل : أصاب خالد بن الوليد شعرات من شعرات ناصيته ﷺ . وفي الشفاء: كانت شعرات من شعره، عليه السلام، في قلنسوة خالد ، فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر.

قال جابر: وأشرك ﷺ علياً في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب ﷺ فأفاض إلى البيت ، وصلى الظهر بمكة ، فأتى بني عبدالمطلب ، وهم يسقون على زمزم ، فقال: انتزعوا بني عبدالمطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم، فناولوه دلواً ، فشرب منه ، وطاف ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف ويسألوه. فإن الناس قد غشوه.

وكان ﷺ لا يستلم في طوافه ، إلا الحجر الأسود ، والركن اليماني. وعن الزبير قال: سأل رجل ابن عمر عن استلام الحجر ، قال: رأيت رسول الله يستلمه ويقبّله رواه البخاري ، وعن ابن عمر، قال : لم أر النبي ﷺ يستلم من البيت إلا الركنين اليمانيين متفق عليه. وعن ابن عباس ، قال: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن متفق عليه. وعن أبي الطفيل ، قال: رأيت رسول الله يطوف بالبيت على بعير ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبّل المحجن رواه مسلم. ذكر الأحاديث الأربعة في المشكاة. انتهى من "تاريخ الخميس".

حجة الوداع نقلاً عن كتاب مرآة الحرمين

وجاء في كتاب مرآة الحرمين : تأليف إبراهيم باشا رفعت في الجزء الأول ما نصه : قد رأينا أن نسوق إليك أيها القارئ حجته ﷺ ثم نردفها بالأحكام الفقهية في شرائع الحج ، حسب ما سطر في كتب المذاهب المختلفة ، وإنما قدمنا حجته ﷺ ، لأنها السراج الوهاج، الذي اقتبس منه الفقهاء ، ولأنها الحكم عند اختلاف الآراء ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ وقد اعتمدنا في ذلك على ما كتبه الإمام ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد" فإنه خير ما كتب في هذا الموضوع على ما علمنا .

حجة الوداع : لاخلاف أنه ﷺ لم يحج ، بعد هجرته إلى المدينة ، سوى حجة واحدة ، وهي حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر .

واختلف هل حج قبل الهجرة ، فروى الترمذي عن جابر بن عبدالله ، رضي الله عنه ، قال : حج النبي ﷺ ثلاث حجج ، حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر ومعها عمرة ، قال الترمذي : هذا حديث غريب -تفرّد به راوٍ واحدٍ- من حديث سفيان قال : وسألت محمداً - يعني -البخاري- عن هذا فلم يعرفه من حديث الثوري ، وفي رواية لا يعدّ هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج ، بادر رسول الله ﷺ إلى الحج ، من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر ، وأما قوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ فإنها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه ، وإتمام العمرة ، بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء .

ولما عزم رسول الله ﷺ على الحج ، أعلم الناس أنه حاج ، فتجهزوا للخروج معه ، وسمع بذلك من حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون ، فكانوا من بين يده ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر ، لست بقين من ذي القعدة ، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً ، وخطبهم قبل ذلك خطبة علّمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه ، قال ابن حزم : وكان خروجه يوم الخميس . قال ابن القيم : والظاهر أنه كان يوم السبت -أنظر أدلة كل منهما بزاد المعاد- وبعد أن صلى وخطب ترجّل -مشّط رأسه- وادهن ولبس إزاره ورداءه وخرج بين الظهر والعصر فنزل بذي الحليفة -الخريطة ٥٧- فصلى بها العصر ركعتين ثم بات بها ، وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر ، فصلى بها خمس صلوات ، وكان نساؤه كلهن معه ، وطاف عليهن تلك الليلة ، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلاً ثانياً ، لإحرامه غير غسل الجماع الأول ، ثم طيّبته عائشة بيدها بذريرة وطيب ، فيه مسك في بدنه ورأسه ، حتى كان وبيص المسك ، يرى في مفارقه ولحيته ، ثم استدامه و لم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهلّ بالحج والعمرة في مصلاه ، و لم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر ، وقلّد قبل الإحرام بدنه نعلين ، وأشعرها في جانبها الأيمن فشق صفحة سنامها وسلت الدم عنها . وقد ساق ابن القيم بضعة وعشرين دليلاً كلها صحيحة صريحة في أنه ﷺ حج قارناً ، وذكر أنه أخطأ في عمرة النبي ﷺ خمس طوائف ، ووهم في حجه خمس طوائف ، وغلط في إحرامه خمس طوائف ، وبيّن آراء كل طائفة ، وساق أدلتها ثم كرّ عليها بالنقض . وكتابته في هذا الموضوع أمتع ما

كتب فراجعها في كتابه "زاد المعاد" من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ٢٠٢ من الجزء الأول طبع الحلبي بمصر. ولبد رسول الله ﷺ رأسه بالغسل -بوزن كفل- وهو ما يغسل به الرأس من خِطْمي ونحوه، يلبد به الشعر، حتى لا ينتشر، وأهلّ في مصلاه ثم ركب على ناقته وأهلّ أيضاً ثم أهلّ لما استقلت به على البيداء. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: وايم الله لقد أوجب في مصلاه وأهلّ حين استقلّت بن ناقته وأهلّ، حين علا على شرف البيداء، وكان يهلّ بالحج والعمرة تارة وبالحج تارة، لأن العمرة جزء منه، فمن ثمة قيل: قرن، وقيل: تمتع وقيل: أفرد ثم لبى فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"، ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه، وأمرهم بأمر الله له، أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، وكان حجه على رحل لا في محمل ولا هودج ولا عَماريَّة وزاملته تحته. واختلف في جواز ركوب المحرم في المحمل والهودج والعماريّة ونحوها على قولين: هما روايتان عن أحمد، رحمه الله، أحدهما الجواز وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة، رحمهما الله، والثاني المنع وهو مذهب مالك. ثم إنه ﷺ خيّرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة -الحج أو العمرة أو هما معاً- ثم ندبهم، عند دنوّهم من مكة، إلى فسخ الحج والقران إلى العمرة لمن لم يكن معه هدي ثم حتّم ذلك عند المروة.

وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر، رضي الله عنهما، بذي الحليفة محمد بن أبي بكر فأمرها رسول الله ﷺ أن تغتسل وتستثفر وتستتر بثوب وتحرم وتهلّ، وكان في قصتها ثلاث سنن: إحداها غسل المحرم، والثانية أن الحائض تغتسل لإحرامها، والثالثة أن الإحرام يصح من الحائض. ثم سار رسول الله ﷺ وهو يلبي تلبيته المذكورة، والناس معه يزيدون فيها وينقصون، وهو يقرهم ولا ينكر عليهم ولزم تلبيته.

فلما كانوا بالروحاء، رأى حمار وحش عقيراً، فقال: دعوه فإنه يوشك أن يأتي صاحبه. فجاء صاحبه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله شأنكم بهذا الحمار؟ فأمر رسول الله أبا بكر، رضي الله عنه، فقسمه قسمين بين الرفاق. وفي هذا دليل على جواز أكل المحرم، من صيد الحلال، إذ لم يصده لأجله. وأما كون صاحبه لم يحرم فلعله لم يمرّ بذي الحليفة، فهو كأبي قتادة في قصته. وتدل هذه القصة على أن الهبة لا تفتقر إلى لفظ: وهبت لك، بل تصح بلفظ يدل

عليها ، وتدل على قسمته اللحم مع عظامه بالتحري، وتدل على أن الصيد يملك بالإثبات ، وإزالة امتناعه ، وأنه لمن أثبته لا لمن أخذه، وعلى حلٍ أكل لحم الحمار الوحشي، وعلى التوكيل في القسمة، وعلى كون القاسم واحداً . ثم مضى ، حتى إذا كان بالإثاية، بين الرُّويثة والعَرْج، إذا ظبي واقف في ظل شجرة ، فيه سهم ، فأمر رجلاً أن يقف عنده، لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوا . والفرق بين قصة الظبي وقصة الحمار، أن الذي صاد الحمار كان حلالاً، فلم يمنع من أكله ، وهذا لم يعلم أنه حلال، وهم محرمون ، فلم يأذن لهم في أكله ، ووكل من يقف عنده لئلا يأخذه أحد حتى يجاوزوا . وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة ، في عدم الحل ، إذ لو كان حلالاً لم تضع ماليته ، بل كان للحلال أن ينتفع به. ثم سار حتى إذا نزل بالعرج وكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة ، وكانت مع غلام لأبي بكر، فجلس رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جانبه وعائشة إلى جانبه الآخر وأسماء أختها إلى جانب أبيها، وأبو بكر ينتظر الغلام والزاملة، إذ طلع الغلام ليس معه البعير ، فقال : أين بعيرك ؟ فقال : أضللته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تضلّه، قال : فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: أنظروا إلى هذا المحرم ماذا يصنع، وما يزيد رسول الله على أن يقول ذلك ويتبسم، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي ، فرده عليه، فقال : إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم. فلما مرّ بوادي عُسفان قال: يا أبا بكر أي وادٍ هذا ؟ قال: وادي عسفان، قال: لقد مرّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خُطمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق ، وذكره الإمام أحمد في المسند، فلما كان بسَرِف حاضت عائشة، رضي الله عنها، وقد كانت أهلّت بعمرة، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، قال: ما يبكيك ؟ لعلك نفست، قالت نعم. قال: هذا شيء قد كتبه الله على بنات آدم ، افعلي ما يفعل الحاج ، غير أن لا تطوفي بالبيت.

وقد جاء في صحيح مسلم، عن جابر، رضي الله عنه ، قال: أهلت عائشة بعمرة حتى إذا كانت بسرف عركت -حاضت- ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة فوجدها تبكي فقال: ما شأنك؟ قالت: شأني إني قد حضت وقد أحل الناس و لم أحل و لم أطف بالبيت والناس يذهبون إلى الحج الآن ، فقال : إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم فاغتسلي، ثم أهلي بالحج. ففعلت ووقفت المواقف كلها ، حتى إذا طهرت ، طافت بالكعبة وبالصفا والمروة، ثم قال: قد حللت من

حجك وعمرتك. قالت: يا رسول الله! إني أجد في نفسي، أني لم أطف بالبيت، حتى حججت. قال: فاذهب بها يا عبدالرحمن فأعمرها من التنعيم. وقد تنازع العلماء في قصة عائشة، هل كانت متمتعة أو مفردة، والصواب أنها كانت متمتعة محرمة بالعمرة فقط. وإذا كانت متمتعة، فهل رفضت عمرتها وانتقلت إلى الإفراد بالحج أو أدخلت عليها الحج وصارت قارنة بإدخاله عليها؟ والصواب الثاني، وهل العمرة التي أتت بها من التنعيم كانت واجبة أو لا ؟ والصحيح أنها كانت نافلة تطييباً لقلبها وجبراً لها. وإلا فطوافها وسعيها وقع عن حجها وعمرتها وكانت متمتعة، ثم أدخلت الحج على العمرة فصارت قارنة، واختلفوا هل كان طهرها يوم عرفة أو يوم النحر. وحديث عائشة السابق يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك:

١) اكتفاء القارن بطواف واحد وسعي واحد.
٢) سقوط طواف القدوم عن الحائض، كما أن حديث صفية أصل في سقوط طواف الوداع عنها.
٣) أن إدخال الحج على العمرة جائز كما يجوز للطاهر وأولى المعذورة لأنها محتاجة إلى ذلك.
٤) أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها إلا أنها لا تطوف بالبيت.
٥) أن التنعيم من الحل.
٦) جواز عمرتين في سنة واحدة بل في شهر واحد.
٧) أن المشروع في حق المتمتع إذا خاف الفوات أن يدخل الحج على العمرة وحديث عائشة أصل فيه.
٨) أنه أصل في العمرة المكية وليس مع من يستحبها غيره، فإن النبي ﷺ لم يعتمر هو ولا أحد ممن حج معه من مكة خارجاً منها، إلا عائشة وحدها، فجعل أصحاب العمرة المكية قصة عائشة أصلاً لقولهم ولا دلالة لهم فيها، فإن عمرتها، إما أن تكون قضاء للعمرة المرفوضة عند من يقول: أنها رفضتها، فهي واجبة قضاء لها، أو تكون زيادة محضة وتطييباً لقلبها عند من يقول: أنها كانت قارنة وأن طوافها وسعيها أجزأها عن حجها وعمرتها، ولنعد إلى سياق حجه ﷺ.

فلما كان بسرف قال لأصحابه: من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ومن كان معه هدي فلا. وهذه رتبة أخرى، فوق رتبة التخيير، عند

الميقات . فلما كان بمكة أمر أمراً حتماً من لا هدي معه أن يجعلها عمرة ويحل من إحرامه ، ومن معه هدي أن يقيم على إحرامه ، ولم ينسخ ذلك شيء البتة ، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التي أمرهم بالفسخ إليها ، هل هي لعامهم ذلك أو للأبد ؟ قال : بل للأبد ، وأن العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة ، وقد روي عنه ﷺ الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر صحابياً وأحاديثهم كلها صحاح (انظر الأحاديث وأعذار المخالفين والرد عليها في زاد المعاد من ص٢٠٩ إلى ٢٢٥ ج ١) ثم نهض ﷺ إلى أن نزل بذي طوى ، وهي المعروفة الآن بآبار الزاهر ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكة فدخلها من أعلاها ، من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، وكان في العمرة يدخل من أسفلها ، وفي الحج دخل من أعلاها ، وخرج من أسفلها ، ثم سار حتى دخل المسجد وذلك ضحى .
وذكر الطبراني أنه دخله من باب بني عبد مناف ، الذي يسميه الناس اليوم ، باب بني شيبة ، أو باب السلام ، ثم استقبل البيت ودعا ، وذكر الطبراني : أنه كان إذا نظر إلى البيت قال : اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة . وروي عنه أنه كان عند رؤيته يرفع يديه ويكبر ويقول : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من حجَّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً ، وهو مرسل . ولكن سمع هذا سعيد بن المسيب من عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يقوله . فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحية المسجد ، فإن تحية المسجد الحرام الطواف .
فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه ولم يتقدم عنه ، إلى جهة الركن اليماني ، ولم يرفع يديه ولم يقل : نويت بطوافي هذا الأسبوع كذا وكذا . ولا افتتحه بالتكبير كما يكبر للصلاة ، كما يفعله من لا علم عنده ، بل هو من البدع المنكرات ، ولا حاذى الحجر الأسود بجميع بدنه ، ثم انفتل عنه وجعله على شقه ، بل استقبله واستلمه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ، ولم يعرف عنه عند الباب ، ولا تحت الميزاب ، ولا عند ظهر الكعبة وأركانها ، ولا وقت الطواف ، ذكر معين ، لا بفعله ولا بتعليمه بل حفظ عنه بين الركنين ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ . ورمل في طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول ، وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه ، واضطبع بردائه ، فجعله على أحد كتفيه ، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه ، وكلما حاذى الحجر الأسود ،

أشار إليه ، واستلمه بمحجنه ، وقبّل المحجن ، والمحجن : عصا محنية الأرأس ، وثبت عنه أنه استلم الركن اليماني ، ولم يثبت عنه أنه قبّله ، ولا قبّل يده عند استلامه ، ولكن ثبت عنه أنه قبّل الحجر الأسود ، وثبت عنه أنه استلمه بيده ، فوضع يده عليه ، ثم قبّلها ، وثبت عنه أنه استلمه بمحجن . فهذه ثلاث صفات ، وروي عنه أيضاً : أنه وضع شفتيه عليه طويلاً يبكي . وذكر الطبراني عنه بإسناد جيد أنه كان إذا استلم الركن اليماني قال : بسم الله والله أكبر ، وكان كلما أتى على الحجر الأسود قال : الله أكبر ، وروي عن عمر أنه قبّل الحجر وسجد عليه وأن رسول الله ﷺ فعل ذلك . وروي عن ابن عباس أنه قبّل الركن اليماني ثم سجد عليه ثم قبّله ثم سجد عليه ثلاث مرات . ولم يستلم ﷺ ولم يمسّ من الأركان إلا اليمانيين فقط . فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، قرأ فيهما بعد الفاتحة بسورتي الإخلاص ، فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله . فلما قرب منه قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به ، وفي رواية ابدأوا على الأمر ثم رقى عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك وقال مثل هذا ثلاث مرات . وقام ابن مسعود على الصَّدع ، وهو الشق الذي في الصفا ، فقيل له : هاهنا يا أبا عبدالرحمن ؟ قال: هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة . ذكره البيهقي. ثم نزل إلى المروة يمشي ، فلما انصبّت قدماه في بطن الوادي، سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى - هذا الذي صح عنه في ذلك اليوم- قبل الميلين الأخضرين في أول السعي وآخره ، والظاهر أن الوادي لم يتغير عن وضعه. هكذا قال جابر عنه في صحيح مسلم ، وظاهر هذا أنه كان ماشياً.

وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: طاف النبي ﷺ ، في حجة الوداع، على راحلته بالبيت ، وبين الصفا والمروة ليراه الناس ، وليشرف . ولم يطف رسول الله ﷺ ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً، قال ابن حزم : لا تعارض بينهما لأن الراكب إذا انصبّ به بعيره فقد انصبّ كله وانصبّت قدماه أيضاً مع سائر جسده، قال ابن القيم: وعندي وجه آخر للجمع بينهما أحسن من هذا وهو أنه سعى ماشياً أولاً ، ثم أتمّ سعيه راكباً،

وقد جاء ذلك مصرحاً به، ففي صحيح مسلم عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة ، قال: صدقوا وكذبوا ، قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد ، حتى خرج عليه العواتق من البيوت ، قال: وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه ، فلما كثر عليه ، ركب والمشي أفضل.

وأما طوافه بالبيت عند قدومه فاختلف فيه ، هل كان على قدميه أو كان راكباً؟ والصحيح أنه طافه على قدميه، لأنه ثبت عنه الرَّمل فيه، وهو إنما يكون من الماشي، وأن الركوب كان في طواف الإفاضة . وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة ، رقى عليها، واستقبل البيت وكبَّر الله وحده ، وفعل كما فعل على الصفا ، فلما أكمل سعيه عند المروة ، أمر كل من لا هدي معه، أن يحل حتماً ولا بد قارناً كان أو مفرداً ، وأمرهم أن يحلوا الحل كله، من وطء النساء والطيب ولبس المخيط، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، ولم يحل هو من أجل هديه وهناك قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة ، وهناك دعا للمحلفين بالمغفرة ثلاثاً وللمقصرين مرة وهناك سأله سراقة بن مالك بن جعشم عقيب أمره لهم بالفسخ والإحلال هل ذلك لعامهم خاصة أو للأبد ؟ فقال: بل للأبد. ولم يحل أبو بكر ولا عمر ولا علي ولا طلحة ولا الزبير من أجل الهدي، وأما نساؤه ﷺ فأحللن وكن قارنات إلا عائشة فإنها لم تحل ، من أجل تعذر الحل عليها بحيضها ، وفاطمة حلت لأنه لم يكن معها هدي، وعلي ، رضي الله عنه ، لم يحل من أجل هديه ، وأمر من أهل بإهلال كإهلاله ﷺ أن يقيم على إحرامه، إن كان معه هدي ، وأن يحل إن لم يكن معه هدي.

وكان يصلي مدة مقامه بمكة ، إلى يوم التروية، بمنزله ، الذي هو نازل فيه ، بالمسلمين ، بظاهر مكة ، فأقام ، بظاهر مكة ، أربعة أيام ، يقصر الصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحى توجّه بمن معه من المسلمين إلى منى ، فأحرم بالحج ، من كان أحل منهم من رجالهم ، ولم يدخلوا إلى المسجد فأحرموا منه ، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم ، فلما وصل إلى منى نزل بها وصلى بها الظهر والعصر وبات بها، وكان ليلة الجمعة ، فلما طلعت الشمس سار منها إلى عرفة، وأخذ على طريق ضب ، على يمين طريق الناس اليوم، وكان من أصحابه الملبي ومنهم المكبّر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على

هؤلاء، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة بأمره، وهي قرية شرقي عرفات، وهي خراب اليوم، فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت، ثم سار حتى بطن الوادي من أرض عرنة.

فخطب الناس على راحلته، خطبة عظيمة، قرّر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات، التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي: الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهن وعليهن، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف، ولم يقدر ذلك بتقدير، وأباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن إلى بيوتهن من يكرهه أزواجهن، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ثم أخبرهم أنهم مسؤولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فرفع إصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم. وسيأتي نص الخطبة في الكلام على حج الجاهلية، فلما أتمّها، أمر بلالاً فأذّن، ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين، أسرّ فيهما بالقراءة، وكان يوم الجمعة، فدل على أن المسافر لا يصلي جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً، ومعه أهل مكة، وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً، بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع ومن قال: أنه قال لهم: "أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر، فقد غلط فيه غلطاً بيناً، ووهم وهماً قبيحاً"، وإنما قال لهم ذلك في غزاة الفتح، بجوف مكة، حيث كانوا في ديارهم مقيمين.

ولهذا كان أصح أقوال العلماء: أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبي ﷺ، وفي هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة، ولا بأيام معلومة، ولا تأثير للنسك في قصر الصلاة البتة، وإنما التأثير لما جعل الله سبباً، وهو السفر. هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب إليه المحدّدون. فلما فرغ من صلاته ركب، حتى أتى الموقف فوقف في ذيل الجبل، عند الصخرات، واستقبل القبلة، وجعل حَبْل المشاة بين يديه، وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والتضرّع والابتهال، إلى غروب الشمس، وأمر الناس أن يدفعوا عن بطن عرنة وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال: وقفت هاهنا وعرفة

كلها موقف ، وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ، ويقفوا بها ، فإنها من إرث أبيهم إبراهيم . وكذلك هناك ، أقبل ناس من أهل نجد ، فسألوه عن الحج ، فقال : الحج يوم عرفة من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج .

أيام منى ثلاثة أيام التشريق ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ وكان في دعائه رافعاً يده إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، وأخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وذكر من دعائه ﷺ في الموقف : اللهم لك الحمد ، كالذي نقول ، وخيراً مما نقول ، اللهم : لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي ولك ربي تراثي ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح . ذكره الترمذي .

ومما ذكر من دعائه هناك : اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، والوجل المشفق المقرّ المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلّ جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين . ذكره الطبراني .

وذكر الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير" .

وذكر البيهقي ، من حديث علي ، رضي الله عنه ، أنه ﷺ قال : أكثر دعائي ودعاء الأنبياء من قبلي بعرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي صدري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وفتنة القبر ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ، وشر ما يلج في النهار ، وشر ما تهبّ به الرياح ، وشر بوائق الدهر . وأسانيد هذه الأدعية فيها لين ، وهناك أنزلت عليه : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته ، وهو محرم ، فمات . فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن في ثوبيه ، ولا يمس بطيب ، وأن يغسل بماء وسدر ، ولا يغطى رأسه ولا وجهه . وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبي . فلما غربت الشمس واستحكم غروبها ، بحيث ذهبت الصفرة ، أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، وأفاض بالسكينة ، وضمّ إليه زمام ناقته ، حتى إن رأسه ليصيب طرف رحله ، وهو يقول : أيها الناس عليكم السكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع ، أي ليس بالإسراع ، وأفاض من طريق المأزمين ، ودخل عرفة من طريق ضب . وهكذا كانت عادته ، صلوات الله وسلامه عليه ، في الأعياد أن يخالف الطريق ، ثم جعل يسير العَنَق ، وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطيء ، فإذا وجد فجوة ، وهو المتّسع ، نصّ سيره أي رفعه ، فوق ذلك ، وكلما أتى ربوة ، من تلك الربا ، أرخى للناقة زمامها قليلاً ، حتى تصعد ، وكان يلبي في مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، فلما كان في أثناء الطريق نزل ، صلوات الله وسلامه عليه ، فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً ، فقال له أسامة : الصلاة يا رسول الله . فقال : المصلّى أمامك ، ثم سار حتى أتى المزدلفة ، فتوضأ وضوء الصلاة ، ثم أمر المؤذّن بالأذان ، فأذّن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب ، قبل حطّ الرحال ، وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم ، أمر فأقيمت الصلاة ، ثم صلى العشاء الآخرة ، بإقامة بلا أذان ، ولم يصل بينهما شيئاً ، وقد روي أنه صلاهما بأذانين وإقامتين ، وروي بإقامتين بلا أذان ، والصحيح أنه صلاهما بأذان وإقامتين ، كما فعل بعرفة ، ثم نام حتى أصبح ، ولم يحيي تلك الليلة ولا صح عنه في إحياء ليلتي العيدين شيء ، وأذن ، في تلك الليلة ، لضعفة أهله، أن يتقدموا إلى منى ، قبل طلوع الفجر، وكان ذلك عند غيبوبة القمر. وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس ، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، لا قبله ، قطعاً بأذان وإقامة يوم النحر، وهو يوم العيد ، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة من الله ورسوله من كل مشرك، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً ، وذلك قبل طلوع الشمس ، وهنالك سأله عروة بن مضرس الطائي ، فقال يا رسول الله : إني جئت من جبلي طيء أكللت راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل ، إلا وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : من شهد صلاتنا هذه ، فوقف معنا ، حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ، ليلاً أو

نهاراً ، فقد تم حجه وقضى تفثه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح . وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها ركن كعرفة. وقد وقف ﷺ في موقفه ، وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف ، ثم سار من مزدلفة مردفاً للفضل بن عباس وهو يلبي في مسيره ، وانطلق أسامة بن زيد على رجليه ، في سباق قريش ، وفي طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ولم يكسرها ، من الجبل تلك الليلة ، كما يفعل من لا علم عنده ، ولا التقطها بالليل ، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف ، فجعل ينفضهن في كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين. وفي طريقه تلك ، عرضت له امرأة من خثعم جميلة، فسألته عن الحج عن أبيها ، وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على الراحلة ، فأمرها أن تحج عنه. وجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فوضع يده على وجهه ، وصرفه إلى الشق الآخر -وكان الفضل وسيماً- فقيل: صرف وجهه عن نظرها إليه وقيل : صرفه عن نظره إليها ، والصواب أنه فعله للأمرين ، فإنه في القصة جعل ينظر إليها وتنظر إليه ، سأله آخر هنالك عن أمّه فقال: إنها عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها فقال: أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم. قال: فحج عن أمك . فلما أتى بطن محسر ، حرّك ناقته ، وأسرع السير ، وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قصّ الله علينا، ولذلك سمي ذلك الوداي وادي محسر ، لأن الفيل حسر فيه، أي أعيى وانقطع عن الذهاب ، وكذلك فعل في سلوكه الحجر ، وديار ثمود ، فإنه تقنّع بثوبه وأسرع السير ، و "محسر" برزخ بين منى وبين مزدلفة لا من هذه ولا من هذه و "عرنة" برزخ بين عرفة والمشعر الحرام ، فبين كل مشعرين برزخ ليس منهما ، فمنى من الحرم وهي مشعر، ومحسر من الحرم وليس بمشعر ، ومزدلفة: حرم ومشعر ، وعرنة ليست مشعراً ولا حرماً ، وعرفة : حلّ ومشعر . وسلك ﷺ ، الطريق الوسطى ، بين الطريقين ، وهي التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة، فوقف، في أسفل الوادي ، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة وهو على راحلته ، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس ، واحدة بعد واحدة ، يكبر مع كل حصاة ، وحينئذ قطع التلبية . وكان في مسيره ذلك يلبي حتى شرع في الرمي ، ورمى وبلال وأسامة معه ، أحدهما آخذ بخطام ناقته، والآخر يظلّه بثوب من

الحر ، وفي هذا دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه، إن كانت قصة هـذا الإظلال في يوم النحر ثابتة ، وإن كانت بعده في أيام منى، فلا حجة فيها . وليس في الحديث بيان أي زمان كانت وا لله أعلم.

ثم رجع إلى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند ا لله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب ا لله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وقال: لعلّي لا أحج بعد عامي هذا . وعلمهم مناسكهم ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وأخبر أنه، رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال في خطبته: لا يجني جان إلا على نفسه، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة، والأنصار عن يسارها ، والناس حولهم ، وفتح ا لله له أسماع الناس، حتى سمعها أهل منى في منازلهم ، وقال في خطبته تلك : اعبدوا ربكم ، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم ، وودّع حينئذ الناس ، فقالوا : حجة الوداع. وهناك سئل عمن حلق قبل أن يرمي، فقال : لا حرج، قال عبدا لله بن عمر : ما رأيته سئل ﷺ يومئذ عن شيء إلا قال : افعلوا ولا حرج، قال ابن عباس : إنه قيل له ﷺ في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير قال: لا حرج ، وقال أسامة بن شريك : خرجت مع النبي ﷺ حاجاً وكان الناس يأتونه فمن قائل يا رسول ا لله ! سعيت قبل أن أطوف أو أخّرت شيئاً وقدّمت فكان يقول : لا حرج لا حرج ، إلا على رجل اعترض عرض رجل مسلم ، وهو ظالم، فذلك الذي حرج وهلك ، وقوله : سعيت قبل أن أطوف في هذا الحديث ليس بمحفوظ - والمحفوظ: تقديم الرمي والنحر والحلق بعضها على بعض ، ثم انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة، بيده ، وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى ، وكان عدد هذا الذي نحره ، عدد سني عمره، ثم أمسك ، وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، ثم أمر علياً، رضي ا لله عنه، أن يتصدق بجلالها ولحومها وجلودها في المساكين، وأمره أن لا يعطي الجزار في جزارته شيئاً منها ، وقال: نحن نعطيه من عندنا، وقال: من شاء اقتطع. وقد نحر ﷺ بمنحره بمنى، وأعلمهم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة طريق ومنحر ، وفي هذا دليل ، على أن النحر لا يختص بمنى ، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه . كما أنه لما وقف بعرفة، قال: وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف، ولما وقف بمزدلفة قال : وقفت هاهنا ومزدلفة كلها موقف. وسئل ﷺ أن يبني له بناء يظله

من الحر ؟ فقال: لا، منى مناخ لمن سبق إليه. وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها ، وأن من سبق إلى مكان فهو أحق به، حتى يرتحل عنه، ولا يملكه بذلك .

فلما أكمل رسول الله ﷺ نحره ، استدعى بالحلاق ، فحلق رأسه . فقال للحلاق ، وهو معمر بن عبدالله ، وهو قائم على رأسه بالموسى ، ونظر في وجهه وقال: يا معمر ! أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه وفي يدك الموسى. فقال معمر: أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله عليّ ، ومنّه، قال : أجل . وقال ﷺ للحلاق : خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ، فلما فرغ منه ، قسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق فحلق جانبه الأيسر ، ثم قال: هاهنا أبو طلحة فدفعه إليه، هكذا وقع في صحيح مسلم. وقد دعا ﷺ للمحلقين بالمغفرة ، ثلاثاً وللمقصرين مرة ، وحلق كثير من الصحابة بل أكثرهم ، وقصّر بعضهم . وهذا مع قوله تعالى : ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ ومع قول عائشة ، رضي الله عنها، طيبت رسول الله ، لإحرامه قبل أن يحرم ، ولإحلاله قبل أن يحل ، دليل على أن الحلق نسك وليس بإطلاق من محظورات الإحرام.

ثم أفاض ﷺ إلى مكة ، قبل الظهر ، راكباً ، فطاف طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة، وهو طواف الصدر . ولم يطف غيره ، ولم يسع معه . هذا هو الصواب ، وقد خالف في ذلك ثلاث طوائف : طائفة زعمت أنه طاف طوافين: طوافاً للقدوم سوى طواف الإفاضة ، ثم طاف للإفاضة ، وطائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه قارناً ، وطائفة زعمت أنه لم يطف في ذلك اليوم وإنما أخّر طواف الزيارة إلى الليل . -وقد بيّن ابن القيم منشأ هذه الأقوال وخطّأها في كتابه زاد المعاد من ص٢٣٩ إلى ٢٤٢- ولم يرمل ﷺ في هذا الطواف ، ولا في طواف الوداع ، وإنما رمل في طواف القدوم ، ثم أتى زمزم بعد أن قضى طوافه وهم يسقون ، فقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم . ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم فقيل : هذا نسخ لنهيه عن الشرب قائماً، وقيل: بل بيان منه لأن النهي على وجه الاختيار وترك الأولى وقيل: بل للحاجة وهذا أظهر . وهل كان في طوافه هذا راكباً أو ماشياً ؟ واختلف أين صلّى ﷺ الظهر يومئذ؟ ففي الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى ، وفي صحيح مسلم عن جابر ، أنه ﷺ صلى الظهر بمكة ، وكذلك قالت عائشة :

وقد رجّح جماعة قول عائشة وجابر ورجح آخرون قول ابن عمر رضي الله عنه أنظر وجوه الترجيح زاد المعاد أول ص٢٤٣ . وقد طافت عائشة في ذلك اليوم طوافاً واحداً ، وسعت سعياً واحداً، أجزأها عن حجها وعمرتها ، وطافت صفية ذلك اليوم ، ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع ، ولم تودّع فاستقرّت سنته ﷺ في المرأة الطاهرة، إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن وتكتفي بطواف واحد وسعي واحد ، وإن حاضت بعد طواف الإفاضة اجتزأت به عن طواف الوداع. ثم رجع ﷺ إلى منى من يومه ذلك ، فبات بها فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ، ولم يركب فبدأ بالجمرة الأولى ، التي تلي مسجد الخيف، فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة ، يقول مع كل حصاة: الله أكبر . ثم يقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل ، فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه، ودعا دعاء طويلاً ، بقدر سورة البقرة ، ثم أتى إلى الجمرة الوسطى، فرماها كذلك ، ثم انحدر ذات اليسار ، مما يلي الوادي ، فوقف مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو قريباً من وقوفه الأول ، ثم أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي ، واستعرض الجمرة ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، واستقبل البيت وقت الرمي كما ذكره غير واحد من الفقهاء ، فلما أكمل الرمي رجع من فوره ولم يقف عندها فقيل : لضيق المكان بالجبل وقيل وهو أصح : أن دعاءه كان في نفس العبادة، قبل الفراغ منها ، فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمي ، والدعاء في صلب العبادة، قبل الفراغ منها ، أفضل منه بعد الفراغ منها. ويغلب على الظن أنه كان يرمي قبل الصلاة ثم يرجع فيصلي.

ومما تقدم ، تعلم أن حجة النبي ﷺ ، تضمنت ست وقفات للدعاء : الموقف الأول على الصفا، والثاني على المروة ، والثالث بعرفة ، والرابع بمزدلفة ، والخامس عند الجمرة الأولى ، والسادس عند الجمرة الثانية .

وخطب ﷺ الناس بمنى خطبتين : خطبة يوم النحر وقد تقدمت ، والخطبة الثانية في أوسط أيام التشريق فقيل: هو ثاني يوم النحر وهو أوسطها ، أي خيارها، واحتج لذلك بحديث سَرّي بنت نبهان قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتدرون أي يوم هذا ؟ قالت : وهو اليوم الذي تدعون يوم الرؤوس . قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : هذا وسط أيام التشريق ، هل تدرون أي بلد هذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا المشعر الحرام. ثم قال: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد

هذا ، ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ألا هل بلغت . فلما قدمنا المدينة ، لم يلبث إلا قليلا ، حتى مات ﷺ. رواه أبو داود.

ويوم الرؤوس هو ثاني يوم النحر بالاتفاق. واستأذنه العباس بن عبدالمطلب أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته فأذن له ، واستأذنه رعاء الإبل في البيتوتة، خارج منى ، عند الإبل، فأرخص لهم ، أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمي يومين ، بعد يوم النحر ، يرمونه في أحدهما ، قال مالك : ظننت أنه قال في أول يوم منهما ثم يرمون يوم النحر، وقال ابن عيينة : في هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوماً ، ويدعوا يوماً ، فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى.

وأما الرمي فإنهم لا يتركونه بل لهم أن يؤخروه إلى الليل ، فيرمون فيه، ولهم أن يجمعوا رمي يومين في يوم، وإذا كان رسول الله ﷺ قد رخص لأهل السقاية وللرعاء في البيتوتة، فمن له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلّفه عنه، أو كان مريضاً لا تمكنه البيتوتة، سقطت عنه، بتنبيه النص على هؤلاء . ولم يتعجل ﷺ في يومين ، بل تأخر، حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر ، إلى المحصب ، وهو الأبطح ، وهو خيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب فيه قبته هنالك ، وكان على ثقله توفيقاً من الله عز وجل ، دون أن يأمره به ﷺ ، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، ولم يرمل في هذا الطواف ، وأخبرته صفية أنها حائض ، فقال : أحابستنا هي ؟ فقالوا له: إنها قد أفاضت ، قال: فلننفر إذاً ، ورغبت إليه عائشة تلك الليلة أن يعمرها عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت وبالصفا والمروة قد أجزأها عن حجها وعمرتها ، فأبت إلا أن تعتمر عمرة مفردة ، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم ، ففرغت من عمرتها ليلاً ، ثم وافت المحصب مع أخيها ، فأتيا في جوف الليل ، فقال رسول الله ﷺ: فرغتما ؟ قالت: نعم، فنادى بالرحيل في أصحابه ، فارتحل الناس ثم طاف بالبيت ، قبل صلاة الصبح ، وقد اختلف في التحصيب أسنّة هو أو منزل اتفاق على قولين . وهاهنا ثلاث مسائل : هل دخل رسول الله ﷺ البيت في حجته أم لا ؟ وهل وقف بالملتزم أو لا ؟ وهل صلى الصبح ليلة الوداع بمكة أو خارجاً عنها ؟ والذي تدل عليه سنّته أنه لم يدخل

البيت في حجته ولا في عمرته وإنما دخله عام الفتح ، وأنه لم يقف بالملتزم إلا عام الفتح وأنه صلى صلاة الصبح بمكة عند البيت ، وسمعته أم سلمة يقرأ فيها بالطور ، ثم ارتحل ﷺ راجعاً إلى المدينة . فلما كان بالروحاء لقي ركباً فسلم عليهم وقال: من القوم ؟ فقالوا : المسلمون . فمن القوم ؟ فقال : رسول الله ﷺ ، فرفعت امرأة صبياً لها من محفّة فقالت: يا رسول الله ألهذا حج ؟ قال: نعم ولك أجر، فلما أتى ذا الحليفة بات بها ، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً من طريق المعرس ، وخرج من طريق الشجرة.

هديه ﷺ في الهدايا: أهدى رسول الله ﷺ الغنم ، وأهدى الإبل ، وأهدى عن نسائه البقر ، وأهدى في مقامه وفي عمرته وفي حجته . وكانت سنته تقليد الغنم دون إشعارها، وكان إذا بعث بهديه وهو مقيم ولم يحرم عليه شيء كان منه حلالاً. وكان، إذا أهدى الإبل ، قلّدها وأشعرها ، فيشق صفحة سنامها اليمنى يسيراً حتى يسيل منها الدم. قال الشافعي ، رضي الله عنه: والإشعار في الصفحة اليمنى، كذلك أشعر النبي ﷺ وكان إذا بعث بهديه أمر رسول الله ﷺ رسوله ، إذا أشرف على عطب شيء منه ، أن ينحره ثم يصبغ نعله في دمه ، ثم يجعله على صفحته، ولا يأكل منه هو ولا أحد من رفقته، ثم يقسّم لحمه . ومنعه من هذا الأكل سداً للذريعة، فإنه لعله ربما قصر في حفظه ، ليشارف العطب فينحره ويأكل منه ، فإذا علم أنه لا يأكل منه شيئاً اجتهد في حفظه، وشرك بين أصحابه في الهدي ، فالبدنة عن سبع والبقرة كذلك ، وأباح لسائق الهدي ركوبه بالمعروف إذا احتاج إليه ، حتى يجد ظهراً غيره ، وقال علي ، رضي الله عنه: يشرب من لبنها ما فضل عن ولدها.

وكان هديه ﷺ نحر الإبل قياماً ، مقيدة معقولة اليسرى على ثلاث ، وكان يسمّي الله عند نحره، ويكبر ، وكان يذبح نسكه بيده، وربما وكل في بعضه ، كما أمر علياً ، رضي الله عنه، أن يذبح ما بقي من المائة. وكان إذا نحر الغنم وضع قدمه على صفائحها ، ثم سمّى وكبر ونحر ، وقد تقدم أنه نحر بمنى وقال: إن فجاج مكة كلها مَنْحَر ، وقال ابن عباس : مناحر البدن بمكة ولكنها نزهت عن الدماء ومنى من مكة ، وكان ابن عباس ينحر بمكة. وأباح ﷺ أن يأكلوا من هداياهم

وضحاياهم، ويتزودوا منها، ونهاهم مرة أن يدخروا منها بعد ثلاث، لدافّة دفّت عليهم ذلك العام من الناس، فأحب أن يوسعوا عليهم. وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع لثوبان: أصلح هذا اللحم، قال: فأصلحته فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة، وكان ربما قسم لحوم الهدي، وربما، قال: من شاء اقتطع فعل هذا وفعل هذا، وكان من هديه ﷺ ذبح هدي العمرة عند المروة، وهدي القران بمنى، وكذلك كان ابن عمر يفعل. ولم ينحر هديه ﷺ قط إلا بعد أن حل ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة البتة، ولم ينحره أيضاً إلا بعد طلوع الشمس وبعد الرمي، فهي أربعة أمور مرتّبة يوم النحر: أولها الرمي ثم النحر ثم الحلق ثم الطواف، وهكذا رتبها ﷺ ولم يرخص في النحر قبل طلوع الشمس البتة، ولا ريب أن ذلك مخالف لهديه، فحكمه حكم الأضحية إذا ذبحت قبل طلوع الشمس فإنها لا تجزئ. انتهى من كتاب مرآة الحرمين.

ثم ذكر صاحب "مرآة الحرمين" شيئاً من أحكام الحج على المذاهب الأربعة ولم نر نقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام، فإن ذلك من اختصاص كتب الفقه.

ما في حجة الوداع من المعاني الجليلة

إن في حجة الوداع معاني جليلة وأموراً دقيقة، تظهر للمتأمل المتفكر من أولي الألباب، فمنها: أنه في يوم عرفة من حجة الوداع، نزلت هذه الآية الجليلة، التي في أول سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

فقد نزلت هذه الآية الكريمة في يوم جمعة، وكان يوم عرفة، بعد العصر، في حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة، على ناقته العضباء، فكاد عضد الناقة ينقدّ من ثقلها فبركت.

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا أنزلت، معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾. فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جمعة، لفظ مسلم وعند النسائي "ليلة الجمعة" نقلنا هذه الرواية من تفسير القرطبي.

ولا يخفى ، أن هذه الآية الكريمة، أعظم بشارة وأكبر فرح للمسلمين ، لاشتمالها على ثلاث مسائل، كل واحدة أعظم من أختها، كما هي ظاهرة من منطوق الآية:

١) أن الله تعالى قد أكمل لنا ديننا الحنيف.

٢) قد أتم علينا نعمته من جميع الوجوه.

٣) قد اختار لنا بنفسه دين الإسلام القويم ، كل ذلك بمحض فضله ورحمته.

ولما جرت العادة أن البشائر الكبرى، والأخبار المهمة العمومية، تكون بالإعلان عنها على رؤوس الأشهاد ، بشتى الطرق والوسائل، تكرم الله عز وشأنه أن يكون نزول هذه الآية الجليلة في يوم عرفة، لاجتماع كافة المسلمين فيه، وحضور رسول الله ﷺ بينهم ، لينتشر ذلك فيهم بسرعة البرق ، فيعمّ البشر والسرور والفرح والحبور للمسلمين جميعاً في وقت واحد.

ويفهم من هذه الآية قرب انتقال رسول الله ﷺ إلى الدار الآخرة، فما دام الدين الإسلامي قد كمل وأدّى النبي رسالته للناس وبلّغهم ما أنزل إليه، فليلحق بالرفيق الأعلى ، وليسترح من تعب الدنيا.

وفي نزول هذه الآية الكريمة حكمة كبرى، وهي اطمئنان المسلمين إلى أن دينهم قد كمل فلا يحتاج إلى زيادة شيء ، فلو لم تنزل هذه الآية، ومات رسول الله ﷺ لخطر في البال وجال في الصدور : أن دين الإسلام ربما لم يكمل ، وأنه لو لم يمت ﷺ لتوالي نزول الآيات القرآنية، وازدادت أحكام الديانة الإسلامية، فلهذه الآية الجليلة موقع عظيم ، ومعنى دقيق لا يغيب على ذوي الألباب. اهـ.

هذا وإن في حجة الوداع معاني جليلة ، ومسائل دقيقة ، كما فيها أمور مهمة واضحة ، والباحث عنها في كتب الفقه والحديث والتاريخ يجد فيها كثيراً من المسائل الدينية ، والأمور الاجتماعية ، والإنسانية الكاملة ، من يوم خروجه ﷺ من المدينة إلى يوم رجوعه إليها من حجته هذه.

ولقد كان من معجزاته ﷺ ، وما أكثرها ، أن خطبته البليغة الجامعة، في يوم النحر في هذه الحجة، كان الناس يسمعونها وهم في منازلهم وأماكنهم. فقد روى أبو داود والنسائي ، عن عبدالرحمن بن معاذ التيمي، قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا.

خطبة حجة الوداع

اعلم أن رسول الله ﷺ خطب في حجته في عرفات، وذلك أنه بعد أن زالت الشمس، خرج من قبته، التي ضربت له بنمرة، فركب ناقته القصواء، وسار حتى أتى بطن الوادي، من أرض عرنة (بالنون)، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة بليغة عظيمة، فلما أتمها أمر بلالاً فأذن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً، ومعه أهل مكة، وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع.

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف على بعيره في محل مسجد الصخرات بقرب جبل الرحمة وأخذ في الابتهال والتضرع والدعاء إلى غروب الشمس.

فلما غربت الشمس، غروباً تاماً، أفاض عليه الصلاة والسلام، من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة، وضمّ إليه زمام ناقته، حتى إن رأسه ليصيب طرف رحله، وهو يقول: "أيها الناس عليكم السكينة فإن البر ليس بالإيضاع" -أي ليس بالإسراع-. فلما كان في أثناء الطريق، نزل ﷺ، فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله فقال: المصلّى أمامك، ثم سار حتى أتى الزدلفة، فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر المؤذن بالأذان، فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب، قبل حطّ الرحال وتبريك الجمال، فلما حطّوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان، ولم يصل بينهما شيئاً. وقد روي أنه صلاهما بأذانين وإقامتين، وروي بإقامتين بلا أذان، والصحيح أنه صلاهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة، ثم نام، فلما طلع الفجر، صلى الصبح بأذان وإقامة، وهو يوم عيد الأضحى، يوم الحج الأكبر، ثم ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام، وهو موضع معروف بمزدلفة، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع والتهليل والتكبير والذكر حتى أسفر جداً.

والظاهر والله تعالى أعلم أن رسول الله ﷺ لم يخطب بمزدلفة لضيق الوقت ولكونه ليلاً، والناس مشتغلون بحطّ الرحال والنوم، حين الوصول إليها من عرفة بعد العشاء، أي في نحو الساعة الثانية العربية، ومشتغلون بشدّ الرحال إلى منى بعد صلاة الصبح، فليست هنالك فرصة للخطبة، ولكنه لما وقف بالمشعر الحرام وهو

جبل قزح للدعاء والذكر قال: "هذا قزح وهو الموقف وجمع كلها موقف" ويعني بجمع المزدلفة فهو اسم لها.

فلما أسفر الصبح وظهر الضياء بحيث ترى الإبل مواضع خفافها ، سار رسول الله ﷺ إلى منى ، وأردف الفضل بن عباس خلفه، وهو يلبي في مسيره، وانطلق أسامة بن زيد على رجليه في سباق قريش ، وفي طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار، سبع حصيات ، ولم يكسرها من الجبل، ولا التقطها ليلاً. فلما وصل إلى منى ، أتى جمرة العقبة، فوقف في أسفل الوادي ، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه (أي استقبل وجه الجمرة والجبل الذي كان خلفها) فرماها وهو على راحلته بعد طلوع الشمس يكبر مع كل حصاة.

ثم إنه ﷺ رجع إلى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر ، وحرمة مكة، ، وعلّمهم مناسكهم وفتح الله له أسماع الناس ، حتى سمعوا خطبته وهم في منازلهم، وودّع حينئذ الناس فقالوا حجة الوداع .

وقد خطب ﷺ بمنى خطبتين : إحداهما يوم النحر ، والثانية في أوسط أيام التشريق أي ثاني يوم النحر. وفي حجته ست وقفات للدعاء:

١) على الصفا ، ٢) وعلى المروة ، ٣) وبعرفات ، ٤) وبمزدلفة ، ٥) وعند الجمرة الأولى ، ٦) وعند الجمرة الثانية.

ولقد ذكر صاحب "مرآة الحرمين" خطبة حجة الوداع بصحيفة ٣١٨ من الجزء الأول فقال: فلما كانت سنة عشر أذن الله عز وجل لنبيه ﷺ في الحج، فحج رسول الله ﷺ حجة الوداع، ، التي أسلفنا لك تفصيلها ، وخطب خطبته المشهورة بعرفة، وذكر فيها النسئ وأبطله ، ولما تضمنته هذه الخطبة من الشرائع الحكيمة والنصائح القيمة نوردها لك بنصّها وفصها كما رواها ابن هشام في سيرته وهي:

"الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثّكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير ، أيها الناس، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم ، بعد عامي هذا ،

بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلّغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل رباً موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون . قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب -وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل- فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد: أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقّرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشرة شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يمكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت. وقد تركت فيكم ، ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمنَ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت . فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد".

قال ابن إسحاق: حدثني ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب الأشعري، عن عمرو بن خارجة، قال: بعثني عتاب بن أسيد إلى رسول الله ﷺ في حاجة، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله ﷺ ، وإن

لغامها ليقع على رأسي ، فسمعته وهو يقول: أيها الناس إن ا لله قد أدى إلى كل ذي حق حقه وإنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة ا لله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل ا لله منه صرفاً ولا عدلاً. انتهى من الجزء الأول من كتاب "مرآة الحرمين".

وما ورد في هذه الخطبة ، من قوله ﷺ: وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض... إلى آخر السطرين ، هذه الجملة وردت في الصحيحين وهي أول حديث طويل أحببنا ذكره لما فيه من الفوائد، ففي البخاري أوله "الزمان قد استدار... إلخ" وفي مسلم "إن الزمان قد استدار... إلخ" وإليك نص الحديث :

"الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق ا لله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان ، أيّ شهر هذا؟ قلنا ا لله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا: بلى . قال: فأيّ بلد هذا ؟ قلنا: ا لله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى. قال: فأيّ يوم هذا ؟ قلنا : ا لله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ثم قال: ألا هل بلغت مرتين". رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة، رضي ا لله عنه.

وقفة الجمعة بعرفات

اعلم أن وقفة الجمعة لها مزية على غيرها لأن الأعمال تشرف بشرف الزمان ، كما تشرف بشرف المكان، ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فيكون العمل فيه أفضل فقد ورد "إذا كان يوم عرفة يوم جمعة غفر ا لله لجميع أهل الموقف" وورد أيضاً "أفضل الأيام يوم عرفة ، وإذا وافق يوم جمعة فهو أفضل من سبعين حجة في غير يوم الجمعة" أخرجه رزين.

وقال عليه الصلاة والسلام : "إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاه إياه" رواه مسلم وأحمد وغيرهما. وقد كانت وقفته ﷺ في حجة الوداع يوم الجمعة، لأن الله تعالى إنما يختار له الأفضل ولهذا اشتهر وصف الحج بالأكبر إذا كانت الوقفة يوم الجمعة. انتهى من كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة".

هذا ومن المستحسن المرغوب أن نذكر السنوات التي حصلت فيها وقفة عرفات بيوم الجمعة كما بيّنها وأحصاها صديقنا الفاضل السيد هاشم نحاس في رسالته المسماة "فوائد في أداء نسك الحج والعمرة" وإليك بيانها في هذا الجدول مع بيان الوقفة في الأيام الأخرى اعتباراً من عام (١٣٤٩) ألف وثلاثمائة وتسعة وأربعين هجرية إلى غاية عام (١٣٨٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وثمانين هجرية، كما ذكره صديقنا المذكور في الرسالة المذكورة وهو هذا البيان:

أيام الوقوف	الأعوام
يوم الجمعة	في الأعوام الآتية: ١٣٥٠ و١٣٥٨ و١٣٦٣ و١٣٧١ و١٣٧٤ و١٣٧٩ و١٣٨٢
يوم السبت	في الأعوام الآتية: ١٣٥٥ و١٣٦٠ و١٣٦٥
يوم الأحد	في الأعوام الآتية: ١٣٥٢ و١٣٦٨ و١٣٧٣ و١٣٧٦ و١٣٨١
يوم الاثنين	في الأعوام الآتية: ١٣٤٩ و١٣٥٧ و١٣٦٢ و١٣٧٨
يوم الثلاثاء	في الأعوام الآتية : ١٣٥١ و١٣٥٤ و١٣٥٩ و١٣٦٧ و١٣٧٠ و١٣٧٥ و١٣٨٠ و١٣٨٣
يوم الأربعاء	في الأعوام الآتية : ١٣٥٦ و١٣٦٤ و١٣٧٢
يوم الخميس	في الأعوام الآتية: ١٣٥٣ و١٣٦١ و١٣٦٦ و١٣٦٩ و١٣٧٧

هذا ما أحصينا من أيام الوقوف بعرفات في مدى ربع قرن من عصرنا ولم نر أحداً ذكر من ذلك شيئاً غير صديقنا السيد هاشم نحاس، جزاه الله تعالى خير الجزاء، وقد علمت مما تقدم أن وقفة رسول الله ﷺ في حجة الوداع بعرفات كانت يوم الجمعة، وربما كانت معرفة أيام الوقوف بعرفات ميسوراً لدى الباحث عن طريق المحاكم الشرعية، لأنها تتحرّى ثبوت هلال ذي الحجة شرعياً في كل عام. والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

ذهاب النبي ﷺ من منى إلى عرفات عن طريق ضب ثم رجوعه منها من طريق المأزمين

لقد ذهب رسول الله ﷺ في حجة الوداع من منى إلى عرفات عن طريق ضبّ، وهو يبدأ من مزدلفة إلى حدود عرفات. بمعنى أنه ﷺ خرج من موضع نزوله بمنى، من وسطها في خط مستقيم، إلى أن وصل إلى مزدلفة، فجعل موضع مسجدها اليوم عن يساره فمر مستقيماً، حتى وصل إلى عرفات، وهذا هو طريق ضب.

وبعد الوقوف بها وغروب الشمس من ذلك اليوم دفع من عرفات إلى مزدلفة في خط مستقيم جاعلاً موضع مسجد نمرة على يساره، فمر عن طريق المأزمين. ويبدأ هذا الطريق من بعد بستان عرفة الذي يعرف ببستان "عين زبيدة" وهذا البستان قبيل مسجد نمرة بقليل للذاهب إلى عرفات، إن هذا البستان يقع في أواخر الحرم بينه وبين مسجد نمرة نحو مائتي متر ومن هذا البستان تظهر عرفات. ومعنى المأزم المضيق بين الجبلين فيكون طول المأزمين من بعد مسجد نمرة بقليل إلى أول حدود مزدلفة.

قال في مختار الصحاح: "والمأزم المضيق وكل طريق بين جبلين مأزم، وموضع الحرب أيضاً مأزم، ومنه سمي الموضع الذي بين المشعر وبين عرفة مأزمين، الأصمعي المأزم في سند مضيق بين جمع وعرفة وفي الحديث: "بين المأزمين" انتهى منه.

واعلم بأن المسافة من جمرة العقبة إلى نهاية وادي محسر (٣٥٢٨) متراً، ومن نهاية وادي محسر إلى أول المأزمين (٣٨١٢) متراً، ومن أول المأزمين إلى علمي الحرم من جهة عرفة (٤٣٧٢) متراً.

فرسول الله ﷺ ذهب إلى عرفات من طريق ضب ورجع منها عن طريق المأزمين، فعل هذا كفعله حين ذهابه إلى صلاة العيد من طريق ورجوعه منها عن طريق آخر، وذلك ترويحاً للنفس، ولتعمّ بركته ﷺ جميع الأرجاء. والله تعالى أعلم.

نزول النبي ﷺ في غار جبل نمرة في الحج

كان رسول الله ﷺ إذا وصل إلى منى ، في حجته ، يأمر أن تضرب له قبته في نمرة بعرفات ، فإذا قام من منى صباح يوم عرفة، متوجهاً إلى عرفات ، نزل في الغار الذي بأصل جبل نمرة ، قبيل المسجد ، فإذا زالت الشمس نزل من الغار إلى نمرة ، ليصلي الظهر والعصر بالناس . يعني أنه ﷺ كان ينزل أولاً بالغار المذكور ، ثم يقوم منه فينزل من قبته المضروبة له بنمرة .

فقد ذكر الأزرقي ، عن ابن جريج ، قال: سألت عطاء ، أين كان رسول الله ﷺ ينزل يوم عرفة ؟ قال: بنمرة ، منزل الخلفاء ، إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى عرفة ، يلقى عليها ثوب يستظل به ﷺ .

قال الأزرقي: وتحت جبل نمرة غار أربعة أذرع في خمسة أذرع، ذكروا أن النبي ﷺ كان ينزله يوم عرفة ، حتى يروح إلى الموقف ، وهو منزل الأئمة إلى اليوم . والغار داخل في جدار دار الإمارة ، في بيت في الدار ، ومن الغار إلى مسجد عرفة ألفا ذراع وإحدى عشر ذراعاً ، ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل ، يكون الميل خلف الإمام إذا وقف وهو حيال حَبْل المشاة . انتهى من الأزرقي .

نقول : أما موقفه ﷺ ، عشية عرفة ، ففي مسجد الصخرات الذي هو بقرب جبل الرحمة وهو موضع معروف إلى اليوم .

وأما كلام الإمام الأزرقي "أن الغار داخل في جدار الإمارة، في بيت في الدار" فهذا الوصف بحسب زمانه ، فقد كان وادي عرنة في ذلك الوقت عامراً بالمزارع والبساتين والعيون ، وقد مضى على وفاته ، رحمه الله تعالى ، إلى يومنا هذا، أكثر من "ألف ومائة عام" فلم يبق للدار والجدار والبيت أي أثر أو علامة مطلقاً ، اللهم إلا الغار ، فإن الغيران لا تزول حتى تزول الجبال عن مواضعها.

ولم نر من تعقب كلام الإمام الأزرقي ، من المؤرخين ، ولا من بحث عن الغار الذي ذكره أحد من العلماء والباحثين . لذلك أحببنا البحث عن الغار المذكور، والتحقق التام عنه، لنذكره في تاريخنا الذي نضعه عن مكة المشرفة اليوم، وهذا هو التحقّق الذي عملناه.

فلقد يسّر الله تعالى لنا التجوّل، في بعض وادي عرنة -بالنون- ، والجبال القريبة من مسجد نمرة، والعلمين القديمين ، لبيان حدود الحرم من الحل ، للبحث عن الغار نزل فيه رسول الله ﷺ يوم عرفة ، قبل الزوال ، عند مجيئه من منى، والذي ذكره الإمام الأزرقي هنا. فقد تجولنا ثلاث مرات في المكان المذكور، مع دليلين خبيرين من العرب، يعرفان هذه الأماكن والغيران ، الموجودة فيها ، وذلك بعد النصف الثاني من شهر شوال سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، فوجدنا ما يأتي :

إذا وصل الإنسان ، من منى إلى قبيل مسجد نمرة بعرفات ، وسار مع الجبل ، الذي عن يمينه ، وهو جبل كثير الصخور والحجارة، بعضها فوق بعض ، من أصل الخلقة، فمن ذلك تتكوّن المغارات -أي الغيران- .

فقبل أن يصل الإنسان إلى منتهى الجبل، الممتد كاللسان في الرمل بنحو (١٦٠) متراً مائة وستين متراً، يجد على يمينه، على ارتفاع نحو قامتين، مغارة كبيرة في أصل الجبل، من الصخور الكبار، تسع نحو عشرة أشخاص بل أكثر، وفي وسط أرض الغار صخرة كبيرة وأخرى أصغر منها متصلتان ببعضهما ، وللغار بابان أحدهما صغيرة وهو الذي يقابل القبلة، وعرضه مائة وثلاثون سنتيمتراً، والباب الثاني كبير وهو الذي يقابل عرفات وعرضه متران، وأمام هذا الباب صخرة كبيرة نازلة إلى الأرض ، بها ثلاثة حفر طبيعية أو أربعة ،كل حفرة كدائرة رأس الإنسان، واحدة فوق الأخرى تشبه الدرجة، ومن هذه الحفر يسهل الطلوع إلى الغار ، على أن الصعود إليه ميسور من البابين، وإن لم تكن هذه الحفر . وسقف هذا الغار يتكون من صخرتين كبيرتين جداً، متصلتان ببعضهما ، من وسط السقف ، كهيئة الجملون ، على شكل مثلث ، وطول هذا الغار ستة أمتار ، وسيع من مدخله الكبير، وضيّق من مدخله الصغير، ومن وراء هذا الغار ، من الجهة المقابلة للجبل، غار آخر كبير، يسع نحو خمسة عشر شخصاً، والفاصل ، بين هذا الغار وبين الغار المذكور ، إحدى صخرتي سقفه، التي تلي الجبل، ومدخل هذا الغار من المدخل الصغير للغار الذي تكلمنا عنه. فهذان الغاران بجوار بعضهما تماماً ، ولا يوجد في الجبل أكبر من هذين الغارين المتجاورين، وكلاهما يسع لنحو ثلاثين شخصاً، وتحت هذا الغار مباشرة، جهة الباب الكبير، غار آخر صغير، تتّجه فتحته إلى

عرفات ، وهو غار على وجه الأرض غير مرتفع في الجبل وسقفه صخرة واحدة كبيرة، طوله أقل من ثلاثة أمتار وعرض فتحته متران.

وفي هذا الجبل غيران كثيرة متعددة ولا يعلم بالتحقيق التام نفس الغار الذي نزله رسول الله ﷺ يوم عرفة في هذا الجبل، لكننا نظن ، غالب الظن الذي نطمئن إليه، أن هذا الغار الكبير الذي ذكرناه هو الغار الذي نزله رسول الله ﷺ يوم عرفة لجملة أمور وهي:

١) أن وصف هذا الغار الكبير يقرب من وصف الإمام الأزرقي له.

٢) أن هذا الغار يقع تقريباً أمام العلمين القديمين الدالين على انتهاء حدود الحرم، ولا نستبعد أن ينزل النبي ﷺ عند مفرق الحل من الحرم ، أي عند حدودهما -والله تعالى أعلم- والبعد بين هذا الغار وبين العلمين المذكورين (٤٣٠) متراً، أربعمائة وثلاثون متراً، وقد يزيد البعد وقد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

٣) والبعد بين هذا الغار وبين جدار مسجد نمرة القبلي (١١٣٠) متراً هو ألف ومائة وثلاثون متراً، وهو قريب مما ذكره الأزرقي ، فإن المتر الواحد يساوي ذراعين تقريباً، فقد ذكروا أن ذراع اليد يساوي ثمانية وخمسون سنتيمتراً. وقد يزيد البعد وقد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه .

٤) أن الجالس في هذا الغار يرى من مدخله الكبير، أي بابه، مسجد نمرة وجبل عرفات ، أي جبل الرحمة، الذي يقف عليه الحجاج، المسمى بـ "القرين" ويرى مسجد الصخرات الذي تحت جبل الرحمة، الذي وقف فيه رسول الله ﷺ عشية يوم عرفة، بل يرى ميدان عرفات كله. فكأن النبي ﷺ جلس في هذا الغار، ليشاهد جبل عرفات، ومسجد نمرة، ومسجد الصخرات ، وحدود الحل من الحرم.

٥) أن هذا الغار الكبير هو أقرب الغيران إلى مسجد نمرة ، وهذا ما يوافق الرغبة النبوية ، فإنه ﷺ ، حينما زالت الشمس نزل من هذا الغار ، إلى موضع مسجد نمرة ، فصلى فيها الظهر والعصر ، ثم ذهب إلى عرفات ، فوقف في مسجد الصخرات ، حتى غربت الشمس ، ثم دفع إلى مزدلفة ، ولذلك سمي هذا الجزء الأخير من الجبل بجبل نمرة لقربه من نمرة .

٦) أن هذا الغار هو الغار الذي يلائم رسول الله ﷺ أولاً : أنه مرتفع مشرف على ساحة عرفات كلها ، ثانياً : أن مدخله الكبير يقابل عرفات وهو بيت القصيد ومنتهى الرحلة ، وأن مدخله الصغير يقابل مكة والقبلة ، ثالثاً : أن هذا الغار هو أوسع غار في الجبل ، فإنه يأخذ في جوفه نحو عشرة أنفس، والنبي ﷺ لا بد وأن يكون معه نحو هذا العدد من كبار الصحابة ، لا يفارقونه في السفر ، ويتشرّفون بالقرب منه ، كالخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم من كبار الصحابة ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، رابعاً : أن بجوار هذا الغار غار آخر ، متصل به ، يفصل بينهم الصخرة ، التي بوسطهما ، وطولهما واحد ، وكل منهما يسع بقدر الآخر من الأشخاص، فلو كان مع النبي ﷺ ثلاثون من الصحابة لاستظلوا فيهما بغاية الراحة وبدون أن يبتعدوا عن بعضهم .

ومن عجيب أمر الغيران في الجبال أنها تكون في الصيف في وقت الظهيرة باردة منعشة ، لا يشتد على الجالس في داخلها وطأة الحر والقيظ .

هذا رأينا في الغار الذي نزله رسول الله ﷺ يوم عرفة قبل الظهر وهذه أدلتنا في تحقيقه ، ولا يعلم الغيب إلا الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى ، ونزوله ﷺ في الغار المذكور لا يمنع من أنه نزل أيضاً في قبته من شعر التي أمر أن تضرب له بنمرة .

وما نظن أن أحداً قبلنا طرق هذا الباب أو بحث عن هذه المسألة على أنها مسألة لا دخل لها في المناسك مطلقاً، فالحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

فائدة مهمة

بمناسبة ما تقدم من الكلام على حديث "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ... إلخ" نذكر ما يأتي زيادة وتوضيحاً لمعنى الحديث الشريف ، وهو مبحث مهم جداً قلّما يعثر الإنسان عليه في كتاب وهو هذا:

قال ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي في المناسك على المذهب الشافعي عند الكلام على ما يتعلق بوجوب الحج ، عند قوله : (فرع) : إذا وجدت شرائط وجوب الحج وجب على التراخي ما نصه :

(قوله على التراخي): أي لا على الفور ، فلمن وجب عليه الحج بنفسه أو نائبه ، أن يؤخر بعد سنة الإمكان ، لأن الحج فرض سنة ست كما صححه الشيخان في السير ، ونقله في المجموع عن الأصحاب أو خمس كما جزم به الرافعي هنا ، أو ثمان كما قاله الماوردي .

وبعث ﷺ أبا بكر ، رضي الله عنه ، سنة تسع فحج بالناس ، وتأخر معه مياسير أصحابه ، كعثمان ، رضي الله عنه ، وعبدالرحمن بن عوف ، من غير شغل بحرب ، ولا خوف من عدو ، حتى حجوا معه ﷺ سنة عشر ، وقيس به العمرة .

ونازع في الاستدلال بذلك ابن الحاج المالكي بما حصله : أن حج ، أبي بكر وعلي وغيرهم ، تلك السنة ، إنما كان تبرراً كحجه ﷺ قبل الهجرة ، أي فإنه صح أنه حج قبلها حجتين . بل قال في فتح الباري الظاهر أنه ﷺ لم يترك الحج مدة مقامه بمكة قبل الهجرة ، وبأنه لا يجوز لتقدّمهم بحج الفرض قبله مع آية : ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ ، وإذا أمر من ضحى قبله بأضحية أخرى فكيف الحج.

وبقول جمع منهم مجاهد وعكرمة المخزومي أن حجهم تلك السنة صادف القعدة ، أي ويؤيده قول السهيلي لا ينبغي أن يضاف إليه ﷺ إلا حجة الوداع وإن حج مع الناس بمكة ، لأنه لم يكن على سنة الحج ، لما ذكر أنهم كانوا ينقلونه عن وقته على حساب الشهور الشمسية، ويؤخرونه في كل سنة أحد عشر يوماً ، وإنما وافقهم وهو بمكة لأنه كان مغلوباً، على أمره، ولما فرض أراده عند رجوعه من تبوك ، بعد فتح مكة ، فذكر حج بقايا المشركين وطوافهم عراة، فنبذ إليهم عهودهم في السنة التاسعة، ثم حج في العاشرة بعد انمحاء رسوم الشرك . انتهى ملخصاً.

قال بعضهم: وحينئذ وافق وقوفه تاسع الحجة، فمن ثم أعلمهم في خطبته "بأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" وأن الأمر عاد إلى ما وضع الله عليه بحساب الأشهر ، وبأن أبا بكر ، رضي الله تعالى عنه، إنما خرج أميراً على أهل الموسم ممن خرج للحج، وعلياً ، رضي الله عنه ، إنما خرج بعده، على ناقة رسول الله ﷺ ، رسولاً لا أميراً للتأذين بسورة براءة في منى وغيرها إعلاماً بنبذ العهود ، إذ جرت عادتهم أنه لا يبلغ ذلك عن العظماء، إلا من هو من جلدتهم وأقاربهم الأدنين، فخطب أبو بكر يوم التروية وعلّمهم المناسك ثم علي

ببراءة حتى ختمها ، ثم فعلا كذلك يوم النحر، ثـم يـوم النفـر الأول ، روى ذلـك كله النسائي، وبأن المشركين كانوا يحجون في محرم سنتين وصفر كذلك وهكـذا ، فكان حج سنة ثمان في القعدة وأميره عتّاب بن أسيد أمـير مكـة، رضـي ا لله تعـالى عنه، وكذا حج سنة تسع وأميره أبو بكر رضي ا لله عنه، ثم في العاشـر خـرج ﷺ وأصحابه، وفيهم أبو بكر ، وعلى لحقهم بمكة فحجوا لفرضهم، وأخـبرهم ﷺ في خطبته بما أوجب تأخره من أن الزمان قد استدار، أي وقت الحج استـدار إلى وقتـه الأصلي في زمن الأنبياء، وهو الحجة، وأن عدم وقوعه في وقته هـو سـبب تـأخره ، فلما صادف وقته لم يتأخر، ولك رد جميع ما قاله بأن الحـج فـرض سـنة خمـس أو ست أو ثمان ، كما تقرر.

وعلى كل ، فإما أن نقول: أنه فرض ابتداء إيقاعه في الحجة، كما كان قديمـاً، أو فيما يوقعه فيه أهل مكة ثم نسخ في العاشرة ، فإن قال بالأول لزمه أنه ﷺ أذن في حج فاسد ، لأنهم إذا كانوا يوقعونه في غير وقته يكون فاسداً، فكيف مع ذلـك يأذن فيه سنة ثمان ويؤمر عتاباً، وسنة تسع ويؤمر أبا بكر ، ولا يقـاس هـذا بحجته ﷺ فيه قبل الهجرة ، لما قدمته عن السهيلي ، أنه كان مغلوباً على أمره، ولم يكـن أنزل عليه ﷺ فيه شيء، فكان يوافقهم ، كما ثبت عنه أنه كان يوافقهم في صـوم عاشوراء، قبل أن ينزل عليه فيه شيء ، فلا يقـاس حالـه حينئـذ بحالـه بعـد فرضـه، وبيان الحكم له وقدرته على عدم موافقتهم بأمر أصحابه ، بأن لا يقفـوا معهـم بـل في وقته ﷺ بعد فتح مكة سنة ثمان في رمضان لم يكن يخشـى مـن أحـد شيئاً بـل دانت له العرب بأسرها.

فظهر اندفاع جميع ما قاله ابن الحاج على هذا التقدير الأول ، فـإن حـج أبي بكر ومن معه كان فرضاً واقعاً في شهر الحجة، ومع ذلـك أخّـر مياسـير الصحابـة كما مرّ ، وإن قال بالثاني اندفع ما قاله أيضاً ، لأن الحج في القعدة قبل نسخه على ذلك التقدير كان صحيحاً ، ومع ذلك أخّر المياسير المذكورين، فنتج مـن ذلـك أن الحج على التراخي على كل من التقديرين، وأنه لا يمكن على التقديـر الأول الـذي هو الظاهر ، بل المتعين أن يقال أن حجّ عتاب وأبي بكر ومن معهمـا كـان في ذي القعدة، بل الصواب أنه في الحجة، كمـا يـدل عليه خبر ابن مردويـه، مـن طريـق عمرو بن شعيب، عـن أبيـه، عـن جـده، قـال: كـانوا يجعلـون عامـاً شـهراً وعامـاً شهرين ، يعني يحجون في شهر واحد مرتـين في سـنتين، ثـم يحجـون في الثـالث في

شهر آخر غيره، قال: فلا يقع الحج في أيام الحج إلا في كل خمس وعشرين سنة، فلما كان حج أبي بكر وافق ذلك العام شهر الحج فسماه الله الحج الأكبر. انتهى. وأخرجه الطبراني في أوسطه عنه بنحوه، لكن فيه أنهم كانوا لا يصيبون الحج إلا في كل ست وعشرين سنة مرة واحدة، وهو النسيء الذي ذكره الله تعالى في كتابه، وعلى هذا أعني أن حج أبي بكر رضي الله عنه، كان في الحجة وأيده طائفة منهم أحمد، وأنكر ما مرّ عن مجاهد واستدل بأنه ﷺ أمر علياً فنادى يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك، وفي رواية واليوم يوم الحج الأكبر، وقد قال تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ فسماه يوم الحج الأكبر، فدل على أن هذا الأذان الذي هو نداء علي، رضي الله عنه، سنة تسع وقع في ذي الحجة وهو المدعي، واستبعاد ابن الحاج وأهل منهبه تقدّم غيره ﷺ عليه في قاعدة من قواعد الإسلام، يقيمها الله على يديه، لا وجه لاستبعاده إلا لو كان حج الناس في التاسعة وبغير إذنه ﷺ، وأما بعد أن أذن لهم وأمّر عليهم أفضل أصحابه، وجعله خليفته، إعلاماً بأنه الخليفة الأكبر بعده، فلا استبعاد في ذلك، سيّما والقول بعدم وقوع حج أبي بكر ومن معه في تلك السنة فرضاً، يلزم عليه المحذور الذي قدمته إن كان عدم وقوعه فرضاً لكونه في ذي القعدة، فإن ادعى أنه لغير ذلك فلا وجه له، فتأمل ذلك فإنه مهم، وبه يندفع قول بعض متأخري المالكية صوب أصحابنا أنها لم تكن فرضاً لأنها كانت في ذي القعدة، واستبعدوا أن يتقدم أحد عليه ﷺ في ذلك، وقياس هذا على التقدم بالأضحية لا وجه له، فإن المضحي ذبح قبل الوقت بغير أمره ﷺ ولم يوجد ذلك في أبي بكر ومن معه، وما ذكر من أن المشركين كانوا يؤخرون الحج وكان يقع في غير وقته، وكان لا يصادف وقته إلا في ما مرّ، فيما رواه ابن مردويه والطبراني، وأنه ﷺ أشار في خطبته بقوله: إن الزمان إلى آخره إلى رد ما كانوا عليه، كل صحيح، لكنه لا يقتضي أن حج أبي بكر كان في ذي القعدة، ولا أنّ تأخره ﷺ إلى العاشرة إنما كان لأجل ذلك، لما هو ظاهر أن حج سنة ثمان أو تسع وإن وافق الحجة كما قدمناه أنه الأصح بل الصواب، لكنه ﷺ أخّر عنه إعلاماً أن الحج على التراخي أو لعذر لكن الأصل عدمه.

وقوله: إن الزمان إلى آخره ليس لبيان عذره بالتأخير، إذ لا يسلم ذلك إلا وثبت أن التاسع صادفت ذي القعدة، فإذا ثبت خلاف ذلك لم يجز أن يكون كذلك، بل لبيان رد ما كانت عليه عادة الجاهلية قبل سنة تسع، بل ثمان، إن

ثبت أن الحج فيها كان بأمره ﷺ ، وأنه أمر عتاب عليه ، فاشدد بهذا المبحث يديك ، فإنه من النفائس التي يتعين أن يعتنى بتحقيقها وتحريرها وفقنا الله لذلك وأمثاله آمين .

انتهى من حاشية ابن حجر على إيضاح النووي ، رحمهما الله تعالى ، وجزاهما والعلماء خير الجزاء ، عن الأمة المحمدية ، وهذا مبحث دقيق نفيس ، ينبغي قراءته بتأنٍ وتأمل .

تنظيف طريق الحج من أشجار الشوك

لقد كانت مكة والحرم مليئة بأشجار السلم ، أي الأشجار الشوكية ، خصوصاً في طريق الحج ، من مكة إلى عرفات ، من قديم العصور والدهور ، وما زال الناس يقطعونها تدريجياً عن أماكن سكناهم ، وعن طريق مرورهم ، حتى لم يبق منها إلا القليل ، وهي بعيدة عن جادّة طريق الحج ، ونحن قد أدركنا شيئاً من هذه الأشجار الشوكية ، في طريق الحج من بعد منى ، وكان تؤذي بعض راكبي الشقادف والهوادج على الجمال ، وذلك في سنة (١٣٤١) ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين هجرية .

ولقد ذكر العلامة قطب الدين الحنفي المتوفى سنة (٩٨٨) رحمه الله تعالى ، في تاريخه عن قطع أشجار الشوك من الحرم ما يأتي : ثم عمر الأمير سودون المذكور ما بقي من المواضع المأثورة في منى ، وفي المشعر الحرام بمزدلفة ، ومسجد نمرة بعرفة ، وقطع جميع أشجار السلم والشوك ، الذي كان بين المارين في طريق عرفة ، وكانت تمزق كسوة الشقادف والمحابر ، عند مزاحمة جمال الحاج ، في ذلك المحمل ، وكانت الحرامية تكمن تحت الأشجار ، وتنهب جميع ما تظفر به من الحجاج ، وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه . فقطع الأمير سودون جميع تلك الأشجار ، وأزال الصخار الكبار ، ونظف الطريق ووسعها ، وشكره الحجاج على ذلك ، ودعوا له ، حيث كانت تضر في طريق المسلمين ، وإلا فشجر الحرم لا يعضد ولا يقطع ، فرحمه الله تعالى وأثابه الحسنى ، وكذلك الأمير خوش كلدي ، نائب جدة في عصرنا ، في حدود سنة خمسين وتسعمائة ، قطع أشجار السلم ما بين المأزمين وكسر الأحجار ، في سفح الجبلين ، ومهد ووسع الطريق للحجاج ، ورفع بذلك عنه شر السراق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الأشجار

والأحجار، وشكره الناس، أثابه الله تعالى. وسيأتي شيء من عماراته فيما بعد إن شاء الله تعالى. انتهى من تاريخ القطبي.

نقول: إن مكة المشرفة ممتلئة بأشجار السلم الشوكية من قبل عهد إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، إلى أوائل عصرنا الحاضر، أما اليوم، فلقد أصلحت الطرقات، وعبدت ومهدت بالإسفلت، وجعلت طريقاً للسيارات، فسبحان مغير الحال والأحوال الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

حكم قطع شجر الحرم ونباته

ما زال الناس، جاهلية وإسلاماً، إلى يوم القيامة يعظمون الحرم، ويجتنبون قطع شجره. ففي الصحيحين عن أبي شريح، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما قد أذن لي ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب».

وفيهما أيضاً عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها. فقال العباس بن عبدالمطلب: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال ﷺ: إلا الإذخر».

جاء في تاريخ الغازي نقلاً عن كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»: وما زال الناس في الجاهلية والإسلام يعظمون هذا الحرم ويجتنبون قطع شجره. قال الواقدي: لما أرادت قريش البنيان قالت لقصي: كيف نصنع في شجر الحرم؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك، فكان أحدهم يحرف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله.

قال: وأول من ترخص في قطع شجر الحرم عبدا لله بن الزبير، قال السهيلي: ابتنى ابن الزبير دور القعيقعان ، وترخص في قطع شجر الحرم، وجعل دية كل شجرة بقرة. وكذلك روي عن عمر أنه قطع دوحة،كانت في دار أسد بن عبد العزى، وكانت أطرافها تنال ثياب الطائفين بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها ووداها . اهـ. انتهى من الغازي.

واعلم أنه يحرم على المحرم وغيره قطع حشيش الحرم أو شجره الرطب الذي ينبت بنفسه، ولا ينبته الناس ، عند الأئمة الأربعة إلا اليابس عند الثلاثة، ولا فرق بين الأخضر واليابس عند مالك.

ويباح التعرض للإذخر والسنا بالقطع وغيره، ويباح رعي الدواب في حشيش الحرم وشجره ، والانتفاع بما تساقط من ورق الشجر ، أو انكسر من غير فعل آدمي عند الأئمة الأربعة ، وحرمة قطع الشجر والحشيش تكون في حرم مكة وحرم المدينة، أما ضمان ذلك وجزاؤه فهو مختص بحرم مكة فقط، عند الأئمة الأربعة، وكالحرم المدني في ذلك وادي وج بالطائف.

وإليك تفصيل حكم قطع شجر الحرم ونباته في مذهبنا ، ننقله من كتابنا «إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة» على المذهب الشافعي. فقد جاء فيه ما نصه:

لا يجوز لمحرم ولا لحلال ، سواء كان من أهل الحرم أم لا ، قطع أو قلع شجر الحرمين ونباتهما ومثلهما وادي وج الطائف.

ولا يحرم صيد النقيع، ولا يملك نباته، ويضمن ما أتلفه منه، لأنه ممنوع منه. قال الرافعي : وضمانه بالقيمة، وهو ليس بحرم بل هو الحمى الذي حماه رسول ا الله ﷺ لنعم الصدقة والجزية.

وجاء في الجزء الثاني من كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي ما ملخصه : الحمى لغة الموضع الذي فيه كلأ يحمى ممن يرعاه. وشرعا موضع من الموات، يمنع من التعرض له، ليتوفر فيه الكلأ، فترعاه مواش مخصوصة، والنقيع -بالنون المفتوحة والقاف المكسورة- ، وحمى النقيع على عشرين فرسخا من المدينة ، وهو صدر وادي العقيق ، وهو أخصب موضع هناك ، وهو ميل في بريد فيه شجر ، ويستأجم حتى يغيب فيه الراكب، وفيه مع ذلك كثير من العضاة

والفرقد والسدر والسيال والسلم والطلح والسمر والعوسج. وفي هذا الكتاب تفصيل كثير من الحمى فراجعه إن شئت. اهـ.

وقال ابن حجر في حاشية الإيضاح : والنقيع -بالنون- هو في ديار بني مزينة على نحو عشرين ميلاً من المدينة . اهـ.

وجاء في "المصباح المنير" عند كلمة نقع . ومنه قيل لموضع بقرب مدينة النبي ﷺ ونقيع ، وهو في صدر وادي العقيق ، وحماه عمر ، رضي الله عنه ، لا بل الصدقة . قال في العباب : والنقيع موضع في بلاد مزينة على عشرين فرسخاً من المدينة ، وفي حديث : حمى عمر غرز النقيع لخيل المسلمين . وقد صحفه المحدثون فقالوا : البقيع بالباء وإنما البقيع بالباء موضع القبور ، والغرز بفتحتين : نوع من ثمام بوزن نبت يسمد به خصاص البيوت ، الواحدة ثمامة اهـ من المصباح باختصار .

فالفرق بين العبارتين لا يخفى ، فابن حجر يقول : النقيع على عشرين ميلاً من المدينة ، والمصباح يقول أنه على عشرين فرسخاً منها ومن المعلوم أن الفرسخ ثلاثة أميال فتأمل . ولقد سألنا بعض الفضلاء من أهل المدينة عن النقيع فقال أنه يبعد عن المدينة إلى جهة الجنوب بنحو مرحلة . اهـ .

واعلم أن حرمة قطع شجر حرم مكة ونباته ثبت بالإجماع ، والخبر في الصحيحين أنه ﷺ يوم فتح مكة قال : "إن هذا البلد حرام بحرمة الله لا يعضد شجره ولا ينفر صيده" وقيس بمكة باقي الحرم .

وأما حرم المدينة فلقوله ﷺ : "إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها ، لا يقطع عضاهها ولا يصاد صيدها" اللابتان تثنية لابة ، وهي أرض ذات حجارة سود ، وهما شرقي المدينة وغربيها ، فحرمها ما بينهما عرضا ، وما بين جبليها عير واحد طولاً ، وعضاهها بهاءين جمع عضاهة أي شجرها وهو بكسر العين بوزن كتاب كما في المصباح .

وأما وادي وج الطائف فلقوله ﷺ : "إلا أن صيد وج وعضاه -يعني شجره- حرام محرم" . رواه البيهقي بإسناده عن ابن الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، وسمي المكان باسم وج بن عبد الحي من العمالقة ، قاله الدميري ، وأما النقيع فلأن النبي ﷺ حماه لنعم لصدقة والجزية .

واعلم : أن الضمان مختص بحرم مكة لأنه للنسك ، ولا فرق في الشجر بين ما نبت بنفسه وما استنبته الناس كالنخيل ، بخلاف النبات فإنه لا يحرم منه إلا ما لا يستنبته الناس ، والشجر ما كان له ساق ، والنبات ما لا ساق له . ومحل الحرمة في الشجر الرطب غير المؤذي ، أما اليابس الذي لايخلف والمؤذي كالشوك والعوسج ، وهو ضرب من الشوك ، وإن لم يمنع المرور ، فلا يحرم قطعه ولا قلعه ولا يتعلق بقطعه ضمان كالحيوان المؤذي .

ولو غرست شجرة حرمية في حل أو عكسه اعتبر منبتها الأصلي ، ولو كان الأصلي في الحرم والأغصان في الحل حرم قطعها لا رمي صيد عليها أو كان الأصل في الحل والأغصان في الحرم حل قطعها لا رمي صيد عليها ، ولو نقل شجرة من الحرم إلى الحل لزمه ردها ، أو إلى محل آخر من الحرم فلا ، فإن جفت بالنقل ضمنها وإن نبتت في الموضع المنقول إليه فلا ضمان، فلو قلعها قالع ، لزم القالع الجزاء ابقاء لحرمة الحرم ، ولو غرس في الحل نواة شجرة حرمية ، ثبت لها حرمة الأصل ، وكذا كل ماتولد من حرمية ، ولو في الحل ، فله حكم الحرمية ، ولو غرس في الحرم نواة أو غصناً من شجرة حلية لم تصر حرمية نظراً للأصل ، فلو قلعها هو أو غيره فلا شيء عليه بلا خلاف.

فإن كان أصل الشجرة في الحرم وأغصانها في الحل حرم قطع أغصانها ووجب فيه الضمان ، وإن كان أصلها في الحل وأغصانها في الحرم فلا شيء في قطع أغصانها ، ولو كان بعض أصل الشجرة في الحل وبعضه في الحرم فلجميعها حكم الحرم ، ولو انتشرت أغصان شجرة حرمية ومنعت الناس الطريق أو آذتهم جاز قطع المؤذي منها ، ولو احتاج إلى ما يحرم من شجر الحرم لحفظ محترم ، ولم يقم غيره مقامه ، فالذي يتجه إباحة ذلك بشرط الضمان لحفظ المعصوم الذي يجوز دخوله الحرم ، ولحفظ بناء الكعبة من السقوط لا لغيره من حفظ بستان ودار ، ولو كان موقوفاً ، إلا لاضطرار .

والحاصل أن التحريم والضمان عام في جميع شجر الحرم سواء نبت بنفسه أو زرعه الآدمي كالتين والتفاح والنخل والعنب والسفرجل وسواء كان مثمراً كما ذكرناه أو غير مثمر.

وأما غير الشجر من نبات الحرم فهو نوعان:

النوع الأول: ما زرعه الآدمي كالحنطة والشعير والذرة والبقول والخضروات فيجوز لمالكه قطعه ولا جزاء عليه، وإن قطعه غيره فعليه قيمته لمالكه ولا شيء عليه للمساكين، وهذا لا خلاف فيه.

والنوع الثاني: ما لم ينبته الآدمي ، وهو أربعة أصناف:

١) الإذخر وهو مباح فيجوز قطعه ولو للبيع بلا خلاف ، لحديث ابن عباس ولعموم الحاجة إليه.

٢) الشوك فيجوز قطعه وقلعه كما سبق.

٣) ما كان دواء كالسنا ونحوه فيجوز قطعه وقلعه. ولو لم يوجد المرض بأن ادخره لمرض في المستقبل فبعضهم جوز أخذه إذا احتاجه للدواء، ولم يخصه الماوردي بل عمّمه ، وجعله مباحاً مطلقاً كالإذخر.

٤) الكلأ بالهمز يقع على الرطب واليابس والحشيش يقع على اليابس والعشب والخلا: بالقصر اسم للرطب .

فيحرم قطع وقلع الكلأ الرطب ، فإنه قلعه لزمته الفدية وهو مخير بين إخراجها طعاماً والصيام ، هذا إذا لم يخلف المقلوع فإن أخلق فلا ضمان على الصحيح ، وأما الكلأ اليابس فلا شيء عليه في قطعه كما سبق في الشجر اليابس ، فلو قلعه ولم يفسد أصله ومنبته لزمه الضمان لأنه لو لم يقلعه لنبت ثانياً ، وإن فسد جاز قلعه وأخذه .

ويجوز تسريح البهائم في حشيش الحرم وشجره لترعى، فلو أخذ الحشيش لعلف البهائم جاز على الأصح ، ولا شيء عليه، والظاهر جواز أخذه لعلفها، ولو في المستقبل، وأن من لا بهيمة عنده لا يجوز له أخذه لما سيملكه ويحرم أخذه للبيع أو غيره إلا الإذخر ولو للبيع كما تقدم ، وكالإذخر غيره إذا احتاج إليه ولو للتسقيف كما اعتمده الإسنوي.

ويجوز قطع وقلع ما ينبت بنفسه إن كان مما يتغذى به كالبقلة والرجلة للحاجة إليه ولأنه في معنى الزرع ، ولايقطع لذلك إلا بقدر الحاجة، ولو يجوز قطعه للبيع لمن يعلق به لأنه كالطعام الذي قدم للضيف أبيح له أكله لا بيعه.

ويجوز أخذ أوراق شجر الحرم ، بلا خبط، لئلا يضربه بخلافه بالخبط ، لأن خبطه حرام ، إن ضر الشجرة، بحيث كسر أغصانها، وإلا فلا، ويجوز أخذ ثمره،

وإن كانت الأشجار مباحة كالأراك ، ويقال لثمره: الكَبَاث، -بفتح الكاف- ونحوه عود السواك لغير البيع . أما للبيع فلا يجوز ، مثل السواك وثمر الشجر في عدم جواز أخذه للبيع أوراق الشجر كما هو الظاهر . قال ابن حجر في حاشيته على الإيضاح : ولو جهل البائع الحرمة عذر ، لأنه ذلك مما يخفى على العوام، بل على كثير من المتفقهة، فيجوز الشراء منه، ولكن يجب على من علم منه ذلك بيان تحريمه عليه. اهـ.

وحرم المدينة ووج الطائف كمكة في حرمة الصيد والشجر والنبات ونحو التراب دون الضمان لأنهما ليسا محلاً للنسك . فكل ما حرم بمكة حرم بالمدينة ووج الطائف غير أنه ضمان فيهما . وأما النقيع -بالنون- فليس بحرم وإنما هو الحمى الذي حماه النبي ﷺ لنعم الصدقة والجزية فيحرم إتلاف شجره وحشيشه فإن أتلفه أحد فالأصح أنه تلزمه القيمة ، ولا يحرم صيده بالاتفاق . وجزاء قطع شجر حرم مكة ونباته مذكور في كتب الفقه.

حكم نقل تراب الحرم وأحجاره

ذكرنا في كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" على المذهب الشافعي ، عن ذلك ما يأتي :

يحرم نقل تراب ، ولو محرقاً ، من الحرمين أو أحجار ، أو ما عمل من طين إحداهما كالأباريق وغيرها ، إلى الحل ، ولو للحرم الآخر ، فيجب رده إلى الحرم وإن انكسر الإناء كما ظاهر ، فإن لم يفعل فلا ضمان عليه ، وبالرد تنقطع الحرمة كدفن بصاق المسجد .

قال البيجرمي في حاشيته على الخطيب : وعند أبي حنيفة يجوز تلك والأباريق الآن ليست من طين الحرم بل من طين الحل اهـ. كلامه .

وقال في عمدة الأبرار : وما وجد في الحرم من الأواني وشك أهو من ترابه أم لا ، فإن غلب على الظن كونه منه حرم ، وإلا فلا ، كما في التحفة . اهـ .

وأما نقل تراب الحل وأحجاره إلى الحرم فخلاف الأولى كما في المجموع لئلا يحدث لها حرمة لم تكن ، ولا يقال أنه مكروه لأنه لم يرد فيه نهي صحيح صريح ومثل الحرمين فيما ذكر وجّ الطائف .

وأما ماء زمزم فإنه يجوز نقله، بل يسن تبركاً به للاتباع "فإن عائشة، رضي الله عنها، حملت من ماء زمزم في قوارير وقالت: إن رسول الله ﷺ حمله في الأداوى والقرب" أخرجه الترمذي في جامعه. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم فبعث له براويتين" أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات.

وروي أن كعب الأحبار حمل من ماء زمزم اثنتي عشرة راوية إلى الشام. والراوية كل دابة يستقى الماء عليها، كذا في المصباح، وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ قال في ماء زمزم: إنها مباركة وإنها طعام طعم وشفاء سقم" وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: "ماء زمزم لما شرب له".

وورد "أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم". وكيف لا يكون لماء زمزم من الفضل والبركة، وهي التي تقع في المسجد الحرام عند الكعبة المشرف، ولا تبعد عنها إلا بمقدار خمسة عشر متراً تقريباً وتنبع من تحتها، وهي التي أخرجها جبريل لنبي الله إسماعيل وهو طفل رضيع، فماء زمزم ليس كالماء العادي، بل خصه الله تعالى بسر عجيب، فمن شرب منه على الريق، بحيث امتلئت بطنه منه، فإنه لا يضره بل ينفعه ذلك كما هو مجرب.

ومن عجيب أمر زمزم أن من شربه من نفس البئر، كان له طعم، ومن شربه من الدلو كان له طعم، ومن شربه في الأواني الطينية كان له طعم، ومن شربه بعد تبريده كان له طعم. وأحسن حالات شربه وألذها وأطعمها وأهنؤها، أن يشربه الإنسان من الدلو حين إخراجه من البئر.

الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف

نذكر هنا بعض الحوادث التي وقعت في الكعبة والمطاف بحسب ما تيسر لنا الوقوف عليها لأنها مما يلفت النظر ويوجب الاهتمام لقدسية البيت وشرف المكان.

فقد روى الطبري في كتابه "القِرى لقاصد أم القرى" في الباب الخامس والثلاثين أن حكيم بن حزام ولد في الكعبة ولا يعهد أحد ولد في الكعبة غيره، وكان مولده قبل الفيل بثلاث عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة، وتوفي بالمدينة في خلافة معاوية، رضي الله عنه، سنة أربع وخمسين هجرية، وعاش مائة وعشرين

سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ، وأسلم عام الفتح ، روى أنه لما حج في الإسلام أهدى مائة بدنة قد جللها بالحبر وكفها عن أعجازها، وأهدى ألف شاة، ووقف بمائة وصيف بعرفة في أعنا قهم الفضة منقوش فيها عتقاء الله عن حكيم بن حزام . اهـ. بتصرف واختصار من الكتاب المذكور.

وروى الإمام الأزرقي في تاريخه ، عن عبدالله بن أبي سليمان ، عن أبيه : أن فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى ، وهي أم حكيم بن حِزام دخلت الكعبة وهي حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيماً في نطع وأخذ ما تحت مَثْبِرِها فغسل عند حوض زمزم وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقاً. اهـ منه . والمثبر -بفتح الميم وسكون الثاء وكسر الباء- : الموضع التي تلد فيه المرأة -ومعنى لقاً : أي ملقاة لا يمسها أحد- فقد كان في الجاهلية من طاف من غير الحمس بالبيت في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد طوافه بين إساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح والمطر.

نقل الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه في صحيفة ١٦١ عند ذكر جب الكعبة ومالها ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: كان في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم ، خليل الرحمن ، وإسماعيل ، عليهما السلام ، حين رفعا القواعد . وكان يوضع فيه ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك ، وكانت الكعبة لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة ، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً يكون عليه يحرسه ، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها، إذ سولت له نفسه ، فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر ، بسط رداءه ثم نزل في البئر ، فأخرج ما فيها ، فجعله في ثوبه، فأرسل الله ، عز وجل، حجراً من البئر ، فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما في ثوبه في البئر. فسميت تلك البئر الأخسف، فلما انخسف بالجرهمي وحبسه الله عز وجل ، بعث الله عند ذلك ثعباناً، وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه ، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه ، وكان ربما يشرف على جدار الكعبة ، فأقام كذلك في زمن جرهم ، وزمن خزاعة، وصدراً من عصر قريش ، حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت

وعمارته، فحال بينهم وبين هدمه، حتى دعت قريش عند المقام عليه، والنبي ﷺ معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير. اهـ.

ونقل الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة (١٠٦) ما نصه: عن حويطب بن عبد العزى، قال: كانت في الكعبة حِلَق أمثال لجم البهم، يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد، فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلّت يده، فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشل. اهـ.

الطواف بالبيت عراة

وجاء في تاريخ الأزرقي بعد أن ذكر أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ما نصه:

جاءت امرأة أيضاً تطوف عريانة، وكان لها جمال، فرآها رجل فأعجبته، فدخل الطواف وطاف في جنبها لأن يمسها، فأدنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها، فخرجا من المسجد من ناحية بني سهم هاربين على وجوههما، فزعين لما أصابهما من العقوبة، فلقيهما شيخ من قريش خارجاً من المسجد فسألهما عن شأنهما، فأخبراه بقضيتهما فأفتاهما أن يعودا فيرجعا إلى المكان الذي أصابهما فيه ما أصابهما فيدعوان ويخلصان إلى أن لا يعودا، فرجعا إلى مكانهما، فدعوا الله سبحانه وتعالى وأخلصا إليه أن لا يعودا، فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما في ناحية. اهـ.

وجاء في تاريخ الغازي المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام»: ناقلاً عن ابن فهد أنه مات في جوف الكعبة من الزحام أربعة وثلاثون نفساً وذلك سنة خمسمائة وإحدى وثمانين هجرية.

وذكر الغازي في تاريخه أيضاً أنه في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة مات من الزحام بالكعبة خمسة وعشرون شخصاً. اهـ.

وفي سنة ثلاثمائة وسبع عشرة وافى مكة أبو طاهر القرمطي في سابع ذي الحجة وعمل فيها هو أصحابه أموراً منكرة، فمنها أنه أمر بقلع ميزاب الكعبة، وكان من الذهب الإبريز، فطلع رجل يقلعه فأصيب من أبي قبيس بسهم في

عجزه فسقط فمات ، وقيل بل وقع على رأسه فمات . ومنها غير ذلك ليس هنا محل بيانه .

وجاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ما نصه : قلت : ذكر محمد بن إسحاق في "كتاب السيرة" أن إسافاً ونائلة كانا بشرين ، فزنيا في داخل الكعبة ، فمسخا حجرين ، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عُبدا ، ثم حُوّلا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما . اهـ المراد منه .

وقال الإمام الأزرقي في تاريخه: إن جرهم لما طغت في الحرم ، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها ، ويقال : إنما قبّلها فيها ، فمسخا حجرين ، واسم الرجل إساف بن بغاء ، واسم المرأة نائلة بنت ذئب ، فأخرجا من جوف الكعبة ، وعليهما ثيابهما ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر عند زمزم ، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس ، فلم يزل أمرهما يدرس حتى جعلا وثنين يعبدان ، وكانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهما ثياباً ، ثم أخذ الذي بلصق الكعبة فجعل مع الذي عند زمزم وكانوا يذبحون عندهما ويتمسحون بهما ، وكان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بأساف فيستلمه ، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك ، حتى كان يوم الفتح ، فكسرهما رسول الله ﷺ مع ما كسر من الأصنام ، وقيل بعدما أخرجا من الكعبة نصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة للاعتبار ، ثم تقادم عهدهما حتى صارا يمسحان يتمسّح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صارا وثنين يعبدان فلما صار أمر مكة والحجابة إلى قصي بن كلاب حولهما من الصفا والمروة فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، ويقال جعلهما جميعاً في موضع زمزم ، وقيل اسم الرجل إساف بن عمرو ، واسم المرأة نائلة بنت سهيل من جرهم . انتهى من تاريخ الأزرقي بتصرف واختصار .

وذكر الغازي في تاريخه ناقلاً عن ابن فهد : أنه في صبح يوم الجمعة ثاني ذي الحجة سنة خمس وأربعين وثمانمائة مات بالطواف من الزحمة سبعة أنفس .

وفي تاريخ الكعبة المعظمة للشيخ حسين باسلامة جملة حوادث وقعت على الحجر الأسود ، فذكر منها ما له علاقة بهذا الفصل . فإنه بينما الناس في وقت القيلولة وشدة الحر وما يطوف إلا رجل أو رجلان سنة ثلاثمائة وثلاث وستين ،

فإذا رجل عليه طمران مشتمل على رأسه يسير رويداً ، حتى دنا من الركن الأسود ، ولا يعلم ما يريد ، فأخذ معولاً وضرب الركن ضربة شديدة حتى خفته الخفتة التي فيه ، ثم رفع يده ثانياً يريد ضربه ، فابتدره رجل من السكاسك من أهل اليمن ، حين رآه وهو يطوف ، فطعنه طعنة عظيمة حتى أسقطه ، فأقبل الناس من نواحي المسجد فأخرجوه من المسجد الحرام وجمعوا حطباً كثيراً وأحرقوه بالنار.

وفي عشر التسعين والتسعمائة جاء رجل أعجمي بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود فكان الأمير ناصر جاوش حاضراً فوجأ ذلك الأعجمي بالخنجر فقتله .

وذكر الغازي في تاريخه ، أن والي مكة الشريف أحمد بن محمد الجازاني قتل في الطواف في الشوط الثالث ، قتله جماعة من الأتراك بمواطأة من أخيه حميضة ، وألقي بالمعجنة التي بجوار الكعبة ، فصار الرجال والنساء يأتون إليه ويشتمونه ويذكرون قبائح ما فعله ، ثم إن أخاه الشريف حميضة أمر الباشا عبدالله المصري مشيع الطرحاء أن يدفنه فحمله بحاله إلى المعلى ودفنه على أخيه مهيزع ببعض ثيابه بلا غسل ولا صلاة ، ولم يشيعه أحد بل حضر دفنه رجلان فقط . اهـ .

وأكبر حادثة وقعت في المطاف والمسجد الحرام حادثة القرامطة . فإنهم لما أتوا مكة في سابع ذي الحجة سبع عشرة وثلاثمائة ارتكبوا فيها من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف . فقد دخل ، عدو الله ، أبو طاهر القرمطي ، المسجد الحرام مع قومه ، وهو سكران ، راكب فرساً له ، وبيده سيف مسلول ، فصفر لفرسه فبال عند البيت ، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج . وكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تأخذهم ، وكان علي بن مايويه يطوف بالبيت والسيوف تأخذه فما قطع طوافه وهو ينشد:

ترى المحبين صرعى في ديارهم ... كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وقتل في المسجد الحرام ألف وسبعمائة ، وقيل ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بالكعبة وردم بهم زمزم حتى ملئوها ، وفرش بهم المسجد الحرام وما يليه، وقيل دفن البقية في المسجد بلا غسل ولا صلاة... الخ، ما رواه الحافظ ابن فهد القرشي في إتحاف الورى في حوادث عام ٣١٧.

ومما يناسب المقام: ما رواه الغازي في تاريخه، أنه في سنة ألف وثلاث وثمانين أراد إسحاق أفندي الوارد من جهة الروم صحبة الحج ، وكان من كبار الدولة، أن

يدخل الكعبة الشريفة ليلاً ، فأراد الشيخ عبدالواحد بن محمد الشيبي الحجبي أن يفتح له البيت فتعسر فتحه فدعا بحداد نعت له بالمعرفة، فأمره بفشّ القفل -أي بفتحه بأي وسيلة- فاضطربت يده وما قدر فقال له الشيخ عبدالواحد، فيما أخبرني الثقة، ما بالك ؟ فقال له: ألا تسمع ما أسمع ؟ قال الشيخ عبدالواحد، فأصغيت وإذا بالباب كان يدفع من داخل البيت وأحسست بالدفع والقوة المانعة. قال فصرفت الناس، وقلت: أيها الناس إن هذا البيت بيد الله يفتحه لمن يريد. فانصرف الناس، ومنهم إسحاق أفندي و لم يتيسر له الدخول . اهـ منه .

فممّا علق في جوف الكعبة:

١) المعلّقات السبع، وهي قصائد من فحول شعراء العرب.

٢) صحيفة قريش ، وفيها شروطهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب سنة سبع من النبوّة.

٣) كتابان لهارون الرشيد، أحدهما بالولاية لابنه الأمين، ثانيهما بالولاية لابنه المأمون وجعلهما بالبيت الحرام حينما حج سنة ١٨٦، وفي خلافة الأمين أخذا من الكعبة إلى بغداد وأحرقا بالنار.

٤) عهد المعتمد لولديه وذلك سنة ٢٦١ هجرية.

٥) استرحام من الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبي جعفر عبدالله ابن الإمام القادر بالله في الحديثة المتوفى سنة ٤٦٧ يشكو إلى الله تعالى أرسلان الفساسيري حيث اعتقله، فلما هلك هذا رفع الاسترحام من الكعبة الشريفة. اهـ.

انتهى باختصار من كتاب المحمل والحج.

دخول السيارات إلى المسجد الحرام في زماننا

ومما وقع في المسجد الحرام بمكة في زمننا هذا ، أي في الليلة الرابعة من شهر المحرم سنة (١٣٧٨) ألف وثلاثمائة وثمان وسبعين هجرية، أنه وقع حريق هائل بمكة المشرفة في الليلة المذكورة ، بمحلة قاعة الشفا ، بالقرب من باب العتيق، ومن باب الباسطية، حرق فيه نحو أربعون منزلاً بما فيها من الأمتعة ، وحرق مثلها أيضاً من الدكاكين بما فيها من البضائع المختلفة ومات في هذا الحريق عدة أشخاص ، كما

فصلنا بيان هذا في الكلام على سبب بناء المسجد الحرام بالقباب في مبحث خاص بعنوان : "الحريق الثاني بقرب المسجد الحرام".

وقع هذا الحريق والناس في صلاة العشاء، في الليلة المذكورة، ودام إلى قبل الفجر بساعة واحدة، وقام الناس فزعين لإطفاء هذا الحريق العظيم، وجاء رجال الشرطة ورجال الإطفاء بمكة وانضم إليهم مطافئ جدة ومطافئ المطار بسيارات الإطفاء أي "أوتومبيلات الإطفاء" وأرسلت إدارة عين زبيدة وإدارة القصور ووزارة الدفاع رجالها وناقلات الماء لحصار النار وإطفائها.

ولما كانت الأزقة متلاصقة بجوار المسجد الحرام، اضطروا إلى إدخال سيارات الإطفاء وناقلات الماء إلى نفس المسجد الحرام وإيقافها بساحته عند باب العتيق وباب الباسطية، أي بجهة المنازل التي تحترق ومن السيارات التي بالمسجد الحرام مدوا خراطيم المياه وأخرجوها من باب القطبي وباب الباسطية وباب العتيق لحصار النار، في محلة قاعة الشفا، وعدم سريانها إلى الأماكن المجاورة، كما أتت سيارات أخرى للإطفاء من خارج المسجد من جهة الشبيكة ووقفت عند مدخل قاعة الشفا، ومدوا خراطيم المياه إلى المنازل التي تحترق لإطفاء النار حتى حاصروها وأطفئوها قبل الفجر بساعة واحدة. كما بينا ذلك مفصلاً في محله، ولولا لطف الله تعالى لاحترق جانب كبير من مكة "إن الله بالناس لرؤوف رحيم". ففي هذه الحادثة تكون السيارات أي "الأوتومبيلات" دخلت المسجد الحرام لأول مرة في التاريخ ومكثت تتردّد فيه أسبوعاً واحداً حتى اطمئنوا إلى خمود النار تحت الدمار والهدميات.

ومن المصادفات الحسنة، أنه في هذه الجهة، قامت الهدميات والعمل جار في توسعة المسجد الحرام، فالطريق ممهد بطبيعة الحال ولم يكن إلا مساعدات قليلة لاجتياز هذه السيارات الضخمة، ولقد دخلت هذه السيارات إلى المسجد الحرام من جهة المسعى بقرب الصفا أي من "باب علي" المقابل لبئر زمزم فتمشي بالمسجد حتى تقف بالقرب من باب الباسطية، ثم تمتد منها خراطيم المياه إلى محلات الحريق.

وإن من أعظم لطف الله تعالى وقوف الهواء في هذه الليلة وقوفاً تاماً، فلو تحرك الهواء لاشتعلت النار أكثر وامتد الحريق إلى جهات متعددة في البلدة. فالحمد لله الذي قدّر هذا ولطف فيه "إن الله بالناس لرؤوف رحيم".

ذكر بعض الحوادث المتفرقة

ذكر الغازي نقلاً عن "تحصيل المرام" : وفي سنة (١٠٨١) إحدى وثمانين وألف يوم الجمعة دخل رجل أعجمي المسجد ، والسيف في يده ، والخطيب يخطب ، فصرخ على الخطيب ، وأشار إليه بالسيف ، وقال : أنا المهدي . فدفعه الناس عن الخطيب وضرب الأعجمي حتى مات وحرقوه بالمعلى . انتهى .

وذكر السنجاري في "منائح الكرم" هذه الحادثة بأبسط من هذا وهذه عبارته : وفي سنة (١٠٨١) يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان دخل المسجد رجل أعجمي ، بيده سيف ، والخطيب يخطب ، وهو ينادي بالفارسية ما معناه أنه المهدي ، وجلس في صحن الطواف إلى أن فرغ الخطيب ، فلما أراد أن ينزل قصده الأعجمي بالسيف ، وأراد ضربه ، فرد في وجهه باب المنبر ، وكان الخطيب ذلك اليوم القاضي محمد بن موسى القليوبي المكي ، فتلاحقته العامة من العساكر والمجاورين ، فضربوا الأعجمي بالسيوف إلى أن أثخنوه جراحة ، وسحبوه إلى أن أخرجوه من باب السلام ، ثم جرته العامة من أولاد السوق إلى المعلاة ، وجعلوا عليه قمامة وأحرقوه فيها . ولا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم.

وفيه أيضاً وفي سنة (١١٢٣) يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة تعرّض للخطيب رجل من السوقة ، وفي يده جنبية مسلولة ، فعند وصول الخطيب إلى المنبر ضربه بها فتلقى عنه المرقي ، وفعل هكذا ثانياً وثالثاً والمرقي يتلقاها ، ثم هرب الخطيب وصعد الرجل المنبر ، والسكينة في يده ، يومي بها إلى من طلع إليه ، فطلع إليه رجلان : تركي وعبد زنجي ، ومسكوه وأنزلوه من المنبر ، فوقعت فيه العامة ضرباً وأخرجوه من المسجد وأثخنوه إلى أن مات . انتهى .

وفي سنة ألف ومائتين وثمانية وأربعين خرج بعد العشاء ، ليلة الجمعة ، رجل بالمسجد الحرام ، وعظ الناس ، وأخبر أن المهدي يخرج غداً . فارتجت البلد لذلك . فلما كان وقت الجمعة ، امتنع الخطيب من الخطبة ، إلا أن يحضر الأمير والعساكر حول المنبر ، فأجيب لذلك . وكان خطيب تلك الجمعة السيد محمد ميرة ، فلما صعد المنبر أتى الشخص المدعي أنه المهدي ، فاستقبلته العساكر ، وقبضوا عليه وحبسوه إلى أن ينظروا أمره ، بعد صلاة العصر . فلما جاء وقت صلاة العصر ، لم

يجدوه في الحبس، والحديد الذي كان مربوطاً به، محطوط محلّه، كذا في نزهة الفكر للشيخ الحضراوي. انتهى.

وفي خلاصة الكلام وفي شهر رجب سنة (١٢٠٣) وقعت حادثة بمكة وهي أن يوم الجمعة، كان الخطيب الشيخ عبدالسلام الحرشي، فتعرّض له عند المنبر بنقالي، قيل مجنون، قبل الصلاة، وضربه سكيناً قطع به أمعاءه، فكانت هي القاضية. ووقع في المسجد ضجة عظيمة، حتى أشاع بعض العوام أن المهدي المنتظر ظهر بين الركن والمقام، وعما قليل زال الالتباس، وتقدم خطيب آخر فخطب، وصلى بالناس، وأمر مولانا الشريف غالب، أمير مكة، بصلب ذلك القاتل، فصلب. انتهى.

وفي تاج تواريخ البشر: وفي ثاني جمعة من رمضان من سنة (١٢٩٦) ألف ومائتين وست وتسعين بينما الخطيب، على المنبر بالمسجد الحرام، إذ جاء رجل سنادي، من ناحية باب الصفا، يشتد ويسعى حتى رقا المنبر، وفي يده سيف بحدين، فتلقاه المبلّغ، فضربه الرجل في جبهته، فبرك عليه المبلّغ حتى دحرجه، فوكزه الناس وضربوه، ثم وصلوا به إلى الديوان، وقد اضطرب المسجد الحرام في تلك الساعة، فقائل هذا المهدي وقائل غير ذلك، ولما قضيت الصلاة ضربوه نحو مائتين من السياط ثم وضعوه في الخشب، وأرسلوه إلى الطائف لأمير مكة المكرمة الشريف حسين بن محمد بن عون، فلما وقف بين يديه، قال له: أنت المهدي؟ قال: لا، ولكني رجل أقرأ ورداً وإذا قرأتها يصير بي حال، فكتبت بعض المواعظ وقصدي أعطيها للخطيب ليعظ بها الناس فضربوني، وجرح نفسه مكبّر الخطيب، فقال أمير مكة: هذا رجل مجنون ووضعه في السجن. انتهى.

قال الغازي في الجزء الأول من تاريخه: وفي سنة (١٠١٢) اثنتي عشر وألف، ظهر التنباك والدخان بأرض الحجاز ومكة والشام في هذا التاريخ ولم يعرف قبل ذلك، كذا في تحصيل المرام.

ثم قال فيه أيضاً: ومما كان في دولة مولانا الشريف مسعود أنه منع الناس من التظاهر بشرب الدخان، فرفع من القهاوي والأسواق، وصار حاكمه يقبض على من يراه عنده من الأطواق، وكان ذلك في سنة (١١٤٩) تسع وأربعين ومائة وألف.

نقول: في سنة (١٣٣٨) ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة تقريباً ، وجدت أول ماكينة لعمل الثلج بمكة ، شرفها الله تعالى، وقبل هذه السنة لا يعرف الثلج بمكة، وإنما كان يبرد الماء بتعرضه للهواء في الأواني الطينية والفخارية، كالأزيار والقُلل المسماة في الحجاز "الشِّراب" بكسر الشين المعجمة، ومن بعد عام (١٣٥٠) ، أي في عصر الحكومة السعودية ، كثرت مصانع الثلج بمكة ، وجميع المملكة تدريجياً ، حتى صار الآن بمكة وحدها عدة مصانع للثلج.

بعض ما حصل بمكة وما حولها من القتال والنهب

نذكر هنا بعض ما حصل بمكة من القتل والقتال وغيره مما يخل بالأمن والأمان ، ونذكر ذلك من تاريخ الغازي ، رحمه الله تعالى، لأنه جامع لأشتات الأخبار ، ولا نذكر ما يأتي من قبيل التشهير والنيل من أهل الزمان السابق، غفر الله لنا ولهم ، بل نذكره لنقارن بين ما كان سابقاً من الخوف وعدم الاطمئنان ، وبين ما نحن فيه من الأمن والأمان، بفضل الله تعالى ورحمته، فتزداد شكراً لله تعالى ليزيدنا من برّه وإحسانه وفضله ورحمته. وقد حصل قتال بين الجن وبين بني سهم من قريش زمن الجاهلية ذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه لكن لا نريد ذكره هنا وربما نذكره في موضع آخر من الكتاب.

وقد جاء في تاريخ الغازي : أنه في سنة (٢٩٩) تسع وتسعين ومائتين كانت واقعة بين عج بن حاج وبين الأجناد بمنى، ثاني عشر ذي الحجة وأصابت الحجاج من عودتهم عطش شديد ، فمات منهم جماعة ، وحكي أن أحدهم كان يبول في كفه ويشربه.

وفي سنة (٣٥٥) خمس وخمسين وثلاثمائة قطعت بنو سليم الطريق على الحجيج من أهل مصر ، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها ، وعليها من الأموال والأمتعة ما لا يقوّم كثيره، وبقي الحجاج في البوادي فهلك أكثرهم ، كذا في حسن المحاضرة، ذكره في "تحصيل المرام".

وذكر ابن فهد أيضاً هذه الوقعة في حوادث سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وهذا نصه: وفيها نهبت بنو سليم حاج مصر والشام، وكانوا عالماً كثيراً، وأخذ جميع ما كان معهم من الأموال ، وكان ما لا حدّ له ، لأن كثيراً من الناس، من أهل الثغور والشام، هربوا خوفاً من الروم بأموالهم وأهليهم ، وقصدوا مكة ليسيروا

منها إلى العراق فأخذوا وقتل أمير الركب وهلك من الناس ما لا يحصى وتمزقوا في البراري و لم يسلم إلا القليل ورد على الحاج بعض ما أخذ منهم في السنة التي بعدها. انتهى.

وقال ابن فهد أيضاً في حوادث سنة (٣٩٥) خمس وتسعين وثلاثمائة وفيها أصاب حاج العراق رياح وأهوال، وطرحت العرب من خفاجة الحنظل في المياه، فهلكوا عطشاً ثم أخذوهم ونهبوهم. انتهى.

وفي سنة (٤١٠) أربعمائة وعشرة قتل بمكة هادي المستجاشي، وكان ظهر، في آخر أيام الحاكم العبيدي صاحب مصر، وصار يدعو إلى عبادة الحاكم، فحكي عنه أنه سب رسول الله ﷺ، وبصق على المصحف الشريف، وسار في البوادي، يدعو إلى أن قتله الله تعالى، وذلك أنه لما وصلها ونزل على أبي الفتوح، وأعطاه الذمام، وصار يطوف بالكعبة، فكلما رآه المجاورون، مضوا إلى أبي الفتوح، وذكروا له شأنه، وأنه لا يستتاب. فقال: هذا قد نزل علي وأعطيته الذمام. فقالوا: لا يصح أن يعطى الذمام. فدافعهم أبو الفتوح، فاجتمع الناس عند باب الكعبة، وضجوا إلى الله تعالى، وبكوا، فقضى الله تعالى بإرسال ريح سوداء حتى أظلمت الدنيا وصار للكعبة نور كنور الترس و لم يزل كذلك يرى ليلاً ونهاراً على حالة واحدة، مدة سبعة عشر يوماً. فلما رأى أبو الفتوح ذلك، أمر بالغريم وغلام له مغربي، فضربت أعناقهما وصلبا، و لم يزل المغاربة يرجمونهما بالحجارة، حتى سقطا إلى الأرض، فجمعوا لهما حطباً وأحرقوهما. كذا في "درر الفرائد".

وفي تاريخ ابن فهد، بعد قوله: وأعطيته الذمام، فقالوا: إن هذا سب وبصق. فسأله عن ذلك فأقر به، وقال: قد تبت، فقال المجاورون: توبة هذا لا تصح، وقد أمر النبي ﷺ بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، وهذا لا يصح أن يعطى الذمام، ولا ينبغي إلا قتله. انتهى.

وفيه أيضاً وفي سنة (٤٨٦) ست وثمانين وأربعمائة حج الناس من الشام، فلما قضوا حجهم، وعادوا سائرين، أرسل إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً فلحقوهم، بالقرب من مكة، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجمالهم، فعادوا مستغيثين به، وأخبروه وسألوه أن يعيد إليهم ما أخذ منهم، وشكوا إليه بعد ديارهم، فلم يغثهم بما فيه كبير جدوى، وأعاد بعض ما أخذوه منهم، فلما يئسوا

منه عادوا من مكة على أقبح صفة ، فلما بعدوا عن مكة ظهر عليهم جموع من العرب ، في عدة جهات ، فضايقوهم على مال أخذوه من الحاج ، بعد أن قتل منهم جماعة وافرة ، وهلك كثير بالضعف والانقطاع ، وعاد السالم منهم على أقبح صورة في حالة عجيبة . انتهى .

وفي سنة (٥٣٩) تسع وثلاثين وخمسمائة نهب أصحاب هاشم بن فليتة أمير مكة الحجاج ، بالحرم الشريف ، وهم يطوفون ، وذلك نصفه كانت بين أمير الحاج وبين هاشم أمير مكة كذا في "تحصيل المرام" .

وفي سنة (٥٤٤) أربع وأربعين وخمسمائة كان أمير الحاج العراقي قيماز الأرجواني ، فلما وصل الحاج إلى مكة ، طمع أمير مكة فيهم ، واستزرى بقيماز فطمع العرب ، ووقفت في الطريق ، وبعثوا يطلبون رسومهم . فقال قيماز للحاج : المصلحة أن يعطوا ونستكفي شرهم . فامتنع الحاج من ذلك ، فقال لهم : فإذا لم تفعلوا فلا تزوروا السنة رسول الله ﷺ ، فاستفاتوا عليه ، وقالوا نمضي إلى سنجر ، فنشكو منك . فسار بهم إلى أن وصلوا إلى مضيق ، بين مكة والمدينة ، خرج عليهم العرب ، من بني زغب ، بعد العصر ، يوم السبت رابع عشر المحرم من سنة خمس وأربعين ، فقاتلوهم ، فكثرت العرب ، وظهر عجز قيماز عنهم ، فطلب لنفسه أماناً ، واستولوا على الحجاج ، فأخذوا من الأموال والثياب والجمال ما لا يحصى ، وأخذوا من الدنانير ألوفاً كثيرة . فتحدث جماعة من التجار أنه أخذ من هذا عشرة آلاف ومن هذا عشرون ألفاً ومن هذا ثلاثون ألفاً ، وأخذ من خاتون أخت مسعود ما قيمته مائة ألف دينار ، وتقطع الناس ، وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية ، فماتوا من الجوع والعطش والعري ، وقيل إن النساء طيّن أجسادهن لستر العورة ، وما وصل قيماز إلى المدينة ، إلا في نفر قليل ، وتحملوا منها إلى البلاد ، وأقام بعضهم مع العرب ، حتى توصل إلى البلاد . كذا في "إتحاف الورى من أخبار أم القرى" .

وفي سنة (٥٥٦) خمسمائة وست وخمسين ، حج الناس ، فحصلت فتنة وقتال ، بين صاحب مكة وأمير الحج ، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على طواف الإفاضة قال ابن الأثير : وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه فأتت في العام القابل وطافت وأحرمت بحجة أخرى وأهدت . انتهى ذكره أبو الفرس كذا في "تحصيل المرام" .

وفي "إتحاف الورى" وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣) وقعت فتنة بعرفة، في يوم عرفة، بين العراقيين والشاميين، وكان قد اجتمع هذه السنة حاج بالشام من بلاد العراق والمواصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها، ليجمعوا بين زيارة القدس ومكة، وجعل الأمير عليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك بن محمد، المعروف بابن المقدم، أحد أكابر الأمراء الصلاحية، بعد طلبه الإذن من صلاح الدين، فساروا إلى عرفات سالمين، وقضوا في ذلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة، فلما كان عشية عرفة تجهز هو أصحابه، ليسيروا من عرفات، فأمر بضرب كوسانة، التي هي إمارة الرحيل، فضربها أصحابه، ورفع علم السلطان صلاح الدين، فأرسل إليه أمير الحاج العراقي مجير الدين طاشتكين، ينهاه عن الإفاضة من عرفات قبله، ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوسانة، وقال: هذا موضع لا يرفع فيه إلا علم الخليفة. فقال ابن مقدم: فالسلطان مملوك أمير المؤمنين، ونحن مماليك السلطان، وليس لي معك تعلق، أنت أمير الحج العراقي وأنا أمير الحج الشامي، وكل منا يفعل ما يراه ويختار. وأمر غلمانه فأطلعوا العلم وسار ولم يقف ولم يسمع قوله، فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته، ركب في أصحابه وأجناده، وتبعه من غوغاء الحاج العراقي، وبطاليهم وطماعتهم، العالم الكبير والجم الغفير، وقصدوا حاج الشامي مهولين عليه، فلما قربوا منه ركب ابن المقدم أيضاً بمن معه من الشاميين، فاقتتلوا وقتل من الفريقين جماعة، وخرج الأمر عن الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم جماعة العراقيين على حجاج الشام وفتكوا بهم، وقتلوا منهم جماعة ونهبت أموالهم، وسبي جماعة من نسائهم، إلا أنهن رددت عليهن. وجرح ابن المقدم عدة جراحات، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف منهم، وزاد، ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم، وأثخن بالجراحة، وأصابه سهم في عينه، فخر صريعاً، فأخذه طاشتكين إلى خيمته، وأنزله عنده ليمرضه، وليستدرك الفارط في حقه، وساروا تلك الليلة من عرفات. فلما كان الغد يوم الخميس، يوم عيد الأكبر، مات ابن المقدم بمنى، وصلى عليه بمسجد الخيف، وحمل إلى المعلاة، ودفن، ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح بيت المقدس، رحمه الله تعالى، وأخذ طاشتكين شهادة الأعيان، أن الذنب لابن المقدم، وقوي المحضر في الديوان وأقام الحاج الشامي بمنى، على أسوأ حال. انتهى.

وفي سنة (٦٩٨) ثمان وتسعين وستمائة حصل للحجاج تشويش في سفرهم بالعطش والجوع، وتشويش عظيم بعرفات، وهو شتم في نفس مكة ، ونهب خلق كثيرون ، وأخذت ثيابهم التي عليهم، وقتل خلق ، وجرح جماعة ، وحصل لأبي نمي، صاحب مكة ، من الجمال المنهوبة خمسمائة جمل، وكانت تباع لحوم الجمال بعد رحيل الحجاج بمكة، وأكثرهم المجاورين احترزوا من أكل لحوم الجمال، بسبب ذلك النهب. كذا في "درر الفرائد".

وفي سنة (٧٣٠) ثلاثين وسبعمائة في يوم الجمعة وأربع عشر من ذي الحجة قتل الأمير الخازندار سيف الدين ألدمر بن عبدا لله الناصري بمكة، وكان من خبر ذلك ، أن أمير الركب العراقي ، في هذه السنة ، كان من أهل توريز، يعرف بمحمد الحجيج، تقرب من أولاد جوبان، فترقى بهم إلى معرفة السلطان أبي سعيد ، فعظم أمره وجعله من ندمائه، وبعثه رسولاً إلى مصر غير مرة، فأعجب به السلطان ،ولاقي بخاطره، إلى أن بلغه أنه يعرض في مجلس أبي سعيد شيء ذكره مما يكرهه السلطان، فتنكر له وأسر ذلك في نفسه ، فلما بلغه عنه أنه صار أمير الركب العراقي، كتب إلى الشريف عطيفة بن أبي نمي سراً لأن يتحيل في قتله ، فلم يجد بداً من امتثال ما أمره به.

وأطلع ولده مبارك ابن عطيفة ومن يثق به على ذلك. وتقدم إليهم بأعمال الحيلة فيه، فلما قضى الحاج النسك، عاد منهم الأمير علم الدين سنجر الجادلي إلى مصر ، ومعه جماعة ، في يوم الأربعاء ثاني عشر ذي الحجة، وتأخر الأمير سيف الدين خاصي ترك أمير الحاج والأمير سيف الدين ألدمر أمير خازندار، والأمير أحمد بن خالة السلطان ، ليصلوا بمكة صلاة الجمعة ، ومعهم بقية حجاج مصر، فلما حضروا للجمعة ، وصعد الخطيب المنبر، أراد الشريف عمل ما رسم به، فأخذ العبيد في إثارة الفتنة بين الناس بذلك ، وأول ما بدأوا به، أن عبثوا ببعض حاج العراقي، وخطفوا شيئاً من أموالهم، بباب المسجد الحرام، باب إبراهيم. وكان الشريف عطيفة جالساً إلى جانب الأمير خاصي ترك أمير الركب ، فصرخ الناس بالأمير الدمر، وليس عنده علم بما كتب به السلطان إلى الشريف عطيفة، وكان مع ذلك شجاعاً حاد المزاج قوي النفس ، فنهض ومعه أصحابه وجماعة من المماليك ، وقد تزايد صراخ الناس ، وأتى الشريف رميثة ، وقبض بعض قواده وأصدقائه ، فلاطفه الشريف ، فلم يسكن ، واشتد صياح الناس ، فركب الشريف مبارك بن

عطيفة في قواد مكة بآلة الحرب ، وركب جند مصر ، فبادر خليل ولد الأمير الدوادار ، ليطفئ الفتنة ، وضرب أحد العبيد فرماه العبيد بحربة فقتله ، فلما رأى أبوه ذلك اشتد غضبه ، وحمل بنفسه لأخذ ثأر ولده فرمى الآخر بحربة فمات . ويقال بل صدف الشريف مبارك بن رميثة وعمه عطيفة ، وقد قصد أمير ركب العراقي ، وعليه آلة حرب ، فقال له : ويلك تريد أن تثير فتنة ؟ وهم ضربه بالدبوس ، فضربه مبارك بحربة كانت في يده أنفذها في صدره ، فخر صريعاً ، وقضى ، وقضى الله معهما بالشهادة لجماعة آخرين منهم مملوك للأمير ألدمر وأمير عشرة يعرف بابن الناجي ، وجماعة نسوة . ورمي مبارك بن عطيفة بسهم في يده فشلت ، وركب أهل مكة سطح الحرم ورموا الأمير أحمد ومن معه بالحجارة وقد اتفرغ نشابة بين يديه ، هو ومن معه ، ورمي بها ، حتى خلص أيضاً .وفرّ أمير الركب العراقي ، ودخلت الخيل المسجد الحرام ، وفيها جماعة من بني حسن ملبسين غايرين ، واختبط الناس بأسرهم ، وتفرق الناس ، وركب بعضهم بعضاً ، ونهب الناس أموالاً كثيرة ، وجرت أمور عجيبة وصلى الناس الجمعة ، والسيوف تعمل ، وخرج الناس إلى المنزلة -المنزلة موضع النزول- والخيل في أثرهم ، يضربون بالسيوف يميناً وشمالاً ، وما أن وصلوا إلى المنزلة وفي العين قطرة . ودخل الأمراء ، بعد الهزيمة ، إلى مكة لطلب الثأر ، وخرجوا فارين مرة أخرى ، ثم بعد ساعة جاء الأمراء خائفين ، وبنو حسن وغلمانهم أشرفوا على ثنية كدى من أسفل مكة ، وتحير الشريف عطيفة في أمره ، وما زال يداري الأمر حتى خرج الحاج بأجمعهم من مكة ، وأمروا بالرحيل وتوجهوا إلى بلادهم . ولولا سلم الله كانوا أنزلوا عليهم ، ولم يبق من الحاج مخبر . ووقف أمير الركب المصريين في وجوههم فأمر بالرحيل . فاختبط الناس وجعل أكثر الناس يترك ما ثقل من أحمالهم ونهب الحاج بعضهم بعضاً . ذكره ابن فهد .

وفي سنة (٧٤٣) سبعمائة وثلاث وأربعين كان بعرفة فتنة وقتال عظيم ، بين الأشراف وأمير الحج . وقتل من الترك نحو ستة عشر رجلاً ومن الأشراف نفر يسير . وبعد الوقوف توجهوا إلى مكة ، وتحصنوا بها ، وتركوا الحضور إلى منى في أيامها ، ودخل الحاج مكة قبل النفر الأول ، وفات الكثير من الناس المناسك بسبب هذه الفتنة .

وفي سنة (٧٤٤) سبعمائة وأربع وأربعين وقعت أيضاً فتنة بين أمير الحاج وأهل مكة وقتل جماعة وخمدت الفتنة .

وفي سنة (٧٨٥) سبعمائة وخمس وثمانين وقعت فتنة بين حاج التكرور والمغاربى وبين حجاج العراق واليمن زمن الحج وقتل فيها نحو ألف إنسان . ذكره في "خلاصة الكلام" .

وفي سنة (٧٩٧) سبع وتسعين وسبعمائة في يوم التروية ، حصل في المسجد الحرام جفلة ، بسبب مناقرة وقعت بين بعض القوادين المعروفين بالعمرة وبين أمير الركب ابن الزين ، فثارت الفتنة وصارت قتال ، ظفر فيه القواد ونهبت أموال كثيرة للحاج وقتل بعضهم ، ونهبت الظهران ، عرب من هذيل ، الحاج في ليلة عرفة بطريق عرفة عند المأزمين ، ورحل الحاج بأجمعهم من منى في النفر الأول . ذكره ابن فهد .

وفي سنة (٨١٠) ثمانمائة وعشرة في يوم الجمعة خامس ذي الحجة ، حصل بالمسجد الحرام ، فتنة انتهكت فيها حرمة المسجد ، لما حصل فيه من القتال بالسلاح ، وإدخال الخيل ، وإراقة الدماء ، وروث الخيل فيه وطول مقامها فيه . وسبب ذلك ، أن أمير الحج المصري أدب بعض غلمان القواد على حمل السلاح لنهيه عن ذلك ، وحبسه ، فرغب بعض مواليه في إطلاقه ، فامتنع ، فلما قام الناس ، لصلاة الجمعة ، من اليوم المذكور ، هجم جماعة من القواد ودخلوا المسجد الحرام ، من باب إبراهيم ، راكبين خيولهم ، لابسين لأمة الحرب ، إلى أن انتهوا إلى مقام الحنفي . فلقيهم الترك والحجاج ، من باب إبراهيم ، راكبين خيولهم ، لابسين لأمة الحرب ، إلى أن انتهوا إلى مقام الحنفي . فلقيهم الترك والحجاج ، وقاتلوهم إلى أن وصلوا سوق المعلافة ، أسفل مكة . وظهر المصريون وانتهب بعض دور القواد من المصريين ، بالسوق المذكور ، وسوق المسعى ، وبعض بيوت مكة . ولما كان آخر النهار أمر أمير الحاج بتسمير أبواب المسجد الحرام ، إلا باب السلام ، وباب الدريبة ، وباب مدرسة المجاهدية ، لأن أمير الركب ومن معه يدخلون منه . وأدخل جميع خيله المسجد الحرام ، وجعلت في الرواق الشرقي ، قريباً من منزله برباط الشرابي، المسمى الآن برباط قايتباي. وباتت الخيل بالمسجد الحرام حتى الصباح ، ولم يعلم أن المسجد الحرام انتهك مثل هذه الواقعة، فذهب جماعة من أعيان مكة إلى أمير الحاج المصري، وأخبروه أنه أخطأ في أمساك القائد وضربه، فأمر بإطلاقه،

والتمسوا من الشريف إخماد الفتنة، فبعث ولده الشريف أحمد إلى أمير الحاج، فخرج من عنده، ونادى بالأمان، فاطمأنت الناس وأمنت بعد جراحات كثيرة حصلت للفريقين، قال بعضهم ولا أعلم فتنه أعظم منها بعد القرامطة وكان القائد الذي وقعت الفتنة بسببه يقال له جراد واتفق أن تلك السنة كانت غلاء فقال بعض الأدباء في ذلك:

وقع الغلاء بمكة والناس أضحوا في جهاد
والخير قل فهاهم يتقاتلون على جراد

وفيه تورية لطيفة. كذا في خلاصة الكلام وتحصيل المرام.

وفي سنة (٨٧٤) أربع وسبعين وثمانمائة في ليلة الأحد خامس عشر ربيع الثاني، وجدت سعادة أم الهدى بنت القاضي نور الدين علي ابن بركات بن ظهيرة القلاشي مقتولة على فراشها بالخنق، فاتهم بذلك جواريها، فدفعوا إلى الوالي، فأقرت اثنتان منهن بأنهما قتلاها خنقاً وأخذتا ذهباً ومصاغاً وثياباً، فأعادتا ذلك، وكانتا قبل ذلك استعانتا بجارية أجنبية، في شراء سم، فأسقياه لستهما في لبن، فتوجعت من ذلك، وكانت معللة به إلى أن حصلت لها الشهادة، رحمها الله تعالى، فلما كان في يوم الثلاثاء السابع عشر، أشهر قطع الوالي الأذن اليمنى، من كل واحدة من جاريتيها إلى الشحمة، وقطع مارن أنفيهما وسمرتا تسمير عطب على جملين، وبيض وجهيهما بالنورة، ودير بهما غالب شوارع البلد وأزقتها، ثم شنقتا على درب باب المعلاة، وتركتا عليه إلى ثاني تاريخه، ثم دفنتا. وأما الجارية التي اشترت السم فإنه بيض وجهها بالنورة وعزرت مقلوبة على حمار. انتهى كذا في "الإتحاف".

وفي "منائح الكرم"، وفي سنة تسعمائة واثنين وثلاثين (٩٣٢) ورد من مصر سليمان الريس، متوجهاً إلى اليمن، ومعه نحو أربعة آلاف عسكري، جهزهم الوزير أعظم إبراهيم باشا، صاحب مصر، لأخذ اليمن مدداً لمن سبق من الباشاوات، فوصلوا جدة في شهر رمضان من السنة المذكورة، وصار العسكر يتعرضون العرب بالنهب، فانقطع الميرة عن مكة، بسبب ذلك، وحصل بها غلاء لذلك، ثم وصلت طائفة من العسكر إلى مكة، وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسكنوها، وكثر أذاهم، فتسلطت عليهم العربان، وقتلتهم في طريق جدة، وأينما وجدوهم، إلى أن قتلوا تاجرين عظيمين، من تجار مكة، ظنا بهم أنهم من

العسكر، فمنع الشريف حسن العربان بعد القتل، لكن بعدها ألح فيهم القتل وامتلأ طريق جدة منهم. فبعث الشيخ محمد بن عراق جماعة ، فدفنوا ما في الطريق من جثث القتلى، ولما كثر العسكر المذكور بمكة نصبوا بيارقهم في المسجد الشريف ، من باب السلام إلى باب علي، فشكى الناس ذلك إلى الشيخ محمد بن عراق، فجلس الشيخ في المسجد ، ودعا الأمير خير الدين وبعض رؤساء العسكر، ونهزهم ، وأمرهم بالخروج من بيوت الناس، فأكبوا على رجليه يقبلونها، وقالوا: مقصودنا الحج ونتوجه. فقال لهم الشيخ: اذهبوا إلى منى فإن بها دوراً خالية، فاسكنوها . فامتثلوا أمره وخرجوا إلى منى وقتلوا بعض المفسدين منهم ، امتثالاً لأمر الشيخ محمد. وكان ذلك بإشارة من النبي ﷺ للشيخ ، فإنه كان بالمدينة، فأمر النبي ﷺ بالمسير إلى مكة، قال له : توجه إلى مكة لإصلاحها . فورد مكة سادس شوال وصادف هذه الفتن والشيخ محمد بن عراق هذا ترجمه العلامة الفربي في أخبار المائة العاشرة وأما سليمان الريس فاستولى على محصول جدة فكان نصفه للسلطنه لأمير مكة ، وكان المحصول في ذلك العام تسعين ألف دينار ذهباً. وكان الشريف خرج من مكة ونزل الدكناء، فجاءه الخبر ووصل إليه أمين جدة على جاووش، واعتذر إليه بغلبة سليمان ، فقبله وأمره بالرجوع إلى جدة . انتهى.

وفي سنة (١٠٠١) ألف وواحد حصل للحاج نهب كثير ، من شخص من أشراف مكة، كان عاصياً على بني عمه، بشرذمه معه، يتعرضون للحاج ، فأعان الله أمير الحج المصري علي بيك، فقبض عليه وعلى طائفته، وهم غافلون ليلة تحت بعض الجبال بعيداً عن الطريق المسلوك، وأحاط عليه بالعساكر ونزل بهم من الجبل إلى الحج، وجلس على كرسيه ونادى كل من ضاع له شيء من الحجاج ليحضر، وأقام يوماً بحضرة القاضي فردوا جميع ما أخذ عليهم . ذكره في "تاريخ البشر".

وفي سنة (١٠٢٩) ألف وتسع وعشرين وقع طرد في المسجد الشريف ، وذلك أن جبلياً من عسكر الشريف ، دخل المسجد وترك سيفه عند هندي ، فجاء رجل تركي اختصم معه ، وسب الهندي ، فثار له الهندي بالسيف ، وقتل التركي ، وثارت الناس على الهندي ، فطردهم إلى باب الصفا ، فلم يزالوا به حتى ضربه بعضهم بإبريق ، فزلق فتكاثروا عليه ، فضربه بعضهم بسلاح فمات ، وأخرج من المسجد هو والتركي مقتولين . كذا في "منائح الكرم" .

وفي سنة (١١١٨) ألف ومائة وثماني عشرة في إمارة الشريف عبدالكريم ، لما كان يوم عرفة ، حصل بين المحملين مشاجرة في التقدم عند النفر. أوجبت المراماة بالرصاص ، مع أن القانون القديم ، أن التقدم لمحمل الحاج المصري ، ثم لما رأى حضرة الشريف ما وقع ، أرسل بعض الأشراف إلى الأمراء ، لتسكين الفتنة ، لحفظ الحجاج وتخلف هو عن وقت نفره المعتاد إلى العشاء ، إلى أن سكنت الفتنة ، وشد الحاج كله ، و لم يبق أحد من أهل مكة وغيرهم . ذكره في "الإتحاف" .

وفي سنة (١٢٧٢) اثنين وسبعين بعد الألف والمائتين ورد التنبيه من كامل باشا الذي كان مقيماً بجدة ، لقائم مقامه بمكة ، أن يجمع دلالي الرقيق ، ويمنعهم من بيع الرقيق ، بمقتضى أمر جاء لكامل باشا من الدولة ، ففعل قائم مقام الباشا ما أمره به . فصار للناس من ذلك انزعاج واضطراب ، وصاروا يقولون : كيف يمنع بيع الرقيق الذي أجازه الشارع ؟ وهاج الناس هيجاناً شديداً ، فاجتمع جماعة من طلبة العلم عند الشيخ جمال ، وكان رئيس العلماء ، وقالوا : نذهب إلى القاضي ونذاكره في ذلك ، ليراجع كامل باشا وهو يراجع الدولة في ذلك ، فاجتمع معهم ، وهم ذاهبون إلى بيت القاضي ، خلق كثير من غوغاء الناس ، فلما دخلوا على القاضي ، فزع منهم وهرب ، ودخل إلى بيت حريمه ، فزاد هيجان الناس واضطرابهم ، وهاج بسبب ذلك بعض العساكر الضابطية ، الذين كانوا في دار الحكومة ، ورأوا بعض الناس حاملين السلاح ، ويقولون : الجهاد . فثار من ذلك فتنة عظيمة ، وصار الرمي بالبندق من الفريقين ، وانتشرت الفتنة ورمي البندق في الأسواق والطرقات ، وصار القتل لكثير من العسكر وغيرهم . وتوقف بعض العسكر مع بعض أهل البلد ، في المسجد الحرام ، وصاروا يترامون بالبندق ، وقتل في المسجد أناس من ذلك الرمي ، ففزع بعض الناس إلى الشريف منصور بن الشريف يحي بن سرور ، وهو في داره ، وسألوه تسكين هذه الفتنة ، فأطلق مناديا في مكة ، لمنع الناس من الفتنة ، فامتثلوا أمره ، وأمن الناس وتحفظ على العساكر الشاهانية ، واطلع كثيراً منهم القلعة ، وكذلك الشريف عبدالله بن ناصر أدخل كثيراً من العساكر في دار الشريف محمد بن عون ، وسكنت الفتنة . ذكره في "خلاصة الكلام" .

وفي شهر شوال سنة (١٣٢٦) ألف وثلاثمائة وست وعشرين ، حدثت بمكة ، فتنة كادت أن تفضي إلى محنة عظيمة ، وسبب ذلك أن الحكومة أمرت أحمد

القبوري أن يعمر الجدار المحيطة بالمقابر ، دافعاً للروايح الكريهه ، الحادثة من أوساخ الناس في القهاوي الكاينة ، ثم فإنهم كانوا يتغوطون هناك ، وأمروه أيضاً أن يعمر القبور المتهدمة ، فقال لهم : أنا رجل فقير من أين أعمر ذلك ؟ فقالوا : مما تقبضه من أهل الأموات ، وإن لم تفعل فقد وجدنا غيرك من يقوم بهذه الخدمة . وكان يأخذ على حفر قبر الميت ما يشاء من غير معارض له ، على ذلك ، وعلى الخصوص في زمن الحج من الحجاج . ثم بعد هذه القضية شرع يطلب الزيادة عن المعتاد ، ويشدد في الطلب من الفقراء ، وشاع بين الناس أن الحكومة أمرت للقبوري أن يأخذ على كل جنازة تدفن في المعلاة خمسة ريالات مجيديات ، يأخذ منها واحد لنفسه ، والأربعة الباقية يصرفها في العمارة المذكورة . واتفق في تلك المدة أن جاءت جنازة فقير من التكرور ، فطلب القبوري منهم ما اعتاده في حفر القبر ، وقال: إني مجبور على أخذ ذلك . فامتنعوا وتضاربوا ، وقصدوا الحميدية ، وانضم إليهم جماعة من الذين أشاعوا الخبر المذكور ، وهو أن الحكومة أمرت بأخذ خمسة ريالات مجيدي على كل جنازة وصاروا يصيحون : باطل باطل ، إلى أن وصلوا عند الوالي ، فقال : لم آمر بذلك . فرجعوا من عنده ، ولكن أثار الفتنة بعض المفسدين ، فهجموا بالسلاح على دائرة الحكومية وعلى بعض المواقع العسكرية، ورمى بالرصاص فيما بين الصفا وباب الوداع وبالمسجد الحرام ، وقتل عدة أنفار من العسكر، وعدة من الرعايا ، إلى أن خمدت الفتنة ، آخر النهار ، بهمة بعض الأشراف ، ووكيل الإمارة الشريف محمد بن أحمد بن عبد المجيد الحمودي العبدلي وغيرهم من الأعيان . ثم بعد أيام بحثت الدولة الدولة عن سبب هذه الفتنة وشررها ، وقبضت على شيخ الفتنة أحمد القبوري، ونحو عشرين من أعوانه ، ومن بينهم في ذلك أيضاً محمد علي بن عبدالواحد ، الذي كان كاتباً للشريف عون أولا ، ثم كاتباً للشريف علي، في مدة إمارته، فقبض عليه أيضاً ونفوا إلى الآستانة وحبسوا هناك مدة مات فيها محمد علي ، ثم أرجعوا إلى المحاكمة ، ثانياً في بيروت، ثم أطلق سراحهم ، ورجعوا مكة بعد سنة تقريباً . ذكره في "نزهة الأنظار والفكر" . انتهى كل ما ذكره من تاريخ الغازي.

نقول : إن ما ذكرناه هنا من الأحداث التي وقعت بمكة ليس من باب حصر الوقائع ، فلو عددنا كل ما وقع من صدر الإسلام إلى اليوم لاحتجنا إلى مؤلف خاص . وإنما ذكرنا ما تقدم لنقارن بين الزمن الماضي والزمن الحاضر. ويجب علينا أن نحمد الله تعالى ليل نهار على نعمة الأمن والأمان الشامل لجميع مملكتنا ، ولا

نبالغ أن قلنا أنه لا توجد مملكة كالمملكة العربية السعودية في شمول الأمن لجميع أطرافها، وما ذلك أولاً إلا بفضل الله ورحمته عز شأنه وتقدست أسماؤه، ثم بحسن نية جلالة مليكنا المعظم "سعود بن عبد العزيز آل سعود" وعنايته التامة بجميع مرافق المملكة، أدام الله عليه توفيقاته وأدام عزه ونصره.

الأمن والأمان في العهد السعودي

كان الحجاز، في العهود السابقة، مضطرب الأحوال، من جهة الأمن والأمان، وذلك بسبب كثرة الحروب والخصومات، بين الحكام والولاة من قديم الزمان، حتى أن الحرب لتكون في منطقة الحرم، بل تكون أحياناً في داخل المسجد الحرام، فيموج الناس موجاً ويضطربون اضطراباً، إلى أن تسكن الفتنة أو ينتصر أحد الخصمين من حكام مكة.

وأما عن خوف الحجاج، في موسم الحج، في كل عام، فحدث عن ذلك ماشئت، فما كان الحجاج يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم، مع ما يدفعونه من الأتاوى لمشايخ العربان ورؤسائهم، ومع ما يصحبهم من الجنود والحرس المسلحين، مع كل ذلك أيضاً، كان الحجاج، إذا وصلوا إلى أرض الحجاز، عن طريق البر أو البحر، يعتريهم الخوف والوجل، ما داموا في طرق الحج والزيارة، بل كان الحاج إذا أراد الخروج إلى الحج يودعه أهله وداع من لا يعود إلى وطنه ثانياً.

لهذا كله جعلت الحكومات السابقة، منذ القرن الخامس تقريباً، أسوارا بمكة وبجدة وبالمدينة، فقد كان بمكة سور بجهة المعلا، وسور بجهة الشبيكة، وسور بجهة المسفلة، ورب قائل يقول: لماذا هذه الأسوار الثلاثة لمكة، بينما جرت العادة أن تكون البلدة لها سور واحد فقط، يحيط بها من جميع الجهات؟

فنقول: إن الله تعالى أحاط بلده الأمين "مكة" بالجبال من جميع جهاتها، وجعل لها من أصل الخلقة ثلاثة منافذ، طريق من جهة المعلا، وطريق من جهة المسفلة، وطريق من جهة الشبيكة، فعلى هذه الجهات الثلاثة جعلت هذه الأسوار، فيكون كل سور مبني بالعرض، أحد طرفيه في الجبل الذي عن اليمين وطرفه الثاني في الجبل الذي يقابله عن الشمال، وفي كل سور باب يفتح ويقفل.

ولقد هدمت هذه الأسوار كلها ولم يبق لها أثر الآن مطلقاً.

ثم إن الحكومة التركية العثمانية، لما كان الحجاز تحت حكمها، بنت فوق التلال الصغيرة، جملة قلاع صغيرة فيما بين جدة ومكة وفيما بين مكة والمدينة وفي بعض الطرق التي يجتازها الأعراب، وهذه القلاع تكون أسطوانية الشكل تسع نحو عشرين جنديا فقط، فكان فيما بين مكة وجدة نحو عشر قلاع من هذه القلاع الصغيرة، لم يبق منها الآن شيء ما عدا أطلال قلعة أو قلعتين.

كما بنت الحكومة التركية أيضاً ثلاث قلاع كبيرة بمكة :

١) قلعة أجياد : وهذه لا زالت موجودة إلى اليوم وبها جنود.

٢) قلعة جبل هندي : وهذه لا زالت أيضاً موجودة .

٣) قلعة فلفل أي جبل لعلع : وقد هدمت هذه القلة وبني مكانها داراً للاّسلكي .

كما بنت الحكومة المذكورة بمكة أيضاً قشلاق جرول للجنود، ولا زالت موجودة إلى اليوم عامرة بالجنود، وقشلاق آخر بأجياد . وهذه لا زالت موجودة أيضاً، وهي الآن بقرب وزارة المالية وبعض الدوائر الحكومية .

وكان بعض حكام مكة، يبنون بجبل أبي قبيس، دوراً للحرب، يتحصنون فيها بالرجال والأسلحة ضد خصومهم، ومنذ أن تولى جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز، سنة (١٣٤٣هـ) حصل الأمن فيها بصورة منقطعة النظير، بحيث لا توجد الآن مملكة على وجه الأرض في الأمن والأمان مثل المملكة العربية السعودية، فقد بسط الأمن ذراعيه في أطراف المملكة سهلها وجبالها، يمشي المرء وحده في أي بقعة ليلاً أو نهاراً وهو آمن على نفسه وعلى ما معه من المال . وتأتي هذه آلاف المؤلفة من الحجيج في موسم كل عام على الحرمين الشريفين، فلا يرون إلا الراحة والطمأنينة والأمان .

إن هذا الأمن الواقع بأطراف المملكة العربية السعودية هو حديث الخاص والعام، داخل المملكة وخارجها، ولا يزال إلى اليوم رجالنا المعمرون الذين شاهدوا الحالتين من الحضر والبدو، يتفكهون في المجالس بما كانت حالة البلاد من الخوف والتعدي على الحجاج، وما أصبحت الآن من الأمن والطمأنينة في طول البلاد وعرضها .

ولا شك أن ذلك راجع أولاً إلى رحمة الله تعالى بعباده وعظيم فضله وإحسانه، ثم إلى يقظة حكومتنا السنية وحرصها على راحة شعبها ورعاياها، وتوجد الآن في جميع الطرق بالمملكة مركز متفرقة للشرطة. فبين مكة وجدة توجد نحو عشرة مراكز للشرطة، وهذه المراكز بنيت منذ أربع سنوات على شكل بيوت صغيرة -أو بعبارة أخرى- على شكل "فيلات" جميلة في كل منها بضع من الجنود، وليست هذه المراكز كالقلاع الصغيرة التي كانت مبنية في الطريق فإن هذه بنيت للحرب مع المعتدين من البدو، وأما هذه المراكز الحديثة فإنها وضعت للمحافظة على الطريق وعلى المسافرين ومراقبة السيارات، حتى لا تخرج عن حدود السير فتقع من الحوادث ما لا يحمد عقباه.

نسأل الله الكريم أن يجزى عنا حكومتنا السنية خير الجزاء، وأن يؤيد حضرة صاحب الجلالة مليكنا العظيم بالعز والنصر وأن يوفقه لكل ما فيه صالح العباد والبلاد آمين.

بعض الأمور العجيبة التي وقعت بمكة

إن ما نذكره هنا من الأمور العجيبة والأحوال الغريبة، التي حصلت بمكة المكرمة من الأمطار والسيول والرياح والصواعق وأشبهها، إنما هو للعظة والاعتبار والتذكر والافتقار، فسبحان الذي يلطف بعباده فيما جرت به المقادير.

وليس ذكرنا هذه الأمور من قبيل الحصر والتعداد، فقد يكون هناك من الحوادث ما غفل التاريخ عن ذكرها، وإننا لا نتعرض هنا لذكر الحوادث التي وقعت بمكة بسبب الحروب، لأننا أهملنا ذكر جميع الحروب، التي وقعت بمكة، من الأزمنة السابقة، لأن ذلك من اختصاص المؤرخين السياسيين. والحمد لله الذي عافانا من الاشتغال بالسياسة حتى نتفرغ لما هو الأصلح لمثلنا ففي الصحيحين "كل ميسّر لما خُلِقَ له" وإن ما نذكره هنا من الأمور العجيبة الواقعة بمكة فقط، فقد نقلناه من تاريخ العلامة الشيخ عبدالله الغازي المكي المتوفى في اليوم الخامس من شهر شعبان سنة (١٣٦٥) خمس وستين وثلاثمائة بعد الألف لأن تاريخه كالقاموس المحيط جامع لأكثر كتب التاريخ.

ونحن هنا لا ننقل من تاريخه نص كلامه، وإنما ننقل منه زبدة مختصرة جداً حتى لا يطول بنا الكلام.

فقد جاء في الجزء الأول منه في الباب الثامن، ما ملخصه في هذا الجدول، الذي نحن عملناه ورتبناه لسهولة المطالعة :

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
١٥٤	أربع وخمسين ومائة	وقعت صاعقة في المسجد الحرام فقتلت خمسة أشخاص.
٥٨١	إحدى وثمانين وخمسمائة	مات في جوف الكعبة من الزحام أربعة وثلاثون شخصاً.
٥٩٢	اثنين وتسعين وخمسمائة	بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا ووقع على الناس رمل أحمر، ووقعت من الركن اليماني وتحرك البيت الحرام مراراً.
٥٩٧	خمسمائة وسبع وتسعين	نقلاً عن كتابه "إتحاف الورى بأخبار أم القرى" حل الوباء بالطائف من أول شهر رجب من السنة المذكورة إلى أول رمضان، حتى ما بقي بالطائف ساكن، وكان الطاعون الذي نزل بهم إذا ظهرت علامته في أبدانهم لا يتجاوزون خمسة أيام ومن جاوزها لم يهلك، وامتلأت مكة بأهل الطائف، وبقيت ديارهم مفتحة، واقمشتهم مطروحة، ودوابهم في مرعاها، وكان الغريب في تلك المدة إذا مر بأرضهم فتناول شيئاً من أموالهم ودوابهم وطعامهم أصابه الطاعون من ساعته، وإذا مر ولم يأخذ شيئاً سلم من ذلك، فحمى

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		الله تعالى أموالهم في تلك المدة لمن بقي منهم ولمن ورثهم ... الخ.
٦٠٠	ستمائة تقريباً	جاء سيل بمكة ووقعت صاعقة على جبل أبي قبيس فقتلت رجلين ، ووقعت صاعقة أخرى بمسجد الخيف فقتلت رجلاً واحداً ، ووقعت صاعقة ثالثة في الجعرانة قتلت رجلين ، وصاعقة هلك بها بعض مؤذني الحرم ، وصاعقة بالمسجد الحرام قتلت خمسة أشخاص.
٦١٧	سبع عشرة وستمائة	مات بالمسعى من الزحام أناس من الحجاج.
٦٤٤	أربع وأربعين وستمائة	هبت ريح عاصفة شديدة بمكة ، فألقت ستارة الكعبة المشرفة حتى صارت عريانة ، ومكثت كذلك أحد وعشرين يوماً.
٦٦١	إحدى وستين وستمائة	عطش الناس بعرفة وكان يوماً شديد الحر ، حتى بيعت سخلة الماء بأربعة دنانير، والمراد بالسخلة القربة الصغيرة جداً.
٦٧٧	سبع وسبعين وستمائة	مات بباب العمرة من الزحام ثمانون شخصاً ، وذلك أنه ، عند خروج الحاج إلى العمرة ، بعد صلاة الصبح ، اعترضهم جمل في آخر الزقاق الضيق فزحم بعضهم بعضاً فقتل منهم في وقته خمسة وأربعون ،

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		ونقل كثير إلى منزله ومات عند أهله.
٦٩٥	خمس وتسعين وستمائة	وقعت صاعقة على مأذنة باب علي في المسجد الحرام ، فمات منها الشيخ تاج الدين علي بن محمد الكازروني المؤذّن.
٧٣٢	اثنتين وثلاثين وسبعمائة	في أواخر ذي الحجة وقعت بمكة امطار وصواعق ، منها صاعقة نزلت على أبي قبيس فقتلت رجلاً ، وأخرى بالخيف فقتلت رجلين ، وثالثة بالجعرانة فقتلت رجلين أيضاً.
٧٤٩	سبعمائة وتسع وأربعين	وقع بمكة والطائف وجدة وعامة بلاد الحجاز وبواديها ، وباء عظيم وجافت البلاد وهلك كثير من الجمال ، قيل لم يبق بجده سوى أربعة انفاس ، وخلت الطائف ولم يبق فيها إلا القليل ، وكان يموت من أهل مكة في كل يوم نحو من عشرين نفساً ، فدام الحال مدة ثم ارتفع وكان هذا الوباء عاماً في جميع البلاد ، وبديار مصر كان أعظم.
٧٥٠	خمسين وسبعمائة	وقعت بمكة ريح سوداء ومطر وصاعقة ، وقعت بسببها جميع الأعمدة ، التي حول المطاف ، والتي جددها فارس الدين فلم يبق منها غير عمودين.
٧٧١	إحدى وسبعين وسبعمائة	في الليلة الثانية من جمادى الأولى

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		سقطت مئذنة باب الحزورة -أي باب الوداع- في ليلة مطيرة وكفى الله شرّها فلم يحصل منها أيّ ضرر لأحد، فأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين صاحب مصر بعمارتها.
٨٢٥	ثمانمائة وخمس وعشرين	في اليوم السابع والعشرين من ذي الحجّة هجم سيل على المسجد الحرام ونزلت صاعقة بالطندباوي بأسفل مكة فقتلت أربعة أشخاص.
٨٤٥	خمس وأربعين وثمانمائة	صبح اليوم الثاني من ذي الحجة مات سبعة أشخاص في الطواف من الزحام.
٨٦٠	ستين وثمانمائة	حصل بمزدلفة مطر عظيم، فوقع فيها برد كبار، كل واحدة قدر الحنظلة.
٨٧٦	ست وسبعين وثمانمائة	وقعت صاعقة بالردم من مكة فقتلت امرأة مصرية ورجل مقديشياً.
٨٨١	إحدى وثمانين وثمانمائة	مات من الزحام بالكعبة خمسة وعشرون شخصاً
٨٨٢	ثمانمائة واثنين وثمانين	وفي أوائل هذه السنة وقع بمكة موت عظيم، وكان المرء يمرض يوماً أو يومين، مات في هذه الواقعة جماعة من أهل مكة والغرباء. وكذلك في هذه السنة وقع بجدة طاعون مات من أهلها كثيرون، حتى أغلقت أبواب كثيرة، وكان

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		في بعض الأيام يصلى على الستين ميتاً في الجامع، وقد بلغ عدد الأموات كل يوم أكثر من مائة.
٨٨٣	ثلاث وثمانين وثمانمائة	حصل مطر بمكة، فنزلت صاعقة مات منها صايغ كان يتوضأ بداره بالمسفلة.
٨٩٧	سبع وتسعين وثمانمائة	حصل بعرفات مطر وريح شديدة، ونزلت صاعقة فقتلت رجلين من العرب وكانت ساعة مهولة .
٩٠٥	خمس وتسعمائة	وقعت صاعقة بمكة فمات منها شخص نجار وغشي على آخر وأحرقت بعض خشب طاقات من بيت الحلبي.
٩٠٦	ست وتسعمائة	وقع بمكة مطر ومعه برد بقدر بيض النعام وبقدر البطيخة الصغيرة وأنها وزنت ثلاثة أرطال أو خمسة .
٩٠٨	ثمان وتسعمائة	وقع بمكة مطر وريح قويّ، وقع بسببه بالمطاف أسطوانتين من الحجارة وبعض درابزين الدور الثاني من منارة باب السلام.
٩٠٩	تسع وتسعمائة	في التاسع عشر من ذي القعدة حصل بمكة مطر ورعد قوي نزلت منه صاعقة فمرت على مئذنة السلطان قايتباي فوقعت رأسها على رأس جمل فشجته فذبحوه، وانفصلت من الصاعقة جزء فصبوا عليه الماء فلم تَنْطَفِ بل زادته

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		اشتعالاً فلما صبوا عليه الخل طفت.
٩٢١	تسعمائة وإحدى وعشرين	في السابع عشر من شوال حصل مطر وسيل بمكة ونزل برد عظيم فوق العمرة في طريق الوادي حتى صار ركاماً، وصار الجمالون يحملونه في المكاتل ويبيعونه مدة ثلاثة أيام، بل استمر وجود البرد في ذلك المكان نحو جمعتين وكان حجمه كالبيضة .
٩٨٩	تسع وثمانين وتسعمائة	بينما الناس والحجاج بمنى نزلت أمطار غزيرة وانحدرت السيول من كل جانب على الحج الشامي، حتى غرق جميعاً، وغرق معه من المصريين من نزل معه، وذهبت جمالهم وأموالهم في الأودية، وتخطفها العربان .
١٠٢٣	ثلاث وعشرين بعد الألف	وقع بمكة مطر عظيم فنزل فيه برد كبار كل بردة أكبر من شربة الماء.
١٠٣٩	تسع وثلاثين بعد الألف	في آخر يوم الأربعاء تاسع شعبان حصل مطر بمكة، ثم جاء سيل عظيم كبير، فدخل المسجد الحرام والكعبة المشرفة، وسقطت جدرانها ثم بناها السلطان مراد بناءً جديداً . وقد مات في هذا السيل نحو ألف إنسان .
١٠٤٣	ألف وثلاث وأربعين	وقع الموت بمكة في الخيول، حتى فنيت، فلم يبق منها بمكة إلا فرس

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		واحد ، أخذوها لشريف مكة ، وصارت الأشراف تركب الحمير.
١٠٥٣	ثلاث وخمسين بعد الألف	وقع سيل عظيم بعرفات واستمر من الظهر إلى المغرب ، فلما نفر الناس عاقهم السيل المعترض ، من تحت العلمين عن المرور ، ومنعهم من دخول الحرم ، فاستمر الناس وقوفاً إلى آخر الليل ، حتى خفّ قليلاً فقطعوه بغاية المشقّة.
١٠٧٩	تسع وسبعين بعد الألف	في صباح اليوم الحادي عشر من ذي القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين ظهر في عين الشمس ضوء هائل كالنجم فامتدّ إلى جهة المغرب ، وحصل على بصر من رآه غشاوة ، فارتعدت منه الفرائص وانزعجت منه القلوب ، وفي ضوئه زرقة وحمرة وصفرة ، ثم ذهب طرفاه وبقي الوسط واتسع في العرض ، فخرج منه صوت كالرعد و لم يكن في السماء غيم ولا سحاب واستمر ساعة ثم اضمحلّ الباقي من ذلك الشعاع .
١٠٨٠	ثمانين بعد الألف	في اليوم التاسع والعشرين من رمضان وقعت صاعقة بمكة بالشبيكة قتلت رجلاً واحداً.
١٠٩١	إحدى وتسعين بعد الألف	في ثاني عشر ذي الحجة ، وقع بمكة سيل عظيم ، فسالت الأودية،

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		وخربت منه دور كثيرة، وأتلفت أموال لا تحصى ، وغرق نحو ثلاثمائة نفس ، وقد علا السيل باب الكعبة المعظمة ، ودفع جملاً محمّلاً في طريقه ، فأدخله المسجد الحرام، حتى صار فوق المنبر ، فلم يزل فوقه حتى صبح اليوم الثاني.
١١٣٦	ست وثلاثين ومائة وألف	في اليوم التاسع من ذي الحجة والناس واقفون بعرفات هبت عليهم ريح شديدة مظلمة بحيث صاروا لا يرون بعضهم بعضاً ساعة فلكية ، فكانوا كالحيارى ، وألقت الريح الخيام ونزل مطر شديد ببرد كبار ، وأقبلت السيول من الجبال، فهرب الناس وتركوا أثقالهم ، فكانت ساعة عظيمة الهول، وبعد أن هدأت الريح ، وكف المطر، وضعف السيل ، نفرت الناس إلى مزدلفة ، وقد لحقهم من التعب والمشقة ما لحقهم.
١١٥٩	تسع وخمسين ومائة وألف	حصل مطر عظيم بمنى ، والناس بها في الحج ، فجاء سيل كبير ، وذهب بكثير من الأموال والحجاج، وكان ذلك آخر الليل ، وقد أظلمت الدنيا ، حتى لم ير الإنسان من بجانبه، فأصبح الناس نافرين إلى مكة وهم في غاية التعب والمشقّة، وكانوا

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		يمرون بأشخاص ، من ذكور وإناث وأطفال ، قد طمّهم السيل.
١٢٣٠	ألف ومائتين وثلاثين	حصل بجدة طاعون ، ومات فيه خلق كثير لا يحصى ، حتى قيل إنهّ بلغ قريباً من ثمانية آلاف نفس ، ما بين ذكر وأنثى وحر وعبد وصغير وكبير، حتى حصل إشكال في أمر الوراثة في من مات سابقاً ومن مات بعده وبالأخص فيمن كان غائباً في الآفاق.
١٢٧٨	ثمان وسبعين ومائتين وألف	في اليوم من جمادى الأولى جاء مطر كأفواه القرب بمكة ، ثم هجم السيل ، قبل صلاة الصبح ، ودخل المسجد الحرام دفعة واحدة ، حتى صار كالبحر، وطفحت بئر زمزم ، وغرقت الكتب، وغرق أناس داخل المسجد وخارجه، وانحبس الشيخ عبدالرحمن الريس فوق قبة زمزم ذلك اليوم.
١٢٨١	ألف ومائتين وإحدى وثمانين	حصل وباء بمكة ، وكان ابتداؤه ثاني يوم النحر ، واستمر سبعة أيام ، وكثر الموت إلى أن بلغ من يموت في اليوم نحو ألف نفس، ثم انتقل هذا الوباء إلى بعض البلدان الأخرى البعيدة.
١٢٨١	إحدى وثمانين ومائتين وألف	مات بمنى من الزحام عند الجمرة ثلاثة أشخاص.

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
١٢٨٦	ست وثمانين ومائتين وألف	في النصف من صفر انقضّ كوكب من السماء، بعد العشاء الآخرة، أضاءت منه الدنيا، وسمع لوقوعه مثل رمي المدافع، بقوة ثلاث مرات، حتى فرقعت الجبال لدويّها، وقد سمع ذلك من مكة إلى الجعرانة.
١٢٨٨	ألف ومائتين وثمان وثمانين	حصل في شهر رجب، بالمدينة المنورة، وباء مات منه كثيراً من الناس، فصدرت الأوامر من الأستانة ومصر بإرسال الأطباء، وعمر كرنتينة بمكة بالزاهر للقادمين من المدينة المنورة، وأمر أمير مكة أربعة من الفقهاء المجدين لحفظ القرآن الكريم، أن يمشوا في أطراف مكة من وراء العمران، من جهة المصافي بأجياد مارّين من أعالي الجبال، إلى جبل حراء، فطريق العشر، فالزاهر، فالحفاير، فبركة ماجن بالمسفلة، إلى أن يصلوا إلى المصافي بأجياد وهو موضع ابتداء سيرهم، وأن يختموا القرآن الكريم من أوله إلى آخره من مبتدأ سيرهم إلى انتهاء سيرهم، وذلك تحصينا لمكة من هذا الوباء، فلما أتموا عملهم جاؤوا إلى حجر إسماعيل، عند الكعبة المشرفة، وقرأوا أيضاً بعض سور من القرآن العظيم، الذي فيه شفاء ورحمة

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		للمؤمنين . واجتمع العلماء والناس وقرأوا صحيح البخاري عند البيت الحرام ، وابتهلوا إلى الله تعالى أن يرفع عنهم وعن سائر المسلمين السوء فتداركهم الله برحمته وحفظهم من الوباء.
١٢٨٨	ثمان وثمانين ومائتين وألف	ليلة الرابع والعشرين من ذي القعدة ظهرت بمكة ، في الساعة الرابعة من الليل ، حمرة في السماء بين المشرق والشمال، إلى الساعة السادسة ، وكانت مثل لهب النار ، حتى فزع الناس والعساكر الشاهانية إلى جهة المعابدة لظنهم أنه من حريق بعض الدور.
١٢٩٠	تسعين ومائتين وألف	في آخر اليوم السابع من رجب جاءت ريح شديدة بمكة منعت رؤية البيت الحرام ، فانزعج الناس وارتجّت قلوبهم.

ما وقع بمكة من الرخاء والغلاء والقحط والوباء

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
٦٤	أربع وستين	في حصار ابن الزبير ، رضي الله عنهما ، بلغ قيمة الدجاجة بمكة عشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهماً ، مع العلم بأن الدينار في ذلك الزمن يساوى عشرة دراهم.

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
٢٥١	إحدى وخمسين ومائتين	بلغ الخبز بمكة ثلاثة أواق بدرهم ، ورطل اللحم بأربعة دراهم ، وشربة الماء بثلاثة دراهم ، وبلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده ، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك ، فأرسل الله عليهم من الجراد ما ملئ الأرض ثم يسر الله الأمر على أهل مكة.
٤٥١	إحدى وخمسين وأربعمائة	كان بمكة رخص لم يشاهد مثله حتى بلغ مائتي رطل من التمر والزبيب بدينار.
٥٦٩	تسعة وستين وخمسمائة	كان بمكة غلاء كبير أكل الناس فيه الجلود والعظام والدم ، ومات أكثر الناس ثم فرج الله تعالى عليهم .
٥٧٩	تسعة وسبعين وخمسمائة	لحق بأهل مكة جهد كبير ، وأضر بهم القحط ، وأهلك المواشي الجرب ، فحرض القاضي الناس على صيام ثلاثة أيام ، ثم اجتمع الناس كافة للإستسقاء بالمسجد الحرام ، وفتحت الكعبة ، وأخرج مقام إبراهيم من جوفها ، ووضع على عتبتها ، وأخرج منها مصحف عثمان ، رضي الله عنه ، ونشر بإزاء المقام ، فصلى القاضي بالناس صلاة الإستسقاء ثلاثة أيام حتى لطف الله بسكان حرمه وفرج عنهم .
٦١٤	أربع عشرة وستمائة	بيع بمكة مدة شهرين ربع مد من الحب بدينار ذهب ، وتعرف هذه السنة بسنة أم لحم .
٦٢٧	سبعة وعشرين وستمائة	بلغ السعر بالطائف عشرين صاعاً بدينا والسمن منان بدينار ملكي ، والتمر ستة أمنان بدرهم ، والعسل سبعة أمنان مكيّة بدينار ملكي ، فإذا رخص السعر بالطائف رخص بمكة أيضاً.

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
٦٥١	إحدى وخمسين وستمائة	كثر الحجّاج في أيام موسم الحجّ فعطش الناس عطشاً شديداً فبيعت بمكة شربة الماء بدرهم ، والشاه بأربعين درهماً ، وبيع الشعير والدخن بالطائف مد وربع بدينار .
٦٩٥	خمسة وتسعين وستمائة	اشتد الغلاء بمكة حتى بيعت غرارة القمح في مكة بألف ومائتي درهم .
٧٠٧	سبعة وسبعمائة	بلغت بمكة غرارة الحنطة ألفاً وخمسمائة درهم ، والذرة أكثر من سبعمائة ، والغرارة اللوبية المصرية مقدراها غرارتان مكيتان ونحو نصف غرارة ، ويحتمل أن تكون الغرارة المشار إليها هي الغرارة المكية وا لله تعالى أعلم، نقله الغازي عن ابن فهد.
٧٢٥	خمسة وعشرين وسبعمائة	كان بمكة رخاء بيع أردب القمح المصري بثمانية عشر درهماً كاملية والشعير باثنى عشر درهماً.
٧٣٨	ثمان وثلاثين وسبعمائة	بيعت ويبة الدقيق الفاخر بتبسعة دراهم ، والسمن خمسة أرطال بدرهم ، والعسل أربعة أرطال بدرهم ، واللحم أربعة أرطال بدرهم ، والعجوة أثنتيعشر رطلاً بدرهم .
٧٤٤	أربعة وأربعين وسبعمائة	حصل غلاء عظيم بمكة فبيعت اللويبة من الشعير بدينار ، والرطل البقسماط بثلاث دراهم ، واللويبة من اللقيق بخمسين درهماً والأردب الحب بمائتي درهم .
٧٦٠	ستين وسبعمائة	خلت مكة خلواً عظيماً ، وتفرق الناس في سائر الأقطار من الغلاء وجور الحكام.
٧٦٦	ستة وستين وسبعمائة	كان بمكة غلاء عظيم حصل منه للناس كرب وشدة قال ابن فهد: وعدم الحب حتى لم يوجد في

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		مكة شيء منه وأقام السوق نحو الشهر لم يوجد فيه حب ولا تمر إلا قليل من اللحم والخضر ، وعز وجود الأقوات بها فهلك جماعة كثيرة جوعاً اهـ. قيل إن الناس أكلوا الميتة ، وذلك أنه وجد بمكة حمار ميت ، وفيه أثر السكاكين ، وأصيبت المواشي بالجرب ، وتعرف هذه السنة بسنة أم الجرب ، واستسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا ، وأحضرت المواشي إلى المسجد للاستسقاء ، وأدخلت فيه ، ووقفت بجهة باب العمرة إلى مقام المالكية ، ثم فرّج الله هذه الشدة عن الناس . وذلك أن بعض خواص الأمير بيبغا ، المعروف بالخاصكي مدير المملكة بالديار المصرية ، عرف ما عليه الناس بمكة من الشدة والتعب ، فأمر من فوره بإرسال ألف أردب من القمح الجدي إلى مكة عن طريق البر ، وأرسل إليها عن طريق البحر إحدى عشرة ألف أردب أيضاً ، وفرقت كلها على الناس بمكة أحسن تفرقة وفرحوا بذلك ودعوا له .
٧٨٣	ثلاث وثمانين وسبعمائة	غلت الأسعار بمكة وبلغت ويبة الدقيق إلى خمسين درهماً وأكثر ، وويبة الشعير إلى أربعين درهماً ، وحصل بالحرمين ، وغيرهما من بلاد الحجاز في آخر هذه السنة قحط عظيم ، ومات كثير من الأشراف وغيرهم من الجوع وأكلت الجلود.
٨١٥	خمسة عشر وثمانمائة	وقع في أيام الناصر فرج بن برقوق غلاء عظيم بمكة بحيث بيعت غرارة الحنطة بعشرين ديناراً ذهباً ، والغرارة حمل جمل معتدل ، وكان الغلاء عاماً في جميع المأكولات ، بحيث بيعت البطيخة الواحدة بدينار ذهب ، ثم رفع الله تعالى تلك الشدة .

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
٨٢٢	اثنتين وعشرين وثمانمائة	عم الغلاء بمكة وعدمت الأقوات وأكلت القطط والكلاب ، حتى فقدت ، فأكل بعض الناس الآدميين ، وكثر الخوف منهم ، حتى امتنع كثير من النزول إلى ظاهر مكة ، خشية أن يؤكلوا ، وهلك الفقراء وافتقر الأغنياء ، ذكره في "منائح الكرم" .
٩٦٣	تسعمائة وثلاث وستين	أكل الناس فيها حب الثمام ، وجعلوه خبزاً . والثمام كما جاء في "مختار الصحاح" نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص وربما حشي به وشد به خصائص البيوت ، الواحدة ثمامة .
٩٧٨	تسعمائة وثمان وسبعين	اشتد الغلاء بمكة حتى أكلت الموتى والدواب ثم تدارك الله الناس بلطفه.
١٠٠٧	ألف وسبعة	وصل الأردب المصري من القمح ثمانية عشر ديناراً ، وفيه أكل الناس لحوم الكلاب والقطط ، وكان الفقراء يأخذون دم الشاه ويجعلونه في إناء على النار ثم يستعلمونه .
١٠٣٢	ألف واثنين وثلاثين	وقع غلاء عظيم دام سنة واحدة فبلغت كيلة الدخن أحد عشرة محلقاً.
١٠٧٢	ألف واثنين وسبعين	حصل بمكة غلاء شديد بسبب كثرة الجراد ، حتى كسى جدران البيوت فأجمعها وأعقب ذلك وباء عظيم .
١٠٧٩	ألف وتسع وسبعين	اشتد الغلاء بمكة والطائف ، فاتفق أعيان مكة على طبخة دشيشه للفقراء تعطى لهم صباحاً ومساءً . فكانوا يطبخون يومياً أربع أرداب وتفرق عليهم بالمعلا ، وقد اشتد الحال من شعبان إلى ذي الحجة ، حتى أكلت الناس الرمم والدماء والعظام ، ثم تدارك الله تعالى ، فوردت المراكب المصرية.

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
١١١٥	ألف ومائة وخمسة عشر	حصل غلاء فوصلت كيلة الحب إلى قرش وكذلك الأرز، ووصل رطل السمن نصف قرش، وازداد الغلاء شيئاً فشيئاً حتى وصل أردب الحب إلى عشرين أحمر، إلى أن وصلت كيلة الحب المكي نصف ريال، وتساوي سعر الطائف بسعر مكة، وعدم السمن ولحقت بالناس شدة، ثم جاءهم الفرج من الله تعالى بورود المراكب المصرية وفيها سبعة آلاف أردب جراية مقسومة بين مكة والمدينة.
١١١٨	ألف ومائة وثمانية عشر	اشتد الكرب بمكة وعزّ كل شيء من الأقوات وغيرها من الحطب والفحم والملح، بسبب قطع الطريق بين جدة ومكة لحصول حرب، بين الشريف وبعض العربان في الطريق. وقد ذكر هذه الحادثة الشيخ زين العابدين الشماع في قصيدة بها خمسة عشر بيتاً، نذكر منها: الحمد لله مبيد الدهور عالم ما يخفى بطيّ الصدور مسيّر الأفلاك في أفقها ومجرى الفلك بماء البحور فقد جرى بمكة محنة قد عمت الدنيا وفي كل دور جرى غلاء ما سمعنا به ولا مضى في سالفات العصور قد أذهب الأرواح حتى لقد ضاقت على الموتى فسيح القبور وقد غدا من عظم أهواله كل فتى منّا عديم الشعور

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
		إلى أن قال : ونسأل الرحمن سبحانه يفرّج الكرب ويمحو الشرور وعامنا قد صحّ تاريخه ألا إلى الله تصير الأمور
١١٤٠	أربعين ومائة ألف	صارت كيلة البر الهميس بالطائف بأربعة ديوانية ، والنقرة الصافية بسبعة ديوانية ، والشعير بديوانيين ونصف ، والعسل الرطل بأربعة ديوانية ، والتمر بديواني ونصف ، والزبيب النعماني بأربعة ديوانية، والفواكه كثيرة ورخية للغاية. وكان صرف القرش بأربعين ديوانية ، والأحمر بقرشين ، والمشخص بأربعة قروش ، والريال بقرشين وثمن . اهـ.
١١٣٦	ستة وثلاثين ومائة وألف	في تاريخ الغازي : لما تولى القضاء بمكة الشيخ عبدالقادر المفتي سنة (١٣٣٦) ستة وثلاثين ومائة وألف فرض على كتاب المحكمة الشرعية أن يكتبوا الحجّة بخمسة ديوانية ، ومن قبل كانوا يكتبونها بقرش وبقرشين اهـ. نقول : حبذا لو فهمنا مقدار القرش والديواني والريال والمشخص الذي كان السابقون يتعاملون بها ، ولو أمكننا المقارنة بين عُملتهم وعُملتنا لبيّنا الحساب الدقيق هنا ، فالريال كان عندهم بقرشين وثمن ، بينما الريال عندنا باثنين وعشرين قرشاً فياليت الموازين والمكاييل والقياسات والنقود كانت في البلدان موحّدة على الدوام ، لكن دوام الحال من المحال .

السنة الهجرية بالأرقام	السنة بالحروف	الحوادث الخاصة
١٢١٩	ألف ومائتين وتسعة عشر	وقع غلاء شديد بمكة واشتد على الناس الجوع وذلك في أواخر شهر ذي الحجة من السنة المذكورة ، ثم دخلت سنة عشرين والحالة تزداد سوءًا في كل يوم ، حتى لقد بلغت كيلة القمح والأرز مشخصين ، وبلغ الرطل من السكر والشحم والزيت ريالين ، والرطل من البن والتمر ريالاً ، والرطل من السمن ريالاً ونصف ريال ، وكيلة الزبيب ثلاث ريالات ، ورطل اللحم نصف ريال ، ولقد باع الناس حليهم وأثاثهم بأبخس الأثمان ليشتروا ما يأكلون ، ثم ازداد الحال سوءًا حتى عدمت الأقوات وأكل الناس بذور العطارين كبزر الخشخاش وزبيب الهوى وبذر التمر الهندي والنوى والصمغ العربي ، وشرب الناس الدم المسفوح وأكلوا الجلود والكلاب والقطط وكل حيوان يدبّ ، ودام الحال هكذا إلى آخر سنة العشرين ثم تدارك الله الناس بلطفه وجاء الفرج بعد الشدة .

ومما شاهدناه ورأيناه من الأحوال في مكة المكرمة

نقول : إنه في سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية حصل غلاء كبير في مكة المكرمة ، بسبب قيام أمير مكة الشريف الحسين بن علي الذي صار فيما بعد ملكا على الحجاز، رحمه الله تعالى ، على حرب الدولة العثمانية التركية وإخراج الأتراك من الحجاز . وقد تم له ما أراد، فإنه في هذه السنة المذكورة قلت الأرزاق من مكة المشرفة ، بسبب عدم ورود الحبوب والبضائع من البحر ، فانعدم السكر من مكة ، وانعدمت الحنطة وبعض الأشياء أيضاً ، فكان الناس يأكلون حب الدخن وحب الذرة -بضم الذال المعجمه وفتح الراء المخففة- وهي حبوب مستديرة بيضاء أكبر من الدخن قليلاً ، ويسمونها في الحجاز "الضرة" -بضم

الضاد المعجمة وفتح الراء المخففة- فهذان النوعان من الحبوب يأتيان مكة من طريق اليمن.

أما شرب الشاي ونسميه بالحجاز "الشاهي" فقد صار الناس يشربونه بأنواع الحلويات كالحلاوة الليمونية والنعنانية وغيرهما، أما المدينة المنورة فكان الناس يشربونه بالرطب أو التمر لكثرته عندهم، وصار بعض الناس يشربون الشاي مرا -كأهل بخارى ويعملونه خفيفاً جداً- كل ذلك لعدم وجود السكر في البلاد، ولقد بلغت قيمة أقة السكر أو السكر الرأس المخروطي جنيهاً إفرنجياً ذهباً، أما والدنا، رحمه الله تعالى، فما كان يعجبه شرب الشاهي بشيء من الحلويات أو التمر، وإنما كان يمزجه بالحليب فقط، ويضع عليه قليلاً من الملح. وكان البدو يأتون صباحاً بالحليب في ماعون خاص من أطراف مكة كمنى فما دونها فيبيعونه بمكة، وكانت الأغنام رخيصة قد يباع الواحد بريال أو يزيد قليلاً، وذلك لقلة الدارهم في أيدي الناس.

أما غاز الاستصباح فقد انعدم من البلاد، وصار وجوده قليلاً، فكانت الحكومة العربية الهاشمية، أي حكومة الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، تخصص لكل حارة تنكة واحدة من "القاز" فكانت أمانة العاصمة، في ذلك الحين، تدفع لكل حارة من حارات مكة تنكة واحدة من القاز، ولا تبيع للشخص الواحد أكثر من ربع أقة أو ثمن أقة فقط، فكان الزحام على مباسط القاز شديد جداً، ولا يخفى أن تنكة القاز لكل حارة لا تكفيهم، فاهتدى الناس إلى وسيلة للإضاءة، في غاية الطرافة، مع رخصها وقلة تكاليفها وفي المثل "الحاجة أم الاختراع". فكان غالب الناس يأتون بكاسة شرب الماء التي من الزجاج فيملؤن ثلثيها من الماء، ويملؤن الثلث الباقي بزيت السمسم، ثم يأتون بقطعتين من الصفيح، أي "التنكة" فيقصونهما، بقدر فم الكاسة، ويجعلون أطرافهما معكوفة، حتى تقف فوق الكاسة، ويضعونهما على شكل الصليب أي مثل علامة (+) ويلحمونهما ببهض، ثم يخرقونهما من الوسط، فيجعلون في هذا الخرق فتيلة من القماش أو من القيطان، ثم يغمسون الطرف الفوقاني في الزيت، ويرمون باقي الفتيلة في بطن الكاسة التي فيها الماء والزيت، ويضعون هذه الكاسة فوق كرسي صغير مربع، في وسط الغرفة، وفي الغروب، في وسط الغرفة، وفي الغروب يشعلون هذه الفتيلة بالكبريت. هكذا كانت الإضاءة في ذلك العام، ولا يخفي أن الزيت إذا اختلط

بالماء علا فوقه. وكانت علب الكبريت في تلك الأيام، في أحجام مستديرة كالأسطوانات الصغيرة ، وأعواده لم تكن من الخشب ، بل كانت من الفتيلة الرفيعة المشمعة ، وكل علبة أعوادها كانت ملونة بعدة ألوان.

فسارت أحوال الناس على هذا المنوال وتعبوا قليلاً ، لكن لم يدم هذا التعب أكثر من عام واحد بل أقل ، ثم انفرجت الأزمة وجاء اليسر بعد العسر حيث انتهت الحرب العالمية الأولى العظمى ، فكان الناس ، إلى وقت قريب ، يطلقون على هذه السنة المذكورة سنة "الضرة" حيث أكلوا فيها دقيق الذرة ودقيق الدخن . فدوام الحال من المحال.

ومما شاهدناه ورأيناه أيضاً من الأحوال في مكة المكرمة

نقول: إنه لما تولت الحكومة السعودية للمرة الثانية على الحجاز في شهر ربيع سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وأربعون هجرية ، ومرت سنوات على ذلك ، حدثت أزمة شديدة في البلاد ، أي ابتداء من سنة (١٣٥٦) تقريباً ، ودامت هذه الأزمة سنوات عديدة إلى سنة (١٣٦٥) تقريباً ، فكانت الحكومة السعودية لا تقدر أن تدفع رواتب الموظفين ، إلا في كل ثلاث أو أربعة أشهر مرة واحدة ، فتعب الناس أشد التعب ، ورأوا ألوان الشدائد ، لكنهم صبروا صبر الكرام ، وفوضوا أمورهم إلى الملك العزيز العلام، حتى انفرجت هذه الأزمة بسلام. فكانت الحكومة السعودية ، إذا أمرت بصرف الرواتب كان يوم صرفها يوم عيدٍ وفرح عندهم وإذا سمع الناس الإشاعات حول صرف الرواتب لا يصدقونها أبداً ، إلا إذا شاهدوا صرف الرواتب بأعينهم وقبضوها بأيديهم ، ولقد مرت على الناس حوادث كثيرة وحكايات عديدة ، بسبب هذه الشدة ما زالوا يتناقلونها فيما بينهم ، ويتحدثون بها إلى الآن . بعد مرور هذه العاصفة الطويلة ، التي دامت سنوات عديدة ، أتى الله بالفرج العظيم، وأبدل ذلك العسر بيسر كبير، فتبدلت أحوال الناس ، وانتعشت مرافق حياتهم، وصارت الأموال لدى بعضهم بدون حساب وقد صار بعضهم مليونيراً وطبعاً هناك طبقة فقيرة، وهي الأكثرية، وهذه سنة الله في خلقه، فالحمد لله على كل حال وسبحان مغير الحال والأحوال.

التسعيرة ومقاومة الاحتكار

في هذه الأزمنة المتأخرة في البلاد، كثر جشع بعض التجار، فصار الربح المعقول، بل الكسب المضاعف لا يرضيهم، ولا يقنعوا إلا إذا جاءهم عشرة أضعاف ربح على رأس المال وأصل قيمة البضاعة، وكذلك كثر احتكار الأطعمة في البلدان رجاء زيادة الأسعار في المستقبل، مع علمهم بأن احتكار الطعام حرام شرعاً، على أن الله تعالى ينتقم من هؤلاء الجشعين والمحتكرين انتقاماً ليس بالفظيع المخيف، وإنما هو انتقام بلطف من وراء ستار، فكم نرى ونسمع من ذهاب أموالهم في غير طريقها، كالحريق والسرقات وكثرة الأمراض التي يضطرون إلى بذل الأموال الكثيرة في المعالجة، وكتبسيط الرطوبة والسوس والدود، في كل ما هو مخزون من أنواع الدقيق والحبوب وفساد الأطعمة، ومع ذلك لا ينتهون عن غفلتهم وتهاونهم، بل أنهم يعرفون كيف يصرفون هذه الأطعمة الفاسدة بالبيع على الفقراء والمساكين: ولهم في ذلك حيل هم أدرى بها.

وقد ورد النهي والتحذير عن الغش والاحتكار، فقد قال ﷺ: "من غشنا فليس منا" رواه مسلم عن ابن عمر وأبي هريرة، رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: "إحتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه" رواه أبو داود. وقال عليه الصلاة والسلام: "احتكار الطعام بمكة إلحاداً" رواه الطبراني.

قال العلامة الحفني في حاشية على الجامع الصغير عند الحديثين المذكورين ما نصه: قوله: "احتكار... الخ" هو شراء ما يقتات وحبسه إلى الغلاء فهو حرام ولو في غير الحرم، وخص الحرم لأن الإثم به أشد، أما لو اشترى غير طعام أو طعاماً غير مقتات بقصد ادخاره إلى الغلاء لم يحرم، وخرج بالشراء ما لو كان عنده بر مثلاً يأكله فادخره إلى الغلاء فلا يحرم، وكذا لو اشتراه بقصد أن يبيعه حالاً أو في زمن الرخاء فلا حرمة. انتهى من الحاشية المذكورة.

ومن المستحسن أن نذكر هنا ما دار في أحد مجالس الشرع الحنيف في العصور السابقة من النظر في أمر التسعيرة ومقاومة الاحتكار، فقد جاء في كتاب "مثل عليا من قضاء الإسلام" تأليف الأستاذ محمود الباجي والمطبوع بتونس سنة (١٣٧٦) هجرية ما يأتي:

من قضاة الإسلام البارزين الذي ولي القضاء ببلاد شرق الأندلس ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ، شهد فيه القاضي عياض بأنه جال ببلاد المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً، وهو في درجة واحدة مع القاضيين عياض بن موسى اليحصبي، وأبي بكر بن عبدالله بن العربي . وقد عرف الناس فضل الباجي في الأدوار الأخيرة من حياته وبعد وفاته، لأنه كان صلباً في رائه قوياً في معارضاته، لا يخضع إلا للحق ولا يخشى في سبيله لومة لائم. وقد جر عليه هذا الخلق الأبي، محناً ومقاومات وفتناً، غير أنها لم تنل من نفسه الكبيرة شيئاً . و لم تحمله على تغيير سلوكه .

ومن شعره قوله :

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعة
فلمَ لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

دخل الحاجب ، يستأذن على ابن عبدوس، والي الحسبة، وكان أبو الوليد يطالع كتاب الموطأ ، وقد وضعه على محمل من الأبنوس المطعّم بالأصداف، فأذن للوالي بالدخول، و لم يدخل الجمهور الذي وفد يتبع الوالي. وكان متألفاً من باعة الأطعمة والجالبين للأسواق . وبعد إفشاء السلام والتحية، قال الوالي للقاضي : أن سوق المدينة يجتاز أزمات متعاقبة، بسبب اضطراب الأسعار وعدم استقرارها، ويحدث أن ترتفع الأسعار دفعة واحدة ، فيطمع الجالبون في الأرباح وتكثر الواردات ، وتهبط الأسعار هبوطاً فاحشاً ، فيخسر الجالبون وتضعف الثقة بالسوق.

وإني أوشك أن أحمل الناس على سعر موحد ، وقد جئت للتحصيل على الموافقة الشرعية، والرأي الأسد ، للمولى القاضي . وعلى الامتثال والطاعة.

فعقد القاضي، أبو الوليد ، لتوه، مجلس الاستشارة الشرعية ، للبت في هذا المشكل الشرعي . وبعد بسط نظرية الوالي افتتح المجادلة.

فقال شيخ أهل الشورى: "إن مالكاً يرى أنه إذا كان للناس سعر غالب وأراد بعضهم أن يبيع بأغلى من ذلك فإنه يمنع. أما إذا أراد أن يبيع بأقل فقد روي عن مالك رأيان : رأي بالمنع على اعتبار أنه إذا أراد الرجل إفساد السوق فحط عن سعر الناس فيقال له: إما لحقت بسعر الناس وإما رفعت بضاعتك.

وحجة مالك: ما روي عن عمر بن الخطاب من أنه مر بحاطب بن أبـي بلتعة وهو يبيع زبيباً بالسوق فقال له عمر : إمـا أن تزيـد في السـعر ، وإمـا أن ترفـع مـن سوقنا لأن بعيراً قدمت من الطائف تحمـل زبيبـاً فلـو عرفـوا السـعر الـذي تبيـع بـه لقصدوا مدينة أخرى وأعرضوا عن البيع".

وقال ثاني المستشارين : "إنه يجب أن يفرق بين الجلابـين ، فـلا يسـعر عليهـم شيء مما جلبوه للبيع ، وبين التجار أصحاب الحوانيت والأسواق ، الذيـن يشـترون من الجلابين جملة ، ويبيعون بالتفصيل. وهذا الرأي ، ذهب إليه عبـدا لله بـن عمـر، والقاسـم بـن محمـد وسـالم بـن عبـدا لله ، الذيـن يـرون أن أصحـاب الحوانيـت والأسواق ، لايتركون على البيع باختيارهم ، إذا أغلوا على الناس ، و لم يقتنعوا مـن الربح بما يشبه . وعلى صاحب السوق أن يعرف ما يشترون به، فيجعـل لهـم مـن الربح بما يشبه وينهاهم أن يزيدوا على ذلك . ويعاقب من خالف الأوامر".

وقال ثالث المستشارين: "أن ابن حبيب ، وابـن المسيب ، ويحيـي بـن سـعيد ، والليث ، وربيعة ، يرون أن التحديد لا يجرى جزافاً وإنمـا يكـون مبنيـاً علـى تقديـر الأرباح المنسبة".

وقال رابع المستشارين: "إني على رأي الإمام الشافعي، الـذي يحجـر التداخـل في التسعير والأسعار ، لأن الناس مسلطون على أموالهم ليس لأحـد أن يأخذهـا أو شيئاً منها، بغير طيب أنفسهم، إلا في المواضع التي تلزمهم ، وهذا ليس منها وحجة الشافعي ما روي عن أبي هريرة من أن رجلاً جـاء إلى رسـول ا لله ﷺ فقـال: يـا رسـول ا لله سعر لنـا: فقـال: بـل ا لله يرفـع ويخفـض ، وإنـي لأرجـو أن ألقـى ا لله وليست لأحد عندي مظلمة".

بعد التداول بين شيوخ الشورى والقاضي أبـي الوليـد، واستعراض النصـوص العامة والخاصة ، حكم أبو الوليد بما يأتي:

أولاً: لما كـان المعتـبر هـو السـعر الـذي عليـه الجمهـور والأكثريـة العامـة مـن أصحاب الحوانيت والأسواق ، فإن الواحد والعدد اليسير إذا انفـردوا بـالحط أمـروا باللحاق بالسعر العام أو ترك البيع ، وإذا انفردوا بالزيادة لم يؤمروا بالحط و لم يؤمـر الجمهور بالترفيع إلى متواهم ، لأن المعتبر حال الجمهور، وعلى نسبة ثمـن الجمهـور تقوم المبيعات.

ثانياً: ولما كان الجالبون هم المموّنون للأسواق ، وليس بهم من الوقت ما يسمح لهم بالاحتكار والتلاعب بالأسعار فهم أحرار في بيعهم بأي ثمن أرادوا.

ثالثاً: ولما كانت الضرورة تدعو إلى تيسير الواردات من القمح والشعير فإن هذين النوعين لا يخضعان للتسعير الجبري.

رابعاً: وعلى كل الأحوال ، فإن التسعير يتم باجتماع وجوه أهل السوق من كل صنف وغيرهم من الأجانب عن السوق استظهاراً على صدقهم ، ويقع سؤالهم عن أثمان الشراء وأثمان البيع وعلى أساس مراعاة المصلحة العامة والخاصة يتم التسعير مع تجنب الإجحاف والإكراه.

خامساً : وإذا امتنع الناس من بيع ما يجب عليهم بيعه ، فإنهم يؤمرون بالواجب ، ويعاقبون على تركه، وكذلك كل من وجب عليه أن يبيع بثمن المثل فامتنع ، لأنه يجوز إخراج الشيء من ملك صاحبه قهراً بثمنه، للمصلحة العامة ، كما في الشفعة.

سلم كاتب القضاء صكا، يشتمل على نص الحكم ، الذي أصدره القاضي أبو الوليد إلى والي الحسبة ابن عبدوس، فقام بتنفيذه طبق نصه، واستقرت الأسواق واعتدلت الأسعار وكثرت الواردات ، واختفى شبح الإحتكار، ولم تعد المعروضات مهددة بالإنهيار أو بالغلاء الفاحش.

وبلغ الأمر إلى علم خليفة الأندلس، فوجه إلى قضاة الأقاليم ، نسخا من حكم القاضي أبي الوليد، للتأمل منه، سعياً وراء توحيد العمل بما اقتضاه.

هذا مثل أحكام الإسلام، في نظام البيع والشراء والعرض والطلب، ووسائل مقاومة الإحتكار ، والتعريفة الجبرية وحفظ التوازن بين القدرة على الإستهلاك والتوريد المأمون ، وقد عالج الإسلام هذه المشاكل الدقيقة ، التي لا يخلو من أخطارها زمان ولا مكان ، ووضع لها الحلول الموفقة ، وفرض من التدابير الحازمة ما حفظ به استقرار الأثمان، والربح المناسب للتاجر والجالب. وبسط الرخاء وجعله في متناول الجميع.

والتشريع الإسلامي الصالح لكل جيل، والمساير بمبادئه ونظمه القويمة لكل تطور بشرى، تناول في نصوصه وأقضيته الروابط التي تربط الإنسان بنفسه وتربطه بمحيطه العائلي وتربطه بمجتمعه ، ثم تربطه بالحياة العامة في جميع مظاهرها ومختلف

نواحي نشاطها، وأي قانون اتسع لأحوال المعاملات كما اتسع لها القانون الإسلامي، وأي قضاء كان له ثراء في فقهه، ودقة في تصويره، وعمق في نظره كقضاء الإسلام.

وإن تعجب فعجب لهؤلاء الذين يسرعون بالإلتجاء إلى أنظمة وضعها الناس، وقواعد اصطلحت عليها العوائد ونظريات لم تمحصها التجارب، ولم تصقلها العقول والأجيال، ويزهدون فيما خلفه لهم الإسلام من تراث كبير ومجد عريض.

لقد أصدر أبو الوليد الباجي حكمه في الفترة التي بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وفي أزهر عهود الأندلس، وألمع حقبه من تاريخها الحافل، وجاء ذلك الحكم دقيقا في نصه، حازما في تدابيره، حكيماً في مراميه، ودل على ما كان سائدا من الانسجام بين ديوان القضاء العدلي، وديوان الحسبة ومقام الخلافة، وعلى بساطة الاجراء، وسرعة البت. انتهى من الكتاب المذكور.

إبطال المكوس والجمارك

نقول: بمناسبة ذكرنا للمكوس والعشور، أن بعض الملوك والسلاطين الأتراك كانوا قد رفعوا ومنعوا أخذ العشور والمكوس "أي الجمرك" على جميع البضائع والحاجيات المستوردة إلى بلادهم - فمن جملة ذلك- ما هو ثابت على أحد أعمدة المسجد الحرام بالجهة الغربية، أي أن العمود الرخامي الموجود بين باب الباسطية وباب العمرة مكتوب عليه، بالنقر على نفس الرخامة، أن أحد الملوك قد أمر بابطال جميع المكوس من الحرمين الشريفين، فمنع أخذ العشور على جميع أنواع ما يرد إلى مكة المشرفة من الحبوب والأغنام والدجاج وغير ذلك... الخ. ولم نقدر على معرفة تاريخ الكتابة في هذه الرخامة، كما لم نقدر على معرفة اسم الملك الذي أمر بذلك، لارتفاع الكتابة على الرخامة عن أرض المسجد الحرام، ولم نجد سلماً في تلك الساعة لنصعد عليه ونطلع على كل ذلك حرفياً، فنظن أن ذلك كان من القرن التاسع أو العاشر من الهجرة.

يقول صديقنا الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" وقد حدثنا الدحلان فيما ذكر عن سني الفتنة فقال: أن قيمة الكيلة من القمح والأرز كانت تبلغ مشخصين وأن الرطل من السكر والشحم والزيت كانت تبلغ قيمته ريالين ولا نعرف فداحة هذا الغلاء إلا إذا قارنا هذه الأسعار بما يورده الدحلان نفسه عن

أسعار مثلها في أيام الرخاء فهو يقول أن الكيلة تبلغ قيمتها خمسة ديوانية والكيلة تعادل الصاع تقريباً وقيمة الرطل من العسل والزبيب أربعة ديوانية. والذي أعرفه في عهد طفولتي أن الهللة الواحدة وهي ربع القرش الحالي كانت تساوي ثلاثين ديوانيا وكانت العملة الدارجة في هذا العهد الذي ندرسه هي النقد العثماني ومن أنواعه كما يذكر الدحلان المشخص ويساوي ريالين والأحمر ويساوي قرشين والقرش الشرك ويساوي أربعين ديوانيا وبذلك كانوا يشترون سبع كيلات من القمح بقرش واحد. والذي يعرفه المضمرون بضمتين أن القرش نوعان. -قرش الصاغ- وهو (١٢٠) ديوانياً -والقرش الشرك- وهو أربعين ديوانياً، والريال المجيدي يساوي (٢٠) قرشاً صاغاً و٦٠ شركاً. ومن أغرب ما يروى عن تكاليف العيش في هذا العهد -إذا استثنينا أيام الغلاء- ما يذكره الغازي نقلاً عن الطبري والسنجاري أن أحد الأئمة في المسجد لما حجر عليه وقد كبر سنه رتبوا له نفقته اليومية وهي قرشان وفي هذا ما يدل على متوسط نفقة الشخص في هذا العهد. انتهى منه.

نقول: "إن القرش الصاغ والقرش الشُّرُكْ -بضمتين- هما من اصطلاح الأتراك، فمعنى القرش أي القرش السليم الذي لم ينقص قيمته، لذلك يقال فلان صاغ سليم، أي أنه صحيح سليم معافى، ومعنى الشرك "بضمتين" البالي الواهي أي غير سليم، فالقرش الصاغ قيمته أكثر من القرش الشرك، واليوم لم يبق لهذه المصطلحات من أثر لزوال حكم الأتراك من جميع البلاد الإسلامية. ولقد أدركنا التعامل بالقرش الصاغ والقرش الشرك والديواني والمتاليك والبارة في طفولتنا، ولكن نسينا اليوم ذلك العهد لطول الزمن فلم يبق في ذاكرتنا سوى الأسماء.

المراد بالمسجد الحرام وفضل الصلاة فيه

يطلق على المسجد الحرام مسجد الكعبة: فقد جاء في صحيح البخاري، في كتاب التوحيد، في باب قوله: ﴿وكلّم الله موسى تكليما﴾ حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله، حدثني سليمان، عن شريك بن عبدالله أنه قال: سمعت ابن مالك يقول: "ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر..." إلى آخر حديث الإسراء الطويل.

قال العلامة ابن ظهيرة القرشي، رحمه الله تعالى، في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" ما نصه: اعلم أن الله تبارك وتعالى قد ذكر المسجد الحرام في كتابه العزيز في نحو خمسة عشر موضعاً . فإذا تقرر هذا، فقد اختلف في المراد بالمسجد الحرام، الذي تتعلق به المضاعفة في قوله ﷺ في حديث ابن الزبير السابق "وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي".

فقيل جميع بقاع الحرم، وقيل المراد الكعبة وما في الحجر من البيت ، ويؤيده ما أخرجه النسائي ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه : "صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا الكعبة" ، وقيل المراد الكعبة وما حولها من المسجد . وجزم به النووي وقال : أنه الظاهر، وقيل: المكان الذي يحرم على الجنب المكث فيه.

ونقل ، عن الإمام تقي الدين بن أبي الصيف اليمني ، أن المضاعفة تختص بالمسجد المعدّ للطواف ، لأنه المنصرف عند الإطلاق في العرف . قال: ولا يضير رواية الكعبة ، ولهذا قال الغزالي : لو نذر صلاة في الكعبة فصلى في إرجاء المسجد جاز. انتهى.

ورجح الطبري، رحمه الله، أن المضاعفة مختصة بمسجد الجماعة. وقال: أنه يتأيد بقوله، عليه السلام : مسجدي هذا ، لأن الإشارة في حال مسجد الجماعة ، فينبغي أن يكون المستثنى كذلك ، فإنه قيل: قد ورد، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن حسنات الحرم كلها ، الحسنة بمائة ألف ، فعلى هذا يكون المراد بالمسجد الحرام، في حديث الاستثناء، الحرم كله.

نقول، بموجب حديث ابن عباس ، أن حسنة الحرم مطلقاً بمائة ألف ، لكن الصلاة ، في مسجد الجماعة ، تزيد على ذلك . ولهذا قال بمائة صلاة في مسجدي ولم يقل حسنة . وصلاة في مسجده بألف صلاة، كل صلاة بعشر حسنات ، فتكون الصلاة في مسجد ﷺ بعشرة آلاف حسنة وتكون في المسجد الحرام بألف حسنة . وعلى هذا يكون حسنة الحرم بمائة ألف ، وحسنة المسجد الحرام بألف

ألف ويلحق بعض الحسنات ببعض، أو يكون ذلك مختصاً بالصلاة خاصة فيها. والله أعلم. انتهى بنصه.

قال الجد رحمه الله: وحاصل هذه العبارات، مع اختلافها، يرجع إلى ترجيح هذا القول، ثم قال: وهذا التضعيف يحصل بصلاة المنفرد وتزيد الحسنات بصلاة المكتوبة في جماعة، على ما جاء أنها تعدل سبعا وعشرين درجة، وهذا، فيما يرجع إلى الثواب، ولا يتعدى ذلك إلى الإجزاء عن الفوائت، حتى لو كان عليه صلاتان فصلى في المسجد الحرام صلاة لم تجزئه عنهما. وهذا لا خلاف فيه، انتهى. وقد اختلف العلماء في هذا الفضل هل يعم الفرض والنفل أو يختص بالفرض، فمذهبنا، و مشهور مذهب مالك، أنه يختص بالفرض، والتعميم مذهب الشافعي، رضي الله عنه، كما صرح به النووي، رحمه الله تعالى، فإن قيل لا عموم في لفظ الحديث لما أنه نكرة في سباق الإثبات، ويؤيده أن النبي ﷺ قال: أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة، أجيب بأنه وإن كان نكرة في سياق الإثبات فهو عام لأنه في معرض الامتنان. قال الجد، رحمه الله، فإن قيل كيف يقال أن المضاعفة تعم الفرض والنفل، وقد تطابقت نصوص الأصحاب ونص الحديث على أن فعل النافلة في بيت الإنسان أفضل، إلا ما استثنى كالعيد وركعتي الطواف، فالجواب ما قيل لا يلزم من المضاعفة في المسجد أن يكون أفضل من البيت، إذ فضيلة المسجد المذكور، من حيث التضعيف، وفضيلتها في البيت من حيثية أخرى تربو على التضعيف. انتهى.

أقول: هذا التفضيل بالنسبة إلى الرجال، وأما الإناث، فالصلاة في البيت، مطلقاً، لهن أفضل، لا سيما في هذا الزمان لكثرة الفساد سواء كانت المرأة عجوزاً أمْ شابّة. ونقل الشيخ ولي الدين العراقي، في شرح تقريب الأسانيد، أن التضعيف في المسجد الحرام يختص بالمسجد، الذي كان في زمن النبي، عليه الصلاة والسلام، بل يشمل جميع ما زيد فيه، لأن المسجد الحرام يعم الكل، بل المشهور عند أصحابنا أن التضعيف يعم جميع مكة، بل جميع الحرم الذي يحرم صيده كما صححه النووي.

وأما المدينة فيختص التضعيف بالمسجد، الذي كان في زمنه، عليه السلام، ثم قال لكن يشكل على هذا ما في تاريخ المدينة أن عمر، رضي الله عنه، لما فرغ من الزيادة في مسجد النبي عليه السلام، قال: لو انتهى إلى الجبانة لكان مسجد

رسول الله عليه السلام، وفي رواية أخرى : لو مد إلى ذي الحليفة لكان منه ، وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لو زيد في هذا المسجد ما زيد لكان الكل مسجدي. وفي رواية أخرى : أو بني إلى صنعاء ، وفي أخرى : ما زيد في مسجدي فهو منه ولو بلغ ما بلغ فإن صح ذلك فهو بشرى حسنة. انتهى باختصار . انتهى من الجامع اللطيف لابن ظهيرة .

مقدار فضل الصلاة في المسجد الحرام بالحساب

قال ابن ظهيرة رحمه الله تعالى في كتابه "الجامع اللطيف" ما نصه : فائدتان:

الفائدة الأولى : قد حسب النّقّاش المفسر فضل الصلاة في المسجد الحرام على مقتضى حديث تفضيل الصلاة فيه على غيره بمائة ألف ، فبلغت صلاة واحدة في المسجد الحرام ، عمر خمس وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة وصلاة يوم وليلة . وهي خمس صلوات، في المسجد الحرام، عمر مائتي سنة وسبع وسبعين سنة وتسعة أشهر وعشر ليال . انتهى كلامه.

انظر: صورة رقم ١٢٧ ، المسجد الحرام والناس وقوف فيه يصلون حول الكعبة المشرفة من جهاتها الأربعة

الفائدة الثانية : قال الشيخ بدر الدين بن الصاحب الأثاري: إن كل صلاة في المسجد الحرام فرادى بمائة ألف صلاة، كما ورد في الحديث، وكل صلاة فيه جماعة بألفي ألف صلاة وسبعمائة ألف صلاة والصلوات الخمس فيه بثلاث عشر ألف ألف صلاة وخمسمائة صلاة ، وصلاة الرجل منفرداً في وطنه، غير المسجدين المعظمين، كل مائة سنة بمائة ألف وثمانين ألف صلاة، وكل ألف سنة بألف ألف صلاة وثمانمائة ألف . فتلخص من هذا أن صلاة واحدة في المسجد الحرام جماعة، يفضل ثوابها على ثواب من صلى في بلده فرادى، حتى بلغ عمر نوح النبي عليه السلام، بنحو الضعف وسلام على نوح في العالمين، وهذه فائدة تساوي دجلة . ثم قال : هذا إذا لم يضف إلى ذلك شيئاً آخر من أنواع العبادات ، فإن صام يوماً وصلى صلوات الخمس جماعة ، فعل فيه أنواعا من البر وقلنا بالمضاعفة فهذا مما يعجز الحساب عن حصر ثوابه . انتهى.

هل تتضاعف السيئات بالحرم أم لا؟

قال ابن ظهيرة في كتابه "الجامع اللطيف" ما يأتي: قال بعض العلماء: أن السيئات بالحرم تتضاعف كتضاعف الحسنات، وهو مذهب ابن مسعود وابن عباس ، رضي الله عنهما، قال به مجاهد أيضاً والإمام أحمد بن حنبل ولهذا كان مقام ابن عباس بغير مكة.

والصحيح ، عند جماهير أهل العلم، عدم المضاعفة، لكن السيئة فيه أعظم منها في غيره بلا ريب .ثم على قول أن السيئة تتضاعف، فقيل تضعيفها الحسنات بالحرم، وقيل بل كخارجه ، وحرر بعض العلماء النزاع في هذه المسألة فقال: القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها، أي غلظها، لا كميتها في العدد، فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن السيئة تتفاوت ، فالسيئة في حرم الله وبلده، على بساطه أكبر وأعظم منها في غيره ، وليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في موضع بعيد عنه. فإنه قيل يرجع النزاع أيضاً إذ لا فرق بين أن تكون السيئة مغلظة وهي واحدة، وبين أن تكون مائة ألف سيئة عددا، فالجواب أنه قد جاء: من زادت حسناته على سيئاته في العدد دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته في العدد دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته عدداً كان من أهل الأعراف. انتهى كل ما تقدم من الجامع اللطيف لابن ظهيرة.

انظر: صورة رقم ١٢٨ ، المسجد الحرام . وانظر: صورة رقم ١٢٩ ، المسجد الحرام قديماً

باب بني شيبة

باب بني شيبة، محله هو محل العقد القائم خلف مقام إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، وهو عقد على شكل نصف دائرة ، مبني على عمودين من حجر الرخام المتين ، مزين بنقوش بديعة.

وهذا العقد هو محل السكة الضيقة النافذة من بين بيوت قريش إلى المسجد الحرام . فإن قريشاً ، لما بنت بيوتها حول الكعبة، على قدر حاشية المطاف ، جعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكاً ينفذ منه إلى بيت الله الحرام ، فكان هذا العقد هو محل السكة النافذة ، وبجواره كانت دار شيبة بن عثمان الحجبي ، سادن الكعبة المعظمة ، التي دخلت في توسعة المهدي للمسجد ، لذلك نسب الباب إليه ، فقيل :

"باب بني شيبة" . ويقال له أيضاً ، باب السلام. فهو قديم، من أيـام الجاهليـة ، ولا يزال موضعه محفوظا إلى الآن . وقد ورد في كتب الحديـث والتـاريخ أن النبي ﷺ كان يدخل المسجد الحرام من هذا الباب ، ويخرج منه ، وسبب ذلك ، كمـا ظهـر لنا والله تعالى أعلم، أن النبي ﷺ كانت إقامته بمكة ، إمـا بـدار خديجـة رضـي الله عنها، بزقاق الحجر أو بـدار عقيـل ، بسـوق الليـل ، أو كـان ينـزل بـالأبطح جهـة المعلاّ. فالآتي من هذه الأماكن لا بد وأن تكون وجهته قبل باب الكعبـة، فيدخـل المسجد من باب بني شيبة بطبيعة الحال، وأيضاً ، فإن هذا الباب مقابل لبـاب بيـت الله الحرام والله تعالى يقول: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ فكـان الأفضـل الدخـول للمسجد الحرام من باب بنـى شـيبة. ولذلـك يستحب الدخـول للمسـجد ، لكـل قادم، من هذا الباب، الذي كان يسمى قديماً بباب السلام . فالقـادم إذا دخـل مـن أي أبواب المسجد الحرام، ومر للطواف من هذا العقد، أي بـاب بـني شـيبة ، فقـد أتى بالسنة وعمل بالأدب المطلوب.

انظر: صورة رقم ١٣٠ ، العقد القائم في مواجهة الكعبة وهو محلة باب بني شيبة

المسافة بين باب بني شيبة وجبل الرحمة بعرفات

قال الغازي في الورقة التابعة لصحيفة (٣٨٦) ما نصه:

فائدة : المسافة بين باب بني شيبة شرقي المسجد الحرام وجبل الرحمة بعرفة هي ٢١٣٦٧ متراً بهذا التفصيل :

متر	
١٠٤٢	من باب بني شيبة إلى باب مقبرة المعلاة.
٢٣٨٧	من باب مقبرة المعلاة إلى سبيل الست.
٣١٢٠	من سبيل الست إلى جمرة العقبة.
٣٥٢٨	من جمرة العقبة إلى وادي محسر أي طول منى.
٣٨١٢	مـن نهايـة وادي محسِّر إلى أول المـأزمين أي طـول المزدلفـة، ووادي مُحَسِّر هو بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد السـين المهملة وكسرها ويقال له وادي النار.
٤٣٧٢	من أول المأزمين إلى العلمين المحدين للحرم أي طول المأزمين.

متر	
١٥٥٣	من أول العلمين المحدين للحرم إلى العلمين المحدين لأول عرفة من جهة مكة أي طول وادي عرنة.
١٥٥٣	من أول علمي عرفة إلى سفح جبل الرحمة.
٢١٣٦٧	المجموع

ذكره العلامة إبراهيم رفعت باشا، في "مرآة الحرمين" وقال: اعتمدنا في ذكر هذه المسافات على ما ذكره التقي الفاسي، في كتابه "شفاء الغرام" والأزرقي، في كتابه "تاريخ مكة"، والمسافة مذكورة فيهما بذراع اليد، وتارة بذراع الحديد، المستعمل في قياس القماش بمصر في عهد الفاسي بعد القرن الثامن.

وقد استنتجنا مقدار ذراع الحديد من قياس الفاسي لجدر الكعبة ومقارنته بقياسنا لها ولم يحصل في جدرها تغيير من عهد الفاسي إلى الآن، فكان ذراع الحديد ٥٦١/٧ سنتيا، ورأينا الفاسي قاس بعض الأماكن بالذارعين الحديدي واليدوي، فاستنتجنا مقدار ذراع اليد فإذا هو ٤٩ سنتياً تقريباً. قال: ولا يخفى عليك أن تقدير المسافات في هذه الأمكنة محتمل للنقص والزيادة باعتبار ما في الأرض من نشوز وانخفاض واستقامة وانثناء، فإن رأيت مخالفاً فلا تنكر، فمنشأ الخلاف ما ذكرنا. انتهى.

صلاة الجمعة في المسجد الحرام

قال الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى، في كتابه "في منزل الوحي" عن صلاة الجمعة، في المسجد الحرام، ما نصه:

"المسجد الحرام مثابة المسلمين الذين يفدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعاً في أشهر الحج، وهو مثابتهم، ما أقاموا بأم القرى: يغدون إليه لصلاة الفجر وعند الظهيرة ويعودون إليه لصلواتهم الأخرى وللطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوف به. وهم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدثون أثناء النهار ويستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدثونهم في الإسلام ويفقهونهم الدين قطعاً من الليل. وإن منهم لمن يقضي فيه يومه يجاور البيت، ومنهم من ينصرف نهاره إلى شؤن الحياة، فإذا أقبل الظلام فضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلاً، يذكر الله كثيراً،

ولا ينال من النوم إلا القدر الذي يكفيه لسعي النهار وتهجد الليل . لذلك قل أن يصلي بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها . وما رأيت أحداً أقام بهذه المساجد مصلياً على كثرة مروري بها ووقوفي عندها ، ولا تقام بها صلاة الجمعة مطلقاً . ومن ذا الذي تطاوعه نفسه وهو بمكة على أن يصلي بمسجد غير المسجد الحرام والاجماع منعقد على أن مثوبة الصلاة فيه تزيد على مثوبة الصلاة بغيره أضعافاً مضاعفة . وهذا الإجماع صحيح أساسه . فالإسلام دين جماعة ودعوة للجماعة ، ولا شيء يمقته الإسلام كالخروج على الجماعة في غير حق . ولا تجد الجماعة بمكة مكاناً كالمسجد الحرام مقام بيت الله لتقوم بفروض الله فيه.

انظر: صورة رقم ١٣١ ، الكعبة المعظمة ومنظر الحرم المكي في أوقات الصلاة من الحج.

وصلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان في الجماعة الإسلامية ، هذا الإيمان القوي في بساطته، البالغ في قوته ، الذي يجمع بين الحرية والنظام جمعاً لم أقف على ما يقرب من رفعته في أي من الملل والنحل الحديثة أو القديمة التي اطلعت عليها . ولقد رأيت في أسفاري الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ومن نظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام ، ولقد حضرت صلاة الجمعة في بلاد إسلامية شتى، ولكني لم أر في شيء من ذلك، ما قد يقرب في جلال مظهره وقوة روعته ، وفي جمعه بين الحرية والنظام، وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله، ما رأيت في صلاة الجمعة بالمسجد الحرام، ولم يطبع شيء من ذلك كله من الأثر العميق في نفسي ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ في عمقه، فما أفتأ كلما أذكره أشعر به متغلغلاً في أطواء روحي يسمو بها إلى ذروة الإيمان ويرقى بها إلى ما فوق مستوى الإنسانية الذي نألفه..." إلى آخر كلامه، انتهى من كتاب "منزل الوحي".

وحي صلاة الجمعة في المسجد الحرام

أنظر ، رحمك الله تعالى ما توحي به صلاة الجمعة ، في المسجد الحرام ، لبعض العلماء والفضلاء وقادة الفكر، من الأمور المهمة الدقيقة المتصلة بصميم حياة المسلمين اليوم . فهذا هو الدكتور المصري محمد حسين هيكل ، رحمه الله تعالى ، يقول في كتابه "في منزل الوحي" بعد أن صلى الجمعة في المسجد الحرام ما نصه:

"أما صلاة الجمعة في الحرم فقد اهتز لها كل وجودي ، وقد أثارت أمام ذهني صورة مجسمة من المعاني السامية كنت أقدسها من قبل ، ولكني لم أكن ألمسها لمساً مادياً، و لم أكن أراها بارزة بالوضوح الذي رأيتها به أثناء هذه الصلاة ولا إثرها . ولقد جلست مكاني والناس ينصرفون من المسجد أفكر فيما رأيت فلا أجد من مزيد التفكير فيه إلا مزيداً في تأثري به وإكباري له . ولولا أن جاء صاحبي يدعوني لمغادرة المسجد إلى الدار لأقمت حيث كنت مسترسلاً في التفكير ملتمساً العبرة البالغة منه . وما أكبرها عبرة وما أبلغها عظة!

وأبلغ أثر تركته هذه الصلاة في نفسي هذا النظام الكامل لعشرات ألوف يخطئها العد عن الإسلام به، وإيمان بوجوبه، وحب إياه، وإقبال عليه، فها هي ذي عشرات الألوف تقف وراء الإمام صامتة خاشعة متجهة بكل قلوبها إلى ا لله مؤمنة إيماناً كاملاً بكل كلمة وكل حرف من هذه السبع المثاني التي يتلوها الإمام إذ يتلوا سورة الفاتحة ثم تتلوا هذه السبع المثاني من بعدهلحمد رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين لاتعبد إلا إياه ، ولا تستعين إلا إياه ، تستهديه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم فلم يغضب عليهم و لم يضلوا.

وها هي ذي عشرات الألوف من كل الأجناس والألوان واللغات ينتظمها إيمان واحد بهذا الذي تتلو ، إيمان لا يتلجلج ولا يكبو ، فإذا سمعت التكبير للركوع ركعت جميعاً مؤمنة تسبح بحمد ربها العظيم الذي تؤمن به وتقدسه وإذا سمعت التكبير للسجود تسبح بحمده كرة أخرى.

وها هي ذي تعيد الركعة الثانية حمدها وتسبيحها واستغفارها ربها وعبادتها إياه واسعانتها به في مثل نظامها في الركعة الأولى، وتتوجه كل هذه الألوف في هذا النظام الذي يأخذ بالقلوب والأفئدة إلى بيت ا لله من جوانبه الأربع.

أي جيش جيش الإيمان هذا ! وأية قوة في العالم تستطيع أتغلب هذا الجيش أنه عرف كيف ينظم الحياة مثل نظام الصلاة الجامعة، وأن يجعل الإيمان قواماً لنظام الحياة كما أنه قوام هذه الصلاة ! ألا لو أن ذلك كان واجتمع من في الأرض جميعاً لما غلب قوماً ذلك إيمانهم وذلك نظامهم وذلك سمّوهم إلى ا لله وهذه عبادتهم إياه وحده لا شريك له.

الإيمان قوام هذا النظام البالغ في كماله ، الذي جمع الأروبي والإفريقي والآسيوي وأهل الأرض جميعاً في صعيد واحد . والإيمان هو الذي جعلهم اخوة

متفاهمين على تباين لغاتهم واختلاف أجناسهم ، وإيمانهم له كل هذا السلطان لأنه إيمان تجرد من كل سوى الفكرة السامية ، لا تشوبها شائبة ولا تندس إليها غاية من غايات هذه الحياة الدنيا. الفكرة المجردة من كل مطمع ومن كل هوى إلا رضا الله يستعذب المسلمون التضحية بكل شيء في سبيله، التضحية بالهناءة والطمأنينة ، وبالمال والجاه، وبكل ما في الحياة، بل بالحياة نفسها .

وهذه الفكرة السامية يؤمن عشرات الألوف هؤلاء ويؤمن بها المسلمون جميعاً ، تتلخص في كلمتين اثنتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية منذ وجدت ، ولا يمكن أن تعرف أبلغ ولا أقوى منهما إلى أن يبيد الله الأرض وما عليها : الله أكبر.

نعم : هاتان الكلمتان هما أبلغ ما عرفت الإنسانية ، وما يمكن أن تعرف . هما مظهر السمو الإنساني على ما يتصل به الإنسان من سائر الكائنات . وهما مظهر سمو النفس وقوتها ، فلا يعتريها ، ضعف ولا يزعزع منها سلطان . يكفي أن يحيط الإنسان بمعنى هاتين الكلمتين كاملاً ، وأن يؤمن به إيماناً صادقاً ، ليتصل با لله اتصالاً صحيحاً وليرقى الاتصال فوق الأمل الخادع ، وفوق الغرور الكاذب ، وفوق كل ما في الحياة الدنيا.

إننا نحن المسلمين لنسمع هاتين الكلمتين ولنقولهما في كل يوم عشرات المرات : نسمعهما مرات ساعة الأذان ، ونسمعهما ونقولهما مرات حين الصلاة ، ونرددهما في مناسبات كثيرة ونؤمن بهما حقا ، لكن الكثيرين منا يؤمنون بهما ولا يحيطون بمعناهما إحاطة إدراك تام وشعور متنبه لهذا المعنى.

فما أعظم سلطان المال وما أكبر حكم أصحابه! نعم! لكن الله أكبر،

وما أعظم سلطان هذا الملك الحاكم فوق العباد! نعم! لكن الله أكبر،

وما كان سلطان رومية وامتداد إمبراطوريتها! نعم! لكن الله أكبر،

وما أعظم سلطان الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عن أملاكها! نعم! لكن الله أكبر!

وما أعظم سلطان أوربا سلطاناً تحكم به الشرق وتتحكم به في مصير العالم كله! نعم! لكن الله أكبر.

فإذا أنت اتصلت با لله وحده، وعبدته وحده، واستعنته وحده، لم يكن للمال ولا للملك وللإمبراطورية البريطانية ولا لأوربا ولا لقوة من القوى بالغاً ما بلغ كبرها أي سلطان عليك.

وما هذه القوى جميعاً وهي لا تساوي عند ا لله جناح بعوضة! وإن من التجديف حين نذكر أن ا لله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، أن نذكر هذه القوى الضئيلة في حياة الكون والتي تبدو اليوم وتختفي غداً، وتقوى اليوم وتضعف غداً، وتوجد اليوم وتنعدم غداً.

يبتلع البحر من الأرض ما شاء ا لله أن يبتلع، ويذهب الأقوياء فلا يبقى لهم بعد ذهابهم إلا ذكر قوتهم، لكن الأرض إلى يسير عليها هؤلاء يعيشون ويأكلون وإلى ثراها يرجعون، ما أكبرها ! لكن ا لله أكبر.

والشمس ما أكبرها ! لكن ا لله أكبر.

والوجود كله من محسوس نشهده وغائب نتوسمه ما أكبره! لكن ا لله أكبر!

﴿وسع كرسية السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾.

وعبادة ا لله والإستعانة به تقضيانك علم ما خلق، والسعي في مناكب الأرض، وإدارك أسرار الحياة. وأنت أعظم اتصالاً با لله كلما كنت من هذا العلم وهذا السعي وهذا الإدراك أكبر حظاً. وإيمانك الحق بهاتين الكلمتين ينقلب إيماناً آلياً لا ينفع ولا يضر إذا لم تسع ولم تدرك ولم تتصل بنوره العظيم. إذا علمت هذا وعلمت به ودأبت لتدرك عظمة ا لله في خلقه مما نرى، وما نحس وما يجاوز إحساسنا، إذن فلن يغلبك غالب وأنت فرد. فأما إن علمته أمة وعملت به آمنت عن إدراك صحيح بأن ا لله أكبر، فقد حق لها أن تتولى هدى العالم إلى الحق في أسمى صورة وأرقى درجاته، هدى يصل بالانسانية إلى ما تبغي من مجد الإخاء في ا لله، إخاء هو وحده الجدير بالإنسانية حين تبلغ من التقدم درجة حسنى.

ما بال هذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين يصلّون الجمعة في الحرم، ثم ما بال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين في بقاع الأرض جميعاً، وهم يؤدون صلاتهم في هذا النظام البالغ ويسمعون هاتين الكلمتين ويكررون في صلاتهم: "ا لله أكبر" مرات وعشرات المرات، ما بالهم فيما هم فيه من ضعف وجمود وخضوع لسلطان الغير وحكمه ؟! فكرت في هذا حين أويت إلى الدار واعتكفت

في غرفتي. فكرت فيه متأملاً ثائراً بهؤلاء الذين أوتوا أسباب القوة فضعفوا وهانوا، وأوتوا سبيل العزّة فذلوا واستكانوا. وكيف لا تثور النفس حين ترى هذا النظام البالغ ثم ترى ما هم فيه من هوان وفوضى، ومن شأن من ينتظمهم الإيمان السليم به أن يكونوا العزة والقوة. ولم ألق عسراً في الوقوف على علتهم، فنظامهم هذا ينقصه الروح ولذلك غاضت حياته، فانقلب آليا، فانقلبت على أهله غايته. وهذا هو السبب فيما هم فيه وما سيظلون فيه، حتى يغيروا ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم.

الروح ينقص هذا النظام ولا ريب الروح المستمد من الإيمان الكامل. أليس رسول الله ﷺ يقول: "لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" والكثرة من هؤلاء المصلين لا يفكر أحدهم في أخيه ولا يحب إلا نفسه. هو لم يحضر إلى مكة ولم يفرض الحج ولم يستو مع الناس في صلاة الجماعة بالحرم ليكون لإخوانه المؤمنين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، بل جاء إلى مكة حاجاً وحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير في المؤمنين ممن حوله، وليس هذا شأن المسلمين اليوم وفي هذا العصر الأخير وكفى، بل هو شأنهم "مع الشيء الكثير من الأسف" منذ مئات السنين التي خلت: منذ انتقل الأمر بينهم من الشورى إلى الاستبداد، ومن الاجتهاد إلى التقليد ومن الاستهانة بالموت إلى حب الحياة، ومن عبادة الله وحده إلى عبادة المال وأرباب المال. من ذلك اليوم البعيد عنا، حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية ما يزال مزدهراً، بدأت الأثرة تبلغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه. ويحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصول إلى رضا الله باعتزاز إخوانه المؤمنين، وبالانقطاع عن التفكير في أمر نفسه. ومن يومئذ نسي المسلم أنه إذ يقول وهو يصلي لله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، أنه يتحدث عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين، وكأنما خيّل إليه في غرور أنه بهذه الصيغة يعظم نفسه وهو يخاطب ربه. وحيثما بلغت الأثرة من النفوس هذا المبلغ ضعف إيمانها وتزعزع يقينها وتعلقت بالحياة وأذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة في الحياة.

هنالك تنزوي الروح ويضمحل سلطانها على النفس. وهنالك تتهلهل أواصر الاتصال بين المؤمنين وتضعف أخوتهم فيضعفوا جميعاً. وهنالك تصير حياتهم حياة أفراد تنتهي بالموت لا حياة أمة تتصل على الزمان ولها في شهدائها وفي موتاها

أعلام مجد وعزة تتعلق بها وتضحي للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد، ولإكباره والمزيد منه .

انظر: صورة رقم ١٣٢ ، صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة في العام ١٣٧٢هـ

وذكرت وأنا أفكر في هذا وفي مثله، أولئك المسلمين الأولين الذين كانوا يجيئون للصلاة عند الكعبة كما نجيء نحن للصلاة عندها اليوم ، فيصدهم المشركون ويؤذونهم ويبالغون في تعذيبهم ، لم يكن يومئذ حول الكعبة مسجد معمور تحيط به هيبة الإسلام شأن المسجد الحرام اليوم ، بل لم يكن حولها مكان مسور ، إنما حرمها متصلاً بالطريق ومتصلاً بالمساكن ، اتصال المسعى بين الصفا والمروة في وقتنا الحاضر. مع ذلك كان المسلمون الأولون يذهبون إلى الصلاة متحدين متضامنين وهم يعلمون أنهم معرضون للأذى وللموت ، وأن تحابهم وتضامنهم يجعلانهم أكثر للموت وللأذى تعرضاً . ولقد كثر عدد المسلمين بمكة قبل الهجرة، واعتز الإسلام بحمزة بن عبدالمطلب وبعمر بن الخطاب، وجعل عمر يدفع من أذى المشركين للمسلمين ما يستطيع دفعه، مع ذلك ظل المشركون على عداوتهم للنبي وأصحابه وإيذائهم إياهم ، وظل المسلمون على تضامنهم وحبهم بعضهم لبعض في ا لله ، وصبرهم على الأذى في سبيل الحق وإيمانهم بأن النصر لهم ما صبروا ، يذهبون إلى حرم الكعبة للصلاة مستهينين بالأذى وبالموت، مؤمنين بأنهم رجل واحد فلا يموتون ما بقي منهم من ينادي مؤمناً: "لا إله إلا ا لله ا لله أكبر" محباً إخوانه في ا لله، موقناً أنه لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

و لم يكن هذا الحب الصادق الذي يكمل به الإيمان حب عاطفة هوجاء، يرى صاحبها في الإلقاء بيده إلى التهلكة استهانة بالموت ، بل كان حب تعقل وروية وحرص على معرفة الحياة وما فيها إلى غاية ما يبلغ المرء من معرفتها في ذلك العهد.

كان المسلمون يجتمعون بالرسول في كل يوم يتشاورون ، وكانوا يتنطسون أخبار المشركين ليقفوا على دخائل نفوسهم ، وكانوا ينافسونهم في العلم بالأمور ليدفعوا حجتهم بالحجة وقوتهم بما يستطيعون من قوة.

لم يكن أحدهم يرى في الإسلام لله والتوكل عليه ما يصرفه عن التفكير ليومه وغده ، ولشد أزر وليه ودفع عدوه ، بل كانوا يرون في الإيمان بـا لله والإسلام له سمواً على كل إذعان لغير ا لله ، واستهانة بكل مجهود وكل مشقة لبلوغ هذا

السمو ، وبذلك كانوا حرباً على كل ضعف في أنفسهم كما كانوا حرباً على قوة خصومهم . من أجل ذلك استلوا من نفوسهم كل سلطان للأثرة عليها ، فقوي اعتداد الفرد منهم بنفسه وحبه لإخوانه ، وبذلك كانوا الغالبين.

وكان لهذا الاعتداد بالنفس مع انكار الذات أثره في أولي المواهب وأهل الزعامة منهم . لم يكن أحد من هؤلاء يرضى إذا آمن بشيء أن يكتم إيمانه مخافة ما يجره إعلان هذا الإيمان عليه من أذى، ولم يكن أحدهم ينتظر حتى يرى أين تكون منفعته ليكيف بوحيها رأيه أو عقيدته ، بل كانوا جميعاً يؤمنون بأن العقيدة والرأي معا ملك مشاع للجماعة ، فيجب أن يطالعها الفرد بما يرى ، وأن يحاول اقناعها به في صراحة وشجاعة وإيمان. لهذا نجم منهم القادة وأولو الرأي ، وتوارى من جماعتهم المراؤون والمنافقون الذين يريدون أن يتخذوا من كل شيء، حتى من الرأي والإيمان به، مطية أهوائهم ووسيلة منافعهم . ولذلك آمنوا بأن الروح من عند الله وأن الحياة الإنسانية متصلة بكلمة الله ، وأن الله خلق الإنسان على صورته ، فهو من ثم روح قبل أن يكون مادة ، وحياته من ثم فكرة متصلة بالروح ، وليست حركة آلية ، ولا حركة فطرية كحركة النبات ، ولا حركة سليقية كحركة الحيوان.

وحيثما آمن الإنسان بأن الحياة فكرة استهان بالموت في سبيل الفكرة. ومن استهان بالموت عنت له الحياة . وكلما ازدادت الفكرة سمواً ازداد صاحبها استهانة بالحياة وسمواً لذلك عليها . والجماعة التي تعيش من أجل فكرة إنسانية سامية ولا تخشى الموت في سبيلها ، تصل من القوة إلى حيث لا يغلبها غالب . كذلك كان شأن الجماعات الإنسانية في كل العصور ، وكذلك كان شأن الجماعة الإسلامية الأولى. كان الإيمان بالوحدانية يملأ نفوس أهلها، حتى ليصغر كل ما في الحياة إلى جانبه. وكانوا يعلنون إيمانهم هذا ولا يكتمونه، لم يكن يصرفهم عنه وعد ولا وعيد ، ولم تكن ترد الصادقين منهم تضحية وإن عظمت ، وإن بلغت التضحية بالحياة، بذلك نصرهم الله وفتح لهم فتحاً مبينا.

كيفية الخطبة في المسجد الحرام

لم يرد شيء في حق الخطيب أن يكون على صفة من اللبس والهيئة، غير أنه كما لا يخفى يسن لمن حضر صلاة الجمعة أن يغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه

ففي الحديث : "من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله وتطهر فأحسن طهوره ولبس من أحسن ثيابه ومسّ ما كتب الله له من طيب أهله ثم أتى الجمعة و لم يلغ و لم يفرق بين الاثنين غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" رواه ابن ماجة.

فإذا كان هذا يطلب من كافة الناس فيكون الخطيب أو الإمام أولى بذلك فقد قال الإمام الشافعي، رحمه الله تعالى، في الأم "وأحب الإمام من حسن الهيئة ما أحب للناس وأكثر منه وأحب أن يعتّم فإنه كان يقال إن النبي ﷺ كان يعتم ولو ارتدى ببرد فإنه كان يقال أن النبي ﷺ كان يرتدي ببرد كان أحب إلي" اهـ.

روى الإمام الشافعي ، عن ابن جريج، قال : قلت لعطاء أكان رسول الله ﷺ يقوم على عصا إذا خطب ؟ قال: نعم، كان يعتمد عليها اعتماداً . وروى ابن ماجه، عن عمارة بن سعد ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا. اهـ.

فالمطلوب من الخطيب والإمام ، حسن الشكل ، وجمال اللبس المباح ، مع الحشمة والوقار، في حدود التواضع.

وما كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يدعو لنفسه ، كما لم يكن أحد من الخلفاء الراشدين يدعو لنفسه على المنبر. ثم لما كان عصر الخلفاء العباسيين وصار الخطيب غير الخليفة أمر أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد أن يدعى له على المنبر. ذكر ذلك كثير من المؤرخين، قال الإمام السيوطي، رحمه الله تعالى، في كتابه: "الأوائل" أول من دعى بلقبه على المنبر وكتب به هو الأمين. اهـ.

هذا، وبمرور الزمن والسنين ، تطور الناس وتغيرت الأوضاع ، وصارت لهم عادات وتقاليد ومظاهر يتبعونها ويمشون على نظمها ، وهنا من اللازم علينا أن نسوق ثلاث روايات عن كيفية خطبة الجمعة وخطبة العيد في المسجد الحرام في عصور مختلفة للإحاطة والعلم بها ، ناقلين كل ذلك عن تاريخ "عمارة المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، فقد قال فيه ما نصه:.

١- وذكر ابن جبير في رحلته وفي وصف الكيفية، التي كانت تتبع في خطبة الجمعة ، بمكة المكرمة ، وكيفية الخطيب، وصعوده على المنبر، وموضع المنبر في عصره ، وإليك ما قاله : "في يوم الجمعة، يلصق المنبر إلى صفح الكعبة الشريفة ، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي . ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم،

فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوباً أسود معتمّاً بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، وكل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى ، بين رايتين سوداوين ، يتمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة، في يده الفرقعة مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له الصوت عال يسمعه من كان داخل الحرم وخارجه. فيكون إعلاناً بخروج الخطيب ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده ، وتركز الرايتان عن جانب المنبر، فإذا صعد أول درجة من المنبر قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنعل السيف ضربة على الدرج ، يسمع بها الحاضرون. وهكذا على سائر الدرج فإذا استوى في علياه استقبل الناس وسلم عليهم ، ثم يقعد ويؤذن المؤذن على قبة زمزم ، فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف على الوضعية التي أتى بها . ثم يعاد المنبر إلى مكانه ازاء المقام . اهـ.

هذا ما كان من حالة المنبر والخطيب في عهد ابن جبير في القرن السادس.

٢- وأما حالة الخطيب ، في عهد الدولة العثمانية على الحجاز، فكان يأتي يوم الجمعة، عند الزوال إلى المسجد الحرام، فيدخل المدرسة الواقعة، بين باب بازان وباب علي، المسمّاة "بقبة الساعات" حيث وضعت في ذلك العصر فيها ساعتان كبيرتان للتوقيت . فيصلي فيها ركعتين . ومن عادة الخطيب في ذلك العصر أن يرتدي جبة واسعة الأكمام تسمى "الفرجية" ويعتم بعمامة من الشاش الأبيض ، على كيفية هندية، مصنوعة من القماش الحرير الملون ، ومبطنة بالخيزران اللطيف . وتلف العمامة الشاش عليها لفا منتظماً متراصاً بعض الطيات على بعض وتسمى تلك اللفة "بالمدرج". ثم يأتي المرقّي، إلى المدرسة المذكورة، يحمل الطيلسان والعصا، التي يعتكز عليها الخطيب ، حال صعوده المنبر، وهذه العصاة، داخلها سلاح من نوع السلاح الأبيض ، رفيع السلة أشبه بسنان الرمح يسمى: "بالغدارة" وهذا المرقّي،هو من ضمن المبلغين بالمسجد الحرام ، قد تخصص لهذه الوظيفة . فيضع المرقّي الطيلسان على رأس الخطيب فوق العمامة ، فيلتف به الخطيب ، ويخرج من المرسة المذكورة ميمماً نحو المنبر ، فإذا بلغ الحصوة الموالية لرواق المدرسة ، التي كان بها ، وجد هناك بيرقين أي "رايتين"، من الحرير الأحمر ، ونفرين من أغوات الحرم ، ونفرين من مشدىّ الحرم ، فإذا وصل إليهم ساروا

جميعاً أمام الخطيب ، يتقدمهم المرقّي حامل عصا الخطيب ، ثم يتبعه حاملا البيرقين "الرايتين"، ثم أغوات الحرم ثم المشدّية. ويسيرون على هذه الحالة ، إلى أن يصلوا المنبر ، فإذا وصلوه ركزوا البيرقين على باب المنبر، ووقف الأغاوان عند باب النبر أيضاً ، ثم ترفع الستارة الخضراء، المزركشة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب، الموضوعة على باب المنبر، ويسلم المرقّي العصا إلى الخطيب، فيصعد الخطيب على درج المنبر وخلفة المرقّي. فإذا وصل الخطيب أعلى المنبر جلس على مسطبة، وقام المرقّي، في وسط درج المنبر، وأذن أذان الجمعة الثاني، تابعا ذي ذلك رئيس المبلغين من قبة زمزم . فإذا أتم الأذان ، قام الخطيب وشع في الخطبة الأولى. فإذا أتمها جلس. فيقوم المرقّي ويصلي على النبي ﷺ رافعاً بها صوته . فمتى أتمها قام الخطيب وألقى الخطبة الثانية، حتى إذا بلغ فيها ذكر النبي ﷺ جهر المرقّي بالصلاة عليه، ثم إذا بلغ الخطيب ذكر أصحاب رسول الله ﷺ جهر المرقّي بالترضي عنهم ، فإذا ذكر الخطيب اسم الخليفة أو السلطان أو الملك جهر المرقي بالدعاء له بالنصر والظفر والتأييد. اهـ.

هكذا ، كانت صفة الخطبة في عصر سلاطين آل عثمان، وفي عهد الشريف الحسين بن علي ، ملك الحجاز، أي إلى سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف . وكان يوضع في أعلى المنبر رايتان خضراوان صغيرتان مزركشتان بأسلاك الفضة المموهة بالذهب.

٣- وأما خطبة عيد الفطر في ذلك العصر ، فقد كان الخطيب، الذي تكون عنده نوبة خطبة عيد الفطر ، من بين عموم خطباء المسجد الحرام، يستعد في داره بالشربات والمرطبات لاستقبال الوافدين عليه في داره فيجلس بعد صلاة فجر ذلك اليوم فإذا صار الإسفار أتاه شيخ الخطباء ، مع فريق من خطباء المسجد الحرام، ثم رئيس المؤذنين ، مع طائفة منهم ، ثم فريق من أغوات الحرم ثم بعض المشدّية وجميع من عموم خدم المسجد الحرام. فإذا تم اجتماع هؤلاء ، في دار الخطيب، دارت عليهم كؤوس المرطبات .فإذا أشرقت الشمس خرجوا صفوفاً ، مع الخطيب ، على الترتيب الآتي : المرقّي ثم المشدّية ثم أغوات الحرم ثم المؤذنون ثم الخطباء حول الخطيب وهو بينهم لابسا "الفرجيّة" والعمامة المدرّج وعليه الطيلسان على حسب ما وصفنا ذلك في خطيب الجمعة، ثم يعجّون بالتكبير المسنون في العيدين ، وهم سائرون إلى أن يبلغ الخطيب الموضع ، الذي يؤم الناس فيه ، وهو في

الغالب ، يكون عند مصلى جبريل ، أمام الكعبة المعظمة، بين باب الكعبة والركن العراقي، الذي يلي حجر إسماعيل . فإذا وقف الخطيب في مصلاه أعلن رئيس المبلغين ، من قبة زمزم رافعا بها صوته (صلاة العيد أثابكم الله ثلاثاً، ثم الصلاة رحمكم الله) ويتبعه المبلغون، اللذين هم في علو مقام الحنفي ، فإذا أتم الصلاة ، صعد الخطيب على المنبر وألقى خطبة العيد على الترتيب، الذي ذكرناه في خطبة الجمعة. اهـ.

قال : وأما حالة الخطيب في عصر جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود -أي منذ توليه على الحجاز عام (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف- فهي في غاية البساطة ، وذلك أنه ، متى فرغ المؤذن من أذان الجمعة الأول، أتى الخطيب وحده إلى المنبر ، وعليه رداء وعمامة . ثم صار من عام ١٣٤٩ تسع وأربعين وثلاثمائة وألف ، اللباس الرسمي ، لجميع الموظفين، العباءة والغترة والعقال، غير أن أهل العلم ، لايلبسون العقال .

قال: لا فرق بينه وبين سائر أهل العلم في شكل الملبس ، لا من جهة النوع ولا من جهة الشكل ، فمتى وصل المنبر، وجد هناك اثنين من أغوات الحرم واقفين عند باب المنبر ، فيحمل العصا المعتادة للخطابة ويصعد المنبر، فإذا بلغ أعلاه ، جلس على مسطبة وقام المؤذن على قبة زمزم في أذان الجمعة الثاني، فإذا فرغ من الأذان ، قام الخطيب وألقى خطبة الجمعة . ولم يكن له مرقي، كما كان سابقاً ، فهو يصلي على النبي ﷺ ويترضى عن الصحابة ويدعو للمسلمين عامة بدون أن يذكر اسم جلالة الملك كما كان في السابق حسبما تقدم ، فإذا أتم الخطيب خطبته نزل من المنبر ووقف للصلاة بالناس فيقيم المكبّر على قبّة زمزم الصلاة ، ويتبعها المكبر، الذي في علو مقام الحنفي ، فإذا تم التكبير أحرم الإمام بالصلاة. اهـ.

وهذه الكيفية لا زالت إلى يومنا هذا بمكة وهي خالية من المظاهر والفخفخة التقليدية، والله الهادي ، إلى سواء الصراط.

منبر المسجد الحرام

كان الخلفاء والولاة يخطبون بمكة المشرفة ، منذ عهد رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، قياماً على أقدامهم ، على الأرض، في وجه الكعبة بلصقها ، وفي

حجر إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام، إلى خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه.

وسبب الخطبة في وجه الكعبة وهو جهة بابها ، أن حد المسجد الحرام، في بدء الإسلام، وما قبله ، هو المطاف المفروش بالرخام الأبيض ، المحيط بجوانب الكعبة المشرفة ، الذي نسميه الآن بالصحن . وما دام الناس يتجهون إلى الكعبة، فبالضرورة يكون موقف الخطيب على المنبر، بلصق الكعبة ووجهه إليهم . ثم لما حصلت الزيادات ، فيما بعد في المسجد ، جعلوا مكان المنبر في آخر حدود المطاف ، إلى جوار مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، جهة باب الكعبة أيضاً.

قال الأزرقي ، في تاريخه: أول من خطب بمكة على المنبر أمير المؤمنين ، معاوية بن أبي سفيان ، وهو منبر صغير على ثلاث درجات ، قدم به من الشام ، لما حج وهو أول من أتى به إلى مكة . ثم قال الأزرقي :وذلك المنبر ، الذي جاء به معاوية ، ربما خرب فكان يعمر ولا يزاد ، حتى حج هارون الرشيد ، فأهدي له منبر منقوش عظيم عال في تسع درجات ، أهداه له عامله على مصر موسى بن عيسى . فكان منبر مكة. وجعل المنبر القديم بعرفة. ثم أمر الواثق العباس ، لما أراد الحج ، أن يعمل له ثلاث منابر : منبر بمكة ومنبر بمنى ومنبر بعرفة.

هذا ما ذكره الأزرقي وذكره الفاكهي أيضاً وزاد أن المنتصر بن المتوكل العباسي ، لما حج في خلافة أبيه ، جعل له منبرا عظيما فخطب عليه بمكة ثم خرج وخلفه بها . انتهى.

وذكر القرشي ذلك وزاد قال : ثم جعل بعد ذلك عدة منابر للمسجد الحرام . اهـ.

وها نحن نذكر منابر المسجد الحرام، من عهد معاوية ، رضي الله عنه، إلى اليوم نقلاً عن كتاب الشيخ حسين باسلامة والشيخ عبدا لله غازي ، رحمهما الله تعالى، فنقول:

١) المنبر الذي وضعه أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه ، في المسجد الحرام قدم به من الشام لما حج ، لكن لا ندري هل كان ذلك في حجته الأولى سنة أربع وأربعين أم في حجته الثانية سنة خمسين على ما يقال.

٢) المنبر الذي وضعه فيه أمير المؤمنين هارون الرشيد لما حجّ لكن لاندري في أي حجاته جاء بالمنبر ، فإنه كان كثير الحج، قال السنجاري حج بالناس تسع حجيج متفرقة أولها كان سنة سبعين ومائة.

٣) المنبر الذي وضعه أمير المؤمنين الواثق با لله العباسي لما حج.

٤) المنبر الذي وضعه المنتصر بن المتوكل العباسي لما حج في خلافة أبيه.

٥) المنبر الذي عمله وزير المقتدر با لله العباسي وكان منبراً عظيماً تكلف عمله ألف دينار، فلما وصل المنبر مكة أحرقه المصريون حتى لا يخطب عليه للخليفة المقتدر با لله وخطبوا لصاحب مصر المنتصر العبيدي.

٦) المنبر الذي عمل في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر سنة ٧٦٦.

٧) المنبر الذي بعث به الملك الظاهر برقوق صاحب مصر سنة ٧٩٧.

٨) المنبر الذي أرسله شيخو صاحب مصر خطب عليه يوم التروية وذلك سنة ٨١٥.

٩) المنبر الذي أرسله الملك المؤيد الجركسي صاحب مصر سنة ٨١٨.

١٠) المنبر الذي ذكره الغازي في تاريخه أنه كان موجوداً بالمسجد الحرام قبل سنة ٨٣٠ وكان محله عند مقام إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، وكانت له عجلات فعند وقت الخطبة يجر حتى يسند إلى الكعبة فيقوم عليه الخطيب ، ثم في السنة المذكورة جاء مرسوم صحبة الحاج يتضمن جملة أشياء:
منها ترك المنبر في مكانه عند المقام وأن يخطب الخطيب عليه في هذا المكان ، فلا يجر إلى جانب الكعبة ، لأنه عند جره على عجلاته يزعج الكعبة إذا أسند إليها.

١١) المنبر الذي أرسله الملك الناصر خوش قدم صاحب مصر سنة ٨٦٦.

١٢) المنبر الذي أرسله الملك الأشرف قايتباي الظاهر صاحب سنة ٨٧٧.

١٣) المنبر الذي وصل إلى مكة فركب في جهة باب السلام وذلك سنة ٨٧٩.
وعند إلقاء الخطبة يجر المنبر إلى المطاف فيخطب عليه.

١٤) المنبر الذي عمله السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان من سلاطين آل عثمان ، فإنه في سنة ٩٦٦ ست وستين وتسعمائة بعث السلطان سليمان بهذا المنبر، المصنوع من الحجر الرخام الناصع البياض ، وهو رشيق الصورة يقف كالدمية اللطيفة ، تتجلى فيه روعة الفن ودقة الصنعة واتقان التركيب بحيث أنه يعد الآن آية من آيات الفنون الجميلة، وأن أكثر ما يلفت نظر

المدقق الخبير بالفنون الجميلة ، النقـوش العجيبـة والزخرفـة البديعـة المحفـورة في نفس حجر الرخام، كيف أنهم حفروها فيه في ذلك الزمن الذي لم تستكمل فيه الصناعات الدقيقة جميع أدواتها وآلاتها ، ولكن ذلك لا يستبعد على دولة آل عثمان وسلاطينهم الفخام ، وهذه آثارهم في الحرمين الشـريفين وغيرهمـا شاهدة على ما لهـم مـن التقـدم المطـرد في الصناعـات الدقيقـة والاختراعـات العجيبة.

ولا يزال هذا المنبر إلى اليوم ، وقد مر عليه أكثر مـن أربعمائـة عـام قويـاً متينـاً حافظا لرونقه وشكله الجميل ، على أنه معرض للشمس والمطـر والسـيول والغبـار، آناء الليل وأطراف النهار، لأنه واقع قرب المطـاف ، لا يحجبـه سـقف ولا جـدار، فهو بجوار مقصور مقام إبراهيم، عليه الصـلاة والسـلام، بينـه وبينهـا أربعـة أمتـار. وعدد درجاته ، من بابه إلى موضع جلوس الخطيب، أربع عشرة درجة ويبلغ طولـه ٥٨٠ سنتيمتراً وعرضه ١٨٦ سنتيمتراً (هذا القياس أخذناه بأنفسنا) .

أما مقدار ارتفاع هذا المنبر، من أرض المطاف إلى هلال قبته، فيبلغ اثـني عشـر متراً تقريباً، كما قاله الشيخ عبدا لله باسلامة في كتابه، رحمه ا لله تعالى.

وكانت أول خطبة خطبت عليه هي خطبة عيد الفطر خطبها السيد أبو حامد النجاري أما تركيب الهلال عليه فقد كـان سـنة (١٠٢٠) أرسـله السـلطان أحمـد خان فركب عليه.

انظر: صورة رقم ١٣٣ ، المنبر الحالي

ومن عجيب أمر هـذا المنـبر الجميـل مـا رواه الغـازي ، في تاريخـه ، نقـلاً عـن كتاب "تحصيل المرام" وهذا نقلاً عن تاريخ السيد مصطفى بن سنان الشهير بجنـابي أنه قال: "لما كانت سنة خمس وستين وتسـعمائة أمـر الملـك المجـاهد ، سـليمان بـن سليم خان، بعمل المنبر، الذي بالمسجد الحرام ، وأن يعمل من رخام في طرز بديع. فلماحفروا مكان الأساس ظهر رجلان ميتان مدفونان بما عليهما من السلاح . ولم يفقد منهما شيء، فاختلف الناس في أمرهما . وأما أنا فلم أشك في كون أحدهمـا عبدا لله بن عثمان ، لأنه استشهد مع ابن الزبير وخفي أثره ودفن في المسجد، خوفا أن ينبشه أصحاب الحجاج، والآخر عبدا لله بن صفـوان". والعلـم لله. انتهـى مـن الغازي.

والظاهر ، وا لله أعلم ، أنه لم يعمل للمسجد الحرام منبر من حجر الرخام غير هذا المنبر، وكل ما تقدم ذكره من المنابر كانت من الخشب ، لذلك كانت تتلف سريعاً . وسيبقى، هذا المنبر أيضاً ، إلى ما شاء ا لله، لأنه من الحجر الرخام القوي ، محكم الصنعة ، راسخ الأساس . جزى ا لله واضعه في المسجد الحرام خير الجزاء وغفر لنا وله آمين.

نقول: وقد نقل منبر المسجد الحرام الذي وضعته الدولة التركية العثمانية منذ مدة طويلة من مكانه الأصلي إلى الموضع الحالي وقد أخروه بضعة أمتار، إلى نحو سبعة أمتار تقريباً لتوسعة المطاف وذلك سنة ١٣٨٣هـ. وبمناسبة منبر المسجد الحرام نذكر استطراداً اتخاذ منبر لرسول ا لله ﷺ بالمدينة المنورة زيادة في الفائدة ، وإليك بيان ذلك:

اتخاذ المنبر لرسول الله ﷺ

بمناسبة ما ذكرناه عن منبر المسجد الحرام، نذكر هنا منبر رسول ا لله ﷺ بالمدينة المنورة ، وذلك استطراداً للعلم والمعرفة فنقول وبا لله تعالى التوفيق:

جاء في كتاب "التراتيب الإدارية" بصحيفة ٦٧ من الجزء الأول ما نصه:

روى البخاري ، عن جابر بن عبدا لله ، أن أمرأة من الأنصار قالت لرسول ا لله ﷺ : يا رسول ا لله! ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه. فإن لي غلاماً نجاراً، قال : إن شئت ، فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له.

قال ابن بشكوال في كتاب "ما انبهم من الأسماء" اسم هذا الغلام النجار مينا، قال : ويقال : إن الذي صنع المنبر لرسول ا لله ﷺ مولى العاصي بن أمية صنعه من طرفاء ثلاث درجات ، فلما قدم المدينة زاد فيه ، وقيل صنعه ميمون النجار، وقيل صنعه صباح غلام العباس بن عبدالمطلب، وذكر ابن فتحون قبيصة المخزومي في كتابه وقال هو الذي عمل غلامه منبر النبي ﷺ.

وفي المقدمات لابن رشد، وفي سنة سبع ، اتخذ النبي ﷺ المنبر، وقيل في سنة ثمان ، عمله له سعد بن عبادة، وقيل غلام لامرأة من الأنصار وقيل غلام للعباس بن عبدالمطلب . قال ابن رشد : ولعلهم اجتمعوا كلهم على عمله. (زقلت) ترجم

في الإصابة إبراهيم النجار، فذكر عن الطبراني في الأوسط عن جابر أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع فذكر الحديث في اتخاذ المنبر وفيه فدعا رجلاً فقال: ما اسمك؟ قال: إبراهيم، قال: جد (خد) في صنعته، استدركه أبو موسى وقال في رواية أخرى أن اسم النجار باقوم، فيحتمل أن يكون إبراهيم اسمه وباقول لقبه، قال الحافظ: على تقدير الصحة وإلا ففي الإسناد العلاء بن سلمة الرواسي وقد كذبوه.

وترجم في الإصابة به الباقوم المذكور، فذكر أنه بالميم، ويقال باللام، ووصفه بالنجار. ثم نقل أن باقوم النجار كان رومياً وهو الذي بنى لقريش الكعبة -انظر ص١٤١-. وترجم فيها أيضاً لكلاب مولى العباس بن عبدالمطلب فذكر أن ابن سعد خرج بسند فيه الواقدي، عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائما، فقال: إن القيام قد شق علي. فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور المصطفى المسلمين في ذلك فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبدالمطلب: أن غلاماً، يقال له كلاب، اعمل الناس. فقال: مره أن يعمله. وفي صبح الأعشى أول من عمل المنبر تميم الداري، عمله للنبي ﷺ وكان قد رأى منبر الكنائس بالشام هـ.

قال الحافظ السيوطي في التوشيح على قول المصطفى: مر غلامك النجار يعمل لي أعواد ما نصه: هل صانعه ميمون وصحح، أو باقول بلام، أو باقوم بميم، أو صباح بصاد فموحدة كغراب، أو قبيصة أو كلاب مولى العباس، أو تميم الداري، أو ميناء بميم فنون فهمز كميقات، تسعة أقوال وهل في سنة سبع أو ثمان هـ.

وأنشد محدث الشام، الشيخ عبدالباقي الحنبلي الأثري، في ثبته "رياض الجنة" لشيخه محدث الشام نجم الدين الغزي الشافعي قوله:

صانع منبر المدينة الذي ... كان عليه يخطب النبي
صلى وسلم عليه دائماً ... إلهنا المهيمن العلي
قيل اسمه ميمون أو باقول ... أو باقوم أو تميم الداري
وقيل إبراهيم أو قبيصة ... والقول الأول هو القوي

قال الشيخ عبدالباقي وزدت متبعاً فقلت مبيناً:

صباح قيصر بأقدمهم ... كلامهم أرفى هو القوي

ثم قال في التوشيح ، وكان ثلاث درجات ، إلى أن زاده مروان ، في خلافة معاوية ، ست درجات ، بسبب أن معاوية كتب إليه أن يحمله إليه ، فقلعه ، فأظلمت طيبة ، وكسفت الشمس ، حتى رأوا النجوم فخرج مروان فخطب فقال: إنما أمرني أمير المؤمنين لأن أرفعه، فدعا نجاراً فزاده الست ، فقال إنما زدت به أذكر الناس أخرجه الزبير بن بكار في أخبار طيبة من طرق ، قال ابن النجار فاستمر على ذلك إلى أن أحرق المسجد النبوي سنة ٦٥٤ فاحترق ، فكان إشارة إلى زوال دولة بني العباس إذ انقرضت عقبه بقليل في فتنة التتر هـ.

انظر: صورة رقم ١٣٤ ، المنبر القديم

وفي المنهل الأصفا ، أنه احترق أول ليلة من رمضان عام ٦٥٤، وكان ذلك أعظم المصائب على الناس. وللحافظ محمد بن ناصر الدين الدمشقي تأليف سماه «عرف العنبر في وصف المنبر» ذكره له الروادني في صلته انظره .

(فائدة) في التوشيح للأسيوطي : كان اليهود يسمون الأسبوع كله سبتا وقد وقع ذلك في حديث أنس في الاستسقاء فحدث في الإسلام تسميته جمعة نظراً لليوم الأشرف. (زقلت) . جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي، عن الزنجي ، عن عمرو بن دينار ، قال : رأيت منبر النبي ﷺ في زمان ابن الزبير ببطن عرفة حيث يصلي الإمام الظهر والعصر عشية عرفة ، مبنيا بحجارة صغيرة ، قد ذهب به السيل ، فجعل ابن الزبير منبراً من عيدان . انتهى.

وجاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي هذه السنة، على ما في أسد الغابة، أو السابعة أو التاسعة من الهجرة اتخذ المنبر لرسول الله ﷺ من أثل الغابة . وفي رواية من طرفاء الغابة. روى أنه ﷺ بنى مسجده سقوفا على جذوع النخل ، وكان إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوعه، فصنع له منبر . وفي خلاصة الوفاء : أشهر الأقوال أن الذي صنع المنبر باقوم بموحدة وقاف ، وهو باني الكعبة لقريش . وقيل : باقول باللام بدل الميم . وأشبه الأقوال بالصواب ما قاله الحافظ ابن حجر أنه ميمون . وقيل : صباح غلام العباس وقيل : غلامه كلاب وقيل : ميناء غلام امرأة من الأنصار ونقل ابن النجار، عن الواقدي، أنه درجتان ومجلس . وللدارمي في صحيحه ، عن أنس ، فصنع له منبر له درجتان ويقعد على الثالثة. وفي رواية للدارمي هذه المراقي الثلاث أو الأربع على الشك.وفي صحيح مسلم، هذه الثلاث درجات من غير شك ، فأطلق على المجلس درجة . وليحيى عن ابن أبي الزناد أن

النبي ﷺ كان يجلس على المجلس ويضع رجليه على الدرجة الثانية ، فلما ولي أبو بكر قام على الدرجة الثانية، ووضع رجليه على الدرجة السفلى. فلما ولي عمر قام على الدرجة السفلى ، ووضع رجليه على الأرض . فلما ولي عثمان فعل ذلك ست سنين من خلافته ، ثم علا إلى موضع النبي ﷺ ولما استخلفت معاوية ، زاد في المنبر، فجعل له ست درجات . وكان عثمان أول من كسا المنبر قطيفة ، وعن أبي الزناد ، قال : فسرقت الكسوة امرأة . فأتى بها عثمان ، فقال لها: هل سرقتِ؟ قولي الحق . فاعترفت فقطعها . قالوا: فلما قدم معاوية ، عام حج ، حرك المنبر، وأراد أن يخرجه إلى الشام ، إلى دمشق ، فكسفت الشمس يومئذ حتى رؤيت النجوم فاعتذر معاوية إلى الناس وقال: أردت أن أنظر إلى ما تحته ، وخشيت عليه من الأرضية . قال بعضهم كساه يومئذ قطيفة أو لينة. وفي رواية، أن معاوية كتب إلى مروان بذلك ، فقلعه ، فأصابتهم ريح فظلمة ، بدت فيها النجوم نهاراً ويلقى الرجل الرجل يصكه ولا يعرفه. فقال مروان إنما كتب إلي أن أصلحه ، فدعا النجارين فعمل هذه الدرجات . ورفعوه عليها وهي ، يعني الدرجات ، التي زادها ست درجات . و لم يزد فيه أحد قبله ولا بعده . وفي تاريخ الواقدي ، أراد معاوية سنة خمسين تحويل منبر رسول الله ﷺ إلى دمشق الشام فكسفت الشمس يومئذ. وكلمه أبو هريرة فيه فتركه . فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمة قبيصة فتركه. فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد ابن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فتركه فلما كان سليمان قيل له في تحويله فقال لاها الله أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام السلام نريد تحويله ، ذاك شيء لا أفعله. وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد وما لنا ولهذا . قال ابن النجار، فيمَا رواه عن أبي الزناد ، أنه صار بما زاد فيه مروان تسع درجات بالمجلس . فلما قدم المهدي قال لمالك أريد أن أعيده على حاله فقال له مالك إنما هو من طرفاء الغابة، وقد سمر إلى هذه العيدان ، وشد فمتى نزعته خفت أن تتهافت . فانصرف المهدي عن ذلك . قال ابن زياد وطول منبر النبي ﷺ خاصة ذراعان في السماء وعرضه ، أي عرض مقعده ، ذراع في ذراع ، وتربيعه سواء ، وعرض درجه شبران ، لأن كل درجة شبر ، وأن طول المنبر من السماء بعدما زاد فيه أربعة أذرع وصار امتداده في الأرض سبعة أذرع بتقديم السين ، باضافة عتبة الدكة الرخام ، التي المنبر فوقها ، وتلك العتبة ذراع . فامتداد المنبر بدونها ستة أذرع . انتهى. وعن جابر بن عبدا لله الأنصاري أنه قال : كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل وكان النبي ﷺ إذا

خطب يقوم إلى جذع منها كما مر وكانت امرأة من الأنصار اسمها عائشة ، وكان لها غلام نجار اسمه باقوم الرومي، قالت يا رسول الله : إن لي غلاماً نجاراً أفلا آمره يتخذ لك منبرا تخطب عليه؟ قال: بلى فأمرته، فاتخذ له منبرا . انتهى . من تاريخ الخميس.

جاء في كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» في الجزء السادس بصحيفة (٥٠٥) ما نصه: وقد روى أبو نعيم حليته في ترجمة الإمام مالك أن هارون الرشيد استشار مالكا في أن ينقص منبر النبي ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة فقال له مالك لا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ . انتهى منه .

حنين الجذع

جاء في تاريخ الخميس بعد الكلام على اتخاذ المنبر لرسول الله ﷺ ما نصه:

وفي رواية سأله رجل عن اتخاذ المنبر فأجابه إليه . وفي هذه الرواية صنع له ثلاث درجات ، فلما كان يوم الجمعة خطب على المنبر ، قال جابر: سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار . وفي خلاصة الوفاء اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج ، أي التي انتزع ولدها . قال عياض : حديث حنين الجذع مشهور والخبربه متواتر أخرجه أهل الصحيح ورواه من الصحابه بضع عشر . وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره وفي رواية أنّ كأنين الصبي وفي رواية سهل وكثر بكاء الناس لما رأوا به . وفي رواية المطلب ، حتى تصدع وانشق ، حتى جاءه النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت . وفي رواية فنزل النبي ﷺ يمسحه بيده حتى سكن أو سكت كالصبي ، الذي يسكت ثم رجع إلى المنبر وزاد غيره فقال: قال النبي ﷺ هذا أبكى لما فقد من الذكر وزاد غيره والذي نفسي بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزنا على رسول الله ﷺ فأمر به رسول الله ﷺ فلفن تحت المنبر . هكذا في حديث المطلب . وفي حديث أبي بن كعب ، فكان إذا صلى النبي ﷺ صلى إليه ، فلما هدم المسجد وغير ، أخذ ذلك الجذع أبي ، وكان عنده في تلك الدار ، إلى أن بلى وأكلته الأرضة وعاد رفاتا . وذكر الاسفرايني أن النبي ﷺ دعاه إلى نفسه فجاءه يخرق الأرض ، فالتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه . وفي حديث بريدة قال النبي ﷺ : إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجد ذلك خوصك وتحرك ، وإن شئت أغرسك في الجنة

فيأكل أولياء ا لله من ثمرك ثم أصغى له النبي ﷺ يسمع ما يقول فقال: بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء ا لله فأكون في مكان لا أبلى فيه يعني، في الجنة فسمعه من يليه فقال النبي ﷺ: قد فعلت . ثم قال: قد اختار دار البقاء على دار الفناء . أورده في الشفاء وفي خلاصة الوفا اعتمد المطري في بيان محل الجذع على ما روى ابن زباله، فقال : وكان هذا الجذع عن يمين مصلى رسول ا لله ﷺ لاصقا بجدار المسجد القبلي ، في موضع كرسي الشمعه اليمنى ، التي توضع عن يمين الإمام المصلي في مقام النبي ﷺ والأسطوانة التي قبلي الكرسي متقدمة على موضع الجذع فلا يعتمد على قول من جعلها في موضع الجذع.

ترجمة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

بمناسبة ما تقدم ذكره ، نأتي بشيء يسير من ترجمته ، رضي ا لله عنه ، فقد أسلم معاوية يوم الحديبية وكتم اسلامه عن أبيه وأمه ، حتى أظهره يوم فتح مكة . وقيل بعد الحديبية . وهو من أشرف الصحابة نسبا ، جاهلية وإسلاماً ، فإنه من أكابر قريش ويجتمع برسول ا لله ﷺ في عبد مناف ، لأن عبد مناف له أربعة أولاد وهم : هاشم جد النبي ، عليه الصلاة والسلام، والمطلب جد الشافعي ، ونوفل ، وعبدشمس، جد عثمان ومعاوية، رضي ا لله عنهما. وكان والد معاوية أبو سفيان من أكابر مكة وأشرافها وكان يحب الفخر في قومه ، ومن هنا قال ﷺ يوم فتح مكة : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وذلك زيادة في تشريفة.

وكان معاوية ، رضي ا لله عنه ، أحد كتاب رسول ا لله ﷺ كما صح في مسلم وفي غيره . فقد كان حسن الكتابه، فصيحاً حليماً وقوراً . نقل القاضي عياض ، رحمه ا لله تعالى ، أن رجلاً قال للمعافا بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية ؟ فغضب غضبا شديداً وقال لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد . معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي ا لله . اهـ .

روى الترمذي وقال أنه حديث حسن: أن رسول ا لله ﷺ دعا لمعاوية فقال: «اللهم اجعله هادياً مهدياً» ولا شك أن جميع أدعيته، عليه الصلاة والسلام ، لأمته، لا سيما لأصحابه ، مستجابة.

وأن أم المؤمنين أم حبيبة، رضي ا لله عنها ، زوجة النبي ﷺ هي أخت معاوية ، فصار بذلك صهرا له، عليه الصلاة والسلام، وهو داخل في قوله ﷺ :

«دعوا أصحابي وأصهاري ، فإن من حفظني فيهم كان معه من الله حافظ ، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه ، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه» . رواه الإمام الحافظ أحمد بن منيع.

ولقد بشّره ﷺ بالخلافة ، فقد روى أبو بكر بن أبي شيبة بسنده إلى معاوية ، رضي الله عنه ، أنه قال: مازلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ «إذا ملكت فأحسن» . وأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولى معاوية دمشق الشام ، فمكث بها مدة خلافته . وكذلك فعل معه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى على الجميع . ولقد أقام معاوية مدة طويلة في عهد عمر وفي عهد عثمان في إمارته على دمشق الشام ، فلم يشك أحد منه ولا اتهمه بظلم مع كثرة شكاية أهل الأقطار من ولاتهم.

وفي سنة إحدى وأربعين من الهجرة تنازل الحسن بن علي أبي طالب ، رضي الله عنهما ، عن الخلافة وسلم الأمر إلى معاوية ، رضي الله عنه ، تورعاً قطعاً للشر وإطفاء للفتنة، فسمي هذا العام ، عام الجماعة ، لاجتماع الأمة بعد الفرقة على خليفة واحد.

هذا ولقد رأينا أن ننقل ترجمة معاوية ، رضي الله تعالى عنه، من كتب الأحاديث ، لأنها أصح وأقوى ترجمة من غيرها من الكتب، ولقد وقع اختيارنا في النقل على كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» فقد جاء في الجزء السادس منه عن ترجمته ما يأتي :

أما معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، فهو ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، وأول الملوك في الإسلام، وقد ولد قبل البعثه بخمس سنين وقيل بسبع وقيل بثلاث عشرة والأول عشرة والأول أشهر ، وقد حكى الواقدي أنه أسلم بعد الحديبية ، وكتم اسلامه حتى أظهره عام الفتح . وانه كان في عمرة القضاء مسلماً ، ويعارض هذا ما ثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: في العمرة في أشهر الحج فعلناها . وهذا يومئذ كافر، يعني معاوية . وقال الحافظ ، في الإصابة : يحتمل إن ثبت الأول أن يكون سعد أطلق ذلك بحسب ما استصحب من حاله ، ولم يطلع على أنه كان أسلم لإخفائه لإسلامه أي عن أبويه . وقد أخرج أحمد من طريق محمد بن علي بن الحسين، عن ابن عباس ، أن معاوية قال: قصرت عن رسول الله ﷺ عند المروة،

وأصل الحديث في البخاري من طريق طاوس عن ابن عباس بلفظ قصرت بمشقص ولم يذكر المروة، وذكر المروة بعين أنه كان معتمرا. لأنه كان في حجة الوداع حلق بمنى، كما ثبت في الصحيحين، عن أنس، وأخرج البغوي من طريق محمد بن سلام الجمحي، عن ابان بن عثمان، كان معاوية بمنى وهو غلام مع أمه إذ عثر فقالت: قم لا رفعك ا لله. فقال لها اعرابي: لم تقولين له هذا؟ وا لله إني لأراه سيسود قومه. فقالت: لا رفعه ا لله أن لم يسد إلا قومه.

قال أبو نعيم: كان من الكتبة الحسبة الفصحاء حليما وقورا، وعن خالد بن معدان، في صفته، أنه كان طويلاً أبيض أجلح. وقد صحب النبي، صلى ا لله عليه وآله وسلم، وكتب له. وولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأقره عثمان. ثم استمر فلم يبايع عليا، ثم حاربه واستقل بالشام. ثم أضاف إليها مصر، ثم تسمى بالخلافة، بعد الحكمين، ثم استقل لما صالح الحسن، واجتمع عليه الناس، فمسي ذلك العام، عام الجماعة. وأخرج البغوي من طريق مبارك ابن فضالة، عن أبيه، عن علي بن عبدا لله، عن عبد الملك بن مروان قال: عاش ابن هند، يعني معاوية، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة، وبه جزم محمد بن إسحاق، قال الحافظ، في الإصابة: وفيه تجوز لأنه لم يكمل في الخلافة عشرين إن كان أولها قتل علي، كرم ا لله وجهه، وإن كان أولها تسليم الحسن بن علي له فهي تسع عشرة سنة إلا يسيرا.

وفي صحيح البخاري، عن عكرمة قلت لابن عباس: أن معاوية أوتر بركعة فقال: إنه فقيه. وفي رواية أنه قد صحب رسول ا لله ﷺ. وحكى ابن سعد، أن معاوية كان يقول: لقد أسلمت قبل عمرة القضية، ولكني كنت أخاف أن أخرج إلى المدينة، لأن أمي كانت تقول: إن خرجت قطعنا عنك القوت. وذكر ابن سعد، عن المدائني، قال: نظر أبو سفيان إلى معاوية، وهو غلام، فقال: إن ابني هذا لعظيم الرأس وأنه لخليق أن يسود قومه فقالت هند قومه فقط ثكلته أن لم يسد العرب قاطبة.

وقال المدائني: كان زيد بن ثابت يكتب الوحي، وكان معاوية يكتب للنبي صلى ا لله عليه وآله وسلم فيما بينه وبين العرب وفي مسند أحمد وأصله في مسلم عن ابن عباس قال: قال لي النبي ﷺ: ادع لي معاوية وكان كاتبه. قال الحافظ ابن عبدالبر: ولي عمر، رضي ا لله تعالى عنه، معاوية على الشام، عند موت أخيه

يزيد . وقال صالح ابن الوجيه : في سنة تسع عشرة كتب عمر إلى يزيد بن أبي سفيان يأمره بغزو قيسارية، فغزاها ، وبها بطارقة الروم، فحاصرها أياماً ، وكان بها معاوية أخوه فتخلفه عليها وسار يزيد إلى دمشق، فأقام معاوية على قيسارية، حتى فتحها ، في شوال سنة تسع عشرة . وتوفي يزيد في ذي الحجة من ذلك العام في دمشق . واستخلف أخاه معاوية على عمله ، فكتب إليه عمر بعهده على ما كان يزيد يلي من عمل الشام ورزقه ألف دينار في كل شهر . هكذا قال صالح بن الوجيه وخالفه الوليد بن مسلم .

ونقل ابن عبدالبر ، في الاستيعاب ، عن أبي إسماعيل محمد بن عبدا لله البصري، قال : جزع عمر على يزيد جزعا شديداً ، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام . فأقام أربع سنين ومات عمر ، رضي ا لله تعالى عنه، فأقره عثمان عليها ، في اثنتي عشرة سنة إلى أن مات. ثم كانت الفتنة فحارب معاوية علياً خمس سنين اهـ .

قال ابن عبدالبر: صوابه أربع سنين . وقال غيره : ورد البريد ، بموت يزيد ، على عمر ، رضي ا لله تعالى عنه، وأبو سفيان بن حرب عنده ، فلما قرأ الكتاب بموت يزيد قال لأبي سفيان : أحسن ا لله عزاءك في يزيد ورحمه . ثم قال له أبو سفيان : من وليت مكانه يا أمير المؤمنين؟ قال: أخاه معاوية . قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين . وقال عمر ، رضي ا لله تعالى عنه، إذ دخل الشام ورأى معاوية: هذا كسرى العرب. وكان قد تلقاه معاوية في موكب عظيم ، فلما دنا منه ، قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين . قال : مع ما يبلغني عنك ، من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: مع ما يبلغك من ذلك . قال : ولم تفعل هذا ؟ قال : نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به ، فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت . فقال لمعاوية: ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس ، إن كان ما قلت حقاً إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب . قال: فمرني يا أمير المؤمنين . قال: لا آمرك ولا أنهاك ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه. قال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه . وذمَّ معاوية عند عمر يوماً فقال : دعونا من ذم فتى قريش ، من يضحك في الغضب ولا ينال ما عنده إلا على الرضا ، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه . روى جبلة بن سحيم عن ابن عمر قال : ما رأيت أحداً بعد رسول ا لله ﷺ أسود من معاوية ،

فقيل له فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فقال: كانوا والله خيراً من معاوية، وكان معاوية أسود منهم وقيل لنافع: ما بال ابن عمر بايع معاوية ولم يبايع علياً؟ فقال: كان ابن عمر لا يعطي يداً في فرقة ولا يمنعها من جماعة ولم يبايع معاوية حتى اجتمعوا عليه.

وأخرج أبو يعلى في مسنده عن سويد بن شعبة بإسناده إلى معاوية، قال: اتبعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوضوء، فلما توضأ نظر إلي، فقال: يا معاوية: إن وليت أمراً فاتق الله واعدل. فما زلت أظن أني مبتلى بعمل. قال الحافظ في الإصابة: وسويد فيه مقال، وقد أخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر. اهـ. وقيل أن النبي ﷺ قال له: إن ملكت فاعدل، وأخرج ابن سعد عن أحمد بن محمد الأزرقي، عن عمرو بن يحيى بن سعيد، عن جده قال: دخل معاوية على عمر بن الخطاب وعليه حلة خضراء فنظر إليه الصحابة. فلما رأى ذلك عمر، قام ومعه الدرة، فجعل ضرباً بمعاوية، ومعاوية يقول: الله، الله، يا أمير المؤمنين. فيم فيم؟ فلم يكلمه حتى رجع فجلس في مجلسه، فقالوا له: لم ضربت الفتى وما في قومك مثله؟ فقال: ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خيراً، ولكني رأيته، وأشار بيده يعني إلى ما فوق، فأردت أن أضع منه. وذكر الحافظ بن حجر في الإصابة بإسناد قوي، من كتاب الزهد، لابن المبارك أن معاوية خرج إلى الحج مع عمر بن الخطاب، وكان من أجمل الناس فقال له عمر في مراجعة بينهما: سأحدثك ما بك الطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال أسلم، مولى عمر، حتى جئنا ذا طوى فأخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجاً تفلاً، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة، أخرج ثوبه، كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتي، يا عمر والله لقد بلغني، إذاك، هاهنا، وبالشام. فالله يعلم أنه لقد عرفت الحياء في عمر. فنزع معاوية الثوبين ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما. وفي تاريخ البخاري، عن معمر، عن همام بن منبه، قال: قال ابن عباس: ما رأيت أحدا أحلى للملك من معاوية. ونسب الحافظ في الإصابة لابن أبي الدنيا أن عمر بن الخطاب قال: إياكم والفرقة بعدي فإن فعلتم فاعلموا أن معاوية بالشام. فإذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها منكم. انتهى من كتاب زاد المسلم.

نبذة عن عادات معاوية رضي الله تعالى عنه وهو خليفة

جاء في الجزء الثاني من تاريخ المسعودي المسمى "مروج الذهب ومعادن الجوهر" عن بعض أخلاق وعادات معاوية بن أبي سفيان، رضي الله تعالى عنه، ما نصه:

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات. كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتي بمصحفه فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه، فيكلمونه، فيما يريدون من يومهم إلى العشى، ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فضلة عشائه من جدي بارداً وفرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً ثم يدخل منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسي. فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة، ويجلس على الكرسي، ويقوم الأحداث، فيتقدم إليه الضعيف والأعراض والصبي والمرأة ومن لا أحد له، فيقول: ظُلمت، فيقول: أعزوه. ويقول: عدي علي. فيقول: ابعثوا معه. ويقول: صنع بي. فيقول: انظروا في أمره، حتى إذا لم يبقَ أحد، دخل فجلس على السرير، ثم يقول ائذنوا للناس، على قدر منازلهم، ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، فيقول: بنعمة من الله. فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس. ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان. فيقول: افرضوا لولده، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله. فيقول: تعاهدوهم، أعطوهم، اقضوا حوائجهم، اخدموهم، ثم يؤتي بالغداء، ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة. فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر. فيقال يا عبدالله اعقب فيقوم ويتقدم آخر، حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم.. وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، ويقال للناس أجيزوا فينصرفون. فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات. ثم يجلس، فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة

باللبن والسكر من دقيق السميذ والكعك المنضد والفواكه اليابسة، وإن كان وقت الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة . ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم . ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج ، فجلس على سريره، ويؤذن للناس ، على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادي له بأصحاب الحوائج . ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب، فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلّي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك ، من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة . ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم.

وقد كان هم بأخلاقه جماعة بعده ، مثل عبد الملك بن مروان وغيره ، فلم يدركوا خلقه ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأني للأمور ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم . انتهى من الكتاب المذكور.

بعض أعمال معاوية رضي الله تعالى عنه بمكة

كتب الأستاذ السيد أحمد علي بمجلة الحج بتاريخ شوال سنة ١٣٧٧ هـ عن بعض الأعمال ، التي قام بها معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، ببلد الله الأمين "مكة" وفيما يلي نص عبارته:

نظم أمير المؤمنين معاوية في عهد خلافته أمر إمارة الحرم، بتخصيص أموال ، من بيت مال المسلمين ، لشراء قناديل وزيت وما يلزم لهما .

وجاء، سنة حجة، بمنبر صغير للحرم، من الشام، وخطب عليه. فكان أول خطيب خطب بحرم مكة على منبر. وكان الخطباء من قبله يخطبون يوم الجمعة قائمين عند وجه الكعبة على الأرض.

وعمر دار الندوة للنزول فيها إذا حج، ثم صارت مقر نزول الخلفاء الأمويين من بعده إذا قدموا للحج. وأمر بتجديد أنصاب الحرم فكتب إلى عامله بمكة أن يستعين بمحرز بن علقمة، إذا كان حياً، في تحديد معالم الحرم بدقة ففعل.

وخصص، لخدمة الكعبة، عبيداً بعث بهم من الشام. واتخذ الخلفاء من بعده إرسال عدد من العبيد كخدم للكعبة، عادة لهم، ورتب لها من يقوم بتطييبها عند كل صلاة من الأطياب المختلفة، التي كان يبعث بها من الشام، في موسم الحج وفي شهر رجب.

وكسيت الكعبة، في عهده، بأمره مرتين في السنة. كسيت بالديباج يوم عاشوراء وبالقباطي في آخر شهر رمضان. واهتم، رضي الله عنه، بأمر توفير المياه في مكة وأطرافها فأجرى عشر عيون، كلها في أعلى مكة، في المنطقة الممتدة بين حراء إلى الجعفرية المعروفة الآن، وعين واحدة أجراها بأسفل مكة. واتخذ عند كل عين منهلاً يرده الأهالي والحجاج ومزرعة كبيرة ونخيلا.

وعنى كذلك بأمر العمران فعمّر واشترى في الأرض المرتفعة الواقعة بين المروة والقرارة والسويقة عشر قصور منها: دار البيضاء وسميت بهذا الإسم لأنها طليت بالجص الأبيض، وبجوارها "دار الرقطاء" بهذا الاسم لأنها بنيت بالأجر الأحمر والجص الأبيض، ودار المراجل مخزنا لقدور عظيمة من صفر، يطبخ فيها الطعام للحجاج في موسم الحج، وفي شهر رمضان لفقراء مكة، ودار بالمسفلة، بناها غلام معاوية سعد القصير بحجارة منقوشة فيها صور وأشجار. ويخترق هذه الدار طريق واسع تمر به المحامل والهوادج، ودار الحدادين، بسوق الليل حيث كانت سوق الفاكهة والرطب. عرفت باسم دار مال الله، وكانت كالمستشفى مقراً للمرضى، وفي المدعا حيث دار أبي سفيان، كانت رحبة واسعة ترد اليهما القوافل القادمة من السراة والطائف والناقلة للحبوب والسمن والعسل. ثم اقطعها معاوية لزياد بنى فيها داراً.

وأمر معاوية بإرسال نفر من النبط الموجودين بمكة إلى عُرَنة بعرفات ، لعمل الأجر لقصوره وبناياته التي شيدها في مكة . وعرفت تلك الأرض فيما بعد "باضاة النبط".

هذه لمحة تصويرية لناحية من نواحي مكة في عهد الخليفة معاوية ، رضي الله عنه، يستطيع الباحث أن يرى من خلالها مكة فيجدها عبارة عن واحات صغيرة انتشرت في أعلاها ، ومناهل يردها الناس وكلها بعيدة عن الحرم ، وبها أسواق تباع فيها الفاكهة والحبوب والعسل والسمن ، تنقلها القوافل من الطائف وبلاد السراة ، والروائح الزكية تتصاعد عند كل صلاة من عند الكعبة ، وقصور تشرف على الحرم من ناحية مرتفعات المروة . وتجلب كميات الأجر الأحمر من وادي عرنة. انتهى من المجلة المذكورة.

عدل معاوية وقوة سلطانه

جاء في كتاب "مُثُل عُليا من قضاء الإسلام" تأليف الأستاذ محمود الباجي عن عدل معاوية ، رضي الله عنه ، وقوة نفوذ حكمه ما نصه:

خرجت الكتيبة الفدائية العاشرة بأمر من الخليفة معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، وطبق خطة وضعتها قيادة السواحل ، وكان من بين رجال الكتيبة وضّاح بن مسلمة القرشي . وهو بطل من أبطال حرب المكامن وفدائي مغامر لا يستطيب المقام. ولا تغلق دونه الأبواب . وتوغل الفدائيون في أرض العدو يغيرون ويجمعون المعلومات الدقيقة عن الاستحكامات وحركات الجيوش . ومضاربها . وطبيعة الأرض . ومواقعها الهامة. والحالة الفكرية التي عليها السكان . ومكامن الضعف والقوة في جهاز الدولة . وسرعان ما افتضح أمر هؤلاء الأغراب عن البلاد فأسرع البعض منهم واختفى الباقون. غير أن فدائيا من الفارين جعل يتتبع حركات إخوته المقبوض عليهم ليقدم بذلك بيانا للقيادة العامة.

مثل الفدائيون العرب أمام ملك الروم. وباشر بنفسه بحثهم وجعل يسألهم عن برامج القيادة العربية العامة ، وعن الغاية من حركة التوسع التي يقوم بها الجيش العربي ، وعن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الدولة .واحتدم الجدل بين الملك وبين وضّاح بن مسلمة الذي كان يتزعم الفرقة المقبوض عليها واندس الفدائي الفار بين الحاضرين يستمع إلى ما يدور بين الملك وزعيم الفرقة.

صرح وضّاح فيما صرّح به أمام الملك بأن جيش معاوية قائم برسالة إنسانية لا حدود لها . ولا يقف دونها بحر ولا يابسة، وأنه مكلف خاصة بتطهير المجتمع البشري، من جشع الإقطاع ، وعدوان الملوك ورؤساء الكنائس ، وكان رئيس البطارقة واقفاً إلى جانب الملك فتحمس ودفعه الغضب إلى الاعتداء على وضاح فلكمه على وجهه لطماً مهيناً موجعاً ، وثارت في الأسير الكريم أريحيته القرشية . وعزته العربية فصاح قائلاً: وا إسلاماه...!!

أين أنت عنا يا معاوية.!

أهملتنا وضيعت ثغورنا . وحكمت العدو فينا.

انقلب الفتى الفدائي الذي كان يشهد هذا الاعتداء عائداً إلى دمشق وأعلم الخليفة بما حدث وأكد له أن وضاحاً ما يزال في الأسر .

وبادر الخليفة باستدعاء رجل من ساحل دمشق ، من مدينة صور ، وكان عارفاً بالأقاليم المجاورة ، كثير الغزوات في البحر ، صمل عظيم الحيلة بارع التصرف ، يجيد التكلم باللغة الرومية كأحد أبنائها ، وجهّز له سفناً تجارية . وأعطاه مالاً كثيراً وأوعز له أن يتظاهر بالاتجار مع القسطنطينية . وأن يعمل على إيقاع البطريق الذي اعتدى على الفدائي وضّاح في الأسر، ويحمله إلى دار الخلافة من غير إساءة ولا عنف.

بينما كان المبعوث يقوم بدوره اتصل الخليفة معاوية بملك الروم وعرض عليه مبادلة الأسرى ، وعين له من بين الأسرى المسلمين وضاحاً بن مسلمة ، وتمت المبادلة ، ودخل وضّاح إلى قصر الخلافة فأنعم عليه معاوية بالعطايا والهدايا والمكافئات ، وظن الفدائي أن خليفته استجاب لندائه وافتداه ، وأنعم عليه ، وقرت عينه بذلك ، ولكنه لم يدر أن الخليفة يهيئ له ترضية أخرى أسمى وأرفع وأرضى من جميع ذلك .

نجح الرائد الصوري في اصطياد البطريق بعد أن تربص به سنة كاملة، واقتاده في سفينته إلى دمشق ، وكان البطريق يرجف خوفاً من أن يحكم الخليفة العربي بإعدامه، وضاقت به السفينة. وأظلمت الدنيا في جهه ، ولم يسكن من روعه تأكيد الرائد له بأن معاوية لا يظلم أحداً ولا يسرف في الاقتصاص .

مثل البطريق أمام معاوية ، وأحضر وضاحاً القرشي والفدائي الذي شهد الاعتداء ، وطلب معاوية بمحضر شيوخ الأمة من وضاح أن يقرر دعواه وأن يصف نوع الاعتداء الذي ناله من يد البطريق ، وأمر الفدائي أن يشهد بما رأى ، واستجوب البطريق فاعترف بالاعتداء ، ثم أمر وضاحاً بأن يقتص من البطريق الذي لطم وجهه على بساط الملك وانتهك حرمة أميره ، واعتدى على سلطانه وقال: "إنا لم نضيعك أيها الجندي الباسل! ولا أبحنا دمك وعرضك" وعندما اقترب القرشي من البطريق حذره معاوية بأن لا يتجاوز في الاقتصاص القدر الذي ناله من يد خصمه.

وإزاء هذا التحذير اكتفى وضّاح بمصافحة غريمه وصرح بالعفو عنه وتقدم بين يدي الخليفة وقال: "ما أضاعك من سودك . ولا خاب فيك أمل من أملك. أنت ملك لا تستضام .تمنع حماك، وتصون رعيتك". انفض الموكب وتمت المحاكمة، وأكرم الخليفة العربي البطريق الأسير وحمله التحف والهدايا- وقال له: "ارجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك . وأبلغ البطريق الرسالة إلى ملك الروم" ، فقال الملك:

"هذا والله أمكر الملوك و أدهى العرب . ولقد استحق أن تقدمه العرب عليها فساس أمورها . والله لو هم بأخذي لتمت له الحيلة علي".

تعليق : أي ملك استطاع أن يوفر العدل لرعاياه كمعاوية بن أبي سفيان ؟ وأي مواطن وجد الانصاف الذي وجده وضاح القرشي !!؟ فمن أجل لطمة يصاب بها فدائي يهتم الخليفة هذا الاهتمام البالغ ، ويجري حركة مبادلة في الأسرى ويجهز السفن للقبض على المعتدي في منطقة نفوذ خارجة عن ملكه ، وينجح في تدبيره فلا يسرف في الانتقام ولا يتعدى الاجراء الجزائي البسيط ، ثم يتحدى عدوه بهذا الانعام وحسن المعاملة ، ولعل هذا العدل الأموي كان له الأثر البالغ فيما جد بعد هذه الحادثة من فتوحات باهرة وانتصارات ساحقة ومن أجل ذلك لقب معاوية بمربي الدول ، وسائس الأمم ، وراعي الممالك.

أبواب المسجد الحرام قبل توسعته في زماننا

تقدم أن حد المسجد الحرام قبل الإسلام هو نفس دائرة المطاف ، و لم يكن له سور ولا جدار وإنما كانت بيوت قريش تحيط به على دائرة المطاف . وقد جعلوا

بين كل بيتين أو ثلاثة ممراً ومنفذاً يدخل الناس منه إلى المسجد ، فلما زاد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أحاط بالمسجد الحرام جداراً ، فهو أول من زاد في المسجد وأول من أحاط بالجدار و لم يذكر المؤرخون أنه عمل له باباً ولكن نحن نقول : أنه رضي الله عنه ، عمل له باباً حيث يعلم من سياق الكلام بالضرورة ، فما كان محاطاً بجدار لا بد أن يكون له منفذ والمنفذ هو الباب ، ثم على قدر كبر المسجد تتعدد الأبواب . ولما كان المسجد الحرام أكبر مساجد الدنيا كانت له أبواب كثيرة وعددها خمسة وعشرون باباً ، وإليك بيان هذه الأبواب:

عدد	اسم الباب	ملاحظات
١	باب السلام	ولا ندري لماذا سمي بذلك مع أن باب بني شيبة الذي أمام مقام إبراهيم هو باب السلام قديماً.
٢	باب قايتباي	وبه مئذنة السلطان قايتباي ، سلطان مصر سابقاً ، وكان يقال له "باب القوارير" .
٣	باب النبي	سمي بذلك لأن النبي ﷺ كان يخرج منه ويدخل فيه من منزله بزقاق العطارين وهو منزل خديجة أم المؤمنين ، رضي الله تعالى عنها ، ويسمى باب الجنائز لأنها كانت سابقاً تخرج منه ، ويقال له أيضاً "باب النساء" ويقال له أيضاً باب الحريرين لبيع الحرير في الدكاكين التي كانت بجواره.
٤	باب العباس	وهو ابن عبدالمطلب سمي به لأنه يقابل داره التي بالمسعى
٥	باب علي	ويعرف بباب بني هاشم ، وبباب البطحاء أيضاً.
٦	باب بازان	ويقال له باب بني عائذ كما سماه الأزرقي ونحن نسميه باب القره قول أو باب مخفر الشرطة.
٧	باب البغلة	ويقال له باب بني سفيان كما عرفه الأزرقي.
٨	باب الصفا	سمي بذلك لأنه يقابله ، ويقال له باب بني مخزوم، وبباب أجياد الصغير.
٩	باب أجياد	سمي بذلك لأنه يخرج منه إليه على خط مستقيم.
١٠	باب الرحمة	ويقال له باب المجاهدية لأن عنده مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن ويسمى أيضاً بباب أجياد.
١١	باب التكية	أي التكية المصرية لأنه أمامها ، ويقال له باب الشريف

عدد	اسم الباب	ملاحظات
		عجلان وباب بني تيم.
١٢	باب أم هانئ	وهي ابنة أبي طالب ، ويقال له باب الحميدية ، وهي دار الحكومة ، ويقال له أيضاً "باب أجياد الكبير" كما يقال له "باب أبي جهل" وغير ذلك.
١٣	باب الوداع	ويقال له باب الحزورة ، وباب الحزامية ، وباب بني حكيم بن حزام.
١٤	باب إبراهيم	سمي باسم رجل خياط كان عنده اسمه إبراهيم.
١٥	باب صغير	بمدرسة الشريف عبدالمطلب.
١٦	باب الداودية	سمي به لأنه يدخلَ إلى المسجد من مدرسة الداودية.
١٧	باب العمرة	وسمي بذلك لأن المعتمر من التنعيم يرجع من طريق الشبيكة فيدخل المسجد الحرام من هذا الباب غالباً لقربه ويقال باب بني سهم ، وباب بني جمح.
١٨	باب العتيق	ويقال له باب السدة وباب عمر بن العاص.
١٩	باب الزمامية	وهو ين باب العقيق وباب الباسطية.
٢٠	باب الباسطية	سمي بها لاتصاله بمدرسة عبدالباسط ، ويقال له باب العجلة ، وسمى بذلك لدار كانت عنده بناها ابن الزبير على عجل فكانت تبنى بالليل والنهار حتى فرغ منها سريعاً.
٢١	باب القطبي	وهو في جانب رحبة باب الزيادة وكان يقال له أيضاً باب الزيادة والقطبي المنسوب إليه هو عبدالكريم القطبي.
٢٢	باب الزيادة	ويقال له باب سويقة لأنه يخرج منه إليه.
٢٣	باب المحكمة	سمي بذلك لأنه يؤدى إليها.
٢٤	باب الكتبخانه	ومنه يدخل إلى مكتبة المسجد الحرام.
٢٥	باب دريبة	سمي بذلك لأن به درب صغير ينفذ إلى سويقة.

نقول : لقد ذكر الغازي في الجزء الأول من تاريخه ما نصه: أن الأمير بيسق حينما ناب عمه الشريف حسن بن عجلان حال سفره في الحكم بمكة ، وذلك سنة (٨٠٤) لأربع وثمانمائة من الهجرة أمر البوابين بالمسجد الحرام أن يلزموا أبوابه،

كما أمر بتنظيف الطرقات من الأوساخ والقمائم ، ونقل الكدر التي كانت بسوق الليل والمعلاة، وأن لا يحمل السلاح بمكة ، وأمر بإخراج أهل الفساد منها . انتهى.

بوابو المسجد الحرام

لما اتسع المسجد الحرام وكثرت أبوابه، كان لزاماً أن يكون لكل باب من أبوابه المتعددة بّواب يحرس المسجد الحرام من دخول الدواب كالقطط والكلاب ، ومن ملاحظة بعض الأمور للداخلين والخارجين ، وقد جرت العادة أن يكونوا من الجهلة ومن طبقة العوام ، لكن من أغرب الأمور التي اطلعنا عليها أن يكون البوابون في المسجد الحرام من الفقهاء والقضاة كما يحكي لنا التاريخ ، فقد ذكر رحمه الله تعالى في كتابه المخطوط "إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام" أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثين وثمانمائة وصل إلى مكة مرسوم في موسم الحج صحبة الركب المصري أن تفتح أبواب المسجد الحرام كلها ويعزل البوّابون القديمون وكانوا قضاة وفقهاء ويولى على أبواب الحرم بوابون ليس لهم حرفة ولا صناعة ولا شغل فقراء مساكين ، فحضر الأمراء والقضاة وقرئ المرسوم وقرر لكل باب بّواب وعزل من كان بوابا قبل ذلك من الفقهاء والقضاة وألزم البواب بملازمة باب الحرم والنوم عليه ليلاً ونهاراً وأن لا يغيب عنه إلا لضرورة وأن يتعاهد البوّاب بابه بالكنس والرش والتنظيف ومنع الكلاب والجواري الحاملات لقرب الماء والحمال من الدخول في المسجد الحرام واستطراقه والمرور فيه بغير حاجة ، ورسم السلطان أن يقرر لكل بواب عشرة أشرفية معلوماً كل عام يحمل له من أوقاف الحرمين صحبة المسفر على مودع الحكم . اهـ من الغازي.

وهذا المرسوم الذي ينص بفتح أبواب المسجد الحرام كلها كان بناء على مرسوم آخر سبقه في نفس السنة المذكورة ينص فيه بسد أبواب المسجد الحرام بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب : باب السلام ، وباب العمرة ، وباب إبراهيم ، وباب الصفا لا غير ، ولم يعرف قط أن أبواب المسجد الحرام أغلقت إلا في هذه الحادثة فصعب على الناس المتعبدون ذلك فالتمسوا من السلطان فتح جميع أبواب المسجد فجاءه ذلك المرسوم .

ثم ذكر الغازي ما قاله الأديب شهاب الدين أحمد بن سعد بن أحمد الحنفي رحمه الله تعالى يخاطب أهل مصر في غلق أبواب المسجد الحرام ومنبر الخطيب وعزل القاضي، وهو هذا:

يا أهل مصر يا كرام الورى	ما بالكم جئتم بأمر عجيب
أغلقتم الأبواب عن طائف	وعن مصلّ داخل من قريب
ومنبر الخطيب أضحى إذا	من فرق البيت حزيناً كئيب
ومنصب الشرع الشريف الذرى	شيّبتموه قبل وقت المشيب
فبالذي شرفكم دائماً	بخدمة البيت وقبر الحبيب
منّوا على سكان أم القرى	بعود قاضيهم وقرب الخطيب
وفتح الأبواب التي غلقت	حتى يرى ما كان ضنكاً رحيب
فضلاً فقد أصبح جيرانها	في حيرة عظمى وأمر عصيب .

يشير الأديب المذكور بقوله ومنبر الخطيب، إلى أنه ورد الأمر السلطاني بترك المنبر في مكانه بجوار مقام إبراهيم فلا يجرّ إلى جانب الكعبة ويسند إليها كما كانت العادة بذلك، وبقوله ومنصب الشرع، إلى أنه ورد الأمر أيضاً بعزل القاضي.

ولم يذكر الغازي اسم السلطان الذي أصدر أمره بذلك، والذي نراه أنه الملك الأشرف أبو النصر برسباي من دولة الجراكسة، وكان سلطانا مهاباً ذا شهامة وتدبير، تولى السلطنة يوم الأربعاء ثامن من ربيع الآخر سنة (٨٢٥) خمس وعشرين وثمانمائة وتوفي يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة (٨٤١) رحمه الله رحمة واسعة .

أما البوّابون في المسجد الحرام في وقتنا الحاضر فعددهم ثلاثون شخصاً وكلهم من العوام الجهلة وغالبهم من أهل اليمن، وكان فيهم اثنان من الأكراد من جهة السليمانية، أحدهما: اسمه محمود الكردي وهو بّواب لباب السلام ولا يزال إلى اليوم . وثانيهما : اسمه فتح الله الكردي وهو بّواب لباب الدريبة الذي بجوار باب السلام . وقد توفي هذا في شهر شوال عام (١٣٧٥) خمس وسبعين وألف هجرية رحمه الله تعالى.

ونرى أن الواجب يقضي أن يكون البوابون للمسجد الحرام من العوام الجهلة لأن هذه الوظيفة من وظائف الخدم ممتهنة غير شريفة ، يضع الناس لديهم نعالهم وما يلبسونه في أرجلهم وبعض حوائجهم ، فلا يليق بهذه المهنة الممتهنة العلماء والفقهاء والقضاة. ولا ندري ما سبب جعل هؤلاء الأعزاء الكرماء بّوابين للمسجد الحرام، فرحم الله السلطان الذي أبطل هذه العادة السيئة.

انظر: صورة رقم ١٣٥ ، المسجد الحرام وقد ضربت فيه الخيام ليستظل تحتها المصلون

نصب الخيام في المسجد الحرام

لا بأس من نصب الخيام في المسجد والجوامع ، أو وضع الستائر فيها للوقاية من الشمس والمطر والرياح ، فقد ضرب رسول الله ﷺ خيمة في مسجده ، كما جاء في صحيح البخاري ، في كتاب الصلاة في باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم : حدثنا زكرياء بن يحيى قال حدثنا عبدا لله بن نمر قال حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: أصيب سعد يوم الخندق في الأكحل فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم فإذا سعد يغذو جرحه دما فمات فيها . انتهى.

ولنذكر هنا عدد المرات الت نصبت فيها الخيام في المسجد الحرام بمكة اتقاء لفح الشمس وحرارتها :

ففي السنة الثالثة من دخول الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل السعود إلى الحجاز أي في سنة (١٣٤٥) خمس وأربعين وثلاثمائة وألف أمر ، رحمه الله تعالى، بوضع سرادقات -الخيام- في المسجد الحرام حتى تقي الحجاج حرارة الشمس ، فاستظل تحتها آلاف الحجاج تلك السنة فقط ، ثم في السنة (١٣٤٦) ست وأربعين وثلاثمائة وألف أمر جلالته برفع الخيام لعدم صلاحيتها التامة وأن يعمل بدلاً عنها مظلات قوية على حافة الأروقة مما يلي صحن المسجد من جميع الجهات . ومازالت هذه المظلات القماشية موجودة من ذلك التاريخ إلى ما قبل العمارة الحديثة .وقد حصل فيها كثير من التغييرات والإصلاحات وكانت أولاً من خشب على هيئة جملون مكسوة بالقماش ثم رفعوا الأخشاب وأبدلوها بأعمدة

من الحديد تربط بها أسلاك قوية ومتصلة بنفس جدار الأعمدة التي تحمل قباب المسجد ثم يثبت القماش فوق هذه الأسلاك.

ويحدثنا التاريخ أنه سبق أيضاً نصب بالمسجد الحرام، فقد ذكر الأزرقي في تاريخه أن عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما حينما كان يقاتل الحصين بن نمير تحصّن هو وأصحابه في المسجد الحرام وضربوا فيه خياماً ورفاقاً يكتنون فيها من حجارة المنجنيق ويستظلون فيها من الشمس فذهب رجل من أصحابه يوقد ناراً في بعض تلك الخيام مما يلي الصفا بين الركن الأسود والركن اليماني فطارت شرارة في الخيمة فاحترقت كسوة الكعبة... الخ. وروى فيه أيضاً عن عثمان بن ساج قال: أخبرتني عجوز من أهل مكة كانت مع عبدا لله بن الزبير بمكة فقلت لها: أخبريني عن احتراق الكعبة كيف كان ؟ قالت: كان المسجد فيه خيام كثيرة فطارت النار من خيمة منها فاحترقت الخيام والتهب المسجد حتى تعلقت النار بالبيت فاحترق. انتهى.

وأيضاً حصل نصب الخيام في أيام أمير المؤمنين المتوكل على ا لله، فإنه حينما أمر بعمارة ما يحتاج لعمارته في المسجد الحرام سنة (٢٧١) إحدى وسبعين ومائتين نصبوا سرادقاً ستراً للبنائين والعمال من الناس ليشتغلوا بهدوء وراحة.

وذكر الغازي في تاريخه أنه في سنة (٨١٠) عشر وثمانمائة أرسل صاحب بنقالة بالهند السلطان غياث الدين أحمد خان أعظم شاه هدية كبيرة إلى أمير مكة الشريف حسن بن عجلان وكان من ضمنها خيام طلب منه إقامتها في صحن المسجد الحرام يستظل الناس والحجاج تحتها. فنصبت تلك الخيام لكن بعد سفر الحج المصري رفعت من المسجد لأن الناس كانوا يعثرون بأطنابها. انتهى.

ومن الأمور المستغربة ما جاء في تاريخ الغازي أيضاً أنه كان الباعة يسطون بضايعهم أيام الموسم في المسجد الحرام وينصبون فيه الخيام على مصاطب، ثم في سنة (٨٣٠) ثلاثين وثمانمائة وصل مرسوم صحبه الحاج يتضمن منع الباعة من كل ذلك. والمصاطب جمع مصطبة بالصاد وبالسين وهي المكان الممهد المرتفع قليلاً، ولم نقف في التاريخ على غير هذه الحوادث الأربعة لنصب الخيام في المسجد وا لله تعالى أعلم.

واعلم أنه ورد النهي عن البيع والشراء وطلب الضالة في المساجد، لأن مثل هذه الأمور محلها الأسواق والمحلات، واختصت المساجد للعبادة:قال ﷺ : "إذا

رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له : لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالّة فقولوا : لا ردها الله عليك" رواه الترمذي والحاكم في المستدرك وهو حديث صحيح . قال العزيزي : زاد في رواية مسلم : "فإن المساجد لم تبن لهذا".

وروى الإمام الأزرقي في تاريخه قال : حدثني جدي قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن عبدالكريم الجزري قال : سمع النبي ﷺ رجلاً في المسجد يقول : "من دعا إلى الجمل الأحمر قال : لا وجدت" وقال : ألهذا بنيت المساجد... وعن الأزرقي أيضاً حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاووس "أن النبي ﷺ سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد الحرام فقال : لا وجدت" فرحم الله السلطان الذي أصدر مرسوماً بمنع البيع والشراء في المسجد الحرام وجزاه على ذلك خير الجزاء.

ولقد أنعمنا النظر في سبب عرض الباعة بضايعهم في المسجد الحرام ، فظهر لنا أن الأرض خارج المسجد لم تكن متساوية والمسعى كان وادياً منحدراً عميقاً حتى أن الساعي إذا كان راكباً حصانه وبيده رمح ظهر رأس الرمح لمن كان بالمسجد ، ومن المعلوم أن مكة كلها جبال متصلة بعضها ببعض فكان جهات المسجد من الخارج فيها نواتئ وربوات وانخفاضات فلا يتسنى للناس عرض بضايعهم فيها ، بخلاف المسجد الحرام الذي أصلح وتساوت أرضه. أما في زماننا فأطراف المسجد الحرام ونفس مكة كلها أرضها ممهدة وأزقتها وشوارعها متساوية من عمل الناس لا من أصل الخلقة ، على أنه لا تزال جميع مكة فيها منخفضات وارتفاعات طبيعية لكن بنسبة قليلة لا تمنع من سهولة السير والمواصلات المحلية.

وجود المظلات في المسجد الحرام

لم تكن في المسجد الحرام مظلات يستظل تحتها المصلّون في وقت الظهيرة في يوم الجمعة أو في موسم الحج ، فلما كان في أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، أمر بعمل أشرعة من القماش القوي الثخين ، يستظلّ تحتها المصلّون من أهل البلاد والحجاج فتقيهم من حرارة الشمس . وحسنا فعل رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه.

ولنذكر في هذا الموضوع بالتفصيل ما ذكره العلامة الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة ، رحمه الله تعالى ، في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" ، فلقد قال عند

الكلام على "عمل المظلات بالمسجد الحرام" ما نصه: بما أنه قد كثر ورود الحجاج في سنة (١٣٤٥) هجرية كثرة عظيمة، حتى بلغ عدد الواردين منهم من جهة البحر مائة وأربعين ألفاً، ومن جهة البر ما يربو على ثلاثمائة ألف، وهذا العدد سواء كان من جهة البحر أو البر يندر وقوعه في مواسم الحج الأخرى، ولذلك ضاق المسجد الحرام بالمصلين، فاضطرت الحكومة السعودية أن تضع سرادقات في حصاوى المسجد الحرام، لأجل أن يستظل تحتها المصلّون من وفود بلد الله الحرام، ويتوقون بظلها من ضربة الشمس وحرّ الظهيرة، ونتج من ذلك نفع عظيم لقسم عظيم من المصلّين كما هو ظاهر في الصورة الشمسية بهذا الكتاب، فقد وقَتْ تلك السرادقات والصواوين أكثر من عشرة آلاف من الحجاج كانوا يؤدون صلاتهم في حصاوى المسجد الحرام في وقت صلاتي الظهر والعصر، وقد مضى ذلك العام على تلك الحالة.

ثم في سنة (١٣٤٦) صدرت إرادة جلالة ملك المملكة العربية السعودية الإمام عبدالعزيز السعود حفظه الله تعالى على وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان الحمدان، بعمل مظلات قوية ثابتة على دائرة الحصوة مما يلي أروقة المسجد الحرام من الجهات الأربعة، ليستظل تحتها المصلون من حجاج بيت الله الحرام ويتقونها من حر الظهيرة من ضربة الشمس، وأن يكون في غاية المتانة بحيث لا يزعزعها تيار الهواء، لأنه قد ظهر فعلاً أن الرياح قد عبثت بالسرادقات التي قد نصبت في سنة (١٣٤٥هـ) مراراً.

فقام وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان بعمل مظلات قوية، قوامها من الخشب الجاوي الثخين على شكل جملون، وكسى ذلك الجملون بالقماش القوي الثخين المنسوج بالقطن الأبيض المسمى بالقلع من أعلاه، ونصبت على حافة الأروقة مما يلي الحصاوي بالمسجد الحرام من جهاته الأربعة، فصارت توضع هذه المظلات بالمسجد الحرام في أشهر الحج عند كثرة الحجاج وازدحام المصلين بالمسجد الحرام، وترفع بعد سفر الحجاج من مكة إلى أوطانهم. وقد حصلت من هذه المظلات منفعة عظيمة للحجاج، فإنها وقَتْهم من حر الظهيرة مدة إقامتهم بمكة عند أدائهم صلاتي الظهر والعصر إلى سفرهم إلى أوطانهم، حيث قد استظل تحتها بضعة عشر ألف حاج، وأنفق عليها مبلغ لا يستهان به. انتهى من الكتاب المذكور.

انظر: صورة رقم ١٣٦ ، المسجد الحرام وتظهر فيه الأشرعة القماشية وذلك سنة ١٣٧٢هـ

اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام

بعد أن انتهت الحكومة العربية السعودية من توسعة المسجد النبوي بالمدينة المنورة في سنة (١٣٧٤هـ) عزمت على توسعة المسجد الحرام بمكة المشرفة فأمرت بتأليف لجنة لذلك لبدء العمل فيه من أول سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية . فتألفت هذه اللجنة من فضلاء البلاد وسميت "اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام" وأعضاؤها كما يأتي:

(١) معالي الشيخ عبدا لله بن عدوان ، وزير المالية والإقتصاد الوطني.
(٢) سعادة أمين العاصمة.
(٣) سعادة مدير الأوقاف.
(٤) سعادة مدير عين زبيدة.
(٥) سعادة مدير الأمن العام.
(٦) مندوب من وزارة الداخلية.
(٧) محمد طاهر الكردي المكي الخطاط "مؤلف هذا التاريخ".

ولقد دام العمل في توسعة المسجد الحرام عشر سنوات و لم ينته العمل فيه إلى اليوم . ثم امتد العمل من توسعة المسجد الحرام إلى توسعة شوارع مكة المشرفة بما لم يسبق له مثيل في العصور القديمة أبداً، وقد صرفت الحكومة في هذه الأعمال العظيمة مبالغ طائلة لا تنحصر ، بل لقد امتد العمل في العمران إلى جميع المدن الكبرى في المملكة العربية السعودية ، فسبحان الكبير المتعال، مغير الحال والأحوال، لا إله إلا هو العزيز الغفار . ثم بعد سنوات تغير بعض أعضاء اللجنة التنفيذية وصار رئيسها هو صاحب السمو الملكي الأمير مساعد بن عبدالرحمن ، وزير المالية والاقتصاد الوطني.

وضع الحجر الأساسي لتوسعة المسجد الحرام

كان يوم الاحتفال العظيم لوضع الحجر الأساسي لتوسعة المسجد الحرام يوماً نيّراً مرموقا ، حضره العلماء والوزراء وأعضاء الوفود العربية والإسلامية والوفود

الصحفية وأعيان البلاد ووجهاؤها ، وقد أقيم الاحتفال في الساحة الكبيرة التي كان فيها مبنى الحميدية "دار الحكومة" ومبنى التكية المصرية اللتان كانتا أمام باب أجياد ، وقد استعد مكتب التوسعة بكل شيء و لم تغمض لهم عين ليلة يوم الاحتفال.

فبعد شروق الشمس بساعتين من يوم الخميس ٢٣ شعبان عام ١٣٧٥ للهجرة الموافق خامس أبريل ١٩٥٦ للميلاد ، شرف حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم الملك سعود بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية مكان الاحتفال ، وبعد أن استراح قليلاً افتتح الحفل بآي من ذكر الحكيم تلاها المقرئ الشهير الشيخ جميل آشي بصوته القوي الرخيم الواضح النبرات، ثم تقدم حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سعود فألقى الخطاب الملكي على الحاضرين نيابة عن جلالة والده ، حفظه الله تعالى ، ثم تقدم صاحب السعادة الشيخ محمد صالح القزاز فألقى خطاب المشرف العام على تنفيذ التوسعة وهو صاحب المعالي الشيخ محمد بن لادن ، وكان خطاباً قيماً تاريخياً.

ثم نهض جلالة الملك المعظم ليضع الحجر الأساسي لتوسعة المسجد الحرام فوضعه بيده الكريمة ، ثم قصد المسجد الحرام للطواف وبعد ذلك توجه إلى جدة . وإن شاء الله تعالى سنذكر الخطاب الملكي والتفصيلات الوافية في كتابنا الذي نشتغل بتأليفه الآن عن توسعة المسجد الحرام وتوسعة المسجد النبوي نسأل الله الكبير المتعال الفتاح العليم أن يوفقنا لصالح الأعمال ويختم حياتنا بأحسن الأحوال آمين .

ويستأنس في وضع الملوك والرؤساء الحجر الأساسي في البنايات بما جاء في كتاب التراتيب الإدارية عن السهلي في الروض قال: ذكر ابن قتيبة أن رسول الله ﷺ حين أسس مسجد قباء كان هو أول من وضع حجرا في قبلته ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر ثم أخذ الناس في البنيان فقال هذا أول مسجد بني في الإسلام .

وذكرنا هذا استئناسا لما يفعله الملوك وغيرهم من وضعهم الحجر الأساسي في بنيان المساجد والمعاهد والمستشفيات وأشباهها ، وفعلهم هذا في غاية الاستحسان لمشاركتهم لرعاياهم فيما يعود بالنفع إليهم وفي الاقتداء بهم لفعل الخيرات والمبرات.

ونختم هذه المقالة بأن الله عز وجل الذي بيده مقاليد السموات والأرض وهو رب كل شيء يطيل في عمر جلالة مليكنا المعظم حتى يرى المسجد الحرام في ثوبه الجديد من هذه التوسعة المباركة ، وحتى يرى مكة المشرفة تزهو بهذه المشاريع العظيمة ، وحتى يرى المسلمين جميعاً في كافة الأقطار قد تيقظوا من نومهم ورجعوا إلى أنفسهم فاستمسكوا بشريعتهم الغراء ، واعتصموا بحبل الله فاتفقت كلمتهم وقويت شوكتهم وأنزل الله عليهم بركات السماء وأخرج لهم من بركات الأرض ، فصلح دينهم وصلحت دنياهم . وما ذلك على الله بعزيز ، ونسأله الفضل والرحمة والرضا والغفران والعفو والعافية والتوفيق لكل خير ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جاء في تاريخ القطبي ما مضمونه: أنه في سنة (٩٨٤) أربع وثمانين وتسعمائة هجرية ، صدر الأمر السلطاني بهدم البيوت والمدارس الملاصقة بجدار المسجد الحرام من جهة باب السلام إلى باب الصفا فما فوق ، وذلك توسيعاً لطريق السيل ودفعاً لضرر دخوله إلى المسجد الحرام من ذلك الجانب إذا تراكم ، فهدمت تلك المنازل والبيوت توسعة للشوارع . اهـ.

هذا ما ذكره القطبي في تاريخه ، فيفهم منه لا بد أنه قد حصل هدم البيوت والأماكن في مكة من جهات متعددة وفي أزمنة متفاوتة ، وهذا أمر ضروري يحدث في كل بلدة وفي كل قطر ، وذلك بحسب ازدياد العمران، وبحسب هندسة ونظام نفس السكان واحتياجهم إلى تعدد الشوارع والمحلات.

ونقول: إن توسعة شوارع مكة المشرفة مع فرشها بالإسفلت أي تبليطها بالزفت وإنارة جميعها بالكهرباء ، وعمل عدة نافورات ملونة في وسط بعض ميادينها ، كانت فيما بين سنة (١٣٨١) ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية وما بعدها أي سنة (١٣٨٢) مع تشجير بعض الميادين أيضاً - وبعبارة أخرى إن مكة شرفها الله تعالى وأدام خيرها قد تطورت في التعمير والتجميل منذ بدء توسعة المسجد الحرام في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فسبحان مغير الأحوال ومدبر الأمور ، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

مكتب توسعة المسجد الحرام

لقد أنشئ هذا المكتب للإشراف على توسعة المسجد الحرام ومراقبة الأعمال والعمال، ويتعلق بهذا المكتب جميع المهندسين والبنائين والنجارين والعمّال على اختلاف أجناسهم وأعمالهم، ورئيس هذا المكتب هو سعادة الشيخ محمد صالح القزاز وهو من مكة المشرفة، وهو رجل يفيض بالحيوية والنشاط والذكاء والمعرفة.

والرئيس العام لهذا المشروع هو معالي المعلم الشيخ محمد بن لادن وهو من حضرموت، وهو القائم بأعمال مشروع التوسعتين للمسجدين الحرامين بمكة المشرفة وبالمدينة المنورة، بل هو القائم بجميع المشاريع الكبيرة الحكومية، ومع أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، شديد الذكاء عظيم النباهة حاضر البديهة، مستقيم الحال ناجح في الأعمال، فسبحان المعطي الوهاب، ولقد تأسس هذا المكتب في عام (١٣٧٥) هجرية بمكة المكرمة بعد تأليف اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام.

ولقد تكلمنا عن التعليم في المسجد الحرام وعن أسماء علمائه ومؤلفاتهم وأسماء أدباء مكة المكرمة بما فيه الكفاية فراجعه إن شئت.

توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي

لم نستطع أن نكتب شيئاً عن توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي الثاني وذلك لمرضنا الطويل، وهذه التوسعة هي أعظم توسعة وقعت بمكة المشرفة لشوارعها وللمسجد الحرام وقد تركنا هذا المبحث لمكتب توسعة المسجد الحرام يكتبه بالتفصيل التام بعد انتهاء أعمال التوسعة، لما عندها من المعلومات الوافية والصور والرسوم الكثيرة، غير أننا نضع هنا شيئاً من صور توسعة المسجد الشريف وهي هذه.

انظر: الصور أرقام ١٣ مظلة المسعى من الخارج وتبدو فيها عظمة البناء وروعة التصميم، ورقم ١٣٨ الجانب الشرقي من توسعة الحرم المكي الشريف، ١٣٩ منظر آخر للجانب الشرقي من توسعة الحرم المكي الشريف

الزيادات في المسجد الحرام

اعلم أن المسجد الحرام لم يكن بهذا الاتساع والكبر، بل كان من قديم الأزل مساحته نفس المطاف المفروش بالمرمر والرخام المحيط بجوانب الكعبة المشرفة وبحِجْر إسماعيل إلى بئر زمزم ومقام إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ولم يكن عليه حيطان ولا سور إنما كان ذلك في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد جاء في صحيح البخاري في باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، في باب، بنيان الكعبة: عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد، قالا: لم يكن على عهد النبي ﷺ حول البيت حائط، كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر فبنى حوله حائطاً، قال عبيدالله: جدْره قصير فبناه ابن الزبير. انتهى.

ثم إن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أول من زاد في المسجد ووسعه وأحاطه بالجدران من جميع الجهات، ثم تبعه الخلفاء فزاد كل واحد في المسجد بقدر ما يسع الناس في زمانه، حتى صارت الزيادات إلى عصرنا الحاضر تسع زيادات، وهي كما يأتي:

(١) زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.
(٢) زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.
(٣) زيادة أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير رضي الله عنه تعالى عنهما.
(٤) زيادة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك رحمه الله تعالى.
(٥) زيادة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله تعالى.
(٦) زيادة أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي رحمه الله عنه.
(٧) زيادة أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسي رحمه الله تعالى.
(٨) زيادة أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسي رحمه الله تعالى.
(٩) زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، وفقه الله تعالى وأدام عزه.

ولقد نظمنا عدة أبيات في المسجد الحرام وأسماء من زاد فيه من عهد عمر، رضي الله تعالى عنه، إلى زماننا هذا. وإليك ما قلنا في ذلك:

قد كان حدّ المسجد الحرام ... من غابر العصور والأعوام
ما كان دائراً بحول البيت ... يحده زمزم عند البيتِ

كـــان صغـــيراً ضيّـــق المكـــان بـــدون ســـور وبـــلا جـــدرانِ
يلتـــف حولـــه بيـــوت العـــرب مـــن بينهـــا مدخلـــه كـــالنقبِ
وفيمـــا جـــاء لنـــا الإســـلام وأســـلم العـــربُ والأنـــامُ
والمســـلمون كـــثروا ويمّمـــوُا أم القـــرى للحـــج نعـــم المغنـــمُ
ضـــاق بهـــم المْســـجد الحـــرامُ فوسَّـــعوه- أن ذا لـــزامُ
ومنـــذ عهـــد الخلفـــاء الراشـــدين لعصرنـــا هـــذا ونحـــن الآخِريـــنْ
قـــد وسَّـــعوا رقعـــة هـــذا المســـجدِ لتســـع مـــرات يقينـــاً فـــاعددِ
أسمـــاء مـــن وسَّـــعه كمـــا يلـــي جزاهـــم الله بخـــير الأمـــلِ
عمـــر عثمـــان همـــا خـــير خلـــفْ وابـــن الزبـــير ملحـــق بمـــن ســـلفْ
ثـــم الوليـــد وكـــذا المنصـــور وبعـــده المهـــدي هـــو الشـــهير
وبعـــده المعتضـــد العباســـي فـــالمقتدر بـــالله ذو الإحســـاس
فهـــؤلاء عدّهـــم ثمانيـــة أخبـــارهم شـــهيرة وباقيـــة
وبعـــد هـــؤلاء مـــا زاد أحـــد في المســـجد الحـــرام شـــيئاً يعتمـــد
فقـــد مضـــى ألـــف وســـبعون ســـنة مـــن آخـــر الزيـــادة المستحســـنة
إلى زمـــان الملـــك الســـعود مليكنـــا الموفـــق المحمـــود
فكـــان تاســـع الملـــوك الخلفـــا مـــن وسعوا المسجد حقـــاً وكفـــى
أعـــني ميلكنـــا الـــذي ســـار المثـــلْ بجـــوده ودينـــه نعـــم المثـــلْ
قـــد وسَّـــع المســـجد أي توســـعةْ بحيـــث ليـــس بعدهـــا توســـعةْ
فقـــد بنـــاه بينـــاء شـــامخ علـــى أســـاس مُحكـــم وراســـخ
عقـــود جميلـــة مزخرفـــةْ عمـــاده رفيعـــة مرصّعـــةْ
بقـــر بطـــن الأرض بـــالآلاتِ وبـــذل الكثـــير مـــن هبـــاتِ
حتـــى اســـتقام المســـجد الحـــرام كالســـاحة العظمـــى لهـــا انســـجام
جـــزاه ربـــي أحســـن الجـــزاءِ ألبســـه مـــن حلـــل البهـــاء
أعـــزه وفقـــه ونصـــره أعانـــه أيّـــده وبصّـــره
وإنمـــا الأعمـــال بالنيـــاتِ فـــأصلح الله لنـــا النيـــاتِ

وها نحن نتكلم في هذا المبحث عن بيان هـذه الزيـادات كلهـا بـالتفصيل التـام أولاً ، ثم نأتي بخلاصة ذلك لسهولة حفظها وادراكها ، ناقلين عـن تـاريخ الغـازي المسمى "إفادة الأنام بذكر أخبار بلـد ا لله الحـرام" حيـث أن كتابـه جـامع لأغلـب كتب التاريخ ، فنقول وبا لله التوفيق وعليه الإعتماد والتكلان:

قال الغازي رحمه ا لله تعالى ، في تاريخه ما نصه: قال العلامة قطب الدين رحمه ا لله تعالى، في كتابه "الإعلام" : اعلم أن الكعبة الشريفة لما بناها سيدنا إبراهيم عليه السـلام ، لم يكـن حولهـا جـدار واستمرت كذلـك مـن أيـام العمالقـة وجرهـم وخزاعة ، لا يتجرأ أحد أن يبني بمكة داراً ولا جداراً احتراماً للكعبة الشريفة . فلمـا آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب واستولى علي مفتـاح الكعبـة جمـع قصـي قومـه وأمرهم أن يبنوا بمكة حول الكعبة الشريفة بيوتاً من جهاتها الأربع وكانوا يعظمون الكعبة أن يبنوا حولها بيوتاً أو يدخلون مكة على جنابة وكـانوا يقيمـون بهـا نهـاراً فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل فقال لهم قصي أن سكنتم حول البيـت هـابتكم النـاس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم وبـدأ هـو وبنـى دار النـدوة في الجـانب الشامن ويقال أنها مقام الحنفية الذي يصلي فيه الآن الإمام الحنفي الصلوات الخمس وقسّم قصي باقي الجهات بين قبائل قريش فبنوا دورهم وشـرعوا أبوابهـا إلى نحـو الكعبـة الشريفة. وتركوا للطائفين مقدار المطاف الشـريف بحيـث يعـني أن القـدر المفـروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف الآن وجعلوا بين كل دارين مـن دورهم مسلكاً شارعاً فيه باب يسلك منه إلى بيت ا لله تعالى.

ثم لما ظهر الإسلام وكثر المسلمون استمر الحال على ذلـك الوضـع مـن زمـن النبي ﷺ وزمـان خليفتـه أبـي بكـر الصديق. ولمـا زاد ظهـور الإسـلام وتكـاثرت المسلمون في زمن أمير المؤمنين عمر الفاروق فرأى أن يزيد المسجد الحرام.

الزيادة الأولى : زيادة عمر في المسجد الحرام

فأول زيادة زيدت في المسجد الحرام زيادة عمر بن الخطاب ، رضي ا لله عنه ، فاشترى ، رضي ا لله عنه دوراً حول المسجد وهدمها وأدخلها في المسـجد وبقيـت دور احتيج إلى إدخالها في المسجد وأبى أصحابها من بيعها فقـال لهـم عمـر : أنتـم نزلتم بفناء الكعبة وبنيتـم بـه دوراً ولا تملكـون فنـاء الكعبـة ومـا نزلـت الكعبـة في سوحكم وفنائكم . فقومـت الـدور ووضـع ثمنهـا في جـوف الكعبـة ، ثـم هدمـت

وأدخلت في المسجد، ثم طلب أصحابها الثمن فسلّم إليهم ذلك. وأمر ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد، وجعل فيه أبواباً كما كانت بين الدور قبل أن تهدم. وجعلها في محاذاة الأبواب السابقة.

الزيادة الثانية : زيادة عثمان في المسجد الحرام

فلما كثر الناس في زمان أمير المؤمنين عثمان بن عفان أمر بتوسيع المسجد واشترى دوراً حول المسجد هدمها وأدخلها في المسجد وأبى جماعة عن بيع دورهم ففعل كما فعل عمر بن الخطاب وهدم دورهم وأدخلها في المسجد فضج أصحاب الدور وصاحوا فدعاهم وقال : إنما جرأكم علي حلمي عليكم. ألم يفعل ذلك بكم عمر؟ فما ضج به أحد ولا صاح عليه وقد احتذيت حذوه فضجرتم مني وصحتم علي ثم أمر بهم إلى الحبس فشفع فيهم عبدا لله بن خالد بن أسيد فتركهم. وكانت زيادة عمر بن الخطاب وعمارته للمسجد عقب السيل العظيم سنة سبع عشرة من تخريبه معالم الحرم الشريف يقال لذلك السيل : سيل أم نهشل (استطراد). وفي سنة سبع عشرة أيضاً عمل أمير المؤمنين عمر الردم، الذي بأعلى مكة صوناً للمسجد، بناه بالضفاير والصخر العظام وكبسه بالتراب، فلم يَعْلُه سيل بعد ذلك، غير أنه جاء سيل عظيم في سنة اثنين ومائتين فكشف عن بعض أحجاره وشوهدت فيه صخار عظيمة كبيرة لم يُرَ مثلها، والأقدمون يسمون هذا الردم ردم بني جُمَح، بضم الجيم وفتح الميم وبعدها حاء مهملة، وهم بطن من قريش نسبوا إلى جمح بن عمرو بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك. والمراد بهذا الردم الموضع الذي يقال له المدعى وهو مكان كان يرى منه البيت الشريف أول ما يرى. وكان الناس خصوصاً حين يرد الحج من ثنية كَدَاء وهي الحجون إذا وصلوا ذلك المحل شاهدوا منه البيت الشريف والدعاء مستجاب عند رؤية بيت ا لله تعالى وكانوا يقفون هناك للدعاء وأما الآن فقد حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف ومع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة. وعن يمينه ويساره ميلان للإشارة إلى أنه المدعى. ولما ردم هذا المكان صار السيل إذا وصل من أعلى مكة لا يعلو هذا المكان بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذي بناه عمر فلا يصل هذا السيل إلى المسعى ولا إلى باب السلام إلى الآن. وصارت هذه الجهة من

يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل . وصار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل ويمر بالجانب الجنوبي من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة .

وأما زيادة أمير المؤمنين عثمان في المسجد الحرام فقد ذكرها الإمام أقضى القضاة الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" وغيره من الأئمة المعتمدين رحمهم الله تعالى . وفي كلام بعضهم زيادة على بعض فقالوا : أما المسجد الحرام فكان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين و لم يكن له على عهد النبي ﷺ وأبي بكر جدر تحيط به وكانت الدور محيطة به وبين الدور أبواب تدخل الناس من كل ناحية فلما استخلف عمر بن الخطاب وكثر الناس وسّع المسجد واشترى دوراً وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه وكان عمر أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام فلما استخلف عثمان ابتاع منازل ووسّعه بها أيضاً وبنى المسجد الحرام والأروقة فكان عثمان أول من اتخذ للمسجد الأروقة . انتهى .

قال الحافظ النجم عمر بن فهد في تاريخه في حوادث سنة ست وعشرين : فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان من المدينة فأتى ليلاً فدخل فطاف وسعى وأمر بتوسيع المسجد الحرام فذكر ما قدمناه قال : وجدد أنصاب الحرم وكلم أهل مكة عثمان أن يحول الساحل من الشُعيْبة وهي ساحل مكة قديماً في الجاهلية إلى ساحلها اليوم وهي جدة لقربها من مكة ، فخرج عثمان ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال : إنه مبارك وقال لمن معه : ادخلوا البحر للاغتسال ، ولا يدخله أحد إلا بمئزر ، ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى المدينة ، وترك الناس ساحل الشعيبة من ذلك الزمان ، واستمرّت جدة بندراً إلى الآن لمكة شرفها الله تعالى .

نقول : وجدّد عثمان رضي الله عنه أنصاب مكة ، وطلب أهل مكة منه أن يحول الساحل من الشُعَيْبة وهي ساحل مكة قديماً في الجاهلية إلى ساحلها اليوم وهي جدة لقربها من مكة ، فخرج عثمان ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال : إنه مبارك وقال لمن معه : ادخلوا البحر للاغتسال ولا يدخله أحد إلا بمئزر ، ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى المدينة وترك الناس ساحل الشعيبة من ذلك الزمان واستمرت جدة بندراً إلى الآن لمكة شرفها الله تعالى ، ومعنى البندر : المدينة التي على ساحل البحر .

الزيادة الثالثة : زيادة عبدالله بن الزبير في المسجد الحرام

ثم وقعت زيادة عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنه : قال الإمام أبو الوليد محمد بن عبدا لله بن أحمد بن محمد الأزرقي قال : حدثني جدي قال : كان المسجد الحرام محاطاً بجدار قصير غير سقف . وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشي يتتبعون الأفياء فإذا قلص قامت المجالس . قال : وحدثنا جدي حدثنا عبدالرحمن بن الحسن بن القاسم عن عقبة عن أبيه قال : زاد عبدا لله بن الزبير في المسجد الحرام واشترى دورا فأدخلها إلى المسجد وكان مما اشترى بعض دار جدنا الأزرق وكانت لاصقة بالمسجد الحرام وبابها شارع على باب بني شيبة على يسار الداخل إلى المسجد . وكانت داراً كبيرة اشترى بعضها ببضعة عشر ألف دينار ، وأدخلها المسجد الحرام وكتب لنا إلى أخيه مصعب بن الزبير بالعراق يدفع إلينا فركب رجال منا إلى العراق فوجدوا مصعباً يقاتل عبد الملك بن مروان فلم يلبث إلا يسيراً حتى قتل مصعب فرجعوا إلى مكة فصار ابن الزبير يعدنا ويدافعنا حتى جاء الحجاج بن يوسف وحاصره وقتله ولم نأخذ منه شيئاً . قال : وذكر أنه سمع مشيخة مكة يذكرون أن عبدا لله بن الزبير سقف المسجد غير أنهم لا يدرون أكلّه سقف أم بعضه .

ثم عمّره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج ، وعمّره عمارة حسنة قال : وحدثني جدي حدثنا سفيان بن عيينة عن سعيد بن فروة عن أبيه قال : كنت على عمل المسجد في زمان عبد الملك بن مروان فأمر أن يجعل في رأس كل أسطوانة خمسون مثقالاً من الذهب .

الزيادة الرابعة : زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان

قال الأزرقي : قال جدي : عمر الوليد بن مروان المسجد الحرام ونقض عمل عبد الملك ، وعمل عملاً محكماً وكان إذا عمل المساجد زخرفها . وهو أول من نقل الأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب وأزر المسجد بالرخام وجعل للمسجد سرادقات .

قال النجم عمر بن فهد : بعث الوليد بن عبد الملك إلى واليه على مكة خالد بن عبدا لله القسري بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابي الكعبة صفائح

الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التي في باطنها وعلى الأركان التي في جوفها ، ويقال أن الحلية التي حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هي ما كانت في مائدة سليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة وكانت قد احتملت من طليطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوي فتفسخ تحتها وكانت بها أطواق من ياقوت وزبرجد . انتهى .

الزيادة الخامسة : زيادة أبي جعفر المنصور

الفصل الثاني من ذكر ما زاده العباسيون في المسجد الحرام : أول من عمّر وزاد في المسجد الحرام من الخلفاء العباسيين ثاني الخلفاء أبو جعفر المنصور عبدالله. قال في الإعلام : وفي المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وقيل : سنة تسع وثلاثين أمر أبو جعفر المنصور بالزيادة في المسجد الحرام فزيد في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التي في ركن باب بني سهم . ولم يزد في الجانب الأعلى شيئاً لاتصاله بمسيل الوادي ولصعوبة البناء فيه وعدم ثباته إذا قوي السيل عليه ولذلك لم يزد في أعلى المسجد واشترى من الناس دورهم وهدمها وأدخلها في المسجد الحرام وكان الذي ولي عمارة المسجد لأبي جعفر أمير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبدالله الحارثي وكان من شرطية عبد العزيز بن عبدالله بن شافع جد شافع بن عبدالرحمن الشيبي وكان زياد أجحف بدار شيبة بن عثمان وأدخل أكثرها في الجانب الأعلى من المسجد فتكلم مع زياد في أن يميل عنه قليلاً ففعل فكان في هذا المحل ازورار في المسجد وأمر أبو جعفر المنصور بعمل منارة هناك فعملت واتصل عمله في أعلى المسجد بعمل الوليد بن عبد الملك وكان عمل أبي جعفر طاقاً واحداً بأساطين الرخام دائراً على صحن المسجد وكان الذي زاد فيه مقدار الضعف مما كان قبله وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب وزينه بأنواع النقوش ورخم الحِجْر ، بالحاء المكسورة ثم الجيم وهو أول من رخّمه ، وكان كل ذلك على يد زياد بن عبدالله الحارثي والي الحرمين والطائف ، من قبل المنصور . وفرغ من عمل ذلك في عامين وقيل في ثلاثة أعوام . وكتب على باب بني جمح ، أحد أبواب المسجد الحرام من جهة الصفا : "بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات

بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن ا لله غني عن العالمين : أمر عبدا لله أمير المؤمنين المنصور بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظراً منه للمسلمين واهتماماً بأمورهم والذي زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل وفرغ منه ورفعت الأيدي عنه في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وذلك بتيسير ا لله على أمير المؤمنين وحسن معونته وكفايته وإكرامه له بأعظم كرامة فأعظم ا لله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام وأحسن ثوابه وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة وأعز نصره وأيده" .

الزيادة السادسة : زيادة محمد المهدي العباسي

ثم زاد فيه المهدي العباسي ثالث الخلفاء من بني العباس قال في الإعلام : وفي سنة ستين ومائة حج أمير المؤمنين المهدي العباسي وقسم في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة وهي ثلاثون ألف ألف درهم وصل بها معه من العراق وثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن ومائة ألف ثوب وخمسون ألف ثوب فرّق جميع ذلك على أهل الحرمين . واستدعى قاضي مكة يومئذ وهو محمد الأوقص بن محمد بن عبدالرحمن المخزومي وأمره أن يشتري دوراً في أعلى المسجد ويهدمها ويدخلها في المسجد الحرام وأعد لذلك أموالاً عظيمة فاشترى القاضي جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعي من الدور فما كانت من الصدقات والأوقاف اشترى للمستحقين بدلها دوراً في فجاج مكة واشترى كل ذراع يكسر في مثله مما دخل في المسجد بخمسة وعشرين ديناراً وما دخل في سيل الوداي بخمسة عشر ديناراً فكان مما دخل في ذلك الهدم دار للأزرق وهي يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بني شيبة . وكان ثمن ناحية منها ثمانية عشر ألف دينار وكان أكثرها داخل في المسجد الحرام في زيادة عبدا لله بن الزبير ، ودخلت أيضاً دار خيرة بنت سباع الخزاعية وكان ثمنها ثمانية وأربعين ألف دينار دفعت إليها وكانت شارعة على المسعى يومئذ قبل أن يوءخر المسعى ، ودخلت أيضاً دار لآل جبير بن مطعم ودار شيبة بن عثمان اشترى جميع ذلك وهدم وأدخل في المسجد الحرام . وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام والمسعى حتى استقطعها جعفر البرمكي من الرشيد لما آلت الخلافة

إليه ، فبناها داراً ثم صارت إلى حماد البربري فعمّرها وزيّن باطنها بالقوارير وظاهرها بالرخام والفسيفساء . وتداولت الأيدي عليها بعد ذلك إلى أن صارت رباطين متلاصقين : أحدهما كان يُعرف برباط المراغي . والثاني كان يُعرف برباط السدرة ، فاستبدلهما السلطان قايتباي مدرسة ورباطاً في سنة (٨٨٣) .

ووقف عليهما مسقفات بمكة وإقطاعاً بمصر ، وهذه الزيادة الأولى للمهدي في أعلى المسجد وكذلك في أسفله إلى أن انتهى به إلى باب بني سهم ، ويقال له الآن : باب العمرة ، وإلى باب الخياطين ويقال له الآن : باب إبراهيم . وكذلك زاد من الباب الشامي إلى منتهاه الآن ولذلك زاد من الجانب اليماني أيضاً إلى قبة الشراب وتسمى الآن قبة العباس وإلى حاصل الزيت وكان بين جدار الكعبة اليماني وجدار المسجد الحرام الذي يلي الصفا تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع وكان ما وراء مسيل الوادي فهذه الزيادة كلها الأولى للمهدي وأمر بالأساطين فنقلت من مصر ومن الشام وحملت بحراً إلى قرب جدة في موضع كان في أيام الجاهلية ساحلاً بمكة يقال لها الشُعَيْبة فجمعت هناك لأن مرساه قريب بخلاف بندر جدة لأن مرساه التي تقف فيه السفينة بعيدة من البر وصارت أساطين الرخام تحمل منها على العجل وتتحاكى العربان أن بها الآن بقايا أساطين رخام دفنتها الريح بالرمل والله أعلم بحقيقة ذلك . وعمل الأساس لتلك الأساطين بحيث حفر لها في الأرض جدارات على شكل الصليب أقاموا كل أسطوانة على موضع التقاطع كشف عنه السيل العظيم الواقع في سنة ثلاثين وتسعمائة فشاهدنا أساس الأساطين على هذا الوجه واستمر عليهم إلى سنة أربع وستين ومائة فحج المهدي في ذلك العام وشاهد الكعبة المعظمة ليست في وسط المسجد بل في جانب منه ورأى المسجد قد اتسع من أعلاه وأسفله ومن جانبه الشامي وضاق من الجانب اليماني الذي يلي مسيل الوادي وكان من محل المسيل الآن بيوت الناس وكانوا يسلكون من المسجد في بطن الوادي ثم يسلكون زقاقاً ضيقاً ثم يصعدون إلى الصفا . وكان المسعى في موضع المسجد الحرام اليوم وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر العبادي عند حد ركن المسجد اليوم عند موضع المنارة الشارعة في نحر الوادي فيها علم السعي وكان الوادي يمر دونها في بعض المسجد الحرام اليوم فهدموا أكثر دار محمد بن عباد بن جعفر العبادي وجعلوا المسعى والوادي فيها . وكان عرض الوادي من الميل الأخضر الملاصق للمئذنة التي من الركن الشرقي للمسجد إلى الميل الأخضر الآخر الملاصق الآن لرباط العباسي وكان هذا الوادي

مستطيلاً إلى أسفل المسجد الآن يجري فيه السيل ملاصقاً بجدار المسجد إذ ذاك وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليماني فلما رأى المهدي تربيع المسجد الحرام ليس على الاستواء ورأى الكعبة الشريفة في الجانب اليماني من المسجد جمع المهندسين وقال لهم : أريد أن أزيد في الجانب اليماني من المسجد لتكون الكعبة في وسط المسجد فقالوا له : لا يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت التي على حافة المسيل في مقابلة الجدر اليماني من المسجد ، وينقل المسيل إلى تلك البيوت ويدخل المسيل في المسجد كما قدمناه . ومع ذلك فإن وادي إبراهيم له سيول عارمة ، وهو واد حدور نخاف إن حولناه عن مكانه أن لا يثبت أساس البناء فيه على ما نريد من الاستحكام ، فتذهب به السيول أو تعلو السيول فيه فتنصب في المسجد ويلزم هدم دور كثيرة وتكبر المؤنة ولعل ذلك لا يتم فقال المهدي : لا بد أن أزيد هذه الزيادة ولو أنفقت جميع بيوت الأموال وصمم على ذلك وعظمت نيته واشتدت رغبته فصار يلهج به فهندس المهندسون ذلك بحضوره وربطوا الرماح ونصبوها على أسطحة الدور من أول الوادي إلى آخره وربعوا الوادي من فوق الأسطحة وطلع المهدي إلى جبل قبيس وشاهد تربيع المسجد ورأى الكعبة في وسط المسجد ورأى ما يهدم من البيوت ويجعل مسيلاً محلاً للسعي . وشخصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الأسطحة ، ووزنوا له ذلك مرة بعد أخرى حتى رضي به ثم توجه إلى العراق وخلف الأموال الكثيرة لشراء هذه البيوت والصرف على هذه العمارة العظيمة .

وهذه هي الزيادة الثانية في المسجد الحرام . قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في حوادث سنة سبع وستين ومائة ما ملخصه : فيها هدمت الدور التي اشتريت لتوسعة المسجد والزيادة فيه الزيادة الثانية للمهدي فهدموا أكثر دار محمد بن عباد وجعلوا المسعى والوادي فيها ، وهدموا ما بين الصفا والوادي من الدور وحرفوا الوادي في موضع الدور ، حتى أوصلوه إلى مجرى الوادي القديم في الأجياد الكبير ، وهو الآن الطريق الذي يمر منه إلى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة . ابتدأوا من باب بني هاشم من أعلى المسجد ويقال له الآن : باب علي . ووسّع المسجد منه إلى أسفل المسجد وجعل في مقابلة هذا الباب باب في المسجد يعرف الآن بباب حزورة ويحرفونه العوام فيسمونه باب عزورة لأن السيل إذا زاد على مجرى الوادي ودخل إلى المسجد خرج من هذا الباب إلى أسفل مكة فإذا طفح عن ذلك خرج من باب الخياطين أيضاً . ويسمى الآن باب إبراهيم فيمر

السيل ولا يصل إلى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليماني فكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليماني من المسجد المتصل بالوادي تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من جدر المسجد أولاً إلى الجدر الذي عمل آخراً وهو باق إلى اليوم تسعون ذراعاً فاتسع المسجد غاية الاتساع وأدخل في قرب الركن اليماني من المسجد في أسفله دار أم هانئ ويقال الآن للباب الذي فتح هناك باب أم هانئ لأن دارها كانت بقرب ذلك الباب داخل المسجد الحرام الآن ومن هذا الباب يدخل إلى المسجد أمراء مكة سادتنا الأشراف آل الحسن بن علي بن أبي طالب وكانت عند دار أم هانئ بئر جاهلية حفرها قصي بن كلاب أحد أجداد النبي ﷺ فأدخلت أيضاً تلك البئر في المسجد الحرام وحفر المهدي عوضها بئراً خارج الحزورة يغسلون عندها الموتى من الفقراء واستمر البناة والمهندسون في بناء الزيادة ووضع الأعمدة الرخام، وتسقيف المسجد بالخشب الساج المنقش بالألوان نقراً في نفس الخشب كما أدركناه. وكان في غاية الزخرفة والإحكام باقياً فيه لون اللازورد في غاية الصفا والرونق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان واستمر عملهم إلى أن توفي المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذي أراده وعقد الأمر لولده موسى الهادي وكان إكمال المسجد الحرام أول شيء أمر به الهادي. وبادر الموكلون بذلك إلى إتمامه إلى أن تصل بعمارة المهدي وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أم هانئ بالحجارة ثم طليت بالجص. وكان العمل في خلافة الهادي دون العمل في خلافة المهدي في الاستحكام والزينة والاهتمام لكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذي كان باقياً إلى هذه الأيام وما زيد بعد ذلك إلا الزيادتان كما نشرحهما إن شاء الله تعالى وهذه الأساطين الرخام جلبها المهدي من بلاد مصر والشام وأكثرها مجلوب من بلاد أخميم من أعمال مصر وهي بلدة خراب الآن من بلاد مصر القديمة كثيرة الرخام يجلب منه إلى مصر وإلى غيرها من البلدان الرخام العظيم والأعمدة اللطيفة المنحوتة والمخروطة من الرخام الأبيض يقال: أن أكثر رخام المسجد الحرام مجلوب منه والله أعلم.

سبب وجود سقفين للمسجد الحرام في عمارة المهدي

لما وسّع أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي المسجد الحرام هذه التوسعة العظيمة في سنتي ١٦٠ و ١٦٤ من الهجرة، جعل له سقفين من خشب الساج القوي، وكان ما بين السقف الأول والسقف الثاني نحو ذراعين.

والذي نراه في جعل سقفين للمسجد الحرام في عمارة محمد المهدي، هو أن فن العمارة والزخرفة والنقش كان قد تقدم تقدماً عظيماً في أيام عبدالملك بن مروان، وبتوالي السنين ازداد فن العمارة والزخرفة حسناً وتقدماً كما بينا ذلك في غير هذا المحل، فأراد "المهدي رحمه الله" أن تكون عمارة المسجد الحرام أقوى وأجمل عمارة عربية ببلد الله الأمين، لذلك أمر المهدي أن يسقف المسجد الحرام بسقفين، السقف الأول: الذي يظل أرض المسجد يكون بالخشب الساج القوي وأن ينقش ويزخرف بالألوان والذهب بالنقر في نفس الخشب يكون آية في الإبداع والحسن والجمال، قال الإمام الأزرقي: والسقف الساج مزخرف بالذهب مكتوب في دوارات من خشب، فيه قوارع القرآن وغير ذلك من الصلاة على النبي ﷺ والدعاء للمهدي. انتهى.

وأما السقف الثاني: الذي يلي السماء فيكون من خشب الدوم اليماني وخشب الدوم ضخم قوي يبلط السطح بالجص والنورة.

فيكون السقف الثاني الذي يلي السماء يحفظ السقف الأول الذي فيه النقش والزخرفة بالألوان والذهب فلا ينزل عليه ماء المطر ولا تفسد برطوبة مياهه.

وهذه نظرية بعيدة في غاية من الدقة والإحكام، وإن كانت تستلزم مصاريف زائدة وتكاليف عظيمة، فرحم الله أهل الزمان الأول فقد كانوا إذا عملوا شيئاً أتقنوه، وفي الحديث الصحيح: "إن الله يحب المتقن عمله".

هذا ما نراه في تعليل وجود السقفين للمسجد الحرام. والله تعالى أعلم بالغيب.

ذكر الترميم بالمسجد الحرام في عهد أمير المؤمنين المتوكل على الله

قال الغازي في تاريخه : قال في الإعلام : وفي أيام المعتمد على الله سنة إحدى وسبعين ومائتين وقع وهن في بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربي قبل زيادة باب إبراهيم وكان من نفس الجدار الغربي من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخياطين وكان بقربه دار تسمى دار زبيدة بنت أبي جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام فانكسرت أخشابه وانهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد الشريف ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس . وكان عامله بمكة يومئذ هارون بن محمد بن إسحاق وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضي فلما رفع أمر هذا الهدم إلى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله -هذا أخو أمير المؤمنين المعتمد على الله وولى عهده وكان لأمير المؤمنين انهماك في اللهو واللذات فقدم أخاه طلحة بن المتوكل على الله ولقبه الموفق وجعله ولي عهده وولاه المشرق والحجاز واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند وكان الموفق عاقلاً مدبراً شجاعاً مشتغلاً بأمور المملكة مدبراً ملتفتاً لأحوال الرعية وكان أخوه المعتمد مكباً على لهوه ولذاته مهملاً لأحوال الرعية غير ملتفت لأمور المملكة فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق بالله وظهرت له نجابات كثيرة وكان للمعتمد اسم الخلافة وجميع الأمور يتلقاها الموفق بصدر منشرح ويسدد غاية السداد كذا ذكره القطب في تاريخه- عامله على مكة هارون المذكور بعمارة ما تهدم من المسجد الشريف . وجهز إليه مالاً بسبب ذلك فشرع في عمارته وجدد له سقفاً من خشب الساج ونقشه بالألوان المزخرفة وأقام الأسطوانتين الساقطتين وبنى عقودها وركب السقف ونصب في أيام عمارته سرادقاً بين العمال والبنائين وبين الناس يسترهم عن أعين من بالمسجد إلى أن أكمل ذلك في سنة اثنين وسبعين ومائتين وركب من الحجر لوحين في جدار المسجد الشريف في ذلك الجانب نقش على إحداهما بالنقش من لون الحجر ما صورته : أمر أبو أحمد الموفق بالله الناصر لدين الله ولي عهد المسلمين أطال الله بقاه لعمارة المسجد الحرام رجاء ثواب الله تعالى والزلفى إليه . وتم ذلك على يد عامله على مكة ومخاليفها هرون بن محمد بن إسحاق بن موسى في سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وعلى اللوح الثاني نقش

كتاباً صورتها : بسم ا لله الرحمن الرحيم أمر الناصر لدين ا لله ولي عهد المسلمين أبو أحمد الموفق بـا لله أخو أمير المؤمنين أطال ا لله بقاءهما القاضي يوسف بن يعقوب بعمارة المسجد الحرام ، لما في ذلك من رجاء ثواب ا لله تعالى ، أجزل ا لله ثوابه وأجره وتم ذلك على يد محمد بن العلاء بن عبدالجبار في سنة اثنتين وسبعين ومائتين والحجران المذكوران لا وجود لهما الآن . وقد نقلت صورة تلك الكتابات من تاريخ الإمام أبي عبدا لله محمد بن إسحاق الفاكهي . انتهى .

الزيادة السابعة : زيادة المعتضد بالله

ذكر الزيادتين زيادة دار الندوة وزيادة باب إبراهيم

قال في الإعلام : ومما وقع في أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار الندوة وإدخالها في المسجد الشريف من الجانب الشامي وهي أول الزيادتين وهي صحن مربع بأربعة أروقة من جوانبه الأربعة أضيف إلى المسجد الحرام في وسط الجانب الشامي ملصقة إلى رواق الجانب المذكور وهذا المحل يسمى دار الندوة وهي كانت في زمن الجاهلية دار يجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة في دفع ذلك الحادث عنهم بالاتفاق على رأي يجمعون على كونه صواباً فيأتون به بعد ذلك وليست الزيادة هي عين دار الندوة بل محلها من تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفي الآن إلى آخر هذه الزيادة .

كانت دار الندوة لما احتيج إلى توسعة المسجد الحرام أدخلت فيه وجعل بدلها موضع آخر خلفه مرة ثم أخرى إلى أن كان هو موضع الساحة المسماة اليوم بالزيادة ويسمى الباب الذي يليها باب الزيادة وفي ركنها اليماني الغربي باب كان يسمى باب الفهود واليوم باب القطبي فكان موضع تلك الزيادة دار لبني العباس ينزلونها إذا جاء إلى الحج أحد منهم أو من أتباعهم وعمّرها لذلك منهم المعتضد با لله العباسي ثم خربت وكانت أشبه بالمدارس اليوم لها طاقات على المسجد الحرام ويظهر من وضعها اليوم أنه كان لها باب يدخل إلى المسجد وهو موضع البائكة أي العقد الأخير الشامي منها الذي تليه المحكمة انتهى . ذكره الشيخ جعفر من شرح رسالة ابن زيد .

وكانت دار الندوة بعد ظهور الإسلام وكثرة بناء الدور بمكة داراً واسعة ينزل بها الخلفاء إذا وردوا مكة ويخرجون منها إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة وكان له فناء واسع صار سباطة ترمى فيه القمائم فإذا حصلت الأمطار الغزيرة سال من الجبال التي في يسار الكعبة مثل جبل قعيقعان وما حوله من الجبال سيول عظيمة إلى ذلك الفناء وحملت أوساخه وقمائمه إلى دار الندوة وإلى المسجد الحرام واحتيج إلى تنظيف تلك الأوساخ والقمائم من المسجد الشريف كلما سالت سيول هذا الجانب الشمالي وصار ضرراً على المسجد الحرام فكتب قاضي مكة يومئذ من قبل المعتضد العباسي القاضي محمد بن عبدا لله المقدسي وأمير مكة يومئذ من قبله أيضاً عج بن حاج، مولى المعتضد المذكور مكاتبات إلى وزير المعتضد يومئذ وهو عبيدا لله بن سليمان بن وهب يتضمن أن دار الندوة قد عظم خرابها وتهدمت وكثيراً ما تلقى فيها القمائم حتى صار ضرراً على المسجد الحرام وجيرانه وإذا جاء المطر سالت السيول من بابها إلى بطن المسجد وحملت تلك القمائم إلى المسجد الحرام وأنها لو أخرج ما فيها من القمائم وهدمت وبنيت مسجداً يوصل بالمسجد الحرام أو جعلت رحبة يصلي الناس فيها ويتسع الحجاج بها لكانت مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء بعد المهدي والهادي ومنقبة باقية وشرفاً وأجراً باقياً على طول الزمان وأن بالمسجد خراباً كثيراً وأن سقفه يسيل منه الماء إذا جاء المطر وأن وادي مكة قد انكبس بالأتربة فعلت الأرض عما كانت وصارت السيول تدخل من الجانب اليماني أيضاً إلى المسجد الحرام ولا بد من قطع تلك الأراضي وتمهيدها وتنزيلها إلى حد تمر فيها السيول منحدرة عن الدخول إلى المسجد الحرام. ووصل أيضاً إلى بغداد سدانة الكعبة ورفعوا أمرهم إلى ديوان الخلافة، أن وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعث، وأن الرخام المفروش في أرضها قد تكسر وأن عضادتي باب الكعبة كانتا من ذهب فوقعت فتنة بمكة في سنة إحدى وخمسين ومائتين بخروج بعض العلويين فقلع عامل مكة يومئذ ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير واستعان به على حرب العلوي الذي خرج عليه يومئذ وصاروا يسترون العضادتين بالديباج.

ووقعت أيضاً بعدها فتنة بمكة سنة ثمان وستين ومائتين فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الربع من الذهب الذي كان مصفى على باب الكعبة ومن أسفله وما على الأنف الباب الشريف من الذهب وضربه دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة وجعل بدل الذهب فضة مموهة على الباب الشريف وعلى أنف الباب المنيف فإذا

تمسح الحجاج بـه أيام الحج تبركـاً بذلـك المكـان الشـريف ذهـب صبغ الذهـب وانكشفت الفضة فيجدر تمويهها كل سنة والمناسب إعادة ذلك ذهبـاً صرفـاً كمـا كان وأن رخام الحجر الشريف قد تكسّر ويحتاج إلى التجديـد وأن بـلاط المطـاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تاماً ويحتاج أن يتمم من جوانبها كلها وأن ذلك مـن أعظم القربات وأكرم المثوبات وقد رفع ذلك إلى الديوان العزيز المبـادرة إلى انتهـاز ذلك والأمر راجع إلى دار الخلافة الشريفة والسلام .

فلما أشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد يومئذ الوزيـر عبيـدا لله بن سليمان بن وهب الكاتب وكان من أهل الخير له قدم راسـخ في قصـد الجميـل وفعل الحسنات ونية جميلة في إحراز الأجر والمثوبـات بـادر إلى عـرض ذلـك علـى إسماع الخليفة المعتضد وحسن له اغتنام هذه الفرصة والمبـادرة إليهـا وبـذل المقـدور فيها فبرز أمر المعتضد إليه وإلى غلامه المؤمر بالحضرة بعمل ما رفع إليـه مـن ترميـم الكعبة الشـريفة والحَجْر والمطاف والمسجد الحـرام وأن تهـدم دار النـدوة وتجعـل مسجد يلحق بالمسجد الحرام وتوصل به وأن يحفر الـوادي والمسيل والمسعى ومـا حول المسجد الحرام ويعمق حفرها إلى أن يعود إلى حاله الأول ويجري مـاء السيل فيه ولا يدخل شـيء منـه إلى المسـجد الحـرام فيصـان المسـجد بذلـك عـن دخـول السيول إليه وأن يحكم ذلـك غايـة الإحكـام ويعمـر مـا تجـب عمارتـه علـى وجـه الإتقان والاستحكام وأمر أن يحمل من خزائنه مالاً عظيماً لهذا العمل وأمـر قـاضي بغداد يومئذ وهو القاضي يوسـف بـن يعقـوب أن يرتـب ذلـك ويجهـز بعملـه مـن يعتمد عليه . وأمر بحمل المال إليه فجهز بعضه نقداً من أيام الحج مع ولده أبي بكـر عبدا لله بن يوسف وكـان مقدمـاً علـى حوائـج دار الخلافـة ومصـالح طريـق الحـج وعمارتها وأرسل بباقي المال صحائف سلمها إلى ولده المذكور ليسلمها ممن كتب اسمه في تلك الصحائف وعين معه لهذه الخدمة رجلاً يقال له أبو الهياج عمـيرة بـن حيان الأسدي له أمانة وحسن رأي ونية جميلة وسيرة حسـنة فوصـلا إلى مكـة في موسم حـج سنة إحـدى وثمـانين ومـائتين فحلـى بـالذهب الخـالص بـاب الكعبـة الشريفة وحج وتخلف بعد الحج بمكـة أبـو الهيـاج المذكـور ومـن معـه مـن العمـال والأعوان وعاد عبدا لله بن القاضي يوسف مع الحجـاج إلى بغـداد ليرسـل إليـه مـا يحتاج إليه من بغداد لتكميل ما أمر من العمارة المذكورة فشرع أبو الهياج في حفـر الوادي وما حول المسجد الحرام فحفره حفراً جيـداً حتـى ظهـر مـن درج المسـجد الحرام الشارعة على الوادي اثنا عشر درجة وإنما كان الظاهر منها خمـس درجـات

فحفرت الأرض ورمي بترابها خارج مكة ونظفت دار الندوة من القمائم والأتربة وهدمت وحفر أساسها وجعلت مسجداً وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب كبار سعة كل باب خمسة أذرع وارتفاع كل باب من الأرض إلى جهة الشمال أحد عشر ذراعاً وجعل بين الأبواب الكبار ستة أبواب صغار ارتفاع كل باب ثمانية أذرع وسعة كل باب ذراعان ونصف وجعل في هذه الزيادة بابان بطاقين شارعين إلى الخارج من جانبها الشمالي وباب بطاق واحد في جانبها الغربي وأقيمت أروقتها وسقوفها من جوانبها الأربعة وركبت سقوفها على أساطينها وسويت سقوفها بخشب الساج وجعل لها منارة وفرغ من عمارتها في ثلاث سنين ولعل إكمالها في سنة أربع وثمانين مائتين إلا أنها ما استمرت على هذه الهيئة بل غيرت بعد قليل إلى وضع آخر أحسن منه بعد المعتضد المذكور . قال محمد بن إسحاق الفاكهي في تاريخ مكة : إن أبا الحسن محمد بن نافع الخزاعي ذكر في تعليق له أن قاضي مكة محمد بن موسى القاضي ، لما كان إليه أمر البلد ، جدد بناء زيادة دار الندوة وغير الطاقات التي كانت فتحت في جدار المسجد الكبير وجعلها متساوية السعة بحيث صار كل من في زيادة دار الندوة من مصلٍ ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة البيت الشريف وجعل أساطينها حجراً مدوراً منحوتاً وركب عليها سقوفاً من الخشب الساج منقوشاً مزخرفاً وعقوداً مبنية بالآجر والجص ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولاً أحسن من الأول ، وجّدد شرافاتها وبيّضها ، وأنه عمل ذلك في سنة ست وثلثمائة . انتهى . واستمرت تلك الأساطين المنحوتة من الأحجار السود عليها السقف الساج المزخرف المنضود مشيدة باقية إلى أن أدركناها في عصرنا ثم بدلت بأساطين المنحوتة من الرخام الأبيض المرمر ما بينها لتوثيقها أساطين منحوتة من الشُمَيْسي الأصفر بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر وجعل عوض السقف الذي يلي خشبه كل حين قبباً مرفوعة نزهة للناظرين في غاية الإتقان والتزيين في زمان سلطان سلاطين الزمان السلطان مراد خان بن سليمان خان . انتهى .

الزيادة الثامنة : زيادة المقتدر بالله

زيادة باب إبراهيم

وأما زيادة باب إبراهيم فقال في الإعلام : ومن جملة محاسن المقتدر با لله أنه زاد في المسجد الحرام زيادة باب إبراهيم وليس المراد به الخليل عليه السلام بل كان إبراهيم هذا خياطاً يجلس عند هذا الباب عمر دهراً فعرف به وكان قبل هذه الزيادة باب متصل بأروقة المسجد الحرام بقرب باب الحزورة ويقال له باب الخياطين وبقربه باب ثان يقال له : باب بني جمح ، وخارج هذين البابين ساحة بين دارين لزبيدة أم الأمين بنيتا في سنة ثمان ومائتين ، وما بقي لتلك الدارين أثر الآن . والذي يظهر أن داري زبيدة كانت إحداهما في الجانب الشامي في مكان رباط الخوزي الآن وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليماني من تلك الزيادة وهي رباط رامشت الذي يعرف الآن برباط ناظر الخاص . انتهى .

قال في تحصيل المرام قلت : أما الذي من جهة الجانب الشامي فيقال له الآن رباط سليمان ويسكنه أهل اليمن . وأما الآخر فما بقي لتلك الرباط أثر . انتهى .
قال القطب : فأدخلت هذه الساحة التي بين الدارين في المسجد الحرام وأبطل البابان يعني باب الخياطين وباب بني جمح حيث دخلا في المسجد الحرام ، وجعل عوض البابين باب كبير هو المسمى بباب إبراهيم في غربي هذه الزيادة .

قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في حوادث سنة ست وثلثمائة في كتابه "إتحاف الورى بأخبار أم القرى" : وفيها زاد قاضي مكة يومئذ ، محمد بن موسى في الجانب الغربي قطعة عن باب الخياطين وباب بني جمح وهي السوح الذي كان بين داري زبيدة أم الأمين . وعمل ذلك مسجداً أوصله بالمسجد الكبير ، وطول هذه الزيادة من الأساطين التي في وزان جدر المسجد الكبير إلى العتبة التي عليها باب إبراهيم ، سبعة وخمسون ذراعاً إلا سدس ذراع . وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامي إلى جانبها اليماني وذلك من جدار رباط الخوزي إلى جدار رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعاً وربع ذراع ومن هذه الزيادة في جانبها الشرقي المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة وكذلك في جانبها الشمالي ولم يكن في جانبها الغربي رواق وفي جانبها اليماني

سبيل ماء وسط رواقيه وكانت لهذه الزيادة منارة ذكرها التقي الفاسي في شفاء الغرام ، قلت : أما المنارة فلا أدري من بناها ولا متى هدمت وأما السبيل فكان موجوداً إلى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فهدم عند وصول العمارة السلطانية إليه وأعيد بناؤه سبيلاً كما كان وهذه الزيادة الثانية وقعت في أيام المقتدر العباسي . انتهى .

انتهى كل ما ذكر من أول الفصل إلى هنا من تاريخ الغازي .

المسجد الحرام وما أجري فيه من زيادات

في العهود الماضية والعصر السعودي الزاهر

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ .

كان البيت الحرام منذ أن رفع إبراهيم قواعده وإسماعيل قائماً في واد بين جبلين من أرض مكة لم يقم فيه بناء غيره وقد تحاشى الناس البناء بقربه تعظيماً له واتخذوا منازلهم في شعاب الأودية بعيداً عنه .

البناء حول البيت

ظل الأمر على هذا الحال قروناً عديدة إلى أن آل أمر مكة وخدمة البيت إلى (قصي بن كلاب) فأذن للناس في البناء بقربه فأقاموا منازلهم حوله في شكل دائرة تحيط به من جميع الجهات وتركوا مساحة صغيرة حوله هي المعروفة حتى الآن بالمطاف .

بيت الله بعد ظهور الإسلام وتوالي الزيادات

بقي المسجد الحرام محدوداً في تلك المساحات الصغيرة حتى بعث الله محمد ﷺ للناس كافة وانتشر الإسلام وكثر معتنقوه وبدأ عدد الحجاج يتزايد من مختلف الأقطار التي استضاءت بنور الإسلام عندئذ بدأ المسجد يضيق عن استيعاب العدد الكبير من الوافدين الذي يزداد كل عام فبدأت الزيادات فيه تتوالى فكانت :

(زيادة الخلفاء الراشدين والسلف)

١- زيادة عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه عام ١٧هـ.

٢- زيادة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه عام ٢٦هـ.

٣- زيادة عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنه عام ٦٥هـ.

(الزيادة والعمارة في العصر الأموي)

٤- عمارة عبد الملك بن مروان عام ٧٥هـ.

٥- زيادة الوليد بن عبد الملك عام ٩١هـ.

(الزيادة والعمارة في العصر العباسي)

٦- زيادة أبي جعفر المنصور العباسي عام ٢٣٧هـ.

٧- زيادة الخليفة محمد المهدي العباسي عام ١٦٤هـ

٨- عمارة المعتمد با لله العباسي عام ٢٧١هـ.

٩- عمارة المعتضد با لله العباسي عام ٢٨٤هـ.

١٠- زيادة المقتدر با لله العباسي عام ٣٠٦هـ.

(عمارة ملوك الشراكسة)

١١- عمارة الناصر زين الدين أبي السعادات فرج برقوق ابن قانسوة الشركسي عام ٨٠٧هـ.

١٢- عمارة السلطان قايتباي عام ٨٨٢هـ.

(عمارة سلاطين آل عثمان)

١٣- عمارة السلطان سليمان خان عام ٩٧٢هـ.

١٤- عمارة السلطان سليم خان عام ٩٨٠هـ.

١٥- عمارة السلطان مراد خان عام ٩٨٤هـ.

ولقد كانت زيادة الخليفة محمد المهدي العباسي من أكبر الزيادات في تلك العصور إلى أن جاء العصر السعودي الزاهر فضرب المثل الأعلى في السخاء لتوسعة بيت ا لله الحرام هذه التوسعة العظيمة التي سوف تخلد أعمالهم المجيدة.

وقفت ساحة المسجد الحرام عند الحد الذي بلغته بعد عمارة السلطان مراد خان عام ٩٨٤هـ ولكن البناء حوله لم يتوقف بل ظل يزحف إليه حتى اتصلت به

المنازل من جميع الجهات وأصبحت الطرق المؤدية إليه أزقة ضيقة ملتوية يجد في احتيازها الذاهبون إليه والعائدون منه مشقه وعناء وخاصة في أيام الحج .

المسعى قديماً

وهكذا كانت الحال بالنسبة للمسعى أيضاً فقد فصلت المباني الخاصة بينه وبين المسجد الحرام وأصبح على مر العصور طريقاً تقوم على جانبه الحوانيت تطؤها السلع المختلفة وترفع فوقها المساكن طبقات والباعة المتجولون يعرضون بضائعهم في كل ركن منه . لقد أصبح موضع العبادة سوقاً يختلط قصاده للعبادة بقصاده للبيع والشراء فيتزاحمون حتى صار السعي عملية شاقة تحتاج لكثير من الحذر والانتباه خشية التصادم بسبب الزحام أو التعثر في بعض المعروضات . . ظل المسجد الحرام على تلك الحالة عصوراً طويلة لم يفكر أثناءها أحد من ملوك المسلمين أو أمرائهم في توسعة أو تجديد عمارته مع ما كان مشاهداً فيه من ضيق شديد حتي عن استيعاب أهل مكة والمقيمين بها أيام الجمع والأعياد في غير مواسم الحج فضلاً عما كان يلقاه الوافدون من الحجاج من مشقة وتزاحم في طوافهم وصلواتهم وكان كثير منهم يضطر لأدائها في الطرقات والأزقة المحيطة بالحرم تحت أشعة الشمس .

التوسعة الكبرى في العهد السعودي الزاهر

وجاء العهد السعودي الزاهر فأمر المغفور له صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود بتوسعة الحرم المدني الشريف ، وبعد إتمامه و لله الحمد استؤنف بتوسعة الحرم المكي الشريف عام ١٣٧٥هـ حيث شكلت لجان هندسية متعددة وضعت الخرائط والتصميمات الدقيقة ورسمت المخطط لمراحل التنفيذ . . وكان لا بد لتحقيق التوسعة من إدخال الطريق الذي كان يخترق المسعى ويمر من أمام الحرم في العمارة الجديدة وتحويله إلى ما وراء الصفا خارج حدود التوسعة .

مجرى السيل

ولما كان هذا الطريق مجرى للسيل أيضاً فلتفادي ما كان يحدث من اقتحام السيول أبواب الحرم وغمر أرضه بالماء رؤي ايجاد مجرى خاص يحول إليه اتجاه السيل إلى خارج حدود التوسعة . . وفي يوم ٤ من ربيع الثاني عام ١٣٧٥هـ بدئ في التمهيد لأعمال التوسعة وتحويل الطريق ومجرى السيل في وقت واحد فتم هدم جميع المباني اللازمة في المرحلة الأولى للمشروع ثم حفرت أساسات الجدار الخارجي للتوسعة في القسم الأكبر من منطقة المسعى . وفي منطقة أجياد من الجانب المسعى إلى ما يقابل باب أم هانئ . . .

وضع الحجر الأساسي للعمارة الجديدة

وفي يوم ٢٣ شعبان ١٣٧٥هـ احتفلت الدولة السعودية بوضع الحجر الأساسي في عمارة التوسعة وحضر الحفل مندوبون عن كثير من البلاد الإسلامية ورجال السلك السياسي العربي والإسلامي وعدد كبير من أعيان المملكة ووجهائها وكبار موظفي الدولة .

تفاصيل المسعى

إن طول المسعى بين الصفا والمروة يبلغ من الداخل ١/٢ ٣٩٤ متراً وعرضه ٢٠ متراً ، وارتفاع الطبقة الأولى ١٢ متراً والطبقة الثانية وهي مصلى تابع المسجد ارتفاعها ٩ أمتار . والمسعى الجديد له ثمانية عشر باباً رئيسية على واجهة الشارع العام الشرقي . أما الفتحات التي بين الأعمدة بالمسعى ، والمطلة على الشارع ، فقد ركبت عليها شبابيك من الحديد المشغول وعددها ٧٤ شباكاً .

قبة الصفا والأبواب والمنارات

وأقيم فوق الصفا سقف مستدير مقبب بجوار منارة طولها ٩٢ متراً عن سطح الأرض وعرضها من القاعدة ٧×٧ متراً وللمسجد سبع منارات جديدة وكلها بنفس الارتفاع واحدة فوق باب الصفا واثنتان بباب الملك عبدالعزيز واثنتان بباب

العمرة والباقيتان بباب السلام الكبير وهذه الثلاث الأبواب أبواب رئيسية وبالتوسعة الجديدة (٥١) باباً بين صغير وكبير وعلى جانبي كل باب سبيلين لسقيا الحجاج من ماء زمزم مباشرة لتخفيف الضغط على البئر في موسم الحج

ولقد رؤي في التوسعة الجديدة أنها من طابقين عدا البدروم يصلي فيه الحجاج أيضاً أيام الحج، وكذلك في أعلى السطح وبذلك يبلغ عدد المصلين بالمسجد من ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف مصل.

تكسية جدار العمارة بالمرمر والحجر الصناعي

هذا وقد كسيت جميع جدران العمارة الجديدة بالمرمر والأحجار الصناعية المزخرفة والأعمدة الرخامية والموزايكو. ومن المفاخر التي تعتز بها المملكة أن جميع الرخام والمرمر قد استخرج من داخل المملكة، حيث يقطع الرخام من جبال بالمملكة أكثرها على مقربة من مكة وتقطع هذه الأحجار الرخامية بالمقاسات المطلوبة وكذلك صب الأحجار الصناعية المنقوشة بنقوش عربية جميلة. وذلك في مصنع المرمر الخاص بالمشروع الموجود في جدة وتنقل الأحجار بالسيارات إلى مكة المكرمة.

المتبقي من المبنى القديم

أما المبنى القديم فقد تقرر إبقاؤه كأثر من الآثار القديمة بتوجيه من صاحب الجلالة الملك فيصل حفظه الله وتم تنسيق ما بين القديم والجديد من جميع الجهات.

مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة وما صرف عليه

وقد بلغت مساحة الحرم بعد هذه التوسعة حوالي ١٩٠٠٠٠ مائة وتسعون ألف متراً مسطحاً. وكانت في الماضي ٢٩١١٢٧ متراً مسطحاً وسوف يتكلف هذا المشروع العظيم ثمانمائة مليون ريال. صرف منها للآن ٦٠٠ مليون ريال قامت الدولة السعودية بصرفها من خزينتها دون مشاركة أي دولة دولة من الدول الإسلامية.

المطاف

لقد كان المطاف حول الكعبة يضيق بالحجاج وخاصة عند مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وعند مبنى بئر زمزم ولتوسعة المطاف أزيل المبنى الذي فوق بئر زمزم ليكشف عن الكعبة من الجهة الشرقية ولتوسعة المطاف للحجاج وجعل البئر من أسفل ينزل الحجاج إليه بدرج .

مقام سيدنا إبراهيم الخليل

أما مقام سيدنا إبراهيم الخليل فلقد رأى جلالة الملك فيصل حفظه الله بأن يزال الغطاء الموجود فوق المقام ويعمل بدله غطاء بلوري يغطيه قفص من الحديد المشغول ، يكون جميل المنظر وحجمه صغير لتوسعة المطاف . ويتمكن الحجاج من مشاهدة الحجر الذي كان يبني عليه سيدنا إبراهيم الكعبة المشرفة ، وعليه آثار أقدامه الشريفة . لأن بعض الحجاج يعتقدون أن سيدنا إبراهيم مدفون في هذا المكان .

وفي شهر رجب من عام ١٣٨٧هـ احتفل بانتهاء وضع الغطاء البلوري الجديد الذي صنع من الكريستال النقي وأزاح الستار عن الغطاء الجديد حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل المعظم يحيط به مندوبون عن بعض البلاد الإسلامية ورجال السلك السياسي العربي الإسلامي وعدد كبير من رجال الدين من مختلف الدول الإسلامية وكبار رجال الدولة والشعب السعودي . وقد نقل أيضاً المنبر من مكانه إلى ناحية الشرق وبذلك أصبح المطاف واسعاً يستوعب الطائفين في سهولة ويسر .

الميادين حول الحرم الشريف

ونظراً لهذه التوسعة العظيمة وازدياد عدد الحجاج الوافدين من مختلف البلاد بسياراتهم ووسائل انتقالهم فكان من الضروري إنشاء ميادين فسيحة لوقوف السيارات لحين انتهاء الحجاج من مناسكهم فقد أنشئت حول الحرم الميادين تحقيقاً لهذا الغرض . والحكومة الرشيدة تدرس إنشاء ميادين أخرى حول الحرم الشريف لاستيعاب العدد الضخم من السيارات ، وتضاء هذه الشوارع المحيطة بالحرم

بأحدث الطرق الفنية في الإنارة . ولقد روعي في هذه الميادين خلاف وقوف السيارات بكون الحجاج في مأمن من السيارات أثناء خروجهم من الصلاة والمناسك ، لذلك قامت بإنشاء أنفاق تحت الأرض لمرور الحجاج حيث يذهب كل حاج إلى منطقته في أمان بدون التعرض لحركة المرور وزحام السيارات ، وعدد هذه الأنفاق ستة .

دورات المياه (الميضاءات)

وزيادة على ذلك فقد بنيت دورات مياه -ميضاءات- بعضها تحت سطح الأرض والبعض فوقه للوضوء والغسيل .

مجاري السيل ونفق وادي إبراهيم

ولقد كانت السيول والأمطار تداهم الحرم الشريف من ناحية وادي إبراهيم -القشاشية- لهذا فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون مهاجمة السيول للحرم الشريف وأنشئ نفق لمرور السيل يبدأ من تحت المسعى من ناحية دار الأرقم ويمر من تحت الحرم ثم ميدان الملك عبدالعزيز ثم إلى المسفلة .

لقد بلغ طول هذا النفق حوالي (٢) كيلومتراً وعرضه (٤) أمتار وارتفاعه من (٤ إلى ٦ أمتار) ونفق آخر للسيل تحت مبنى الحرم أيضاً يبدأ من باب السلام ويلتقي بالنفق الرئيسي عند ميدان باب الملك .

نزع الملكيات وهدمها وتعويض أصحابها من أجل التوسعة

لما كان الحرم الشريف محاطاً بالمنازل والدور التي كانت تفصل بين الحرم الشريف والمسعى في أكثر من موقع على طول خط المسعى ، فقد تم نزع ملكية هذه الدور وهدمها من أجل التوسعة وتعويض أصحابها حيث بلغت جملة هذه التعويضات أكثر من (٣٥٠) مليون ريال سلمت لأصحابها . أما تكاليف المباني فقد بلغت حوالي (٢٥٠) مليون ريال بحيث يصبح الإجمالي (٦٠٠) مليون ريال حتى الآن كما أسلفنا .

مكتبة الحرم الشريف

لقد صدر الأمر السامي بإنشاء مكتبة خاصة للحرم الشريف تسمى مكتبة مكة المكرمة واختير لها المكان المناسب في صدر الميدان الواقع أمام باب الملك، وكان لا بد من نزع ملكية الدور والمباني التي ستقام على مساحتها المكتبة وتم نزع ملكية هذه العقارات وهدمها حيث بلغت قيمة العقارات والدور التي هدمت تسعة ملايين ريال. أما المباني فسوف تتكلف حوالي ستة ملايين ريال.

إنارة المسجد الحرام

سوف يضاء الحرم الشريف بأحدث الطرق الفنية ويقوم المكتب الهندسي بإعداد التصميمات الفنية للتمديدات ودراسة أشكال المعلقات وكذا الأجهزة اللازمة وسوف تتكلف هذه الإنارة من الداخل حوالي خمسة ملايين ريال.

الجسور

وتسهيلاً لحجاج بيت الله الحرام لدخول الحرم الشريف وخاصة لبعض الشوارع المرتفعة المحيطة للحرم فقد تم إنشاء جسر يتصل بالطابق الثاني من المسعى من ناحية المرور. ويجري الآن عمل جسور أخرى على شارع الشامية العالي من ناحية باب الزيادة ليتصل بالطابق الثاني مباشرة تخفيفاً وتسهيلاً للقاصدين للحرم الشريف وبعد فهذه نبذة سريعة عن مشروع صاحب الجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه لتوسعة وعمارة المسجد الحرام والذي تعهده جلالة الملك فيصل المعظم أطال الله في عمره حيث شرّفه الله بالقيام بهذا العمل الجليل العظيم، فكان حقاً عهد النهضة للمملكة العربية السعودية في عهد الفيصل المحبوب هذه النبذة تعبِّر عما تم حتى الآن من بناء الحرم الشريف الذي دخل في مراحله الأخيرة.

نسأل الله أن يتم هذا العمل المبارك على خير ما يتمناه المسلمون في أقرب وقت إن شاء الله والحمد لله رب العالمين. جمادى الثانية ١٣٩١هـ

الزيادة التاسعة : زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود

لما كثرت المواصلات وتيسرت سبل الانتقالات في جميع الأقطار والممالك، في زماننا هذا كثر قدوم الحجاج والزوار والواردين إلى الحرمين الشريفين، فضاق المسجد الحرام بمكة المشرفة وضاق المسجد النبوي بالمدينة المنورة حتى كان الحجاج يصلون في موسم الحج في خارج المسجدين المذكورين.

فلما رأى جلالة مليكنا المعظم الملك سعود بن عبد العزيز وفقه الله تعالى ضيق المسجد الحرام وازدحامه الشديد بالحجاج أمر حفظه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام بمكة توسعة عظيمة وتوسعة شوارع مكة وتجميلها بما يتفق ومكانتها لدى جميع العالم الإسلامي، وقد ابتدؤا في القيام بعمل التوسعة من أول سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية. وسيأتي بيان هذه التوسعة مفصلاً تفصيلاً وافياً في مبحث مستقل، بل سنجعله إن شاء الله تعالى في جزء خاص مجلد.

كما أن جلالته حفظه الله تعالى أمر بإتمام توسعة المسجد النبوي الذي أمر بتوسعته جلالة والده الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى رحمة واسعة، فتم هذا المسجد الشريف على أحسن ما يرام وقد عمل له احتفال كبير حضره كثير من عظماء المسلمين وعلمائهم وأعيانهم.

هذا ولقد نظم بعضهم أسماء من وسع المسجد الحرام بمكة فقال:

من زاد مسجد بيت الله جملتهم ... قالوا ثمانية إمامهم عمر

عثمان وابن الزبير والوليد كذا ... المنصور يتبعه المهدي قد ذكروا

وزاد معتضد باب الزيادة قل ... وزاد باب خليل الله مقتدر

ونحن نزيد على هذه الأبيات بيتاً رابعاً يتضمن توسعة الملك سعود المذكور وهو هذا:

سعود آل سعود صار تاسعهم ... جزاهم الله خيراً كلما ذكروا

ولقد تقدم في أول المبحث ما نظمناه في أسماء هؤلاء.

خلاصة ما تقدم من الزيادات في المسجد الحرام

تكلمنا فيما سبق عن الزيادات والتوسعات في المسجد الحرام بصورة مفصلة ، ثم رأينا من المستحسن جداً أن نأتي هنا بخلاصة ما تقدم عن الزيادات بدون تطويل لسرعة إدراكها وسهولة فهمها ، وهذه الخلاصة هي التي طلبتها منها وزارة المالية والاقتصاد الوطني في أول سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف وهذا نصها :

يرتبط المسجد الحرام بالكعبة المعظمة ارتباطاً وثيقاً منذ بنائها الأول فإن حد المسجد الحرام منذ صدر الإسلام وما قبله هو نفس المطاف المفروش اليوم بالحجر الرخام الأبيض المحيط بجوانب الكعبة الذي نسميه بالصحن ، هذه المساحة الصغيرة هي حد المطاف منذ بناء الكعبة لأول مرة ، وهي نفسها أيضاً حد المسجد الحرام منذ العصور الغابرة ، وإلى حده كانت منازل قريس فكانت منازلهم محيطة بالمسجد كأنها جداره وبينها فتحات توصل إليه وإلى الكعبة ، حيث لم يكن للمسجد جدار يحيط به ، ومن كرامة بيت الله الحرام وأسراره أنه لم يحدث قط منذ العصور الغابرة الأولى أي منذ بناء الكعبة ، أن ادعى أحد من خلق الله أن أرض الكعبة أو ما حولها من مساحة المطاف ملك له .

ثم إن المسجد الحرام ضاقت مساحته الصغيرة على الناس في صدر الإسلام لانتشار الإسلام فحصلت فيه عدة مرات من الزيادات والتوسعة من عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى يومنا هذا ، وها نحن نحصي تلك المرات كما يأتي :

١) زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (١٧) هجرية زاد فيه بعد أن انتهى من موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام في موضعه الموجود فيه اليوم بعد أن ذهب به سيل أم نهشل إلى أسفل مكة ، فاشترى أمير المؤمنين دوراً من تلك الدور التي تلاصق المسجد الحرام وهدمها وأدخل أرضها فيه ، وبذلك توسّع المسجد نوعاً ما ثم بنى عمر رضي الله عنه حائطاً على المسجد دون القامة وجعل فيه أبواباً ، فكانت المصابيح التي تضيء بالمسجد توضع على هذا الحائط فكان عمر بن الخطاب رضي الله

عنه أول من وسّع المسجد وزاد فيه ، وأول من أحاطه بالجدار ، وأول من فرشه بالحصباء .

٢) زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة (٢٦) هجرية فقد ضاق المسجد الحرام على المصلين ، فاشترى عثمان من الدور الملاصقة للمسجد وهدمها وأدخل أرضها فيه ، ولما لم يكن للمسجد رواق فإنه رضي الله عنه جعل له أروقة يستظل الناس تحتها ونعماً فعل .

٣) زيادة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما سنة (٦٥) هجرية فإنه في خلافته بعد أن انتهى من بناء الكعبة المشرفة عمّر المسجد وزاد فيه زيادة كبيرة بالنسبة للزيادتين السابقتين ، فاشترى دوراً وهدمها وأدخل أرضها في المسجد ، ومن ضمنها بعض دار الإمام الأزرقي صاحب تاريخ مكة ببضعة عشر ألف دينار إذ كانت لاصقة به .

فكانت مساحة المسجد الحرام مع زيادة ابن الزبير تسعة أجربة ، وقد سقف المسجد الحرام لكن لم يعلم هل سقفه كله أم بعضه .

٤) زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة (٩١هـ) فإنه أمر بتوسيع المسجد الحرام وعمارته عمارة متينة محكمة قوية ، وأحضر له أساطين الرخام من مصر والشام وجعل على رؤوسها صفائح الذهب وسقف المسجد بالساج المزخرف ، وجعل له شرفات . وجعل في حائطه الطيقان -العقود- ، وجعل في أعلى العقود الفسيفساء . فكانت زيادة الوليد من الجهة الشرقية .

٥) زيادة أبي جعفر المنصور سنة (١٣٧) هجرية في شهر محرم ، فإنه أمر عامله على مكة زياد بن عبدالله الحارثي بتوسيع المسجد الحرام فزاد في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة ومنها على خط مستقيم من الجهة الغربية إلى ما يلي باب إبراهيم على حد الحصوة كما ذكر المرحوم الشيخ حسين باسلامة . وقد زاد في المسجد كثيراً عما كان عليه من قبل وزخرفه بالذهب والفسيفساء وألبس حِجْر إسماعيل بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه . فكان أبو منصور أول من ألبسه بالرخام والمرمر . وقد استدام هذا العمل ثلاثة أعوام ، فقد بدئ فيه في السنة المذكورة وانتهى منه في ذي الحجة سنة (١٤٠) وفي هذه السنة حج أبو جعفر المنصور وبذل الأموال العظيمة رحمه الله .

٦) زيادة محمد المهدي العباسي سنة (١٦٠ وسنة ١٦٤ هجرية) أي وسع المسجد الحرام مرتين، وتوسعته وزيادته في تعادل جميع زيادات من تقدمه حتى صار بضعه الحالي إلى اليوم، ما عدا زيادة باب إبراهيم وزيادة باب الزيادة كما سيأتي تفصيله.

(ففي المرة الأولى) لما حج رحمه الله تعالى سنة (١٦٠هـ) وأتى بالأموال العظيمة التي قدرها المؤرخ بثلاثين ألف ألف درهم - أي بأكثر من ثلاثين مليوناً من الدنانير - استدعى قاضي مكة يومئذ محمد الأوقص المخزومي وأمره أن يشتري دوراً في أعلى المسجد الحرام ويهدمها ويدخل أرضها فيه فاشترى القاضي جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعى من الدور فما كانت من الأوقاف والصدقات "كالأربطة ويطلق عليها المصريون التكايا" اشترى للمستحقين بدلها دوراً في فجاج مكة، فكان مما أدخل فيه من الدور ما بقي من دار الأزرقي الذي كما ذكرناه من أن ابن الزبير اشترى بعضها وأدخله في المسجد الحرام حينما زاد فيه، وأدخل المهدي في المسجد كثيراً من الدور الشهيرة في الجانب الشرقي.

وكذلك اشترى كثيراً من الدور من الجانب الغربي وأدخلها في المسجد الحرام، وكذلك زاد من الجانب الشمالي، وكذلك من الجانب الجنوبي.

(وفي المرة الثانية) لما حج المهدي سنة (١٦٤) رأى أن المسجد الحرام لم يكن مربعاً تمام التربيع وأن الكعبة المشرفة لم تقع بوسطه، فجمع المهندسين ومهرة البنائين وأمرهم أن يربعوا المسجد بحيث تكون الكعبة بوسطه تماماً، فاعتذروا باستحالة هذا الأمر وصعوبة تنفيذه لأن الجهة الجنوبية - التي لم يتمكنوا من توسيع المسجد من ناحيتها بها مجرى سيل وادي إبراهيم وخلف المجرى دور ومنازل، ففي هدم هذه الدور وتحويل المجرى إلى أرضها قد لا يكون من السهل الميسور وربما لا يثبت أساس البناء فأصر أمير المؤمنين محمد المهدي رحمه الله وأحسن مثوبته على تنفيذ رغبته وقال لهم: لا بد من ذلك ولو أنفقت جميع بيوت الأموال وصمم على ذلك تصميماً قوياً فلما رأى المهندسون قوة عزم أمير المؤمنين نزلوا على إرادته وعملوا على تنفيذ أمره بهمة ونشاط وشمروا عن ساعد الجد بنية صادقة وإخلاص كبير فقاموا بتحويل مجرى سيل وادي إبراهيم عن موضعه بأن نصبوا الرماح على أسطحة الدور من أول الوادي إلى آخره وبينوا ما يهدم من البيوت والدور وموضع

المسعى ومحل السيل وعملوا كل ما من شأنه أن يربع المسجد وأن تكون الكعبة بوسطه ، فلما شاهد المهدي رحمه الله رسم ذلك واطمأن إلى تنفيذ رغبته على الوجه الأكمل توجه إلى العراق وخلف أموالاً عظيمة لشراء البيوت وقيام العمارة . وبذلك صارت هذه التوسعة أضعاف أضعاف ما تقدم من الزيادات ولا يزال المسجد الحرام على هذه التوسعة المربعة إلى اليوم وما حصل من الزيادتين الصغيرتين في المسجد بعده إنما هما خارجتان من التربيع كما سيأتي بيانه .

ومحمد المهدي هذا كما أمر بتوسعة المسجد الحرام أمر أيضاً بتجديد بناء أنصاب وأعلام الحرم .

٧) زيادة المعتضد با لله العباسي سنة (٢٨١) هجرية فإنه أمر بإدخال دار الندوة في المسجد الحرام وكانت محلها رحبة باب الزيادة وعمر بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ، وفتح لها اثني عشر باباً بستة عقود كبار وبينهم ستة صغار وبنى فيها منارة ، وقد فرغ من ذلك في ثلاث سنين .

٨) زيادة المقتدر با لله العباسي سنة (٣٠٦) هجرية فإنه أمر بتوسعة المسجد الحرام بإدخال رحبة باب إبراهيم وما يتبعه من الرواق وسمي بذلك باسم خياط كان يجلس عنده . وأيضاً جدد المقتدر با لله أنصاب الحرم .

هذه خلاصة أمر توسعة المسجد الحرام والزيادة فيه ثم لم يحدث منذ أكثر من ألف سنة أن عمل أحد في توسعته أو الزيادة فيه مطلقاً ، هذا ما كان من أمر التوسعة قديماً .

٩) توسعة جلالة الملك المعظم سعود بن عبدالعزيز آل سعود سنة (١٣٧٥) هجرية .

لما أراد الله عز شأنه أن يكمل لجلالة مليكنا المعظم "سعود" ملك المملكة العربية السعودية وأن يسعده سعادة أبدية وأن يقوي دعائم ملكه وّفقه لتوسيع المسجدين الحرامين "المسجد النبوي والمسجد الحرام" فإنه حفظه الله بعد أن أتم توسعة المسجد النبوي أمر فوراً بتوسعة المسجد الحرام توسعة تتفق ومكانته السامية في قلوب كافة المسلمين . وقد بدأ في تنفيذ رغبته الملكية من ابتداء عام (١٣٧٥) وأحضروا له كافة لوازم البناء والعمارة وقاموا بالهدم والبناء من العام المذكور بعد شراء المنازل والدور ، وأن هذه التوسعة ستكون من جميع جهات المسجد الحرام ليسع الآلاف المؤلفة من الحجيج الوافدين إلى بيت الله الحرام في كل سنة .

وهذه التوسعة هي أكبر وأعظم من جميع التوسعات التي حصلت في المسجد الحرام فيما مضى أي من (١٠٧٠) عاماً فإن توسعته تشمل على جميع الجهات من المسجد ليست بالأمر الهين ولا بالأمر العادي، بل أن هذه التوسعة ستتعدى نطاقها إلى توسعة شوارع مكة المشرفة، سواء الشوارع المتصلة بالمسجد الحرام، أم الممتدة إلى جهات البلدة، حتى تظهر مكة المكرمة "بلد الله الأمين" بالمظهر اللائق بها في هذا العصر الحديث، عصر التقدم في جميع نواحي الحياة.

وستكون أم القرى والمسجد الحرام إن شاء الله تعالى بعد سنوات قليلة عروسة البلاد الإسلامية، وكما يكون لهما من المنظر الظاهري يكون لهما من المخبر والتمسك بالدين ما تقر به عيون المؤمنين في جميع البقاع وما ذلك على الله بعزيز.

بيان مساحة الزيادات في المسجد الحرام

تقدم الكلام مفصلاً وملخصاً عن الزيادات والتوسعات في المسجد الحرام، وهنا رأينا أن نضع مساحة الزيادات بصورة مجملة في جدول خاص مع بيان مساحة كل زيادة بالمتر المربع وهو المسمى «بالمتر المسطح» وبالذراع الهاشمي المربع أيضاً، ولقد اشترك معنا في تحقيق مسائل المساحات بالمتر والذراع المهندس المصري الأستاذ حسين صيام وفقه الله تعالى وسدد خطاه.

مع العلم بأن مساحة المطاف الذي هو المسجد الحرام القديم من قبل الإسلام هي (٢٠٠٠) ألفان من الأمتار المربعة، وثمانية آلاف ذراع هاشمي مربع. والمطاف بيضاوي الشكل تقريباً. ولا يفوتنا أن ننبّه إلى أن معرفة ما زاده عمر بن الخطاب في المسجد وحده، أو ما زاده عثمان بن عفان فهي وحده رضي الله عنهما من المتعذر معرفته معرفة مضبوطة.

واعلم أن مقدار قياس الذراع الهاشمي هو: (٥٠) خمسون سنتيمتراً، وقياس الذراع المعماري هو (٧٥) خمسة وسبعون سنتيمتراً، وقياس الذراع الحديدي هو (٥٨) ثمانية وخمسون سنتيمتراً.

عدد	اسم من زاد في المسجد الحرام	السنة التي حصلت فيها الزيادة	بيان مواضع الزيادات	مقدار الزيادة بالمتر المربع	مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع
١	عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه	في سنة (١٧) من الهجرة	زاد رضي الله عنه في المسجد الحرام بعد انتهائه من وضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام في موضعه الحالي الموجود فيه اليوم، وذلك بأن اشترى الدور الملاصقة للمسجد الحرام من أصحابها ثم هدمها وأدخل أرضها في المسجد، ثم أدار حائطاً عليه طوله دون القامة وجعل في هذا الحائط أبواباً للدخول إلى المسجد.	(١٤٠٠) ألف وأربعمائة	(٥٦٠٠) خمسة آلاف وستمائة
٢	عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه	في سنة (٢٦) من الهجرة	زاد رضي الله تعالى عنه في المسجد الحرام وذلك بأن اشترى الدور الملاصقة له من أصحابها، ثم هدمها وأدخل أرضها فيه وجعل له أروقة يستظل الناس تحتها.	(١٤٧٥) ألف وأربعمائة وخمس وسبعين	(٥٩٠٠) خمسة آلاف وتسعمائة
٣	عبدالله بن الزبير رضي	في سنة (٦٥) من	زاد رضي الله تعالى عنه في المسجد الحرام	(٣٢٢٥) ثلاثة	(١٢٩٠٠) اثني عشرة

عدد	اسم من زاد في المسجد الحرام	السنة التي حصلت فيها الزيادة	بيان مواضع الزيادات	مقدار الزيادة بالمتر المربع	مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع
	الله تعالى عنهما	الهجرة	بعد انتهائه من بناء الكعبة المشرفة، وكانت زيادته كبيرة بالنسبة للزيادتين السابقتين فاشترى دوراً وهدمها وأدخل أرضها في المسجد ثم سقفه.	آلاف ومائتين وخمس وعشرين	ألفاً وتسعمائة
٤	الوليد بن عبدالملك بن مروان	في سنة (٩١) من الهجرة	زاد في المسجد الحرام من الجهة الشرقية، وأحضر له أساطين الرخام من مصر والشام، وجعل على رؤوسها صفائح الذهب وسقف المسجد بالساج المزخرف وجعل له شرفات.	(١٧٢٥) ألف وسبعمائة وخمس وعشرين	(٦٩٠٠) ستة آلاف وتسعمائة
٥	أبو جعفر المنصور العباسي	في سنة (١٣٧) من الهجرة	زاد في المسجد الحرام من الجهة الشامية التي تلي دار الندوة، كما زاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب الندوة، ومن الجهة الغربية إلى ما يلي باب إبراهيم.	(٤٩٥٠) أربعة آلاف وتسعمائة وخمسين	(١٩٨٠٠) تسعة عشر ألف وثمانمائة

عدد	اسم من زاد في المسجد الحرام	السنة التي حصلت فيها الزيادة	بيان مواضع الزيادات	مقدار الزيادة بالمتر المربع	مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع
٦	محمد المهدي العباسي	في سنة (١٦٠) من الهجرة	زاد في المسجد الحرام الزيادة الأولى فاشترى دوراً كثيرة وأدخلها في المسجد ، لكنه لم يكن متساوياً من جميع الجهات	(٨٣٨٠) ثمانية آلاف وثلاثمائة وثمانين	(٣٣٥٢٠) ثلاثة وثلاثين ألف وخمسمائة وعشرين
٦	محمد المهدي العباسي	في سنة (١٦٤) من الهجرة	حج المهدي فزاد فيه الزيادة الثانية إذ رأى أن المسجد لم يكن مربعاً تمام التربيع وأن الكعبة المشرفة لم تقع بوسطه ، فأصر أن يربعوا المسجد بحيث تكون الكعبة في وسطه تماماً ، وفي سبيل ذلك بذل الكثير من المال في شراء البيوت وقيام العمارة ، ولا يزال المسجد الحرام على هذه التوسعة المربعة إلى اليوم «أي إلى قبل التوسعة السعودية التي حصلت في زماننا».	(٦٥٦٠) ستة آلاف وخمسمائة وستين	(٢٦٢٤٠) ستة وعشرين ألف ومائتين وأربعين
٧	المعتضد بالله	في سنة (٢٨٠) من	زاد في المسجد الحرام فأمر بإدخال دار	(٢٥٠٠) ألفين	(١٠٠٠٠) عشرة

عدد	اسم من زاد في المسجد الحرام	السنة التي حصلت فيها الزيادة	بيان مواضع الزيادات	مقدار الزيادة بالمتر المربع	مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع
	العباسي	الهجرة	الندوة التي محلها باب الزيادة ورحبتها فيه ، وعمره بأساطين وطاقات وجعل له أروقة وسقفه بالساج المزخرف وفتح اثني عشر باباً للمسجد .	وخمسمائة	آلاف
٨	المقتدر بالله العباسي	في سنة (٣٠٦) من الهجرة	زاد في المسجد الحرام فأمر بإدخال رحبة باب إبراهيم وما يتبعه من الرواق ، وهذه آخر توسعة للمسجد حتى سنة (١٣٧٥) هجرية من زماننا هذا .	(٩٨٠) تسعمائة وثمانين	(٣٩٢٠) ثلاثة آلاف وتسعمائة وعشرين
٩	الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود	في سنة (١٣٧٥) من الهجرة	أمر جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز بتوسيع المسجد الحرام والزيادة فيه من جميع جهاته ، ليسع الآلاف المؤلفة من الحجيج الوافدين إلى بيت الله في كل عام ، وكان ذلك بعد الانتهاء من توسعة المسجد النبوي في عصرنا أيضاً . فهذه		

عدد	اسم من زاد في المسجد الحرام	السنة التي حصلت فيها الزيادة	بيان مواضع الزيادات	مقدار الزيادة بالمتر المربع	مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع
			التوسعة في المسجد الحرام بلا شك هي أكبر وأعظم من جميع التوسعات السابقة فجزاه الله تعالى خير الجزاء وزاده توفيقاً وتأييداً، وأثاب جميع من زاد في المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو أجرى عمارة وإصلاحاً فيهما ثواباً جزيلاً إنه تعالى واسع الفضل والإحسان وهو الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً .		

وهنا ينبغي لنا أن نذكر تراجم من زاد في المسجد الحرام، وقد تقدم ذكر بعضهم في المحلات المناسبة، وهنا نضع تراجم من لم يتقدم ذكره، وإليك بيان ذلك .

ترجمة الوليد بن عبد الملك

جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه : بويع للوليد، بالخلافة في يوم الخميس منتصف شوال سنة (٨٦) ست وثمانين وتوفي في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ودفن بدمشق وتولى دفنه عمر بن عبد العزيز، وكان نقش خاتمه : يا وليد إنك ميت ومحاسب، وفي المختصر الجامع حج الوليد بالناس سنة (٨٨) وسنة

(٩١) وسنة (٩٤)، وفي دول الإسلام كان الوليد يعطي أكياس الدراهم لتقسم في الصالحين، وكان يختم القرآن في ثلاث، قال إبراهيم بن عبلة: كان يختم في رمضان سبع عشرة مرة، قال الوليد: لولا أن الله تعالى ذكر اللواطة في كتابه ما ظننت أحداً يفعله. وكان الوليد ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، وكان كثير النكاح والطلاق يقال أنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة، وفي عهده حصلت فتوحات عظيمة فكان في كل وقت يصل إليه البريد بخبر فتح بعد فتح ويحمل إليه خمس المغانم وامتلأت خزائنه وعظمت هيبته، حتى أن عماله كانوا يكتبون إليه أن بيوت المال قد ضاقت من مال الخمس فيجيبهم أن ابنوا بها المساجد، وفي عهده تقدم فن العمارات والبنايات فكان الناس إذا التقوا تساءلوا عن البناء والصناع، وهذه قبة صخرة بيت المقدس فإن ما فيها من النقوش والفسيفساء والقيشاني يدهش عقول الفنانين وأرباب الصنعة، كل ذلك من عهد الوليد وأبيه عبد الملك بن مروان. ثم من بعدهما حصل فيها بعض تعميرات وإصلاحات.

قال صاحب تاريخ الخميس نقلاً عن كتاب دول الإسلام: والوليد هو الذي بنى جامع دمشق وزخرفه وكان قبله نصفه كنيسة للنصارى والنصف الآخر الذي فيه محراب الصحابة للمسلمين، فأرضى الوليد النصارى بعدّة كنائس صالحهم عليها فرضوا ثم هدمه سوى حيطانه، وأنشأ فيه النسر والقناطر وحلاها بالذهب وأستار الحرير وبقي العمل فيه تسع سنين حتى قيل كان يعمل فيه اثنا عشر ألف مرخم وغرم عليه من الدنانير المصرية زنة قنطار وأربعة وأربعين قنطار بالدمشقي حتى صيره نزهة الدنيا وأمر نائبه على المدينة ابن عمه عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبي ﷺ وتوسيعه وزخرفته ففعل. وهو أول من اتخذ المارستان للمرضى ودار الضيافة وأقام عمر بن عبد العزيز والي المدينة سبع سنين وخمسة أشهر، وشيّد مسجد النبي ﷺ، وبنى الأميال في الطرقات، وأنفذ إلى خالد بن عبدالله القسري عامله على مكة ثلاثين ألف مثقال ذهباً فصفح باب الكعبة والميزاب والأساطين. انتهى من تاريخ الخميس.

ويقال أن الحلية التي حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هي ما كانت في مائدة نبي الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام من ذهب وفضة، وكانت قد احتملت من طليطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوي فتفسخ تحتها، وكانت بها أطواق من ياقوت وزبرجد اهـ.

ونحن لم نبحث عن قصة مائدة سليمان عليه السلام ، فا لله تعالى أعلم بذلك .

ثم قال : وفي حياة الحيوان قال الحافظ ابن عساكر : كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى المساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمخدومين وقال : لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً وكان يبر حملة القرآن ويقضي عنهم ديونهم وبنى الجامع الأموي وهدم كنيسة ما ريوحنا وزادها فيه وذلك في القعدة سنة ست وثمانين وتوفي الوليد و لم يتم بناؤه فأتمه سليمان أخوه وكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل وما زالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، فجعلها في بيت المال واتخذ عوضها حفراً وحديداً . وبنى الوليد قبة الصخرة ببيت المقدس ، وبنى المسجد النبوي ووسّعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه . وله آثار حسنة كثيرة جداً ومع ذلك روي أن عمر بن عبد العزيز قال : لما ألحدتُ الوليد أو تكفن في أكفانه وغلّت يداه إلى عنقه ، نسأل ا لله العفو والعافية من الدنيا والآخرة . فتحت في أيام خلافة الوليد الفتوحات العظام ، مثل : الهند والسند والأندلس وغير ذلك . انتهى من تاريخ الخميس .

وقال أيضاً بعد هذا الكلام ما نصه : وقوله : أن الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر ، وإنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان في أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفا من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة ، وكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير . وعن ابن خلكان وغيره لعلها تشعثت فهدمها الوليد وبناها وا لله تعالى أعلم اهـ .

انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس .

وفي الأزرقي : فلما كان في خلافة الوليد بن عبد الملك بعث إلى وإليه على مكة خالد بن عبدا لله القسري بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابي الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التي في بطنها وعلى الأركان في جوفها قال أبو الوليد : قال جدي : فكلما كان على الميزاب وعلى الأركان في جوفها من الذهب فهو من عمل الوليد بن عبد الملك وهو أول من ذهَّب البيت في الإسلام اهـ .

ثم قال بعد بضعة أسطر : قال ابن جريج : وعمل الوليد بن عبد الملك الرخام الأحمر والأخضر والأبيض الذي في بطنها مؤزراً به جدرانها وفرشها بالرخام

وأرسل به من الشام وجعل الجزعة التي تلقى من دخل الكعبة من بين يدي من قام يتوخي مصلى رسول ا لله ﷺ في موضعها وجعل عليها طوقاً من ذهب فجميع ما في الكعبة من الرخام فهو من عمل الوليد بن عبد الملك وهو أول من فرشها بالرخام وأزّر به جدرانها وهو أول من زخرف المساجد . انتهى من تاريخ الأزرقي .

ترجمة المعتضد بالله

جاء في تاريخ الخميس ما ملخصه :

المعتضد با لله أبو العباس أحمد بن ولي العهد الموفق با لله طلحة ابن المتوكل على ا لله جعفر بن المعتصم با لله محمد بن الرشيد هرون الهاشمي العباسي ، مولده في سنة (٢٤٢) اثنتين وأربعين ومائتين ، كان شجاعاً مقداماً مُهاباً ذا سطوة وحزم ورأي وجبروت .

وفي سنة (٢٨٦) ظهرت القرامطة بالبحرين فقاتلهم المعتضد .

مات المعتضد يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة (٢٨٩) تسع وثمانين ومائتين ، قالوا : ومن عجيب ما ذكر عنه المسعودي إن صح قال : شكّوا في موت المعتضد فتقدم الطبيب فجس نبضه ففتح عينيه ورفس الطبيب برجله فدحاه أذرعاً ومات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته . انتهى ملخصاً من تاريخ الخميس .

جاء عنه في كتاب «محاضرات الخضري» ما نصه : هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة « لم يذكر الخضري السنة » وكان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولي العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة (٢٧٩) تسع وسبعين ومائتين وبويع له بالخلافة من اليوم الذي توفي فيه المعتمد على ا لله لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة (٢٧٩) تسع وسبعين ومائتين (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩) تسع وثمانين ومائتين (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام .

قال الخضري : كان المعتضد قوي القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر في الحقيقة جلّ أن يصلح لأن وراءهم عدواً لا ينام يريد إفساد ملكهم بما أمكنه ولو أدّى ذلك إلى إفساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكاً للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله . وله إصلاحات داخلية جليلة منها : أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث . وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء ومنها اهتمامه بكري دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخراً كان يمنع الماء .

قال : ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدي ، ولقد بيّن هذا التقويم بالتفصيل الأستاذ الخضري في محاضراته بصحيفة ٤٤٩ فمن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع الكتاب المذكور .

والمعتضد هو الذي ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخرجت بعد أن كانت تضارع بغداد ، بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ، ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد يعمر بها ، فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سرمرّا ... وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها ... كأنها آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

انتهى من محاضرات الخضري .

سياسة المعتضد بالله العباسي في الحكم

جاء في الجزء الثالث من كتاب "المطالعة الوافية" عن ذلك ما يأتي : اشتهر الخليفة العباسي المعتضد بالحزم والجرأة ، فكان يصطنع الشدة في السياسة ويؤثرها على الرفق واللين . وبلغ من حرصه عليها وولوعه بها أنه كان لا يتركها في ظاهر الأمر إذا بدا له أن يتركها في الحقيقة والواقع . لذلك استطاع أن يحفظ للدولة بعض سطوتها ويمسك عليها شيئاً من هيبة السلطان . برغم عوامل الضعف والشر التي كانت تعيث فيها وتوهن من قوتها .

وفي القصة التالية يعرض نديمه عبدالله بن حمدون صورة لأسلوبه في حفظ الأمن وتأديب العابثين به . قال : كان المعتضد يسير بعسكره في بعض النواحي وأنا معه . فصاح رجل في قثاء . فاستدعاه وسأله عن سبب صياحه . فقال : أخذ بعض الجيش شيئاً . فقال : اطلبوهم . فجاءوا بثلاثة أنفس . فسأل الخليفة : أهؤلاء الذين أخذوا القثاء؟ فقال الرجل : نعم فقيدهم في الحال وأمر بحبسهم . فلما كان من الغد ضرب أعناقهم ، فأنكر الناس ذلك وتحدثوا به ، وحزنت قلبهم .

ومضت على ذلك مدة طويلة . فجلست أحادثه ليلة ، فقال لي : يا عبدالله ، هل تعتب الناس علي شيئاً؟ عرفني حتى أزيله . فقلت : كلا يا أمير المؤمنين . فقال : أقسمت عليك بحياتي إلا صدقتني . قلت : يا أمير المؤمنين أقول وأنا آمن؟ قال : نعم . قلت : إسراعك إلى سفك الدماء . فقال : والله ما هرقت دماً قط منذ ولّيت هذا الأمر إلا بحقه .

قال : فأمسكت إمساك من ينكر هذا الكلام . فقال : بحياتي إلا قلت؟ فقلت : يتحدثون عن قتلك أحمد ابن الطيب ، وكان خادمك ، ولم تكن له جناية ظاهرة . فقال : ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد . فقلت له : يا هذا أنا ابن عم صاحب هذه الشريعة . وأنا الآن منتصب منصبه فكيف ألحد؟ وكان يقول لي : إن الخلفاء لا تغضب . وإذا غضبت لم تر حسن . فلم أستحسن إطلاقه .

فسكتّ سكوت من يريد الكلام . فقال : في وجهك كلام . فقلت : الناس ينقمون عليك أمر الرجال الثلاثة الذين قتلتهم للقثاء . فقال : والله ما كان أولئك المقتولون هم الذين أخذوا القثاء . وإنما كانوا لصوصاً حملوا من موضع كذا وكذا . ووافق ذلك أمر أصحاب القثاء فأردت أن أهول على الجيش بأن من عاث منهم وأفسد في مثل هذا القدر . كانت هذه عقوبتي له . ليكفوا عما فوقه . ولو أردت قتلهم لقتلتهم في الحال والوقت وإنما حبستهم . وأمرت بإخراج اللصوص من غد مغطين الوجوه ليقال أنهم أصحاب القثاء .

فقلت : فكيف تعلم العامة . قال : بإخراجي الجنود الذين أخذوا القثاء أحياء . وإطلاقي لهم في هذه الساعة . ثم قال : هاتوا الجنود . فجاءوا بهم وقد تغيرت حالهم . فقال لهم : ما قصتكم؟ فقصوا عليه قصة القثاء . فاستتابهم عن فعل مثل ذلك وأطلقهم فانتشرت الحكاية فزالت التهمة . انتهى من كتاب المطالعة الوافية .

ومن المصادفات الحسنة التاريخية ما عثرنا في كتاب محاضرات الخضري بصحيفة ٢٣٨ على بيان دقيق للمصروفات اليومية في قصر أمير المؤمنين المعتضد با لله ، هذا هو الكشف كما في الكتاب المذكور :

دينار	وجوه الصرف وأنواع النفقات
١٠٠٠	أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم .
١٠٠٠	أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحجاب وخلفاء الحجاب.
١٥٠٠	أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية .
٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين .
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين .
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار .
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجري مجراهم.
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان المماليك .
٢٥٣ ١/٢	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزل الحرم ومخابز السودان .
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك .
٤	أرزاق السقائين بالقرب .
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك .
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة الخ .
١٠٠	أرزاق الحرم .
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة .
٦٦ ٢/٣	ما يصرف من ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل .
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم .
٦ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت .
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج .
٤٤ ١/٢	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين .

دينار	وجوه الصرف وأنواع النفقات
١/٣ ٢٣	أرزاق المتطببين مع أثمان الأدوية .
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح .
٢/٣ ٦١	أرزاق الملاحين .
٤	ثمن نفط ومشاقة .
١٥	صدقة يومية .
١/٣ ٣٣	جاري أولاد المتوكل .
٢/٣ ١٦	جاري ولد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء .
٢/٣ ١٦	جاري ولد الناصر .
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام .
١/٣ ٣٣	جاري جمهور بني هاشم .
١/٣ ٣٣	رزق الوزير وابنه .
٢/٣ ١٥٦	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد .
٢/٣ ١٦	رزق القاضي وخليفته وعشرة فقهاء .
١/٣ ٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام .
٥٠	نفقات السجون .
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين .
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية .
١/٣ ٦٩٤٦	المجموع

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالي سبعة آلاف دينار وفي الشهر (٢١٠٠٠٠) وفي السنة (٢٥٢٠٠٠٠) دينار وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة في عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة في ذلك فإن كثيراً من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون وما بقي لبني العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات في الجزيرة وبلاد العراق وفارس .

وصف قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي

جاء في الجزء الثالث من كتاب «المطالعة الوافية» نقلاً عن الخطيب البغدادي وهو عن كتاب «رسل الملوك لابن الفراء» بتصرف يسير ما يأتي :

أرسل ملك الروم سفيره في وفد إلى الخليفة «المقتدر العباسي» فلما وافى الوفد كان الخليفة مشغولاً بتجميل قصره ، وإدخال ضروب من الزينة والإصلاح عليه . فاستضافهم في أحد قصوره البعيدة حتى يفرغ فلما فرغ استدعاهم بعد أن أمر بوقوف الجنود على جانبي الطريق . من القصر إلى دار الخلافة وسار الوفد بين جند لا يقل عن مائة وستين ألف فارس وراجل فوق طريق مفروش بالبسط النفيسة والأنماط الغالية ونوافذه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالنظارة ودجلة يموج بأنواع السفن والقوارب المزينة بأفضل الزينة إلى دار الخلافة وقد امتلأت الدار بالفرش الجميلة وزينت بالمعدات والآلات الجليلة النادرة . ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على حساب طبقاتهم صفين بالثياب الحسنة تحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وقد أظهروا العدد الكثيرة والأسلحة المختلفة وبعدهم الغلمان بالبزة والسيوف والمناطق المحلاة ودخل السفير فرأى الحاجب فظنه الخليفة . وداخله من أجله هيبة وروعة حتى علم أنه الحاجب فهدأ ثم دخل بعد ذلك دار أحد الوزراء فرأى أكثر مما رآه عند الحاجب فلم يشك أنه الخليفة فقيل له أنه الوزير .

ثم أجلس بين دجلة والبساتين في مجلس حسن إلى أن دعي إلى حضرة الخليفة المقتدر وهو جالس في قصر التاج بعد أن لبس الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب على سرير من أبنوس قد فرش بالدبيقي المذهب وعلى رأسه الطويلة ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غلب ضوؤها على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمنة واثنان يسرة . فقبل الرسول وترجمانه الأرض بين يدي الخليفة ووقفا حيث استوقفهما وأديا إليه رسالة ملكهما فاستجاب مما فيها لما رأى أنه الخير ثم خرجا من حضرته بعد أن رسم لهما بالطواف في دار الخلافة وكانت مملوءة من الخدم والغلمان السود والحجاب وعدد الخدم سبعة آلاف غلام أسود وفتحت له الخزائن والأدوات فيها

مرتبة كما يفعل بخزائن العروس وعرضت له جواهر الخلافة وكانت منظمة على درج مغشى بالديباج الأسود .

ثم دخل دار الشجرة فكثر تعجبه منها إذ رآها شجرة من الفضة تزن خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر صفيراً عجيباً كلما جرت حولها حركات خاصة وكان تعجب الرسول منها أوفى من عجبه من كل ما شاهده .

ثم رأى ما علقّ في قصور الخليفة من الستور وكلها من الديباج المموه بالطرز المذهبة المصورة بالحامات والفيلة والخيل والجمال والسباع . وكان عدد الستور الصنعانية والأرمينية والواسطية والسواذج النمقوشة والدبيقية ثمانية وثلاثين ألف ستر .

وفي جانب الدار يمنة تماثيل خمسة عشر فارساً فوق خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره وفي أيديهم الرماح .

ثم دخل القصر المعروف بالفردوس وهو قصر مملوء بالسلاح من الخوذ والدروع والقسي والجعاب .

وكان الخدم يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة المختلفة يطوف مع السفير وأتباعه رئيس الثغور الشامية بسيفه ومنطقته وقبائه الأسود إذ كان اللون الأسود هو لون الملبس الرسمي في الدولة العباسية ويرتديه السفراء والرسل إذا أوفدوا برسالة أو سفروا بين الملوك . انتهى من كتاب المطالعة الوافية .

ترجمة المقتدر بالله

نذكر ترجمة المقتدر با لله بمناسبة ما زاده في المسجد الحرام كما تقدم بيان ذلك ، جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه :

هو المقتدر با لله أبو الفضل جعفر بن ولي العهد الموفق طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي ، بويع بالخلافة بعد موت أخيه المكتفي با لله وهو غير بالغ وعمره أربع عشرة سنة ، أي في سنة (٢٩٥) خمس وتسعين ومائتين و لم يلِ أمر الأمة صبي قبله ، وضعف دست الخلافة في أيامه فلم يتم أمره لصغر سنه وتغلب عليه الجند ، واتفق جماعة من الأعيان على خلعه من

الخلافة وتولية عبدالله بن المعتز ، وكلموا ابن المعتز في ذلك فأجابهم بشرط أن لا يكون فيها دم ، فإنه كان عالماً فاضلاً ديناً أديباً شاعراً فأجابوه لذلك وخلعوا المقتدر من الخلافة وهو مقيم بالحريم داخل دار الخلافة .

وكانت خلافة المقتدر هذه المرة دون السنة ، وفي سيرة مغلطاي ولي أربعة أشهر ثم عزل ثم أعيد كما سيأتي .

ثم بويع بالخلافة عبدالله بن المعتز ، فأمر ابن المعتز أن ينصرف المقتدر من دار الخلافة إلى دار محمد بن طاهر كي ينتقل ابن المعتز إلى دار الخلافة ، وفي هذه الأثناء قاتل أعوان المقتدر أنصار ابن المعتز وأوقع الله في قلوب هؤلاء الرعب .

فانتصر المقتدر وأعوانه عليهم ، واستفحل أمره وأمسك جماعة ابن المعتز ومن قام بنصرته فحبسهم وقتل غالبهم ، ثم استقام أمر المقتدر وأعيد للخلافة للمرة الثانية ، ولم ينتقل المقتدر من دار الخلافة ولم يغير لقبه وظفر بأعدائه واحداً بعد واحد ، واستمر في الخلافة إلى سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة ، ثم خلع ثانياً بأخيه القاهر بالله أبي منصور محمد .

كان القاهر بالله المذكور محبوساً ، فوصل في الثلث الأخير من ليلة الخامس عشر من المحرم من السنة المذكورة أي سنة (٣١٧) فبايعه يونس والأمراء ولقبوه بالقاهر بالله ، ففي يوم السبت أشهد المقتدر على نفسه بالخلع ، وفي يوم الأحد جلس القاهر وكتب الوزير عنه إلى الأقطار ، وفي يوم الاثنين امتلأت دهاليز الدار بالعسكر يطلبون رزق البيعة ورزق سنة أيضاً ، ثم ارتفعت أصوات الرجالة وهجموا على الحاجب نازل وهو بدار الخلافة فقتلوه وصاحوا يا مقتدر يا منصور ، فهرب من دار الخلافة ، ثم أخرج المقتدر وحضر إلى دار الخلافة وجلس مجلسه ، فأتوا بأخيه محمد القاهر المذكور وجلس بين يدي المقتدر فاستدناه المقتدر وقبل جبينه والقاهر يبكي ويقول : الله الله في نفسي يا أمير المؤمنين . فقال له المقتدر والله لا جرى عليك مني سوءاً أبداً ، فطب نفساً . وأقام القاهر عند أخيه المقتدر مبجلاً محترماً إلى أن أعيد إلى الخلافة بعد موت أخيه المقتدر .

فلما تولى المقتدر بالله الخلافة للمرة الثالثة ، فتح الخزائن وبذل الأموال للجند ، ثم في سنة (٣١٧) سيّر المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمي فوافاهم يوم التروية عدوّ الله أبو طاهر القرمطي فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً وهم محرمون وفي أزقة مكة وقتل أمير مكة «ابن محارب» وعرّى البيت الحرام وقلع

باب الكعبة واقتلع الحجر الأسود وأخذه إلى هَجَر وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقي في المسجد الحرام وحيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلاة عليهم، ويقال أن القتلى بمكة وبظاهرها في هذه الوقعة كان أكثر من ثلاثين ألف إنسان وسُبي من النساء والصبيان مثل ذلك وكانت مدة إقامته بمكة ستة أيام ولم يحج أحد ولا وقف بالناس أمام سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان بين المقتدر والقرامطة حرب مستمرة، وبعد عود القرمطي إلى بلاده «هَجَر» رماه الله تعالى في جسده وطال عذابه وتقطعت أوصاله وتناثر الدود من لحمه إلى أن مات، وقد تقدم الكلام عن القرامطة.

قال الصولي: كان المقتدر يفرق كل يوم عرفة من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألف رأس، ويقال أنه أتلف من الذهب ثمانية ألف ألف دينار في أيامه، قال الذهبي: إنه كان مسرفاً مبذراً للمال ناقص الرأي أعطى جارية له الدرة اليتيمة وزنها ثلاثة مثاقيل وما كانت تقوم.

وقد قتل المقتدر يوم الأربعاء السابع والعشرين من شوال سنة (٣٢٠) عشرين وثلاثمائة، فكانت خلافته أولاً وثانياً وثالثاً خمساً وعشرين سنة إلا أياماً، وعاش نحو ثلاثين سنة، وكان سخياً مبذراً يصرف في كل سنة للحج أكثر من ثلاثمائة ألف دينار، وكان في داره أحد عشر ألف خصيان غير الروم والصقالبة والسود، وبعد قتل المقتدر تولى الخلافة ثانياً أخوه محمد القاهر المذكور.

انتهى من تاريخ الخميس باختصار.

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن ابن فهد ما يأتي: في حوادث سنة ست وثلاثمائة وفي أيام المقتدر بالله وهي من سنة خمس وتسعين ومائتين إلى أواخر سنة عشرين وثلاثمائة، في وزارة حامد بن العباس رتب علي بن عيسى بن الجراح لأن يحمل إلى الحرمين الشريفين وإلى المجاورين بهما وإلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار وخمسة آلاف دينار وأربعمائة وستة وعشرين ديناراً هكذا قال الإمام السروجي في باب زكاة المال من كتاب الغاية شرح البداية وقال سبط ابن الجوزي أبو المحاسن يوسف: كان المقتدر يصرف في كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلثمائة ألف دينار ونيف وخمسة عشر ألف دينار. انتهى.

ترجمة أبي جعفر المنصور

كان للمنصور عدة أولاد كما سيأتي بيانهم إن شاء الله تعالى منهم جعفر الأكبر الذي مات قبل وفاة المنصور فلذلك يكنى المنصور بأبي جعفر .

جاء من محاضرات الخضري عنه ما يأتي :

هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي وأمه أم ولد أسمها سلامة ولد بالحميمة سنة (١٠١) .

ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان في من معه . ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة . وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر ، وكان إذ ذاك أميراً على الحج . ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول بإحدى المنازل عائداً بعد انتهاء الحج .

وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة (١٥٨) ثمان وخمسين ومائة هجرية (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) ميلادية فكانت خلافته (٢٢) سنة هلالية إلا ستة أيام . انتهى من محاضرات الخضري .

تقدير المنصور للعلماء العاملين والوعاظ

جاء في الجزء الثالث من كتاب «المطالعة الوافية» عن ذلك ما يأتي : روى إسحاق بن الفضل الهاشمي قال : إني لعلى باب المنصور يوماً وإلى جنبي عمارة بن حمزة ، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل عن حماره ثم دفع البساط برجله وجلس دونه . فالتفت إلى عمارة فقال : لا تزال بصرتكم ترمينا منها بأحمق . فما فصل كلامه من فيه حتى خرج الربيع وهو ينادي . أبو عثمان عمرو بن عبيد .

قال : فوالله ما دل على نفسه حتى أرشد إليه فاتكأه يده ثم قال له : أجب أمير المؤمنين جعلت فداك . فمر متوكئاً . فالتفت إلى عمارة فقلت . إن الرجل الذي استحمقته قد أدخل وتركنا . فقال : كثيراً ما يكون ذلك . فأطال اللبث . ثم

خرج الربيع وهو متوكئ عليه والربيع يقول : يا غلام هات حمار أبي عثمان . فما برح حتى أتى بالحمار فأقره على سرجه وضم إليه نشر ثوبه واستودعه ا لله .

فأقبل عمارة على الربيع فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل ما لو فعلتموه بولي عهدكهم لقضيتم ذمامه ، قال : فما غاب عنك مما فعل به أكثر وأعجب . قال عمارة : فإن اتسع لك الحديث فحدثنا . فقال الربيع : ما هو إلا أن سمع الخليفة بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبوداً ثم انتقل إليه والمهدي معه عليه سواده وسيفه ثم أذن له .

فلما دخل عليه سلم بالخلافة . فرد عليه وما زال يدنيه حتى اتكأه فخذه وتحفى به ثم سأله عن نفسه وعن عياله يسميهم رجلاً رجلاً وامرأة امرأة . ثم قال : يا أبا عثمان عظنا .

فقال : أعوذ با لله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ﴿والفجر ۞ وليال عشر ۞ والشفع والوتر ۞ والليل إذا يسر﴾ ومر فيها إلى آخرها وقال : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد . قال : فبكى المنصور بكاءاً شديداً ، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة .

ثم قال : زدني . فقال : إن ا لله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها . واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك . ثم أفضى إليك . وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك . واني أحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى أشد من بكائه الأول حتى رجف جنباه ، فقال له سليمان بن مجالد : رفقاً بأمير المؤمنين فقد أتعبته منذ اليوم . فرفع عمرو رأسه وقال له : من أنت؟ فقال أبو جعفر : أوَ لا تعرفه يا أبا عثمان ؟ قال : لا . ولا أبالي ألا أعرفه . فقال له : هذا أخوك سليمان بن مجالد . فقال : هذا أخو الشيطان . ويلك يا ابن مجالد . خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين . ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً لشهواتهم . فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب فاتق ا لله . فإنك ميت وحدك . ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك . ولن يغني عليك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال له المنصور : يا أبا عثمان أعني بأصحابك استعن بهم . فقال له : أظهر الحق يتبعك أهله . قال : بلغني أن محمد بن عبدا لله بن الحسن كتب إليك كتاباً . قال : قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه . قال : فبماذا أجبته ، قال : أو لست

قد عرفت رأبي في السيف أيام كنت تختلف إلينا وإني لا أراه . قال : أجل . ولكن تحلف لي ليطمئن قلبي . قال : لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية . قال له : أنت الصادق البار . وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك . فقال : لا حاجة لي فيها . فقال المنصور : وا لله لتأخذنها . قال : وا لله لا أخذتها . فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف . فترك المهدي وأقبل على المنصور فقال : من هذا الفتى؟ فقال : هذا ابني محمد . وهو المهدي ، وهو ولي العهد . فقال : وا لله لقد سميته اسماً ما استحقه بعمل . وألبسته لبوساً ما هو من لبوس الأبرار . ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه .

قال المنصور : يا أبا عثمان ، هل من حاجة . قال : نعم . قال : ما هي ؟ قال : ألا تبعث إلي حتى آتيك . قال : إذاً لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني ثم ودّعه . ونهض فلما ولّى اتبعه بصره . وأنسأ يقول :

كلكم طالب صيد كلكم يمشي رويد

غير عمرو بن عبيد

انتهى من كتاب المطالعة الوافية .

وجاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه :

هو أبو جعفر المنصور عبدا لله بن محمد بن علي بن عبدا لله بن عباس القرشي الهاشمي ثاني خلفاء بني العباس ، مولده في سنة (٩٥) خمس وتسعين ، وهو أسنّ من أخيه السفاح ، وكان المنصور في صغره يلقب بمدرك التراب وبالطويل أيضاً ، ثم لقب في خلافته بأبي الدوانيق لبخله ولمحاسبة العمّال والصنّاع على الدوانيق والحبّات ، وكان مع هذا ربما يعطي العطاء العظيم .

كان أسمر نحيفاً طويلاً مهاباً ، خفيف العارضين ، معرّق الوجه ، رحب اللحية ، يخضب بالسواد كأن عينيه لسانان ناطقان . تخالطه أبهة الملوك بزي النساك تقبله القلوب وتتبعه العيون . وكان أفحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً ، وجمّاعاً للمال ، تاركاً للهو والطرب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس . وكان يرجع إلى عدل وديانة وله حظ من صلاة وتديّن وكان فصيحاً بليغاً خليقاً للإمارة إلا أنه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه بويع بالخلافة بعد أخيه السفاح أتته البيعة وهو بمكة بعهد السفاح لأنه كان حج في تلك السنة ومكث في الخلافة إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً

كذا في سيرة مُغُلْطاي وفيها حج أبو مسلم الخراساني ووقع منه في حق المنصور أمور نقمها عليه وقتله لما ولي الخلافة .

والمنصور هذا هو الذي بنى بغداد وقتل أبا مسلم الخراساني واسمه عبدالرحمن وضرب أبا حنيفة على أن يلي القضاء فامتنع ومات في حبسه كذا في سيرة مغلطاي وهو والد جميع الخلفاء العباسيين .

وفي سنة (١٤١) إحدى وأربعين ومائة أمر المنصور بعمارة جدار حجر إسماعيل فعملوه بالرخام وكان قبل ذلك مبنياً بحجارة بادية ليس عليها رخام كذا في شفاء الغرام .

وقال خليفة والهيثم وغيرهما : عاش أربعاً وستين سنة . قال الصولي : دفن ما بين الحجون وبئر ميمون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة . وفي حياة الحيوان : مات ببئر ميمون على أميال من مكة وهو محرم بالحج وكذا في سيرة مغلطاي وهو ابن ثلاث وستين سنة وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة وثلاثة أشهر . قال الذهبي : وسار المنصور للحج فأدركه الموت وهو محرم بظاهر مكة وله ثلاث وستون سنة وتخلف بعده ابنه المهدي . انتهى من تاريخ الخميس .

اقتصاد المنصور

جاء في محاضرات الخضري ما نصه : عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاداً . ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف .

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠) درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل .

وعلى الجملة فلم يقم في بني العباس مثل المنصور في ثيابه وعلو همته وشدته على المريب واهتمامة بأمر العامة وجده في بلاطه . وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة . وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع أمره

إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال في الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة . انتهى من المحاضرات .

اهتمام المنصور بعماله

وجاء في محاضرات الخضري أيضاً ما نصه :

قال المنصور : ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم . قيل له : يا أمير المؤمنين من هم؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة: آه ، قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة . انتهى منها .

وجاء فيها أيضاً : وولى رجلاً من العرب حضرموت ، فكتب إليه والي البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها . فعزله وكتب إليه: (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية من الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً) .

وظفر مرة برجل من كبراء بني أمية فقال : إني سائلك عن أشياء فاصدقني ولك الأمان . قال : نعم . فقال المنصور : من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال : من تضييع الأخبار . قال : فأي الأموال وجدوها أنفع ؟ قال : الجوهر . قال : فعند من وجدوا الوفاء؟ قال : عند مواليهم . فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه . انتهى منها .

وجاء فيها أيضاً : وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي من نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان من كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا

رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله . وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله ، فإن أنكر شيئاً عمل به ، كتب إليه يوبخه ويلومه . انتهى منها .

حاضرة الخلافة

وجاء فيها أيضاً : لما ولي أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد ، حاضرة بني العباس الكبرى ، ومظهر فخرهم ومدنيتهم . وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال : هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة وهو نهر بين دجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه من السماء (٣٥) ذراعاً وعليه أبرجة ، سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع ، وعلى السور شرف . وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً . ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه (٦٠) ذراعاً . ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق . . وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان . ولكل منها باب دون باب ، بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين . فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة فإذا دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً طوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه من طوله يخرج إلى رحبه مادة إلى الباب الثاني طولها (٦٠) ذراعاً وعرضها (٤٠) ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين . والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات . ثم الباب الثاني وهو باب

المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله (٢٠) ذراعاً وعرضه (١٢) وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقي إليه منها ، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها (٥٠) ذراعاً مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثاني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان . انتهى منها .

وجاء فيها أيضاً : وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان . ومد المنصور من نهر دجيل الأخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباط وتجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في وقت . وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج وللثاني نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع مهر البزازين . والكرخ هو أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها في موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجداً يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقي الصراة ولأبي عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه في الكرخ :

سقى أربع الكرخ الغوادي بديمة — وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة — وتلك لها فضل على كل منزل

انتهى منها .

وجاء فيها أيضاً : وفي سنة (١٥١) إحدى وخمسين ومائة بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء . وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي لأن المهدي عسكر به عند شخوصه من الري .

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه في

أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً . وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح .

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت . وفي بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأمها الناس أفواجاً و لم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين . قال الخطيب البغدادي : لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدد سكانها . وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع . انتهى كل ذلك من محاضرات الخضري .

حكاية المنصور مع معن بن زائدة

ومن اللطائف ما جاء في محاضرات الخضري ما نصه :

ومن مشهوري قواد العرب : معن بن زائدة الشيباني وهو قائد شجاع كان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاءً حسناً ، فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة ، حصلت له فيها غرائب ، من أطرفها أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية ، فبينا هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلداً سيفاً فقبض على خطام جمله ، فأناخه وقبض على يدي معن ، وقال : أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلما رأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن فقال للأسود : خذه ولا تكن سبباً لسفك دمي فتأمله الأسود وقال : لست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك إن الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله ؟ قال : لا . قال : فنصفه ؟ قال : لا . و لم يزل حتى بلغ

العشر ، فقال معن : نعم . فقال له الأسود : أنا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهماً . وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثوريين عند الناس ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة . ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفاً فقال له معن : قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون عليّ مما فعلت فخذ ما دفعته لك فإني في غنى عنه فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالي والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفي ثمناً ومضى لسبيله . وما زال معن مستتراً ، حتى كان يوم الهاشمية ، يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح وبظهور على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد ، فخرج المنصور من قصره . وفي ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبي جعفر ، فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرفة قبائه في منطقته . وأخذ بلجام دابة المنصور وقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت ، فإنك تكفي فلم يرجع . وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن : ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشفت تلك الفعلة معنا في نظر أبي جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني . وكان ذلك سبباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليه اليمن . فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم إلى الطاعة والجماعة . ثم ولّي في آخر أمره سجستان . ولما كان سنة (١٥١) إحدى وخمسين ومائة كان في داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بُست . وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخصيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجية ومن طرف بدائهه أن معناً دخل على المنصور مرة فقال له : إيه يا معن تعطي مروان ابن أبي حفصة مئة ألف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زادت به شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله :

مـا زلـت يـوم الهاشميـة معلنـاً بالسـيف دون خليفـة الرحمـن
فمنعت حوزتـه وكنـت وقـاءه مـن وقـع كـل مهنـد وسـنان

انتهى من المحاضرات .

ولقد حج المنصور رحمه الله تعالى في خلافته خمس مرات ، قال الغازي في تاريخه نقلاً عن ابن فهد: إن المنصور لما حج بالناس سنة (١٣٦) ست وثلاثين ومائة قبل أن يستخلف وحج معه أبو مسلم الخراساني واسمه عبدالرحمن بن سلم ، فكان في طريقه يصلح العقبات ويكسو الأعراب في كل منزل ويصل من سأله ، وحفر الآبار وسهّل الطريق ، وكان الصيت له وكانت الأعراب تقول : هذا المكذوب عليه ، وأمر منادياً في طريق مكة برئت الذمة من رجل أوقد ناراً في عسكر الأمير فلم يزل يغذّيهم ويعشّيهم حتى بلغ مكة ، ولما وصل الحرم نزل وخلع نعليه ومشى حافياً تعظيماً للحرم ، وأوقف في المسعى خمسمائة وصيف على رقابهم المناديل يسقون الأشربة من سعى من الحاج بين الصفا والمروة ، فلما صدر الناس من الموسم نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر كراهة اجتماعهما على الماء فيضر بذلك الناس والتمس بذلك الإرفاق بالناس جميعاً . انتهى من الغازي .

صفات المنصور وأخلاقه

جاء في محاضرات الخضري ما نصه :

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان .

كيف كان يقضي وقته

كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية ، لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدئهم . فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحل أن يسامره . فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فإذا أمضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره . فإذا أمضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه

وصف في محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه . انتهى .

وفاة المنصور

جاء في محاضرات الخضري ما نصه :

في سنة (١٥٨) ثمان وخمسين ومائة حج المنصور شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة في شوال فلما سار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذي توفي به و لم يزل يزداد حتى وصل بستان بن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصي الربيع بما يريد وتوفي في سحر ليلة السبت (٦) ذي الحجة سنة (١٥٨) .

و لم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة ، وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام .

ثم أخذ من جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢) سنة إلا ستة أيام ، رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية . والقاسم وأمه أم ولد ، وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية ، أمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحاق بن علي . انتهى .

ترجمة أمير المؤمنين محمد المهدي

جاء في تاريخ الخميس عنه ما يأتي :

هو المهدي أبو عبدالله محمد بن أبي جعفر المنصور ، هو الثالث من خلفاء بني العباس ، ولد سنة (١٢٦) ست وعشرين ومائة ، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه المنصور بعهد منه إليه «أي في سنة ثمان وخمسين ومائة» .

كان المهدي جوّاداً ممدحاً مليح الشكل محبباً إلى الرعية شجاعاً خصاماً للزنادقة يتتبعهم ويقتلهم في كل بلد . وبنى جامع الرصافة ، وكسا الكعبة القباطي والخزف والديباج ، وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أسفلها إلى أعلاها . لما شبّ ولاه أبوه على طبرستان وما يليها وعلى الريّ ، وتأدب المهدي وجالس العلماء وتميّز ، وقيل : إن أباه المنصور غرّم أموالاً عظيمة ، وتحيل حتى استنزل ولي العهد أخاه عيسى بن موسى عن المنصب وولاه للمهدي هذا . انتهى من تاريخ الخميس .

وجاء في محاضرات الخضري عنه ما نصه :

هو محمد المهدي ابن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة (١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنّه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة (١٤١) إحدى وأربعين ومائة ، وسنّه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الري حينما وقعت فتنة عبدالجبار بن عبدالرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائداً من خراسان سنة (١٤٤) أربع وأربعين ومائة ، فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها وفي هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح .

وفي سنة (١٤٧) سبع وأربعين ومائة ، ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد إلى الري فأقام إلى سنة (١٥١) إحدى وخمسين ومائة ، وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج سنة (١٥٣) ثلاث وخمسين ومائة . وفي سنة (١٥٥) خمس وخمسين ومائة ، أسس مدينة الرافقة على طراز بغداد . ولم يزل يستعين به في الأعمال حتى توفي في

التاريخ الذي تقدم ذكره (٦) الحجة سنة (١٥٨) ثمان وخمسين ومائة (٧) أكتوبر سنة (٧٧٥) . انتهى .

قال ابن كثير في تاريخه : وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو في سنة إحدى وعشرين ومائة ، ولي الخلافة بعد موت أبيه في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة ولد بالحميمة من أرض البلقاء وتوفي في المحرم من هذه السنة أعني سنة تسع وستين ومائة ، عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وبعض شهر . وكان أسمر طويلاً جعد الشعر على إحدى عينيه نكتة بيضاء قيل على عينه اليمنى وقيل اليسرى . قال الربيع الحاجب : رأيت المهدي يصلي في ليلة مقمرة في بهلولة عليه ثياب حسنة فما أدري هو أحسن أم القمر أم بهوه أم ثيابه فقرأ : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. . . الآيات﴾ ثم أمرني فأحضرت رجلاً من أقاربه كان مسجوناً فأطلقه ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما تقدم كتم الأمر يومين ثم نودي في الناس يوم الخميس : الصلاة جامعة فقام فيهم خطيباً فأعلمهم بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعي فأجاب فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة المسلمين ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ وقد عزاه أبو دلامة وهنأه في قصيدة له يقول فيها :

عيناي واحدة ترى مسرورة ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرها إن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت وله أرى ... شعراً أرجله وآخر ينتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد ... وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله أفضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف

لما اتصل بالمهدي خبر وفاة والده بمكة المكرمة ، اشتد عليه الحزن واغرورقت عيناه بالدموع ، وقال : إن رسول الله ﷺ قد بكى عند فراق الأحبّة . ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً . وبينما كان المهدي جالساً للتعزية بوالده والتهنئة بمبايعته ، دخل عليه أبو دلامة فأنشد :

عيناي واحدة ترى مسرورة ... بإمامها جذلى وأخرى تطرف

تبكي وتضحك مرة ويسوؤها ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسؤها موت الخليفة محرماً ويسرها إذ قام هذا الأرأف

فأجزل له العطاء وكان أول من وصله . انتهى .

بيعة المهدي

قال الخضري في محاضراته : بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقوّاد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجّه وجّه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة . فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة . وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة (١٦٩) تسع وستين ومائة ، (٤) أغسطس سنة (٧٨٥) خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية ، بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً . اهـ منها .

وقال فيها أيضاً : كانت خلافة المهدي مُرَفِّهَة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور ، فقد كان المنصور يؤسس ملكاً له خصوم فكان يكتفي بالريبة والظنة فيعاقب بهما ، وفي مثل ذلك كثير ما يؤخذ البريء بالمذنب والمطيع بالعاصي ، فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت ، وأنياب العلويين قد كسرت وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة ، فهم لا يحتاجون من الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه في الشدة ، فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد أو الذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته . وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه .

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حتى فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسياً أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فإنهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي . انتهى منها .

وجاء فيها أيضاً : ومما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها في القادسية إلى زبالة وأمر بالزيادة من

قصور السفاح وترك منازل المنصور التي بناها على حالها وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم في تلك الجهات ، وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به . وأمر أن يجري على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذمون إلى المشي في الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً في انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه وأقام البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن بغالاً وإبلاً ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به . اهـ منها .

وجاء فيها أيضاً : وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق يطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فأولاً فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفي من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم . والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنّع الخراساني كان في إحدى قرى مرو وكان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر فوجّه المهدي لقتاله عدة من القواد فيهم مفاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيد الحرشي وضم إليه القواد فاستعد المقنع للحصار في قلعة كش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتدّ عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سماً وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه . انتهى من محاضرات الخضري .

قال ابن كثير في تاريخه : وفي هذه السنة «أي سنة ستين ومائة» حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكانته وكان الحسن بن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي حلته وأجزله جائزته ، وفرّق المهدي في أهل مكة مالاً كثيراً جداً كان قد قدم معه بثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب وجاء من مصر ثلثمائة

ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة ، وشكت الحجبة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوى فأمر بتجريدها فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جداً فأمر بإزالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده . فلما جردها طلاها بالخَلوق وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال : أنه استفتى مالكاً في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها على ما هي .

وحمل له محمد بن سليمان ، نائب البصرة الثلج إلى مكة . وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسّع المسجد النبوي وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر عما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع . فتركه وتزوج في المدينة رقية بنت عمرو العثمانية . وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرساً بالطرق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم إقطاعاً معروفة بهم .

قال ابن كثير في تاريخه : وذكروا أنه هاجت ريح شديدة فدخل المهدي بيتاً في داره فألزق خده بالتراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أنا ذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتهما لك فقال : هاتها فناوله إياها فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذه النعل فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ فردها علي فتصدقه الناس لأن العامة تميل إلى أمثالها ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح . انتهى من ابن كثير .

روى المسعودي وهو من أهل القرن الثالث للهجرة ، في أواخر الجزء الثاني من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر بالله– عن العلامة بأخبار بني العباس محمد بن علي العبدي الخراساني الأخباري أنه قال : خلا بي القاهر فقال : أصدقني أو هذه ، وأشار إليّ بالحربة . فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه ، فقلت : أصدقك يا أمير المؤمنين . فقال لي : أنظر يقولها ثلاثاً . فقلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : عما

أسألك عنه ولا تغيب عني شيئاً ، ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئاً . قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : أنت علامة بأخبار بني العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس فمن دونه . فقلت : على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين . قال : ذلك لك . فقلت : أما أبو العباس السفاح ، فكان سريعاً إلى سفك الدماء واتبعه عماله في الشرق والغرب من فعله واستنوا بسيرته . . . إلى آخر ما ذكر في وصف أمراء المؤمنين حتى جاء في وصف محمد المهدي الذي عمّر المسجد الحرام وزاد فيه هذه الزيادة العظيمة ، فقال عنه ما يأتي :

كان المهدي سمحاً سخياً كريماً جواداً ، فسلك الناس في عصره سبيله وذهبوا في أمرهم مذهبه واتسعوا في مساعيهم ، وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد إلا أعطاه وإن سكت ابتدأه المفرق بين يديه وقد تقدم بذلك إليه ، وأمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنّف من ذلك ابن أبي العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية والدنساقية والمرقونية فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين ، وشرع في بناء المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ على ما هما عليه إلى هذه الغاية وبني بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل . انتهى من الكتاب المذكور .

بين المهدي ومعن بن زائدة

قال سعيد بن مسلم : هدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة ، كان يسعى في فساد سلطنته ، وجعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف درهم . قال : فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام ، فكان ظاهراً كغائب ، خائفاً مترقباً فبينما هو يمشي في بعض نواحيها ، إذ بصر به رجل من أهل الكوفة ، فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال : هذا بغية أمير المؤمنين فأمكن الرجل من قياده ، ونظر إلى الموت أمامه فبينا هو على تلك الحالة إذ سمع وقع حوافر من وراء ظهره ، فالتفت فإذا

معن بن زائدة فقال : يا أبا الوليد أجرني أجارك الله فوقف ، وقال للرجل الذي يعلق به : ما شأنك ؟ قال : بغية أمير المؤمنين الذي نذر دمه ، وأعطى لمن دل عليه مائة ألف . فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحمل أخانا ، فصاح الرجل : يا معشر الناس! يحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين . قال له معن : اذهب فأخبره أنه عندي فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبره الحاجب ، فدخل إلى المهدي فأخبره ، فأمر بحبس الرجل ، ووجّه إلى معن من يحضر به فأتته رسل أمير المؤمنين ، وقد لبس ثيابه وقربت إليه دابته ، فدعا أهل بيته ومواليه فقال : لا يخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف . ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي فلم يرد عليه . فقال : يا معن أتجير علي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونعم أيضاً ، واشتد غضبه فقال معن : يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً ، ولي أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي ، وحسن عنائي ، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا إليّ رجلاً واحداً استجار بي ؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سري عنه .

فقال : قد أجرنا من أجرت . قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله ، فيكون قد أحياه وأغناه . قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف . قال : يا أمير المؤمنين إن صِلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فأجزل له الصلة . قال : قد أمرنا له بمائة ألف . قال : فتعجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء ، ثم انصرف . ولحقه المال ، فدعا الرجل ، فقال له . خذ حلتك ، والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

شيء من خطب المهدي

وقد قال المهدي يوماً في خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهتكم العاقبة وتحملوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معدلته فيكم ويطوي ثوب الأمر عنكم ، وأحال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله مقدماً ذلك على فعل من تقدمه والله لأعفين عمري من عقوبتكم ولأحملن نفسي على الإحسان إليكم قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التي كانت لا تحد ولا توصف كثرة ففرقها في

الناس و لم يعط أهله ومواليه منها شيئاً بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات . انتهى من ابن كثير .

وجاء في محاضرات الخضري عنه ما يأتي : كان المهدي لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي فقرأ مرة في صلاته: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ فأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى فلما جيء به قال له : يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي . فقال : نعم . فوثق له فخلاه .

وكان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال : ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للظالم إلا للحياء منهم لكفى . قال المسور بن مساور : ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي فأتيت سلاماً صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له : ترضى بأحد هذين؟ فقال : نعم فقال : تكلم . فقال مساور : أصلح الله القاضي ، إن هذا ظلمني في ضيعتي ، وأشار إلى المهدي فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال : ضيعتي في يدي . فقال مساور : أصلح الله القاضي ، سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها؟ فقال المهدي : بعد الخلافة . فقال القاضي : أطلقها له . قال : قد فعلت . والعدل والحلم والعفو في الخلفاء من الصفات التي تدل على أقدارهم وعظم سلطانهم وهكذا كان المهدي مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه تعليماً عربياً محضاً في صغره وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم . وكان يقول : ما تقرب إليَّ أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي به أسلفت مني إليه ، أتبعها أختها ، فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل .

وكان المهدي ميالاً إلى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله ﷺ فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به . اهـ .

من كرم المهدي

نزل المهدي بمنزل «بعيساباد» لما بناها، وأمر أن يكتب له أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار، فكتبوا ودعي بنقبائهم وجلس مجلساً عاماً لهم، ففرق ثلاثة آلاف ألف درهم فأغنى كل فقير وجبر كل كسير وفرج عن كل مكروب. ثم قامت الخطباء ودخل الشعراء فأنشدوه، ففرق فيهم خمسمائة ألف درهم. فكثر الداعي له في الطرقات والبوادي، وقام في هذا اليوم مروان بن أبي حفصة فأنشده:

ما يلمع البرق إلا حنَّ مغترب ... كأنه من دواعي شوقه وصب

ما أنسى لا أنسى غيثاً ظل وابله ... عليّ من راحة المهدي ينسكب

شمنا فما أخلفتنا من مخائله ... سحابة صوبها الأوراق والذهب

صدقت يا خير مأمون ومعتمد ... ظني بأضعاف ما قد كنت أحتسب

أعطيت سبعين ألفاً غير متبعها ... منا ولست بمنّان بما تهب

قد لاح للناس بالمهدي نور هدى ... يضيء والصبح في الظلماء يحتجب

خليفة طاهر الأثواب معتصم ... بالحق ليس له في غيره أرب

قال الغازي في تاريخه ما نصه: وفي إتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد وفي سنة تسع وخمسين ومائة أو في التي بعدها، أمر المهدي بنفي كل من بمكة من المغنين ومنع فتيتها من الغناء، وأخرج كل من فيها من المشتبهات من النساء بالرجال والمشتبهين من الرجال بالنساء، ومنع من لعب الشطرنج وغيره من الأمور التي تجر إلى اللهو والطرب، وطهّرها من كثير من المباحات الملهية عن الصلوات والمشغلة عن اغتنام القرب، وألزم حجبة الكعبة إجلالها وتوفيرها وتنزيهها، وتطييبها للزائرين وتجميرها وفتح بابها بالسكينة والخشوع، وزجر النساء عن الخروج إلى المسجد متعطّرات. اهـ.

وقال أيضاً: وفي سنة ست وستين ومائة أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة فأقيم لذلك بغال وإبل و لم يكن هناك بريد قبل ذلك. انتهى من تاريخ الغازي.

إن المهدي رحمه الله تعالى عمل أعمالاً جليلة، منها أنه بنى في سنة (١٥٩) هجرية مسجد الرصافة ببغداد، وبنى خندقها. ولقد كسى الكعبة المشرفة مرتين

أو ثلاثة ، وأمر بتضبيب مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الثلم الذي حصل فيه ، وبعث لذلك بألف دينار ، فضببوا بذلك المقام من أعلاه وأسفله وذلك سنة (١٦١) من الهجرة وهذا أول ما حلي به المقام .

وقد زاد المهدي في المسجد النبوي من الجهة الشمالية ، وكان بدء البناء سنة (١٦١) والفراغ منه سنة (١٦٥) هجرية كما جدد مقصورة عثمان بن عفان رضي الله عنه وربما عمل كثيراً من العمارة أيضاً بالحرمين الشريفين .

شيء من مروءة المهدي وفضله

جاء في مجلة المصور بمصر ، في أحد أعدادها بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦ هجرية الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ ميلادية ، مقالة ممتعة لطيفة بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ» وأول صندوق للبريد ، وذلك بقلم الأستاذ حبيب جاماتي ما نصه :

أول صندوق للبريد

كان القيظ في ذلك اليوم شديد الوطأة ، والرياح التي هبت على بغداد ساخنة كأنها منبعثة من أفواه البراكين ، والجو قاتماً تضيق فيه الصدور وتنقبض . ومع ذلك ، فإن الخليفة «المهدي بالله» لم يشأ أن يصد الناس عن بابه ، بعد أن نادى المنادي في الليلتين السابقتين ، أن ذلك اليوم من الأيام التي يستقبل فيها أمير المؤمنين ذوي الحاجات ويصغي إلى مطالبهم وشكاياتهم ، فظل الشاكون والمتذمرون والمحتاجون يروحون ويجيئون من الصباح إلى المساء ، والخليفة ينصف هذا ويعزي ذاك ، وينفح بالمال هذه ويأمر بإيواء تلك في القصر ، فلا يترك أحداً ممن لجؤوا إلى رحابه يغادر المكان إلا راضياً شاكراً .

تلك كانت عادته منذ أن خلف أباه في الملك ، عام ١٥٨ للهجرة ، الموافق لعام ٧٧٥ للميلاد . فقد كان أبو جعفر المنصور قاسياً لا يلين ، عمد في تثبيت دعائم الخلافة لبني العباس إلى أساليب عنيفة فقتل ونفي وشرد الكثيرين بلا شفقة ولا رحمة ، حتى تم له ما أراد من توطيد دعائم السلطان . ولكنه حين أشرف على الموت ، أخذ على ابنه محمد بن عبدالله « المهدي» عهداً بأن يرد المظالم إلى أهلها

وبأن يتحبب إلى الرعية ، ويتسامح مع المسيئين إليه ويبر بالمعوزين والذين خانهم الحظ في الحياة .

ووفّى المهدي بعهد أبيه ، ففتح أبواب السجون وبعث منها من دفنهم فيها أبوه وأعاد إليهم أموالهم وأملاكهم التي جردوا منها . وقد بلغت نحو ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليوناً من الدنانير ، وأعلن أنه يرغب في استماع شكايات رعاياه دون أن يكون بينه وبينهم وسيط ، وأنه في أيام معينة من أيام الأسبوع ، يفتح أبواب قصره ليدخلها من يريد بلا استئذان ، ليمثل بين يديه ، ويخاطبه في الأمر الذي يشكو منه .

وهكذا أحبه الناس ورفعوا أكف الضراعة إلى الله ، أن يطيل عهده ويدفع عنه الأذى !

كانت الشمس قد أشرقت على المغيب عندما خرج من القاعة آخر واحد من أصحاب الشكايات في ذلك اليوم الذي اشتدت فيه وطأة القيظ فنهض المهدي متعباً وفي رأسه صداع وفي أذنيه طنين ، وتوجه لساعته إلى حجرة جاريته المحبوبة «الخيزران» حيث استلقى على الوسائد ، طلباً لراحة الجسم والبال .

وأسرعت إليه الخيزران تلاطفه وتدلله ، وترطب فمه بالشراب وجبينه بالعطور ، مرددة بلهجة عذبة ما تعودت أن تقوله له كل يوم : إنك ترهق نفسك يا أمير المؤمنين ، وتحملها فوق طاقتها . . وهل البرّ بالرعية ، والوفاء بالعهد الذي قطعته لأبيك ، يقضيان عليك بأن تنهك قواك إلى هذا الحد ، وتصنع فوق ما تستطيع ؟

فأجاب المهدي : ومن يرفق بالناس إذا لم أعمد أنا إلى الرفق بهم ؟

عليك أن ترفق بنفسك أولاً ، وأن يحل وزراؤك محلك في الرفق بالناس !

قد يخطئون . وقد يقصرون ، وفي خطئهم وتقصيرهم إخلال بالعهد المقطوع !

ولكن الخيزران لم تقتنع ، وكانت تحب سيدها وتتفانى في خدمته والترفيه عنه . فاستطردت قائلة :

أتظن يا أمير المؤمنين أن جميع الذين يشكون من ظلم ، أو فقر ، أو من فاقة ، يجرؤون على المجيء إليك في قصرك ، والدخول عليك في ديوانك ، والمثول أمامك بدون أن تتولاهم الرهبة ويعقد الخوف ألسنتهم ؟ كلا . . إن القليل يجرؤون على

هذا، والكثير لا يجرؤون فأنت إذن ترهق نفسك من أجل فريق من الرعية دون الفريق الآخر ولن يكون هناك ما يضير الرعية لو أعطيت نفسك حقها من الراحة والسكون.

أثارت هذه الكلمات هواجس الخليفة، ففكر ملياً، ثم قال:

أتعتقدين حقاً يا خيزران أن هناك من لا يلبي الدعوة ويطرق بابي، عن خوف أو رهبة؟

مولاي: إنني أخاطبك عن معرفة. عندي الآن امرأة رقيقة الحال أعرفها، أراد أصدقاء أسرتها أن يحملوها على الدخول عليك مع الداخلين في «أيام الشكوى» ولكنها لم تفعل، وقد عهدت إلي بأن أرفع إليك هذا الرق الذي ضمنته شكايتها.

ودفعت الخيزران إلى الخليفة رقاً عليه بضعة سطور خطتها يد مرتجفة لم تألف الكتابة للاستجداء، فسأل المهدي:

من هي تلك المرأة، ولماذا لم تذكر اسمها في الرق؟

إذا أمرت يا أمير المؤمنين، فإنني سأقودها إليك في هذه اللحظة.

عليَّ بها..

عادت الخيزران ومعها امرأة في مقتبل العمر، عليها ثياب رثة وخرق بالية، ولكنها كاملة القد ممشوقة القوام، يشع الحسن من وجهها النير، والذكاء من عينيها الكبيرتين فانحنت أمام الخليفة، وتناولت طرف ردائه، ورفعته إلى شفتيها..

ما اسمك؟

مزنة!

من أي الناس أنت؟

من نساء بني أمية؟

انتفض المهدي لذكر الأسرة التي جردها العباسيون من سلطانها وأملاكها، وشتتوا رجالها ونساءها وطاردوها في المشارق والمغارب. ولكنه شعر بالشفقة تنساب إلى قلبه، أمام تلك البائسة المعدمة، التي تقبل رداءه وتحاول إخفاء عريها تحت الأسمال!

أي نساء بني أمية أنت ؟

أنا امرأة مروان بن محمد الأموي . . إلى هذه الحالة التي تراها يا أمير المؤمنين أوصلنا الدهر الغادر القاسي . فقد أصبحنا لا نأمن أن نخالط الناس ، بل نتلمس رزقنا متنكرين خائفين .

فأطرق محمد بن عبدالله المهدي ، وتمتم قائلاً :

اللهم إننا نعوذ بك من زوال النعم ! ثم التفت إلى الخيزران وقال :

خذي مزنة الأموية إلى دارك فهي منذ الساعة في حماك وحماي ، ولتقم عندك معززة مكرمة ! وعندما انحنت الأموية ثانية لتلثم طرف الرداء سقطت على يدها دمعة من عين أمير المؤمنين .

وفي اليوم التالي ، قال المهدي للخيزران جاريته المحبوبة :

لقد فطنت بالأمس إلى أمر فاتني من قبل . ويعود الفضل في ذلك إليك . فإن مزنة الأموية وجدت من يوصلها إلى الخليفة . وقد يكون في الدولة كثيرون من الرجال والنساء ، لا يجدون من يأخذ بيدهم ويقودهم إلى رحاب المهدي ، ولذلك فقد عولت على تسهيل الأمر عليهم ، بأن أوفر لهم أسباب الاتصال بي بطريق الكتابة . وإنك يا خيزران بما قلته لي أمس ، لتساهمين مساهمة فعالة في تطبيق العهد الذي قطعته لأبي ، وفي توسيع نطاق البر برعيتي المحبوبة .

وأمر المهدي بأن يوضع على كل باب من أبواب القصر ، مثبتاً إلى الحائط بمسامير ، صندوق كبير مثقوب من أعلاه ، لكي يضع فيه كل صاحب شكاية شكايته مدونة في رق أو قرطاس ، واحتفظ هو بمفتاح تلك الصناديق ، فكان يفتحها كل يوم بنفسه ثلاث مرات ، ويطلع على الشكايات ويفحصها واحدة واحدة ، وينصف أصحابها بقدر ما يستحقون الإنصاف .

وجلس المهدي على عرش الخلافة عشرة أعوام ، ومات في الحادية والأربعين من العمر ، سنة ١٦٩ للهجرة ، الموافقة لسنة ٧٨٥ للميلاد .

وهو أول ما أنشأ -فيما أنشأ- «صندوق البريد» في التاريخ .

وفاة المهدي

في سنة (١٦٩) تسع وستين ومائـة ، أراد المهـدي الخـروج إلى جرجـان فلمـا وصل إلى ماسندان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقـين مـن المحـرم في قريـة يقال لها السرور وصلى عليـه ابنـه هـارون لأنـه كـان في صحبتـه رحمـه الله تعـالى وأحسن جزاءه ، انتهى كل ذلك من محاضرات الخضري .

قال ابن بطوطة : وقبر المهـدي وبعـض الخلفـاء الذيـن وسّعوا المسـجد الحـرام ببغداد .

ترجمة هارون الرشيد

جاء في محاضرات الخضري ما نصه :

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهـادي ولـد بـالري سـنة (١٤٥) خمس وأربعين ومائة . ولما شبّ كان أبوه يرشـحه للخلافـة فـولاه مهـام الأمـور . جعلـه أمـير الصائفـة سـنة (١٦٣) وسـنة (١٦٥) وفي سـنة (١٦٤) أربـع وسـتين ومائة ، ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقيـة فكـانت الـولاة ترسـل مـن قبله وفي سنة (١٦٦) ست وستين ومائة جعله أبـوه ولي عهـده بعـد الهـادي . وفي سنة (١٦٩) تسع وستين ومائة ، وهي السنة التي توفي فيها المهـدي أراد أن يقدمـه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك . بويـع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في ١٤ ربيع الأول سنة (١٧٠) سبعين ومائة هـ (١٤) سبتمبر سنة (٧٨٦) ميلادية ، وسنة ٢٥ سـنة و لم يـزل خليفـة إلى أن توفي في ثالث جمـادى الآخـرة سـنة (١٩٣) ثـلاث وتسـعين ومائـة هــ . (٢٤ مارس سنة ٨٠٨ م) . فكانت مدته (٢٣) سنة وشهرين و١٨ يوماً وكان سنّه إذ توفي ٤٨ سنة انتهى من الكتاب المذكور .

وجاء في تاريخ ابن كثير رحمه الله تعالى : يقال أنه لمـا مـات الهـادي في الليـل جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً ، فقال : قم يـا أمـير المؤمنـين فقال له الرشيد : كم تروعني ! لـو سمعـك هـذا الرجـال لكـان ذلـك أكـبر ذنوبـي عنده . فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون ، فقـال : أشـر علـيّ في الولايـات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسمهيم فيوليهم الرشيد ، فبينما هما كذلـك

إذ جاء آخر ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام ، فقال : هو عبدا لله وهو المأمون . ثم أصبح فصلّى على أخيه الهادي ودفنه بعيساباد ، وحلف لا يصلي الظهر إلا ببغداد . فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي . فزاحموا الرشيد على جسر فقال أبو عصمة : اصبر وقف حتى يجوز ولي العهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير فجاز جعفر وأبو عصمة ، ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً ، فلما ولي أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى بغداد . فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال : إني سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلي الهادي يطلبه ، فألقيته إلى الرسول ، فسقط ههنا . فغاص الغواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . انتهى من ابن كثير .

ولقد عمل هارون الرشيد كثيراً من الأعمال الجليلة ، ولنذكر هنا شيئاً من أعماله في الكعبة المشرفة . فقد قال الإمام الأزرقي عن ذلك ما نصه :

فأما ما كان على الباب «أي باب الكعبة» من عمل الوليد بن عبد الملك من الذهب فإنه رقّ وتفرّق ، فرفع ذلك إلى أمير المؤمنين محمد بن الرشيد في خلافته ، فأرسل إلى سالم بن الجراح عاملاً كان له على صوافي مكة بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على بابي الكعبة فقلع ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها من الثمانية عشر ألف دينار فضرب عليه الصفائح التي هي عليه اليوم والمسامير وحلقتا باب الكعبة وعلى الفياريز والعتب وذلك كله من عمل أمير المؤمنين محمد بن هارون الرشيد ولم يقلع في ذلك بابي الكعبة ولكن ضربت عليهما الصفائح والمسامير وهما على حالها ، قال أبو الوليد : أخبرني المثنى بن جبير الصواف أنهم حين فرقوا ذهب باب الكعبة وجدوا فيه ثمانية وعشرين ألف مثقال فزادوا عليها خمسة عشر ألف دينار وأن الذي على الباب من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف دينار وقالوا أيضاً : إنه لما قلع الذهب عن الباب ألبس الباب ثوباً أصفر . انتهى من الأزرقي .

ولقد أراد هارون الرشيد أن يجعل منبر النبي ﷺ من الجوهر والذهب والفضة فمنعه الإمام مالك رحمه الله تعالى . فقد روى أبو نعيم في حليته في ترجمة الإمام مالك : إن هارون الرشيد استشار مالكاً في أن ينقض منبر النبي ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة ، فقال له مالك : لا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ . انتهى

من الجزء السادس بصحيفة (٥٠٥) من كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.

روى المسعودي وهو من أهل القرن الثالث الهجري، في أواخر الجزء الثاني من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر با لله، أن القاهر با لله لما سأل محمد بن علي العبدي الخراساني الأخباري، أن يصف الخلفاء العباسيين، وصفهم له حتى وصل إلى وصف الرشيد - فقال عنه ما يأتي:

وكان الرشيد مواظباً على الحج والغزو، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة. وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبي ﷺ، فعم الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور ومدن المدن وحصن فيها الحصون، مثل طرسوس وأذنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين. واتبعه عماله وسلكوا طريقته وقفته رعيته مقتدية بعمله مستنة بإمامته، فغمط الباطل وأظهر الحق وأنار الإسلام وبرز على سائر الأمم.

ثم قال: وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان، ورمى بالنشاب في البرجاس، ولعب بالأكرة والطبطاب وقرّب الحذّاق في ذلك، فعم الناس ذلك الفعل. وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس، والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس، وكثير ممن يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف. انتهى من تاريخ المسعودي.

قال الخضري في محاضراته: كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة. فأما صلاته، فكان يصلي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة. وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني، كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته. سمعه مرة يقرأ في صلاته: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فقال ابن أبي مريم: لا أدري وا لله فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً؟ ثم قال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وكان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه. وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالحري لا يكون فيه ثواب. وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالي. وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل. انتهى منها.

قال الخضري في محاضراته: ولقد كانت قوة المسلمين في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيّناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالي ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

ومن شجاعة هارون الرشيد وغيرته الإسلامية ما ذكره الخضري في محاضراته حيث قال: كتب نقفور إلى هارون الرشيد ما يأتي: من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه، دون أن يخاطبه. وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم. واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرّب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك.

فلما رجع الرشيد من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه

فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبدالله بن يوسف فقال :

نقض الذي أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية إن أتى بالنقض عنه وافد وبشير
درجت يمينك أن تعجل غزوة تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها بأكفنا شعل الغرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت إنك مفلت هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواخر بحره فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافل عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه والنصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال : أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد فقال أبو العتاهية :

ألا نادت هرقلة بالخراب من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك. وفي سنة (١٨٩١) حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها　محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها　وقالوا سجون المشركين قبورها

انتهى من محاضرات الخضري.

حضارة بغداد في عهد الرشيد

قال الخضري في محاضراته: وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها. أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها. بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتألق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها، وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربي. كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشؤوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات، وبالجانب الغربي كانت قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستجر العمران فيها لما جاءها من البناء وصار سكانها نحو ألفي نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة السبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص. انتهى منها.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضي جميع حاجاتها. وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مئة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه في مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى، وهو شيء جسيم. وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال، يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتّاب والمنتجعين. وقد جرى على سنته كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد

يتردد الإنسان في صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى . واشتد بهم الترف حتى يقال : أن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتعالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشقة بين ما عندهم وما يرون من ردائها وبذخ أهلها وانغماسهم في الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبوا إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة . انتهى من محاضرات الخضري .

نقول : لقد كان هارون الرشيد من أغفل الخلفاء العباسيين وكان ملكه واسعاً وخزائنه كثيرة عامرة ، وكان يقول للسحابة إذا رآها : أمطري حيث شئت فخراج الأرض التي تمطري فيها يجيء إليّ - رحمه الله تعالى .

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدؤا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدّثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم وقلما كان يتم الإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدّث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرها من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا من علوم من سبقهم من الأمم في المدنيّة كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصائبة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجع الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون . . . انتهى من المحاضرات .

وقال القطبي في تاريخه : يروى عن أبي معاوية الضرير قال : أكلت مع الرشيد يوماً ثم صبّ على يدي من لا أعرفه ، ثم قال لي الرشيد : أتدري من يصبّ عليك؟ قلت : لا ، قال : أنا إجلالاً للعلم . اهـ .

حج الرشيد وحبه للوعظ

كان الرشيد رحمه الله تعالى كثير الحج والغزو ، حج بالناس تسع حجج متفرقة . قال الغازي في تاريخه ، نقلاً عن السنجاري في منائح الكرم : ذكر ابن الأثير أنه حج في سنة ثلاث وسبعين ومائة وأحرم بالحج من بغداد . وفي سنة تسع وسبعين ومائة مشى على رجليه من مكة إلى عرفات ، وشهد المشاعر كلها ماشياً . وقيل : كان ذلك في حجته التي كانت سنة سبع وسبعين ومائة ، قال في درر الفرائد : وكان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً لا يطيق ذلك أحد ممن كان معه . انتهى من الغازي .

وقال الغازي أيضاً في تاريخه نقلاً عن ابن فهد : وفي بعض حجات هارون الرشيد دخل الكعبة فرآه بعض الحجبة واقفاً على أصابعه وهو يقول : يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين ، إن لكل مسلم منك رداً وجواباً حاضراً ، ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة ، صلي على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، يا من لا تضره الذنوب ولا تخفى عليه العيوب ولا تنقصه مغفرة الخطايا ، يا من كبس الأرض على الماء ، وسد الهواء بالسماء واختار لنفسه أحسن الأسماء ، صلّ على محمد وعلى آل محمد وخر لي ، من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات ، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني وصرت في لحدي وتفرق عني أهلي وولدي ، اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع خلقك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لنا ذخراً وأجراً عند الجزاء الأوفى ، اللهم أحينا سعداء وتوفنا شهداء ، وجعلنا سعداء مرزوقين ، ولا تجعلنا أشقياء محرومين . انتهى من تاريخ الغازي .

قال الخضري في محاضراته : وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه وهي السنوات (١٧٠ و١٧٣ و١٧٤ و١٧٥ و١٧٧ و١٨٠ و١٨١ و١٨٦ و١٨٨) وكان إذا حجّ حجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحجّ أحجّ عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة .

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة ، دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار . فبكى هارون حتى اخضلت لحيته . فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك ، فقال : سبحان الله وهل يتخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله . فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله له و لم يلتفت إليه ، وأقبل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا -يعني الفضل بن الربيع- ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك. فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف . ودخل عليه مرة أخرى فبينما هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال: بنصف ملكي . قال : اشرب هنأك الله . فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه . فبكى هارون . ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم . انتهى من المحاضرات .

وروي : أنه أخلي للرشيد في بعض حجاته المسعى ليسعى فيه ، فتعلق ببغلته وهو يسعى ، عبدالله بن عمر بن عبد العزيز . فوقف له هارون وأقبل عليه . فصاح به : يا هارون فقال : لبيك يا عم ، قال : ارق إلى الصفا . فلما رقي قال : ارم بطرفك إلى البيت قال : قد فعلت ، قال : كم هي ؟ يعني الحجيج ، قال : ومن يحصيهم إلا الله تعالى . قال : فاعلم أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصته نفسه ويسأل عنها وحدها يوم القيامة ، وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين فانظر كيف يكون جوابك حين تسأل يوم القيامة ، فبكى هارون بكاء شديداً ، وخدمته يعطونه منديلاً بعد منديل وهو يبلها بدموعه ثم قال له : وأخرى أقولها لك: إن الرجل إذا أساء التصرف في ماله حُجر عليه ، فكيف أنت تسرف في أموال المسلمين وتسيء التصرف فيها وأنت محاسب عليها بين يدي الله تعالى ،

فازداد بكاؤه وأراد جنده أن يطردوه فكفّهم عنه إلى أن فرغ من نصائحه وقام عنه بنفسه، وهارون يبكي ويتضرع ويستغفر. انتهى من تاريخ القطبي.

وجاء فيه أيضاً: أن هارون الرشيد رأى النبي ﷺ في النوم فقال: إن هذا الأمر قد صار إليك في هذا الشهر، فاغز وحج ووسّع على أهل الحرمين. ففعل هذا كله في عام واحد أول خلافته. ذكر ذلك الحافظ السيوطي وغيره.

وجاء فيه أيضاً: أن في سنة سبعين ومائة حج هارون الرشيد بالناس وفرق مالاً كثيراً، وكان حجه ماشياً على اللبود، تفرش له من منزل إلى منزل، وقيل: إن الحجة التي حج فيها ماشياً هي حجته في سنة سبع وسبعين ومائة. انتهى من تاريخ القطبي.

روى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي: قال: كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم ألوان منه، فقال: أحضره مع الطعام. فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه، فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه. فقال: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين. ذكرت كلاماً بيني وبين جارتي البارحة. فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به. فقال: حتى تأكل هذه اللقمة. فألقاها من فيه وقال: وا لله لتخبرني، فقال: يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور، يقول عليك؟ قال: بأربعة دراهم، قال: لا وا لله يا أمير المؤمنين بل بأربعة ألف درهم، قال: كيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده. فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنا لا نشتري من السوق لحم جزور. فصرف من لحم الجزور في ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، و لم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السماط بين يديه وأقبل على نفسه يوبخها ويقول هلكت وا لله يا هارون و لم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذّنه المؤذنون بصلاة العصر وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين من كل حرم ألف ألف صدقة وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي وبألف ألف يتصدق بها على

فقراء الكوفة والبصرة ثم خرج إلى صلاة العصر ، ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد أو يأكله الناس؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية وبما يسره الله عليك من الصدقة وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم وقد قال تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف ثم استدعى بطعام ، فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاء . انتهى من تاريخ ابن كثير .

وجاء في تاريخ ابن كثير أيضاً : وعظ أبو النصر الجهني المصاب هارون الرشيد مرة بكلام حسن فقال : اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعدّ لذلك جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب : لو ماتت سخلة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إني لست كعمر وإن دهري ليس كدهره ، فقال : ما هذا بمغن عنك شيئاً ، فأمر له بثلاثمائة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة ، فمر بها فلتقسم عليهم ، أنا واحد منهم انتهى منه .

حكاية

يحكى أن القاضي يحيى بن أكثم قال : دخلت يوماً على هارون الرشيد وهو مطرق مفكر فقال : أتعرف قائل هذا البيت يا يحيى :

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقال : يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت لقصة عجيبة يرويها الرواة ، فقال : أخبرني عن هذه القصة قال : يا أمير المؤمنين يزعمون أن أعرابياً قال : كنت في بعض السنين قاصداً مكة في قافلة عظيمة ، فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر ، سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها ، فسألت عن سبب الضجة فأجابني رجل من القوم : تقدم تَرَ ما بالناس . فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرغاء البعير فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع به . فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانية فعلمت أنه لسبب و لم يجسر أحد من القوم أن يقربه .

فقلت : أفدي هذا العالم بنفسي وأتقرب إلى الله بخلاص هذه القافلة من هذا وأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت فلما رآني قربت منه سكن وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيه فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القربة تسيب في الرمل ومضى فعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لقصدنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية من الطريق فقضيت حاجتي ، ثم جلست بعيداً عن القوم أذكر الله تعالى . فأخذتني عيني فنمت مكاني . فلما استيقظت لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلت ومكثت منفرداً لم أر أحداً ولم أهتد إلى ما أفعله وأخذتني حيرة وجعلت أضطرب وإذا بهاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الرجل المضل مركبه ... ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه ... وبكرك الميمون حقاً تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه ... عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي ، وبكري إلى جانبي ، فأنخته وركبته وجنبت بكري ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولي ، فتحولت إلى بكري وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضل المدلج الهادي
ألا تخبرني بالله خالقنا ... من ذا الذي جاء بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد أوليتنا فنناً ... بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إلي وهو يقول :

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضاً ... والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدت بالماء لما ضن حامله ... تكرماً منك لم تسمع بأنكادي
فالخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا أضنُّ به ... فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد وأمر بالقصة والأبيات فكتبت وقال : لا يضيع جميلاً أينما وضع . انتهى .

عهد الرشيد بالولاية لابنه المأمون

جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» ما يأتي :

لما اشتدت العلة وتمادى الوجع بهارون الرشيد رحمه الله تعالى ذكر البيعة لابنه عبدالله المأمون وذلك سنة أربع وتسعين ومائة ، فلما سمعت بذلك زبيدة وكان ابنها منه محمد الأمين كرهت منه ذلك وأكربها حتى ظهر على وجهها أثر الغم ، فدخلت على الرشيد يوماً تعاتبه في ذلك أشد المعاتبة . فقال لها الرشيد : ويحك إنما هي أمة محمد ورعاية من استرعاني الله تعالى طوقاً بعنقي ، وقد عرفت ما بين ابني وابنك ، ليس ابنك يا زبيدة أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعاية . قالت: ابني والله خير من ابنك ، وأصلح لما تريد ، ليس بكبير سفيه ، ولا صغير فهيه ، وأسخى من ابنك نفساً ، وأشجع قلباً . فقال هارون : ويحك ! إن ابنك قد زينه في عينك ما يزين الولد في عين الأبوين ، فاتقي الله ، فوالله إن ابنك لأحب إليّ ، إلا أن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً ، ولها مستحقاً ، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم ، وننقلب إليه بإثمهم ، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك ، فقعدت معه على الفراش .

فدعا ابنه عبدالله المأمون ، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة ، فأذن له بالجلوس فجلس ، وأمر له فتكلم ، فحمد الله على ما منّ به عليه من رؤية أبيه ، ويرغب إليه في تعجيل الفرج مما به ، ثم استأذن في الدنوّ من أبيه ، فدنا منه ، وجعل يلثم أسافل قدميه ، ويقبل باطن راحتيه ، ثم انثنى ساعياً إلى زبيدة ، فأقبل على تقبيل رأسها ، ومواضع يديها ، ثم انحنى إلى قدميها ثم رجع إلى مجلسه . فقال الرشيد : يا بني إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة ، وأقعدك مقعد الخلافة ، فإني قد رأيتك لها أهلاً ، وبها حقيقاً ، فاستعبر عبد الله المأمون باكياً ، وصاح منتحباً ، يسأل الله العافية من ذلك ، ويرغب إليه أن لا يرى فقد أبيه . فقال له يا بني : إني أراني لما بي وأنت أحق ، وسلم الأمر لله ، وارض به ، واسأله العون عليه ، فلا بد من عهد يكون في يومي هذا . فقال عبدالله المأمون : يا أبتاه ، أخي أحق مني وابن سيدتي ، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني ، ثم أذن له فقام خارجاً ، ثم دعا هارون بابنه محمد ، فأقبل يجر ذيله ، ويتبختر مشيته ، فمشى داخلاً بنعليه قد نسي السلام ، وذهل عن الكلام ، نخوة وتجبراً ، وتعظيماً وإعجاباً ، فمشى حتى

صار مستوياً مع أبيه على الفراش . فقال هارون : وما تقول أي بني ، فإني أريد أن أعهد إليك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ومن أحق بذلك مني ، وأنا أسن ولدك ، وابن قرة عينك . فقال هارون : اخرج يا بني ، ثم قال لزبيدة : كيف رأيت ما بين ابني وابنك ؟ فقالت : ابنك أحق بما تريد ، فكتب عهد عبد الله المأمون . ثم محمد الأمين بعده فلما كان سنة خمس وتسعين ومائة توفي الرشيد رحمه الله . انتهى منه .

حكاية هارون الرشيد مع الأعرابي

جاء في كتاب الإمامة والسياسة ما يأتي :

قال: وذكروا أن أعرابياً قدم على هارون الرشيد مستجدياً فأراد الدخول عليه فلم يمكنه ذلك . فلما رأى أنه لم يؤذن له ، أتى عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال له : توصل كتابي هذا إلى أميرالمؤمنين . وكان الرشيد قد عهد إلى حاجبه أن لا يحبس عنه كتاب أحد قرب أو بعد ، فأعطاه الأعرابي كتاباً فيه أربعة أسطر ، السطر الأول فيه : الضرورة والأمل قاداني إليك . والثاني : العدم يمنع من الصبر . والثالث : الانقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء . والرابع : فإما « نعم » مثمرة وإما « لا » مريحة . فلما وصل الكتاب إلى الرشيد قال : هذا رجل قد ساقته الحاجة ، ووصلت إليه الفاقة ، فليدخل . فدخل ، فقال له الرشيد : ارفع حاجتك يا أعرابي . فقال الأعرابي : إن مع الحاجة حويجات . فقال له الرشيد : ارفع حاجتك وحويجاتك تقضى كلها . فقال الأعرابي : تأمر لي يا أمير المؤمنين بكلب أصيد به فضحك الرشيد ، ثم قال له : قد أمرنا لك بكلب تصيد به . فقال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بدابة أركبها . فقال الرشيد : قد أمرنا لك بدابة تركبها . فقال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بغلام يخدم الدابة . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بغلام . قال الأعرابي : تأمر لي يا أمير المؤمنين بجارية تطبخ لنا الصيد ، وتطعمنا منه . فقال الرشيد : قد أمرنا لك بجاريتين جارية تؤنسك ، وجارية تخدمك . فقال الأعرابي : لا بد لهؤلاء من دار يسكنونها . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بدار . فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين يصيرون فيها عالة على الناس ، وعليّ كلالة ، لا بد لهم من ضيعة تقيمهم . فقال له الرشيد : قد اقتطعتك مائة جريب عامرة ، ومائة جريب غامرة . فقال الأعرابي : وما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال الرشيد : غير

معمورة تأمر بعمارتها . فقال الأعرابي : أنا أقطعتك ألف ألف جريب من أرض أخوالي بني أسد بالحجاز ، تأمر بعمارتها ، فضحك الرشيد وقال : قد أقطعتكها عامرة كلها . ثم قال الرشيد : تمت حويجاتك كلها يا أعرابي . فقال : نعم ، وبقيت حاجتي العظمى فقال له الرشيد : ارفعها تقضى . فقال : أقبل رأسك يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : هذا لا سبيل إليه . فقال الأعرابي : أتمنعني حقاً هو لي ، وتدفعني عما بذلت لي يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد : هذا الأمر لا يكون يا أعرابي ، ولا سبيل إلى مثل هذا . فقال الأعرابي : لا بد من أن أصل إلى حقي ، إلا أن أغصبه . فقال الرشيد : يا أعرابي أشتري منك هذا الحق الذي وجب لك . فقال له الأعرابي : هذا الحق مما لا يشترى ، وهل في الأرض من المال ما يكون ثمناً لهذا أو عوضاً منه ؟ لا والذي نفسي بيده ما في الدنيا صفراء ولا بيضاء يشتري بها هذا . فقال الرشيد : تبيعه ببعض ما تراه من الثمن ، فإنه لا يكون ولا يتوصل إليه . فقال الأعرابي : فإذا قد أبيت فأعطني مما أعطاك الله ، فأمر له بمائة ألف دينار ، فأتي بها إليه . فقال الأعرابي : ما هذه ؟ فقيل له : هذه مائة ألف دينار تأخذها . فقال الأعرابي : هي للغرماء علي ، وهم أولى بها مني . فضحك الرشيد ، ثم أمر له بمائة ألف أخرى . فقال : ما هذه ؟ فقيل له : مائة ألف ثانية ، والأولى للغرماء ، وهذه لك . فقال الأعرابي : هذه لضعفاء أهلي يصلهم بها أمير المؤمنين فبما أوسع على نفسي ؟ فأمر له الرشيد بمائة ألف ثالثة . فقيل له : هذا مائة ألف ثالثة ، وسع بها على نفسك في معيشتك ، أرضيت يا أعرابي ؟ فقال : نعم رضيت ، فرضي الله عنك يا أمير المؤمنين ، وابني فضالة يقرأ السلام عليك ، ويسألك مائة ألف يستعين بها في نكاحه ، ويتزين بها في دنياه ، وإنه قد جمع القرآن وعرف شرائعه وأحكامه ، وعلم ناسخه ومنسوخه ، وتفنن في ضروب من العلم وأحكم أنواع الأدب ، وقد جمع الدواوين والكتب وتبحر في فهم الحديث والأثر ، قد أخذ من كل علم أهذبه ، ومن كل ضرب أمحضه إلى لب اللبيب ، وعقل الرصين ، وعلم ثابت ، ونظر عجيب ، وفضل ودين ، يصوم النهار كله ويقوم الليل أكثره ، وقد صارخ كثير من الأهل والعيال وعدد من البنين والصبيان . فقال الرشيد : أو ليس تذكر يا أعرابي أنه يريد الاستعانة على النكاح ، والتوسع في المعاش ، ثم أراك تصفه بكثرة العيال وعدد البنين والصبيان ، فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه ذو ثلاث نسوة من حرائر النساء ، وتسعة من سرائر الإماء ، وهو ذو خمسة من الولد من كل مرة وذو سبع بنات من كل أمة ، ويبغي نكاح الرابعة الحرة استتماماً لما

أمر الله به في التنزيل المحكم وأباح في كتاب الناطق بكلام الصادق . فقال الرشيد : يا أعرابي قد سألت كثيراً ، فهلا سألت مائة ألف درهم فيعطاها . قال الأعرابي : فأعطه يا أمير المؤمنين تسعين ألف دينار أو حططها عنك عشرة آلاف دينار ، فقال الرشيد : والله قد سألت كثيراً وحططت قليلاً . قال الأعرابي : إنما سألتك يا أمير المؤمنين على قدرك ، وحططت على قدري ، فاختر ما شئت . فقال الرشيد : يا أعرابي إنما تريد مغالبتي لا غلبتني اليوم . فأمر له بمائة ألف دينار ذهباً . فقال له أمير المؤمنين : أرضيت يا أعرابي . فقال : ما بقي لي شيء يا أمير المؤمنين إلا الحملان والكسوة وطوائف الكوفة وتحف البصرة وجوائز الضيافة وحقها . فقال الرشيد : وما يصلح لك من الحملان يا أعرابي ، فقال: أقصد ما يكون دابة للجمال وأخرى للحملان ، وثلاثة للاسترحال ، ولابني مثل ذلك ، ومن الكسوة ما لا بد منه من ثياب المهنة والاستشعار وما لا غنى عنه من الوطاء والدثار ، مع رائع الثياب التي تكون للجمعة والجماعات والأعياد ، ولابني وبني ابني مثل ذلك . فدعا الرشيد بجعفر بن يحيى وقال : أرحني من هذا وأمر له بما سأل من الحملان وما أراد من ثياب المهنة والجمال ، وأغدق عليه من التحف والطرائف ما ترضيه بها ، وأخرجه عني . فخرج جعفر فأمر له بما سأل وأعطاه ما أراد . ثم انصرف الأعرابي راجعاً إلى الحجاز بأموال عظيمة لا يوصف أكثرها ولا يعرف أقلها ، وكل هذا يقل عندما عرف من جود الرشيد وسخائه وجزيل عطائه .

وفاة هارون الرشيد

جاء في محاضرات الخضري عن وفاته ما نصه : خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان سنة (١٩٢) قاصداً خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمد الأمين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبدالله المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر سنة (١٩٣) ثلاث وتسعين ومائة ، وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة (١٩٣) ثلاث وتسعين ومائة ، وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بنات فذكور أولاده : محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر ، وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى

الهادي، وعبدا لله المأمون والقاسم المؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى . وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة وبنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبدا لله العثمانية . انتهى من محاضرات الخضري .

وجاء في تاريخ القطبي : حكي عن الرشيد أنه كان رأى مناماً أنه يموت بطوس ، فلما وصل إلى طوس ، وقد غلب عليه الوعك ، عرف أنه ميت ، فبكى واختار لنفسه مدفناً وقال : احفروا لي قبراً في هذا المحل فحفروا له ، فقال : قربوني إلى شفيره ، فحملوه في قبة إلى أن نظر إلى القبر ، فسالت عبرته وزادت غبرته . وقال : يا ابن آدم إلى هذا تصير ولا بد من هذا المصير ، وأمر أن ينزل إلى لحده من يقرأ ختمة فيه ففعلوا ذلك . فمات وصلى عليه ابنه صالح وألحد في القبر بطوس ، لثلاث مضين من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين ومائة . وتقدم أن مولده بالري سنة ثمان وأربعين ومائة وكانت مدة ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ونصف رحمه ا لله تعالى . انتهى من تاريخ القطبي .

ترجمة السلطان سليمان خان

نذكر ترجمته بمناسبة وضعه للمسجد الحرام منبر الرخام الموجود إلى اليوم ، هو السلطان سليمان بن السلطان سليم خان ، ولي السلطنة بعد وفاة والده في سنة (٩٢٦) ست وعشرين وتسعمائة ، ومولده سنة تسعمائة ، واستمر في السلطنة تسعاً وأربعين سنة فكان عمره أربعاً وسبعين سنة وشهرين .

كان غازياً افتتح كثيراً من البلدان . كان أديباً شاعراً له ديوان بالتركي وآخر بالفارسي . كان مستقيم الحال صادق القول سديد الرأي لا يعرف المكر والنفاق ولا يحبهما .

أما أعماله الخيرية وعماراته للمساجد والمدارس والرباطات «أي التكايا» وإجراء العيون وبناء القلاع فكثيرة لسنا في صدد حصرها .

فمن ضمن أعماله في مكة شرفها ا لله تعالى أنه أرسل منبراً من الرخام الأبيض للمسجد الحرام سنة (٩٦٦) وهو منبر جميل الشكل بديع الصنع لا يزال قائماً بجوار مقام إبراهيم إلى يومنا هذا . وقد سبق الكلام على هذا المنبر في محله .

وقد عمل أيضاً ميزاباً لسطح الكعبة محلى بالفضة مطلياً بالذهب سنة (٩٥٩) وقد وقف على كسوة الكعبة المشرفة جملة قرى بمصر. وتقدم الكلام على هذه الوقفية.

ومن ضمنها صدقات عظيمة كانت ترسل سنوياً لأهل الحرمين، ووقف جملة قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين وجعل غلّتها وريعها لأهل الحرمين فكانت ترسل في كل عام ثلاث آلاف أردب من الحنطة لأهل مكة المكرمة وألفا أردب لأهل المدينة المنورة، ومنها صدقات الجوالي وهو جمع جالية ومعناه: ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها فكان يخرجها إلى العلماء والفضلاء من أهل الحرمين الشريفين ومن أهل مصر ومن المتقاعدين وغيرهم.

ومن ضمن أعماله العظيمة بمكة: إصلاح وتعمير عين حنين وعين عرفات فإنه رحمه الله أمر بتعمير هذه العين وكانت قد خربت وانقطعت، وإيصالها إلى مكة المشرفة. وعين لهذا العمل الجليل ناظراً يتولى شؤونها اسمه «مصلح الدين مصطفى» من المقيمين والمجاورين بمكة. فقام بهذا العمل خير القيام حتى وصل الماء إلى مكة. ثم إنه اشترى عبيداً سوداً وجعل لهم جرايات وعلوفات من خزائن السلطنة، برسم خدمة العين، من إخراج أتربة العيون وتنظيف القنوات فكانت خدمة العين خاصة بهؤلاء العبيد وبأولادهم من بعدهم طبقة بعد طبقة. وكل ذلك تم سنة (٩٣١) إحدى وثلاثين وتسعمائة.

ثم إنه وصل الخبر إلى السلطان سليمان أن الماء بمكة قليل وأنه من المستحسن إصلاح وتعمير (عين زبيدة) لأنها أقوى العيون غير أن قنواتها المبنية ودبولها المطوية مختفية تحت الأرض، تحتاج أولاً إلى الكشف عنها والاهتداء إلى أماكنها ثم إصلاحها وتعميرها.

فلما سمعت بهذا الخبر «خانم سلطان» ابنة السلطان سليمان خان المذكور طلبت من والدها أن يأذن لها بالقيام بتعمير وإصلاح «عين زبيدة» على حسابها الخاص فأذن لها في ذلك، فعينت للقيام بهذا العمل الأمير الكبير إبراهيم بن تغري بردى المهمندار ثم الدفتر دار بمصر. فسافر الأمير إبراهيم لخدمة هذا المشروع الجليل، فوصل إلى جدة في أواخر ذي القعدة سنة (٩٦٩) وقد أعطته السلطانة المذكورة أول دفعة للمصروفات خمسين ألف دينار ذهباً. ثم لا يزال يطلب

المصاريف اللازمة من الأبواب السلطانية حتى زاد المصروف على خمسمائة ألف دينار ذهباً . وقد تقدم الكلام على ذلك بالتفصيل .

ومن ضمن أعمال السلطان سليمان خان بناء أربع مدارس ، للمذاهب الأربعة ، يدرّس فيها علماء مكة الفقه وعلوم الشريعة والعربية . فعيّن السلطان لهذا الأمر الأمير قاسم أمير جدة . فقام ببناء كل ذلك حول المسجد الحرام ، وغير ذلك من البنايات اللازمة للمرافق العامة باسم السلطان سليمان خان . وعين السلطان سليمان خان وظائف للمدرسين والطلبة من أوقافه بالشام . وعين لكل مدرسة خمسين عثمانية في كل يوم ، وعين للمعيد أربع عثمانيات في كل يوم ، ولكل مدرّس خمسة عشر طالباً لكل طالب عثمانيتين ، وللفرّاش وللبوّاب نصف ذلك . يجهزها في كل عام ناظر الأوقاف السليمانية بالشام إلى مكة المكرمة .

إلى غير ذلك من الأعمال السلطانية ، فمن أراد استيفاء البحث والتفصيل فليراجع كتب التاريخ وكتاب تاريخ القطبي فإنا كتبنا هذه النبذة من هذا الكتاب .

حكاية سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم

جاء في كتاب الإمامة والسياسة ما نصه :

قال لما حج سليمان «أي في سنة ثمان وتسعين» ودخل المدينة المنورة زائراً ومعه ابن شهاب الزهري ورجاء ابن حيوة وأقام بها ثلاث أيام ، فقال : أما ههنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقيل له : بلى ههنا رجل يقال له أبو حازم فبعث إليه ، فجاءه وهو أقور أعرج ، فدخل عليه ، فوقف منتظراً للإذن . فلما طال عليه الإذن ، وضع عصيته ثم جلس . فلما نظر إليه سليمان ، ازدرته عينه . فقال له : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء الذي ظهر منك ، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ ، مع فضل ودين تذكر به ؟ فقال أبو حازم : وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها ، وأنت معدود فيهم و لم تأتني . فقال أبو حازم : أعيذك با لله أن تقول ما لم يكن ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ ، فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم . فكيف القدوم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أما المحسن فإنه يقدم

على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد . وأما قدوم المسيء فكالعبد الآبق ، يؤخذ فيشد كتفه فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ ، فإن شاء عفا وإن شاء عذب . فبكى سليمان بكاءاً شديداً ، وبكى من حوله . . ثم قال : ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : أعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب الله؟ قال عند قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ . قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين . قال سليمان : يا أبا حازم : من أعقل الناس ؟ قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمها الناس . قال سليمان : فمن أحمق الناس ؟ فقال : من حطّ في هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : فما أسمع الدعاء؟ قال أبو حازم : دعاء المخبتين الخائفين . فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله ؟ قال : جهد المقل . قال : فما تقول فيما ابتلينا به ؟ قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصلحك الله قال سليمان : نصيحة تلقيها . فقال : ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ، ولا اجتماع من المسلمين فسفكت فيه الدماء الحرام ، وقطعت به الأرحام ، وعطلت به الحدود ونكست به العهود ، وكل ذلك على تنفيذ الطينة والجمع لمتاع الدنيا المشينة ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها ، فيا ليت شعري ما تقولون ؟ وماذا يقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئس ما قلت يا أقور ، أمير المؤمنين يستقبل بهذا ؟ فقال أبو حازم : اسكت يا كاذب ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون ، إن الله قد أخذ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه ، أي لا ينبذونه وراء ظهورهم . قال سليمان : يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسدنا ؟ فقال : المأخذ في ذلك قريب - يسير يا أمير المؤمنين ، فاستوى سليمان جالساً من اتكائه . فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حلّه ، وتضعه وأهله وتكف الأكف عما نهيت ، وتمضيها فيما أمرت به . قال سليمان : ومن يطيق ذلك ؟ قال أبو حازم : من هرب من النار إلى الجنة ، ونبذ سوء العادة ، إلى خير العبادة . فقال سليمان : اصحبنا يا أبا حازم وتوجه معنا ، تصب منا ونصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك . قال سليمان : ولم يا أبا حازم؟ قال : أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا ، فيذيقني الله ضعف الحياة ، وضعف الممات . وقال سليمان : فتزورنا ؟ قال أبو حازم : إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون الملوك ، فصار في ذلك صلاح الفريقين ، ثم صرنا

الآن في زمان صار العلماء يأتون الملوك ، والملوك تقعد عن العلماء ، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعاً قال سليمان : فأوصنا يا أبا حازم وأوجز ، قال : اتق الله ألا يراك حيث نهاك ولا يفقدك من حيث أمرك ، قال سليمان : ادع لنا بخير فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته . قال سليمان : زدني . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاغتبط ، وإن كنت عدوه فاتعظ ، فإن رحمته في الدنيا مباحة ، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا ، فلا نفع في قوس ترمي بلا وتر . فقال سليمان : هات يا غلام ألف دينار . فأتاه بها ، فقال : خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لي بها ، لأني وغيري في هذا المال سواء ، فإن سويت بيننا وعدلت أخذت ، وإلا فلا ، لأني أخاف أن يكون ثمناً لما سمعت من كلامي ، وإن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين ، ووجد عليه الجاريتين تذودان فقال : ما لكما معين؟ قالتا : لا . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل . فقال : رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ، ولم يسأل الله أجراً . فلما أعجل الجاريتان الانصراف أنكر ذلك أبوهما . فقال لهما : ما أعجلكما اليوم؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً قوياً سقى لنا . قال : ما سمعتماه يقول؟ قالتا : تولى إلى الظل وهو يقول : رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير . فقال : ينبغي لهذا أن يكون جائعاً . تنطلق إحداكما فتقول له : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فأتته إحداهما تمشي على استيحاء ، أي: على إجلال له . قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فجزع موسى من ذلك ، وكان طريداً في الفيافي والصحاري . فقال لها: قولي لأبيك: إن الذي سقى يقول : لا أقبل أجراً على معروف اصطنعته ، فانصرفت إلى أبيها فأخبرته . فقال : اذهبي فقولي له : أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبي وبين تركه ، فأقبل فإنه يحب أن يراك ، ويسمع منك . فأقبل والجارية بين يديه ، فهبت الريح فوصفتها له ، وكانت ذات خلق كامل . فقال لها : كوني ورائي ، وأريني سَمْت الطريق . فلما بلغ الباب قال : استأذني لنا ، فدخلت على أبيها ، فقالت: إنه مع قوته لأمين . فقال شعيب : وبم علمت ذلك؟ فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها . فقال : أدخليه ، فدخل فإذا شعيب قد وضع الطعام ، فلما سلم رحب به وقال : أصب من طعامنا يا فتى . فقال موسى : أعوذ بالله. قال شعيب: لم؟ قال : لأني من بيت قوم لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. قال شعيب : لا والله ما طعامي لما تظن ، ولكن عادتي وعادة آبائي ، نقري الضيف ،

ونطعم الطعام . فجلس موسى فأكل . وهذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمناً لما سمعت من كلامي ، فإن أكل الميتة والدم في حال الضرورة ، أحب إلي من أن آخذها . فأعجب سليمان بأمره إعجاباً شديداً ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، إن الناس كلهم مثله . قال : لا . قال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة ، ما كلمته قط . فقال أبو حازم : صدقت ، لأنك نسيت الله ونسيتني ، ولو ذكرت الله لذكرتني . قال الزهري : تشتمني ؟ قال له سليمان : بل أنت شتمت نفسك ، أو ما علمت أن للجار على الجار حقاً . قال أبو حازم : إن بني إسرائيل لما كانوا على صواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء ، فلما رئي قوم من أراذل الناس ، تعلموا العلم ، وأتوا به الأمراء ، استغنت الأمراء عن العلماء ، واجتمع القوم على المعصية ، فسقطوا وهلكوا ، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم ، لكانت الأمراء تهابهم وتعظمهم . فقال الزهري : وكأنك إياي تريد ، وبي تعرض ؟ قال : هو ما تسمع . قال سليمان : يا أبا حازم عظني وأوجز ، قال : حلال الدنيا حساب وحرامها عذاب ، وإلى الله المآب . فاتق عذابك أو دع . قال : لقد أوجزت ، فأخبرني ما مالك ؟ قال : الثقة بعدله والتوكل على كلمه ، وحسن الظن به ، والصبر إلى أجله ، واليأس مما في أيدي الناس . قال يا أبا حازم : ارفع إلينا حوائجك؟ قال : رفعتها إلى من لا تختذل دونه ، فما أعطاني منها قبلت ، وما أمسك عني رضيت ، مع أني قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول شيئين : أحدهما لي والآخر لغيري . فأما ما كان لي : فلو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذي قدر لي . وأما الذي لغيري : فلذلك لا أطمع فيه فكما منعني رزق غيري كذلك منع غيري رزقي ، فعلام أقتل نفسي في الإقبال والإدبار ؟ قال سليمان : لا بد أن ترفع إلينا حاجة نأمر بقضائها . قال : فتقضيها ؟ قال : نعم . قال : فلا تعطني شيئاً أسألك ، ولا ترسل إليّ حتى آتيك ، وإن مرضت فلا تعدني ، وإن مت فلا تشهدني . قال سليمان : أبيت يا أبا حازم أبيت . قال : أتأذن لي أصلحك الله في القيام فإني شيخ قد زمنت . قال سليمان : يا أبا حازم مسألة ما تقول فيها ؟ قال : إن كان عندي علم أخبرتك به ، وإلا فهذا الذي عن يسارك ، يزعم أنه ليس شيء يسأل عنه إلا وعنده له علم ، يريد محمداً الزهري فقال له الزهري : عائذ بالله من شرّك أيها المرء . قال : أما من شرّي فستعفى ، وأما من لساني فلا . قال سليمان : ما

تقول في سلام الأئمة من صلاتهم أواحدة أم اثنتان ، فإن العلماء لدينا اختلفوا علينا في ذلك أشد الاختلاف قال : على الخبير سقطت ، أُريك في هذا بخبر شاف .

حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه سعد ، أنه شهد رسول الله ﷺ في الصلاة عن يمينه ، حتى يرى بياض خده الأيمن ، ثم يسلم عن يساره ، حتى يرى بياض خده الأيسر ، سلاماً يجهر به . قال عامر : وكان أبي يفعل ذلك .

وأخبرني سهل بن سعد الساعدي : أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلمان من الصلاة كذلك . فقال الزهري : أعلم ما تحدث به أيها الرجل ، فإن الحديث عن رسول الله ﷺ صعب شديد إلا بالتثبت واليقين . قال أبو حازم : قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك في رأسك . فالتفت الزهري إلى سليمان قال : أصلحك الله ! إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله ﷺ قط . فضحك أبو حازم . ثم قال : يا زهري أحطت بحديث رسول الله ﷺ كله ؟ قال : لا . قال : فثلاثة أرباع . قال : رويت وبلغني . فقال أبو حازم : فهذا من الثلث الذي لم يبلغك ، وبقي عليك سماعه . فقال سليمان : ما ظلمك من حاجك . ثم قام مأذوناً له . فأتبعه سليمان ببصره ، ينظر إليه ، ويعجب به . ثم التفت إلى جلسائه فقال : ما كنت أظنه بقي في الدنيا مثل هذا . قال : ثم انصرف سليمان من الحج قافلاً إلى الشام . انتهى من كتاب الإمامة والسياسة.

ترجمة الأمير سُودُون المحمَدي

لما تولى السلطنة الملك الظاهر جقمق العاشر من ملوك الجراكسة ، التفت أول ما ولي إلى مكة المشرفة ، فأرسل خِلعاً ومراسيم للسيد بركات بن حسن عجلان بولاية مكة ، وأرسل إليه سودون المحمدي ليكون أميراً على خمسين فارساً من الترك ويقيم بمكة ليشيد بها العمائر ، ثم أضيف إليه نظارة المسجد الحرام والعناية بمرافق الحجاج وغير ذلك . فقام الأمير سودون بما أسند إليه حق القيام بإخلاص وصدق نية .

ولقد ذكر القطبي في تأريخ ما قام به من الأعمال الجليلة نأتي به ملخصاً من كتابه ، قال : وكان من عمارة الأمير سودون المحمدي بالمسجد الحرام في سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة ، أنه قلع الرخام الذي على سطح الكعبة الشريفة ، وغيّر جميع أخشابها المتآكلة فجرد الكعبة يومين وليلتين يشاهد الناس أحجارها إلى

أن أكمل ترميمها وإصلاحها وأعيدت الكسوة عليها . وأصلح أيضاً رخام داخل الكعبة ورخام حجر إسماعيل وأصلح مئذنة باب العمرة ومئذنة باب علي ، وأصلح سقف بعض الجهات من المسجد الحرام ، وجعل على كل ميل في المسعى قنديلا بالليل تضيء للناس وكذلك جعل على الصفا والمروة .

وقد عمّر الأمير سودون المذكور بعض المواضع المأثورة في منى وفي المشعر الحرام بمزدلفة ومسجد نمرة بعرفة ، وقطع جميع أشجار السلم والشوك التي كانت تؤذي المارة في طريق عرفة وتمزق كسوة الشقادف والتي كانت الحرامية تكمن تحتها . وقد أزال الصخار الكبار ونظف طريق الحج ووسعها ، إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة في بلد الله الحرام رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

فرش وتعمير المسجد الحرام

فرش المسجد الحرام بالبطحاء وغيرها

أول من حصّب أرضية المسجد الحرام -أي فرشه بالحصباء- عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان أول بدئه بالمسجد النبوي . فقد ورد عن ابن عمر أنه سئل عن ذلك ، فقال : مطرنا ليلة فخرجنا لصلاة الغداة ، فجعل الرجل منا يحمل في ردائه من الحصباء فيفرشه على البطحاء ويصلي عليه . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال : ما أحسن هذا البساط ، ثم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته بتحصيبه من وادي العقيق .

وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أن مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية رضي الله عنه لما زاد في جامع عمرو بن العاص الذي بالفسطاط سنة ثلاث وخمسين فرشه بالحصر وكان مفروشاً بالحصباء. اهـ .

فعلم أن فرش أرضية المسجدين الحرامين بمكة والمدينة كان أولاً بالحصباء والبطحاء وكانت أرضهما قبل ذلك تراباً من نفس تراب البلدة ، ثم فرشت بالحجارة الصخرية السوداء من نفس جبال البلدة أيضاً ، ثم فرشت بالمرمر الرخام كما هو الآن ، ثم فرش فوق الرخام المفارش الهندية الخفيفة ، وبالبُسط الثقيلة العجمية . ولم يفرش المسجدين الحرامين بالحصر مطلقاً . وقد فرش المسجد النبوي بالمفارش العجمية قبل المسجد الحرام لصغره . أما المسجد الحرام فلم يفرش

بالمفارش العجمية الثقيلة الرومية إلا في عصرنا الحاضر . وكان ذلك سنة (١٣٧٤) فرشه المحسن الكبير والتاجر الشهير السيد حسن الشربتلي من أعيان جدة . كل ذلك بحسب التطور العمراني .

أما بقية المساجد في البلدان الإسلامية ، فكانت أرضيتها لأول مرة من نفس تراب البلدة ، ثم فرشت بالحصباء تقليداً للمسجدين الحرامين بمكة والمدينة ومسجد عمرو بن العاص ، ثم فرشت بالحصر والبسط البلدية أو العجمية ، لأن كل ذلك ميسور في البلدان الأخرى لأنها بلاد زراعية وغنية . وإليك الأدوار التي مرت بفرش المسجد الحرام.

وضع الحصى والبطحاء في المسجد الحرام

نقل الغازي عن ابن فهد : أنه في سنة ٨٣٠ جعل شاهين العثماني ورفيقه سعد الدين الفوّي المصري الحصباء والبطحاء في المسجد الحرام ، وعمل إصلاحات كثيرة فيه ، كما هو مذكور في محل آخر من هذا الكتاب . وكان معهما مراسيم بعمارة المسجد الحرام .

يقول ابن جبير في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) بصحيفة ٦٨ ما نصه : «وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسناً منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطىً إلا في الجهة التي تقابل المقام فإنها امتدت إليها حتى أحاطت به ، وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض وطواف النساء من آخر الحجارة المفروشة» . انتهى منه .

ويقول ابن بطوطة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) بصحيفة ٨٤ ما نصه : «وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطىً إلا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به ، وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء من آخر الحجارة المفروشة» انتهى منه .

وفي سنة (١٣١٤) أصلحوا الأحجار المرصوفة على أرض الأروقة والمماشي ورمموا المنابر وأبواب المسجد .

وفي سنة (١٣٢٧) دخل المسجد سيل عظيم حصل بسببه خلل في بلاطه وجداره وميلان في بعض أسطواناته، فقاموا بإصلاح كل ذلك وأصلحوا بلاط الأروقة والأبواب والمنابر.

وكذلك في سنة (١٣٣٨) وسنة (١٣٤٤) أصلحوا ما خرب من بلاط الأروقة والمماشي ونحو ذلك.

وفي سنة (١٣٤٦) صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى بإصلاح عام للمسجد الحرام فرمموا فرش أروقة المسجد من جهاته الأربعة وغير ذلك مما هو مذكور في محله.

فرش المسجد الحرام بالطبطاب والحجارة والرخام

في ابتداء سنة (١١٣٤) بدأ المعمار محمد أفندي في ترميم المسجد الحرام وفرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة وكان قصده فرش جميع المسجد بالحجر وقلع جميع الطبطاب الذي فيه لأن الحجر أبقى وأقوى من الطبطاب.

ثم في سنة (١١٤٠) فرش المسجد الحرام جميعه بالحجارة المنحوتة. وأزيل ما كان فيه جميع الطبطاب. قاله الغازي نقلاً عن إتحاف فضلاء الزمن.

وفي سنة (١٢٦٦) فرشت رحبة باب السلام من خارج الباب بالرخام الأبيض وكانت قبل ذلك سقاية يباع فيها الماء. وربما كشف بعض الناس عورته واستنجى فواجه البيت الشريف. وكانوا يوسخون الحرم فأزيل ذلك جزى الله فاعله خيراً. وكان ذلك في أيام السلطان عبد المجيد خان.

وفي سنة (١٢٧٩) دخل سيل عظيم للمسجد الحرام حتى وصل إلى قفل باب الكعبة ومات فيه أناس كثيرون وخربت أرضية المسجد والمماشي وحاشية المطاف فورد الأمر من السلطان عبد العزيز خان بإصلاح الحرم الشريف بنظارة الشريف عبدالله ابن المرحوم الشريف محمد بن عون ووالي شيخ الحرم الحاج أحمد عزت باشا فشرعوا في تعميره وأخرجوا جميع ما في الرواقات والمماشي وحاشية المطاف من الطبطاب القديم وأبدلوه بطبطاب جديد وأتقنوا إصلاح الحرم إصلاحاً تاماً.

دكة باب الزيادة

قال الغازي نقلاً من بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى : وفي يوم الخميس تاسع شهر ذي القعدة سنة ٩١٧ بنيت دكة ثانية بالزيادة وهي التي تلي باب الزيادة وجعل فيها باقي ما خرج من الحجر ومن بئر زمزم ومن مقام الحنفي .

وفي سنة (١٢٥٧) أو في التي بعدها جعلوا ما زاد من الحجارة في العمارة التي وقعت في السنة المذكورة دكة عند باب الزيادة وطبطبوا ظاهرها .

المماشي التي بالمسجد الحرام

نقل الغازي عن منائح الكرم ، قال : قال العلامة الشيخ عبدالرحمن بن عيسى المرشدي في بعض مسوداته : وأما المماشي الأربعة ، التي أحدها إلى باب السلام والأخرى إلى باب الصفا والأخرى إلى باب العمرة والأخرى إلى باب الحزورة والجناحان اللذان بجانبي مقام الحنفي والفرش الذي خلفه والذي تجاه المنبر كل ذلك محدث بعد أن فرش المطاف بالمرمر وذلك سنة (١٠٠٣) ألف وثلاثة . فإنهم كانوا كلما قلعوا شيئاً من المطاف جعلوه في هذه الأماكن ، وكذلك المحل الذي جعل مصلى لشريف مكة بصحن المسجد مما يلي أم هانئ انتهى .

نقول : الذي يظهر من الكلام المذكور أن المماشي التي بالمسجد الحرام لم تكن قبل سنة (١٠٠٣) لأنها أحدثت بعد فرش المطاف بالمرمر ونعتقد أنها أحدثت في عهد السلطان محمد خان الذي أمر بفرش المطاف بالمرمر في السنة المذكورة أو في سنة (١٠٠٦) أو في سنة (١٠١٠) كما ذكرنا ذلك في محله وا لله تعالى أعلم .

ويظهر أيضاً من الكلام المذكور أن ما قلع من المطاف من الحجارة والتراب وغيرهما جعلوه في المماشي وفي الجناحين اللذين بجانبي مقام الحنفي وفي الفرش الذي خلفه والذي تجاه المنبر .

وفي سنة (١١١٢) عمّر إبراهيم بيك بعض المحلات في المسجد الحرام منها إصلاح المماشي .

وفي سنة (١٢٥٧) أو في التي بعدها ، صدر أمر السلطان عبدالمجيد خان بإصلاح المسجد الحرام ، فشرعوا في إصلاح أشياء كثيرة منها ، أصلحوا المماشي ، وزيد في ممشى باب الصفا ، وأحدثت ممشاه باب علي ، وبيضوا جميع الحرم .

تعمير المسجد الحرام في الدولة العثمانية

من ذكر تجديد آل عثمان الحرم الشريف وتغيير سقفه بقبب وانتظامه بهذه الحالة الموجودة الآن وعدد أساطينه وقببه وشرفاته وأبوابه ومنائره وذكر ذرعه

قال العلامة قطب الدين رحمه الله في الإعلام : (اعلم) أن هذه العمارة الموجودة الآن وقعت في أيام السلطان سليم خان عليه من الله الرحمة والرضوان ، وسبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام أن الرواق الشرقي منه مال إلى ناحية الكعبة الشريفة ، بحيث برزت رؤوس أخشاب السقف من محل تركيبها في جدار المسجد . وذلك الجدر هو جدر مدرسة قايتباي وجدر المدرسة الأفضلية في شرق المسجد وفارق خشب السقف عن محل تركيبه في الجدر المذكور أكثر من ذراع ، ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً بيّناً . وصار نظار الحرم يصلحون المحل الذي فارق الخشب إما بتبديل خشب السقف بأطول منه ، أو بنحو ذلك من العلاج . وأما الرواق الذي ظهر ميله إلى صحن الحرم فترّسوه بأخشاب كبار ، حفروا لها في أرض المسجد ، لأجل أن تمسكه عن السقوط . واستمر الرواق الشرقي متماسكاً على هذا الأسلوب في أواخر دولة السلطان سليمان وصدر أمر دولة المرحوم السلطان سليم خان ثم لما كثر ميلان الرواق المذكور عرض ذلك على السلطان المرحوم سليم خان في سنة تسع وسبعين وتسعمائة فبرز الأمر بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإتقان والإحكام وأن يجعل عوض السقف قبباً دائرة بأروقة المسجد الحرام ليأمن التآكل فإن خشب السقف كان متآكلاً من جانب طرفيه بطول العمد وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبه بخشبة أخرى في كل قليل ، إذ لا بقاء للخشب زماناً طويلاً مع تكسير بعضه .

وكان له سقفان ، بين كل سقف فرجة قدر ذراعين بذراع العمل . وكانت الحيات والدواب تأوي بين هذين السقفين . فكان من أحسن الرأي تبديل السقوف بالقبب لتمكنها ، ودفع مواد الضرر عنها . ووصلت أوامر السطان إلى نائبه بمصر وهو الوزير سنان باشا فعين الوزير لهذه الخدمة الشريفة أحمد بيك

وأضيف إليه بقية عمل دبل عين عرفات من الأبطح إلى أسفل مكة على ما يأتي ذكر ذلك، في ذكر عيون مكة إن شاء الله تعالى وأضيفت إليه صنجقية جدة فبعد ورود الأوامر السلطانية إليه أخذ في أهبة السفر وتوجه من طريق البحر إلى بندر جدة ثم وصل إلى مكة في أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة. وكانت الأوامر السلطانية والمتكلم عليها من جانب السلطنة مولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام ببلد الله الحرام الشيخ حسين الحسيني المالكي ففرح بهذه الخدمة الشريفة وصارت بين مولانا الشيخ والأمير أحمد بيك غاية الملائمة والاتفاق وبذلك حصل المراد وجرت عادة الله أن الخير كله في الوفاق والشر جميعه في الشقاق ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار أجمع المهندسون على تقدمه في هذه الصناعة اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالي فاتفق الناظر والأمين والمعمار على الشروع في هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصلوا الأساس فبدأ بالهدم من جهة باب السلام في منتصف ربيع الأول سنة تسعمائة وثمانين وأخذت المعاول تعمل في رؤوس شرفات المسجد وطبطابه الذي على سقفه إلى أن ينكشف السقف فتنزل أخشابه إلى الأرض وتجتمع في صحن المسجد وينظف الأرض من نقض البناء وأتربته وتحمل على الدواب وترمى في أسفل مكة ثم تمال أساطين الرخام إلى أن تنزل بالرفق إلى الأرض واستمروا على هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك من باب السلام إلى باب علي وهو الجانب الشرقي من المسجد ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلاً فأخرجوا الأساس جميعه وكان جدراً عريضاً نازلاً في الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قاعدة تركيب الأسطوانة على تلك القاعدة فشرعوا أولاً في وضع الأساس على وجه الإحكام والإتقان من جانب باب السلام لست مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين وتسعمائة. واجتمعت من أهالي مكة في ذلك اليوم من الأشراف والعلماء والصالحين والفقراء وباشروا من ذلك العمل شيئاً تبركاً وقرأت الفواتح وذبحت الأبقار والأنعام والأغنام وتصدق بها على الفقراء والخدام ووضع الأساس المبارك بإعانة الله تعالى وكان يوماً مشهوداً مباركاً و لله الحمد على هذا الإكرام وله الشكر والثناء والحسن في المبدأ والختام وكانت الأساطين المبنية سابقاً على نسق واحد في جميع الأروقة فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها لقلة استحكامها إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربعة فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى

تبنى من الحجر الشميسي الأصفر يكون سمكها مقدار سمك أربع أسطوانات من الرخام ليكون مقيماً لها من كل جانب فيقوى على تركيب القبب من فوقها ويكون كل صف من أساطين الأروقة الثلاثة في غاية الزينة والقوة ففي أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسي ثم أسطوانة رخام أبيض من أساطين الرواق السابق عليهما عقد ثم أسطوانة رخام كذلك بينها وبين الذي قبلها عقد آخر، ثم أسطوانة رخام كذلك، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسي، وهكذا إلى آخر الصف الأول ثم الثاني ثم الثالث، وهكذا في جميع الأروقة. ثم بنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين في دور المسجد جميعه. وشرعوا من ركن المسجد الشريف، من جهة باب السلام كما تقدم، وقاسوا تلك الصفوف بخط مستوى، وأزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار والاعوجاج. والحجر الشميسي نسبة إلى شُمَيْس تصغير شمس جبل بقرب بئر شميسي، وهي حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر تكسّر منها هذه الأحجار، وتحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة فكان في إدخال هذه الدعامات الصفر ما بين الأساطين البيض حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة وهي أن أساطين الرخام الباقية في المسجد الحرام ما كانت تفي بجوانبه الأربع لأن الجانب الغربي منه احترقت أساطينه الرخام في أيام الجراكسة كما تقدم وبإدخال هذه الدعائم كانت كلها على نسق واحد لأن كل ثلاثة أساطين من الرخام بينها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربعة. فلما كمل الجانبان من المسجد الحرام، وهما الجهة الشرقية والجهة الشمالية، جاء خبر وفاة السلطان سليم خان عليه سحائب المغفرة والرضوان. ثم تولى بعده السلطان مراد خان فأول ما بدأ به أن برز أمره الشريف إلى أمير العمارة أحمد بيك والشيخ حسين والمعمار في إنجاز بقية إكمال المسجد الحرام على ما كانوا عليه من العمل السابق وكان قبل وصول الأمر جاء سيل عظيم سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وكانت ليلة الأربعاء وعاشر جمادى الأول حتى بلغ المطاف ووصل إلى قفل البيت الشريف وبقي الماء يوماً وليلة بموجب الطين والتراب الكائن بسبب عمارة المسجد وتعطلت الجماعة سبعة أوقات. فبادر الناظر وشريف مكة والقاضي حسين والمعمار والفقهاء والأعيان إلى تنظيف الحرم وغسل الكعبة وشرع المعمار في قطع مسيل وادي إبراهيم من الجانب الجنوبي إلى أن ظهرت عشر درجات كانت مدفونة. فصار السيل إذا أتى انحدر بسهولة إلى المسفلة. وكذلك قطع من جهة

باب الزيادة في الجانب الشمالي وهو ممر سيل قعيقعان والفلق والقرارة فصار إذا سال سيل قعيقعان وحواليه وجرى إلى باب الزيادة لم يصعد إلى أبواب المسجد بل جعل هناك سرداباً واسعاً يسمى العنبة -ويسمى مير ياخور لأن الذي قام بعمارته كان مير آخور أي كبير اصطبل لبعض الملوك وجميع البيوت الكائنة ثمة دبولها ومراحيضها مسلطة عليه فتنحدر بها السيول في الدبول إلى أسفل مكة من جهة المسفلة وبركة ماجن. انتهى.

ذكره اللبني في شرح رسالة ابن زيدون- يجري الماء فيه إلى أن يخرج من قرب باب إبراهيم فيسيل إلى أسفل مكة مع السيل الكبير وصان الله تعالى المسجد الحرام بذلك وصارت السيول بعد ذلك تسيل ولم تصل إلى باب المسجد ولم تقرب منه وهذا رأي سديد وعمل مهم نافع ينصان به المسجد الحرام عن دخول السيل إليه غير أنه يحتاج إلى أن يتفقد في كل عامين أو ثلاثة أعوام فيقطع ما علا من الأرض ليستمر المسيل منهبطاً دائماً لجريان السيل فيه صوناً للمسجد الحرام عن دخول ماء السيل إليه في كل سيل يأتي.

وفي تلك المدة وصلت الأوامر السلطانية في بقية إكمال المسجد الحرام على ما كانوا عليه من العمل السابق فشرعوا في ذلك العمل إلى أن أتموا الجانب الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع قببه وشرافاته ودرجاته من داخل المسجد الحرام وخارجه في أيام هذا السلطان الأعظم الأكرم وكان ذلك في آخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة فصار المسجد الحرام نزهة للناظر وبغية للخاطر واخترع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان ونظم راقم هذه الأرقام تاريخاً يليق أن يكتب في هذا المقام وهو هذا:

جدد السلطان مراد بن سليم	مسجد البيت العتيق المحترم
سرّ منه المسلمون كلهم	دار منشور اللواء والعلم
قال روح القدس في تاريخه	عمر سلطان مراد الحرم

ولشيخ الإسلام وناظر المسجد الحرام مولانا السيد القاضي حسنين الحسين قاضي المدينة سابقاً تاريخ جعله لهذه العمارة كتب نصفه في الوسط الأعلى من صدر الرواق الشرقي المقابل لجهة الكعبة المشرفة والنصف الآخر كتب في صدر الرواق الغربي المطل على الجهة الغربية وهذا نص ما كتب في الجهة الشرقية: باسمه سبحانه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة

ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين، شرع في عمارة هذا الحرم الشريف وتجديده من اختاره من خلفائه وعبيده المقدس المرحوم السعيد المبرور المغفور له الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين خاقان خواقين العالمين، المستفيء بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم سلطان سليم، نوّر الله تعالى ضريحه وروّح بروائح الجنان روحه، بناه وأكمله وأتقنه وحسنه وجمله وارث الملك الأعظم الإمام الأفخم والخليفة الأكبر الفطمطم والملك القاهر العرمرم، من ملّكه الله شرق البلاد وغربها وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها وأطلعه سراجاً منيراً في المشارق والمغارب وملكاً مرفوعاً على هام الكواكب -إلى هنا مكتوب في الجهة الشرقية- والباقي مكتوب في الجهة الغربية وهذا نصه: وصيره للإسلام حصناً محيطاً وجعل ظله المديد على كافة الناس بسيطاً وعدله الفريد جميع الوجود مبسوطاً وقمع لسلطنته الشريفة طوائف الكفر والعناد وجمع له بين الملك في الدنيا والفوز في المعاد خليفة الله على كافة العباد ورحمه الله الشاملة لجميع البلاد سلطان سلاطين الزمان خلاصة آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الخنكار الأعظم مراد لا زال الوجود بدوام خلافته عامراً ولا برح الإيمان في أيام سلطنته قوياً ظاهراً زاده الله قوة ونصراً وشد بملائكته الكرام أزراً فتاريخ تمامه قد جاء: (أطال الله لمن أتمه عمراً). انتهى.

قال: ثم ورد من الباب الشريف العالي تاريخ لا أعلم من أبدعه واخترعه وورد معه حكم سلطاني يتضمن الأمر بكتابته على بعض أبواب المسجد الحرام.

فكُتب هذا التاريخ على باب سيدنا العباس إلى باب علي رضي الله عنهما، في الجانب الشرقي خارج المسجد. ونقر له في الحجر الشميس وطلي محل الذهب في ذلك المقام ليقرأه الخاص والعام ويبقى ذلك النص في الحجر على صفحات الليالي والأيام وهو هذا:

الحمد لله الذي أسس بنيان هذا الدين المتين بنبي الرحمة والإرشاد وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد وجعل حرم مكة مطاف لطواف الطائفين الحاجين من أقاصي البلاد صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأجلّة والأمجاد، ووفق عبده المعتاد بإحكام الأحكام الشريفة وتشييد أركانها على وجه المراد، المذخر ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد، أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان السلطان مراد، جعل الله الخلافة فيه وفي أعقابه إلى يوم

التناد لتجديد معالم المسجد الحرام الذي سواء العاكف فيه والباد ، فتم في افتتاح سلطنته العظمى لا زال للحرمين المحترمين خادماً ، ولأساس الجور والاعتساف هادماً ، بتجديد حرم بيت الله عز وجل بأمره المعزز المبجّل وعمر عامر جوده ما تضعضع من أركانه بعدما كان ينفض عوالي جدرانه فجدد جدران البيت العتيق وسوره بأكمل زينة وصونه بعد ما أبلاه الجديدان وأكل عيدان أرضها الأرضة والديدان ، فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب ، وابتهج لهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب ، فأذعنوا له بالشرف الباهر والمجد الفاخر تالين قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وداعين له من الله الجميل والذخر الزاخر قائلين اللهم أدمه في سرير الخلافة محروساً يحفظك من آفة ، وظافراً على من يريد خلافه ، مشيداً للمساجد والمدارس مجدداً لكل منهدم ودارس ، واجعل بابه للراجين حرماً آمناً وجنابه للمحتاجين كفيلاً ضامناً يأتون إليه من كل فج عميق ، لحرمة البيت العتيق ، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول هذا الدعاء الحري بالقبول ، فلما أسس بنيابه على تقوى من الله ورضوان ، جاء مشيد الأركان ، حاكياً روضات الجنان ، وصار عنوان خلافته ، وبراعة استهلاله لمنشور سعادته في أوائل سنة أربع وثمانين وتسعمائة الهجرية وكان الابتداء بذلك التجديد ، بأمر والده الدراج إلى مدارج الملك المجيد ، السلطان السعيد يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم ، السلطان سليم ابن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان أدرخان ابن السلطان عثمان مكنهم الله على سرر في دار الجنان ، وأثل إخلافهم في مسند الخلافة إلى انقراض الزمان .

وكان الشروع في الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن تسليم ، وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله له في الجنة من القصور ، قبل تمام ما رام ، من تجديد المسجد الحرام ، وأجلس الله على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس ، وجعل حرمه مثابة للناس ، يسر الله له الإتمام بطلعة إقباله وجوده الليالي والأيام ، وأنام الأنام في مهد عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ، وأخبرني الأمير المعظم أحمد بيك أن الذي صرفه في عمارة المسجد الحرام هدماً وبناءً وقطعاً لأرض المسيل من جهة الجنوبي إلى آخر المسفلة ومن جهة باب الزيادة إلى آخر مجرى سرداب العنبة من خاصة أموال السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى مائة ألف دينار ذهب جديد سلطاني وذلك غير

ثمن الأخشاب المحمولة من مصر إلى مكة المشرفة وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة كالمساحي والمجارف والمسامير والحديد المحدّد رأسه بطول الرواقين وبين الأسطوانتين تحت كل عقد كيلا يجلس طير الحمام وغيره عليه فيلوث المسجد بذرقه وهذا الحديد لتحديد رأسه وتواصله يمنع من جلوس الطير عليه وغير أهلة القبب التي عملت بمصر من النحاس وطليت بالذهب وجهزت إلى الحرم الشريف فركبت على أعلى القبب فصار لها منظر حسن وزينة عظيمة . انتهى .

ذكر أساطين المسجد الحرام وقببه وشرفاته وأبوابه ومنائره

أما أساطين المسجد الحرام فقال العلامة قطب الدين رحمه الله : اعلم أن أساطين المسجد الحرام قبل هدمها وتجديدها على ما كانت عليه قبل هذه العمارة الشريفة جملتها في جوانبه الأربعة غير الزيادتين أربعمائة أسطوانة وتسع وستون أسطوانة وما على أبوابه سبع وعشرون أسطوانة فتكون جملة أساطين الجوانب الأربعة من المسجد الحرام وأساطين أبوابه الشريفة أربعمائة أسطوانة وست وتسعين أسطوانة بتقديم التاء على السين غير ما كانت من أساطين الزيادتين . فكانت في الجانب الشرقي ثمان وثمانون أسطوانة كلها رخام مخروط ما عدا أسطوانة واحدة في الصف الأوسط عند باب علي فإنها من الآجر مبنية بالنورة مبيضة بالجص وكان في الجانب الشمالي ويقال له الشامي مائة أسطوانة وأربع أساطين كلها رخام ما عدا أربع عشرة أسطوانة من آخر الصف الأوسط مما يلي باب العجلة إلى باب السدة فإنها حجارة منحوتة وكان في الجانب الجنوبي ويقال له اليماني مائة وأربعون أسطوانة كلها رخام ما عدا خمساً وعشرين أسطوانة في مؤخر هذا الرواق عند باب أم هانئ فإنها كانت حجارة منحوتة وكان في الجانب الغربي سبع وثمانون أسطوانة كلها حجارة منحوتة قطع دون الذراع منحوتة في شكل نصف دائرة مركبة على اثنتين منها اثنتين إلى أن يطول في شكل أسطوانة الرخام مسبوك بينهما بالرصاص في داخلها ووسطها حديد بطول الأسطوانة منحوت مكانه في وسط الحجر مسبوك عليه بالرصاص عمل ذلك في أيام الملك الناصر فرج بن برقوق لما احترق هذا الجانب الغربي من المسجد الحرام في آخر شوال سنة ٨٠٢ . . . كما تقدم شرحه في محله فيكون جميع ما أدركناه من الأساطين الرخام ثلثمائة وأربعين أسطوانة وجميع ما فيه من الأساطين غير الرخام

مائة وتسعة وعشرون أسطوانة وأما أساطين زيادة دار الندوة فأدركناها ستاً وستين أسطوانة من جوانبها الأربعة كانت من الحجر الغشيم غير منحوت مطلية بالجص الأبيض من ظاهرها وقد ينكشف عنها الجص فيظهر الحجر الغشيم منها في الجانب الشرقي اثنتا عشرة أسطوانة وفي الجانب الشمالي عشرون وفي الجانب الغربي إحدى عشرة، وفي الجانب الجنوبي ثلاث وعشرون أسطوانة. وأما زيادة باب إبراهيم فقد كان فيها في الرواق سبع عشرة أسطوانة من الحجر المنحوت صفين متصلين في الرواق القبلي الذي يلي المسجد الحرام اثنتان منها لاصقان برباط رامشت على يمين المستقبل واثنتان لاصقتان برباط الخوزي على يسار المستقبل. وفي الجانب الشمالي ست أساطين وفي الجانب الجنوبي ست أساطين إحداها لاصقة بالمنارة التي كانت لهذه الزيادة ولم تكن بالجانب الغربي من هذه الزيادة أساطين.

وأما عدد شرفات المسجد الحرام من داخله فكانت أربعمائة شرافة وسبعة أنصاف شرافات.

وأما الشرافات التي كانت على جدر المسجد من خارجه فهي اثنتان وخمسون شرافة متفرقة على أبواب المسجد الحرام، وفيما بينها دور وربط ومدارس، متصلة بجدر المسجد الحرام، ليس فيها شرافات. وكانت في زيادة دار الندوة من جوانبها الأربعة التي تلي بطنها اثنتان وسبعون شرافة، ولا شرافة للجهة الخارجة لإحاطة الدور بها. وكانت في زيادة باب إبراهيم، مما يلي بطنها، في ثلاث جهات منها وهي: القبلي واليماني والشامي بضع وأربعون شرافة.

وأما أبواب المسجد الحرام فهي تسعة عشر باباً، كانت تفتح على ثمانية وثلثين طاقاً. وهي باقية على حالها ما عدا باب واحد في زيادة دار الندوة. وكان يفتح على طاقين، فزادها الأمير قاسم أمين بناء المدارس الشريفية السلطانية السليمانية طاقاً واحداً، وصار على ثلاث طاقات. فصارت طاقات أبواب المسجد الحرام الآن تسعة وثلاثون طاقاً، في كل طاق درفتان. وسيأتي تفصيلها بعد ذكر الأسطوانات المتجددة في عصرنا هذا.

والذي اشتمل عليه المسجد الحرام الآن من الأساطين الرخام والأساطين الصفر الشميسي والقبب والطواجن وشراريف المسجد الحرام فهي ما نذكره فأما الأسطوانات الرخام فعددها ثلثمائة وإحدى عشرة أسطوانة. ففي جهة شرقي

المسجد الحرام وهي ما يقابل باب البيت الشريف اثنتان وستون أسطوانة رخام وفي جهة شامية ويقال له الجانب الشمالي وهو ما يقابل الحجر الشريف إحدى وثمانون أسطوانة رخاماً وفي جهة غربية وهو ما يقابل المستجار العظيم أربع وستون أسطوانة منها ست أسطوانات من الحجر الصوان والباقي من الرخام وفي جهة جنوبيه وهو ما يقابل الركنين ثلاث وثمانون أسطوانة منها إحدى عشرة من الحجر الصوان والباقي من الرخام وفي زيادة دار الندوة خمس عشرة أسطوانة من تلك واحدة من الحجر الصوان وفي زيادة باب إبراهيم ست أسطوانات وأمام الأسطوانات الصفر الشميسي فجملتها مائتان وأربع وأربعون أسطوانة ، وهي عبارة عن شكل مثمن أو مسدس أو مربع على حسب ما اقتضاه المكان ، وهي في طول الأسطوانة العليا مقدار الثلث من الحجر الصوان المنحوت ، وثلثاها من الحجر الشميسي المنحوت . فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام ثلاثون أسطوانة ، وفي جهة شامية أربع وأربعون أسطوانة ، وفي جهة غربية ست وثلاثون أسطوانة ، وفي جهة جنوبية ست وسبعون أسطوانة وأربع في أركان السمجد ، وفي زيادة دار الندوة ست وثلاثون أسطوانة ، وفي زيادة باب إبراهيم ثماني عشرة .

وأما القبب فعددها مائة واثنتان وخمسون قبة . فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام أربع وعشرون قبة ، وفي الجانب الشامي ست وثلاثون قبة وفي الجانب الغربي أربع وعشرون قبة وفي الجانب الجنوبي ست وثلاثون قبة وواحدة في ركن المسجد الحرام من جهة منارة الحزورة وفي زيادة دار الندوة ست عشرة قبة وفي زيادة باب إبراهيم خمس عشرة قبة .

وأما الطواجن فجملتها مائتان واثنان وثلاثون طاجناً . ففي الجانب الشرقي ثمانية وثلاثون طاجناً ، وفي الجانب الشمالي تسعة وخمسون طاجناً وفي الجانب الغربي ثلاثة وأربعون طاجناً وفي الجانب الجنوبي أربعة وستون طاجناً واثنان تحت مئذنة باب السلام وواحد في ركن المسجد الحرام من جهة باب السلام وواحد في ركن المسجد من جهة باب العمرة وفي زيادة دار الندوة أربعة وعشرون طاجناً .

وأما الشرافات فجملتها ألف وثلثمائة وثمانون شرافة . فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام مائة واثنتان وستون شرافة ، فمن الرخام سبع وعشرون في وسطهن واحدة طويلة ، ومن الحجر الشميسي مائة وخمس وثلاثون ، ومن جهة شامية ثلثمائة وإحدى وأربعون ، فمن الرخام ثمانية وسبعون منها ثلاث طوال والباقي من

الحجر الشميسي ، وفي جهة غربية مائتان وأربع ، فمن الرخام اثنتـان وعشـرون في وسطهن واحدة طويلة والبـاقي مـن الحجـر الشميسـي ، وفي جهـة جنوبيـة ثلثمائـة وخمس وثلاثون شرافة ، فمن الرخام سبعون في وسطهن واحدة طويلة والباقي مـن الحجـر الشميسـي ، وفي زيـادة دار النـدوة مائـة وإحـدى وتسـعون مـن الحجـر الشميسي ، وفي زيادة باب إبراهيم مائة وست وأربعـون مـن الحجـر الشميسـي لا غير . انتهى من تاريخ الغازي .

جدول عام في ذكر أسماء من عمّر المسجد الحرام من الخلفاء والسلاطين والملوك والكبراء

نذكر في هذا الجدول أسماء بعض من عمّر وبنى وأصلح في المسـجد الحـرام ، من عهد ظهور الإسلام إلى زماننا هذا ، بصورة مجملة .

وأما تفصيل ذلك فقد بيناه في غير هذا المحل ، وقـد ذكرنـا هنـا أسمـاء الخلفـاء والسلاطين والملوك وغيرهم ، ليعلم مبلغ عنايتهم في تعمير المسجد الحرام وإصلاحه كيف لا ، وهو أول مسجد وضع على وجه الأرض وفي بلد الله الأمين وفيـه بيّنـه الشريف الطاهر ، وهذا هو الجدول :

عدد	الأسماء	نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام	السنة الهجرية
١	عمر بن الخطاب رضي الله عنه	وسّع المسجد الحرام وزاد فيه	١٧
٢	عثمان بن عفـان رضـي الله عنه	وسّع المسجد الحرام وزاد فيه	٢٦
٣	عبدالله بن الزبير رضـي الله عنهما	وسّع المسجد الحرام وزاد فيه	٦٥
٤	عبد الملك بن مروان	عمّر المسجد ولم يزد فيه شيئاً	٧٥
٥	الوليد بن عبد الملك	عمّر المسجد الحرام وزاد فيه	٩١
٦	أبو جعفر المنصور	وسّع المسجد الحرام وزاد فيه	١٣٧
٧	محمد المهدي	وسّع المسجد الحرام وزاد فيه	١٦٤

عدد	الأسماء	نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام	السنة الهجرية
٨	المعتضد العباسي	وسّع المسجد الحرام بإدخال دار الندوة فيه	٢٧١
٩	المقتدر با لله العباسي	زاد في المسجد الحرام باب إبراهيم	٣٠٦
١٠	الأمير فارس الدين	جدد الأعمدة التي حول المطاف	٧٤٩
١١	الملك الأشرف شعبان	ملك مصر وهو الذي بنى منارة باب الوداع حينما سقطت	٧٧١
١٢	الأمير بيسق الظاهري	عمّر المسجد الحرام بعد احتراقه عمارة عظيمة قوية	٨٠٤
١٣	الملك الناصر فرج بن برقوق	ملك مصر وهو الذي بنى منارة باب السلام حينما هدمت	٨١٦
١٤	الأمير مقبل القديدي	عمّر بعض أماكن بالمسجد الحرام	٨٢٥
١٥	شاهين العثماني	حرث جميع المسجد الحرام بالبقر وجعل فيه البطحاء وعمّر فيه بعض الأماكن	٨٣٠
١٦	الملك الأشرف برسباي	ملك مصر وهو الذي بنى منارة باب الزيادة عند سقوطها	٨٣٨
١٧	الملك الظاهر جقمق	عمّر في المسجد الحرام وفي الكعبة بعض الأماكن بواسطة الأمير سودون	٨٤٣
١٨	الأمير قثم	عمّر سقف بعض الجهات من المسجد الحرام وأماكن متعددة	٨٤٦
١٩	بيرم خواجة	عمّر بعض المحلات في المسجد الحرام	٨٥٢
٢٠	الأمير بردبك	عمّر بعض سقوف المسجد الحرام	٨٥٤
٢١	السلطان قايتباي	بنى مدرسته ومنارته الشهيرة بين باب السلام وباب النبي	٨٨٤
٢٢	الأمير سنقر الجمالي	عمّر بعض السقوف وبعض	٨٨٥

عدد	الأسماء	نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام	السنة الهجرية
		الأماكن في المسجد الحرام	
٢٣	أبو السعود بن ظهيرة	حفر حاشية المطاف وعمرها مع بعض الأماكن	٨٩٤
٢٤	محمد بن عباد الله	عمل بعض الإصلاحات والعمارات وجعل الرصاص في أرض المطاف	٩١٥ و٩٢٠
٢٥	الملك قانصوه الغوري	عمّر بعض الجهات في المسجد الحرام	٩١٧
٢٦	أحمد حلبي	جدّد سطح الكعبة وأصلح أرض المطاف وفرش المسجد جميعه بالجص	٩٦١
٢٧	السلطان سليمان خان	هو أول من عمّر بالمسجد الحرام من سلاطين الأتراك	٩٧٢
٢٨	السلطان سليم بن سليمان	هو الذي عمل عمارة المسجد الحرام كله بالقباب	٩٨٠
٢٩	سنان باشا	فرش حاشية المطاف بالحجر الصوان المنحوت بدلاً من الجص	٩٨٣
٣٠	السلطان مراد بن سليم	هو الذي أكمل عمارة والده بعد وفاته بالمسجد الحرام	٩٨٤
٣١	السلطان محمد خان	جدّد شاذروان الكعبة وفرش المطاف بالمرمر	١٠١٠
٣٢	السلطان أحمد بن محمد	أمر بترميم المقامات الأربعة	١٠١٥
٣٣	السلطان مراد خان الرابع	وهو الذي بنى الكعبة المشرفة وعمر بعض أماكن في المسجد الحرام	١٠٣٩
٣٤	السلطان محمد خان	بنى المقام الحنفي بالحجر الصوان وبالحجر الأصفر	١٠٧٢

عدد	الأسماء	نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام	السنة الهجرية
٣٥	إبراهيم بك	عمّر أطراف المسجد الحرام والمماشي	١١١٢
٣٦	محمد أفندي المعمار	رمّم المسجد الحرام وفرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة	١١٣٤
٣٧	السلطان عبدالمجيد خان	عمّر بعض أماكن في المسجد الحرام ونقش عقوده	١٢٥٧
٣٨	الشريف عبدالله بن محمد بن عون	عمّر بعض أروقة المسجد الحرام وغيرها مما خرّبه السيل	١٢٧٩
٣٩	السلطان عبدالعزيز خان	جدد بناء المقام الحنفي بالحجر الرخام	١٢٨٢
٤٠	السلطان عبدالحميد خان	نقل المقام الحنبلي من موضعه قرب زمزم إلى محله الآن	١٣٠١
٤١	السلطان محمد رشاد خان	أمر بتعمير المسجد الحرام كله فعمروه لكنه لم تتم العمارة بسبب قيام الحرب العامة	١٣٣٤
٤٢	الشريف الحسين بن علي	أمر بإتمام عمارة المسجد الحرام بعد استقلاله بملك الحجاز	١٣٣٨
٤٣	الملك عبدالعزيز آل سعود	قام بعمل كثير من الإصلاحات والتعمير في المسجد الحرام في سنوات مختلفة	من عام ١٣٤٤ إلى قبل وفاته
٤٤	الملك سعود بن عبدالعزيز	قام بتجديد عمارة المسجد الحرام وتوسعته بل وتوسعة شوارع مكة وتجميلها	ابتداء من سنة ١٣٧٥

هذا جدول عام لبيان أسماء من أجرى إصلاحات وتعميرات في المسجد الحرام بصفة مختصرة، ولقد ذكرنا في غير هذا المحل التفصيلات الوافية عن كل ذلك ولا يبعد أننا نسينا ذكر أسماء بعض من عمل في المسجد الحرام، والقصد من هذا

الجدول بيان عناية خلفاء المسلمين وملوكهم بالمسجد الحرام الذي تتضاعف الصلوات والحسنات فيه .

ترجمة عبد الملك بن مروان

جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه :

هو أول من سمى عبد الملك في الإسلام ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه في رمضان سنة (٦٥) خمس وستين . كان حازماً في الأمور لا يكلها إلى أحد وكان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً واسع العلم ، حتى قيل كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبدالملك بن مروان . وفي سنة خمس وسبعين حج أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وفيها ضربت الدراهم والدنانير وهي أول ما ضرب في الإسلام وإنما كانت قبل ذلك رومية وكسروية . قال : وفي المختصر الجامع وهو أول من نقش الدراهم والدنانير بالعربية ، أمر بنقشها وكتب عليها : "قل هو الله أحد" وكان عليها قبل ذلك كتابة بالرومية وعلى الدراهم بالفارسية .

توفي عبد الملك في منتصف شوال وقيل لعشر خلون من شوال سنة (٨٦) ست وثمانين ودفن بدمشق وصلى عليه ابنه وولي عهده الوليد . كان أميره على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأميره على مصر والمغرب أخوه عبد العزيز بن مروان .

وفي المختصر : ولم يزل ابن الزبير يقيم للناس الحج من سنة (٦٤) إلى سنة (٧٢) ولما ولى عبد الملك بن مروان في سنة (٦٥) منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير وكان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا فضج الناس لما منعوا الحج فبنى عبدالملك الصخرة وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها ، ويقال أن ذلك كان سبباً للتعريف في مسجد بيت المقدس ومساجد الأمصار ، وذكر الحافظ في كتاب نظم القرآن : أن أول من سن التعريف في مساجد الأمصار عبدا لله بن عباس . انتهى ملخصاً من تاريخ الخميس .

نقول : وبمناسبة ما ذكر هنا وقوف الناس بصخرة بيت المقدس يوم عرفة ننقل هنا ما جاء في كتاب «القرى لقاصد أم القرى» للحافظ محب الدين الطبري في

هـذه المسألة . فقد جاء فيه بصحيفة (٣٥٠) في عنوان «ما جاء في الوقوف بالمساجد تشبهاً بالواقفين بعرفة» ما نصه :

عن شعبة ، قال : سألت الحكم وحماداً عن اجتماع يوم عرفة في المساجد فقالا : هو محدث ، وقال منصور عن إبراهيم : هو مُحدَث ، وقال قتادة عن الحسن أول من صنع ذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . أخرجه البغوي في شرح السنة .

وعن الأثرم قال : سألت أحمد بن حنبل عن التعريف في الأمصار يجتمعون في المساجد يوم عرفة فقال : أرجو أن لا يكون به بأس ، وقد فعله غير واحد الحسن ، وبكر ، وثابت ، ومحمد بن واسع كانوا يشهدون المساجد يوم عرفة . انتهى من الكتاب المذكور .

نقول : إن هذا الحضور إلى المساجد يوم عرفة لمن لم يتمكن من السفر للحج ، إنما هو حسن ظن با لله تعالى رجاء أن يغفر ا لله لهم ويستجيب دعواتهم عندما يطلع على الواقفين بعرفات ويباهي بهم الملائكة فيغفر ا لله لهم ويتجاوز عن ذنوبهم العظام ويعتقهم من النار ، فمن بقي في وطنه لا بأس به إذا حضر يوم عرفة إلى المساجد للتضرع والعبادة رجاء عفو ا لله وغفرانه . فقد روي عن ابن عمر ، رضي ا لله عنهما ، قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : لا يبقى أحد يوم عرفة في قلبه وزن ذرة من الإيمان إلا غفر له . قال رجل : يا رسول ا لله لأهل عرفة أم للناس عامة ؟ قال : بل للناس عامة . اهـ .

اللهم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. آمين .

ومن ضمن أعمال عبد الملك بن مروان رحمه ا لله تعالى أنه أمر الحجاج الثقفي أن يكسو الكعبة الديباج ، كما أمر بعمارة المسجد الحرام عمارة حسنة لكنه لم يوسعه ولم يزد فيه شيئا ، ورفع جدار المسجد وسقفه بخشب الساج وجعل على رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب .

ولقد جلب للمسجد الحرام السواري في البحر إلى جدة ، وكانت عمارته هذه في سنة (٧٥) خمس وسبعين هجرية .

فقد جاء في كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام» لباسلامة المكي رحمه الله تعالى من نصه :

لما كانت خلافة عبد الملك بن مروان الأموي ، أمر بعمارة المسجد الحرام و لم يزد فيه شيئاً غير أنه رفع جداره وسقّفه بالساج وعمَّره عمارة حسنة وجعل على رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب . فكانت عمارته منحصرة في تجديد البناء ورفع الجدار وتسقيفه بالساج الذي هو أفخر أنواع الخشب وأمتنه وزينه بالذهب الذي جعله على رؤوس الأسطوانات ، و لم يزد فيه شيئاً عما كان عليه علاوة على زيادة عبدا لله بن الزبير .

هذا ما ذكره مؤرخو مكة ، وقال العمري في مسالك الأبصار : إن عبدالملك بن مروان جلب إليه السواري في البحر إلى جدة وسقفه بالساج وعمّره عمارة حسنة . و لم يذكر أحد غيره أن عبد الملك جلب إليه السواري من البحر إلى جدة . كما أنه لم ينف ذلك أحد ممن ذكر عمارة عبد الملك . وسبب عمارة عبد الملك للمسجد الحرام لأنه قد تهدم بعضه من حجارة المنجنيق التي رماه بها الحجاج بن يوسف الثقفي حال حصاره لعبدا لله بن الزبير حينما استعصم بالمسجد الحرام . وكانت هذه العمارة بعد عمارة الحجاج للكعبة المعظمة بسنة ، وذلك في سنة (٧٥) خمس وسبعين هجرية التي توافق سنة (٦٩٤) أربع وتسعين وستمائة ميلادية وا لله أعلم . انتهى من الكتاب المذكور .

وكان رحمه ا لله تعالى يبعث من الشام كل سنة إلى الكعبة الطيب والمجمر وإلى مسجد رسول ا لله ﷺ . جزاه ا لله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء . وهو الذي أمر الحجاج الثقفي أن يهدم من الكعبة ما زاده فيها ابن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما ويعيدها على ما كانت في عهد رسول ا لله ﷺ وذلك سنة أربع وسبعين كما تقدم بيان ذلك بالتفصيل في محله .

ومما وقع لعبد الملك بن مروان رحمه ا لله تعالى ، أنه دخل عليه كُثَير الشاعر فقال عبد الملك : أأنت كثير ؟ قال : نعم . قال : «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» . فقال : يا أمير المؤمنين ، كل عند محله رحب الفِناء شامخ البناء عالي السناء . ثم أنشأ يقول :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

بُغاثُ الطير أطولها رقاباً ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطير أكثرها فراخاً ... وأم الصقر مقلات نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيراً ... وأصرمها اللواتي لا تزير
وقد عظم البعير بغير لبّ ... فلم يستغن بالعظم البعير
يقوده الصبي بكل أرض ... وينحره على التراب الصغير
فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم كرم وخير

فقال عبد الملك : " لله دره ، ما أفصح لسانه ، وأضبط جنانه وأطول عنانه ، وا لله إني لأظنه كما وصف نفسه" . انتهى من المطالعة العربية .

قال ابن كثير في تاريخه : لما احتضر عبد الملك دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك : ما هذا؟ أتحنّ حنين الجارية والأمة ! إذا أنا متّ فشمّر واتّزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قريشاً . ثم قال له : يا وليد اتق ا لله فيما أستخلفك فيه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر إلى ابن عمنا علي بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج . وأنهاك وإخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالمحبة ، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل و لله در القائل :

إن الأمور إذا اجتمعن مراميها ... بالكسر ذو حنق وبطش مفند
عزت فلم تكسر وإن هي بددت ... فالكسر والتوهين للمتبدد

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك ، فمن أبي فالسيف . وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن وأحبهن إلى فاطمة . وكان قد أعطاها قرطي مارية والدرة اليتيمة . ثم قال اللهم احفظني فيها . فتزوجها عمر بن عبدالعزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسالاً يغسل الثياب فقال : ما هذا؟ فقالوا : غسال ، فقال : يا ليتني كنت غسالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ، و لم ألِ الخلافة ثم تمثل فقال :

لعمري لقد عمرت في الملك برهة ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمر المال والحكم والنهى ولي سلّمت كل الملوك الجبابر
فأضحى الذي قد كان مما يسرني كحلم مضى في المزمنات الغوابر
فيا ليتني لم أعنَ بالملك ليلة ولم أسعَ في لذات عيش نواضر

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبي سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك في مرض موته : كيف تجدك ؟ فقال : أجدني كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآيَةَ . وقال سعيد بن عبدالعزيز : لما احتضر عبدالملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادي ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قصار ، فقال : يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي ، اهـ .

ثم قال ابن كثير في تاريخه بعد خمسة أسطر من هذا الكلام ما يأتي :

ويروى أنه قال : ارفعوني فرفعوه حتى شم الهواء فقال : يا دنيا ما أطيبك ، إن طويلك لقصير وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بكِ لفي غرور . ثم تمثل بهذين البيتين :

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب غفور لمسيء ذنوبه كالتراب

قالوا : وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل : يوم الأربعاء وقيل : الخميس في النصف من شوال سنة ست وثمانين ، وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة وقيل أقل وقيل أكثر ودفن بباب الجابية الصغير . انتهى من تاريخ ابن كثير .

ترجمة المتوكل على الله

جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه : هو المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون الهاشمي العباسي البغدادي ، مولده سنة (٢٠٥) خمس ومائتين ، وقيل سبع ، بويع بالخلافة بعد موت أخيه الواثق في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، ولما استخلف أظهر السنة وتكلم بها في مجلسه وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السنة ونصر أهلها وأمر بنشر الآثار النبوية .

وفي سيرة مغلطاي أمر المتوكل أهل الذمة بلبس العسلي والزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وأن لا يعتموا، وغيّر زيّ نسائهم بالأزر العسلية، وإن دخلن الحمّام كان معهن جلاجل، وأمر بهدم بيعتهم المحدثة، وأن يجعل على أبوابهم صور شياطين خشب، وأن لا يستعان بهم في شيء من الدواوين. انتهى ملخصاً من تاريخ الخميس.

وفي تاريخ ابن كثير ما ملخصه: كان المتوكل محبباً إلى رعيته قائماً في نصرة أهل السنة، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الرده لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بني أمية. وقد أظهر السنة بعد البدعة وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها، وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور، قال: فقلت: المتوكل، قال: المتوكل، قلت: فما فعل بك ربك، قال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها - وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلاً يصعد به إلى السماء وقائلاً يقول:

ملك يقاد إلى مليك عادل ... متفضّل في العفو ليس بجائر

قال الفتح بن خاقان: دخلت يوماً على المتوكل فإذا هو مطرق مفكر، فقلت: يا أمير المؤمنين ما لك مفكر؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشاً ولا أنعم منك بالاً. قال: بلى أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج إلينا فنزدريه.

قتل رحمه الله تعالى ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، بالمتوكلية وهي الماحوزية ودفن بالجعفرية، وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وكان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر. والله سبحانه أعلم. انتهى من تاريخ ابن كثير.

جاء عنه كتاب محاضرات الخضري ما نصه:

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع ولد في شوال سنة ٢٠٦ ست ومائتين. بفم الصِلْح ولم يكن بالمرضى عنه في حياة أخيه، حتى كان الواثق قد وكّل به رجلين هما: عمر بن فرج الرُخجي ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت وقد

جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبدالملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناً وكانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به صحن المسجد الذي كان عمر يجلس فيه وكان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد. ولما توفي الواثق، ولم يكن عهد إلى أحد، اجتمع كبراء الدولة: أحمد بن أبي دؤاد القاضي، ومحمد بن عبد الملك الوزير، وعمر بن فرج، وأحمد بن خالد الكاتبان وإيتاخ ووصِيف من قواد الأتراك، وتناظروا فيمن يولونه الخلافة، فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق. وكاد الأمر يتم له، إلا أنهم لما جاؤا به، وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية، قال لهم وصيف: أما تتقون الله؟ تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة، ثم أشار ابن أبي دؤاد بجعفر بن المعتصم، فاتفق رأيهم عليه وأحضروه فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. وبايعه الحاضرون، ولقب بالمتوكل على الله، ثم بايعته العامة. وتم ذلك كله في اليوم الذي توفي فيه الواثق وهو ٢٤ ذي الحجة سنة (٢٣٢) اثنين وثلاثين ومائتين (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) ميلادية. واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة (٢٤٧) سبع وأربعين ومائتين (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) ميلادية فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنّه إذ قتل ٤١ سنة. انتهى من المحاضرات.

وجاء فيها أيضاً: ولقد كان المتوكل ينفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين ويكره أن يظهروا في الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره في سنة (٢٣٥) خمس وثلاثين ومائتين، أن يلبسوا زياً خاصاً بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري فيها أحكامهم على المسلمين. ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلمهم مسلم وكتب منشوراً إلى عماله في الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولي في شوال سنة (٢٣٥).

قال المسعودي: وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء. كما قال بعضهم: كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأماني الحب وأيام الشباب...

وجاء فيها أيضاً : ومن مناقب المتوكل أنه لما أحضروا بين يديه أبا الحسن علي الهادي ابن محمد الجوادي علي الرضا بن موسى الكاظم ، كان المتوكل يشرب . فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ، ثم قال له : أنشدني شعراً ، فأنشده :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمّروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه ورده إلى منزله مكرماً . انتهى كل ذلك من محاضرات الخضري .

ترجمة الأمير مقبل القديدي

في أوائل سلطنة الملك الأشرف برسباي ثامن ملوك الجراكسة بمصر أرسل إلى مكة شرفها الله تعالى الأمير مقبل القديدي الأشرف وذلك في حدود سنة (٨٢٦) ست وعشرين وثمانمائة ، وأسند إليه إجراء عمارات وإصلاحات عامة بالمسجد الحرام .

فعمّر الأمير مقبل القديدي الرخام المفروش في باب الكعبة من الداخل وجعل فيه رخاماً جديداً ، وأصلح الأساطين التي في جوف الكعبة الشريفة وأحكمها ، وحضر من عمارة الكعبة شيخ الكعبة والقضاة الأربعة وناظر الحرم والمعمار جمال الدين يوسف ، وأيضاً عمّر الأمير المذكور باب الجنائز أحد أبواب المسجد الحرام لأنه كان قد سقط ما فوق أحد البابين إلى منتهى المسجد المقابل لرباط المراغي

"محل مدرسة السلطان قايتباي" ، وعمّر أيضاً أماكن بين باب علي وباب العباس وموضع آخر يتصل بباب الأفضلية ، وعمّر الأمير مقبل عدة عقود بالمسجد الحرام ، وأحكم الأساطين التي عليها العقود وهي سبعة أساطين في الرواق الأول وثمانية في الذي يليه وثلاثة في الذي يليه وسبعة متصلة بجوار المسجد ، وجدّد بعض أبواب المسجد وأصلح سقفه . انتهى باختصار من تاريخ القطبي .

ترجمة قايتباي ملك مصر

جاء في كتاب «أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» للإسحاقي ما يأتي :

الملك الأشرف قايتباي المحمودي تولى مصر في سادس رجب سنة (٨٧٢) اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية ، وللسلطان قايتباي محاسن لا تحصى من خيرات وعمارات ومساجد ورباطات ومدارس وأسبلة وغير ذلك منها أنه أمر ببناء مسجد الخيف فبني بناء محكماً وبوسطه قبة عظيمة وبالمسجد خوخة صغيرة يتوصل منها إلى الجبل الذي في سفح غار المرسلات وهو الموضع الذي نزل فيه سورة المرسلات على النبي ﷺ .

ثم قال رحمه الله : ومن أثر عمارة السلطان قايتباي مسجد نمرة الذي بجبل عرفات . ومن آثاره أيضاً أنه أمر تاجره ، الخواجا شمس الدين بن الزمن ، أن يبني مدرسة ملاصقة للحرم المكي . فبنى له مدرسة وأحكم بناءها بالرخام الملون والسقف المذهب ، وبها شبابيك مطلة على الحرم الشريف ، وهي على يسار الداخل من باب السلام . وقرر بها خدمة وطلبة علم للمذاهب الأربعة ، وهي باقية عامرة لم يحصل بها خلل في أوضاعها ولا بنائها ، وينزل بها أمير الحاج المصري .

ومما وقع في زمن السلطان قايتباي من الأمر المهول والحادث العظيم حريق المسجد الشريف النبوي على ساكنه أفضل الصلاة والسلام وذلك في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة فأرسل أمير المدينة قاصداً إلى مصر لأجل عرض ذلك للسلطان قايتباي فتهول لتلك الحادثة العظيمة وتوجه إلى عمارة المسجد الشريف وعرف نعمة الله تعالى عليه بتأهيله لهذا الشرف العظيم فأرسل نحواً من ثلثمائة من أرباب الصنائع وكثيراً من البغال والحمير وسائر مؤنهم ومبلغاً نحو مائة ألف دينار أو أكثر ، وجهّز المؤن الكثيرة حتى امتلأت البنادر من الخيرات ، وأمر

بعمارة المسجد الحرام وأن تبنى له مدرسة ملاصقة للحرم الشريف ولما تمت العمارة أرسل إلى المدينة المنورة خزانة كتب وجعل مقرها بالمدرسة و أرسل عدة مصاحف ووقف عدة قرى بمصر تحمل غلالها إلى جيران رسول الله ﷺ، والمدرسة باقية إلى الآن في غاية الانتظام وهي على يسار الداخل إلى الحرم الشريف النبوي وينزل بها أمير الحاج الشريف المصري، قال بعض الشعراء:

لم يحترق حرم النبي لريبة   تخشى عليه ولا هنالك عار

لكنما أيدي الروافض لامست   ذاك الضريح فطهرته النار

وحج السلطان قايتباي حجة عظيمة (وعن الملوك فلا تسل) وكان واسطة عقد ملوك الجراكسة وأقربهم ميلاً إلى قلوب الرعية وأكملهم عقلاً وعاشت الرعية في أيامه عيشاً رغيداً إلى أن غدر به الزمن الجائر واستيقظت له عيون الليالي الغوابر فقدم على ما قدم من عمله وترك ما جمعه من متاع الدنيا وراء ظهره وأدرج في أكفان عمله، بعدما غسل بدموع فقره وأنزل من سريره إلى قبره. وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى في آخر يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة وصُلي عليه يوم الاثنين ودفن بتربته، التي أنشأها بالصحراء في حال حياته، وهي في غاية الحسن وبها مساكن للفقراء وأرباب الوظائف ولها أوقاف جارية. وهي مسكونة معمورة إلى الآن، ليس بالصحراء أعمر منها، وكانت مدة سلطنته تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر و لم يملك أحد من الجراكسة قدر مدته. انتهى من الكتاب المذكور.

والحقيقة أن للسلطان قايتباي بالحرمين خدمات كثيرة وخيرات عميمة، وكان موفقاً لأعمال البر وخدمة المسلمين فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن أعماله خير الجزاء.

ترجمة الأمير إبراهيم المهمندار

هو الأمير إبراهيم بن تغري بردي المهمندار ثم الدفتردار بمصر، كان دفتردار ديوان مصر، وكان فاضلاً عالماً كاتباً جوّاداً كريماً، وكان عاقلاً مفكراً مدبراً صادق القول محباً لنظام الأعمال وترتيبها.

انتدبته وأرسلته من مصر إلى مكة، شرفها الله تعالى، ابنة السلطان سليمان خان، من سلاطين آل عثمان، ليقوم بمكة بإصلاح عين زبيدة. وأعطته ابنة

السلطان المذكور خمسين ألف دينار ذهباً لهذا العمل. فوصل إلى جدة لثمان بقين من ذي القعدة سنة (٩٦٩) تسع وستين وتسعمائة ثم وصل إلى مكة وكان محرماً بالحج فقابله أميرها الشريف حسن أبو نمي مقابلة تليق بمقامه ومد له سماطاً عظيماً كبيراً فأكل منه هو وخواصه ثم أذن للفقهاء والفقراء وعامة الناس فأكل الجميع وزاد شيء كثير فرقوه على المساكين.

ثم بعد أداء مناسك الحج قام الأمير إبراهيم المذكور بهمة ونشاط وإخلاص وأمانة بتنظيف الآبار بمكة التي يستقي منها الناس. وحفرها وأخرج ما فيها من التراب فكثرت المياه بها، ثم التفت إلى دبول عين عرفات أي مجاريها، مبتدئاً من أعلا مجرى عين زبيدة من وادي نعمان، وأتى بالعمال والبنائين والمهندسين وجلبهم من الآستانة ومصر والشام وحلب واليمن وأحضر الحدادين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرهم ممن يحتاج إليهم، كما أحضر جميع ما يحتاج إليه من الأدوات من مصر من مكاتل ومساحي ومجاريف وحديد وفولاذ ونحاس ورصاص وغير ذلك، وعين لكل طائفة قطعة من الأرض لحفرها وتنظيف الدبول.

وكان الأمير إبراهيم يظن أنه يفرغ من هذا العمل في أقل من عام واحد، ولكن كان الأمر خلاف ما يظن، حيث وصلوا في العمل صخور صلبة وأحجار من الصوان، فكانوا يوقدون عليها النار مقدار مائة حمل من الحطب الجزْل، يوقدونه ليلة كاملة ثم يكسرونها. وهكذا كل يوم وليلة إلى أن فرغ الحطب من جبال مكة، فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره، وصار الأمير إبراهيم يطلب من السلطنة في استامبول إمداده بالمصاريف حتى صرف على العمل أكثر من خمسمائة ألف دينار، وحتى تعب الأمير وتعب معه خدمه وأولاده ومماليكه، ولم يتم العمل في حياته بل أتمه غيره، فقد جاءه الأجل المحتوم بمكة في اليوم الثاني من رجب سنة أربع وسبعين وتسعمائة ودفن بالمعلا، وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة رحمه الله وأحسن إليه.

وجود سقفين للمسجد الحرام قديماً

والظاهر والله تعالى أعلم أنهم جعلوا للمسجد الحرام السقف الثاني مما يلي أرضه أي السقف الذي تحت سقف السطح، ليزخرفوه بالذهب، ويدلنا على هذا

ما ذكرناه الإمام الأزرقي في كتابه تاريخ مكة ، عند ذكر صفة سقف المسجد وهو :

وللمسجد الحرام سقفان أحدهما فوق الآخر ، فأما الأعلى منهما فمسقف بالدوم اليماني وأما الأسفل فمسقف بالساج والسيلج الجيد ، وبين السقفين فرجة قدر ذراعين ونصف والسقف الساج مزخرف بالذهب ، مكتوب في دوارات من خشب فيه ، قوارع القرآن وغير ذلك من الصلاة على النبي ﷺ والدعاء للمهدي . انتهى كلامه .

فإن قيل : لماذا لم يكتفوا بسقف واحد للمسجد ، ويزخرفوا وجهه الذي يلي الأرض بالذهب ، ويكتبوا فيه ما شاؤوا ؟

نقول : إن الكتابة والنقش والزخرفة بالذهب والفضة والألوان ، تحتاج إلى مدة طويلة وإلى مصاريف عظيمة ، ولا بد من المحافظة عليها محافظة تامة فلو جعل ذلك في السقف الأعلى لتعرض كل ذلك للخطر والتلف عندما يطرأ على السقف خلل يؤدي إلى نزول ماء المطر منه إلى أسفل .

أما عمل سقف ثان تحت السقف الأعلى لأجل الكتابة والزخرفة ، فإنه عين الصواب والحكمة لتكون الكتابة والنقش والزخرفة محفوظة إلى ما شاء الله تعالى ، فالخلل يسرع إلى السقف الأول قبل الثاني .

فانظر رحمك الله إلى بعد نظر أهل القرون الأولى ، وعنايتهم بالفنون الجميلة وعنايتهم بالمحافظة عليها .

التعميرات والترميمات الواقعة في المسجد الحرام

تقدم الكلام على من زاد في المسجد الحرام ووسّعه مفصلاً ، وهنا نتكلم بصورة مختصرة عن بعض من أجرى من التعميرات والترميمات في المسجد الحرام ، فإن ذكر ذلك مما يدل على ما لهذا المسجد العظيم من المكانة السامية في قلوب كافة المسلمين فنقول وبالله تعالى التوفيق : نبتدئ من عمل الخليفة عبد الملك بن مروان من سنة (٧٥) خمس وسبعين من الهجرة ، أما ما كان قبله من عمل الحجاج وقبل هذا من زيادة عبدالله بن الزبير وزيادة عثمان قبله وزيادة عمر قبل الجميع رضي الله تعالى عنهم ، فلا نتكلم عن ذلك اكتفاء بما تقدم الكلام عن

أعمالهم في المسجد الحرام جزاهم الله تعالى خير الجزاء عن خدماتهم للإسلام والمسلمين.

فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد العون والمدد فهو الفتاح العليم لا رادّ لفضله الحسِّي والمعنوي.

لقد عمّر المسجد الحرام أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان سنة (٧٥) خمس وسبعين من الهجرة، أي بعد عمارة الحجاج للكعبة بعام واحد، ولم يزد عبد الملك في المسجد شيئاً غير أنه رفع جداره وسقّفه بالساج «وهو ضرب من الشجر صلب الخشب» وعمّر عمارة حسنة وجعل على رأس كل أسطوانة مثقالاً من الذهب.

وعمّره أيضاً الوليد بن عبدالملك بن مروان في سنة (٩١) أحد وتسعين ونقض عمل أبيه عبدالملك وعمل عملاً محكماً، وكان إذا عمل المساجد زخرفها. ولقد ترقّت الصناعات في زمنه حتى أن الناس إذا التقوا تساءلوا عن البناء والصنّاع. وهو أول من نقل الأساطين الرخام للمسجد الحرام من مصر والشام، وأزّر المسجد بالرخام وجعل له شرافات، وجعل على حائطه الطيقان -العقود- وجعل في وجوه الطيقان من أعلاها الفسيفساء. وهو أول من زيّنه بها. ولقد كان الوليد مغرماً ببناء المساجد، ذكر أن عمّاله كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد، رحمه الله تعالى وأحسن جزاه.

ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن الإعلام ما خلاصته: وفي أيام المعتمد على الله سنة (٢٧١) إحدى وسبعين ومائتين وقع وهن في بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربي قبل زيادة باب إبراهيم وكان في نفس الجدار الغربي من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخياطين وكان بقربه دار تسمى دار زبيدة بنت أبي جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام فانكسرت أخشابه وانهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد الشريف ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس.

وكان عامله بمكة يومئذ هرون بن محمد بن إسحاق وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضي فلما رفع أمر هذا الهدم إلى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله «وهو أخو أمير المؤمنين المتوكل على الله» عامله على مكة هرون المذكور بعمارة ما تهدم من المسجد الشريف وجهّز إليه مالاً بسبب ذلك فشرع في عمارته وجدد له

سقفاً من خشب الساج ونقشه بالألوان المزخرف وأقام الأسطوانتين الساقطتين وبنى عقودهما وركب السقف ونصب في أيام عمارته سرادقاً بين العمال والبنائين وبين الناس يسترهم عن أعين من بالمسجد إلى أن أكمل ذلك في سنة اثنين وسبعين ومائتين . ثم كتب ونقش على حجرين تاريخ عمارة المسجد الحرام ووضعهما في جدار المسجد ، وقد تقدم نص كلام الغازي عن هذه العمارة في آخر الكلام على زيادة محمد المهدي للمسجد الحرام .

وجاء في تاريخ الغازي في الفصل الثالث عند ذكر ما عمرته ملوك الجراكسة في المسجد الحرام ما نصه :

قال في الإعلام : وفي أيام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق في المسجد الحرام في ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة اثنتين وثمانمائة وسبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد الحرام في الجانب الغربي منه ورامشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة تسع وعشرين وخمسمائة فترك بعض سكان الخلاوي سراجاً موقوداً في خلوته وبرز عنها فسحبت الفارة الفويسقة فتيلة السراج منه إلى خارجه ، فأحرقت في الخلوة واشتعل اللهب في سقف الخلوة وخرج من شباكه المشرف على الحرم الشريف واتصل بسقف المسجد الحرام وعجز الناس عن طفيه لعلوه وعدم وصول اليد فعمّ الحريق الجانب الغربي من المسجد الحرام واستمرت النار تأكل من السقف وتسير ولا يمكن الناس إطفاءها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشامي واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالي إلى أن انتهى إلى باب العجلة وكان هناك أسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول الذي دخل المسجد الحرام في اليوم الثامن من جمادى الأولى من هذا العام يعني عام حريق المسجد الحرام وأخرب عمودين من أساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهما من العقود والسقوف فكان ذلك سبباً لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان وإلا لعمّ المسجد الحرام جميعه من الجوانب الأربعة فاقتصر الحريق إلى باب العجلة وسلم الله تعالى باقي المسجد الحرام .

وكم لله من لطف خفي   يدق خفاه عن فهم الذكي

فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواماً عظاماً تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلاة في ذلك الجانب من المسجد .

قال الحافظ السخاوي في ذيله على دول الإسلام للذهبي : وفي آخر شوال من سنة اثنتين وثمانمائة وقع بالحرم المكي حريق عظيم على نحو ثلث المسجد الحرام ، ولولا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد الحرام جميعه . واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً ، صارت كلها كلساً ولم يتفق فيما مضى مثله . وكان وقوع السيل في جمادى الأولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفواه القرب ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ القناديل ودخل الكعبة من شق الباب فهدم من الرواق الذي يلي باب العجلة عدة أساطين وخرب منازل كثيرة ومات في السيل جماعة .

قال الفاسي : ثم قدّر الله تعالى عمارة ذلك في مدة يسيرة على يد الأمير بيسق الظاهري وكان قدومه إلى مكة لذلك في موسم سنة ثلاث وثمانمائة وكان هو أمير الحاج المصري وتخلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد فلما رحل الحجاج من مكة شرع في تنظيف الحرم الشريف من تلك الأكوام التراب وحفر الأرض وكشف عن أساس المسجد الشريف وعن أساس الأسطوانات في الجانب الغربي من الحرم الشريف المحترق وبعض الجانب الشامي منه إلى باب العجلة فظهر أساس الأسطوانات مثل تقطيع الصليب تحت كل أسطوانة فبناها وأحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض وبناها حتى رفعها إلى وجه الأرض على أشكال زوايا قائمة وقطع من جبل بالشبيكة على يمين الداخل إلى مكة ، أحجار صوان صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة يصير على آخر منحوت مثله دائرة تامة في سمك ثلثي ذراع وضعت على قاعدة مربعة منحوتة على محل التقاطع الصليبي على وجه الأساس المرتفع على الأرض ووضعت عليها دائرة أخرى مثل الأولى ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدورين وسبك على جميع ذلك بالرصاص إلى أن انتهى طوله إلى طول أساطين المسجد فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر هو قاعدة ذينك العمودين من فوق طاق يعقد إلى العامود الآخر ويبنى ما بين ذلك بالآجر والجص إلى أن يصل إلى السقف إلى أن تم الجانب الغربي من المسجد الحرام على هذا الحكم وبقيت القطعة التي من الجانب الشامي إلى باب العجلة فأكملوها بالقطع من عمد الرخام الأبيض موصّلة

بالصفائح من الحديد إلى أن لاقوا به العمد التي بنوها بالحجر الصوان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بعمد الرخام ثلاثة أروقة والجانب الغربي وحده بالحجر الصوان المنحوت المدور على شكل عمد الرخام وكملت عمارة هذه العمد في أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة ولم يبق غير عمل السقف وأخر عمله لعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة إذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر وليس لذلك طول ولا قوة ويحتاج إلى خشب الساج ولا يجلب إلا من الهند أو خشب الصنوبر والسَّرو ونحو ذلك ولا يجلب إلا من الروم فلزم تأخر إكماله إلى إحضار القدر الذي يحتاج إليه من ذلك الخشب وشكر الناس همة الأمير بيسق على سرعة تمام هذا المقدار من العمل في هذه المدة اليسيرة ومبادرته إلى تنظيف المسجد إلى أن صلح للصلاة فيه وكان ذا همة عالية وحسن توجه وكان كثير الصدقة والإحسان . وحج الأمير بيسق في ذلك العام وعاد إلى مصر لتجهيز ما يحتاج إليه من خشب سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام ووصل إلى مصر في أوائل سنة خمس وثمانمائة وكان صاحب مكة يومئذ جد ساداتنا أشراف مكة الآن الشريف حسن بن عجلان . وفي سنة سبع وثمانمائة قدم إلى مكة الأمير بيسق لعمارة سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام وغيره مما تشعب من سقف المسجد الشريف من كل جانب ، فنهض إلى هذه الخدمة وأحضر الأخشاب المناسبة لذلك ، وجلبها من بلاد الروم وهيأها لعمل السقف ونقشها بالألوان وزوقها واستعان بكثير من خشب العرعر الذي يؤتى به من جبال الحجاز من جهة الطائف لعدم وجود خشب الساج يومئذ في مكة وبذل همته واجتهاده إلى أن سقف جميع الجانب الغربي من المسجد الحرام وأكمله بخشب العرعر المذكور . وعمّر معه بعض الجانب الشامي أيضاً إلى باب العجلة فتم عمارة المسجد الشريف على تلك الأسطوانات المنحوتة من الحجر الصوان ، وعلّق في تلك الأسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعليق القناديل في الرواق الوسطاني من الأروقة الثلاثة ، على حكم سائر المسجد الحرام غير أن الجانب الشرقي واليماني وأكثر الشامي إلى باب العجلة كان في كل عقد من العقود التي تلي صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل أحدها في وسط كل عقد والثاني عن يمينه والثالث عن شماله لتعليق القناديل . وأما هذا الجانب الغربي كانت فيه السلاسل على هذا الحكم فلما احترق هذا الجانب وأعيدت عقوده لم تركب فيها هذه السلاسل . ولا أدري هل كانت هذه السلاسل التي هي خارج عن الأروقة تحت

العقود البرانية منها تعلق فيها القناديل أحياناً أم كانت لمجرد الزينة؟ ولم أطلع على ذكر قناديلها ولا كيف كانت ومتى بطلت. وأكملت عمارة سقف الجانب الغربي وما احترق من الجانب الشامي إلى باب العجلة في سنة سبع وثمانمائة وعمر مع ذلك الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها كان قد انكسر أعوادها ومال بعضها وكان يسيل منها الماء إلى المسجد الشريف فأصلح الأمير بيسق جميع ذلك بالطبطاب والنورة في سطح الأسقف ودلّكها وسوّاها وأتقن عملها وعمّر ما في صحن المسجد من المقامات الأربع على الهيئة القديمة وبذل في صرف ذلك الأموال العظيمة وشكره الناس على ذلك وكان ذلك في أيام الناصر زين الدين أبي السعادات فرج بن برقوق الجركسي ثاني ملوك الجراكسة. اهـ. انتهى من تاريخ الغازي.

ثم قال الغازي أيضاً عند ذكر عمارة برسباي في المسجد الحرام ما نصه:

قال في تحصيل المرام: وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة تولى السلطان برسباي وكان عامله بمكة الأمير مقبل القديدي، فأمره بعمارة أماكن متعددة في الحرم، قد استولى عليها الخراب. فأحسن بنيانها وجدّد كثيراً من سقف المسجد الحرام وأيضاً عمّر باب الجنائز وذلك في سنة ست وعشرين وثمانمائة. قال النجم عمر بن فهد: وفي هذه السنة أي سنة ست وعشرين وثمانمائة عمر الأمير مقبل القديدي عدة عقود بالمسجد الحرام في الجانب الشامي من الدكة المنسوبة إلى القاضي أبي السعود بن ظهيرة إلى باب العجلة خلف مقام الحنفي وزاد في عرض العقود التي تلي الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود في الصف الثالث، وأحكم الأساطين التي عليها هذه العقود، وهي سبعة في الرواق الأول وثمانية في الذي يليه وثلاثة في الذي يليه وسبع متصلة بجدار المسجد، وجدّد من أبواب المسجد الحرام باب العباس وهو ثلاثة طاقات وباب علي وهو ثلاثة كذلك، والباب الأوسط من أبواب الصفا وهو خمسة وباب العجلة وهو واحد وأحد بابي الزيادة وهو الواقع في الركن الغربي من الزيادة ورمم باقي أبواب المسجد وبيض غالبه وأصلح سقفه وكل ذلك على يد الأمير مقبل القديدي والمعمار جمال الدين يوسف. انتهى.

ونقل الغازي عن ابن فهد، أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثين وثمانمائة وصل سعد الدين إبراهيم القبطي الفوّي المصري الشهير بابن المرأة مباشراً للديوان بساحل جدة وناظراً عليها وصحبته شاهين العثماني شاداً على الديوان ومعهما مراسيم بعمارة

المسجد الشريف وترميمه وجعل الحصباء فيه وبطحه . فحرث بالبقر جميع المسجد الحرام وكوّم التراب جميعه كيماناً ثم رفعت بالفصلة والحمير إلى أسفل مكة وزال الكرش من المسجد وبطح بطحاً مغربلة من ذي طوى بأسفل مكة بوادي الطندباوي . وعمرت ثمانية عقود بالجانب الشمالي مما يلي صحن المسجد الحرام ستة تلي الأسطوانة الحمراء إلى صوب باب العمرة واثنتان يليان إلى صوب باب بني شيبة . وفرغ من ذلك كله في شعبان ، وبيض شاهين المقامات الأربعة ومقام إبراهيم وعقد الصفا ، وبنى درجاً على أبواب المسجد ، مرداً للسيل عنه ، على باب الزيادة والعجلة والندوة وباب إبراهيم وباب الرحمة وأجياد والصفا وبقية الأبواب . انتهى .

فقوله : وباب الندوة غلط من الناسخ إذ لا يوجد باب بهذا الاسم ، وباب العجلة وكان يقال له باب بني تيم ، وهو المسمى الآن بباب التكية المصرية بجوار باب أم هانئ .

ونقل الغازي عنه أيضاً : أنه في سنة (٨٣٨) ثمان وثلاثين وثمانمائة قلع الأمير سودون المحمدي جميع رخام الشاذروان وعوضه بغيره ، ثم شرع في هدم مئذنة باب سويقة ، وبناها بناء عالياً . ووصل إليه من القاهرة ستون ذراعاً رخاماً لمرمّة الحِجْر وشاذروان البيت ، وخمسون حملاً من الجبس لبياض أروقة المسجد الحرام ، وعشرة قناطير حديد لعمل مسامير ، وأربعون قطعة خشب لشد أروقة المسجد الحرام .

ثم قال الغازي أيضاً عن عمارة جقمق الجركسي في المسجد الحرام ما نصه :

وفي سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة بيض مئذنة باب الحزورة الأمير سودون المحمدي عامل مكة من قبل السلطان جقمق وبيض مئذنة باب السلام وأصلح مئذنة باب العمرة ورمم أسفل مئذنة باب علي وأصلح سقف المسجد الحرام من تلك الجهة لخرابه وأصلح الرفرف الدائر الذي كان بالمسجد في زمنه وبيض علو مقام إبراهيم ومقام الحنفي وعتبة باب إبراهيم أو قبته ، والأميال التي بالمسعى . ذكره في تحصيل المرام . انتهى .

ونقل الغازي عن ابن فهد أيضاً : أنه في سنة (٨٤٦) شرع الأمير تنم في هدم سقف الرواق الغربي من المسجد الحرام وسقف بعضه ، ثم في سنة (٨٤٨) أكمل تنوير بقية سطح المسجد الحرام من ناحية باب الصفا وكمّل سقف جميع الرواق

الغربي من المسجد الحرام وعمّر فيه أماكن وقلع الرخام الذي بأرض حِجْرْ إسماعيل جميعه خلا الرخامة الخضراء وأصلحه، وكشف سقف بيت بئر زمزم فأصلحه وسقفه ثانياً.

ونقل الغازي عن منائح الكرم: أنه في سنة (٨٥٢) عمّر بيرم خواجة ناظر الحرمين قطعة من المسجد الحرام ورمّم فيه. انتهى.

ونقل الغازي عن ابن فهد: أنه في سنة (٨٨١) غيّر رخام حجر إسماعيل داخلاً وخارجاً، وعمل الرصاص بأرض المطاف حول الكعبة.

ونقل الغازي عن العلامة عبدالعزيز بن عمر بن تقي الدين ابن فهد المكي في كتابه بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى في حوادث سنة (٨٨٥) أنه في يوم السبت ثالث عشر شهر شوال أو اليوم الذي يليه حضر قاضي القضاة ناظر الحرم الشريف برهان الدين ابن ظهيرة القرشي الشافعي بالمسجد الحرام وحضر الأمير المحتسب سنقر الجمالي والخواجة كمال الدين الظاهر شاه بندر وكشفوا على أماكن بالرواق الوسطاني من الناحية الغربية من المسجد الحرام واتفقوا على إصلاح خشبان فيه مكسرين وعلى إصلاح أماكن في نواحي من سقف أروقة المسجد الحرام ينزف منها ماء المطر. ففي يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر كشفوا عن ثلاثة أماكن في الرواق المذكور في مكان ثلاث خشبات وفي مكان اثنين وفي مكان واحدة وخشبهم صنوبر وأعادوا بدلهم خشباً، وكمّل إصلاح ذلك في نحو جمعة ثم عمل النورة من فوقه.

ونقل الغازي عن بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى المذكور سابقاً: أنه في شهر صفر سنة (٨٩٤) أربع وتسعين وثمانمائة شرع في إصلاح حاشية المطاف بإخراج البطحات التي بها وسببه أنه وقع مطر وسال سيلاً يسيراً فدخل من باب العجلة إلى المسجد الحرام وكانت العتبة مسدودة لم تحفر على جري عادتها فأمر الناظر قاضي القضاة جمال الدين أبا السعود ابن ظهيرة بحفر جميع حاشية المطاف فحفرت وأخرج منها بطحات كثيرة لكنها مخلوطة بتراب فغربلت وأخرج التراب من المسجد وبطحت الحاشية ببعض البطحات وفرق باقيها بالمسجد في الأماكن المحتاجة لذلك وحفر أيضاً الزقاق المتوصل إلى باب السدة فإنه كان ارتفع عن الطريق ومنع السيل من التوصل إلى مجرى العتبة التي عند الباب وتوصل إلى باب

العجلة فوجد مجرى العنبة مسدوداً فدخل المسجد ولعله وصل إلى المطاف فعمل ذلك لأجل هذا . وكان إكمال العمل في أوائل شهر ربيع الأول .

وفي شهر جمادى الآخر سنة (٩١٥) عمل الخواجة محمد بن عباد الله الرومي في المسجد أشياء، منها : إن قبة مقام الحنفي هدت وأعيدت بأخشاب جديدة ونورت وبيضت وجعل لها هلال جديد وغيّر أخشاب الشبابيك التي بزمزم ورخم قبّة الفراشين وشدّ الشبابيك التي تلي باب الصفا وهي ثلاثة والشباكين اللذين يليانها أي الشبابيك التي من جهة الصفا من جهة الكعبة وهدم التي من جهة مؤخر المسجد وبنى بالآجر والنورة وذلك للخلل الذي قالوه، وكشط الدهان الذي بعلو مقام الخليل عليه الصلاة والسلام والساباط المتصل به وأعيد جديداً ثم جعلت القبة خضراء وأسفلها طراز مذهب ودهن قبة المقام والساباط وجعل في القبة ذهب كثير وكذا في أساطين المقام وخشبة المؤخر وغيّر الأخشاب التي في الدرابزين وصار ذلك لائحاً لمن يريد الزخرفة . انتهى .

وفي آخر شهر ذي الحجة سنة (٩١٥) تسعمائة وخمسة عشر أو قبيله شرعوا في هدم جنبابتي باب الدريبة قالوا الخلل في الجدار فهدموا شيئاً مما يلي المسجد فقط .

وفي يوم السبت رابع شهر محرم سنة (٩١٦) شرع في سقف المسجد من جهة باب الدريبة وهو مدهون بلا ذهب، وفي يوم الخميس تاسع شهر ذي القعدة سنة (٩١٧) بنيت دكة ثانية بالزيادة وهي التي تلي باب الزيادة وجعل فيها باقي ما خرج من الحجر ومن بئر زمزم ومن مقام الحنفي .

ثم قال الغازي أيضاً عند ذكر عمارة قانصوه الغوري في المسجد الحرام ما نصه :

قال العلامة قطب الدين رحمه الله في الإعلام : ومما عمره السلطان قانصوه الغوري بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصراً، وفي جانبه مسكنين لطيفين وبيوتاً معدة للكراء، حول باب إبراهيم .

ووقف الجميع على جهات الخير . قال : ولا يصح وقف ذلك القصر لأنه في هواء المسجد، وكذلك المسكنان لأن أكثرهما واقع في المسجد الحرام . وبنى أيضاً ميضأة خارج باب إبراهيم، على يمين الخارج من المسجد، هي بطالة الآن، لأن

روائح عفونتها قد تصل إلى المسجد، فيتأذى بها المصلون، فأبطل وغلق قريباً في سنة ثمانين وتسعمائة بالأمر الشريف السلطاني. انتهى.

وفي موضع آخر من الكتاب المذكور: وفي حدود سنة سبع عشرة وتسعمائة، أرسل السلطان الغوري أميراً من أمرائه يقال له خير بك المعمار، لتعمير زيادة باب إبراهيم. فبنى على باب إبراهيم قصراً مرتفعاً مع مرافقه، وجعل حول القصر من خارج المسجد منازل ومساكن وبنى خارج ذلك ميضات تشتمل على مراحض وبركة ماء وقف ذلك جميعه على جهات خير وبنى من داخل باب إبراهيم على يمين الداخل حاصلاً في أرض المسجد وفي علوه مسكناً وعلى يسار الداخل مثله وقرر فيها بعض المستحقين وجعل في الجانب اليماني من هذه الزيادة حاصلاً يشتمل على سبيل ماء وصهريج كبير من ماء المطر من سطح المسجد وأبقى الجانب القبلي والجانب الشمالي على حالهما، وفرغ الأمير خير بك المعمار من ذلك في حدود سنة عشرين وتسعمائة. انتهى.

قال في تحصيل المرام: وأما الرحبة عن الباب والثلاثة الدرج التي على السوق فهي حادثة في سنة ألف ومائتين واثنين وثمانين في دولة السلطان عبد العزيز لأجل منع السيل عن المسجد الحرام. انتهى.

وفي درر الفرائد المنظمة عمر السلطان المرحوم قانصوه الغوري في سنة ستة عشرة وتسعمائة باب إبراهيم ووجد فيه لقية في قبة كانت هناك وهي مائتا أشرفي مغربي في صندوق وفيه ورقة فيه: نحن عمرنا وتعبنا وما ظلمنا وإذا خربت هذه القبة تبنى بهذا المال وكان وزن الأشرفي قفله ونصف وعليه كتابه بالكوفية. انتهى.

وفي شهر رجب سنة تسعمائة وعشرين وصل من مصر مهندس ومعمارية لعمارة ما أخذ بالإجارة من وقف عمارة ناظر الخاص الجمالي يوسف ابن كاتب حكيم عند باب إبراهيم ليوصل بعمارة القصر الذي أحدث للسلطان الأشرف قانصوه الغوري على باب إبراهيم قالوا لأن خوندجا حج في هذا العام، ليجعل ذلك حوش، تدخل فيه المحفة. فهدم وعمّر في هذا الشهر وللذي يليه ورأوه ضيقاً لا يحصل المقصود، فخرجوا في الطريق أذرع. ذكره عبدالعزيز بن فهد في بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى.

ومن آثار الأشرف الغوري أيضاً الترخيم الواقع في حِجْر البيت الشريف، عمل بأمره في أيامه واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمله عام سبعة عشر وتسعمائة اهـ . انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي .

ثم ذكر الغازي أيضاً في تاريخه ما وقع من العمارة العظيمة في المسجد الحرام ومن تغيير سقفه الخشبي بالقباب على حسب ما هو موجود في زماننا هذا وذلك سنة (٩٨٠) ثمانين وتسعمائة من الهجرة كما ذكرنا ذلك مفصلاً في مبحث خاص بعنوان «عمارة المسجد الحرام بالقباب» فراجعه إن شئت .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان سنة (٩١٨) أمر الأمير الباش برصاص أُذيب في المسجد عند المزولة وعمل في أماكن في الطواف ومن الظهر بطل ذلك ونقل حطب كثير إلى بيت الأمير فاضل عما اشتغل به وكانوا جاؤا به من باب السلام ولعله من المدعا من الأحمال التي تباع هناك والله تعالى أعلم .

وفي شهر ذي القعدة سنة (٩٢٠) عشرين وتسعمائة جاء لنائب جدة مراسيم وفيها أن الخواجة ابن عباد الله سألنا في أن يرصص أرض المطاف ويقطع المسعى ومجرى السيل إلى المسجد فأجبناه لسؤاله وأرسل إلى جدة رصاص، قالوا : إنه خمسون قنطاراً . فوصل لمكة بعضه . وأرسل أيضاً نائبه الخواجة شمس الدين ابن زين الدين بن أخت الخواجة بن سلامة، فشرع في ذلك يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . انتهى ما في بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى .

ونقل الغازي عن الإعلام : أنه سنة (٩٦١) إحدى وستين وتسعمائة، بعد أن فرغ ناظر الحرم أحمد حلبي من تجديد سطح البيت الشريف، شرع في تسوية فرش المطاف، فإن أحجاره انفصلت وصار بين كل حجرين حفر . كانت تلك الحفر تسد تارة بالنورة وتارة بالرصاص وتسمّر بمسامير الحديد فأزال ما بين الأحجار من الحفر ونحت طرف الحجَر إلى أن ألصقه بطرف الحجَر الآخر من جوانبه الأربعة واستمر في فرش المطاف على هذا الأسلوب إلى أن فرغ من ذلك وأصلح أبواب المسجد الشريف وفرش المسجد جميعه بالجص . اهـ .

ونقل الغازي عن مختصر الإعلام للشيخ عبدالكريم القطبي أنه ورد في موسم سنة (١٠٠٠) ألف من الهجرة فخر الصلحاء المكرمين الشيخ علي الخلوتي بأمر شريف سلطاني لا زال نافذاً على القاصي والداني يتضمن أن سقف مقام إبراهيم الخليل قد أكلته الأرضة وأنه يحتاج إلى إصلاح فلما كشف السقف المزبور

شاهدوا أن الأرضة قد أكلت غالبه وأن المتعين تغيير جميعه وإذا لم يغير سقط فغير جميعه بخشب الساج بشغل مكلف مصنع أحسن من الأول فشرعوا في العمل المذكور في جمادى الآخرة سنة واحدة وألف وتم العمل في السنة المذكورة . انتهى .

ونقل الغازي عن منائح الكرم : قال العلامة الشيخ عبدالرحمن ابن عيسى المرشدي في بعض مسوداته ، وأما الماشي الأربعة التي أحدها إلى باب السلام والأخرى إلى باب الصفا والأخرى إلى باب العمرة والأخرى إلى باب الحزورة والجناحان اللذان بجانبي مقام الحنفي والفرش الذي خلفه والذي تجاه المنبر كل ذلك محدث بعد أن فرش المطاف بالمرمر وذلك سنة ألف وثلاثة فإنهم كانوا كلما قلعوا شيئاً من المطاف جعلوه في هذه الأماكن وكذلك المحل الذي جعل مصلى لشريف مكة بصحن المسجد مما يلي أم هانئ . انتهى .

ونقل الغازي عن منائح الكرم : أنه في سنة ألف وعشرة (١٠١٠) جدد الشاذروان الملصق بجدار الكعبة وكان ابتداء عمله في اليوم السابع من شعبان من السنة المذكورة . وأما ترخيم المقام الحنفي ومحرابه فابتدئ فيه من ثالث عشر شوال من السنة المذكورة ثم ترك ترخيم أرضه كذا رأيته منقولاً من خط الشيخ عبدالرحمن المرشدي ، ورأيت في تاريخ شيخنا السيد محمد الشلي أن في هذه السنة أعني سنة ألف وعشرة أمر مولانا السلطان الأعظم محمد خان بترخيم المطاف وأرخ بعض الأروام ذلك بقوله من مثمن الكامل وهو متروك عند العروضيين :

زان المطاف بمرمر ملك الأنام محمد

نقل الغازي عن كتاب المنهل العذب ، المفرد في الفتح العثماني لمصر ، ومن ولي إيالة تلك البلد ، للعلامة محمد علي بن محمد علان المكي ، في ذكر السلطان محمد خان . ومن أعماله بمكة وضع الرخام لجميع أرض المطاف إلى العمد المطيفة به . وكان تمام عمل ذلك عام (١٠٠٦) ست وألف ، وجاء في تاريخ ذلك قصيدة أسعد أفندي المفتي بالديار الرومية ، منها قوله في مدح الملوك العثمانيين ومدح السلطان محمد خان :

عمَروا مساجد ربنا صنعوا مآثر تحمد
آثار خيرات لهم فيها عليهم تشهد
ملك الورى سلطاننا نجل المراد محمد

وبجَده وبجِدِّه ... دين النبي يجدّد
فرش المطاف بمرمر ... بصفاه يحكى المسجد
كالكوكب الدري في ... أوج السعادة يوقد
من طاف مستشهدا ... يوم القيمة يسعد
الطائفون العاكفون ... الراكعون السجّد
فلأجل تاريخ له ... قال ابن سعد أسعد
تلك القباب كذا لأسا ... طين إليهم تسند
لا سيما من نسلهم ... سلطاننا المستمجدوا
لا زال صارم سيفه ... للظَى الضلالة يخمد
الله خلد ملكه ... والعدل فيه مؤبد
كالبدر أشرق نوره ... إذ جنّ ليل أسود
نعم المطاف ترابه ... من غير أرمد إثمد
ويطوف بالليل وال ... أسحار قوم هجّد
الله بارك فرشه ... مع من بناه يخلّد
زان المطاف بمرمر ... ملك الأنام محمد

انتهى .

وبالتأمل فيما سبق من الكلام نرى أن هناك اختلافاً بسيطاً في تاريخ فرش المطاف بالرخام ، ففي كتاب المنهل العذب المفرد يقول : إن السلطان محمد خان فرش المطاف بالرخام سنة (١٠٠٦) وفي كتاب منائح الكرم يقول : إنه فرشه سنة (١٠١٠) وفيه أيضاً يقول : نقلاً عن مسودات الشيخ عبدالرحمن المرشدي : أنه في سنة (١٠٠٣) فُرش المطاف بالمرمر . فالاختلاف بين هذه الروايات بسيط كما هو ظاهر ، ونحن نميل إلى ترجيح ما جاء بكتاب المنهل العذب المفرد . ويمكن الجمع بين الأقوال بأن فرش المطاف بالرخام أول مرة كان لجزء منه ، وثاني مرة فرش بدون إتقان فحصل فيه خلل اقتضى قلعه جميعه وفرشه فرشاً جميلاً فنياً غاية في الإتقان والصنعة . والله تعالى أعلم بالغيب .

ونقل الغازي عن منائح الكرم : أنه في سنة (١٠٧٢) اثنين وسبعين وألف ، ورد سليمان بيك صنجقاً على جدة ، وفوض إليه مشيخة الحرم ، ونظارة عمارته .

وورد معه بمال من الآغا محمد كزلار مولانا السلطان لعمارة المسجد والمشاعر ، فشرع في عمارة المسجد وترميمه ، وبنى مقام الحنفي بالحجر المنحوت الصوان وبالأصفر ، وغيّر قبة زمزم وبناها على الصفة الباقية إلى الآن ونقش مقام إبراهيم بالذهب وأنواع الصبوغ ونقش المقامات كذلك وجعل أعلاها مصفحاً بالرصاص عوض الطبطاب الأول وجعل في أعلا مقام الإمام الحنفي رصافتين مطلية بالذهب وفي بقية المقامات رصافة رصافة وجعل ثلاث رصافات كبار قبل كل مقام وقبل مقام الحنفي أربعة والكل مطليات بالذهب ، ورمم المنائر السبعة وزاد في حاشية المطاف فرشاً بالحجر المنحوت زيادة قليلة ، ودهن علم المسعى وعين لها ثمانين قنديلاً تسرج في الثلاثة الأشهر رجب وشعبان ورمضان منتشرة من الصفا إلى المروة في أماكن متفرقة ، وعمّر سبيلاً إلى المسعى ملاصقة للبزابيز التي ترد منها أهل مكة . وعمّر غير ذلك من المشاعر نحو مسجد الخيف ، ومسجد نمرة ومسجد مزدلفة ورمم جميع هذه الأماكن وبيّضها وكتب اسم الكزلار محمد آغا صاحب هذه الخيرات في حجر بالنقر وألصقه في جدار مقام الحنفي .

ونقل الغازي عن إتحاف فضلاء الزمن : إنه في سنة اثنتي عشر ومائة وألف (١١١٢) عمّر إبراهيم بيك أطراف المسجد الحرام وما كان محتاجاً للتعمير باطناً وظاهراً وعمّروا المماشي وعمّروا طبطاباً في باب الزيادة ورمّموا المنارة التي على باب السلام ظاهراً وباطناً وكذلك منارة باب العمرة ومنارة الحزورة التي على باب الوداع والرفرف الذي على باب السلام وجدده بأخشاب جديدة ، وعمّر مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي فيه الحَجَر الشريف الذي كان يقف عليه خليل الله عند بناء البيت فغيّر جميع المقام ونقضه وجدده وبنى حول الحَجَر الشريف بالحَجَر الرخام والنورة وجدد ما كان محتوياً على القدم الشريف بالفضة المطلية بالذهب الأحمر وصبّ الرصاص بين الفضة والحَجَر واستحكموا الفضة بها وشدّوا أحجار القدم الشريف وغيّروا القبة بأخشاب ساج هندي ورمموا بالفضة ما كانت ملبسة على القبة الشريفة وسدد بأنواع الدهانات وأوراق الذهب ورمم الدرجة التي تطلع بها إلى المحل المزبور .

وفي خمسة عشر القعدة من سنة (١١٣٣) ألف ومائة وثلاثة وثلاثين غيّر المعمار أفندي صندوق مقام الخليل إبراهيم وهو موضع القدم الشريف أبدله بخشب غير خشبه القديم الأول وجلا صفائحه الأول ثم عاودها .

وفي افتتاح عاشوراء سنة (١١٣٤) ألف ومائة وأربع وثلاثين بدأ المعمار في ترميم الحرم الحرام وفرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة والشائع أن قصده يكسر جميع طبطاب الحرم ويبدله بالحجر المفروش فإنها أبقى والطبطاب مرمته أصعب .

وفي سنة (١١٤٠) ألف ومائة وأربعين في عشر ربيع الأول فرش الحرم الشريف بالحجارة المنحوتة وأزيل ما كان فيه من الطبطات جميعه . انتهى ما في الإتحاف .

ونقل الغازي عن تحصيل المرام : أنه في سنة (١٢٥٧) ألف ومائتين وسبع وخمسين أو في التي بعدها حصل ميل لعمودين بين باب البغلة وباب الصفا مما يلي صحن المسجد ، فكتب في ذلك إلى الأبواب . وكان إذ ذاك مولانا السلطان عبدالمجيد خان ، فبرز الأمر بإصلاحها وإصلاح ما كان في المسجد الحرام . فأصلحت بعد هدم القبب والعقود التي فوقها ، ثم أعيدت كما كانت . وكان ابتداء هذه العمارة في ربيع الأول من التاريخ المذكور . وكذلك أصلحوا عموداً وما فوقه من الرواق الذي وراء مقام الحنفي ، وأصلحوا المماشي وزيد في ممشى باب الصفا ، وأحدثت ممشاة باب علي ، وبيّضوا جميع الحرم ، وما زاد من الحَجَر في هذه العمارة جعلوه دكة عند باب الزيادة وطبطبوا ظاهرها .

وفي سنة (١٢٦٢) ألف ومائتين واثنين وستين أو التي بعدها ، بيّضوا الحرم وأصلحوا طبطابه ونقشوا عقوده ، ونقشوا المقامات والمنبر ، ومسحوا هلالاتها ، وجعل رفرف على باب السلام من الخارج منقش وذلك في زمن والي مكة الشريف محمد بن عون وشيخ الحرم شريف باشا .

وفي سنة (١٢٦٦) ألف ومائتين وست وستين فرشت رحبة باب السلام من خارج الباب بالرخام الأبيض وكانت قبل ذلك سقاية يباع فيها الماء وربما بعض الناس كشف عورته واستنجى فواجه البيت الشريف وكانوا يوسّخون الحرم فأزيل ذلك جزاهم الله خيراً . وكل ذلك في أيام السلطان عبدالمجيد خان .

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٩) ورد الأمر بترميم المسجد الحرام من مولانا السلطان عبدالعزيز خان لأن أرض أروقته ومماشيه وحاشية المطاف أي التي خارج الأعمدة النحاس التي يوقد فيها المصابيح قد تحفرت بسبب السيل الذي دخل الحرم في جمادى الأولى لثمان خلت من سنة ألف ومائتين وثمان

وسبعين وكان دخوله قبل صلاة الصبح ووصل ذلك السيل إلى قفل باب الكعبة المشرفة وغطى مقام المالكي وتعطلت صلاة الجماعة خمسة أوقات ولم يصلّ في الحرم في ذلك اليوم أحد إلا أناس صلوا صلاة العصر على دكة باب الزيادة ، وغرقت أناس كثيرة في الحرم وكذلك غرقت أناس كثيرة خارج الحرم وحصر لذين ماتوا في السيل فكانوا فوق العشرين فبعد ذلك ورد الأمر من الدولة العلية وكان إذ ذاك مولانا السلطان عبد العزيز خان بإصلاح الحرم الشريف والنظر في ذلك لحضرة الشريف عبدالله بن المرحوم الشريف محمد بن عون ووالي شيخ الحرم الحاج أحمد عزت باشا فعند وصول الأمر شرعوا في تعميره فأخرج جميع ما في الرواقات من الطبطاب القديم وكذا المماشي وحاشية المطاف وعوضوا ذلك بطبطاب جديد ولم يعمّر مثل هذه العمارة منذ بنى الحرم وإنما كانوا يصلحون ما تقلّع من الطبطاب وفي أقل مدة يتقلّع ، وأما هذه العمارة فأتقنوها غاية الإتقان وكان ابتداء الشروع في العمل في ثمانية وعشرين من جمادى الآخرة سنة ألف ومائتين وتسع وسبعين ، وأتموا العمل في غاية ذي الحجة من السنة المذكورة . انتهى ما في تحصيل المرام .

وفي سنة (١٣١٤) ألف وثلاثمائة وأربع عشرة صدر أمر السلطان عبدالحميد خان بن السلطان عبدالمجيد خان للوالي أحمد راتب باشا بإجراء ما يلزم للمسجد من عمارة وإصلاح ومرمة وتنظيف ونقوش وما أشبه ذلك . فقام الوالي المذكور بإجراء كل ما يلزم فعمل أولاً نحو خمسين سلماً من الخشب الجاوي السميك ، وجعل كل سلم على أربعة قوائم بمقاسات مختلفة في الطول حسب اللزوم فأول ما ابتدؤا به من العمل تنظيف القباب من الغبار والأوساخ وكذلك تنظيف سطح المسجد الحرام ثم تنظيف الأسطوانات الرخام وعين الوالي لذلك قسماً من الجنود التركية فكانوا يستعملون لتنظيف الأسطوانات قطعاً من الخيش يغمسونها في الماء ثم يكبسونها في الرمل الناعم ويدلكون بها الأسطوانات دلكاً جيداً وربما استغرق تنظيف الأسطوانة الواحدة أسبوعاً أو أسبوعين حتى تنجلي ويعود لونها إلى حالته الأصلية وهكذا جرى العمل في تنظيف عموم الأسطوانات الرخام . وأما الأعمدة المبنية بالحجر الصوان والحجر الشميسي وعموم عقود المسجد الحرام وجداره فصبغوها بالصباغ الأسود والأحمر العنابي والأصفر البرتقالي والرمادي ورحموا بطون القباب وجدار المسجد الحرام وأصلحوا الأحجار المرصوفة على أرض الأروقة والمماشي ورمموا المنائر وأبواب المسجد ودهنوها مع أخشاب المقامات

باللون الأخضر . ومكثت تلك العمارة نحو سنة وكتب تاريخ العمارة تحت طرة بالذهب باسم السلطان عبدالحميد خان بعلو باب النبي. اهـ.

وفي سنة (١٣٢٧) سبع وعشرين وثلاثمائة وألف دخل المسجد الحرام سيل عظيم وحصل بسبب ذلك ميل في بعض أسطوانات الرخام مما يلي باب العمرة إلى باب الوداع من الجهة الغربية ومن باب أم هانئ إلى باب علي من الجهة الجنوبية ، وحصل أيضاً خلل في بلاط المسجد الحرام وجداره . فلما كان ابتداء سنة (١٣٣٤) صدر أمر السلطان محمد رشاد خان إلى والي الحجاز غالب باشا ، لإصلاح الخراب الواقع في المسجد الحرام وحضر مهندسان تركيان عن طريق المدينة لهذا الغرض . فأول شيء عمل هو طارات من الخشب الجاوي ، على سعة عقود المسجد الحرام لأجل تحميل العقود المركبة على تلك الأسطوانات التي يراد إصلاحها وتعديلها فعملوا نحو عشرين طارة وحملوا عليها العقود المذكورة التي بالجانب الغربي والجنوبي ، وشرعوا في تبديل إحدى الأسطوانات الأمامية الواقعة بالجهة الغربية على حافة الحصوة مما يلي باب إبراهيم فأخرجوها بعد بذل جهود عظيمة وعملوا بدلاً عنها أسطوانة صناعية فنية قوامها من الحديد والإسمنت ومسحوق الآجر والشعر ثم كسيت بقطع من المرمر ممزوج بمركب فني . واستمر العمل في صنعها نحو شهر ثم أخذوا في تعديل بعض الأسطوانات المائلة من الجهة الغربية فعدلوا منها نحو عشرة وأصلحوا كثيراً من الخراب الواقع في الأروقة والأبواب والمنائر . وبينما هم سائرون في العمل إذ فاجأهم أمير مكة الشريف الحسين بن علي في فجر يوم السبت تاسع شعبان من السنة المذكورة وهي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف فأعلن استقلاله بالحجاز ووقع الحرب بينه وبين الأتراك المقيمين في الحجاز وبسبب ذلك وقف العمل إلى أن انتهت الحرب العامة .

ثم في سنة (١٣٣٨) صدر أمر الملك الشريف الحسين بإتمام عمارة المسجد الحرام فقام بالعمل ناظر الحرم ووزير الأوقاف محمد أمين أفندي إمصيلي فعدلت بقية الأساطين المائلة ورمم عموم الخراب الواقع بالمسجد الحرام . اهـ.

وفي سنة (١٣٤٤) أربع وأربعين وثلاثمائة وألف صدرت إرادة جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بعمارة المسجد الحرام فأصلح كل ما يقتضي إصلاحه من ترميم عموم الخراب الواقع في جدار المسجد وأرضه وأعمدته ، وإصلاح المماشي وحاشية المطاف وعموم والأبواب ، وغير ذلك من الإصلاحات

اللازمة للمسجد الحرام . وتمت هذه العمارة بكمال السرعة لحلول موسم الحج . اهـ .

ثم في سنة (١٣٤٦) صدر أمر جلالة الملك عبدالعزيز المذكور بإجراء عمارة عموم المسجد الحرام داخلاً وخارجاً فقاموا بالعمل ورمموا عموم فرش أروقة المسجد الحرام من جهاته الأربعة وجدار المسجد الحرام داخلاً وخارجاً ونظفوا القباب وأصلحوا مظلة مقام الحنفي ومظلة مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ومظلة قبة زمزم وكسوها بالمعدن الأبيض المسمى بالتوتوة -وهو الألمنيوم أو الزنك- وطلوها بالدهان الأخضر كما طلوا أساطين النحاس المحاطة بمدار المطاف بلون أخضر وأصلحوا شاذروان الكعبة وفرشوا حصاوى المسجد الحرام بالحصباء ثم رمموا عموم جدار المسجد الحرام داخلاً وخارجاً وكذلك الأعمدة المبنية بالحجر الصوان وأبواب المسجد الحرام . انتهى ما نقل من تاريخ عمارة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة .

نقلنا كل ما تقدم من تاريخ الشيخ عبدا لله الغازي رحمه ا لله تعالى المسمى « إفادة الأنام بذكر أخبار بلد ا لله الحرام » وفي الحقيقة لم تقف عمارات آل سعود في المسجد الحرام منذ دخولهم الحجاز ، بل أنهم زادوا في المسجد الحرام هذه الزيادة العظيمة حتى صار المسجد الحرام أعظم مساجد الدنيا في السعة والحرمة على الإطلاق ، بل أنهم قاموا بإنشاء مساجد كثيرة بمكة وبالمملكة كلها وفقهم ا لله تعالى للخيرات آمين .

فانظر رحمك ا لله إلى هؤلاء المؤرخين الفضلاء الأمناء كيف خدموا المسجد الحرام من الناحية العلمية التاريخية ، وبيّنوا كل شيء في غاية التفصيل والدقة التامة ولا نعتقد أنه يوجد مسجد أو بلدة على وجه الأرض يُكتب عنه ما كتب عن مكة والمدينة ومسجديهما . نسأل القبول والرضا والعفو والعافية والتوفيق لكل خير والموت على الإيمان الكامل براحة ونظافة وطهارة والعفو عند الحساب آمين .

التعميرات الواقعة في نفس المطاف

جاء في تاريخ الغازي ما نصه : قال في درر الفرائد : أول من بلّط المطاف عبدا لله بن الزبير ، رضي ا لله عنهما ، فإنه لما بنى الكعبة وفرغ من بنائها بقيت معه

من الحجارة بقية ففرش بها حول البيت نحواً من عشرة أذرع وتبعه غيره ففرش باقي المطاف . انتهى .

ومن تحصيل المرام ذكر الفاسي في شفاء الغرام وعمارة الرخام الذي من المطاف ، عمل ذلك دفعات حتى صار على ما هو عليه اليوم . وكان مصيره هكذا في سنة سبعمائة وست وستين . وممن عمّره المنتصر العباسي سنة ستمائة وإحدى وثلاثين ، واسمه مكتوب في تلك الحفرة التي عند باب الكعبة . وممن عمّره الملك شعبان صاحب مصر ومن خيرات السلطان سليمان تغيير بلاط المطاف القديم وتجديده ببلاط جديد أي رخام ، على يد أحمد حلبي في سنة تسع وخمسين وتسعمائة . وذكره في درر الفرائد . انتهى ما في تحصيل المرام .

وفي تاريخ القطبي : وأما عمارة المطاف الشريف فوقع في سنة إحدى وستين وتسعمائة ، وكنت قد أمرت بتاريخ يكتب على بعض مواضع المطاف . فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً تقرب إلى الله تعالى ، بتجديد فرش أحجار المطاف ، وتسويتها تحت أقدام الطائفين في الطواف ، وتحلية الباب الشريف والميزاب المعظم الحنيف خليفة الله تعالى الأعظم سلطان الروم والعرب والعجم ، من اصطفاه الله تعالى واجتباه لترميم بيته الحرام واختاره وارتضاه بخدمة الركن والمقام السلطان بن السلطان الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان خان ، تقبل الله منه صالح الأعمال وبلغه ما يؤمله من السعادة والإقبال . ولما تم ذلك غرّد بالتاريخ طير الهنا عمّر الله قبلتنا .

وقال ابن فهد في حوادث سنة ست وأربعين وثمانمائة : وفيها في سادس عشر شوال أذيب الرصاص وجعل بالحفر التي بأرض المطاف . انتهى من تاريخ الغازي .

ثم في زماننا أي في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين حصل تعمير في نفس المطاف وذلك في عهد الملك سعود بن عبد العزيز ففرشوا أرضه بالرخام المرمر ، بل حصلت تعميرات كبيرة جداً في جميع المسجد الحرام في هذا العهد ، كما ذكر كل شيء في محله ، من هذا التاريخ فارجع إليه في فسطانه إن شئت .

لما وسّع القائمون على مشروع التوسعة المطاف ، لم يكونوا يرغبون في وضع حد يفصل بين المطاف القديم والمطاف الجديد ، فتجادلنا معهم في هذا الأمر فوجدناهم مصممين عليه ، فاقترحنا في الجريدة التي تصدر بمكة في سنة (١٣٧٥)

أو بعدها أن لا بد من وضع حد من الرخام الأسود على حدود المطاف القديم ليكون فاصلاً بينه وبين المطاف الجديد ، وللمحافظة على حدود كل شيء كما هو الواجب ، فعندئذ عملوا الحد الفاصل بينهما . ولكن فضيلة رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش رأى جواز توسعة المطاف وأنه لا حاجة لوضع الحد المذكور وقد دعى الملك سعود إلى داره بمكة المكرمة وألقى كلمة أمام الملك أوضح فيها جواز توسعة المطاف نشرت بالجريدة الرسمية وقد وسع المطاف ولا زال يوسّع حتى تاريخه لزيادة أعداد المسلمين الحجاج .

انتهى بعون الله تعالى الجزء الرابع

ويتلوه الجزء الخامس ، وأوله :

صيغة الدعاء بالمسجد الحرام لملك الحجاز سابقا



المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة	٥
كتابة أسماء الملوك في كسوة الكعبة	٧
الإشهاد الشرعي بتسليم كسوة الكعبة	١١
حكم التصرف في كسوة الكعبة	١٣
صورة وقفية السلطان خان على كسوة الكعبة	١٧
كيفية تركيب كسوة الكعبة عليها	٢٢
برقع الكعبة المعظمة أي ستارة بابها	٢٤
خَدَم الكعبة وأغوات المسجد الحرام	٢٦
أغوات المسجد الحرام في عصرنا هذا	٤١
مبدأ الرق والاسترقاق	٤٢
صورة عقد عتق أبي رافع مولى رسول الله ﷺ	٤٤
اقتناء الجواري	٤٥
بيع الرقيق في الآستانة	٤٨
الاسترقاق	٥٣
إحرام الكعبة في موسم الحج	٥٤
تجريد الكعبة من كسوتها عند تجديدها	٥٧
الكلام على من يهدم الكعبة في آخر الزمان	٦١
ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب	٦٢
مقدار ما استعمل من الأخشاب والعواميد لستر الكعبة	٦٥
عمل نطاق للكعبة المشرفة	٦٦
ستر الكعبة في حرب ابن الزبير	٦٧
ما وجد في الكعبة من الكتابات القديمة	٧٠
فرش أرض الكعبة بالرخام	٧١
صفة المسامير التي كانت في الكعبة	٧٢
صفة باب الكعبة في عهد الأزرقي	٧٢

الموضوع	رقم الصفحة
وجود سقفين للكعبة	٧٣
كيفية وضع الكسوة على الكعبة الشريفة	٧٦
تفرقة الرجال عن النساء في الطواف وفي المسجد الحرام	٧٧
الترغيب في الحج والعمرة	٧٨
أسرار الحج ومزاياه	٨٠
فضل العمرة	٨٤
إتيان العمرة في شهر رجب	٨٤
العمرة الرجبية	٨٧
الزيارة الرجبية	٩٠
وجوب الحج والعمرة	٩١
سنن الحج والعمرة في المذهب الشافعي	٩٢
قصيدة أبي نُواس في التلبية	٩٣
[الميقات الزماني والمكاني]	٩٤
خطب الحج	٩٦
دعاء عرفة	٩٧
أنواع النسك	١٠٢
بعض فوائد في المناسك على المذهب الشافعي	١٠٣
اقتراح لمؤلف هذا التاريخ	١٠٥
بعض أحكام الحج والعمرة على المذهب الشافعي	١٠٧
معنى الحج لدى الطوائف المختلفة	١١٢
لباس الإحرام في الحج والعمرة	١١٥
الحكمة في لباس الإحرام بالحج أو بالعمرة	١١٦
الأصنام التي كانت في الكعبة أيام الجاهلية	١٢٠
مشروعية الأذان وكيفيته	١٢٣
أذان بلال فوق الكعبة يوم فتح مكة	١٢٤
أذان بلال بعد موت النبي ﷺ	١٢٥
عدد المؤذنين لرسول الله ﷺ	١٢٦
تحسين الصوت بالأذان	١٣٠

الموضوع	رقم الصفحة
الأذان الشرعي	١٣٣
قصة الأذان	١٣٦
المؤذنون والموقتون في المسجد الحرام اليوم	١٣٩
الكعبة المشرفة	١٤٠
درج الكعبة الخارجية الموصلة إلى بطنها	١٤٠
درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها	١٤٣
عدد درج الكعبة التي بداخلها	١٤٥
وصف درج الكعبة في عصرنا	١٤٦
روازن الضوء في سطح الكعبة	١٤٧
الأعمدة الثلاثة التي بداخل الكعبة	١٤٨
عدد أعواد سقف الكعبة	١٥٢
الإصلاحات والترميمات في الكعبة المشرفة	١٥٣
سطح الكعبة وأرضها من الداخل	١٥٨
وصف رخام الكعبة في عصر ابن حبير	١٦٠
غسل الكعبة المشرفة	١٦١
تلقي الناس لماء المطر تحت ميزاب الكعبة	١٦٥
ميزاب الكعبة وعدده	١٦٧
عمل باب الكعبة المشرفة	١٧٢
عمل قفل ومفتاح لباب الكعبة	١٧٥
الكتابة التي بأعلى باب الكعبة	١٨٠
انتقال مفتاح الكعبة من شخص لآخر قبل الإسلام	١٨٣
ترجمة شيبة بن عثمان وعثمان بن طلحة	١٨٩
تاريخ سدانة الكعبة المشرفة	١٩٢
السدانة قبل الإسلام	١٩٣
قصي بن كلاب	١٩٣
عبد الدار	١٩٤
السدانة في الإسلام	١٩٤
عثمان بن طلحة	١٩٥

الموضوع	رقم الصفحة
شيبة بن عثمان بن أبي طلحة	١٩٦
عبدالله بن شيبة الأعجم	١٩٧
شجرة النسب	١٩٨
محمد بن زين العابدين	١٩٨
عاداتهم	٢٠٤
ترجمة خالد بن عبدالله القَسْري	٢٠٤
كيس مفتاح الكعبة والكراسي التي كانت في داخلها	٢٠٨
وصف الكرسي الذي في الكعبة في وقتنا الحاضر	٢١١
مواعيد فتح الكعبة في الجاهلية والإسلام	٢١١
وصف فتح الكعبة ودخول الناس فيها	٢١٤
الطواف وآدابه وشروطه	٢١٧
إباحة بعض الأمور في الطواف	٢٢١
ذكر الله وقراءة القرآن في الطواف	٢٢٣
الدعاء وآدابه	٢٢٤
بعض القصائد في التضرع	٢٣٠
الطواف راكباً ودخول المواشي والدواب المسجد الحرام	٢٣٧
قياس طوفة واحدة حول الكعبة	٢٤١
عمارة المطاف وفرشه	٢٤٣
حدود المطاف بالأعمدة والأساطين ثم إزالتها بتاتاً في عصرنا	٢٤٨
توسعة المطاف لأول مرة في التاريخ	٢٥٠
مقدار المطافين القديم والجديد وشكلهما	٢٥٢
الحج	٢٥٣
إنساء الشهور	٢٦٠
معنى النسيء	٢٦٢
ذكر السنين التي يضرب بها المثل	٢٦٦
أمر الإفاضة في الجاهلية والإسلام	٢٦٧
ذكر من حج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٢٦٨

الموضوع	رقم الصفحة
ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة وخمس وثلاثين من الهجرة	٢٧٣
ذكر بعض من حج من الخلفاء والملوك	٢٨٨
حجة الوداع نقلاً عن تاريخ الخميس	٢٩١
حجة الوداع نقلاً عن كتاب مرآة الحرمين	٢٩٨
ما في حجة الوداع من المعاني الجليلة	٣١٥
خطبة حجة الوداع	٣١٧
وقفة الجمعة بعرفات	٣٢٠
ذهاب النبي ﷺ من منى إلى عرفات عن طريق ضب ثم رجوعه منها من طريق المأزمين	٣٢٢
نزول النبي ﷺ في غار جبل نمرة في الحج	٣٢٣
تنظيف طريق الحج من أشجار الشوك	٣٣٠
حكم قطع شجر الحرم ونباته	٣٣١
حكم نقل تراب الحرم وأحجاره	٣٣٦
الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف	٣٣٧
الطواف بالبيت عراة	٣٣٩
دخول السيارات إلى المسجد الحرام في زماننا	٣٤٢
ذكر بعض الحوادث المتفرقة	٣٤٤
بعض ما حصل بمكة وما حولها من القتال والنهب	٣٤٦
الأمن والأمان في العهد السعودي	٣٥٧
بعض الأمور العجيبة التي وقعت بمكة	٣٥٩
ما وقع بمكة من الرخاء والغلاء والقحط والوباء	٣٧٠
التسعيرة ومقاومة الاحتكار	٣٨٠
إبطال المكوس والجمارك	٣٨٤
المراد بالمسجد الحرام وفضل الصلاة فيه	٣٨٥
مقدار فضل الصلاة في المسجد الحرام بالحساب	٣٨٨
هل تتضاعف السيئات بالحرم أم لا؟	٣٨٩
باب بني شيبة	٣٨٩

الموضوع	رقم الصفحة
صلاة الجمعة في المسجد الحرام	٣٩١
وحتى صلاة الجمعة في المسجد الحرام	٣٩٢
كيفية الخطبة في المسجد الحرام	٣٩٨
منبر المسجد الحرام	٤٠٢
اتخاذ المنبر لرسول الله ﷺ	٤٠٦
حنين الجذع	٤١٠
ترجمة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه	٤١١
نبذة عن عادات معاوية رضي الله تعالى عنه وهو خليفة	٤١٦
بعض أعمال معاوية رضي الله تعالى عنه بمكة	٤١٧
عدل معاوية وقوة سلطانه	٤١٩
أبواب المسجد الحرام قبل توسعته في زماننا	٤٢١
بوّابو المسجد الحرام	٤٢٤
نصب الخيام في المسجد الحرام	٤٢٦
وجود المظلات في المسجد الحرام	٤٢٨
اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام	٤٣٠
وضع الحجر الأساسي لتوسعة المسجد الحرام	٤٣٠
مكتب توسعة المسجد الحرام	٤٣٣
توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي	٤٣٣
الزيادات في المسجد الحرام	٤٣٤
الزيادة الأولى : زيادة عمر في المسجد الحرام	٤٣٦
الزيادة الثانية : زيادة عثمان في المسجد الحرام	٤٣٧
الزيادة الثالثة : زيادة عبدالله بن الزبير في المسجد الحرام	٤٣٩
الزيادة الرابعة : زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان	٤٣٩
الزيادة الخامسة : زيادة أبي جعفر المنصور	٤٤٠
الزيادة السادسة : زيادة محمد المهدي العباسي	٤٤١
سبب وجود سقفين للمسجد الحرام في عمارة المهدي	٤٤٥
ذكر الترميم بالمسجد الحرام في عهد أمير المؤمنين	٤٤٦
المتوكل على الله	٤٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
الزيادة السابعة : زيادة المعتضد با لله	٤٤٧
الزيادة الثامنة : زيادة المقتدر با لله	٤٥١
المسجد الحرام وما أجري فيه من زيادات	٤٥٢
البناء حول البيت	٤٥٢
بيت ا لله بعد ظهور الإسلام وتوالي الزيادات	٤٥٢
المسعى قديماً	٤٥٤
التوسعة الكبرى في العهد السعودي الزاهر	٤٥٤
مجرى السيل	٤٥٥
وضع الحجر الأساسي للعمارة الجديدة	٤٥٥
تفاصيل المسعى	٤٥٥
قبة الصفا والأبواب والمنارات	٤٥٥
تكسية جدار العمارة بالمرمر والحجر الصناعي	٤٥٦
المتبقي من المبنى القديم	٤٥٦
مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة وما صرف عليه	٤٥٦
المطاف	٤٥٧
مقام سيدنا إبراهيم الخليل	٤٥٧
الميادين حول الحرم الشريف	٤٥٧
دورات المياه (الميضاءات)	٤٥٨
مجاري السيل ونفق وادي إبراهيم	٤٥٨
نزع الملكيات وهدمها وتعويض أصحابها من أجل التوسعة	٤٥٨
مكتبة الحرم الشريف	٤٥٩
إنارة المسجد الحرام	٤٥٩
الجسور	٤٥٩
الزيادة التاسعة : زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود	٤٦٠
خلاصة ما تقدم من الزيادات في المسجد الحرام	٤٦١
بيان مساحة الزيادات في المسجد الحرام	٤٦٥
ترجمة الوليد بن عبد الملك	٤٧٠

الموضوع	رقم الصفحة
ترجمة المعتضد با لله	٤٧٣
سياسة المعتضد با لله العباسي في الحكم	٤٧٤
وصف قصر الخليفة المقتدر با لله العباسي	٤٧٨
ترجمة المقتدر با لله	٤٧٩
ترجمة أبي جعفر المنصور	٤٨٢
تقدير المنصور للعلماء العاملين والوعاظ	٤٨٢
اقتصاد المنصور	٤٨٥
اهتمام المنصور بعماله	٤٨٦
حاضرة الخلافة	٤٨٧
حكاية المنصور مع معن بن زائدة	٤٨٩
صفات المنصور وأخلاقه	٤٩١
كيف كان يقضي وقته	٤٩١
وفاة المنصور	٤٩٢
ترجمة أمير المؤمنين محمد المهدي	٤٩٣
بيعة المهدي	٤٩٥
بين المهدي ومعن بن زائدة	٤٩٨
شيء من خطب المهدي	٤٩٩
من كرم المهدي	٥٠١
شيء من مروءة المهدي وفضله	٥٠٢
أول صندوق للبريد	٥٠٢
وفاة المهدي	٥٠٦
ترجمة هارون الرشيد	٥٠٦
حضارة بغداد في عهد الرشيد	٥١١
حج الرشيد وحبه للوعظ	٥١٣
عهد الرشيد بالولاية لابنه المأمون	٥١٨
حكاية هارون الرشيد مع الأعرابي	٥١٩
وفاة هارون الرشيد	٥٢١
ترجمة السلطان سليمان خان	٥٢٢

الموضوع	رقم الصفحة
حكاية سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم	٥٢٤
ترجمة الأمير سُودُون المحمَّدي	٥٢٨
فرش وتعمير المسجد الحرام	٥٢٩
فرش المسجد الحرام بالبطحاء وغيرها	٥٢٩
وضع الحصى والبطحاء في المسجد الحرام	٥٣٠
فرش المسجد الحرام بالطبطاب والحجارة والرخام	٥٣١
دكة باب الزيادة	٥٣٢
المماشي التي بالمسجد الحرام	٥٣٢
تعمير المسجد الحرام في الدولة العثمانية	٥٣٣
ذكر أساطين المسجد الحرام وقببه وشرفاته وأبوابه ومنائره	٥٣٩
جدول عام في ذكر أسماء من عمّر المسجد الحرام	٥٤٢
ترجمة عبدالملك بن مروان	٥٤٦
ترجمة المتوكل على الله	٥٥٠
ترجمة الأمير مقبل القديدي	٥٥٣
ترجمة قايتباي ملك مصر	٥٥٤
ترجمة الأمير إبراهيم المهمندار	٥٥٥
وجود سقفين للمسجد الحرام قديماً	٥٥٦
التعميرات والترميمات الواقعة في المسجد الحرام	٥٥٧
التعميرات الواقعة في نفس المطاف	٥٧٤

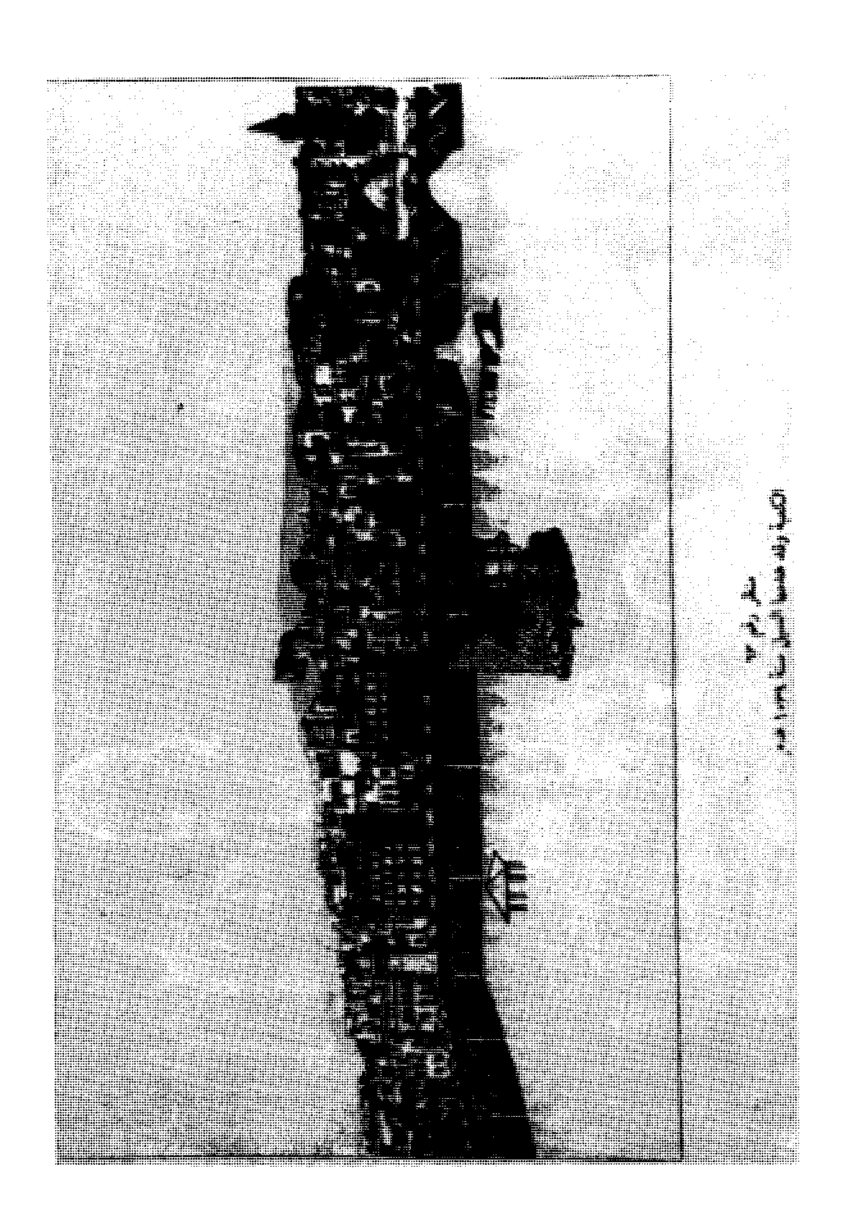
مُلحَقُ الصُّوَرِ

منظر رقم ٥٩

صورة للثمانية الاحجار الصفر الظاهرة

وهي حجارات ثمينة جدا منقوشة نقشا طبيعية ومبنية في شاذروان الكعبة عند بابها

صورة رقم ٧٥



صورة رقم ٧٦



منظر رقم ٦٤
هذه الصورة للكعبة المشرفة الموجودة اليوم
هي من بنايه السلطان مراد الرابع رحمه الله تعالى رحمه الأبرار

صورة رقم ٧٧



منظر رقم ٦٥
باني الكعبة السلطان مراد الرابع

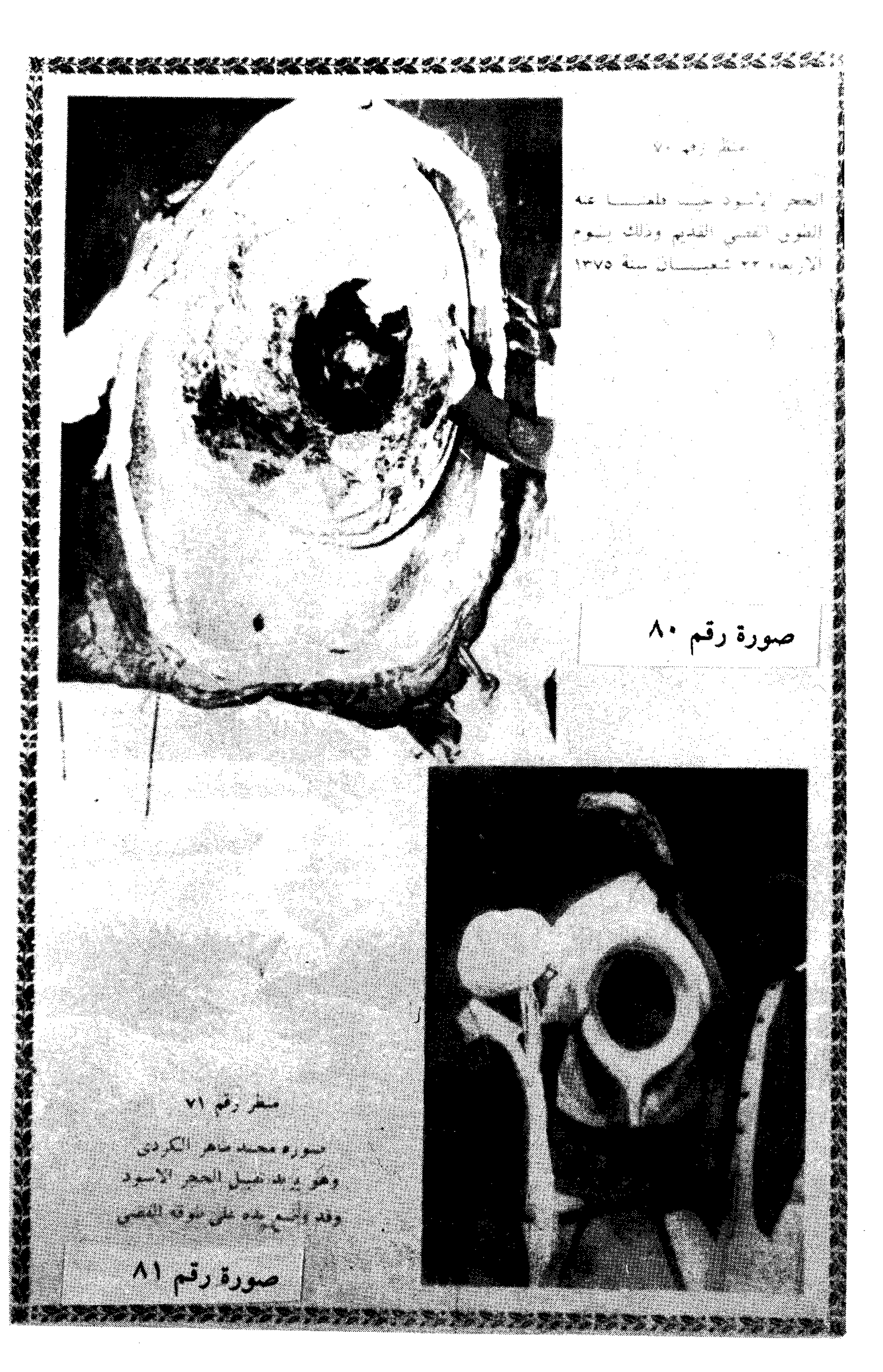
صورة رقم ٧٨



منظر رقم ٦٨

هذه صورة باب غرفة بئر زمزم ،
وترى المؤلف محمد طاهر الكردي المكي وهو خارج منها ، غفر الله تعالى له ولوالديه وللمسلمين آمــين

صورة رقم ٧٩



منظر رقم ٧٠

الحجر الأسود حيث خلعنا عنه الطوق الفضي القديم وذلك يوم الأربعاء ٢٢ شعبان سنة ١٣٧٥

صورة رقم ٨٠

منظر رقم ٧١

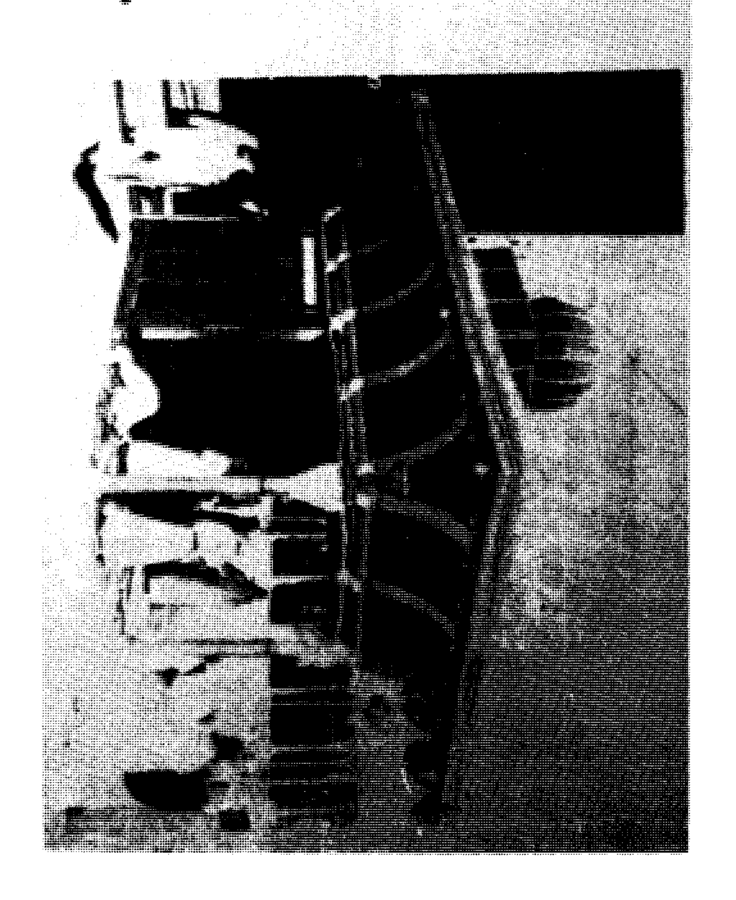
صورة محمد طاهر الكردي وهو يريد تقبيل الحجر الأسود وقد وضع يده على طوق الفضي

صورة رقم ٨١

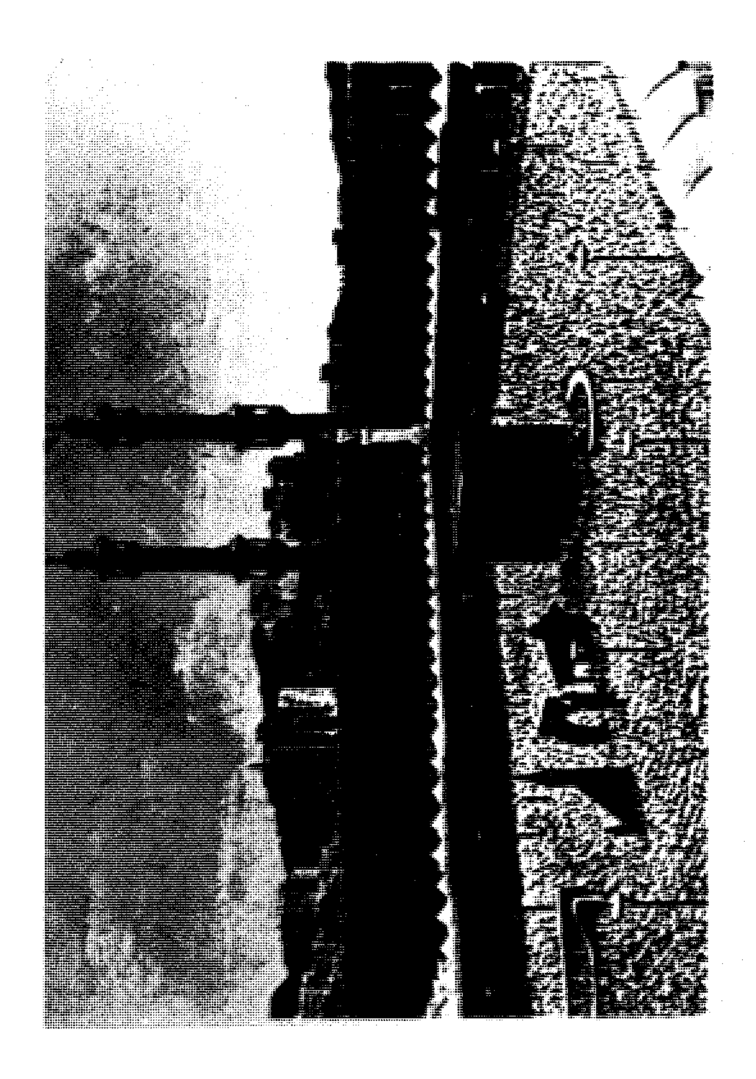
شكل رقم ٧٢

مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ونرى الناس يصلون خلفه



صورة رقم ٨٢



منظر رقم ٧٦

الكعبة المكرمة وحولها الوف المصلين

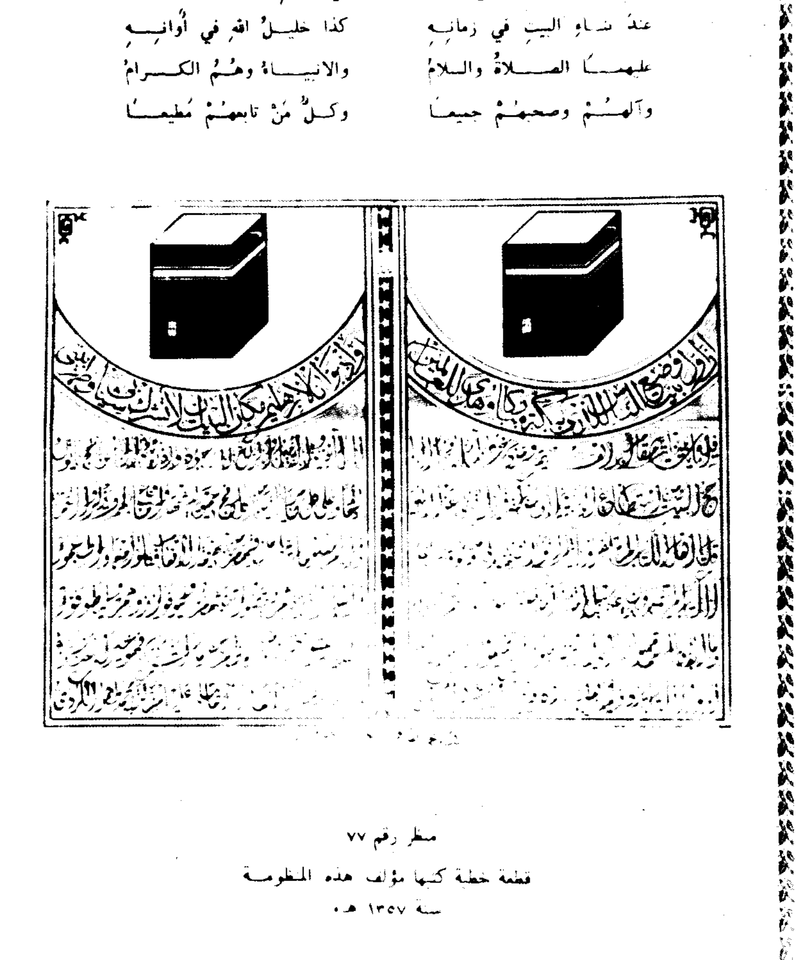
صورة رقم ٨٣

« محمدٌ » مَنْ كانَ يرفَعُ الحجَرْ في كتفِهِ حجرًا بعدَ حجَـرْ

عندَ بناءِ البيتِ في زمانِـهِ كذا خليـلُ اللهِ في أوانِـهِ

عليهمـا الصـلاةُ والسلامُ والأنبيـاءُ وهُـمُ الكـرامُ

وآلهُـمْ وصحبهُـمْ جميعـا وكـلُّ مَنْ تابعهُـمْ مُطيعـا



منظر رقم ٧٧

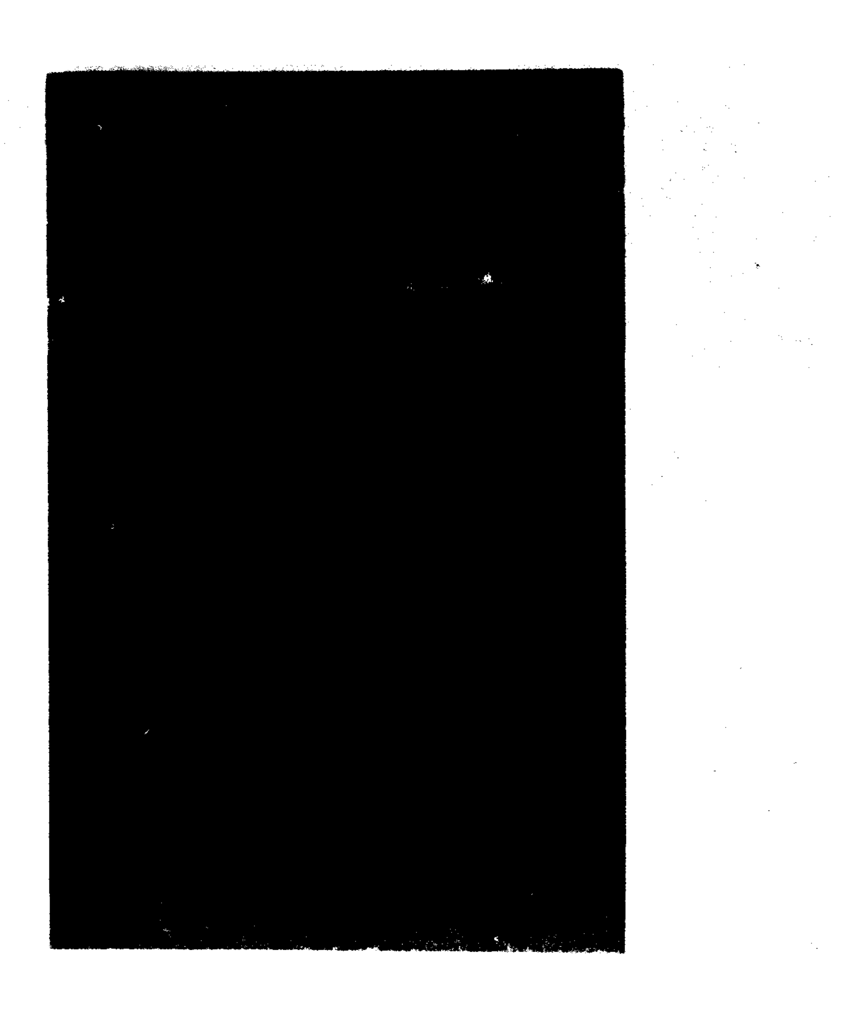
قطعة خطية كتبها مؤلف هذه المنظومـة

سنة ١٣٥٧ هـ ·

صورة رقم ٨٤



صورة رقم ٨٥



منظر رقم ٨٢

السهم الى الملتزم وهو حائط الكعبة بين البـاب والحجر يقف الحاج عنده للدعاء

صورة رقم ٨٦



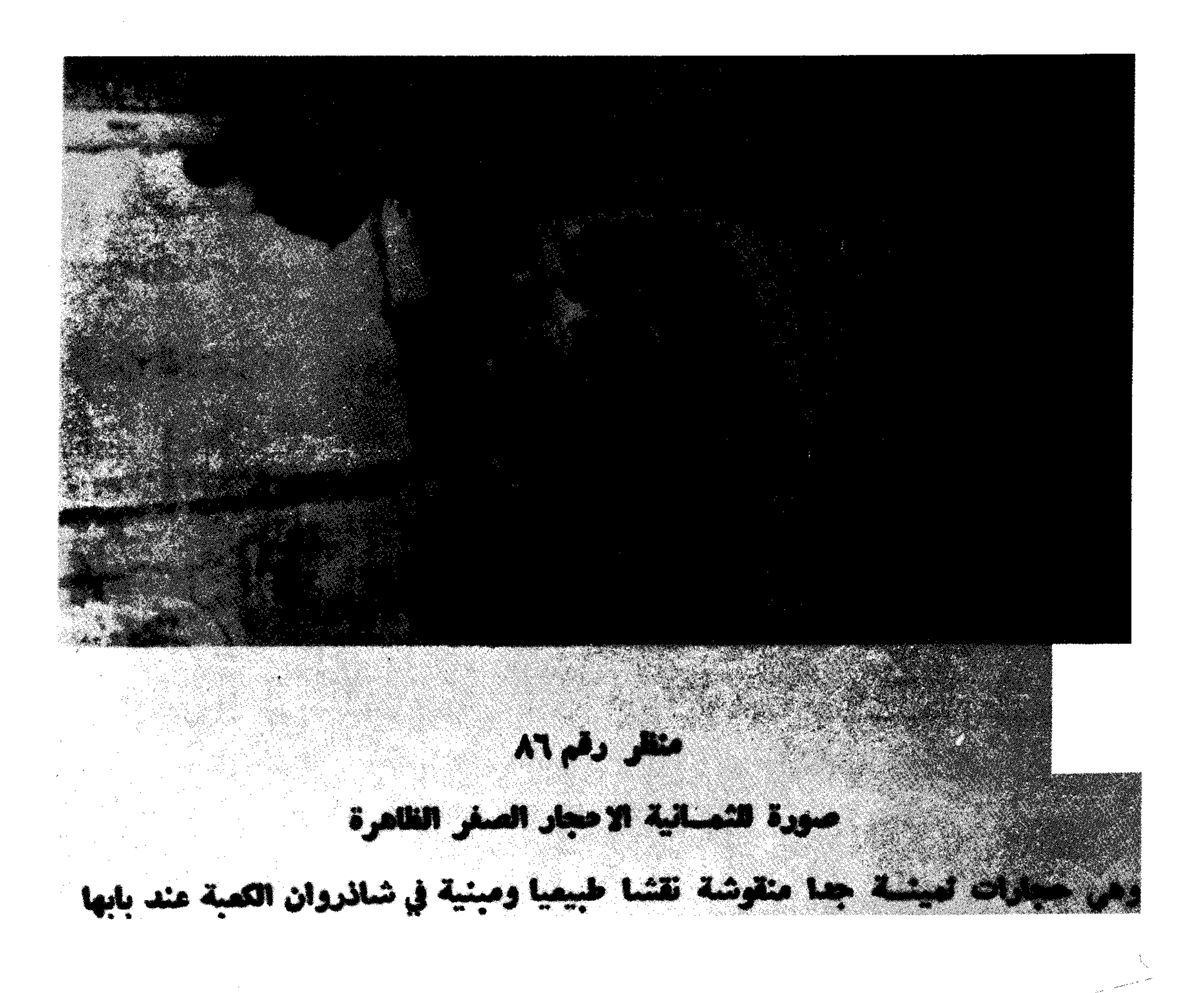
منظر رقم ٨٣

هذه صورة الحجر الاسود وتظهر منه ثماني قطع في زماناالیوم . أخذها مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط أسعده الله تعالى وذريته في الدارين آمين ،بأن وضع على نفس الحجر الاسود ورقة خفيفة ، ثم رسمه بالقلم من فوق الورقة قطعة قطعة ، وكان قبل زماننا أي منذ خمسين سنة تقريبا يظهر من الحجر الاسود خمسة عشر قطعة كما ستأتي صورته في هذا المبحث ، لقد أخذ مؤلف هذا الكتاب الصورة المذكورة بيده في غرة ربيع الاول سنة (١٣٧٦) الف وثلاثمائة وست وسبعين هجرية .

صورة رقم ٨٧



صورة رقم ٨٨


منظر رقم ٨٦
صورة الثمانية الاحجار الصفر القاهرة
وهي حجارات ثمينة جدا منقوشة نقشا طبيعيا ومبنية في شاذروان الكعبة عند بابها

صورة رقم ٨٩

منظر رقم ٨٨

صورة مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام وترى الناس يصلون خلفه
كما امر الله تعالى بقوله « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

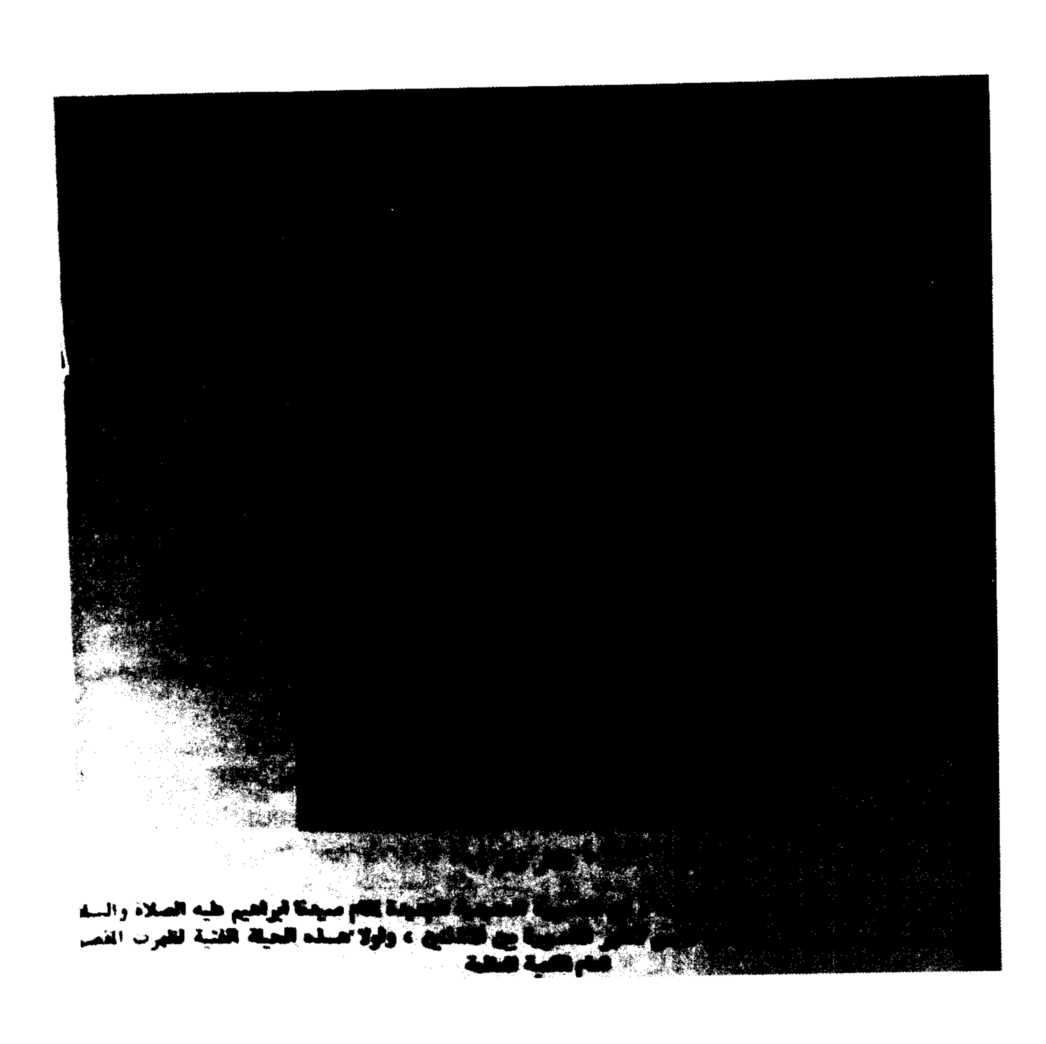
صورة رقم ٩٠



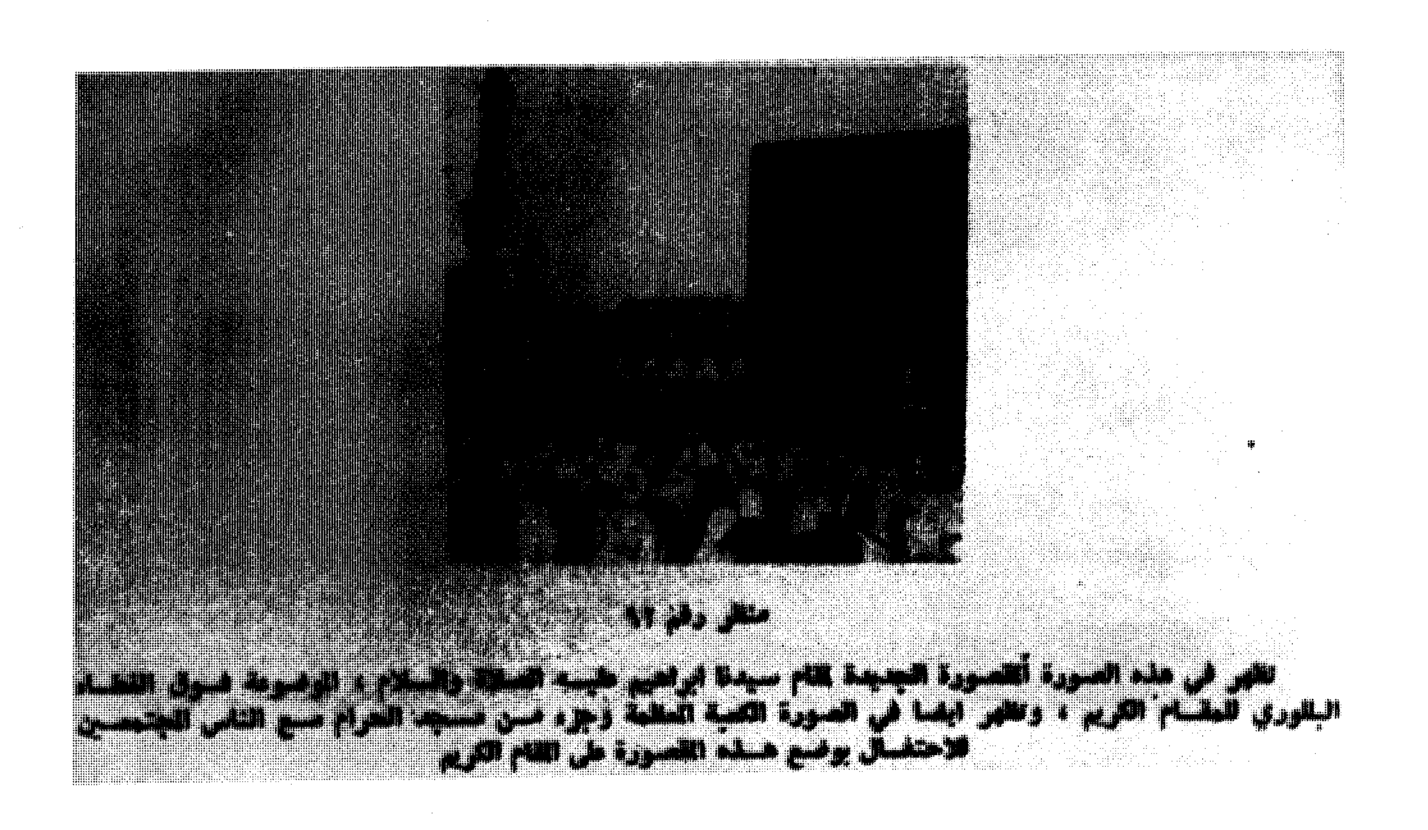
منظر رقم ٨٩

ورة مقام سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام اخذناها بالفتوغراف يوم فتحها ، ويظهر فيها سعاد
شيبي سادن بيت الله الحرام وابنه الشيخ عبد العزيز الشيبي وبينهما مؤلف الكتاب محمد طاهر
وبعض من حضر ذلك بالمسجد الحرام .

صورة رقم ٩١



صورة رقم ٩٢



منظر رقم ٩١

تظهر في هذه الصورة المقصورة الجديدة لمقام سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، الموضوعة فوق الغطاء البلوري للمقام الكريم ، وتظهر ايضا في الصورة القبة المعلقة (جزء من مسجد الحرام) مع الناس المجتمعين للاحتفال بوضع هذه المقصورة على المقام الكريم

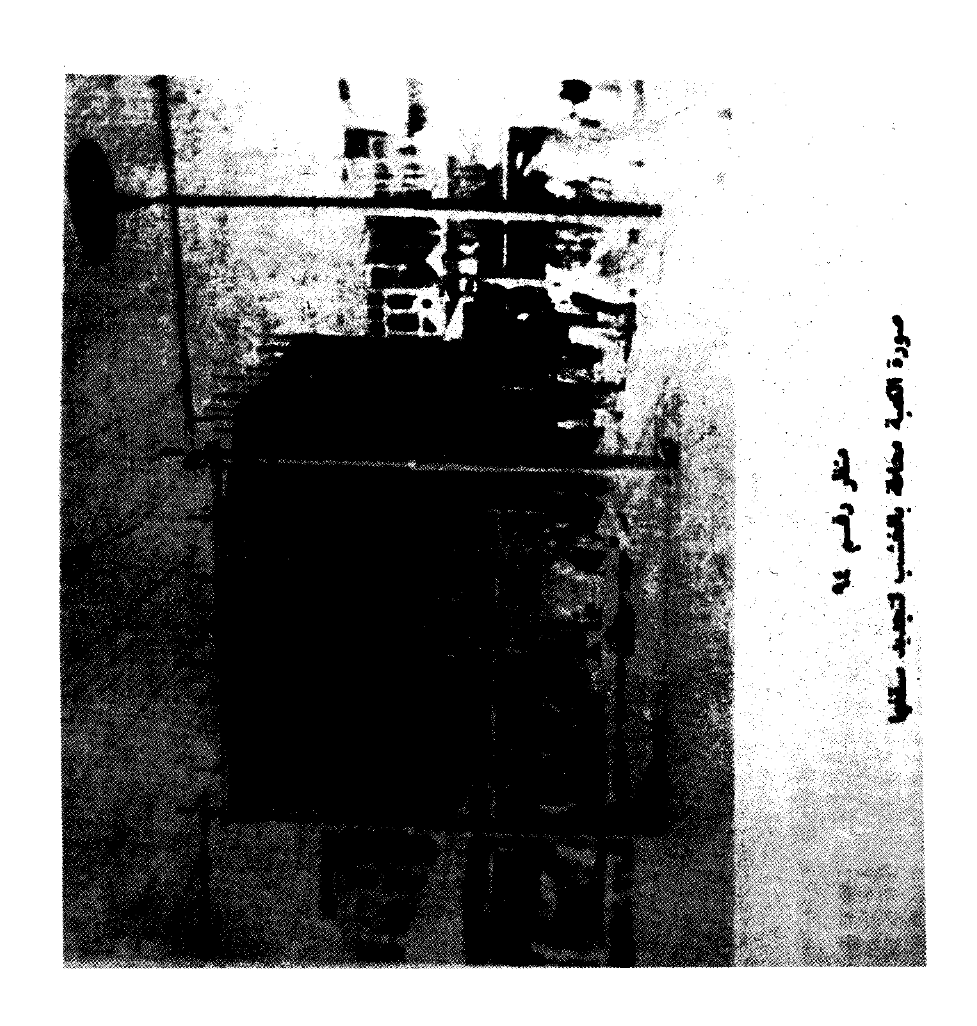
صورة رقم ٩٣

منظر رقم ٩٣

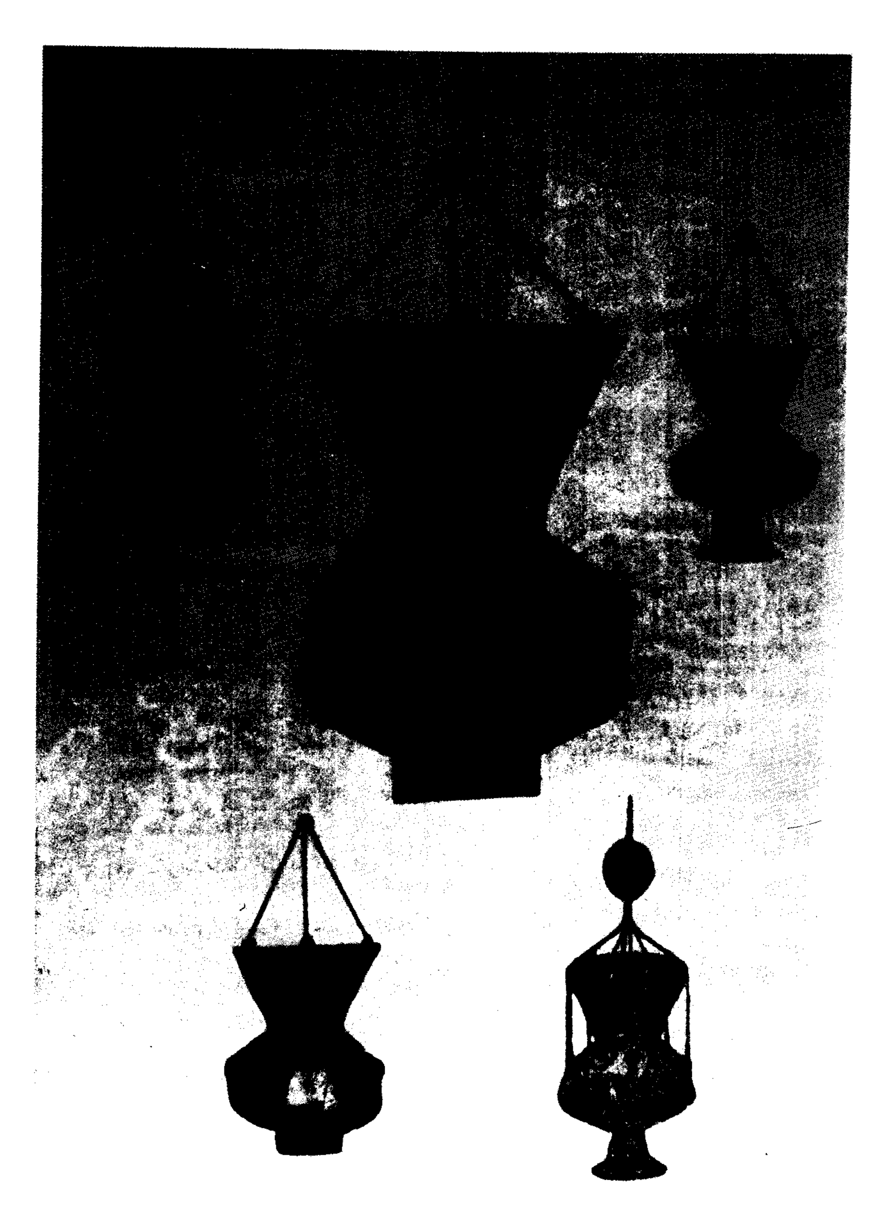
صورة المقصورة الحديدية الجديدة لمقام سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام الموضوعة فوق الغطاء البللوري له في يوم ١٨ رجب سنة (١٣٨٧) هجرية

واليك بعض البيانات ايضا عن تجديد مقصورة المقام الكريم والغطاء الزجاجي بالتفصيل :

صورة رقم ٩٤



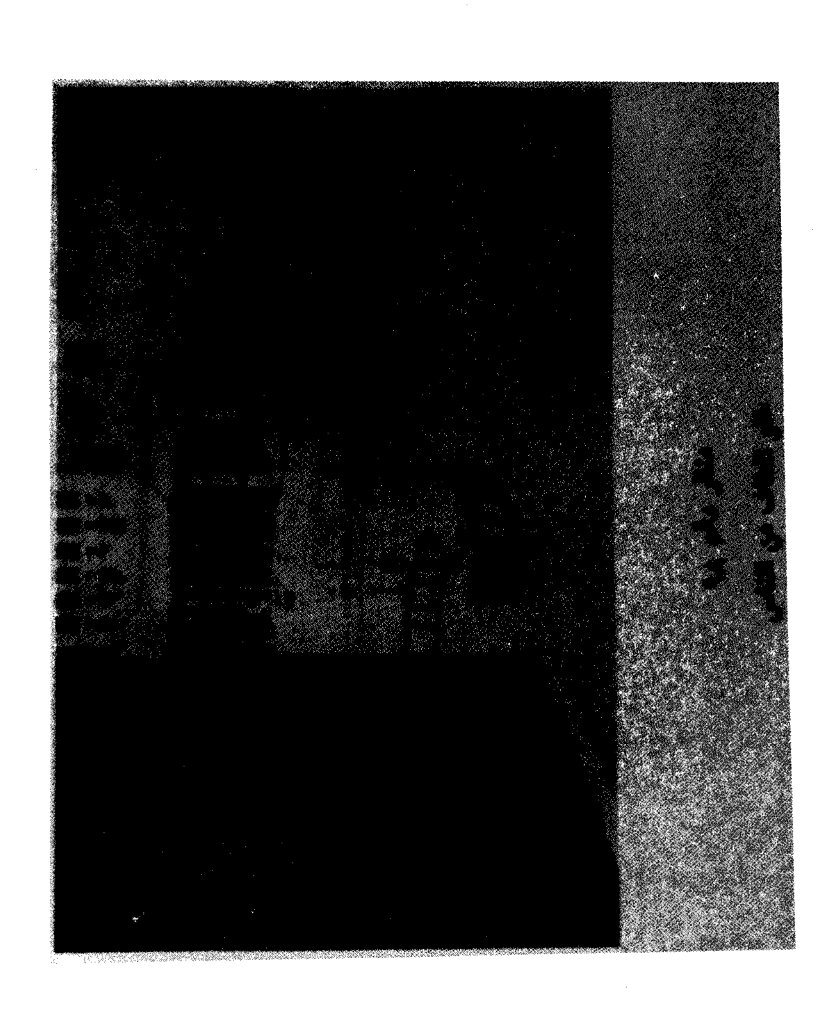
صورة رقم ٩٥



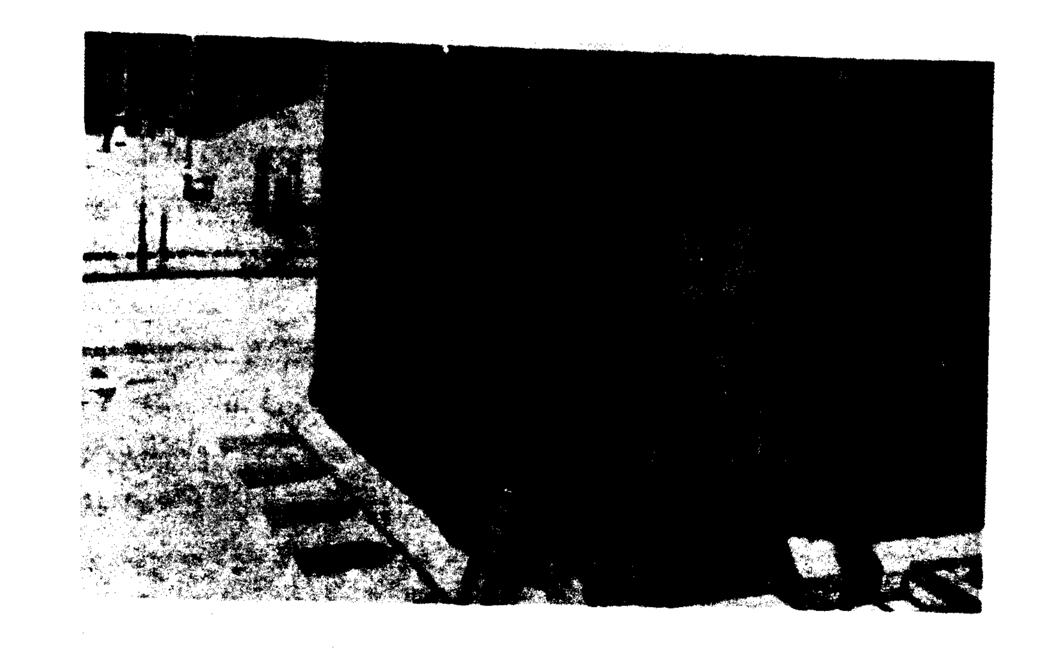
منظر رقم ٩٧

معاليق الكعبة

صورة رقم ٩٦



صورة رقم ٩٧



منظر رقم ٩٩

خلو صحن المسجد من الناس

صورة رقم ٩٨



صورة رقم ٩٩

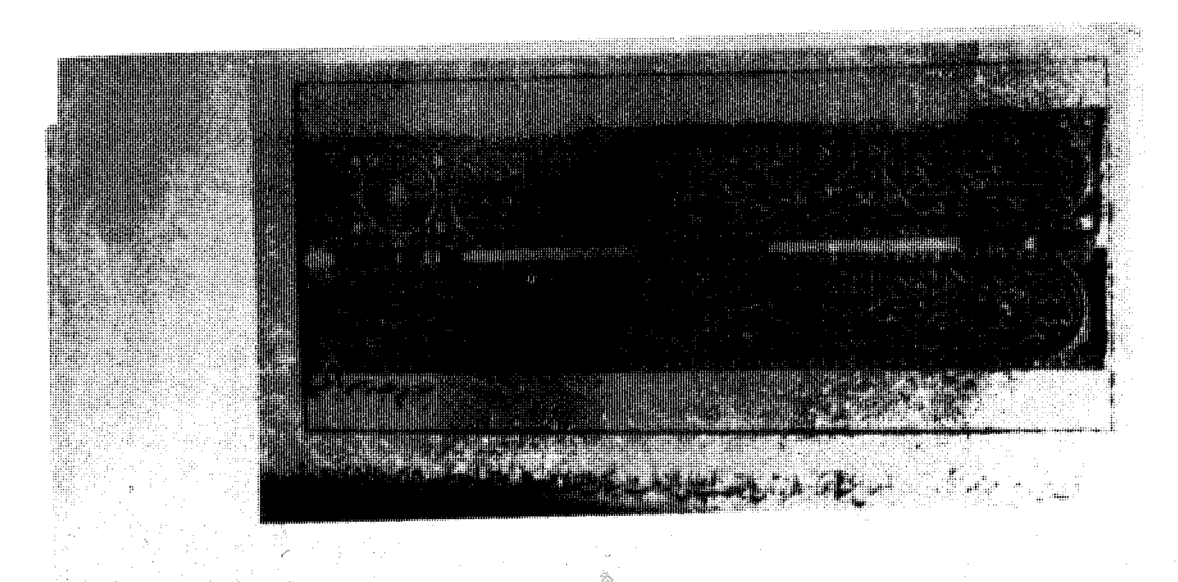


منظر رقم ١٠٢

كسوة الكعبة المعظمة الحمراء التي كسيت بها من داخلها من السلطان عبد العزيز خان العثماني

الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة

صورة رقم ٢٠٠



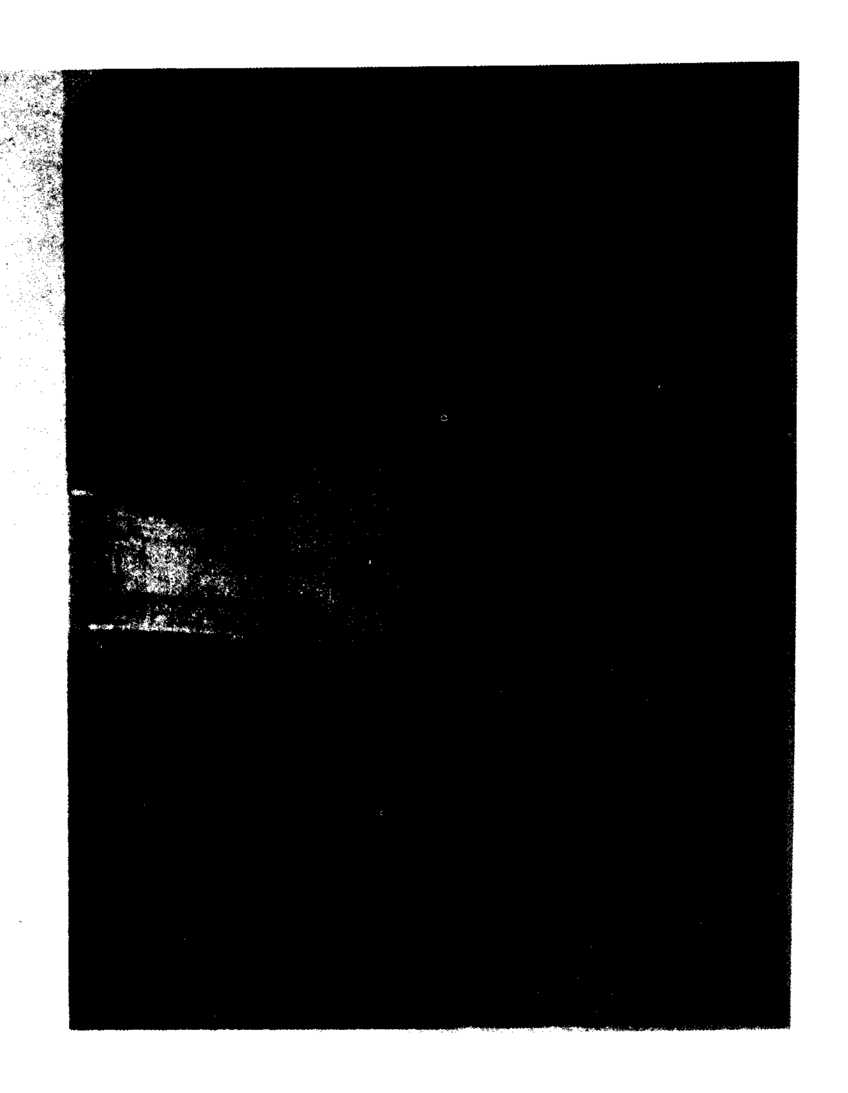
منظر رقم ١٠٣

جزء من حزام الكعبة المشرفة وتظهر فيه بعض الآيات القرآنية

كسوة الكعبة المشرفة بمكة المكرمة لأول مرة في سنة ١٣٤٦ هجرية واستمر صنعها بمكة

خلاف بين المملكة السعودية والحكومة المصرية اقفل المصنع بمكة لتعهد الحكومة

صورة رقم ١٠١

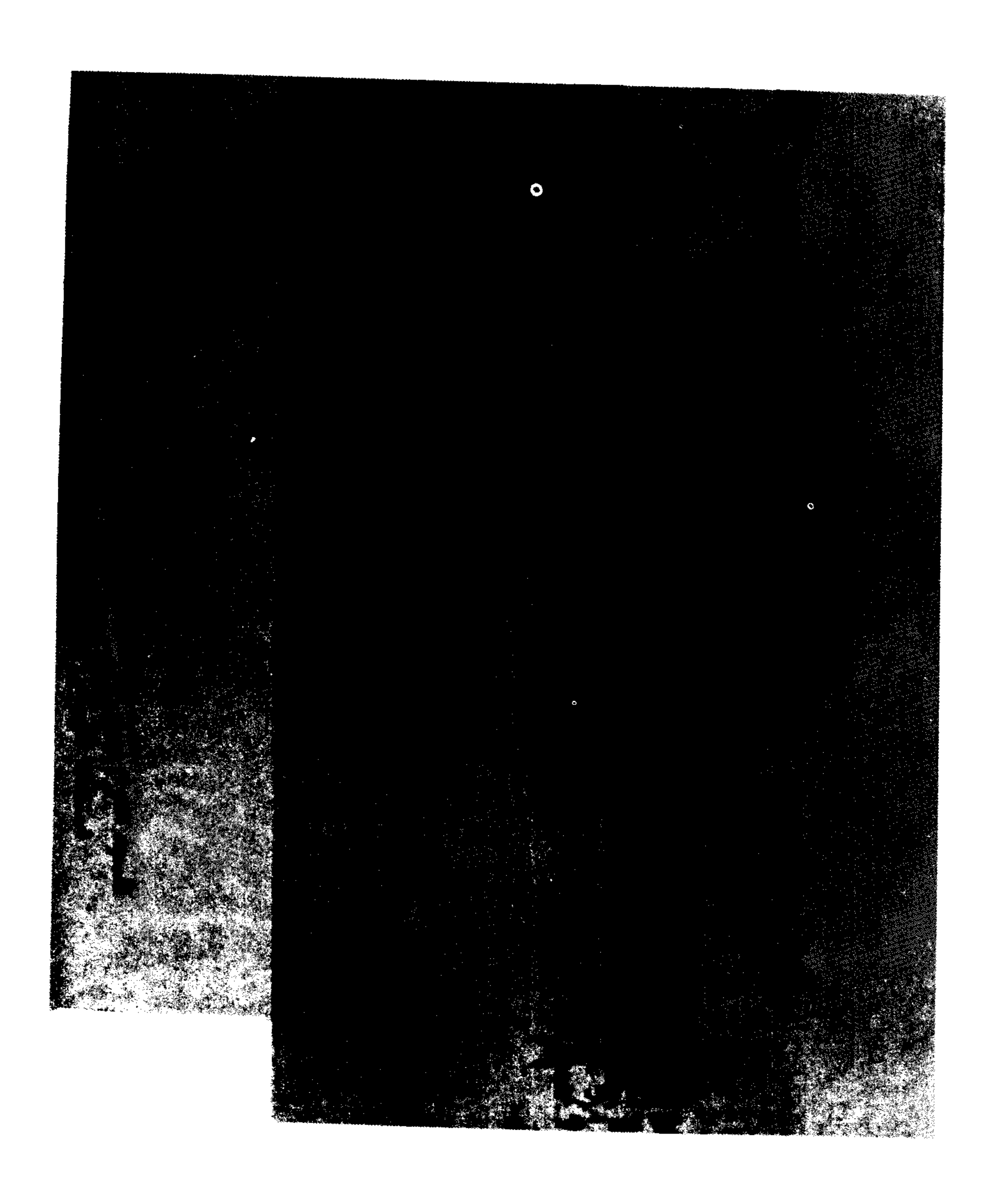

منظر رقم ١٠٤
الكعبة المشرفة ويظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام

صورة رقم ١٠٢

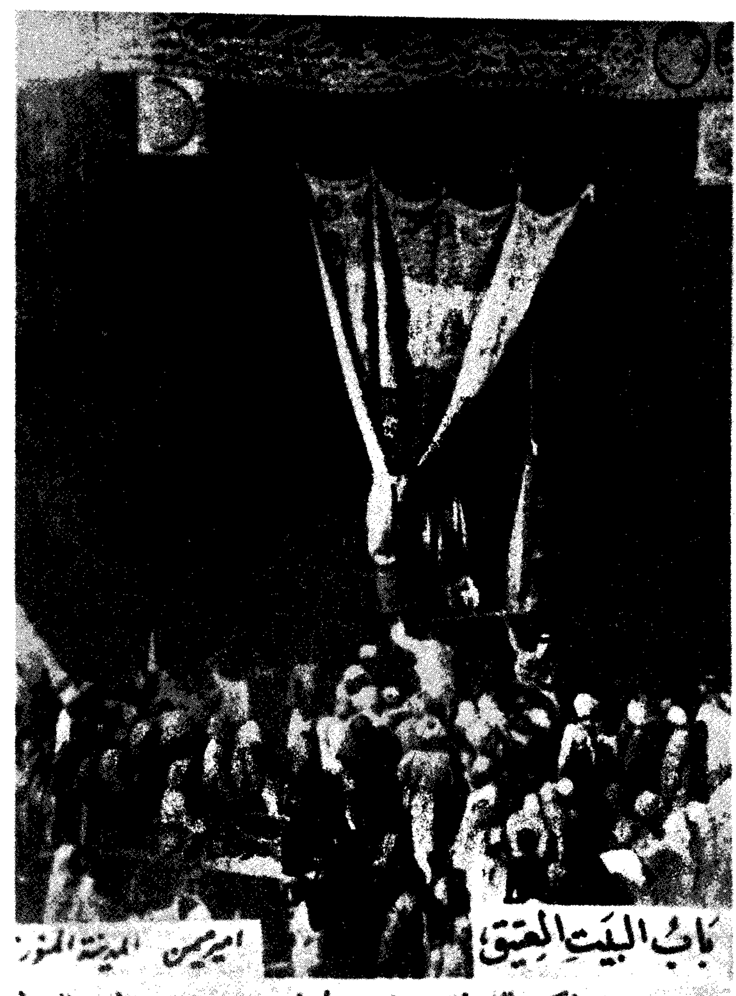
منظر رقم ١٠٥

وضع الكسوة الجديدة فوق الكعبة وخياطتها

وتظهر فوقها الاخشاب والكرسي الذي يجلس عليه الخياط



صورة رقم ١٠٤

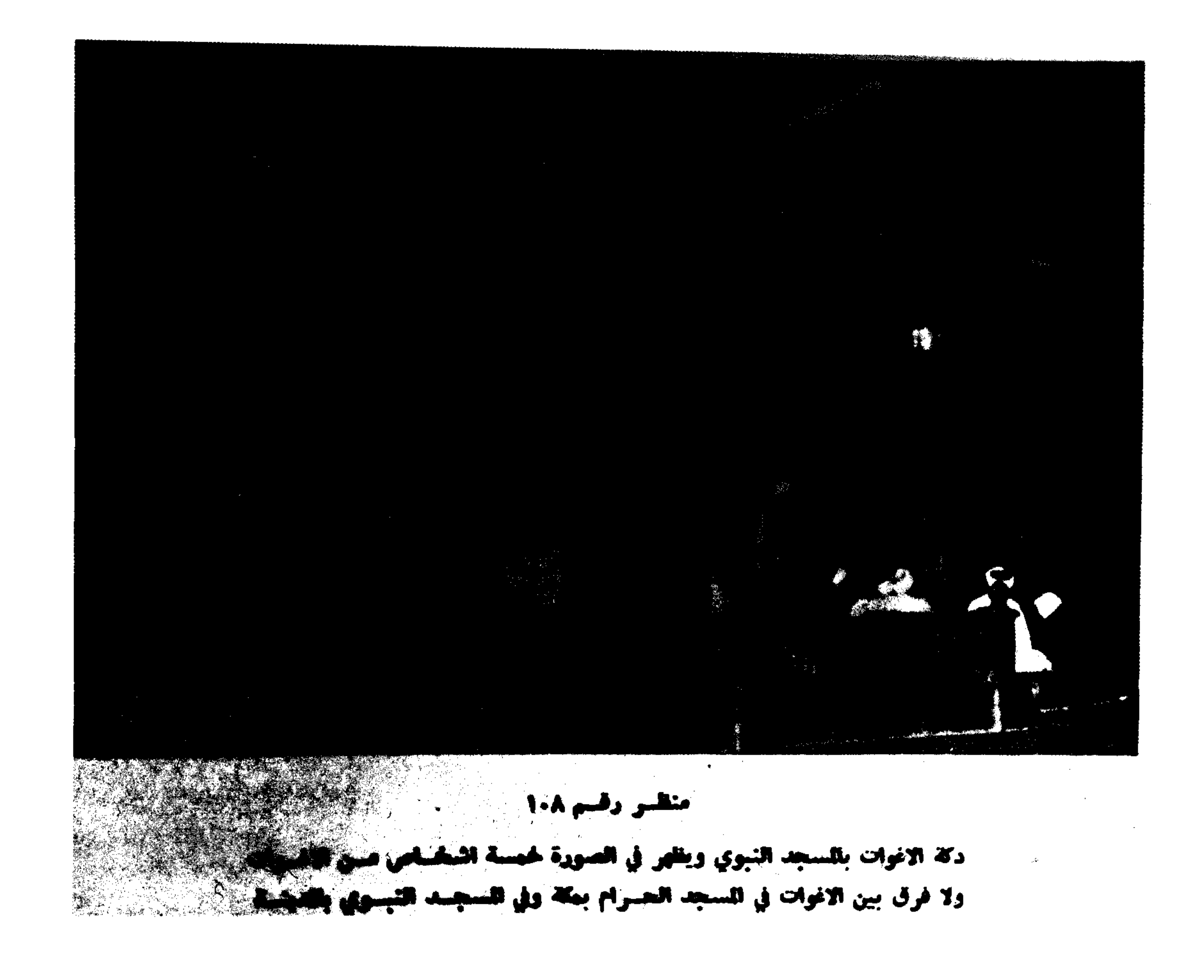


منظر رقم ١٠٧

صورة الكعبة المشرفة

ويظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام

ة رقم ١٠٥


منظر رقم ١٠٨
دكة الاغوات بالمسجد النبوي ويظهر في الصورة خمسة اشخاص من
ولا فرق بين الاغوات في المسجد الحرام بمكة وفي المسجد النبوي

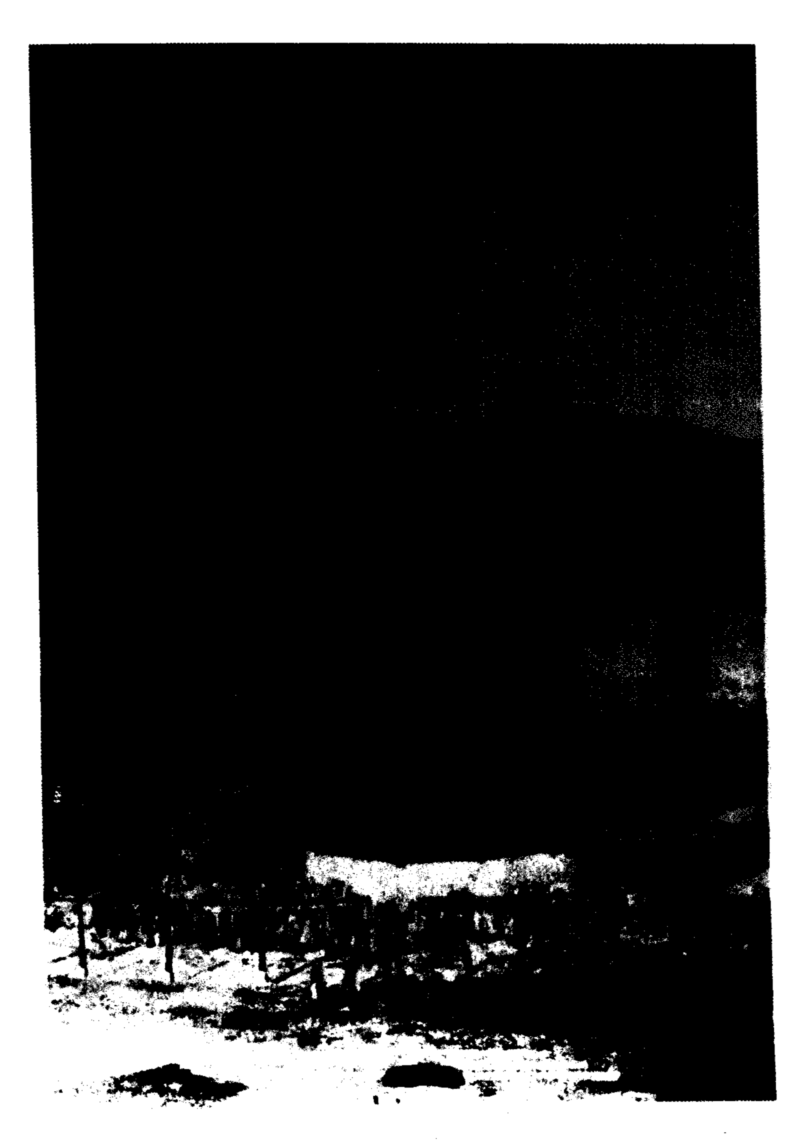
صورة رقم ١٠٦



منظر رقم ١٠٩

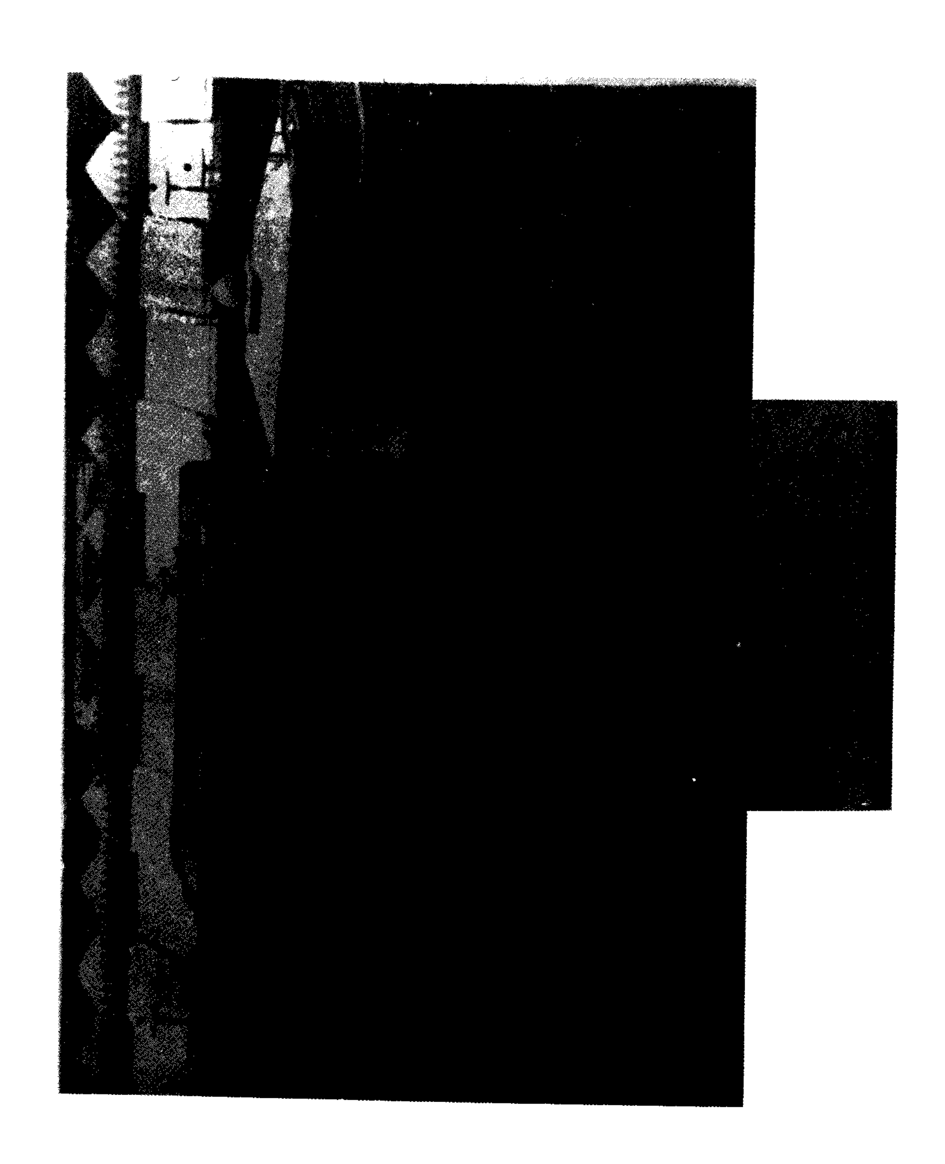
صورة خليل اغا الطواشي الشهور

صورة رقم ١٠٧

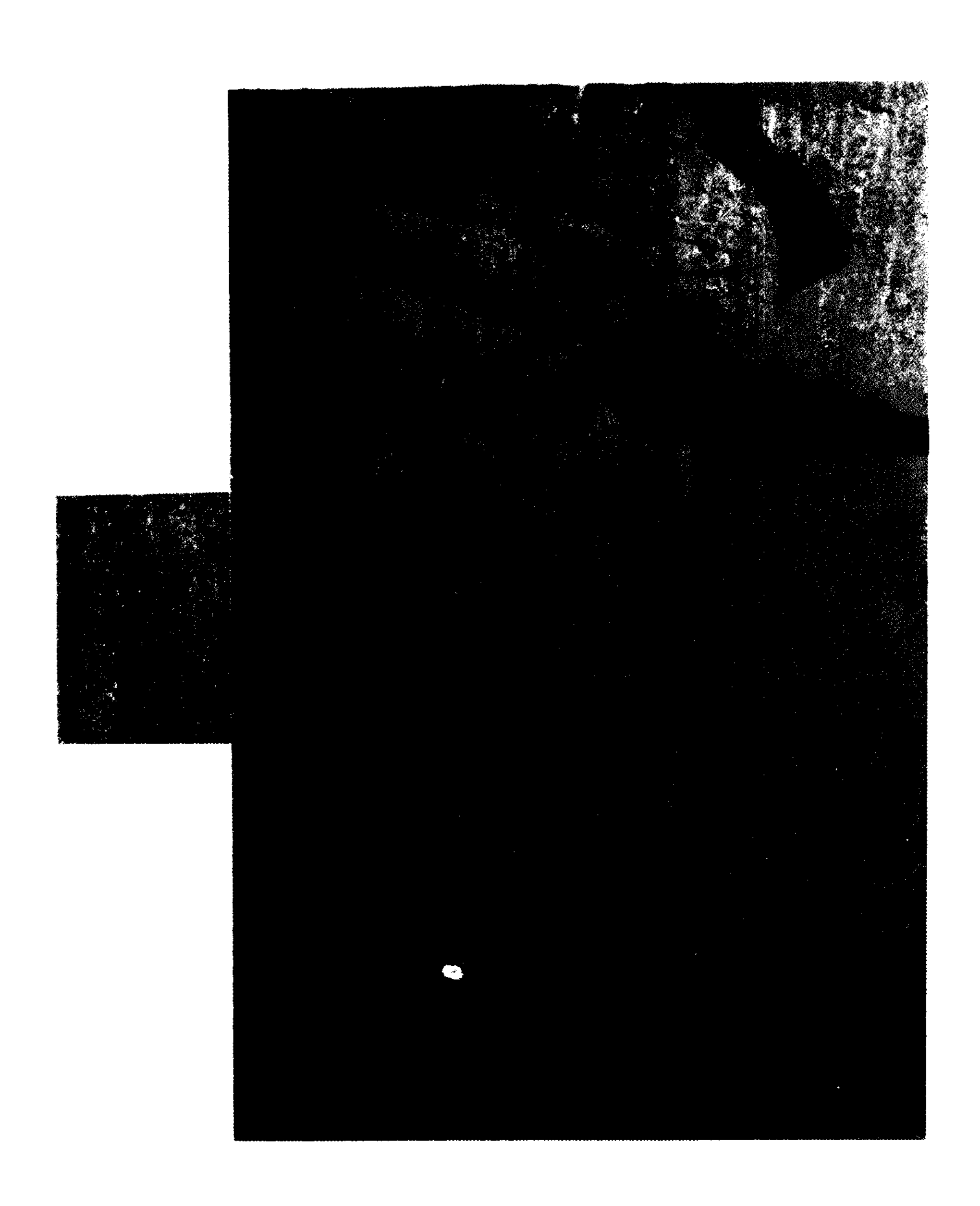


منظر رقم ١١٠

المسجد الحرام وترى فيه الكعبة المعظمة وقد وضعوا في اسفلها ازارا من القماش الابيض تشبيها بالاحرام



صورة رقم ١٠٩



صورة رقم ١١٠



منظر رقم ١١٢

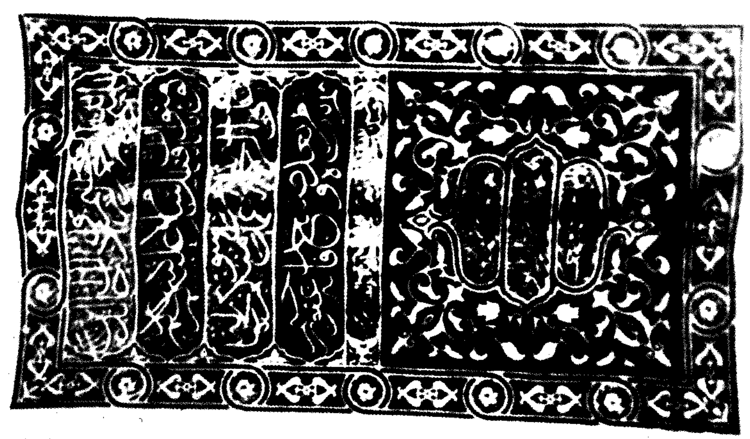
الحجاج في عرفات

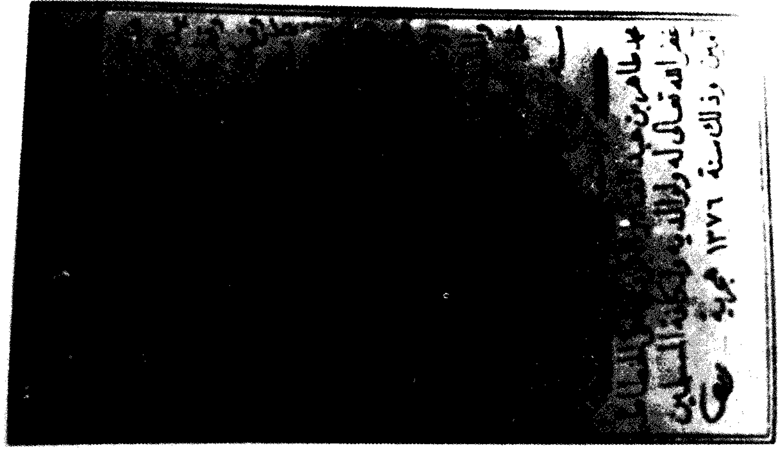
صورة رقم ١١١



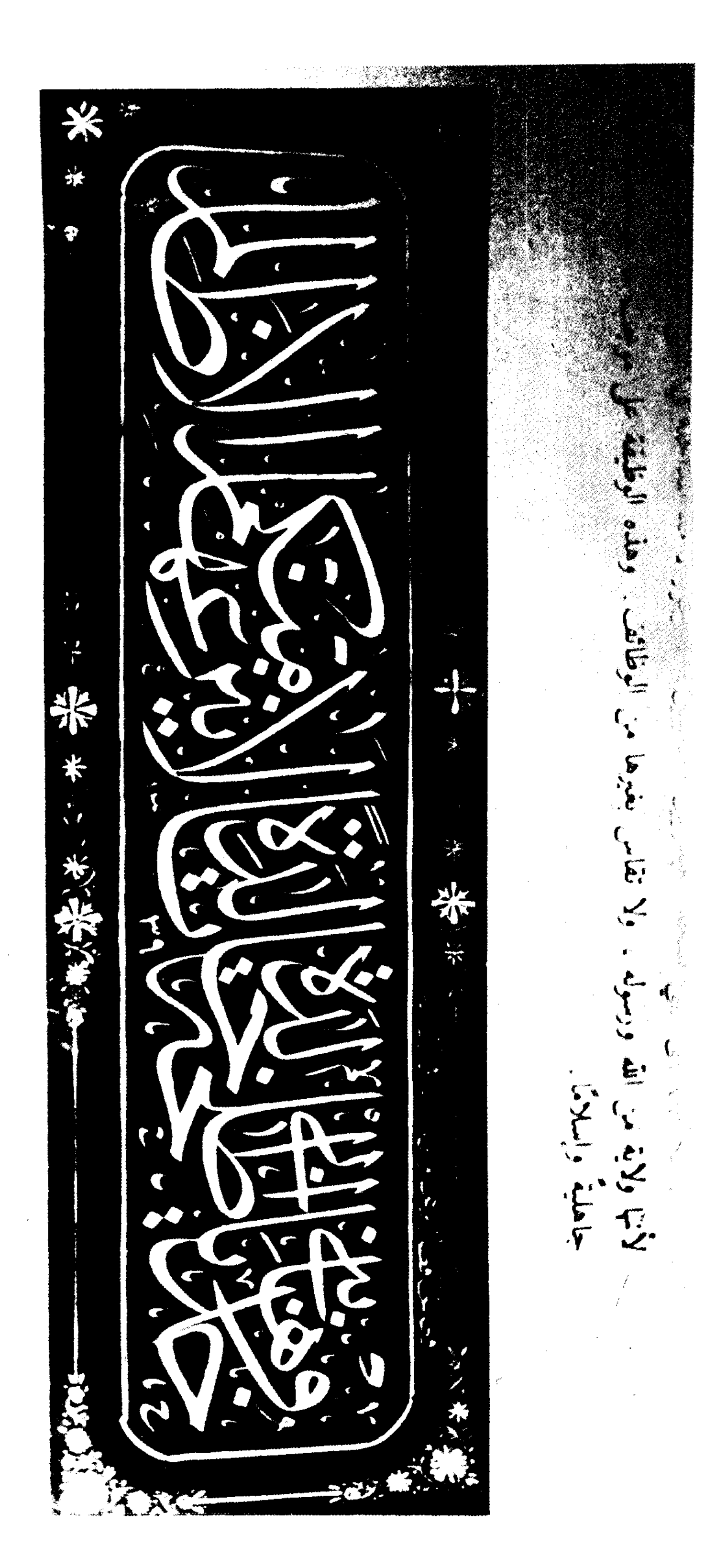
منظر رقم ١١٤
المسجد الحرام

صورة رقم ١١٢





صورة رقم ١١٤



صورة رقم ١١٥



مصور رقم ١٢٢

صورة الشيخ عبد القادر ابن
علي الشيبي المتوفى في شهر
رمضان سنة (١٣٥١) هجرية
رحمه الله تعالى وهو باللباس
الرسمي الذي كان مستعملاً في
زمانه في المناسبات الخاصة

صورة رقم ١١٦



منظر رقم ١٢٣ :

صورة الشيخ عبد الله الشيبي سادن بيت الله الحرام ونائب رئيس مجلس الشورى . المتوفى في رمضان سنة (١٣٧١) هـ .

صورة رقم ١١٧



منظر رقم ١٢٤ :

أمين بن عبدالله الشيبي رئيس السدنة وتولى السدانة بعد وفاة المرحوم الشيخ محمد الشيبي في عام ٨٢ . ولادته عام [illegible]

صورة رقم ١١٨



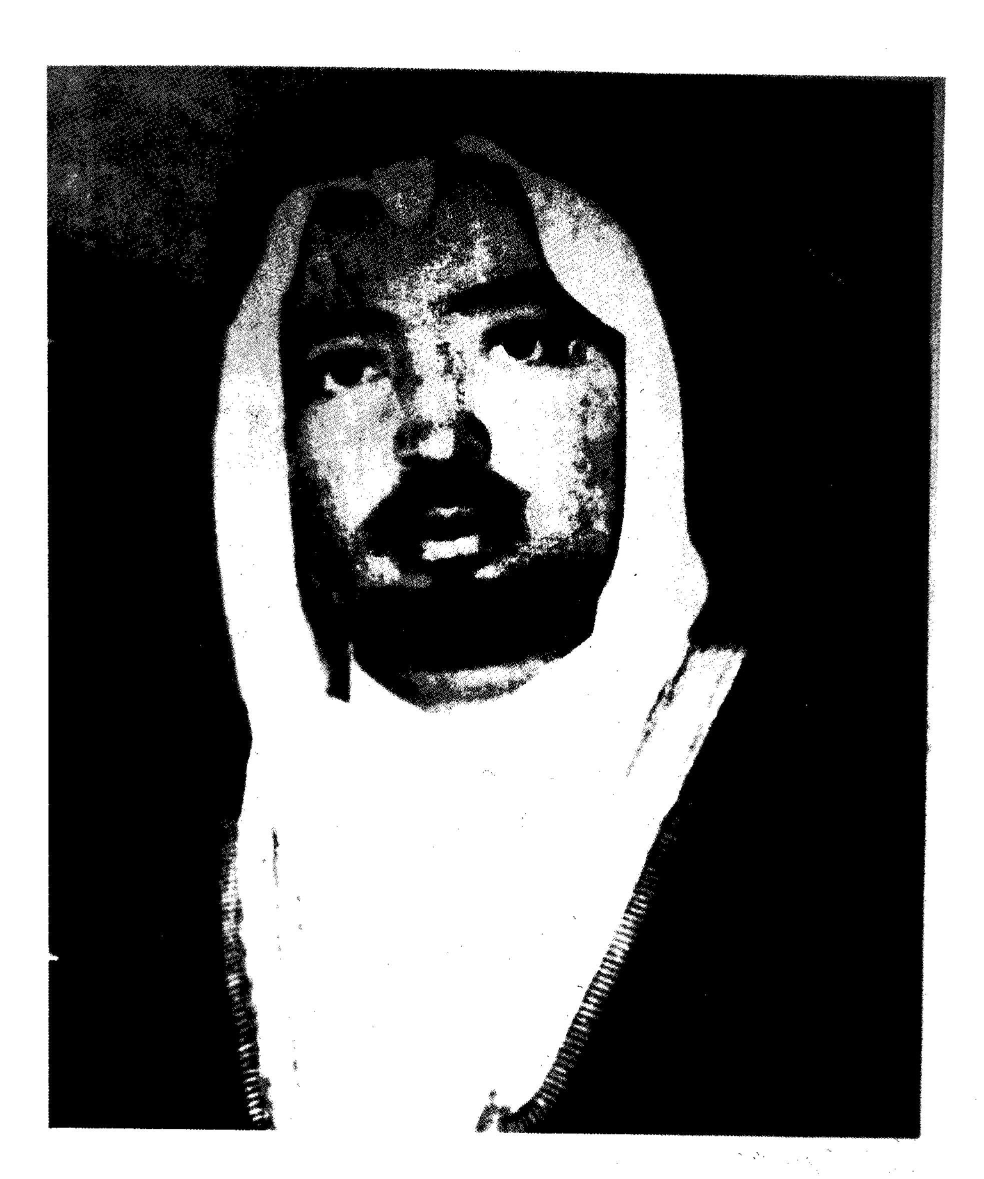
صورة رقم ١١٩



صورة رقم ١٢٠



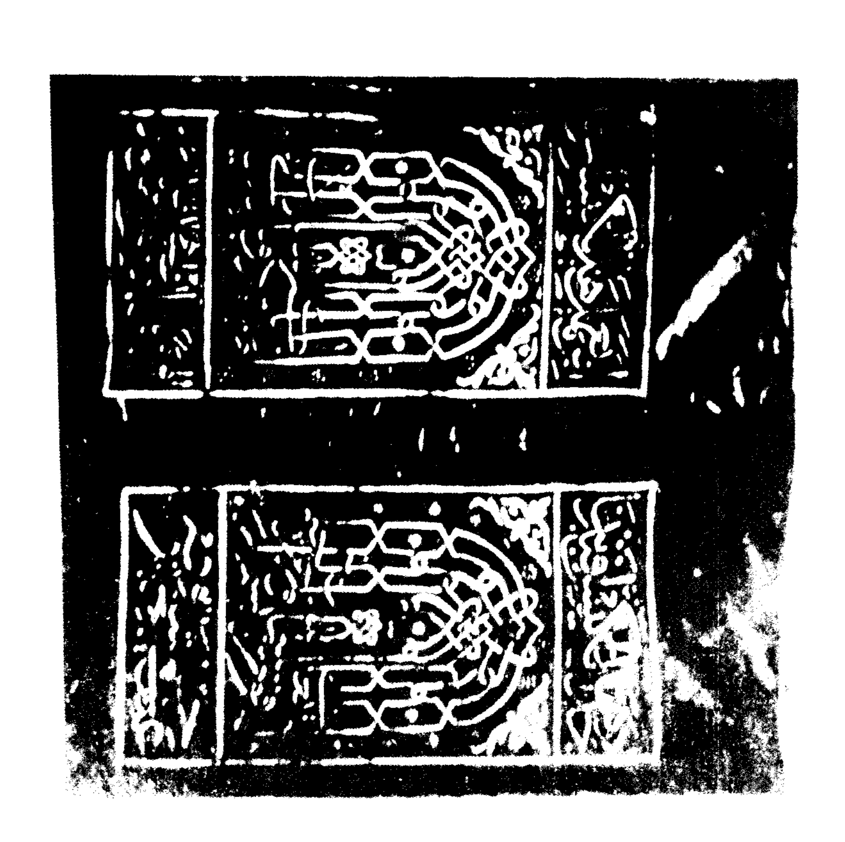
صورة رقم ١٢١



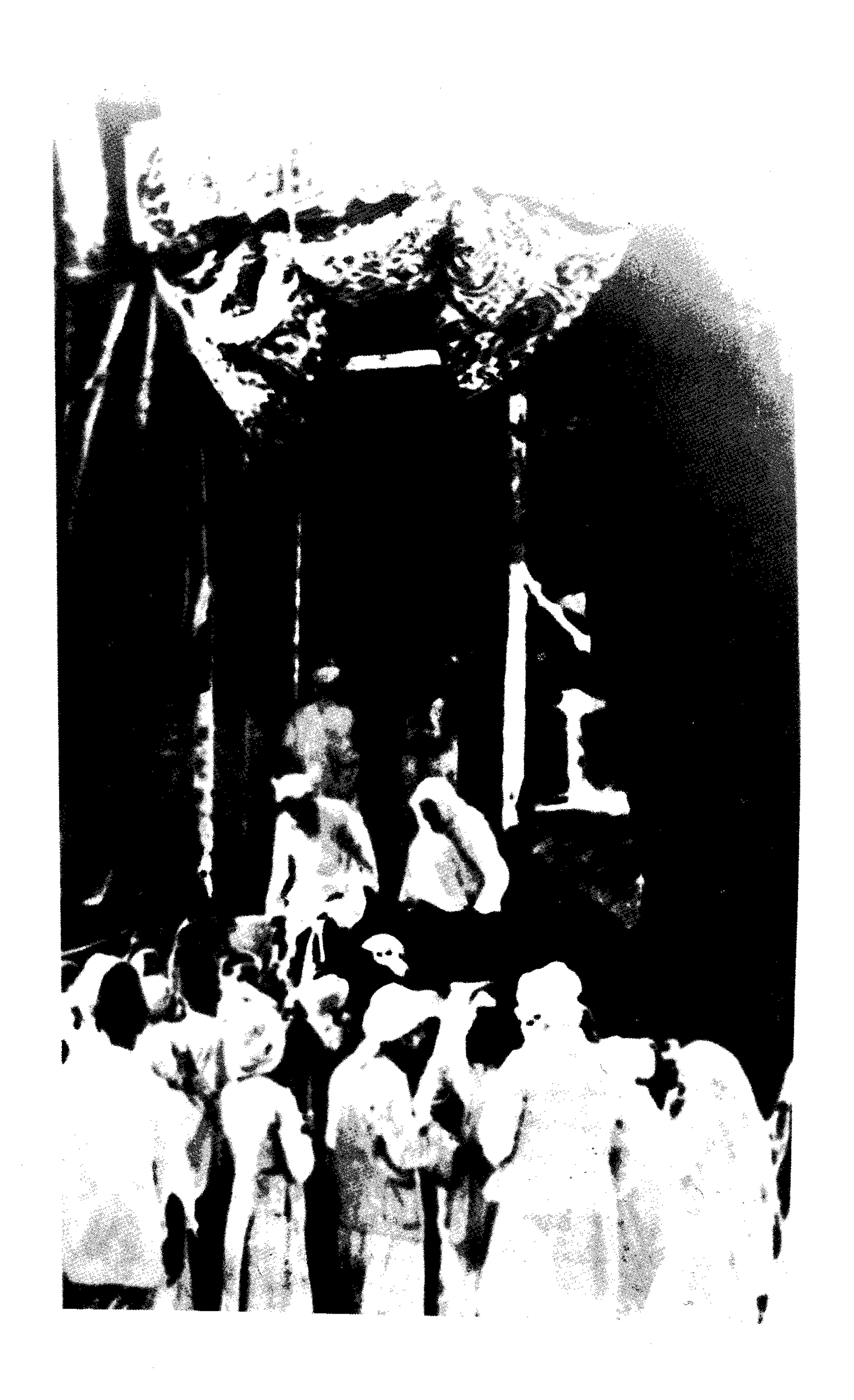
محضر رقم ١٢٨

سراج بن عبد الله الشبي

صورة رقم ١٢٢



صورة رقم ١٢٣

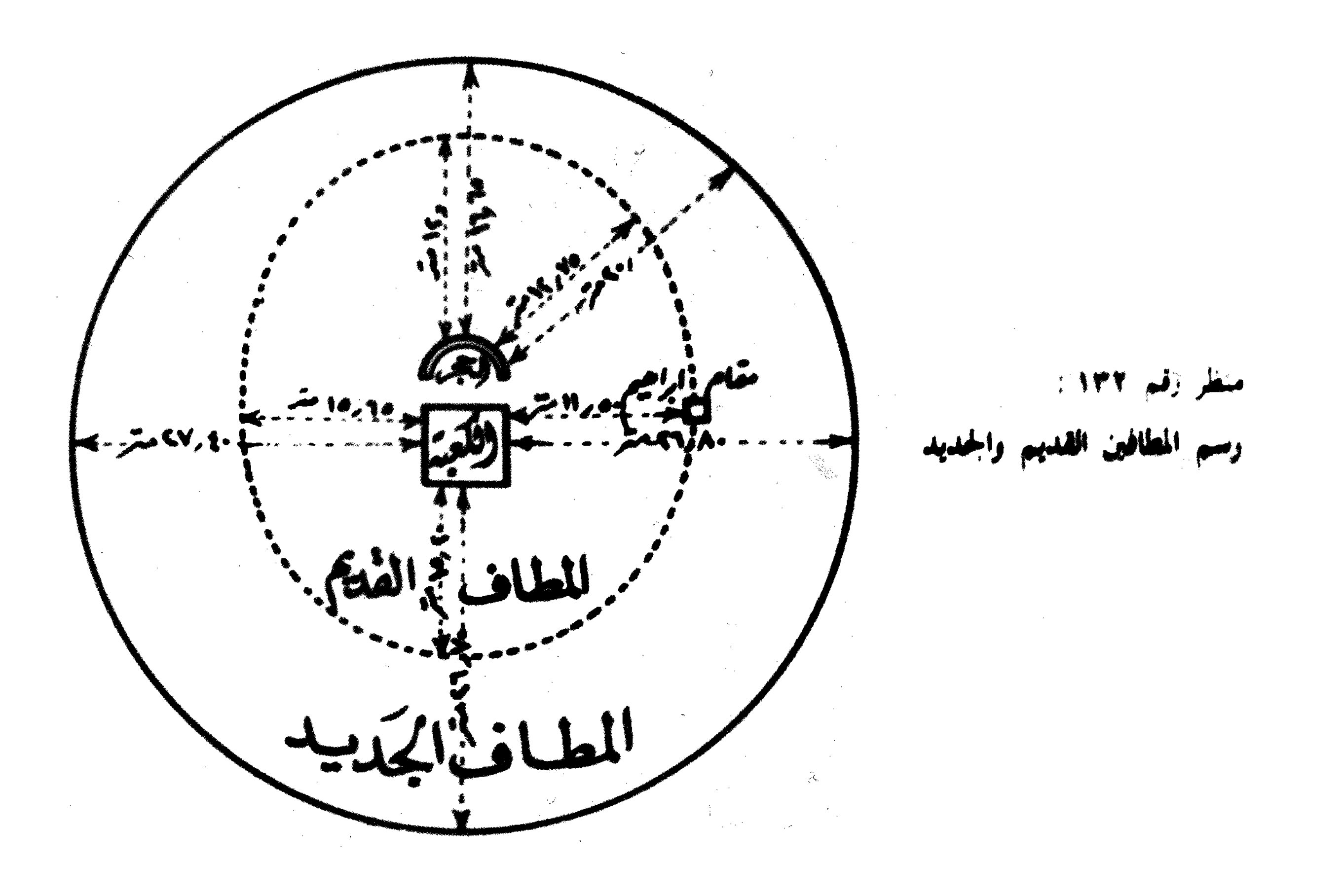


صورة رقم ١٢٤

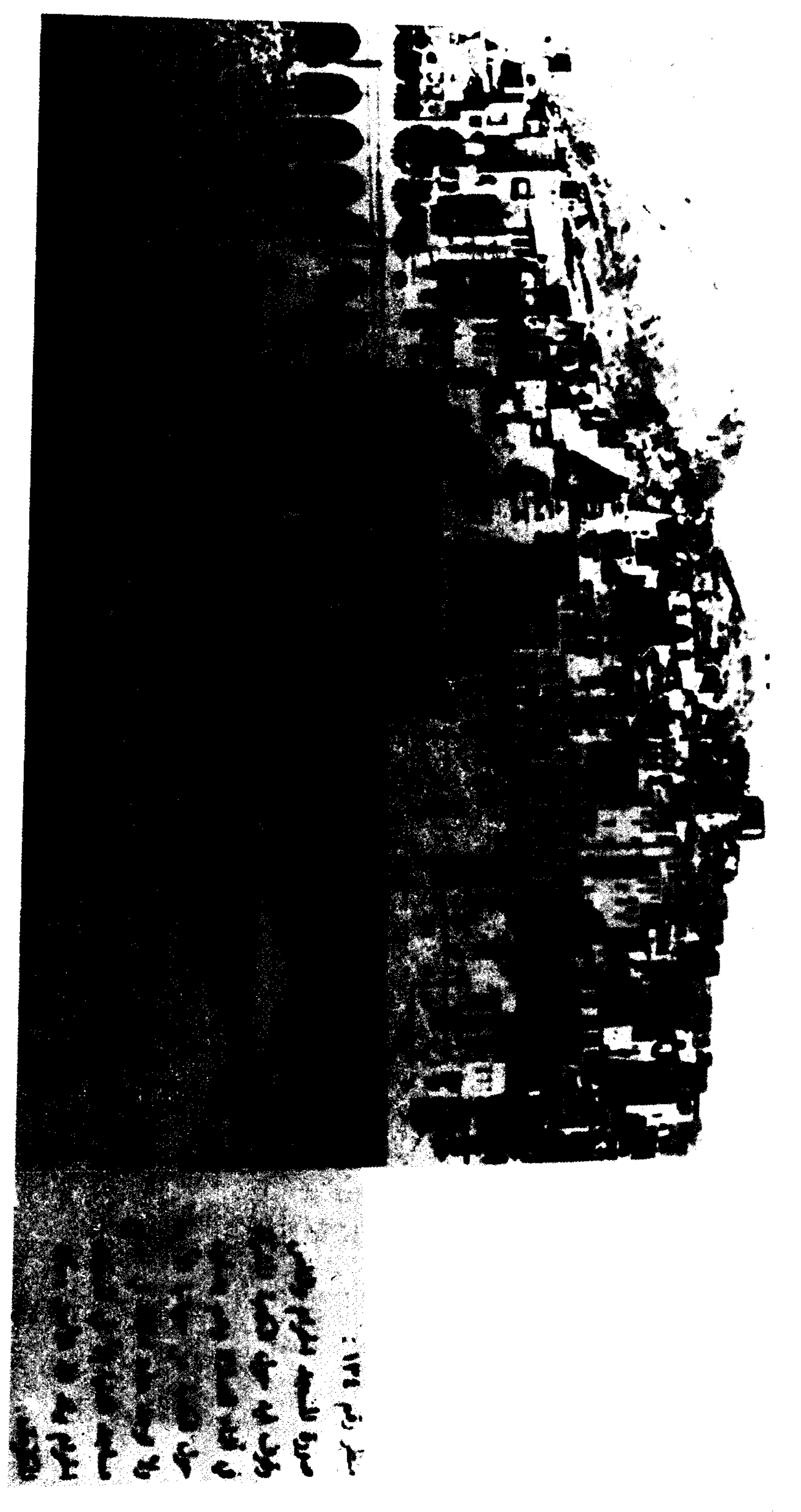


صورة رقم ١٢٥

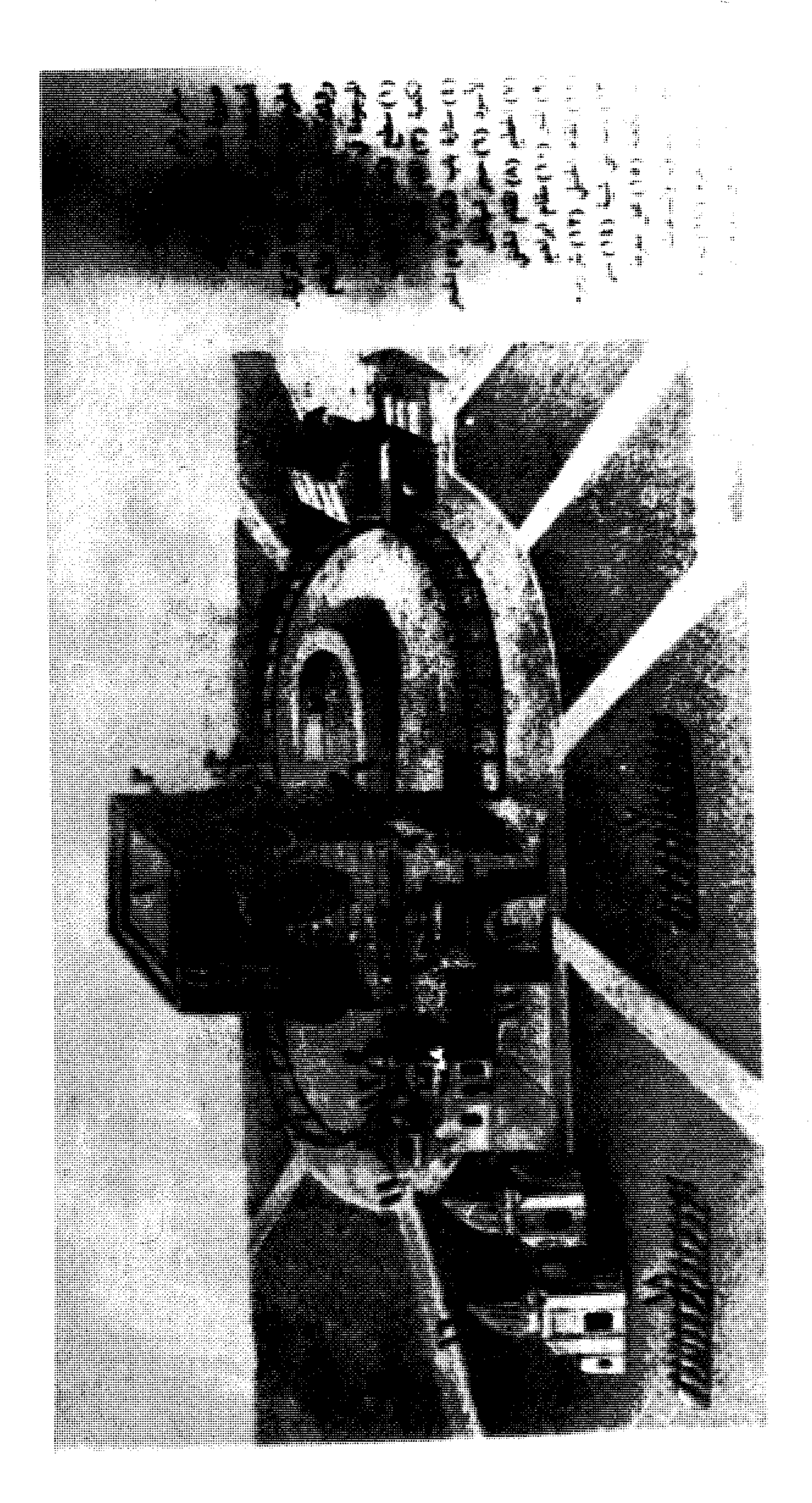
مخطط رقم ١٣٢ :
رسم المطافين القديم والجديد



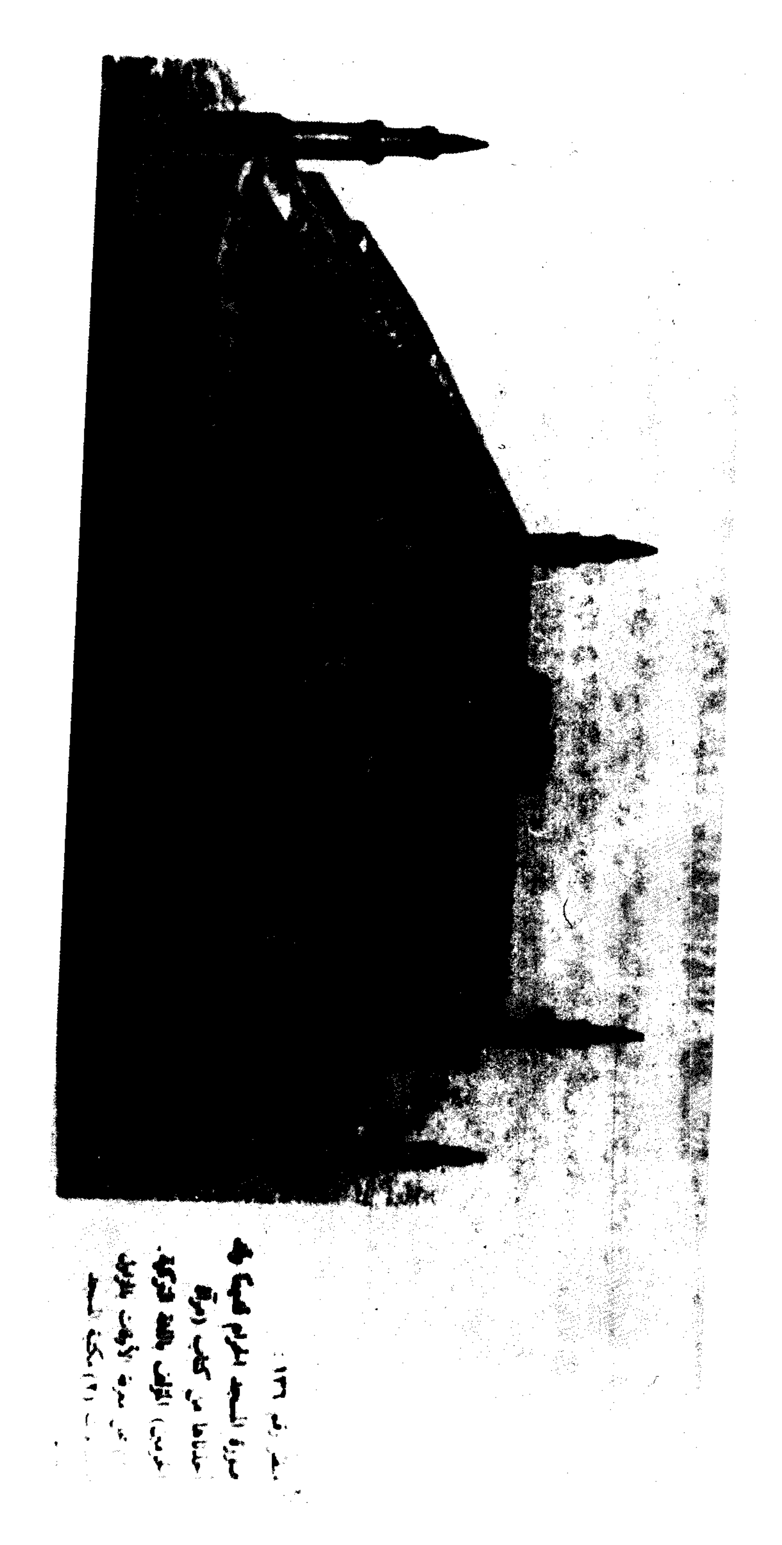
صورة رقم ١٢٦



صورة رقم ١٢٧



صورة رقم ١٢٨



صورة رقم ١٢٩



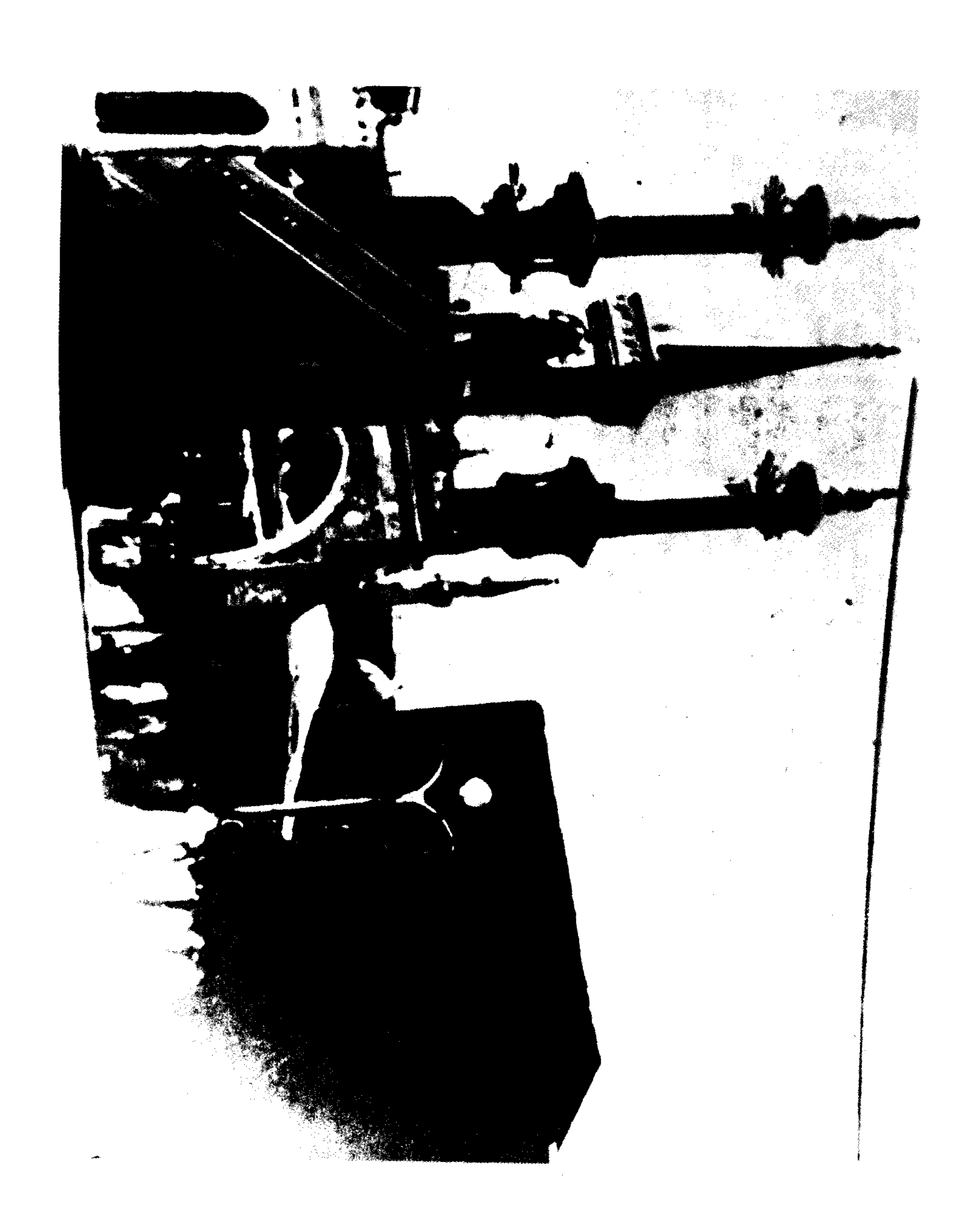
صورة رقم ١٣٠



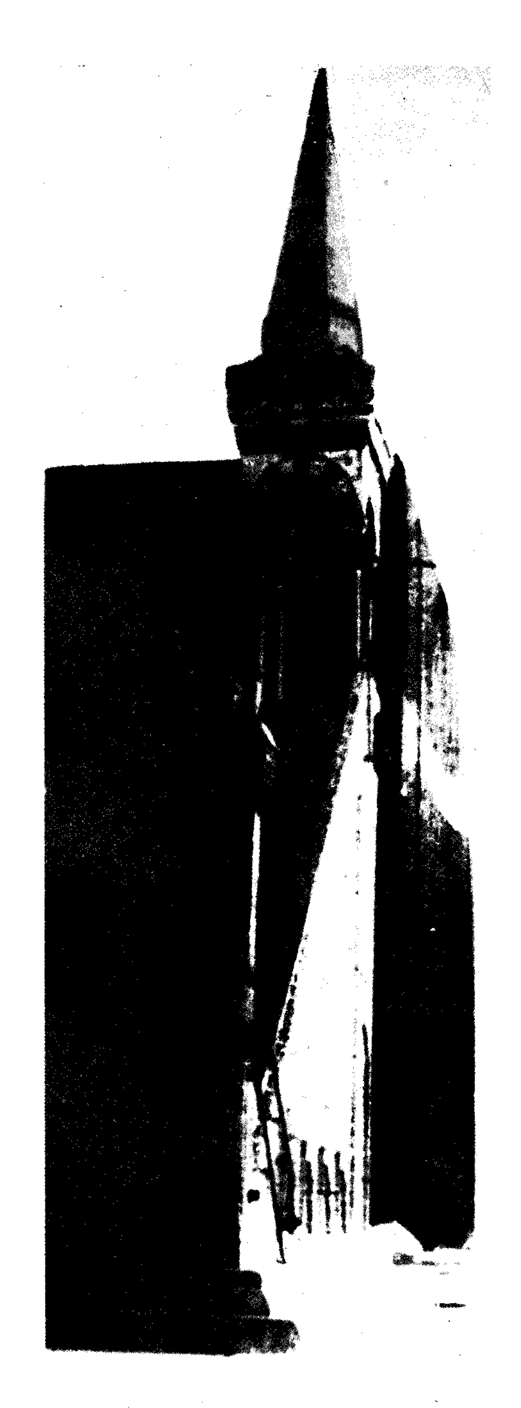
صورة رقم ١٣١



صورة رقم ١٣٢



صورة رقم ١٣٣



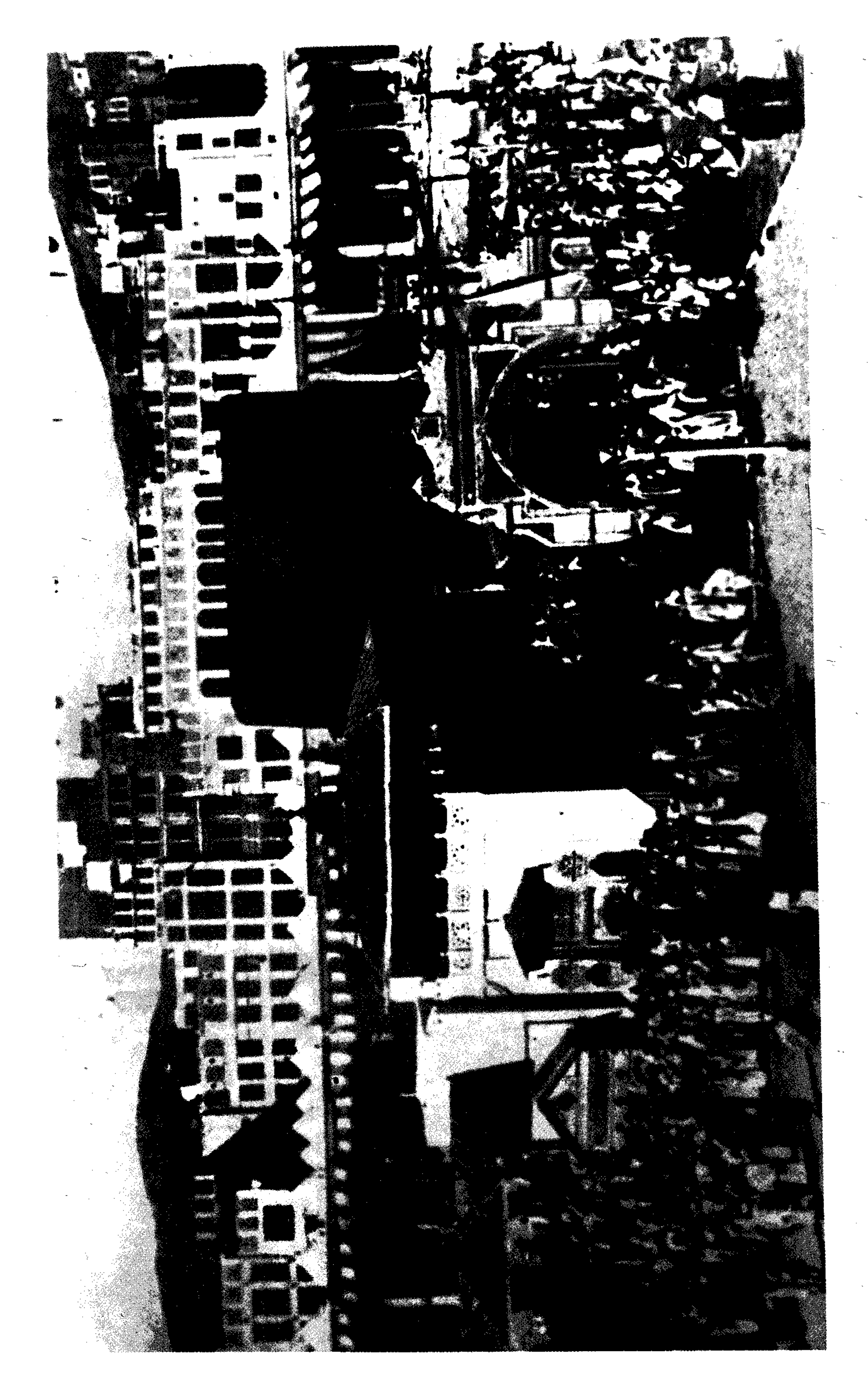
منظر رقم ١٤١ :

صورة المنبر القديم

صورة رقم ١٣٤



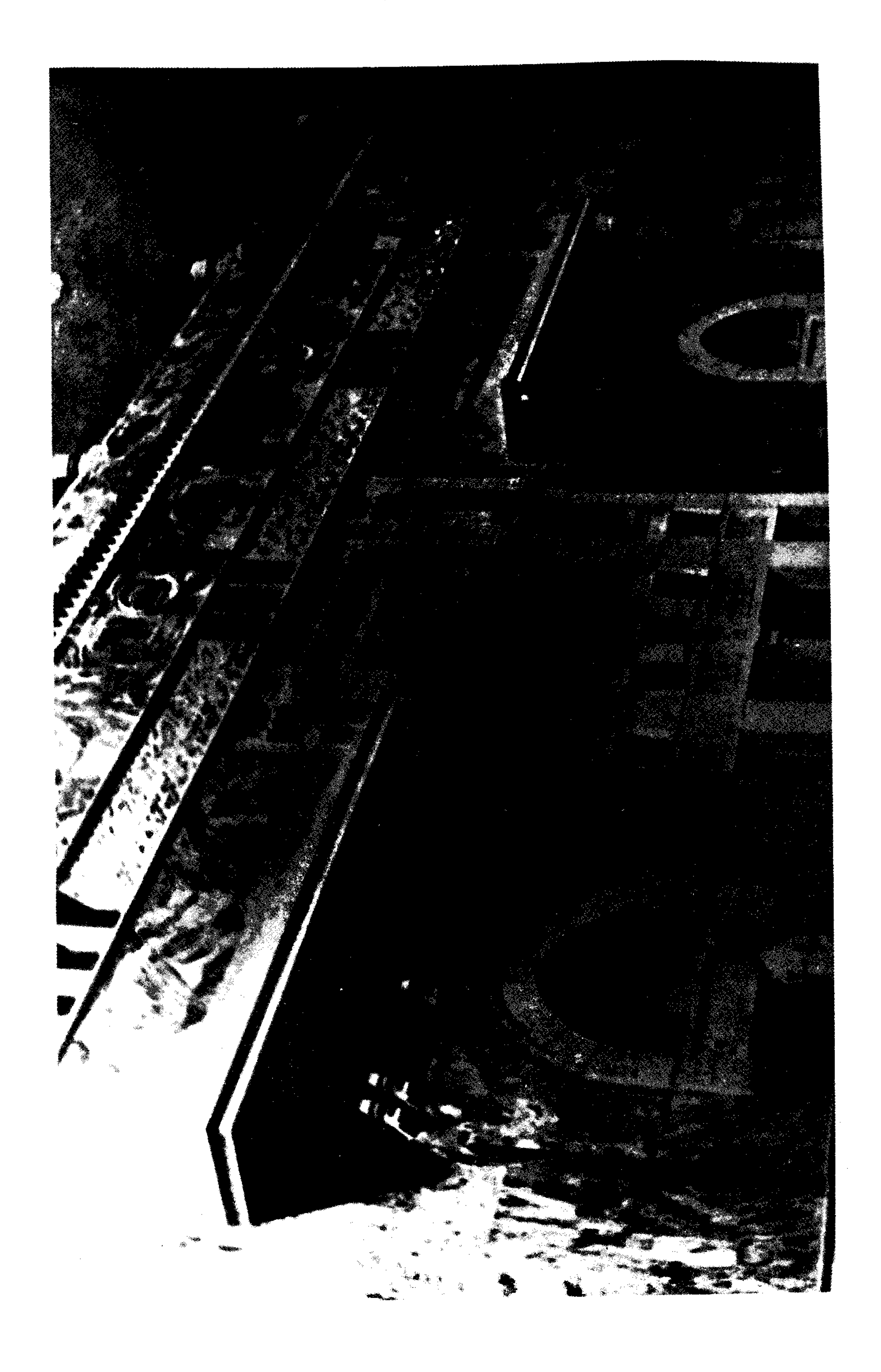
صورة رقم ١٣٥



صورة رقم ١٣٦



صورة رقم ١٣٧



صورة رقم ١٣٨



صورة رقم ١٣٩

